بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

تاريخ الخلفاء

الجزء الثّاني

رسول جعفريان

ترجمة الدكتور علي هاشم الأسدي

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الخلفاء

الجزء الثاني

رسول جعفريّان

شبكة الفكر
alfeker.net

ترجمة:

الدكتور علي هاشم الأسديّ

جعفريان، رسول، ١٣٤٣ ـ .
[تاريخ خلفا از رحلت پيامبر تا زوال امويان (١١ ـ ١٣٢ هـ). عربي]
تاريخ الخلفاء / رسول جعفريان ؛ ترجمة: علي هاشم الأسديّ . ـ مشهد : مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٣٩٠ .
٢ ج.
ISBN 978-964-971-781-4
فيپا.
ISBN set 2 vol 978-964-971-782-1
كتابنامه به صورت زيرنويس.
١. اسلام ـ تاريخ ـ از آغاز تا ١٣٢ ق . ٢. خلفاي راشدين. ٣. خلافت. ٤. امويان .
الف. اسدي، علي، ١٣٣٦ ـ ، مترجم. ب. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ج. عنوان.
٢٠٤٣١٣٩٠ ت ٧ج / ٧ / ٣٧ DS
٩٠٩ / ٠٩٧٦٧١
كتابخانه ملي جمهوري اسلامي ايران
٢٢٧٤٠٣٩

تاريخ الخلفاء

الجزء الثاني

رسول جعفريان

ترجمة: الدكتور علي هاشم الأسديّ

مراجعة: جعفر البياتيّ

الطبعة الأولى ١٤٣٥ ق. / ١٣٩٣ ش. / ٢٠٠٠ نسخة ، وزيري
الثمن: ١٨٠٠٠٠ ريال إيراني
الطباعة: دقت
مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٧٧٣٣٠٢٩
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الفصل السادس

مَلَكيّة معاوية

معاوية مؤسّس النظام المَلَكيّ للأمويّين

خضعت الأمصار الإسلاميّة قاطبةً لسلطة معاوية بعد استيلاء الأمويّين على العراق الذي كان عاصمة الخلافة الإسلاميّة منذ عام ٣٦هـ، فنقل معاوية السلطة إلى الأمويّين بعد مضيّ ثلاثين سنة على وفاة النبيّ ﷺ، وكان قبل تقلّده عنوانَ الخلافة أميراً على الشام زُهاء عشرين عاماً. وناهض بنو أميّة - الذين كانت لهم قيادة قريش العسكريّة في الجاهليّة - الإسلامَ حتّى الأيّام الأخيرة المتيسّرة لهم، ولم يُسْلموا إلّا بعد أن لم تكن لهم حيلة إلّا التظاهر بالإسلام. وما يتبيّن من أعمالهم وأفعالهم، وما تفيده المعلومات المتوفّرة عن أبي سفيان، بخاصّة عن معاوية، يدعم كلام الإمام عليّ عليه السلام في أنّ إسلامهم كان مصلحيّاً[1]، وكان للزبير نفس العقيدة في أبي سفيان أيضاً[2].

وقاد يزيد بن أبي سفيان أخو معاوية قسماً من الجيش العربيّ في فتح الشام، واستعمل أبو بكر معاويةَ ردءاً لأخيه يزيد[3]، ولمّا مات يزيد، نصب عمرُ معاويةَ أميراً على الشام. وأشرنا فيما تقدّم إلى أنّ تساهل عمر مع معاوية أثار عجب بعض

---

١ .**شرح النهج** ٢٠: ٢٩٨ .٢٩٩؛ **نهج البلاغة**: الكتاب ٦٤. وقال الإمام عليّ عليه السلام لمعاوية: وما أسلم مسلمُكم إلّا كرهاً. وانظر: **أنساب الأشراف** ٤: ١٦٠ للاطّلاع على فتوره عن إساءة رجل يهوديّ إلى المسلمين.

٢ .**الأغاني** ٦: ٣٥٥: وأبو سفيان هذا هو الذي وقف على قبر حمزة [سيّد الشهداء] وهو يقول: «رحمك الله أبا عمارة لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا». **الإمتاع والمؤانسة** ٢: ٧٥.

٣ .**رسائل الجاحظ**، الرسائل السياسيّة: ٣٤٤.

الأشخاص[١]! وقد نصّ ابن عساكر على أنّ عمر جمع الشام كلّها لمعاوية[٢]، ومعاوية نفسه كان يقول: «والله ما قَوِيتُ على العامّة إلّا بمكاني [الذي] كان منه»[٣] [من عمر]! ورآه عمر ذات مرّة يسير بأبّهة خاصّة ومعه الخدم والحشم، فسأله عن ذلك، فقال: «إنّي في بلاد لا يُمتَنع فيها من جواسيس العدوّ، ولا بدّ لهم ممّا يرهبهم... فإن أمرتَني أقمتُ عليه، وإن نهيتني عنه انتهيتُ. فقال عمر:... لا آمُرك به ولا أنهاك عنه»[٤]. وكان عثمان يقول لمن يُنكر عليه من الناس أعمالَ معاوية: كيف أعزُله وولّاه عمر؟! وجواب الإمام عليّ عليه السلام أنّ معاوية كان يخاف من عمر، أمّا الآن فهو يفعل مايشاء دون مشاورتك[٥]. وكان عمر يقول: «تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتَدَعون معاوية»![٦].

وكان معاوية نفسه يرى أنّ موقف عمر منه هو الباعث على توطيد قاعدته[٧]، حتّى قال للناس بعد قتل عثمان: وقد عَلِمتُم أنّي خليفة... عمر بن الخطّاب، وأنّي

١ .**تثبيت دلائل النبوّة**: ٥٩٣. قال الحسن البصريّ: «لقد تصنّع معاوية للخلافة في ولاية عمر بن الخطّاب»؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٢٤.

٢ .**مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ١٧، ١٨، ٢٠؛ **رسائل الجاحظ** الرسائل السياسيّة: ٣٤٤.

٣ .**مختصر تاريخ دمشق** ٩: ١٦١.

٤ .**العقد الفريد** ١: ١٥، ٥: ١١٤؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ١٨. وشُكي معاوية إلى عمر مرّةً، فقال: «دَعُونا من ذمّ فتى قريش وابن سيّدها»! انظر: **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ١٨. ويُحتَمل أنّ هذه الأخبار منسوبة إلى عمر.

٥ .**أنساب الأشراف** ٤: ٥٥٠.

٦ .**الفخري**: ٧٧؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ١٩.

٧ .**الغدير** ٩: ٣٥ عن **تاريخ الطبريّ** ٥: ٨٨، ٩٠. قال الجاحظ: وممّا احتجّ به السفيانيّة لإثبات خلافة معاوية كلام معاوية نفسه الذي قال فيه: «هذا موضعٌ وَضَعني به عمر بن الخطّاب ولم يعزلني مذ ولّاني، وقد كان لا يكاد يدع أميراً إلّا استبدل به وإلّا غضب عليه لبعض ما يكون منه، وربّما أمر بإشخاصه إليه، ولم يعزلني ولم يغضب عليّ مذ رضيَ عنّي، ولا عزلني مذ ولّاني، ثمّ جمع لي الأرباع بعد أن كان ولّاني ربعاً، وقوّى أمري وثبّت وَطْأتي، ثمّ أكّد لي ذلك عثمانُ بن عفّان وشدّده، وقوّى أمري ومكّنه». **رسائل الجاحظ** الرسائل السياسيّة: ٣٨٥.

خليفة عثمان بن عفّان عليكم[١]. وكانت الشام منطقته الآمنة في عهد عثمان. وقد نفى عثمانُ إليها قرّاء الكوفة وأبا ذرّ [رضوان الله عليه]، وإن أخرجهم بعد ذلك منها صيانةً لموقعه وحؤولاً دون تأثيرهم في الناس[٢]. وكان أهل الشام على تربية معاوية، وهو ما استبانت نتيجته في ولائهم التامّ للأمويّين إبّان حكمهم. وقيل: دخل على السفّاح (السلطان العبّاسي الأوّل) مشيخةٌ من أهل الشام بعد زوال الدولة الأمويّة، «فقالوا: والله ما علمنا أنّ لرسول الله ﷺ قرابةً يَرِثونه إلّا بني أميّة!...»[٣].

ونُقل عن معاوية أنّه قال: نحن شجرة رسول الله ﷺ[٤]. وحاول أن يعزّز موقعه الدينيّ عبر عنوان كاتب الوحي وخال المؤمنين، وحمل جماعةً من رواة الحديث أيضاً على أن يضعوا عشرات الأحاديث في فضيلته ويبثّوها بين الناس[٥].

وكانت حكومة معاوية أوّلَ تجربةٍ حكوميّة استطاعت أن تتسلّم السلطة بالقوّة واستخدام المكائد السياسيّة أثناء الخلافات الدينيّة ـ السياسيّة، وأحياناً القبليّة والإقليميّة. ولم يُعهَد تسلّم السلطة من قبلُ بتعبئة جيشٍ أو استخدام قوّة، والآن إذ قامت هذه السلطة على القوّة، فما هو التوجيه الذي يمكن أن يسوّغها؟ ويتعيّن علينا الالتفات هنا إلى أنّ هذه الحقيقة يجب أن تُشبه الحقائق السياسيّة الأُخرى

١ ـ **وقعة صفّين**: ٣٢؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٣٠.

٢ ـ انظر: **الطبقات الكبرى** ٤: ٢٢٩؛ **الغدير** ٦: ٣٠٤، ٩: ٣٧٣.

٣ ـ **مروج الذهب** ٣: ٣٣؛ **النزاع والتخاصم**: ٢٨.

٤ ـ **مختصر تاريخ دمشق** ١١: ٨٧. وقيل: كان في الشام يومئذٍ من يقول: لو لم يكن معاوية نبيّاً فهو نصف نبيّ. انظر: **بهجة المجالس** ١: ٥٥٠. ولمّا دخل عليه رجل مصريّ من أوليائه، قال له: السلام عليك يا رسول الله! انظر: **الأوائل** للتستريّ: ١٦٣. وقال له الأحنف بن قيس حين لعن رجلٌ شاميّ عليّاً عليه السلام بمحضره: «إنّ هذا القائل ما قال آنفاً لو يعلم أنّ رضاك في لعن المرسَلين لَلَعنهم»! **العقد الفريد** ٤: ١١٣.

٥ ـ ومثال ذلك ما نُقِل افتراءً عن رسول الله ﷺ أنّه قال: الأمناء عند الله ثلاثة: جبريل، وأنا، ومعاوية! وذكر ابن عساكر هذه الروايات مفصّلاً. انظر: **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٥ ـ ١٦.

التي شهدها أوّل عصر الخلافة، ثمّ وقعت موقع القبول قانونيّاً كنظريّة حكوميّة. وإذا استطاع حاكم من الحكّام بما أُوتي من قدرة سياسيّة أن يقمع جميع المعارضين، ويأخذ منهم البيعة لنفسه، فقد ظهرت «الجماعة» حينئذٍ! وما هي المشكلة الآن لمن استند إلى مفهوم الجماعة، وقال: نحن آخر من يبايع؟ وأولئك اتّخذوا نفس «الجماعة» ذريعةً، وبايعوا الخليفة الذي تتّفق معه الجماعة بلا التفاتٍ إلى الكيفيّة التي تسلّم الحاكم فيها السلطة. وكان معاوية يصرّح بأنّه ما وُلّيَ بمحبّة الناس له ولا بمسرّتهم بولايته، لكنّه جالَدَ بالسيف[1]. وسمّى ذلك العام «عامَ الجماعة». قال الجاحظ مشيراً إلى أنّ معاوية استوى على المُلك في ذلك العام واستبدّ على بقيّة الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين: «... في العام الذي سمّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعةٍ بل كان عام فُرقةٍ وقهرٍ وجبريّة وغلبة، وكان العامَ الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسرويّاً، والخلافة غصباً قيصريّاً»[2]. ثمّ أصبح مبدأ الحكم لِمَن غلب مبدأ مسلّماً به في الفقه السياسيّ السنّيّ لاحقاً.

وسند معاوية القانونيّ منذ بداية بغيه على الإمام عليّ عليه السلام تمسّكُه بقرابته من عثمان، وتعريفُ نفسه وليّاً لدمه! وكان يقول: عليٌّ قَتَل عثمان، وعليه أن يقتصّ من قاتليه. وتحوّل هذا الأمر في ذهن أهل الشام إلى انتقال الحكم الوراثيّ من عثمان إليه على تواتر السنوات، وكان له الدور الأهمّ في ذلك. ويلزمنا قبل هذا أن نلتفت إلى أنّ معاوية كان يرى نفسه خلفاً للسيادة القرشيّة التي بدأت بأبي بكر وعمر، ووصلت إلى عثمان. وأشرنا فيما تقدّم إلى رسالة محمّد بن أبي بكر إليه؛ تلك الرسالة التي عنّفه فيها لإصراره على إجحافه بحقّ الإمام عليّ عليه السلام، وأجابه معاوية قائلًا: «... فقد كُنّا وأبوك مَعَنا في حياة من نبيّنا نرى حقَّ ابن أبي طالب لنا لازماً،

١ ـ **العقد الفريد** ٤: ٨١.

٢ ـ **رسالة الجاحظ في بني أميّة**: ١٢٤. وهي مطبوعة مع رسالة «**النزاع والتخاصم**» للمقريزيّ.

وفضلَه علينا مُبرَّزاً، فلمّا اختار اللهُ لنبيّه ما عندَه... قبضه الله إليه، فكان أبوك... وعمر.. أوّل مَن أنزله منزلته عندهما، فَدَعَواه إلى أنفسهما، فبايع لهما لا يُشركانِه في أمرهما... ثمّ قام عثمان ثالثاً... وإن كان خطأً فأبوك أسَّسَه ونحن شركاؤُه، برأيه اقتدَينا، وفعلَه احتذينا... فعِبْ أباك ما بدا لك...»![1]

وكان معاوية في صدد استغلال الثورة على عثمان منذ بدايتها، وطلب من عثمان مرّةً أن يأتيه إلى الشام ليأمن من المعارضين، فرفض طلبه[2]، ولمّا اشتدّت الثورة عليه، رأى معاوية أنّ سبيله الوحيد هو أن يُقتَل عثمان. وكان بإمكانه أن يستغلّ هذا الأمر بما كان له من ثقةٍ بأهل الشام، لذا لم يُغث عثمانَ بشيءٍ، حتّى إنّ عثمان نفسه انتبه إلى توجّهه هذا وهو في شدّة المحنة فكتب إليه يُعاتبه[3]. وبعد مقتل عثمان وفرار زوجته إلى الشام، خطبها معاوية؛ فردّته[4]. وركّز معاوية في كتبه إلى الإمام عليّ عليه السلام في أنّ خليفتنا عثمان قُتِل مظلوماً، والله يقول: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً**﴾، فنحن أَولى به وبوُلْده[5]. وكان لإصرار معاوية على خلافته لعثمان أثرُه في الفكر التاريخيّ -السياسيّ السُّنّي، وتمثّل هذا الأثر في تصوّر المسلمين -إلّا الشيعة وبعض السنّة - بأنّ الخلفاء الراشدين ثلاثة لا

١ ـ**أنساب الأشراف** ٢: ٣٩٣ ـ٣٩٧؛ **وقعة صفّين**: ١١٨؛ **شرح النهج** ٣: ١٨٨؛ **مروج الذهب** ٣: ١٠؛ **سمط النجوم العوالي** ٢: ٤٦٥.

٢ ـ**الكامل في التاريخ** ٣: ١٥٧. ومن المقطوع به أنّ معاوية كان يقصد من مجيئه إلى الشام التمهيد لنقل الحكومة إليه.

٣ ـاستنصر عثمانُ معاويةَ مرّةً، فتوجّه معاوية إلى المدينة مع رَجُلَين آخرين، ودخلوا على عثمان ليلاً؛ فقال عثمان: جئتَ بالمدد؟ قال: جئتُ مع رجلين، فقال عثمان: لا دَرّ دَرُّك، إذا قُتلتُ فمِن أجلك أُقتَل. انظر: **تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين**: ٤٥٠ ـ٤٥١؛ وانظر أيضاً: **أنساب الأشراف** ٤: ١٩.

٤ ـ**نثر الدرّ** ٤: ٦٢؛ **بلاغات النساء**: ١٣٩؛ **العقد الفريد**: ٩٠:٦.

٥ ـانظر: **الغارات**: ٧٠.

غيرهم، والخليفة الشرعيّ بعدهم معاوية وحدَه، وبقي هذا التصوّر قرنَين من الزمان إلى أن عرض أحمد بن حنبل عقيدة «التربيع»، فعُرِف الإمام عليّ عليه السلام خليفةً رابعاً.

وأشار الفرزدق - الذي أنشد شعراً كثيراً في مدح الأُمويّين - إلى عقيدتهم في وراثة عثمان، فقد خاطب عبدَ الملك بن مروان قائلًا:

تراثُ عثمانَ كانُوا الأولياءَ لَهُ ... سِربالُ مُلْكٍ عَلَيهم غيرُ مَسلوبِ[1]

ووصف في شعرٍ آخر حكومةَ ابنه الوليد، وهو يخاطبه، بأنّها بَلَغَتْه من عثمان[2]، وخاطب ابنَه الآخر يزيد بأنّ الحكومة انتقلت من عثمان إلى معاوية، وكانت في بني أُميّة حتّى وصلت إليه[3]:

وَرِثتَ ابنَ حربٍ وابن مروانَ والَّذي ... بهِ نصَرَ اللهُ النبيَّ مُحمّدا[4]

ومن المحتمل أنّه كان يريد من الشخص الآخر عثمان. وخاطب الوليد بن يزيد قائلًا:

وَرِثُوا مَشُورتَها لعثمانَ الَّتي ... كانتْ تُراثَ نبيّنا المُغيَّرِ[5]

وذكر الجاحظ أيضا أنّ معاوية كان يحاول إثْباتَ استحقاقه المدّعى للخلافة عن طريق دم عثمان[6]!

وأعلن معاوية منذ بداية مناهضته للإمام عليّ عليه السلام أنّه لايريد الخلافة؛ بيد أنّه كان يُعدّ نفسه لها أساساً، وقال الإمام عليه السلام في بدء خلافته لمبعوثه:... وأَعْلِمْهُ أنّي لا

١ ـ **ديوان الفرزدق** ١: ٢٥.

٢ ـ نفسه.

٣ ـ **ديوان الفرزدق** ٢: ٢١٠.

٤ ـ نفسه ١: ١١٤.

٥ ـ نفسه ١: ٣٣٦؛ انظر: **الأمويّون والخلافة**: ١٣ ـ ١٥. وفيه أشعار أخرى أيضاً مضافاً إلى الأمثلة التي ذكرناها.

٦ ـ **رسائل الجاحظ**، الرسائل السياسيّة: ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

أَرضى به أميراً، وأنّ العامّة لا تَرضى به خليفةً[١]. وكان ما يُبطنه معاوية من دوافع بيّناً جليّاً لكثير من الناس، إلّا أنّه كان يتوخّى خداع الناس في الظاهر، فكتب إلى الزبير قبل وقعة الجمل يُعْلمه بأخذ البيعة له من أهل الشام، و إذا استولى على العراق فالشام له، وسُرَّ الزبير بذلك[٢]. وبغضّ النظر عن الزبير، كان عليه أن يبيّن الطريق الذي رضيه لاختيار الخليفة المرضيّ، وعرض «الشورى بين المسلمين» في هذا المجال، وأشار إليها في كتبه التي كتبها إلى بعض شخصيّات المدينة مِن صفّين، وألمعنا إليها في الحديث عن صفّين، وكان يروم استقطاب احدى الشخصيّات السياسيّة القرشيّة، بخاصّة مَن شَهِد منهم الشُّورى؛ ليستغلّه سياسيّاً، ذلك أنّ الإمامعليه السلام كان قد انتقده من هذه الزاوية بأنْ لا رجلَ من قريش الشام يُقبَل في الشورى، أو تَحِلّ له الخلافة[٣]. وقد عرض معاوية في كتابٍ من كتبه إلى الإمامعليه السلام قضيّة الشورى[٤]، وهذه أمور لم يأخذها معاوية مأخذَ الجِدّ أبداً.

وتدلّ أخبارٌ أخرى على أنّه بايع أهل الشام في البداية بوصفه أميراً، لا أميرَ المؤمنين، لكنّه ادّعى الخلافة بعد شهادة الإمامعليه السلام، فبايعه الناس على أنّه أمير المؤمنين[٥]. ونصّ خبر آخر على أنّه بُويع في البداية ثأراً لدم عثمان، وأميراً لا يَطمع في الخلافة، ثمّ يُفَوَّض الأمر بعد ذلك إلى الشورى[٦]. وجاء في كتاب الإمامة والسياسة أنّه بُويع أميراً قبل صِفّين، وأنّه كتب إلى حاكم حمص ليبايعه أهلُها كما بايعه أهل الشام، فلم يرضَ أشرافها ببيعته أميراً، وقالوا بأنّهم لايطلبون بدم عثمان إلّا

١ ـ **وقعة صفّين**: ٢٨.

٢ ـ انظر: **أعيان الشيعة** ٣: ج ٢: ١٢.

٣ ـ **وقعة صفّين**: ٥٨.

٤ ـ **الإمامة والسياسة** ١: ١٢١.

٥ ـ **أنساب الأشراف** ٥: ١٦١؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٢٧.

٦ ـ **وقعة صفّين**: ٨٢.

مع خليفة. وهكذا كان أهل حمص أوّلَ مَن بايع معاويةَ بالخلافة، ثمّ بايعه الناس بعد انتشار خبرهم بالشام[١].

وقيل: كان الحجّاج بن وصمة أوّلَ مَن خاطبه بهذا العنوان، وكان يفتخر بذلك أيضا![٢]

وواجه استخلاف معاوية مشكلةً أخرى أيضاً، وهي أنّه لم يكن من السابقين إلى الإسلام، فقد كان هو وأبوه وأكثر أفراد أسرته من المناوئين للإسلام عدد سنين، ثمّ أصبح من الطُّلَقاء بعد إسلامهم، وهم الذين أطلقهم رسولُ الله ﷺ بعد الفتح، وهذا العنوان عنوان مُهين ويُحرّم عليهم الخلافة والإمرة، ومع أنّه كان يعرّف نفسه بأنّه «خال المؤمنين»، و«كاتب الوحي»، وعزّز موقعه إلى حدٍّ ما مُتوكّئاً على دعم عمر[٣] وعثمان إيّاه، كان الحجاز والعراق يعرفانِ ماهيّته، وكان عمر يقول: «هذا الأمر في أهل بدر ما بقيَ منهم أحد، ثمّ في أهل أُحُد ما بقي منهم أحد... وليس فيها لِطليقٍ ولا لوَلَدِ طليق، ولا لمُسلمة الفَتْح شيء»![٤] ورغم أنّه هيّأ الأمر لمعاوية وهو طليق، لكنّ هذا الموضوع لم يجد له موقعاً في أذهان المسلمين لا محالةَ منذ عصره فما تلاه. وقال عمّار بن ياسر في كلامٍ له بصفّين: «ولم يكن للقوم [بني أميّة] سابقةٌ في الإسلام يستحقّون بها طاعةَ الناس والولاية عليهم»[٥]. وكتب عبد الله بن عمر بن الخطّاب إلى معاوية جواباً له: «وما أنتما [معاوية وابن العاص] والخلافة؟! وأمّا أنت يا معاوية فطليق!».[٦] وقال شاعر أنصاريّ في قصيدة بعثها مع كتاب عبد الله بن

١ .الإمامة والسياسة ١: ١٠٠.

٢ .وقعة صفّين: ٧٨، ٨٠.

٣ .انظر: مختصر تاريخ دمشق ٩: ١٦١.

٤ .الطبقات الكبرى ٣: ٣٤٢؛ مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٤٢.

٥ .تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩.

٦ .وقعة صفّين: ٦٣.

عمرإليه: «وما أنتما... وذِكرُكما الشُّورى؟!...».[١] كما أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام وبّخ معاوية في كتاب بعثه إليه على ما أبداه من رأي في التمييز بين المهاجرين الأوّلين، فقال عليه السلام: ما لِلطُّلقاء وأبناءِ الطلقاء والتمييزِ بين المهاجرين الأوّلين؟![٢]

وحين قدم معاوية المدينة ليُرضي المعارضين بتعيين ابنه يزيد وليّاً للعهد، خالفَتْه عائشة ووبّخته بقتل أخيها محمّد بن أبي بكر، وقالت له في سياق مخالفتها: «أنت مِن الطُّلقاء الذين لا تَحلّ لهم الخلافة»[٣]! مع هذا الإشكال الشرعيّ الخطير جدّاً وغلبته على الأمور، فقد تعدّى أموراً أعضل منه، إذ لم ينصب نفسه حاكماً مفروضاً على المسلمين فحسب، بل نصب ابنه المشهور بالفسق والفجور حاكماً عليهم أيضاً وريثاً له!

وكانت الحكومة الأمويّة حكومةً قرشيّة أيضاً، فلم تتفاوت من هذه الجهة وما سبقها من الحكومات، واستمرّ هذا الوضع في العهد العبّاسيّ أيضاً، والمهمّ هو أنّنا يجب أن نرى متى عُيّن شرط القَرَشيّة في عِداد الشروط اللّازمة للخلافة. وأشرنا سابقاً إلى أنّ هذا الشرط لم يُحسَب من الشروط الفقهيّة للخلافة قطّ. ومن الطبيعيّ أنّ الشيعة الإماميّة ترى أنّ الإمامة بالنصّ، وأنّها محصورةٌ في الإمام عليّ وأبنائه عليهم السلام. أمّا الذين لا يعتقدون النصّ، فالقرشيّة ليست شرطاً للخلافة عندهم. وقد نُقل عن حُذَيفة قولُه بعد بيعته الإمامَ عليه السلام: «لا أُبايع بعدَه لأحدٍ من قريش»[٤]. فهذا الكلام الصادر عن صحابيّ معروف يدلّ على أنّ شرط القرشيّة لم يُعدَّ شرطاً شرعيّاً محتّماً، لكنّ الأمويّين، الذين كانوا الهيكل الأصليّ لقريش في محاربتهم

---

١. نفسه: ٦٤.

٢. **نهج البلاغة**، الكتاب ٢٨.

٣. **الفتوح** ٤: ٢٣٧.

٤. **أنساب الأشراف** ٢: ٢١٦.

للإسلام، جدّوا بعد وصولهم إلى الحكم في طرح شرط القرشيّة، فاختلق رواتُهم الوضّاعون أحاديثَ في هذا الشأن. ونُقل عن معاوية قوله ما مضمونه: أنّ هذا المُلْك جُعِل في قريش، واستقرّت الخلافة فيها، ولا يصلح لها أحد غيرها[١]. وخاطب رَوحُ ابن زِنباع الجذاميّ- الذي كان من الشاميّين الموالين للأمويّين- أهلَ المدينة حين أبطأوا عن بيعة يزيد قائلًا: «أيّها الناس، إنّا لا ندعوكم إلى [بيعة قبائل] لخم وجذام وكلب، ولكنّا ندعوكم إلى قريش، ومَن جعل الله له هذا الأمر واختصّه به، [أي يزيد بن معاوية[٢]]. وكثرت الأحاديث الموضوعة المختَلَقة وشاعت بين الناس، منها: مَن أهان قريشاً فقد أهان الله[٣]. «وخيارُ أئمّة قريش خيارُ أئمّة الناس»[٤]! والطريف أن قريشاً كان تستغلّ قرابتها من النبيّ ﷺ لإثبات شرفها أمام سائر العرب[٥]، في حين عادت وأبغضت قُرباه ﷺ المقرّبين إليه، وحاربتهم، وقتّلتهم!

وتجلّت السياسة القرشيّة للأمويّين في مواقفهم الحادّة من الأنصار، وأمر معاوية كعب بن جُعَيل أن يهجوهم، فهداه هذا إلى الأخطل[٦]. وقال هذا الشاعر الأمويُّ الهوى ما منثوره: إنّ قريشاً صاحبةُ الفضائل والمكارم، وإنّ اللؤم تحت عمائم

---

١ ـ **الفتنة ووقعة الجمل**: ١٠٩ نقلاً عن: **من دولة عمر إلى دولة عبد الملك**: ١٠٩.

٢ ـ **البيان والتبيين** ١: ٣٠٠؛ **الشورى في العصر الأمويّ**: ٣٤. ولمّا صلّى الأمويّان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن هشام خلف أحد الخوارج، أنشد شاعر خارجيّ:

أَلَــم تَــرَ أنّ الله أظـهَرَ دِينَـهُ ... وصَلّتْ قُريشٌ خَلْفَ بكرِ بن وائلِ!

البيان والتبيين ١: ٣٤٣، ٣: ٢٦٥؛ **شعر الخوارج**: ٢٠٨ عن: **أنساب الأشراف** ٣: ١٣٧؛ ٨: ٣٦٥ و **تاريخ الطبريّ** ٢: ١٩١٣.

٣ ـ **مختصر تاريخ دمشق** ٣: ٣١٨، ٦: ٩٥؛ وانظر: **البصائر والذخائر**: ٣٥.

٤ ـ نفسه ٦: ١٤٨.

٥ ـ **البيان والتبين** ٢: ٦٧.

٦ ـ **الإكليل** ٢: ٢٠٧.

الأنصار[١]! وكان معاوية يذكر علاقته الحسنة بقريش كأحد الأسباب التي نصرَتْه في عهد الإمام عليّ عليه السلام[٢].

واتّهم المعتزلةُ معاويةَ بوضع عقيدة الجبر في الإسلام[٣]، ويتعيّن علينا القول: إنّ هذه العقيدة كانت لها سابقة جاهليّة عند العرب، كما كانت لها سابقتها بين بعض أهل الكتاب في شبه الجزيرة العربيّة، وأثارها جماعةٌ نوعاً ما بعد الإسلام أيضاً، بيد أنّ الحقيقة هي أنّها عمّت في العهد الأمويّ وأصبحت ركناً في النزاعات المذهبيّة على كرور الأيام. وجاء استغلالها عند موضوع الخلافة، في الكلام المعروف الذي نُسِب إلى عثمان، فقد تقدّم أنّ الثوّار أرادوا خلعه من الخلافة، فقال: «ولستُ أخلعُ قميصاً قمّصنيهِ الله»[٤]! ويدلّ هذا الكلام دلالة واضحة على أنّه نسب خلافته - التي تحقّقت برأي عبد الرحمان بن عوف - إلى الله [سبحانه]. وقطع معاوية على هذا الطريق أَشواطاً بعيدة، فنُقل عنه أنّه قال ما مضمونه: لا نفعَ في العمل؛ لأنّ الأعمال كلَّها بيد الله[٥]! وقال في وقت آخر: «هذه الخلافة أمر من أمر الله، وقضاء من قضاء الله»[٦]. وقال لعائشة حين خالفته في نصبه يزيدَ وليّاً للعهد: «... وإنّ أمر يزيد قضاءٌ من القضاء، وليس للعباد الخِيَرَةُ من أمرهم»[٧]. وقال زياد

١ ـ **الأغاني** ١٦: ٣٥ ـ ٣٦؛ **الشعر والشعراء**: ٣٠٢؛ وانظر: **البيان والتبيين** ١: ٦٣.

٢ ـ **البيان والتبيين** ٢: ١١٥.

٣ ـ انظر: **طبقات المعتزلة**: ٦؛ **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**: ١٤٣؛ **الأوائل**، لأبي هلال العسكريّ ٢: ١٢٥.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٥: ٥٨٣.

٥ ـ **حياة الصحابة** ٣: ٥٢٩.

٦ ـ **مختصر تاريخ دمشق** ٩: ٨٥.

٧ ـ **الإمامة والسياسة** ١: ٢٠٥. قال الأسود بن يزيد: «قلتُ لعائشة: ألا تعجبين لرجلٍ من الطلقاء ينازع أصحابَ محمّد صلى الله عليه وآله في الخلافة؟! فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يُؤتيه البَرَّ والفاجر، وقد ملك فرعونُ أهلَ مصر أربعمائةِ سنة». **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٤٢.

ابن أبيه حاكمُه على البصرة والكوفة في خطبته المعروفة: «... فإنّنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نَسُوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا»[١]. وقال يزيد في أوّل خطبةٍ له: «إنّ معاوية... كان عبداً من عباد الله، ملّكه على عباده... وقد قلّدَنا الله ما كان إليه»[٢]. وقال معاوية لسعيد بن عثمان بن عفّان الذي أنكر عليه ولاية يزيد للعهد، وقال: «وأنّك إنّما نلتَ ما أنتَ فيه بأبي...»: «فإنّما هو المُلك يُؤتيه الله مَن يشاء»[٣]. وكان مسكين الدارميّ يحضّ معاوية على تولية ابنه يزيد ويقول:

بَني خلفاءِ الله مَهْلاً فإنّما ... يُبَوِّئُها الرحمانُ حيثُ يُريدُ
إذا المِنبرُ الغربيّ خَلّاه ربُّهُ ... فإنّ أميرَ المؤمنين يَزيدُ[٤]!!

وسنرى أنّ الخلافة التي كانت في البداية بمعنى خلافة رسول الله ﷺ السمحاء، اتّخذت طابع الخلافة الإلهيّة تدريجاً، وطُبِّقت على آية استخلاف النبيّ داود عليه السلام[*]. والبحث الأساس في حكومة معاوية هو أنّه أسقط أدب الخلافة، وبدأ المَلَكيّة رَسميّاً. ونستخدم كلمة (رسميّاً)؛ لأنّ أرضيّة هذه الملكيّة قد تمهّدت قبل ذلك في عصر عثمان (انظر: البحث المرتبط بعثمان). وفي خبر ابن عساكر: لمّا جاءَ ثُمامةَ بن عَدِيّ أحدَ صحابة النبيّ ﷺ خبرُ قَتلِ عثمان، بكى... وقال: اليومَ انتُزِعت «خلافة النبوّة» من «أمّة محمّد ﷺ»، أو «آل محمّد ﷺ»، وصارت مُلْكاً وجبريّةً[٥]!

---

١ ـ **الفتوح** ٤: ١٨٠؛ **البيان والتبيين** ٢: ٤٩؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٢٠؛ **العقد الفريد** ٤: ١١٤؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٤٩؛ **شرح النهج** ١٦: ٢٠٢؛ **جمهرة خطب العرب** ٢: ٢٧٣؛ **الأمويّون والخلافة**: ٢٥.

٢ ـ **الإمامة والسياسة** ١: ٢٢٥؛ **الأخبار الطوال**: ٢٢٦؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٢٩٩، الرقم ٧٩٨.

٣ ـ **الإمامة والسياسة** ١: ٢١٤.

٤ ـ **الأمويّون والخلافة**: ٦٥ عن: **الشعر والشعراء** ١: ٥٤٤؛ **الأغاني** ٢٠: ٢١٢؛ **خزانة الأدب** ٣: ٥٩؛ **شعر مسكين**: ٣٣.

٥ ـ **مجمع الزوائد** ٩: ٩٩؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٨٠؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٤٤٨؛ **المعجم الكبير**، للطبرانيّ ٢: ٩٠. وجاء في هذه المصادر: (أُمّة محمّد)، وفي **تاريخ مدينة دمشق** ١١: ١٥٨: (آل محمّد). واستُعمل تعبير (خلافة النبوّة) في إمامة الإمام عليّ عليه السلام، في المصادر الشيعيّة. انظر: **أمالي**

وعلى الرغم من أنّ سواد الناس كانوا معارضين لعثمان إبّان قتله، بيد أنّهم برّأوه لاحقاً من تلك المؤاخذات التي كانت عليه بسبب تسلّط بني أميّة ودعاياتهم، ثمّ ظلّوا على ولائهم -إلى حدّ ما- للمبدأ المتمثّل بأنّ حكومة معاوية تُجسّد نهاية عصر الخلافة و بداية العصر المَلَكيّ، وإن لم يَقدح بهذا التغيير عندهم في شرعيّتها. واعتقدوا أنّ الشرعيّة شيء والحكومة الراشدة شيء آخر. وبشأن هذا التبدّل، نُسِب إلى النبيّ ﷺ قوله: خلافة النبوّة ثلاثون سنةً[١]، وجاء في تعبير آخر: الخلافةُ ثلاثون عاماً، ثمّ يكون بعد ذلك المُلْك[٢]! ويبدو أنّ هذين الحديثَين غير صحيحَين. وثمّة ملاحظة، وهي أنّ معاوية ذاته كان راضياً بإطلاقه كلمةَ المُلْك على نفسه، وكان يقول: أنا أوّلُ المُلوك[٣]! فلا يُستَبْعَدُ أبداً أنّه هو الذي اختلق مثل هذه الأحاديث لتثبيت حكومته وطمس معالم الخلافة. كما أنّ لدينا نظائر أخرى على ذلك أيضاً، فقد صرّح كعب الأحبار - الذي كان من المدافعين الأشدّاء عن عثمان ومن حُواة معاوية - بأنّه وجد في التوراة أنّ رسول الله ﷺ يُولَد بمكّة، ويهاجر إلى «طابة»، ومُلكُه بالشام[٤]! وربمّا هذا هو الذي حمل معاوية على التفكير بنقل

المفيد: ١٥؛ **كنز الفوائد**: ٢٧٧.

* هو قوله تعالى: ﴿يا داود اِنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقِ﴾ ص: ٢٦، المترجم.

١ . **مسند أحمد** ٤: ٢٧٣، ٥: ٤٤، ٥٠، ٤٠٤؛ **الجامع الصحيح** [سنن الترمذيّ] «أنا أوّل الملوك وآخر خليفة»؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٥٥؛ كتاب الفتن / الرقم ٤٨.

٢ . **مسند أحمد** ٥: ٢٢٠، ٢٢١.

٣ . **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٣٢؛ **مصنّف ابن أبي‌شيبة** ١١: ١٤٧ (طبعة الهند)؛ وانظر: **الفتنة ووقعة الجمل**: ٧١ وفيه عبّر معاوية عن الخلافة بالمُلْك. وذكر الحصنيّ فيه أنّه «كان ميّالاً بفطرته إلى انتحال المُلْك». انظر: **منتخبات التواريخ لدمشق**: ٨٠، نقلاً عن: **من دولة عمر إلى دولة عبد الملك**: ١٤٧. وفي موضوع آخر نُقل عن معاوية قوله: أنا أوّل الملوك وآخر خليفة؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٥٥.

٤ . **سنن الدارمي** ١: ٦.

منبر النبيّ ﷺ وعَصاه مِن المدينة إلى الشام[١]. ونُقل عن أبي هريرة أيضاً أنّه قال: المُلك في قريش، والقضاء في الأنصار[٢]؛ وأثِر أيضاً: الخلافةُ في قريش، والحُكم في الأنصار[٣]! وجاء في خبر آخر أنّ رجلًا من أهل الكتاب أخبر معاوية أنّه يجد نعتَه في كتب الله «أنّه أوّلُ مَن يُحوّل الخلافةَ مُلْكاً... ثمّ إنّ ربّك من بعدها لَغفورٌ رحيم»[٤]!

و الملاحظة الأخرى، هي أنّ الراوي الوحيد لحديث «الخلافة ثلاثون سنة» رجلٌ يُدعى سُفَينة، ويُقال بأنّه كان من مَوالي رسول الله ﷺ، وهو الذي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: الخلافة ثلاثون عاماً، ثمّ يكون بعد ذلك المُلْك. ثمّ تُحسب مدّة الخلفاء الأربعة كالآتي: تقلّدها أبو بكر سنتين، وعمر عشر سنين، وعثمان اثنتي عشرة سنة، والإمام عليّ عليه السلام ستّ سنين[٥]، في حين نحن نعلم أنّ حكومة الإمام عليه السلام لم تزد على أربع سنين وتسعة أشهر. ونقل المسعوديّ حساباً آخر، وهو أنّ أبا بكر تقلّدها سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيّام، وعمر عشر سنين وستّة أشهر وأربع ليال، وعثمان احدى عشرة سنةً وأحدَ عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، والإمام عليّ أربع سنين وسبعة أشهر إلّا يوماً، والحسن ثمانية أشهر وعشرة أيّام، فذلك ثلاثون سنةً[٦]. وتحمل

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٣٧ ـ ٢٣٨؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٦٣، ٤٦٤.

٢ ـ نفسه ٤: ٣٦٤.

٣ ـ **مسند أحمد** ٤: ١٨٥.

٤ ـ **الكامل في اللغة والأدب** ٢: ١٩١.

٥ ـ **مسند أحمد** ٥: ٢٢٠، ٢٢١. ونقله الترمذيّ عن سعيد بن جمهان، عن سُفَينة. ثمّ ذكر أنّ سعيداً هذا قال: قلتُ لسفينة: «إنّ بني أميّة يزعُمون أنّ الخلافة فيهم، فقال: كَذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك ومن شَرّ الملوك»! يُنظَر: **الجامع الصحيح** ٤: ٥٠٣، ويُنظر: **النزاع والتخاصم**: ٧٠. ويستشفّ من توضيحات الترمذيّ في سياق الحديث أنّ بني أميّة كانوا يقولون: إنّ رسول الله ﷺ جعل الخلافة فيهم!

٦ ـ **مروج الذهب** ٢: ٤٢٩. ويتعيّن علينا الالتفات إلى أنّ الذين وضعوا الحديث حاولوا أن يدقّقوا في حساب المدّة.

الأحاديث الأخرى حول الخلافة نفس المضمون إلى حدٍّ ما، إلّاأن تكون بأيدينا قرائنُ قويّةٌ تؤيّد صحّتها. وحديث أنّ الخلفاء من قريش إلى أن تقوم الساعة[1]، له عين الحُكم إلّاأن ينطبق باعتقادنا على قضيّة النصّ على الإمام عليّ عليه السلام والأئمّة من بعده عليهم السلام .

و إذا تغاضينا عن أصل الحديث، فإنّ القرائن التاريخيّة تدلّ على بداية مَلَكيّةٍ حقيقيّة في ميدان الخلافة الإسلاميّة، وتعبير«المَلِك» كبديل عن«الخليفة» معْلم على الاستبداد في الحكم، وهو من مواصفاته الأصليّة و قد جاء في سياق أحد أخبار الحديث المذكور: ثمّ تكونُ مُلْكاً عاضّاً جَبريّة[2] بعد ثلاثين سنة، ومثاله البيّن: حكومة كسرى في بلاد فارس، وقيصر وهرقل في الروم والشام، وكان معاوية بخاصّةٍ محبّاً لسابقة الشام، وكانت هاتان الحكومتان تجربتَين معروفَتين عند المسلمين. قال الإمام عليّ عليه السلام في احدى خطبه حول القاسطين:... قاتِلُوا مَن حادَّ الله، وحاوَلَ أن يُطفئ نورَ الله، قاتِلُوا الخاطئين الضالّين، القاسطين المجرمين، الّذينَ ليسوا بقرّاءَ للقرآن ولا فقهاءَ في الدِّين، و لا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمرِ بأهلِ سابقةٍ في الإسلام، والله لو وُلُوا عليكم لَعَمِلوا فيكم بأعمال كِسْرى وهِرقَل[3].

وتعبير عمّار بن ياسر[رضوان الله عليه] عن القاسطين أيضاً هو أنّهم خدعوا أتباعَهم بدم عثمان ليكونوا بذلك جبابرةً مُلوكاً[4]!

فهذا أسلوب كان يستخدمه معاوية في تقلّد الأمر وإدارة الدولة الإسلاميّة، وهو نفسه قال: «و اللهِ ما قاتلتُكُم لِتُصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم

---

١ .**الجامع الصحيح**، كتاب الفتن / الرقم ٤٩ .

٢ .**مسند أحمد** ٤: ٢٧٣؛ كتاب مسلم، كتاب الزهد / الرقم ٤ .

٣ .**تاريخ الطبري** ٥: ٧٨ .

٤ .نفسه ٥: ٣٩ .

لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكُم لأتأمّرَ عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارِهون»[١]: وحين دخل الكوفة نادى بأعلى صوته: «...ألا وإنّا قد أجّلْنا ثلاثاً، فمن لم يبايع فلا ذمّةَ له ولا أمان له عندنا»[٢]. ونقل ابن عبد البرّ والجاحظ أنّه أخذ البيعة من أهل الكوفة على البراءة من الإمام عليّ عليه السلام[٣]. وكتب إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطالبه ببيعة يزيد قائلًا: «... فإن بايعتَ تُشكَر، وإن تأبَ تُجبَر»[٤]! وقيل: إنّه أمر بقتل مَن ينبذ بيعته[٥]. وأخذ البيعة من رجلٍ مثل قيس بن سعد - الذي كان يتمتّع بجاهٍ ووجاهةٍ - بمسح يده [يد معاوية] على يده [يد قيس]، وما رفع إليه قيس يدَه[٦] [أي امتنع عن البيعة]. وإنّ إتراف معاوية، وأسلوب تعامله في أمر الخلافة حملا سعد بن أبي وقّاص، ساعة دخوله عليه، أن يخاطبه قائلًا: أيّها المَلِك[٧]! وأصبح بالشام يتقصّى آثار ملوكها[٨]. ويمكن لهذا العمل أن يؤثّر في سَوقه إلى المَلَكيّة.

لمّا أنكر عليه عمر حكومته الإترافيّة، احتجّ ببيئة الشام[٩] و كتب الجاحظ بعد ذلك: أنّ معاوية جعل الحكومة كسرويّة وقيصريّة[١٠]، وسمّاه المؤرّخون أيضاً أوّل الملوك[١١]، وكان سعيد بن المسيّب يقول أيضاً: «فعَل اللهُ بمعاوية وفعل؛ فإنّه أوّل من

---

١ .**شرح النهج** ١٦: ٤٦؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٤٣، وانظر: ٤٥ .

٢ .**أنساب الأشراف** ٣: ٤٧ .

٣ .**بهجة المجالس** ١: ٩٩؛ **البيان والتبيين** ٢: ١٠٥ .

٤ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢٠١ .

٥ - **حياة الصحابة** ٢: ٤٤١ .

٦ - **شرح النهج** ١٦: ٤٨ ـ ٤٩ .

٧ - **مختصر تاريخ دمشق** ٨: ٢١٠؛ **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢١٧؛ **مصنّف عبدالرزّاق** ١: ٢٩١ .

٨ - **منتخبات التواريخ لدمشق**: ٨١، نقلاً عن: **من دولة عمر إلى دولة عبد الملك**: ١٤٦ .

٩ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٤٧ نقلاً عن: **من دولة عمر إلى دولة عبد الملك**: ١٤٦

١٠ - **رسائل الجاحظ**، الرسائل الكلاميّة: ٢٤١ .

١١ - **تاريخ الخلفاء**: ١٩٦، ٢٠٣ .

أعاد هذا «الأمر» «مُلْكاً»[١]، وسمّاه المُغيرة بن شعبة أميراً أيضاً، وقال: علينا أن نفرّق بين «الرعيّة» و«الأمير»[٢]، وقيل: إنّ معاوية كان أوّل من قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ «مَلِكِ يومِ الدين»[٣].

و فَهْرَسَ اليعقوبيّ [قسماً من] أعماله التي كانت من معالم المَلَكيّة كالآتي:... وجلس على السرير والناسُ تحتَه... واستصفى أموالَ الناس فأخذها لنفسه.[٤] وذكر أنّه أخرجَ من كلّ بلدٍ ما كانت ملوكُ فارس تستصفيه لأنفسها من الضِّياع العامرة وجعلها صافيةً لنفسه[٥]. وبلغ وضعُه من الوضوح مبلغاً أنّ عمر سمّاه كسرى![٦] ويتعيّن أن نقول: إنّه كان في صدد إيجاد «السلطنة الإسلاميّة»؛ وكان يراه مَلِكاً، ويسمّي نفسه خليفة على سنّة الأوّلين، وحاول أن يعزّز رصيده الإسلاميّ بنقل منبر النبيّ ﷺ من المدينة إلى دمشق، لكنّه لم يُفلح في تحقيق مقصوده بنقله[٧].

و وازن المودوديّ بين نظام الخلافة الإسلاميّ والنظام المَلَكيّ لمعاوية؛ فذكر بعض الخصائص لبيان التفاوت بينهما؛ الأولى: تغيير السنّة في تعيين الخليفة، فالخلفاء قبله لم يقوموا من أجل كسب الخلافة، أمّا هو فقد كان يريد استخلاف نفسه بأيّ شكل من الأشكال، ولمّا تربّع على عرش الحكم لم يجرُؤ أحد على معارضته، وما عليه إلّا البيعة. وهذا ما اعترف به هو نفسه أيضاً، إذ أفصح عن علمه

١ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣٢.

٢ - الطبقات الكبرى ٦: ٢٠.

٣ - أخبار أصبهان ٢: ٢٥٥.

٤ - البدء والتاريخ ٦: ٦؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣٢.

٥ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣٣.

٦ - الإصابة ٣: ٤٣٤.

٧ - تاريخ الطبريّ ٥: ٢٣٠ — ٢٤٠.

بكُره الناس سلطانَه، فأخذه بالسيف[١]، وهذا أمرٌ انتهى إلى جعله له وراثيّاً. الثانية: التغيير في أسلوب حياة الحكّام، فقد بدأ تقليد ملوك الروم وفارس منذ عصره. الثالثة: ترتبط بكيفيّة بيت المال، فقد أصبح في عهده ثروةً خاصّة للمَلِك والأسرة المالكة؛ ولم يحق لأحدٍ أن يحاسب الحكومةَ عليه. الرابعة: انتهاء حريّة التعبير عن الرأي، فلم يَسَع المسلمَ أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر قطّ. وبدأ هذا النهج الجديد في عهد معاوية بمقتل حُجْر بن عَدِيّ [رضوان الله عليه]. الخامسة: انتهاء حرّيّة القضاء. السادسة هي إلغاء الشورى في الحكومة الملكيّة الجديدة. السابعة: ظهور التعصّب العنصريّ والقوميّ. الثامنة: القضاء على سيادة القانون وتفوّقه...[٢] وساق المودوديّ أمثله تاريخية كثيرة لكلّ منها.

الشيعة في عصر معاوية

إنّ من القضايا المهمّة التي شهدها عصر معاوية وجودَ عقائد شيعيّة عند فريق من الناس، لا سيّما أهل العراق، وقد أوردنا فيما تقدّم مطالب حول ظهور التيّار الشيعيّ، وسنقوّم هنا المواقف المتناظرة للشيعة وبني أميّة.

لا ريب في أنّ الشيعة كانوا من خصوم معاوية المهمّين، وكذلك كان الخوارج، إلّا أنّ شأن الخوارج ضئيل؛ لأنّ النظرة السيّئة العامّة للمسلمين عنهم، وقسوتهم الخاصّة، ومواقفهم الغليظة الحادّة غير المدروسة سبّبت في انعزالهم عن القاعدة الشعبيّة. أمّا الشيعة ـ بخاصّة في العراق ـ فهم على العكس، إذ كانوا يتمتّعون برصيدٍ شعبيّ كرصيد الإمام عليّ عليه السلام وسائر أهل البيت عليهم السلام، فالعقائد التي كان الإمام عليه السلام نشرها في العراق عقائد إسلاميّة خالصة. والناس ـ وإن سكتوا بسبب

---

١ - **البداية والنهاية** ٨: ١٣٢.

٢ - **خلافت وملوكيت** [الخلافة والملكيّة]: ١٨٨ ـ ٢٠٧.

اضطهاد معاوية إيّاهم- كانوا يستطيعون في أعماق وجودهم تمييز حقّ الإمام عليه السلام من باطل معاوية.

و اتّخذ معاوية وولاته مواقف متنوّعة من الشيعة، تفاوتت بين التسامح المزيج بالرأفة والرحمة وبين التشدّد المستطير، وكان هذا الموقف واسع النطاق جدّاً، وتواصل في العراق بخاصّة. ومن أهمّ الأساليب التي انتُهجت إشاعةُ البراءة من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بين الناس، وقد جدّ معاوية وسائر الأمويّين في العصور اللّاحقة غاية الجدّ في طمس شخصيّة الإمام عليه السلام ووصفه بأنّه عنصر يحبّ الحرب وإراقة الدماء، وما يُشبه ذلك. لكنّ حياته عليه السلام أيّامَ النبيّ صلى الله عليه وآله والخلفاء، لا سيّما أيّام خلافته هو عليه السلام، أثبتت له عظمةً خاصّةً من الوجهة العلميّة والعمليّة، وكان الناس يتناقلون خُطبَه عليه السلام جيلًا بعد جيل، كما تناقلوا الأخبار المرتبطة بتفوّقه العلميّ، والأحاديث المأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في فضائله، وأخبار قضائه العجيبة الجديرة بالثناء والإجلال والاقتداء، وتداولتها الأوساط الحديثيّة أيضاً... وهذه كلّها أفضت إلى غرس تلك الثقافة بين الناس، الثقافة التي حدت أصحابه عليه السلام على الاحتفاظ بحبّه في نفوسهم والثبات عليه حتّى الشهادة، وتواصلت هذه العقائد والعلوم طبيعيّاً بين أبنائه عليهم السلام الذين كانوا يُعرفون بأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله.

و كان الأمويّون يُدركون هذه الحقيقة جيّداً، من هنا عقدوا العزم على الطعن في شخصيّة الإمام عليه السلام، وإعلان البراءة منه في كلّ محفل ومجلس، وسنّ لعنه. وقد أفرد ابن أبي الحديد في كتابه باباً وهو «فصل في ذكر الأحاديث الموضوعة في ذمّ عليّ عليه السلام»[1]، وحين سُئل مروان عمّا حملهم على ما فعلوه، قال: لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك[2]! وحاولوا مع إساءتهم إليه عليه السلام، تفضيل سائر الخلفاء عليه من خلال

١ - **شرح النهج** ٤: ٦٣ .

٢ - **أنساب الأشراف** ١: ١٨٤.

اختلاق الأحاديث، وهذه سياسة استدامت بلا انقطاع، وصار الخلفاء والصحابة فيها قدّيسين، ولهذا السبب ذهب بعض إلى أنّ أكثر الأحاديث التي وُضعت في فضائل الصحابة كانت في عهد بني أميّة؛ لأنّ الوضّاعين كانوا يتقرّبون بها إلى السلطة التي كانت تشتري الأحاديث الموضوعة بأموالٍ مغرية.[١] واشتهر في زمانهم أشخاص -كعائشة- بوصفهم مرجع الأحاديث[٢]، وأشخاص- كزيد بن ثابت- بوصفهم يمثّلون الموقف العثمانيّ تمثيلاً كاملاً، كمرجع لاستفتاءات معاوية.[٣]

و من أعمال معاوية: نسبته أحاديث أمير المؤمنينعليه السلام إلى نفسه أو إلى غيره - أحياناً - ونسب آخرون أحاديث الأميرعليه السلام إلى معاوية. وكذّب الجاحظ نسبة هذه الأحاديث، وهو الذي فطن إلى هذا الموضوع مشيراً إلى أنّ معاوية لم يسلك مسلك الزهّاد في حياته[٤]. ونُسب إلى معاوية حديث الإمامعليه السلام الذي قال فيه: ما رأيت سَرَفاً إلّا إلى جانبه حقّ مضيّع[٥]. ونُسب حديث من أحاديثهعليه السلام في موضع آخر إلى أعرابيّ[٦]، ومعاوية نفسه قال: نحن ننسب كتاب عليّ إلى محمّد بن أبي بكر، إلى أبي بكر[٧]، ونسب دعاء الإمامعليه السلام على أهل الكوفة إلى عمر[٨].

و استمرّ سبّ الإمامعليه السلام ولعنه سنّةً متداولة، إلى أن قام عمر بن عبد العزيز

١ - انظر: فجر الإسلام: ٢١٣ .

٢ - البيان والتبيين ٢: ٣٠٣.

٣ - مصنّف عبد الرزّاق ١٠: ٢٦٧.

٤ - البيان والتبيين ٢: ٦١.

٥ - تاريخ الخلفاء: ٢٤٧.

٦ - مجمع الأمثال ١: ٦٥١.

٧ - الغارات ١: ٢٥١ .

٨ - انظر في هذا الشأن: البدء والتاريخ ٦: ٢٧ - ٢٨.

فرفعه[١]. وكان معاوية يقول لمن طلب منه الإقلاع عن اللّعن: «لا والله حتّى يربو عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلًا»[٢]. وهبّ رجالٌ من الصحابة يعينونه على ما هو فيه، فقد نُقل عن أبي هريرة حديث في الإحداث بين الأمّة، وقال في سياقه: «... فمَن أحدث فيها [في المدينة] حدثاً فعليه لعنة اللهِ والملائكةِ والناس أجمعين، وأشهد بالله أنّ عليّاً أحدث فيها»[٣]! وقيل: إنّ معاوية بذل لسَمُرة بن جُنْدب... أربعمئة ألف درهم حتّى يروي أنّ هذه الآية نزلت في عليّ عليه السلام: **﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ويُشْهِدُ اللهَ عَلى ما في قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ[٤]﴾**.[٥]

وذكر ابن أبي الحديد أنّه: «وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أحاديث قبيحة في عليّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه... منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص والمُغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»[٦].

وقال ابن أبي الحديد: روى المدائنيّ في كتاب «الأحداث» قال «كتب معاوية نسخةً واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة – سنة ٤١هـ – أن بَرِئَتِ الذمّة ممّن روى شيئاً مِن فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة، وعلى كلّ منبر، يلعنون عليّاً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته؛ وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهلُ الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة عليّ عليه السلام، فاستعمل عليهم معاويةُ زيادَ ابن سميّة، وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف»؛ وأضاف ابن أبي

---

١ – **تاريخ الخلفاء**: ٢٤٣ .

٢ – **شرح النهج** ٤: ٥٧؛ **النصائح الكافية**: ٧٢ .

٣ – **الإيضاح**: ٢١٠ –٢١١؛ **شرح النهج** ٤: ٦٣ .

٤ – البقرة: ٢٠٤.

٥ – **شرح النهج** ١: ٣٦١ (ذو الأجزاء الأربعة).

٦ – **نفسه** ٤: ٦٣.

الحديد: «وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألّا يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادةً، وكتب إليهم: أن انظروا مَن قِبَلكم من شيعة عثمان ومُحبّيه وأهل ولايته؛ والذين يروون فضائله ومناقبه؛ فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجلٍ منهم، اسمَه واسمَ أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك، حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، ثمّ كتب إلى عمّاله: أنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصرٍ وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي ترابٍ إلّا و«تأتوني بمناقضٍ له في الصحابة». وقال ابن أبي الحديد [نقلًا عن ابن عرفة المعروف بنفْطَويه – وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم – في تاريخه]: «إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعِلت في أيّام بني أميّة تقرّباً إليهم...»[1]. فاختلقوا حديثاً في مقابل حديث إخوّة الإمام عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله ونصّه: «لو كنتُ متّخذاً خليلًا لاتّخذت أبا بكر»، كما وضعوا حديث «الخَوخة» في مقابل «حديث سدّ الأبواب»[2].

وكان معاوية مقيّداً بأن يلعن الإمام عليه السلام في آخر خُطَبه[3]، بل أرغم أصحاب الإمام عليه السلام على صعود المنبر ولعنه[4]. وإذا امتنع عمّال معاوية من لعنه، عزلهم ونصب غيرهم مكانهم[5]. واسترهب الناس كي لا يُسمّوا أبناءَهم باسم عليّ عليه السلام[6]،

---

١ - **شرح النهج** ١١: ٤٤ — ٤٥.

٢ - نفسه: ٤٩.

٣ - نفسه ٤: ٥٦ — ٥٧.

٤ - **العقد الفريد** ٥: ٢٩٨؛ **اختيار معرفة الرجال**: ٦٩، ١٠١ — ١٠٢؛ **معرفة الصحابة** ٢: ٢٣٦.

٥ - انظر: **تراثنا**: العدد ١٠ ص ١٤٣ — ١٤٤.

٦ - **شذرات الذهب** ١: ١٤٨.

ويسمّوهم باسم معاوية[١]! وكان كثير من أهل الشام والعراق يبرأون من الإمام عليه السلام بسبب مقتل أقاربهم المشركين على يده، فأتيحت لهم الفرصة في عهد معاوية ليُظهروا حقدهم في السبّ واللّعن، وفيهم حُرَيزُ بن عثمان الذي «كان يلعن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه بالغداة سبعين مرّة وبالعشيّ سبعين مرّة، فقيل له في ذلك، فقال: هو القاطع رؤوسَ آبائي وأجدادي»[٢].

و سنذكر أنّ الهدف من التشدّد على أهل البيت عليهم السلام هو الحؤول دون إحياء ذكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وقد ذكر ابن الجوزيّ أنّ من أسباب سمّ الحسن بن عليّ عليه السلام ذَهَابه إلى الشام[٣]، ذلك الذهاب الذي كان ثمنه باهظاً عليه طبعاً. وجاء التشدّد على طمس شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام لئلّا يجرؤ أحدٌ على نقل فضائله عليه السلام، فلم ينقل المحدّث المشهور الأوزاعيّ من فضائل أهل البيت عليهم السلام إلّا خبر نزول آية التطهير فيهم،[٤] كما لم يروِ الزُّهريّ إلّا فضيلةً واحدة من فضائلهم عليهم السلام.[٥] وكان طبيعيّاً أن يترك اللّعن العامّ المتكرّر أثره في قلوب الناس، بخاصّة أهل الحجاز والشام، فيغيّر صورة الإمام عليه السلام في ذهن الأمّة تدريجاً. وكان لمعاوية هذا الهدف بعينه، ذلك أنّ قيادة الإسلام الحقيقيّ كانت على عاتق الإمام عليه السلام، فإذا ما مضى لسبيله فَقَدَ الدين صبغته في الأمّة أيضاً. وكان معاوية يأخذ البيعة من الناس على شرط البراءة من الإمام عليّ عليه السلام رغبةً منه في تأكيدها أكثر فأكثر،[٦] كما أكرههم

---

١ - انظر: **أنساب الأشراف** ٤: ٧٠ بشأن معاوية بن عبد الله بن جعفر.

٢ - **المجروحين** ١: ٢٦٨.

٣ - **تذكرة الخواصّ**: ٢١٢، وعن ابن سعد.

٤ - **أسد الغابة** ٢: ٢٠.

٥ - نفسه.

٦ - **بهجة المجالس** ١: ٩٩؛ **البيان والتبيين** ٢: ١٠٥.

لأوّل مرّة على أن يُقسموا في البيعة.[١]

و العمل الآخر الذي مارسه معاوية ضدّ الشيعة هو اضطهادهم والتشدّد عليهم، وكان حقده على الإمام عليّ عليه السلام وعليهم واضحاً بيّناً من مواقفه العنيفة الغليظة، وما قتلُه الإمامَ المجتبى عليه السلام، بالمؤامرة التي كان دبّر مقدّماتها ومؤخّراتها، إلّا خطوة على طريق هذه السياسة. وهذا شيء نقلته المصادر التاريخيّة، وسوّد وجهَ معاوية عند المسلمين إلى الأبد، كما أنّ معارضة بعض أمّهات المؤمنين دفنَ الإمام المجتبى عليه السلام عند جدّه صلى الله عليه وآله[٢] دلّت على ظُلامة الإمام والشيعة أكثر من كلّ شيء. وكان معاوية يدرك أنّه لا يستطيع أن يخدع شيعة العراق كما خدع أهل الشام الحمقى، من هنا، اختار طريق القتل والتعذيب. ويزيد هذا أنّ أهل العراق ـ من الشيعة وغير الشيعة ـ كانوا أولي شعور مُرهَف، حتّى إنّهم كانو يُطلقون شعارات حادّة ضدّ الأمويّين لأدنى أذىً يلقَونه، وإن استسلموا تحت ظلال سيف زياد أو الحجّاج. والاصطلاح الذي شاع استعماله للشيعة في العصر الأمويّ هو الترابيّة[٣]، ويعود هذا الاصطلاح إلى لقبٍ شريف من ألقاب الإمام عليّ عليه السلام، وهو أبو تراب الذي كان الأمويّون يستعملونه في الازدراء.

و بدأ قتل الشيعة منذ عهد الإمام عليّ عليه السلام، ولمّا تفرّق جند الإمام، ولم يكن هناك مكان آمن إلّا العراق، سرّح معاوية عدداً من رجاله مع جندهم إلى شتّى المناطق [للغارة]، ومنهم: بُسر بن أرطاة، وسفيان بن عوف الغامديّ، والضحّاك بن قيس.. وأوصاهم أن يجولوا في الأمصار فيقتلوا كلّ من وجدُوه من شيعة عليّ، فتوجّه بُسر إلى المدينة وقتل بعض صحابة الإمام عليه السلام وأوليائه، وخرّب دورهم، ثمّ

١ - نفسه ١: ٥٥٠.

٢ - **العقد الفريد ٥: ١١٥.**

٣ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام: ١٨٤.

قصد مكّة ومنها يمّم سراة، وقتل كلّ مَن ثَقِفه من أصحابه عليه السلام، ثمّ ذهب إلى نجران، وقتل فيها عبدَ الله بن عبد المدان وابنه... وأوردنا سابقاً جرائمه وجناياته.

و من المناطق التي أغار عليها في طريقه منطقةٌ كان يسكنها جماعة من شيعة الإمام عليّ عليه السلام من قبيلة هَمْدان، فحمل عليهم بغتةً، وقتل كثيراً من رجالهم وسبى عدداً من نسائهم وذَراريهم... وهذه أوّل مرّة يسبى فيها نساء وأطفال مسلمون[١]! ثمّ مورس هذا العمل بحقّ أهل البيت عليهم السلام بعد واقعة كربلاء. وذكر المسعوديّ أن بُسراً قتل رجالًا من خُزاعة وهَمْدان وجماعةً يُعرفون بالأبناء (من سُلالة الفُرس المقيمين باليمن) كانوا في اليمن، ولم يَبْلُغه عن أحدٍ أنّه يُمالئ عليّاً أو يَهواه إلّا قَتَلَه![٢] وأغار سفيان بن عوف [الغامديّ[٣]] على الأنبار، وقتل ابن حسّان البكريّ [والي الإمام عليه السلام عليها]، ورجالًا ونساءً من الشيعة.[٤]

و حين أكرِه الإمام الحسن عليه السلام على مهادنة معاوية، كان من شروط الصلح أمن الشيعة من الأخطار التي شعربها الإمام عليه السلام، لذلك نصّت معاهدة الصلح على ضمان أمنهم، ورضيَ معاوية ظاهراً بذلك أيضاً، بيد أنّه - كما مرّ - أعلن بعد برهة قصيرة أنّه يضع تلك العهودَ تحت قدَميه.

و كانت الكوفة مركزاً للاتّجاهات السياسيّة والعقائد الشيعيّة، فما كان على معاوية إلّاأن يولّي أمرها مَن يتمكّن من أهلها، فنصب المُغيرةَ بن شعبة الذي لم يقصّرعنه في المكروالخديعة بعد أن دار الأمر بين نصبه ونصب عبد الله بن عمرو

---

١ - **العقد الفريد** ٥: ١١.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ٢٢. ذكر الطبريّ أنّ بُسراً كان يقتل كُلَّ من كان يحتمل اشتراكه في قتل عثمان. **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٣٤.

٣ - وَهَمَ المولّف في ذكر اسمه فقال: عوف بن سفيان، في حين أنّ الصحيح هو سفيان بن عوف الغامديّ. المترجم.

٤ - **الأغاني** ١٦: ٢٦٦، ٢٦٧.

ابن العاص، وجدّ المغيرة في معاملة المعارضين معاملةً سياسيّة هادئة ما وسعه ذلك، وكان العراق يومئذٍ قاعدةً لفريقين من مناوئي بني أميّة: الخوارج، والشيعة.. أمّا الخوارج فقد ثاروا مراراً وسرعان ما قُمِعوا، وأمّا الشيعة فلم يَرَوا أنفسهم مأذوناً لهم بالخروج استناداً إلى المعاهدة الموقّعة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، وكان المغيرة يحاول ألّا يتعرّض إلّا لمن يخرج عليه، لذلك كانت له علاقات بيّنة بخوارج الكوفة.[١]

وكان بين قبائل العراق جماعات من قبيلة: ربيعة، وهَمْدان[٢]، وبني عبد القيس، و(خزاعة التي كان عددها قليلًا في العراق) ذات ميول واتّجاهات شيعيّة. وقد خاطب صعصعة بن صوحان قبيلة بني عبد القيس قائلًا: ...«ثمّ اختلف النّاسُ بعده [بعد النبيّ صلى الله عليه وآله] فثبتت طائفة، وارتدّت طائفة... فلَزِمتُم دين اللهِ إيماناً به وبرسوله... فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة... وقالت طائفة: نريد عبدَ الله بن وهب الراسبيّ... وقلتم أنتم: لا نُريد إلّا أهلَ البيت الذين ابتدأنا اللهُ مِن قِبَلِهِم بالكرامة»[٣]. واستثمر صعصعة الفرصة في مواطن أخرى أيضاً وبثّ آراءه التي يحوم أكثرها حول انتقاد عثمان، وذكر فضائل الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ولمّا بلغ المغيرةَ خبرُه استدعاه وقال له:... فإنّك لستَ بذاكرٍ من فضل عليّ شيئاً أجهلُه، بل أنا أعلم بذلك، ولكنّ هذا السلطان قد ظهر، وقد أُخِذْنا بإظهار عيبه للناس، فندعُ كثيراً ممّا أُمِرنا به ونذكر الشيءَ الذي لا نجد منه بُدّاً ندفعُ به هؤلاء القوم [بني أميّة] عن أنفسِنا تقيّةً[٤]! ومهما كان، فإنّ المغيرة - كما ذكر هو نفسه - كان كسائر

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٣٢.
٢ - انظر: مروج الذهب ٢: ٣٧٩.
٣ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٤١.
٤ - نفسه ٤: ١٤٤.

العمّال مدفوعاً إلى لمز الإمام عليّ عليه السلام وتبرئة عثمان، لذلك طالما كان في المسجد يتعرّض لعليّ في مجلسه وخُطَبه، ويدعو لعثمان ويترحّم له.[1]

بيد أنّ أوضاع الكوفة قد تغيّرت بعد موت المغيرة الذي هلك في سنة ٤٩ أو ٥٠هـ، وكان زياد ابن أبيه والياً على البصرة يومئذٍ، فضمّ معاوية إليه حكومة الكوفة أيضاً. وكان والياً على فارس في زمن الإمام عليّ عليه السلام، وإذ عزم معاوية على خديعة أصحاب الإمام عليّ عليه السلام، كان زياد ممّن خدعهم، ولم يكن له أب، وهذه نقطة ضعفٍ بيّنة عالجها معاوية باستلحاقه وتسميته زياد بن أبي سفيان! وعلى الرغم من تحذير الإمام الحسن عليه السلام لزياد[2]، لم يمتعض من عمل معاوية كثيراً، ثم قصَدَه في نهاية المطاف بعد حينٍ مضى على الصلح.

و كان معاوية يعرف زياداً وشدّته وغلظته، وكذلك كان يعلم أنّه عاش في العراق ردحاً طويلًا من الزمن، وعرف أصحاب الإمام عليّ عليه السلام وشيعته جميعاً، من هنا، وجّهه إلى البصرة أوّلًا، ثمّ ضمّ إليه الكوفة بعد هلاك المغيرة. ومن المحتمل أنّه كان يدري بأنّ الشيعة في الكوفة تتمتّع بحريّة نسبيّة، بل كانت تجهر باعتراضها على المغيرة في المسجد أحياناً، وهذا خطر حقيقيّ تداركه معاوية بإيفاد زياد إليهم.

و أوّل عمل قام به زياد هو أنّه قطع أيدي الذين لم يبايعوه (قرابة ثمانين رجلًا).[3] وكانت غلظته في البصرة - التي كان فيها فريق من الخوارج مضافاً إلى ثلّة من الشيعة - مشهورةً، فقد أقرّ فيها نوعاً من الحكومة العسكريّة، إذ كان أهلها يتجوّلون فيها بعد صلاة العشاء بمقدار قراءة سورة البقرة، وذهابهم ووصولهم إلى منازلهم،

١ - نفسه ٤: ١٨٨؛ **تاريخ ابن خلدون** ٣: ١٠، ١١.

٢ - **ربيع الأبرار** ٣: ٥٥٩.

٣ - **الكامل** ٣: ٤٦٢.

وبعد ذلك كان الشرطة يقتلون كلّ مَن وجدوه حيث كان[١]. وذهب المؤرّخون إلى أنّ زياداً كان أوّل مَن شهر السيف على الناس وقبض عليهم بالتهمة، وعاقبهم على الشكّ والشبهة.[٢] ومن الشيعة الذين قتلهم: مسلم بن زَيمُر، وعبد الله بن نُجي الحضرميّان.. وهما اللّذانِ ذكر شهادتَهما الإمامُ الحسين عليه السلام في كتابه الذي بعثه إلى معاوية بعد شهادة حُجر بن عَدِيّ الكنديّ[٣].

و كانت مهمّة زياد هي قمع الشيعة في الكوفة وأرجاء العراق والتنكيل بهم. قال ابن أعثم: «و جعل زياد يتتبّع شيعة عليّ بن أبي طالب فيقتلهم تحت كلّ حجر ومَدَر حتّى قتل منهم خلقاً كثيراً! وجعل يقطع أيديَهم وأرجلهم، ويَسمل أعينهم، وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاويةُ جماعة»[٤].

و جاء في مصدر آخر أيضاً أنّ معاوية نفسه هو الذي أمر بصلب جماعة من الشيعة.[٥] وكان زياد يجمع الشيعة في المسجد ليبرأوا من عليّ عليه السلام![٦] وتتبّع الشيعة في البصرة أيضاً وقتلهم بعد العثور عليهم[٧]. وقد أنكر الإمام الحسن عليه السلام ذلك على معاوية في كتابٍ بعثه إليه[٨]. و تعامل معهم سَمُرة بن جُندَب الذي خلّفه في البصرة نفسَ المعاملة، وقيل: إنّه زاد أيتام البصرة، وقتل زُهاءَ ثمانية آلاف، وحتّى

١ - **تاريخ ابن خلدون** ٣: ٨؛ **الكامل** ٣: ٤٥٠.

٢ - **الفتوح** ٤: ١٧٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٦٧؛ **تاريخ ابن خلدون** ٣: ١٨؛ **الكامل** ٣: ٤٥٠.

٣ - انظر: **المحبّر**: ٤٧٩. قال محمّد بن حبيب: «و صلب زياد ابن أبيه مسلمَ بن زَيْمُر، وعبدَ الله بن نُجي الحضرميَّين على أبوابهما أيّاماً بالكوفة، وكانا شيعيَّين، وذلك بأمر معاوية»!

٤ - **الفتوح** ٤: ٢٠٣؛ انظر: **شرح النهج** ١: ٤٤.

٥ - **المحبّر**: ٤٧٩.

٦ - **مختصر تاريخ دمشق** ٩: ٨٨.

٧ - نفسه: ٨٨.

٨ - نفسه: ٨٦.

أنكر ذلك عليه زيادٌ نفسه[١]! ولا يُعلَم مدى صحّة هذه الأرقام، إلّاأنّها، على أيّ حال، مثال من جرائمهم وجناياتهم. وكان موقف زياد من أولياء عليّ عليه السلام مَوقفاً مَشيناً عادةً[٢]، وكذلك كان والي معاوية الآخر عبد الله بن عامر[٣]. وحين حكم النعمان بن بشير الكوفة زمناً لم يعمل حتّى بأمر معاوية في زيادة سهم أهلها من بيت المال؛ لشدّة حقده عليهم[٤].

وكان معاوية، على ظاهره المسالم، أمر زياداً أن يقتل كلَّ من كان على دين عليّ عليه السلام[٥]، وكذلك كتب إلى عمّاله يقتلوا كلَّ مَن كان شيعةً لعليّ عليه السلام ومن اتّهم بمودّته حتّى لو لم تقم البيّنة عليه، وأن يُخرجوهم من كلّ حجر ولو على الظنّ والتهمة![٦] وكتب إليهم أيضاً: «انظروا مَن قامت عليه البيّنة أنّه يُحبّ عليّاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتّهمتموه بمُوالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره[٧]! قال ابن أبي الحديد:... فكان [زياد] يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنّه كان منهم أيّامَ عليّ عليه السلام، فقتَلَهم تحت كلّ حجرٍ ومدر، وأخافهم، وقطع الأيديَ والأرجل، وسَمَل العيون، وصَلَبهم على جذوع النّخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق.[٨]

وكان لهذا الموقف دليلٌ ساطع، كما قال الأحنف بن قيس أحد رؤساء قبيلة

---

١ - **تاريخ الطبري** ٤: ١٧٦ و ٤: ٢١٧؛ **ابن خلدون** ٣: ١٠؛ **الكامل** ٣: ٤٦٢.

٢ - **الأغاني** ٢: ٣١٢.

٣ - نفسه: ٣١٧، ٣٣٦.

٤ - نفسه ١٦: ٢٩، ٣٠.

٥ - **بهج الصباغة** ٣: ١٧٩، ١٨٠؛ **شرح النهج** ٤: ٥٧ . وجاء أصل هذا الكلام في رسالة الإمام الحسين عليه السلام، التي سننقلها مفصّلاً في الفصول الآتية.

٦ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٥٤؛ **بهج الصباغة** ٣: ١٨٠.

٧ - **شرح النهج** ١١: ٤٥؛ **الغدير** ١١: ٢٩.

٨ - نفسه ١١: ٤٤، ٤٦.

بني تميم المهمّين لمعاوية أنه لم يأخذ العراق بالقوّة، بل أخذه بالعهد[١]، وكلّما أراد أهله القيام عليه، أتوا ببلاءٍ عظيم، على حدّ تعبير معاوية نفسه.[٢] من هنا، كان ضروريّاً أنّ يُخمَد كلّ تحرّكٍ في بداية تكوّنه. وكان أهل العراق لا يريدون حكومة الأمويّين، وإنّما خضعوا لها بالإكراه. وهذا ما كان الإمام الحسن عليه السلام قد قاله لمعاوية[٣]. وعلى هذا الأساس، وكما قال الجاحظ، سمّى معاويةُ عامَ ٤١هـ «عامَ الجماعة» خطأ، إذ يجب أن يسمّى «عام التفرقة».[٤] وكلّ ذلك دليل على أنّ الكوفيّين لم يؤازروا معاوية، بل هو دليل بالقوّة على عدائهم له، وكلّما حاول مثل زياد في ضغطه واضطهاده، والمغيرة في خداعه وتحايله أن يحولوا دون تنامي معارضتهم، ظلّوا متمسّكين بعهدهم في الباطن. وكان الإمام عليّ عليه السلام قد أوصاهم بسبّه [تقيّةً] إذا عُرِض عليهم ذلك، أمّا إذا عُرِضت عليهم البراءة منه، فلا يفعلوا.[٥] على أيّ حال، كانت الكوفة ناراً خابية، فلا بدّ من الحؤول بالقوّة دون اندلاعها مرّة أخرى.

قمع الحركة الشيعيّة لحجر بن عَدِيّ

كان حجر الخير، أو حجر بن عَدِيّ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله[٦]، صحب الإمام عليّاً عليه السلام، فكان من شيعته المخلصين الصامدين. ينحدر حجر من قبيلة كِنْدة، وهي من قبائل جنوب الجزيرة التي قدمت إلى العراق في السنة السابعة عشرة،

١ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٥٦، ١٥٨؛ وانظر: **بحار الأنوار** ٤٤: ١٠٨.

٢ - **بحار الأنوار** ٤٤: ١٠٤.

٣ - **مناقب ابن شهر آشوب** ٤: ٢٢؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ١٠٤.

٤ - **رسالة الجاحظ في بني أميّة** (المطبوعة مع رسالة النزاع والتخاصم، للمقريزيّ).

٥ - **شرح النهج** ٤: ١٠٦.

٦ - انظر: **الإصابة** ١: ٣١٤؛ **المحبّر**: ٢٩٢.

واشتركت في حوادثه؛ كما ساهمت في صفّين، ثمّ في ثورة المختار،[١] ووقفت شِرذمة منها ضد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء . وشهدت صفّين نشاطاً واسعاً جدّاً لحجر، إذ كان من أمراء جيش الإمام عليّ عليه السلام فيها، ولَزِمه حتّى اللّحظات الأخيرة التي تركه فيها كثيرٌ من أصحابه[٢،٣] . وكان من أزهد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد سمّاه الحاكم النيسابوريّ: راهب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله[٤] . وكان من الذين حضّوا الناس على بيعة الإمام الحسن عليه السلام بعد شهادة أبيه عليه السلام . ولم يرض كثيراً بصلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية على ما بدا في النظر، بيد أنّ الإمام عليه السلام أبان له أنّه أقدم على هذا العمل محافظةً على أرواح رجالٍ مِثْله[٥]، وإن لم يفِ معاوية بعهده، فقتل حجراً وأصحابَه[٦] .

وكان يُنالُ من الإمام عليّ عليه السلام في مسجد الكوفة على رؤوس الأشهاد طوال حكم المغيرة بن شعبة الذي دام حتّى بداية العقد الخامس عليها، وكانت قيادة الشيعة بيد رجالٍ من شيعة الإمام عليه السلام، ومنهم حجر بن عديّ وعمرو بن الحَمِق الخزاعيّ[٧] . وكان حجر ممّن أنكر على المغيرة نيلَه من الإمام عليه السلام[٨]، حتّى إنّ المغيرة لمّا أراد أن يبعث إلى معاوية ما احتاج إليه من الأشياء والأموال، وجهّز قافلةً لأجل ذلك، اعترض حجر طريق القافلة وقال: إنّه لن يأذن ببعثها إلى معاوية ما لم يؤدّ

---

١ - انظر: معجم قبائل العرب ٤: ٩٩٩؛ وقعة صفّين: ١٠٤.

٢ - نفسه .

٣ - الغارات ٢: ٤٨١.

٤ - أعيان الشيعة ٢٠: ٦٠، ٦٧ .

٥ - أنساب الأشراف ٢: ٤٥.

٦ - نفسه: ٤٧.

٧ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٧٥.

٨ - الأغاني ١٧: ١٣٣، ١٣٤.

لكلّ ذي حقٍ حقُّه.[١] وكان المغيرة قد طلب من حجر وأصحابه أن يشتركوا في صلاة الجماعة بأمر معاوية.[٢] وأراد منه ذات مرّةٍ أن يصعد المنبر ويلعن الإمام عليه السلام، فصعد وقال: «... وإنّه أمرني أن ألعن عليّاً، فالعنوه لعَنَه الله»[٣]!! ففهم الناس كلّهم أنّه لعن المُغيرة.[٤] مع هذا، كان المغيرة يقول: «... ولا أحبّ أن أبتدئ أهل هذا المِصر بقتل خيارهم، وسفك دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعزّ في الدنيا معاوية، ويذلّ يوم القيامة المغيرة»![٥] قال هذا لمن أراد منه أن يقبض على حجر ويؤذيه.

و تغيّرت الأوضاع تغيّراً ملحوظاً بعد هلاك المغيرة وتسلّط زياد على الكوفة، وبدأ زياد شدّته وغلظته منذ اللّيلة الأولى لحكومته، وقد سجّلت المصادر التاريخيّة خطبته الغرّاء في تهديد أهل الكوفة كمثال من خطب العرب في ذلك الحين. وكان يعرف حجر بن عديّ معرفةً جيّدة، لذا ما أن تسلّط، قال له: «تعلم أنّي أعرفك، وقد كنت أنا وإيّاكَ على ما قد علمتَ (يعني من حبّ عليّ بن أبي طالب) وأنّه قد جاء غير ذلك... املكْ عليك لسانك ولْيَسَعْك منزلُك. وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضيّة لديّ، فاكفِني نفسَك؛ فإنّي أعرف عجلتك»،[٦] وقبل حجر كلامه في الظاهر وانصرف.

ثمّ تغيّر الوضع تارةً أخرى بعد حين، وقيل: إنّ حجراً قطع مرّة خطبة زياد التي طالت وتأخّر وقت الصلاة بسببها، منادياً: الصلاة[٧]، وكذلك قيل: إنه كان يعقد

---

١ - **تهذيب تاريخ دمشق** ٤: ٨٤.

٢ - **الكامل** ٣: ٤٢٤.

٣ - **اختيار معرفة الرجال**: ٦٩، ١٠١، ١٠٢.

٤ - وذلك بعودة الضمير في (فالعَنُوه) إلى المغيرة.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٨٩.

٦ - **الطبقات الكبرى** ٦: ٢١٨؛ وانظر: **الأغاني** ١٧: ١٣٤، ١٣٥.

٧ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٤٠.

الاجتماعات مع الشيعة بعد ذهاب زياد إلى البصرة، فكتب إليه عمرو بن حريث، خليفته عليها: «إن كانت لك حاجة بالكوفة فالعَجَل»![١]

و لم يكن حجر وحده طبعاً، بل معه ثلّة من الشيعة، فقيل: إنّه لمّا اعترض على المغيرة في المسجد أيّده أكثر من ثُلُثَي الناس[٢]. وذكر أبو الفَرَج أيضاً أنّ زياداً لمّا كان بالبصرة، استولى حجر وأصحابه على ثلث المسجد أو نصفه وبدأوا يذمّون معاوية ويعيبونه.[٣] و زياد نفسه أيضاً ذمّ أكابر أهل الكوفة قائلًا لهم: أنتم معي، وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر[٤]. وبعد هُنَيئة تفرّق كثير منهم عن حجر، لأنّ رؤساء القبائل هدّدوا أفراد قبائلهم، فلم يبق مع حجر أنصارٌ كُثْر، من هنا، لمّا بعث زياد رجالًا إلى حجر، قال حجر لأصحابه: انصرفوا؛ فواللهِ ما لكم طاقةٌ بمن قد اجتمع عليكم من قومكم. واستسلم على أن يبعثوا به إلى معاوية ليرى فيه رأيه.[٥]

وقبل زياد هذا الشرط، لكنّه سعى من طريق آخر إلى أن يعرّضه للقتل، فحمل أربعة رجالٍ كان قد اختارهم لرئاسة قبائل الكوفة على أن يشهدوا ضدّ حجر، وجاء في هذه الشهادة أنّ حجراً كان يجمع إليه الجموع ويشتم فيها معاوية. وكان حجر يعتقد أيضاً أنّ الخلافة لا تصلح إلّا في آل أبي طالب. وقالوا: إنّه وثب في المصر، وأخرج منه حاكمه (عمرَو بن الحريث). وأنّه ترحّم على عليّ عليه السلام وتبرّأ من عدوّه وأهل حربه.

و لم يقبل زياد هذه الشهادة، وأمر أبا بُردة بن أبي موسى الأشعريّ أن ينظّم شهادةً

١ - الطبقات الكبرى ٦: ٢١٨.

٢ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٨٩؛ تاريخ ابن خلدون ٤: ١١.

٣ - الأغاني ١٧: ١٣٥.

٤ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٤١؛ الأغاني ١٧: ٣٦.

٥ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٤٠؛ تاريخ ابن خلدون ٤: ١٤.

أشدّ من هذه وأفظع، فكتب: إنّ حُجراً خلع الطاعة، وفارَقَ الجماعة، ولعَنَ الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع، يدعوهم إلى نكث البيعة وخلعِ أمير المؤمنين معاوية، وكفَرَ بالله كُفرةً صلعاء[١]!

وزيدت هنا الشهادة على كفر حجر، وهذه الشهادة قدّمها أبو بردة، أحد المحدّثين الكبار لروايات أهل السنّة[٢]، فأمر زياد سائر الناس أن يوقّعوا عليها وممّن وقّعها: إسحاق وموسى ابنا طلحة، والمنذر بن الزبير، وعمر بن سعد بن أبي وقّاص، وعُمارة بن عقبة بن أبي مُعَيط.[٣]

و نقل المؤرّخون أنّ حجراً لمّا قُبض عليه كان يصيح: أنا ما زلتُ على بيعتي. وكان قوله هذا صحيحاً، لأنّه لم يُرد أن يثور ضدّ معاوية، بل كان مطلبه الوحيد أن لا يُساءَ إلى الإمام عليّ عليه السلام ولا يُنالَ منه، وهذا ما ورد في عهود معاوية التي اشتملت عليها معاهدة الصلح، وكان معاوية قد أقرّبها. بيد أنّ النقطة الطريفة جدّاً هي أنّ الشهادة ذكرت أنّ حجراً كان يعتقد أنّ الخلافة لا تصلح إلّا لآل أبي طالب، وكلامه هذا آيةٌ على عقيدته الشيعيّة الخالصة، والشيعيّ الخالص هو الشيعيّ الرساليّ العقائديّ، وعقيدة مثل هؤلاء الشيعة هي أنّ الإمامة حقّ أهل البيت وحدهم لا غيرهم. وهذا ما ورد في شعرٍ نقل عن حجر أيضاً، قال فيه:

فإنّه كانَ له وليّاً ثُمّ ارتضاهُ بَعدَه وَصِيّا[٤]

فكان يرى أنّ عليّاً عليه السلام وليّ النبيّ صلى الله عليه وآله و وصيّه.

---

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٩٩، ٢٠٠؛ الغارات ٢: ٥٦٥؛ الكنى والألقاب ١: ١٥؛ الأغاني ١٧: ١٤٦؛ تاريخ ابن خلدون ٤: ١٢ و١٣ . ومن المحتمل أنّ في صفة «صلعاء» إشارة إلى الإمام عليّ عليه السلام الذي كان معروفاً بالأصلع، وربّما أنّها بمعنى الشديدة المنكَرة.

٢ - جاء في «تذكرة الحفّاظ» ١: ٩٥ بشأن أبي بردة: «إنّه الفقيه، أحد الأئمّة الأثبات».

٣ - الأغاني ١٧: ١٤٦؛ تاريخ ابن خلدون ٤: ١٢، ١٣.

٤- وقعة صفّين: ٣٨١.

و شهد العراق رجالًا غيره كانوا يعتقدون نفس العقيدة آنذاك، ومن هؤلاء: أبو الأسود الدؤليّ الذي أنشد بعد استهزاء المستهزئين بحبّه الشديد لأهل البيت عليهم السلام قائلًا:

أحِبُّ محمّداً حبّاً شديداً   وعبّاساً وحمزةَ والوَصيّا[١]

فهو قد عرّف الإمام عليه السلام وصيّاً للنبيّ صلى الله عليه وآله، وهو مَعْلَمٌ على خلافته عليه السلام له صلى الله عليه وآله. ويُشبهُ هذا كلامٌ مأثورٌ عن مالك الأشتر في الإمام عليه السلام، إذ قال: «هذا وصيّ الأوصياء، ووارث علم الأنبياء»[٢]. وهذا تعبير كان يستعمله أيضاً شيعة الإمام الباقر عليه السلام، من أمثال جابر بن يزيد الجُعفيّ، بشأن الإمام[٣]. وذكرنا قبل ذلك أمثلة كثيرة في حديثنا عن التشيّع في عصر الإمام عليه السلام.

و في خاتمة المطاف سِيق حجر مع أربعة عشر من أصحابه إلى الشام، وسُمِّيَ هؤلاء الرؤساء أصحاب حجر[٤]، واستُشفع بعضهم إلى معاوية فعفا عنهم. كما استُشفع إليه حجرٌ أيضاً لكنّ معاوية رفض هذه الشفاعة، وقيل: إنّ معاوية كان متردّداً في البداية، لذلك كان قد كتب إلى زياد قبل هذا أنّ رأيه ألّا يُقتَل حجرٌ، لكنّ زياداً أجابه بأنّه إذا تركه أفسد عليه العراق[٥]. و قال أيضاً بأنّه إذا لم يُرد الكوفة، فليأذن برجوع حجر إلى العراق[٦].

و قرّر معاوية في آخر الأمر أن يقتله، إلّا أنّه لمّا لم يُرد أن يواجهه أمَرَ بإيقافه في مرج

١- الأغاني ١٢: ٣٢١.

٢ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٥١.

٣ - الإرشاد: ٢٨٠

٤ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٩٩.

٥ - نفسه ٤: ٢٠٤.

٦ - نفسه ٤: ٢٠٣؛ الأغاني ١٧: ١٤٩.

عذراء الذي يبعد عن دمشق فراسخ[1]، وبعد ذلك قرأ على أهل الشام شهادة الكوفيّين على حجر وأصحابه وطلب منهم أن يشيروا عليه في ذلك! وكان واضحاً بيّناً أنّ رأي أبناء الصحابة، إذا كان كذلك، فماذا تقول الشام حينئذٍ؟! وبعث معاوية رجالًا إلى مرج عذراء لقتل حجر وأصحابه، وكُلِّف هؤلاء بعرض البراءة عليهم من الإمام عليّ عليه السلام، فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم القتل، لكنّ حجراً وأصحابه رفضوا هذا العرض. ومن المحتَمل أنّ موقفهم هذا يعود إلى نهي الإمام عليه السلام عن البراءة منه إذا عُرِضت على شيعته، أمّا إذا عُرِض عليهم السبّ، فليسبّوه[2]. ثمّ حفر حجر وأصحابه قبورهم بأيديهم، وأمضوا ليلتهم في العبادة حتّى الصباح، وأطلِقَ منهم ثمانية، واستعدّ ستّة منهم للشهادة، وطُلِبَ منهم في صباح اليوم التالي مرّة أخرى أن يقولوا رأيهم في عثمان. فقالوا: هو أوّلُ مَن جارَ في الحُكْم. وقيل لهم: هل تبرأون من عليّ؟ فقالوا: لا، بل نتولّاه، ونتبرأ مِمّن تبرّأ منه. ثمّ استعدّوا للشهادة، وصلّى حجر - الذي كان من زهّاد العراق المشهورين - ركعتين أطال فيهما، وقال: والله ما صلّيتُ قطُّ أقصرَ منها، ولولا أن تَرَوا أنّ ما بي جزعٌ من الموت لأحببتُ أن أستكثر منها.

و استُشهد الستّة.. وأخِذ كريم بن عفيف الخثعميّ وعبد الرحمان بن حسّان العنزيّ إلى معاوية، وشُفِعَ لكريم، أمّا عبد الرحمان فقد سأله معاوية عن الإمام عليّ عليه السلام، فقال: دَعْني ولا تسألني فإنّه خيرٌ لك؛ فأصرّ معاوية عليه فقال: أشهدُ أنّه كان من الذاكرين اللهَ كثيراً، ومن الآمرين بالحقّ، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس؛ قال: فما قولك في عثمان؟ قال هو أوّلُ مَن فتح بابَ الظُّلم، وأرْتَجَ أبوابَ

---

١ - قيل: إنّ حجراً هو الذي كان قد فتح هذه المنطقة إبّان فتح الشام، **المحبز**: ٢٩٢: «إنّ حجراً أوّل مَن وحّد الله عزّوجلّ بمرج عذراء حين افتُتحت».

٢ - **الإرشاد**: ١٦٩؛ **اختيار معرفة الرجال**: ١٠١.

الحقّ! فبعث به معاوية إلى زياد، وكتب إليه أن يقتله شرّ قتلة، فأمر زيادٌ بدفنه حيّاً[1].

صدى شهادة حُجْر

كانت شهادة حجر ضربةً قاصمة لسمعة معاوية وسائر الأمويّين؛ فقد كان هذا الرجل من زهّاد أصحاب النبيّ ﷺ وعبّادهم، وما أكثر الذين كانوا يعرفونه بالخصال الصالحة! فضلًا عن هذا فإنّه كان من رؤساء قبيلة كِنْدة، ولهذا كانت له شُهرةٌ تامّة، من هنا، كان طبيعيّاً أن يُعتَرض على بني أميّة ومعاوية بالذات ضروب الاعتراض. وعلى الرغم من أنّ ضغوط زياد للحؤول دون قيام الثورات المحتمَلة في العراق، بيد أنّها زادت الشعور بالتشيّع بين أهله من جهة، كما زادت حقدهم على معاوية من جهةٍ أخرى. وشهدت الفترات اللّاحقة اشتراك كثير منهم في ثورة المختار، ومنهم ابنا حجر: عبد الله، وعبد الرحمان[2] ولمّا سمع بعض عمّال زياد - كالربيع بن زياد الحارثيّ حاكم خراسان- خبرَ شهادة حجر غمّهم ذلك كثيراً، إذ قيل: إنّ الربيع «لمّا بلغه مقتل حجر بن عَديّ الكنديّ غمّه ذلك، فدعا بالموت فسقط من يومه فمات»[3].

و كانت عائشة أيضاً من المنكرين على معاوية قتلَ حجر، فقد بعثت عبد الرحمان بن الحارث إلى معاوية لكيلا يقتل حُجراً، لكنّه لمّا وصل إليه كان حُجر قد استشهد![4] فعَنّفَتْ عائشة معاويةُ بعد ذلك لقتله إيّاه[5]، وقالت: «لولا أنّا لم نغيّر

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٠٥، ٢٠٦؛ **الأغاني** ١٧: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ . في نقل النصّ أخطاء وقفتُ عليها حين القراءة، فراجعت مصدرها وصحّحتها هنا كما هي في النصّ. المترجم.

٢ - **الإصابة** ١: ٣١٥؛ **أعيان الشيعة** ٢٠: ٦١ (عن المستدرك والطبقات).

٣ - **فتوح البلدان**: ٤٠٠، ٤٠١.

٤ - **الطبقات الكبرى** ٦: ٢١٩؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٠٨؛ **الأغاني** ١٧: ١٥٤.

٥ - **الإصابة** ١: ٣١٥.

شيئاً إلّا آلت بنا الأمور إلى أشدّ ممّا كنّا فيه، لغيّرنا قتل حجر».[١] في حين كان حُجر مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وضدّ عائشة في حرب الجمل، إلّا أنّ زهد حُجر وعظمة منزلته في نفوس المسلمين، كان أحد الأسباب التي حَمَلَتْ عائشة على إنكارها واعتراضها على معاوية.

و مكر معاوية كما هو دأبه وقال: «لستُ أنا قتلتهم، إنّما قتلهم مَن شهد عليهم».[٢] وهذا العمل أفضى فيما بعد إلى سلب بعض الأفراد، كالحسن البصريّ[٣]، ثقتَهم واعتقادهم لبني أميّة، وفقدان بني أميّة اعتبارهم عند الناس. ونقل عن معاوية أنّه قال: «ما قتلت أحداً، إلّا أنا أعلم فيم قتلتُه، إلّا حجر بن عَديّ»[٤]. ونُقل عن أبي زرعة أنّه قال: «و ما دخلنا معه [جرير] عليه [على معاوية] إلّا ذكر قتل حجر»[٥]، ومعاوية نفسه قال عند موته: أيّ يَوْمٍ من حُجر، وأصحاب حُجْر؟![٦] لاسيّما وأنّ حُجراً كان قد أوصى بأن يدفن في ثيابه؛ لأنّه كان يريد أنّ يواجه معاوية في الآخرة بهذا الوضع.[٧] وقال المؤرّخون في جملة واحدة: أوّل ذلٍّ دخل الكوفة قتل حُجر، وقتلُ الحسين، ودعوة زياد،[٨] وفي بعض الأخبار: قتلُ الحسن عليه السلام. [و المراد من دعوة زياد إلحاقه بأبي سفيان].

و أخذت علاقة الإمام الحسين عليه السلام تزداد بشيعته بعد هذه الحادثة، فكتب إليه

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٠٨؛ **الأغاني** ١٧: ١٥٤.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٠٨.

٣ - نفسه.

٤ - **تاريخ دمشق** ١٢: ٢٣١ . أي أنّه قتله بلا سبب.

٥ - **المستدرك** ٣: ٤٦٩.

٦ - **أعيان الشعية** ٢٠: ٥٨ .

٧ - **الطبقات الكبرى** ٦: ٢٢٠.

٨ - **الأغاني** ١٧: ١٥٣.

معاوية ـ الذي كان قد خاف من تحرّكه ـ يحذّره من إثارة التفرقة والفتنة والفساد بين الأمّة، فأجابه الإمامعليه السلام جواباً رصيناً، ذكّره فيه بقتله شيعةَ الإمام عليّعليه السلام، وأهمّهم حُجربن عَدِيّ، وهدّد معاويةَ بمواجهته بالقتال والسلاح. وسنذكر كتاب الإمامعليه السلام هذا لاحقاً في الحديث عن مواقفهعليه السلام من معاوية.

و من أصحاب حُجر الذين استُشهدوا في تلك الأيّام عمرو بن الحَمِق الخزاعيّ، وكان من أصحاب النبيّصلى الله عليه وآله والإمام عليّعليه السلام، وصار محور الشيعة بالكوفة بعده[1]، ولمّا أشخص زياد عدداً من شرطته للبحث عن حُجر وأصحابه، فرّ عمرو بن الحَمِق مع رفاعة بن شدّاد إلى المدائن، ثمّ إلى الموصل، فبعث حاكمها من يقبض عليهما، وهما لم يعرفا هذه المنطقة. أمّا رفاعة فقد فرّ، وأمّا عمرو فقد أخِذ إلى عبد الرحمان بن عبد الله بن عثمان الثقفيّ حاكم الموصل، فلمّا رآهُ عرفه، فكتب إلى معاوية بخبره، فكتب إليه معاوية: إنّه زعم أنّه طعن عثمان بن عفّان تسع طعنات... فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان. ولمّا كان مريضاً، فقد استُشهد في الطعنة الأولى، وفُصِلَ رأسُه وبُعِثَ به إلى معاوية، وهوأوّل رأسٍ نُقِلَ من بلدٍ إلى بلد[2]. ثمّ فُعِلَ ذلك برأس الحسينعليه السلام وأصحابه. وما ذكره بعض من أنّهم وجدوه ميّتاً في غارٍ وقطعوا رأسه[3]، إنّما هولتبرئة ساحة معاوية من جريمة قتل الصحابة كما يبدو، وذكر محمّد بن حبيب أنّه طيف برأس عمرو بن الحَمِق في السوق[4].

الفتوحات في عهد معاوية

توقّفت الفتوحات في شرق البلاد الإسلاميّة وغربها إبّان خلافة الإمام عليّعليه السلام

١- تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠.

٢ - الأغاني ١٧: ١٤٣ ـ١٤٤؛ تاريخ الطبريّ ٥: ١٩٧؛ الدرجات الرفيعة: ٣٤٣؛ وانظر: المحبّر: ٢٩٢.

٣ - الدرجات الرفيعة: ٤٣٢.

٤ - المنمّق: ٤٩٠.

بسبب الحروب الداخليّة التي دامت خمس سنين، ولمّا كانت سياسة الإمام عليه السلام إصلاح الوضع الداخليّ والإطاحة بالعناصر المفسدة، فقد أوقف الفتوحات، وإذ كان معاوية أيضاً بحاجةٍ إلى قوّةٍ كبيرة لمحاربة الإمام عليّ عليه السلام، رضي بالصلح مع الروم[١]، لذا توقّفت الحرب أيضاً في تلك الجبهة. وبعد تسلّط بني أميّة، استؤنِفَت الفتوحات التي كانت ثمارها الاقتصاديّة للحكومة أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

و شهدت المناطق الخاضعة لسلطة إمبراطوريّة الروم الشرقيّة هجماتٍ متكرّرة، واستمرّت الاشتباكات في معظم السنين التي حكم فيها معاوية تقريباً. وفي السنة التاسعة والأربعين أو الخمسين أرسل معاوية جيشاً جرّاراً إلى تلك الأرجاء، وكان في الجيش عبد الله بن عبّاس وأبو أيّوب الأنصاريّ وطائفة أخرى من الصحابة وأبنائهم، فتقدّموا حتّى بلغوا جدران القسطنطينيّة، لكنّهم لم يفلحوا في الاستيلاء عليها، وفيها توفّي أبو أيّوب الأنصاريّ[٢].

و من المناطق الحربيّة الأخرى إفريقية التي تكرّر تقدّم المسلمين فيها منذ عصر الخليفة الثاني امتداداً لفتح مصر، ففُتِحت السودان في هذا العصر، وأسّس عقبة ابن نافع - الذي كان يحكم ذلك البلد وشهد الثورات المتكرّرة لأهله- مدينةً باسم القَيْرُوان، ليسكنها المسلمون ويضمنوا ثباتها واستقرارها[٣]، ثمّ اضطلعت هذه المدينة بدورٍ مهمّ في المحافظة على فتوحات المسلمين في تلك الأنحاء.

و استدامت الفتوحات في الشرق الإسلاميّ أيضاً، وخاضها سعيد بن عثمان بن عفّان في بخارى وحواليها ردحاً من الزمن، واشتبك بالسغد في سمرقند، وصالحهم بعد برهةٍ، وأخذ رهائن من مملكة بخارى لكي يُعيدهم إليها بعد الرجوع

---

١ - **الفائق في غريب الحديث** ١: ٤٦؛ انظر: **الموفّقيّات**: ٣٠١.

٢ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٦١.

٣ - نفسه ٣: ٤٦٥.

من فتح سمرقند، إلّاأنّه نكث عهده فأخذهم إلى المدينة واستخدمهم للسُّخْرة، وبعد مضيّ مدّةٍ قتلوه[1]. وظلّت الحرب قائمة في تلك المناطق خلال السنين اللّاحقة.

و شهدت مناطق الهند والسِّند حروباً متوالية، فقد هوجمت هذه المناطق بين كابل ومولتان في السنة الثالثة والأربعين فما بعدها، وكسب المسلمون فيها غنائم كثيرةً جدّاً[2]. وتواصلت الفتوحات في مناطق أبعد وأقصى، مثل منطقة الغَور، وهوجم أهل هذه المنطقة مرّةً أخرى، إذ نقضوا عهدهم بعد الصلح سنة ٤٧هـ.[3]

و لا يمكن أن نجد فتحاً كبيراً للمسلمين منذ هذه الفترة فما تلاها؛ لأنّ الروم كانوا متأهّبين للمواجهة بجرأةٍ أكثر من جهة، ومن جهةٍ أخرى كان بُعد المناطق الحربّية، بخاصّة الشرق الإسلاميّ، عقبةً في طريق المسلمين للقيام بأعمالٍ جادّةٍ من أجل فتح تلك المناطق. وحالت المشاكل الناجمة عن هذه الفتوحات، والنزاعات القبليّة للعرب في البلدان المفتوحة - كخراسان - تدريجاً دون تجهيز قوّةٍ كبيرة لمواصلة الفتوحات. وسلبت الثورات المتكرّرة في المناطق المفتوحة القوّةَ من العرب المسلمين، وكانت الثورات الداخليّة في الدولة الإسلاميّة، كثورات الخوارج والشيعة، عاملًا آخر في إضعاف الحكومة المركزيّة.

الخوارج في عهد معاوية

ضمّت الكوفة بعد شهادة الإمام عليه السلام شرائح فكريّة متنوّعة: فأغلبيّةٌ لم تشعر بالمسؤوليّة، وثُلّة اختارت معاوية، وطائفة كانت خارجيّة، وأخرى كانت شيعيّة. وكان كثيرٌ من الناس قد فقد أقاربه في النهروان، فلا يَسَعهم طبعاً أن يكونوا موالين

---

١ - نفسه ٤: ١٩٣ – ١٩٧؛ **فتوح البلدان**: ٤٠١، ٤٠٢ .

٢ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٤٦.

٣ - نفسه ٣: ٤٥٦.

لأبناء عليّ عليه السلام، لكنّهم شاركوا في الجيش الذي عبّأه الإمام الحسن عليه السلام لحرب معاوية، ذلك بسبب عدائهم لمعاوية. وحين رأوا فتورَ أشراف الكوفة، و ميلَهم إلى معاوية، لا سيّما عند عرض الصلح، أرادوا قتل الإمام عليه السلام، فلم يفلحوا طبعاً.

و كانت حكومة معاوية الموحّدة في أرجاء العالم الإسلاميّ واسعةً، بخاصّة «العراق» يومئذٍ، وكان الخوارج يرون أنّ واجبهم الأصليّ إظهار البراءة العمليّة من معاوية وعمّاله، مضافاً إلى براءتهم من الإمام عليّ عليه السلام، ولمّا كانوا لا يعتقدون التقيّة غالباً[1] فإنّهم كانوا ينتظمون في فرقٍ صغيرة جدّاً، قوامها أربعون أو سبعون، للاشتباك بالجيش.

و كذلك قلّما كانوا يفكّرون بالفرار من ساحة القتال بسبب تعصّبهم لعقيدتهم رغم انحرافها، وبما اتّسموا به من طبائع خاصّةٍ، فقد رفضوا كلّ نوعٍ من أنواع المداراة.[2] وإذا كانوا قبل ذلك قد شكّوا في قتالهم للإمام عليّ عليه السلام، إلّاأنّه لم يُخامرهم أيّ شكٍّ في قتالهم لمعاوية، حتّى مَن رفض منهم قتال الإمام عليه السلام في النهروان[3]. وكان عروة بن صخر يقول: «إنّي كرهتُ قتال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لسابقته وقرابته، فأمّا الآن فلا يسعني إلّاالخروج»[4]. [على معاوية]. ويبدو أنّ وجود الخوارج كان بديهيّاً أمام انحرافٍ كبيرٍ مثل سيادةٍ بني أميّة والظلم والاضطهاد اللّذَين كانت الشرائح الاجتماعيّة المختلفة تعانيهما في ظلّ الحكم الأمويّ، لذا كان استمرار تحرّكهم طوال الحكم المذكور أمراً مسلّماً به؛ لأنّ كثيراً من

١ - كانت فرقٌ من الخوارج تعتقد التقيّة حيناً. انظر المصدر السابق ٣: ٥١٦، ٥١٨.

٢ - لم يستعمل هؤلاء التقيّة. انظر: **الكامل في اللغة والأدب** ٢: ٢٠١؛ **أنساب الأشراف** ٤: ١٨١.

٣ - إذ لم تكن لهم حجّة في قتال الإمام عليه السلام. انظر: **الأخبار الطوال**: ٢١٠.

٤ - **الكامل في اللغة والأدب** ٣: ٢٧٦. [في المصدر المذكور: صخر بن عروة، لا كما ذكر المؤلّف أنّه عروة بن صخر] المترجم.

المظلومين كان يعتقد أنّه ينبغي في كلّ حال مؤازرة الفِرق التي تقف إلى جانبهم في مواجهة بني أميّة.

وثار الخوارج ومعاوية لم يغادر العراق بعد، ورجع قُرابة خمسمئة منهم إلى الكوفة بعد الصلح، وكانوا قد ذهبوا مع فروة بن نوفل إلى مدينة الزور. ومعاوية نفسه هو الذي حثّ أهل الكوفة على قتالهم[1]. وبعد ذلك ثارت مجموعات صغيرة منهم - مثل مجموعة معين الخارجيّ، ومجموعة أبي مريم من مَوالي بني الحارث بن كعب وسهم بن غالب - على المغيرة حاكم الكوفة، وأبيدت بأجمعها[2].

وأدّى تساهل المغيرة معهم إلى قدومهم من أطراف الكوفة وأكنافها واجتماعهم فيها، ومن ثَمّ استطاعوا أن يتناقشوا ويتفاوضوا[3]. ورجع المستورد بن عُلَّفة إلى الكوفة بعد شهادة الإمام عليّ عليه السلام، وكان قد فرّ إلى الريّ مع زُهاء أربعمئة من الخوارج، وعقد هو وحيّان بن ظبيان الاجتماعات مع سائر الخوارج، وكان حيّان بن ظبيان أحد قادتهم، فقال لهم في الريّ: «... فانصرفوا بنا - رحمكم الله - إلى مصرنا، فَلْنأتِ إخواننا فَلْنَدْعُهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب؛ فإنّه لا عذر لنا في القعود، وُلاتنا ظلمة، وسنّة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخوانَنا في المجالس آمنون»[4].

ولمّا اجتمعوا بالكوفة، تباحثوا في اختيار أميرٍ لهم، وكان الأمر يدور حول ثلاثة منهم، وهم: المستورد بن علّفة، ومُعاذ بن جُوَين، وحيّان بن ظبيان، وقد أورد أبو مخنف خبر تفاوضهم حول الأمر المذكور. ويُلْحَظ في الخبر المذكور بعض آرائهم

١ - **تاريخ الطبري** ٤: ١٢٦، حوادث سنة ٤١ هـ.

٢ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٤١٢، ٤١٧.

٣ - نفسه ٣: ٤٠٩، ٤٢٠.

٤ - **تاريخ الطبري** ٥: ١٧٣ — ١٧٤ .

في شروط الأمير، قال المستورد: «ولّوا عليكم مَن أحببتُم... ما أبالي مَن كان الوالي علَيَّ منكم»، وقال حيّان: «أمّا أنا، فلا حاجة لي فيها، وأنا بك وبكلّ امرئٍ من إخواني راضٍ، فانظروا مَن شئتم منكم فسمّوه، فأنا أوّل من يبايعه»، وقال معاذ بن جوين: «إذا قلتما أنتما هذا وأنتما سيّدا المسلمين وذوا أنسابهم في صلاحكما ودينكما وقَدْركما، فمن يرأس المسلمين؟ وإنّما ينبغي أن يليَ على المسلمين إذا كانوا سواءً في الفضل أبصرُهم بالحرب، وأفقهُهم في الدين، وأشدّهم اضطلاعاً بما حُمّل، وأنتما - بحمد الله - ممّن يرضى بهذا الأمر، فَلْيَتولَّهُ أحدكما، قالا: فتولَّه أنت... فقال لهما: أنتما أسنّ منّي فليتولّه أحدُكما. فقال حينئذٍ جماعة من حضرهما من الخوارج: قد رضينا بكم أيّها الثلاثة، فولُّوا أيّكم أحببتُم... فقال حيّان بن ظبيان للمستورد:... وأنّا أقول لك مِثلَ ما قال مُعاذ لي ولك، لا آلي عليك وأنت أسنّ منّي، أبسطْ يدكَ أبَايعْك. فبسط يده فبايعه... ثمّ بايعه القوم جميعاً»[١]. واحتمل المغيرة ثورتهم، فقبض على حيّان بن ظبيان، لكنّ المستورد ثار مع جماعته، وكان المغيرة قبل ذلك قد حذّر رؤساء القبائل جميعها وكبارها من الخوارج، وطلب منهم أن يطردوهم ولا يأذنوا لهم في التغلغل في قبائلهم.

و يتفاوت خبر الطبريّ وخبر المبرّد في أوّل اشتباكٍ للخوارج مع معاوية، إلّاأنّ الجميع يُطبِق على أنّهم بعددهم المحدود قاتلوا جيش الشام، وهُزموا سريعاً[٢]. ونقل المبرّد والبلاذريّ أخباراً جمّةً عن الخوارج في عهد معاوية، وهي تدلّ على نطاق تغلغلهم في قبائل عديدة.[٣] وكان للخوارج أمير في جميع حروبهم الصغيرة والكبيرة.

---

١ - نفسه ١٥: ١٧٥.

٢ - نفسه ٥: ١٦٥ - ١٦٦؛ **الكامل في اللغة والأدب** ٢: ١٦٥ - ١٩٦.

٣ - **الكامل في اللغة والأدب** ٢: ١٩٨ - ٢١٢؛ **أنساب الأشراف** ٤: ١٦٣ - ١٨٦.

وكان الإمام عليّ عليه السلام قد أوصى أصحابه بعد القضاء على الخوارج أن: لا تقاتلوا الخوارجَ من بعدي.[١] وهذا أمرٌ أمرَ به الإمام عليه السلام شيعته ليشعروا بمحادّتهم الأصليّة لبني أميّة، ولا يهدروا قواهم في قتال الخوارج الذين كانوا يعادون بني أميّة أيضاً، بيد أنّ المؤسف هو أنّ الشيعة لم يرعوا هذه الوصية الصادرة عن إمامهم.

وكان صعصعة بن صوحان من رؤساء الشيعة الخطباء، فقال لقبيلته - بعد إعرابهم عن تمسّكهم بالتشيّع وقيادة أهل البيت النبويّ - وهو يذكر حقد الشيعة على الخوارج: لا قوم أعدى للهِ ولأهل بيت نبيِّكم ولجماعة المسلمين مِن هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامَنا واستحلُّوا دماءَنا، وشَهِدوا علينا بالكفر![٢]

ويدلّ كلام ابن صوحان هذا على أنّ تنفّر الشيعة من الخوارج لم يُقنعهم بألّا يبالوا بثورة الخوارج، بل بالعكس، كانوا مستعدّين لأن يُعدّوا وحدهم سبباً في القضاء عليهم، بخاصّةٍ كان كثير من الشيعة يعتبر الخوارجَ السببَ الأصليّ لتضعيف الحركة الشيعيّة. وكان للقادة الآخرين من قادة الشيعة مثل عَدِيّ ابن حاتم نفس التصريحات في عداء الخوارج.[٣] وتولّى معقل بن قيس، الذي كان أحد أمراء جيش الإمام عليّ عليه السلام، قيادة حرب الخوارج.

وسرّ المغيرة ومشاوروه كثيراً حين رأوا رغبة الشيعة في قتال الخوارج، لأنّهم أشدُّ استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرأ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبلَ هذا بمرّة.[٤]

ونتيجة هذا الأمر، حتّى لو أدّى إلى هزيمة الشيعة، تصبّ في مصلحة حكومة بني أميّة نوعاً ما؛ لأنّ كلًّا من الفريقين المعارِضين لبني أميّة يكون قد أضعف

١- نهج البلاغة: الخطبة ٦١.

٢ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٤٢؛ الكامل ٣: ٤٢٧.

٣ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٤٢؛ الكامل ٣: ٤٢٩.

٤ - تاريخ الطبريّ ٤: ١٤٤.

أحدُهما الآخر.

و هذه الخسارة التي لم يكن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وحده قد حذّر الشيعة منها[١]، بل كان الإمام الحسن عليه السلام، بسيرته العمليّة، لم يرضها أيضاً، فلمّا توجّه عليه السلام تلقاء المدينة بعد الصلح، كان الخوارج قد بدأوا ثورتهم، وأراد معاوية من الإمام عليه السلام أن يتهيّأ لحرب الخوارج، فقال عليه السلام لو: آثرتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القبلة بدأتُ بقتالك.

و هكذا تحرّك معقل بن قيس مع ثلاثة آلاف من نقاوة الشيعة نحو الخوارج ورئيسهم المستورد بن علّفة، ولمّا كان الخوارج يسيرون قرب البصرة، انتهج حاكمها الأمويّ عبد الله بن عامر أسلوب المغيرة أيضاً، فوجّه إليهم ثلاثة آلاف من الشيعة بقيادة شريك بن الأعور أحد الشيعة المشهورين في البصرة[٢].

و حين بلغ المستورد خبرهم، شاور الناس، فأشار بعضهم عليه بالحرب، وبعضهم «بالاعتزال والدعوة»، وكانت نتيجة المشاورة الابتعادَ عن الجيش وتجنّب مواجهته، إلّاأن تكون مواجهتهم بغتةً فتنشب الحرب حينئذٍ.[٣]

و نقل الطبريّ تفاصيل المعركة التي دارت بينهما، ومقتل المستورد من الخوارج، ومعقل بن قيس من الشيعة. وتفرّق الخوارج في هذه البرهة الزمنيّة، وإن لم يُقضَ عليهم تماماً.

و حريّ بالعلم أنّ موقف الخوارج من سائر المسلمين في هذه المرحلة كان موقفاً شديد التطرّف، ولم يُقرّ الخوارج إلّا بخلافة أبي بكر وعمر، وكانوا يُنزلونهما منزلة

---

١ - من الوجهة الفقهيّة أيضاً، قال الإمام: إن خَرجوا على إمامٍ عادل أو جماعةٍ فقاتلوهم، وإن خرجوا على إمام جائر فلا تقاتلوهم. انظر: **وسائل الشيعة** ١١، الباب ٢٦ / الحديث ٣.

٢ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٣١.

٣ - نفسه ٥: ١٩٣.

الكتاب والسنّة. ونلحظ في خبرٍ عن أحد الخوارج الذين أتوا بكتابٍ من المستورد إلى حاكم المدائن أنّ المستورد سُمِّيَ فيه «أمير المؤمنين»[١]، وهذا يعني أنّ الخوارج كانوا يعتبرونه خليفةً.

و قيل: إنّ أوّل من طرح مسألة كفر أهل القبلة بجدّ هو سهم بن غالب الهجيميّ الذي ثار على عبد الله بن عامر في البصرة سنة ٤٤هـ[٢]، وكان لهذه المسألة دورٌ مهمّ في عزل الخوارج عن عامّة الأمّة الإسلاميّة. وكانت البصرة في تلك الإيّام من المناطق التي استوعبت عدداً كبيراً منهم، وخرج فيها قريب الأزديّ وزحّاف الطائيّ سنة ٥٠ مع سبعين منهم، وقُتلوا بعد اشتباك الفريقين. قال ابن الأثير: إنّ زياداً اشتدّ في أمر الحروريّة، وأمَرَ سَمُرة بن جندب بذلك، وكان خليفتَه على البصرة، فقتل سمرة منهم بشراً كثيراً.[٣] وهذه الشدّة تدلّ على كثرتهم في البصرة يومئذٍ.

و خرجت طائفة منهم نزلةً أخرى سنة ٥٨هـ، وسرعان ما فُنُوا قُرب الكوفة. وكان ابن زياد أيضاً شديداً مع الخوارج، وكان يدفعهم أحياناً إلى الاقتتال فيما بينهم، وسجن عدداً كبيراً منهم سنة ٥٨، ثمّ قتلهم بعد حين.[٤]

و نشهد في هذه المرحلة كالمراحل المقبلة صمود الخوارج أمام الجيش الأمويّ، حتّى إنّ أربعين منهم أجبروا جيشَ ابن زياد الذي كان قوامه ألفين، على الفرار في أواخر حكم معاوية، وسبّبوا الخزي لقائده مدّةً مديدة[٥].

---

١ - نفسه ٥: ١٩١.

٢ - **أنساب الأشراف** ٤: ١٧٢.

٣ - **الكامل في التاريخ** ٥: ٤٦٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٧٧. [المصدر الأوّل الصحيح هو الكامل لا كما ذكر المؤلّف أنّه **أنساب الأشراف**] المترجم.

٤ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٥١٥، ٥١٧.

٥ - نفسه ٣: ٥١٩.

معاوية و وراثة الحكم

نقلنا عن محمّد رشيد رضا سابقاً أنّ مبادرة أبي بكر إلى تعيين مَن يَخلفه مهّد لوراثة الحكم[١]، كما أنّ مروان بن الحكم استدلّ أيضاً في تسويغ ولاية عهده على تعيين أبي بكر لعمر.[٢] وجديرٌ بالعلم أنّ للحكم الوراثيّ صفتَين؛ الأولى: تعيين السلطان السابق مَن يَخلفه، والأخرى: تعيين الابن أو أحد أعضاء الأسرة الحاكمة حاكماً. وكانت هذه الصفة في عهد معاوية فما تلاه، فهو لم يطرح وراثة الحكم لقرابته من عثمان؛ من أجل إثبات سلطانه فحسب، بل طرحها في صورةٍ أكثر جدّيّة بتعيين ابنه الذي لم يكن يملك حتّى الحدّ الأدنى من السجايا الدينيّة أو السياسيّة أو العسكريّة الواضحة، وهذا أمرٌ كان يستغربه المسلمون تماماً ولم يعهدوه قطّ! مع هذا أصبح السلطان الوراثيّ بعد ذلك أهمّ ركنٍ في اختيار الحاكم. وما انتفت هذه الوراثة وحلّت القوّة والغلبة محلّها إلّا في تغيير الحكومة من الأمويّة إلى العبّاسيّة، ومن العبّاسيّة إلى العثمانيّة عبر نقل الحكومة من أسرة إلى أخرى. وإذا استثنينا هذه الحالات، فإنّ ولاية العهد الوراثيّة كانت الركنَ الأصليّ لنقل الحكومة، وأسلوب تولّي الحاكم الجديد، وكان العدول عن النظام السابق - الذي كان يقال عنه لفظاً في الأقلّ: إنّه يقوم على الشورى واختيار الأمّة، ويدّعي الانتخاب النخبويّ - صعباً لا يطاق على المسلمين أولي العقيدة، بيد أنّ الظروف التي اختلقوها هي التي أوجدت هذا الوضع الذي أقرّ به الجميع ولم ينهض في مواجهته إلّا أقلّيّة. وأدّى التماسك الداخليّ لبني أميّة - المُعزّز بأعطيات عثمان الماليّة وقطائعه - إلى أن ينشطوا في إبقاء السلطة بأيديهم. ومن الثابت أنّ الأوضاع لو كانت تسير في طريقها الطبيعيّ، لاستخلفَ عثمانُ معاويةَ، لكن قَتْلَه منع

---

١ - **انظر: انديشه سياسي در اسلام معاصر** [الفكر السياسيّ في الإسلام المعاصر]: ١٥٠

٢ - **تاريخ الخلفاء**: ١٩٦، ٢٠٣.

ذلك، ثمّ صَمَدَ معاوية بعد ذلك بشدّة، ولمّا تغلّب على الأوضاع فقد كان طبيعيّاً أن لا يُخرِج السلطة من أسرته. ويُلحَظ في البلاد الإسلاميّة، إلّا الشيعة والخوارج، أنّ أيّ سُنّيّ لم يدّعِ الخلافة أمام الحكومة الرسميّة، وليس هذا فحسب، بل كان يرفض مَن يمكن أن يكون حاكماً بما يمتلكه من قوّةٍ ومال، علماً أنّ بلداناً أخرى كالأندلس، وشمال إفريقيّة، ومصر قد عايشت فيما بعد تجربة سلاطين آخرين.

و لم يجد أهل الشام على معاوية في عهده لنصبه يزيد وليّاً للعهد فحسب، بل أصرّوا على ذلك؛ لأنّهم كانوا يرون أنّ بقاء كيانهم -أمام المدّعين بالحكم من الحجاز أو العراق - رهين ببقاء الأمويّين على العرش. لكنّ إقناع أهل المدينة الذين كانوا من أبناء الصحابة بهذا الأمر يبدو عسيراً. والعراق أيضاً كان معارضاً للشام بشكلٍ طبيعيّ، فمضافاً إلى معارضة شيعته، كان خوارجه أيضاً معارضين لبني أميّة من الأساس. ويظهر أنّ مراجعة أدلّة معاوية ومعارضيه على وراثة الحاكم مناسبة للتعرّف على رأي الناس في الحكومة آنذاك.

قلنا: إنّ حكومة معاوية قد خلعت لباس الخلافة في عصره وعُرِفت في قالب السلطنة، وتطلّبت طبيعة هذا الأمر أن يكون الحكم بعد ذلك وراثيّاً. وعمر نفسه كان قبل ذلك قد شبّه حكومة معاوية في الشام بحكومة كسرى وقيصر! فحين أخذ معاوية بزمام الحكم مستقلّاً به، كان الناس يُطلقون عليه لقب «هرقل» بسهولة[1].

و اشتمل كتاب الفتوح والإمامة والسياسة على توضيحاتٍ مفيدة لجعل الحكم وراثيّاً، وعلى مساعي معاوية من أجل هذا الأمر، وكما اشتملت المصادر الأخرى أيضاً إشارات في هذا الباب. وبدأ التمهيد الأصليّ لفكرة ولاية العهد ليزيد بعد

١- **الفتوح** ٤: ٢٣٣، ٥: ١٠١؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٥٠٦ . وهذا الأسلوب في الحكم ظلّ قائماً بين المسلمين، ولم يعمل به بنو العبّاس، وكذلك الفاطميّون في مصر فحسب، بل عملت به إيران الشيعيّة أيضاً منذ العهد الصفويّ فما تلاه كأسلوبٍ وحيد في الحكم.

شهادة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام[١]. ويدور الخلاف حول أوّل من أحدثها، فيشير كثيرون إلى المغيرة بن شعبة، فلمّا شعر في أواخر العقد الرابع أنّ معاوية ربّما يعزله لعجزه عن إدارة مدينة الكوفة بسبب كبر سنّه، ذهب إلى الشام لتدارك هذا العجز، فحثّ يزيدَ على أنّ يشير على أبيه بتعيينه وليّاً للعهد، ففعل. وهو نفسه قال لمعاوية أيضاً: «... وأنا أخاف إن حَدَثَ بك حَدَثٌ أن يقع الناسُ في مِثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان، فاجعل للناس بعدك عَلَماً يفزعون إليه، واجعل ذلك يزيدَ ابنَك![٢] فرضي معاوية بذلك، وأمره أن يُمهّد الكوفة تدريجاً لقبول هذا الأمر، وبلغ المغيرةُ مبلغاً من الجدّ في الأمر أنّه وجّه جماعةً إلى الشام من أجله[٣].

و من الثابت أنّ معاوية نفسه كان يحمل هذه الفكرة في ذهنه، وكلام المغيرة هو البداية العلنيّة لاستحداثه بين الناس. ولمّا ولي زياد ابن أبيه الكوفة، حادثه معاوية حول الموضوع، فاحتال زياد - الذي لم يَدُرْ في خلده أنّ معاوية يريد مثل هذا الأمر - على أن يصرفه، بل يصرف يزيد، عنه[٤].

و زادت مساعي معاوية من أجل ترسيخ موقع يزيد منذ السنة الخامسة والخمسين فما بعدها، فقد سافر إلى مكّة والمدينة، وحاول أن يكسب أهلهما إليه عبر أعطياته الكثيرة، فرضي أهلهما على ما يبدو! وأنشد الشعراء الذين كانوا يكرهون يزيد - مثل: عقيبة الأسديّ، وعبد الله بن حمّام السّلوليّ- شعراً في ذمّ يزيد وتبكيته، لكنّ معاوية كَمّم أفواههم بمالٍ كثير[٥].

---

١ - **الفتوح** ٤: ٢٠٩؛ **الإمامة والسياسة** ١: ١٧٥ . وذهب صاحب **الفتوح** إلى أنّ المحرّض على ذلك هو عمرو بن العاص، وهذا لا يصحّ، لأنّ عمراً هلك سنة ٤٣هـ.

٢ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٨٧.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٤؛ **الإمامة والسياسة** ١: ١٦٥؛ **الكامل** ٣: ٥٠٣ .

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٤، ٢٢٥.

٥ - **الفتوح** ٤: ٢٢٥، ٢٢٦؛ **الكامل** ٣: ٥٠٨.

و واصل معاوية نشاطاته في هذا المجال، ولمّا رجع إلى الشام دعا جماعات من أهل الكوفة والبصرة إليه، وأمر الضحّاك بن قيس أن يتحدّث في المجلس حول موضوع ولاية العهد، و وبّخ أهلَ العراق باتّهامهم بأنّهم أهل نفاقٍ وشقاق[١]. وقال الأحنف بن قيس في ذلك المجلس: «... مع أنّ أهل الحجاز وأهل العراق لايرضَون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن بن عليّ عليه السلام حيّاً»، فقال الضحّاك مُتّهِماً أهل العراق بالشقاق والنفاق: «ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه؟! هيهات، لا تورث الخلافة عن كلالة». فذكّره الأحنف في جوابه بعهود معاوية للحسن عليه السلام، وحذّره من سيوف أهل العراق مشيراً إلى بغض أهل العراق لمعاوية، فسكت معاوية عن بيعة يزيد بعد ذلك حتّى سنة ٥٠هـ[٢].

ووجّه معاوية الضحّاك بن قيس وعبد الرحمان بن عثمان –اللذين جاحشا عن يزيد في هذا المجلس– صوب والي الكوفة والجزيرة، ليمهّدا هذا الأمر ويوطّئاه[٣].

و كان معاوية يشعر بأنّ المشكلة الرئيسة من الوجهة الدينيّة هي المدينة، أمّا العراق فيمكن إقناعه بالقوّة، لكنّ المدينة لا يمكن إرضاءها إلّا بالدليل. وكان سعيد بن العاص قبل ذلك قد كتب إلى معاوية قائلًا: «... وإنّما الناس تَبعٌ لهؤلاء النفر[الحسين عليه السلام، وابن عمر، وابن الزبير، و محمّد بن أبي بكر] فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً».[٤] قال ابن قتيبة أيضاً: «... فأبطأ الناس عنها إلّا اليسير، لا سيّما بني هاشم، فإنّه لم يُجبْه منهم أحد»[٥]. وكان معاوية قد أرسل قبل مجيئه كتباً مختلفة

١ – مروج الذهب ٣: ٢٨؛ الفتوح ٤: ٢٣١؛ الإمامة والسياسة ١: ١٦٦ – ١٦٩.

٢ – الإمامة والسياسة ١: ١٨٧ – ١٩٤.

٣ – نفسه ١: ١٧١، الكامل ٣: ٥٠٧.

٤ – الإمامة والسياسة ١: ١٨٢.

٥ – نفسه ١: ١٧٧.

فيها ترهيبٌ وترغيب إلى المعارضين للبيعة[١].

وتحدّث المعارضون بكلماتٍ مختلفة في المجلس الذي عقده معاوية في المدينة بعد وصوله إليها، فقال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لمعاوية: «... فإنّ هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله، وإن أخذ فيها بسنّة رسول الله، فأولو رسول الله، وإن أخذ فيها بسنّة الشيخين أبي بكر وعمر فأيّ الناس أفضل وأكمل وأحقّ بهذا الأمر من آل الرسول؟! وايمُ الله، لو ولّوه بعد نبيّهم لوضعوا الأمر موضعه»، وقال عبد الله بن الزبير: «فإنّ هذه الخلافة لقريشٍ خاصّة... فاتّق الله يا معاوية... فإنّ هذا عبد الله بن عبّاس... وهذا عبد الله بن جعفر...، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمّة رسول الله ﷺ، وعليّ خلّف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هُما، وما هما»[٢]. وقال عبد الله بن عمر: «... فإنّ هذه الخلافة ليست بهرقليّة، ولا قيصريّة ولا كسرويّة يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنتُ القائمَ بها بعد أبي... وإنّما هي في قريشٍ خاصّة، لمن كان لها أهلًا ممّن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، من كان أتقى وأرضى». فقال له معاوية من غير أن يذكر بيعة يزيد: «... وإنّما كان هذا الأمر لبني عبد مَناف؛ لأنّهم أهلُ رسول الله، فلمّا مضى رسول الله ولّى الناس أبا بكر وعمرَ من غير مَعدِن المُلْك ولا الخلافة، غير أنّهما سارا بسيرة جميلة، ثمّ رجع المُلك إلى بني عبد مَناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يا ابن الزبير، وأنت يا ابنَ عُمر منها... ثمّ انصرف راجعاً إلى الشام»[٣].

١ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١.

٢ - الجدير بالذكر هنا أنّ المشهور تاريخ شهادة الإمام الحسن عليه السلام كان سنة خمسين من الهجرة، وروي سنة اثنتين و خمسين من الهجرة. **دلائل الإمامة**، للطبريّ، ط النجف ٦١.

٣ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٩٤ — ١٩٦.

و نقل بعض المصادر أنّ معاوية هدّد الحاضرين في ذلك المجلس قائلًا: «... والله لئن لم يبايعوا ليزيد لأفعلنّ ولأفعلنّ»[١]! وخاطب الإمامَ الحسينَ عليه السلام قائلًا: «... وإنّما أخّرتُ المدينة لأنّي قلت: هم أصلُه وقومه وعشيرته... ولو علمتُ أنّ لأمّة محمّد خيرٌ من ولَدِي يزيد لَما بعثتُ له»! فغضب الإمام عليه السلام من كلامه وقال له: مَن خيرٌ لأمّة محمّد صلى الله عليه وآله! يزيد الخمور والفجور؟! فقال له معاوية مهدّداً: «... واحذر أهلَ الشام (الذين كانوا معه)[٢] أن يسمعوا منك ما قد سمعتُه!»[٣] ثمّ هدّد سائر الأشخاص بأهل الشام[٤].

و كان من المعارضين عائشة، فقد قال لها معاوية في فرضه لولاية يزيد للعهد: «... وإنّ أمر يزيد قضاءٌ من القضاء، وليس للعباد الخِيَرَةُ من أمرهم، وقد أكّد الناس بيعتَهم في أعناقهم... أفتَرَينِ أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم»؟![٥] ودليل معاوية الآخر أمام المعارضين هو جواز إمامة المفضول على الفاضل، فقد قال للإمام الحسين عليه السلام وعددٍ من أبناء الصحابة، وهو يقايسهم بيزيد، ويذكر لهم طبعاً معرفة يزيد بالكتاب والسنّة: قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة ذات السلاسل عمرَو بن العاص على أبي بكر وعمر، وأمّره عليهما، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله أسوةً حسنةً، فلا مانع من هذا العمل [أي من جواز تقديم المفضول على الفاضل]، فارضوا بولاية يزيد[٦].

---

١ - **الفتوح** ٤: ٢٣٦. [هذا هو كلام معاوية، لا كما ذكره المؤلّف في تضاعيف النصّ الفارسيّ] المترجم.

٢ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٨٣؛ **الكامل** ٣: ٥٠٨. [لم يذكر المؤلّف هذه النصوص فنقلتها من مصدرها]. المترجم.

٣ - **الفتوح** ٤: ٢٤٠، ٢٤١.

٤ - نفسه ٤: ٢٤٣، ٢٤٤، **الإمامة والسياسة** ١: ١٨٨.

٥ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢٠٥.

٦ - نفسه ١: ٢٠٨. واستدلّ السفيانيّة أيضاً بعمل عمر في تأمير أبي عبيد بن مسعود على أربعين بدريّاً مع وجود أهل السابقة في الإسلام، وذلك إثباتاً لحقّ معاوية في الحكم. انظر: **رسائل**

فتحدّث الإمام الحسين عليه السلام حديثاً مفصّلاً أشار فيه إلى حقّ بيته الضائع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكر فيه سوابق يزيد الفاضحة، ثمّ خاطب معاوية قائلاً:... فكيف تحتجُّ بالمنسوخ مِن فعل الرسول صلى الله عليه وآله؟![1] وقال معاوية لعبد الله بن عمر: «...قد كنتَ تحدّثنا أنّك لا تُحبُّ أن تبيت ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعة... وإنّ أمر يزيد قد كان قضاءً من القضاء، وليس للعباد خِيَرةٌ من أمرهم وقد وكّد الناسُ بيعتهم في أعناقهم»، فقال له عبد الله مستنداً إلى سيرة السَّلَف: «...لقد كان قبلك خلفاء، وكان لهم بنون، ليس ابنُك بخيرٍ من أبنائهم، فلم يَرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك». وطلب عبد الرحمان بن أبي بكر أن يكون الأمر شورى[2].

والنقطة الأخرى التي ذكرها معاوية في خطبته العامّة لأهل المدينة هي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض ولم يستخلف، في حين استخلف أبو بكر، أمّا عمر فلم يعمل بسيرته وجعَلَها شورى بين ستّةِ نفر اختارهم، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسولُ الله صلى الله عليه وآله، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، فلي أن أصنع ما لم يصنعوا! ثم قال: «فلِذلك رأيتُ أن أبايعَ ليزيد»[3]. والإشكال الآخر الذي طرحه ابن الزبير هو: أيمكن أن يُبايَعَ ليزيد، ومعاويةُ حيٌّ يحكم الناس؟! وقال: «إن كنتَ قد مللتَ الإمارة فاعتزلْها وهَلُمّ ابنك فلنبايعْه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيّكما نسمع، لأيّكما نُطيع؟!»[4]

ثمّ زال هذا الإشكال لاحقاً، لكنّ هذه البرهة ما زالت بداية الطريق، وقد نُقل عن ابن الزبير أنّه استند في رفض البيعة ليزيد إلى الحديث المأثور: لا طاعة لمخلوقٍ

الجاحظ، الرسائل السياسية: ٣٩١ـ٣٩٢.

١ - نفسه ١: ٢٠٩.

٢ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢١٠؛ **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ٢١٣ـ٢١٤.

٣ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢١٢.

٤ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ٢١٤.

في معصية الخالق،[١]، فبعث معاوية بالهدايا إلى المعارضين المشهورين لتطميعهم، فردّ الإمام الحسين عليه السلام هديّته بشدّة ورفض[٢].

و لمّا عجز معاوية عن أن يصنع شيئاً في المدينة، سار إلى مكّة، وكاد فيها كيداً آخر، فجمع الناس الذين كانوا قد قدموا من شتّى الأمصار لأداء مناسك الحجّ، وأخبرهم أن رهطاً [يريد الحسين عليه السلام، وابن عمر، وابن الزبير، وابنَ أبي بكر] بايعوه على ولاية يزيد سِرّاً، فضرب جماعةٌ من أهل الشام بأيديهم إلى سيوفهم وطلبوا أن يبايع ذلك الرهط جهراً، فأسكتهم معاوية. ثمّ نزل من المنبر ووزّع الجوائز على الناس، وتوجّه تلقاء الشام، ولم يعارض الرهط في ذلك المجلس مع حضورهم فيه، وإن كانوا قد أخبروا الناس أنّ الأمر خدعة، وإنّهم لم يبايعوا[٣]. ولم يرسل معاوية أعطيات بني هاشم إلى أن هدّده ابن عبّاس أنّه يذهب إلى سواحل الشام ويؤلّب الناس عليه، فقبل معاوية وأمر لهم بالجوائز[٤]، وإن امتنع الإمام الحسين عليه السلام من قبولها مرّةً أخرى[٥].

و أخذ معاوية البيعةَ ليزيد نزلةً أخرى بعد سنين مضت، وكتب إلى والي المدينة أن يأخذ البيعة من الناس، فكتب إليه واليها سعيد بن العاص: «إنّه لم يبايِعْني أحد، وإنّما الناس تبعٌ لهؤلاء النفر (الحسين عليه السلام، وعبد الرحمان بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر)[٦].. ومهما كان، فإنّ أهل الشام طرحوا قضيّة الوراثة وتبنّوها مبدأً في الحكم. وأنشد عبد الله بن همام السلوليّ شعراً في

---

١ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٢٨.

٢ - نفسه ٢: ٢٤٠.

٣ - **الفتوح** ٤: ٢٤٨، ٢٤٩.

٤ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٩١؛ **الكامل** ٣: ٥١١.

٥ - **الفتوح** ٤: ٢٤٥.

٦ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢٠٤.

هجاء الأمويّين مُعرّضاً بهم أنّهم حتّى لو أرادوا امرأةً تحكمهم، فإنّ الناس يبايعونها أميرةً للمؤمنين، فقال:

شَربْنا الغَيضَ حتّى لو سُقِينا ... دماءَ بني أميّةَ ما رُوينا
فإن جاؤوا برملةَ أو بهنْدٍ ... نُبايعُها أميرةَ مؤمنينا
إذا ما مات كِسرى قام كِسرى ... نعَدُّ ثلاثةً متناسقينا[1]

ثمّ خاطب يزيد قائلًا:

تعزَّوا يا بني حَرْب بصَبْرٍ ... فمن هذا الذي يرجو الخُلُودا!
تَلقّاها يزيدٌ عن أبيهِ ... فَخُذْها يا مُعاوِيَ عن يزيدا
أديرُوها بني حَربٍ عليكُمْ ... ولا تَرمُوا بها الغرضَ البعيدا

و يُلحَظ في أبيات الشعراء الأمويّين أن ملوك بني أميّة هم أولياء عهد رسول الله ﷺ، فقد قال الفرزدق في الوليد بن عبد الملك:

إنّ الوليدَ وليُّ عهدِ محمّدٍ ... كلَّ المكارمِ بالمكارم يشتري[2]

وقد تقدّم أنّ هذا الأسلوب لم يُعهَد عند أبناء الصحابة، فقد مرّ أنّ عبد الله بن عمر قال: «فإنّ هذه الخلافة ليست بهرقليّة ولا قيصريّة ولا كسرويّة يتوارثها الأبناء عن الآباء»، وقال عبد الرحمان بن أبي بكر أيضاً: لا تحدّثْنا بسنّة الروم، إذ كلّما مات هرقل منهم خلفه هرقل آخر؛[3] وأفيد هنا أيضاً من أخبار أهل الكتاب لبيان حتميّة حكومة معاوية ويزيد، وإن لم يستبن على وجه الدقّة الوقت الذي أفيد منها، أكان في تلك الفترة أم بعدها؟ واختلق هُواةُ بني أميّة مثلَ هذه الأخبار، ومثالها: نبوءة

١ - **مروج الذهب** ٣: ٣٧؛ **البدء والتاريخ** ٦: ٨؛ **البداية والنهاية** ٨: ٣٦٢.
٢ - **ديوان الفرزدق** ١: ٣٣٦.
٣ - **أمالي أبي علي القالي**: ١٧٥؛ **تثبيت دلائل النبوّة**: ٥٧٥.

كعب الأحبار بحكومة معاوية بعد مقتل عثمان![1]

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص- الذي كان معروفاً بأنّ له اهتماماً بكتب أهل الكتاب وطالع آثاراً في كنائس النصارى بالشام- لابن الزبير: «تعلمُ أنّي أجدُ في الكتاب أنّك ستعنّى وتُعنّي وتدّعي الخلافة ولست بخليفة، وإنّي أجد الخليفة يزيدَ بن معاوية»، ونُقِل عنه قوله: تلك الأرض المقدّسة: معاوية وابنه![2] وفي عداد هذه المساعي يتعيّن علينا أن نذكّر بالأحاديث المُختَلَقَة التي أخبر فيها النبيّ ﷺ معاوية بولايته للأمر في المستقبل![3] فأثمرت مساعي معاوية في تثبيت موقع يزيد وإن بقي معارضون كُثرٌ في العراق والحجاز كالنار الخابية.

و مرّت الإشارة إلى أنّ أهل الشام أصرّوا على ولاية يزيد للعهد، لأنّ مصالحهم كانت تقتضي دعم الأمويّين في مقابل العراق، مضافاً إلى أنّ الإسلام الأمويّ كان سائداً بينهم، وكانوا يَرَون بني أميّة مظهراً للإسلام، وقد مارسوا ضغوطهم على معاوية في الأيام الأخيرة ليُعرِّف يزيد رسميّاً، ومعاوية أيضاً ألبسه ثياب الخلافة (ثياب عثمان)، وعيّنه خليفة له رسميّاً[4].

و أوصى معاوية يزيد في العهد الذي كتبه إليه، وهو يجعل الأمر له من بعده، بأن يقدّم بني أميّة وآل عبد شمس على بني هاشم، وأن يقدّم آل عثمان على آل أبي تراب وذرّيّته[5]... وهكذا عيّن معاوية النهجَ القادم لبني أميّة.

و طُويت صفحة حياة معاوية المُخْزية في رجب سنة ٦٠ للهجرة بعد تسع عشرة

---

١ - مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٢٤ — ٢٥.

٢ - تاريخ خليفة بن خيّاط: ٢١٨.

٣ - مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ١٦- ١٧.

٤ - الفتوح ٤: ٢٥٥.

٥ - نفسه ٤: ٢٥٧.

سنة وثلاثة أشهر من الحُكْم، وهو يهمس مراراً بهلعه من جرائمه ومنها سفكُه دمَ حُجر بن عَدِيّ وعمرو بن الحَمِق [رضوان الله عليهما]!

الفصل السابع

نهضة كربلاء و نتائجها

سيرة الإمام الحسين عليه السلام

وُلِد الإمام الحسين عليه السلام في الثالث من شعبان[1] سنة أربعٍ للهجرة[2]، وكان عليه السلام مأنوساً بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله طوال سِني عمره الأولى، ولم ينفصل عنه قطّ حتّى في وقت الصلاة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يُعرب عن بالغ حبّه له ولأخيه عليهما السلام، ويُحدّث الناسَ بطرفٍ من فضائلهما عبر الكلمات التي كان يُطلقها بحقّهما... حتّى نُقلت فضائل جمّة للإمام الحسين عليه السلام في الكتب الحديثيّة، وكثيرٌ منها متواتر، كقوله صلى الله عليه وآله: الحسنُ والحسين سيّدا شباب أهلِ الجنّة. وكان حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لهذين الابنَين مُبيناً عند الصحابة جميعاً، وكان صلى الله عليه وآله يَجدّ في أن يُطْلع الناس على ذلك الحبّ، بل كان يقول: اللّهمّ أحِبَّ مَن يُحبُّهما، ويقول: مَن أحَبَّني فَلْيُحِبَّ هذين[3]، ويقول: مَن أحَبَّ الحسنَ والحسين فقد أحبَّني، ومَن أبغضَهما فقد أبغَضَني[4]، وقال صلى الله عليه وآله فيهما أيضاً: هُما رَيحانتايَ مِن الدنيا[5]. ووردت فضائل خاصّة للإمام الحسين عليه السلام، وأشهرها حديث: حسينٌ منّي وأنا مِن حسين[6].

---

١. **مسارّ الشيعة**: ٣٧؛ **مصباح المتهجّد**: ٧٥٨. وذهب أبوالفرج الأصفهانيّ في «**مقاتل الطالبيّين**»: ٥١، والشيخ المفيد في «**الإرشاد**»: ٢١٨ إلى أنّ يوم الولادة هو الخامس من شعبان.

٢. تقدّم أنّ بعضاً ذهب إلى أنّ ولادة الإمام الحسن عليه السلام كانت في السنة الثانية، فلا بدّ أن تكون ولادة الإمام الحسين عليه السلام عندهم طبعاً في السنة الثالثة. وهذا ما رآهُ الكلينيّ في «**الكافي**»: ٤٦٣، والشيخ الطوسيّ في «**التهذيب**» ٦: ٤١.

٣. **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٢٥.

٤. نفسه: ١٣٦.

٥. نفسه: ١٣١.

٦. نفسه: ١٣٧. يُنظَر الكتاب الثمين «**فرائد السمطين**» للاطّلاع على فضائل هذين الإمامَين العظيمَين. وفي الكتب الأخيرة أعدّ كتاب «**فضائل الخمسة في الصحاح الستّة**» فضائل أهل

ونقل يحيى بن سالم الموصليّ «عن مولىً للحسين بن عليّ، قال: كنتُ مع الحسين بن عليّ فمرّ بباب فاستسقى، فخرجت إليه جارية بقدح مفضّض! فجعل ينزع الفضّة فيرمي بها إليها، قال: اذهبي بها إلى أهلك، ثمّ شرب»[١].

وقال أبو بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم: مرّ الحسين بمساكين يأكلون في الصُّفّة، فقالوا: الغداء، فنزل عليه السلام وقال: إنّ الله لا يُحبّ المتكبّرين، فتغدّى، ثمّ قال لهم: قد أجبتُكم فأجيبوني، قالوا: نعم. فمضى بهم إلى منزله، فقال للرباب: أَخرِجي ما كنتِ تدّخرين[٢].

ورُوِيَ عن الإمام الباقر عليه السلام: أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يمشي إلى الحجّ، ودوابُّه تُقاد وراءه[٣].

وقاتل الإمام الحسين عليه السلام: الناكثين، والقاسطين، والمارقين إلى جانب أبيه في: الجمل، وصِفّين، والنهروان... ونُقلت له خطبة حثّ الناسَ فيها على القتال بصفّين[٤]، وكان له دور في أخذ مسير الماء من أيدي الشاميّين في المراحل الأُولى من صفّين، حتّى قال والده عليه السلام بعد هذا النصر: هذا أوّل فتح ببركةِ الحسين [عليه السلام[٥]]. ولمّا ناداه عبيد الله بن عمر في صفّين قائلًا له: «اعلمْ أنّ أباك قد وتر قريشاً»، نبزه الحسين عليه السلام باتّباع القاسطين، وذكّره بأنّهم «لم يُسْلموا ولكنّهم استسلموا خوفاً وطمعاً»![٦].

وكان عليه السلام يُدافع عن سياسة أخيه أيّام إمامته دفاعاً تامّاً، ولم

البيت من المصنّفات المشهورة لأهل السنّة.

١. نفسه: ٣٥. و المؤلّف ذكر أنّ يحيى بن سالم هذا كان من أولياء الإمام الحسين عليه السلام، وهو ليس كذلك، و إنّما نقل عن مولى الحسين! المترجم.

٢. نفسه: ٣٩؛ **التذكرة الحمدونيّة** ٩: ٨٤؛ **كتاب التواضع والخمول**: ١٤٢.

٣. **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٣٥.

٤. **بحار الأنوار** ٣٢: ٤٠٥.

٥. نفسه ٤٤: ٢٦٦.

٦. **الفتوح** ٣: ٣٥.

يستجب عليه السلام للطلبات المتكرّرة التي عرضها عليه أهل العراق ليأتيَ الكوفة، حتّى بعد شهادة أخيه عليه السلام، مُخبرَهم أنّ عليه ألّا يفعل شيئاً ما دام معاوية حيّاً، وكلامه هذا يعني أنّه تحمّل حكومة معاوية مُجبَراً في تلك الفترة التي طالت عشر سنين. وهذه ملاحظةٌ مهمّةٌ في مواقفه المبدئيّة عليه السلام، وقلّما نالت الاهتمام، والسبب هو أنّنا نعرفه عليه السلام غالباً من زاوية موقفه النهضويّ بكربلاء، في حين أنّه كان عليه السلام قائماً بمهمّةٍ مُلقاةٍ على عاتقه.

ومن الأخبار التي تُؤيّد موقفَه عليه السلام هذا خبرٌ حول ما أبداهُ جناحٌ من الحزب القرشيّ مع الأمويّين بالمدينة عند دفن الإمام الحسن عليه السلام، فقد ذكر اليعقوبيّ أنّ عائشة ركبت بغلةً شهباء، وقالت: «بيتي لاآذَن فيه لأحد؛ فأتاها القاسم بن محمّد ابن أبي بكر فقال لها: يا عمّة! ما غسَلْنا رؤوسَنا من يوم الجمل الأحمر، أتُريدين أن يقال: يوم البغلة الشهباء؟! فرجعت». لكنّ آل مروان حالوا دون دفنه عليه السلام [مع جدّه صلى الله عليه وآله]، «واجتمع مع الإمام الحسين عليه السلام جماعة وخلق من الناس. فقالوا للإمام الحسين عليه السلام: دعنا وآلَ مروان، فوالله ما هم عندنا إلّا كأكلة رأسٍ»، بيد أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدّد في الأمر بعد أن ماجت الفتنة، فقال: إنّ أخي أوصاني أن لا أُريقَ فيه مَحْجَمة دم. وبعد ذلك دُفِن الإمام الحسن عليه السلام[1] [بالبقيع].

وانتهت قيادة الشيعة إلى الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادة أخيه الحسن عليه السلام (سنة ٤٩هـ)[2]، ورحّب أهل الكوفة بقيادته عليه السلام في رسالة تعزيةٍ بعثوها إليه، وعبّروا فيها عن ولائهم له عليه السلام كشيعة، وتدلّ التعبيرات الموجودة في هذه الرسالة على أنّ شيعة الكوفة تربّوا في جوٍّ شيعيّ عقائديّاً وعاطفيّاً... والرسالة هي:

بسم الله الرحمن الرحيم

---

١. تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٢٥.

٢. تقدّم أنّه سنة ٥٠ أو ٥٢ للهجرة.

للحسين بن عليّ من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين

سلام عليك؛ فإنّا نحمَدُ إليك اللهَ الذي لاإله إلّا هو، أمّا بعد: فقد بَلَغنا وفاةُ الحسن بن عليّ [عليه السلام][1] يومَ وُلِد ويومَ يموت ويومَ يُبعث حيّاً؛ غفر الله ذنبَه وتقبّل حسناتِه، وألحقَه بنبيّه، وضاعَفَ لك الأجرَ في المُصاب به، وجَبَربك المصيبةَ مِن بعدِه، فعندَ الله نحتسبُه، و إنّا لله و إنّا إليهِ راجعون. ما أعظمَ ما أُصيبَ به هذه الأمّةُ عامّة، وأنتَ وهذهِ الشيعةُ خاصّة، بهَلاك ابنِ الوصيّ، وابنِ بنتِ النبيّ، علمِ الهُدى ونورِ البلاد، المرجوّ لإقامة الدين، و إعادةِ سِيَرالصالحين! فاصبرْ - رَحِمَك الله - على ما أصابك، إنّ ذلك لَمِن عزمِ الأمور، فإنّ فيك خَلَفاً ممّن كان قَبلَك، و إنّ الله يُؤتي رُشْدَه مَن يُهدى بِهَدْيِك، ونحن شيعتك، المُصابة بمصيبتِك، المَحْزونةِ بحُزنِك، المسرورةِ بسرورك، السائرة بسيرتك، المنتظرةِ لأمرِك؛ شرَحَ الله صدرَك، ورَفَعَ ذِكْرَك، وأعْظَمَ أجرَك، وغفرذنبَك، وردّ عليك حقّك.

وتدلّ هذه الرسالة على أنّ الكوفة كانت تشهد حضوراً فعّالًا للشيعة الذين كانوا يعيشون إلى جانب الأشراف والناس التابعين لهم المُنْضوين إلى الحزب العثمانيّ والأمويّ طبعاً، وكانوا يأملون التمتّع بمزايا إمامة الحسين عليه السلام وقيادته جهد المستطاع، ولم يرغب الإمام عليه السلام في أن يفعل شيئاً ومعاويةُ حيّ... مِن هنا، كان جوابه عليه السلام لشيعة الكوفة حين طلبوا منه القيام هوأنّ بينَه وبينَ معاويةَ عهداً وعقداً، لايجوزُ له نقضُه[2].

و الحادثة التي أوجدت جوّاً جديداً في مجال المنافسة بين معاوية ومعارضيه هي المطالبة ببيعة يزيد، وكان هذا العمل مناقضاً لمعاهدة الصلح التي أُبرِمت

---

١ ـ لم يرد هذا التعبيرفي نصّ المؤلّف، وكذلك في المصدر المنقول عنه وهو **تاريخ اليعقوبيّ**. المترجم.

٢ ـ **الإرشاد** ٢: ٣٢؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهرآشوب ٤: ٨٧.

بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية... يُضاف إلى هذا أنّ شخصيّة يزيد الوضيعة مهّدت الطريق لمعارضة أكثر، فبدأ معاوية يأخذ له البيعة من الناس في الفترة الواقعة بين سنة ٥٢ و٥٥هـ (وفي الحقيقة بعد قتلِه الإمامَ الحسن عليه السلام). وقد جُوبِهَ عمل معاوية باحتجاجاتٍ كثيرة في مدائن شتّى، لاسيّما في المدينة والكوفة، لكنّ ضروب الترهيب والترغيب وشراء أشراف القبائل وطّأت له السبيل. ومن الطبيعيّ أنّ شهادة الإمام الحسن عليه السلام، الذي كان الطرفَ الأصليّ في المعاهدة من أجل عدم نصب أحدٍ يَخْلفه، لم يكن إلّا لهذا الهدف، وجُهدُ معاوية هو جعلُ حكومته وراثيّةً بين الأمويّين بعده... وكان المغيرة بن شعبة، وهو صحابي، متعجِّلًا إلى هذا العمل، وله القدح المعلّى في المكر والحيلة والخديعة.

الإمام الحسين عليه السلام والأمويّون قبل وقعة كربلاء

طلب مروان الخبيث الوضيع والي معاوية على المدينة[1] من أهل المدينة أن يبايعوه ممثّلًا لمعاوية ومنادياً بولاية يزيد للعهد. وقد وصف يزيدَ بأنّه سيسير بسيرة الخلفاء الراشدين المهديّين! فأنكر عبد الرحمان بن أبي بكر ذلك، ونهضت عائشةُ أيضاً للدفاع عن أخيها، وعارض الآخرون أيضاً... ولمّا رأى مروان تحرّكَهم الاحتجاجيّ، كتب إلى معاوية يُخبره بذلك، وذكر أنّ هذا العمل يجب أن يتحقّق على يديه، ثمّ قصد المدينة متظاهراً بأنّه يريد الحجّ. وفي الوقت نفسه فإنّ الإمام

---

١ .أثبت مروان خبثه ولؤمه في جميع مراحل حياته، فقد كان يُكثر من الإساءة إلى الإمام أمير المؤمنين والزهراء عليهما السلام بمحضر الإمامين الحسنَين عليهما السلام، وهو الذي طالب بقتل الحسين عليه السلام بالمدينة حين رفض الإمامُ بيعةَ يزيد. ولمّا رجع سبايا أهل البيت عليهم السلام من الشام، لم يرعوِ مروان عن إظهار خُبثه ولؤمه في ما تفوّه به من كلمات نابية نال فيها من أهل البيت عليهم السلام. و إذا جُمعت أخبار هذا اللئيم في هذا المجال، فسيستبين أنّه كان مِن أقذر العناصر السياسيّة التي أدّت دوراً مهمّاً في التطوّرات السياسيّة منذ عهد عثمان، بوصفه صِهرَه، إلى يوم هلاكه.

الحسين عليه السلام يتمتّع بموقعٍ رفيع شريف، فقال مروان لمعاوية في رسالته إليه: إنّي لستُ آمَنُ أن يكونَ الحسينُ مَرْصَداً للفتنة، وأظنُّ يومَكم مِن حسينٍ طويلًا![1] وقد بلغ إنكار الناس على وراثة الحكم أنّ عبد الرحمان بن أبي بكر قال: تُريدونَ أن تجعلوها هِرَقْليّة، كلّما مات هِرَقْل، قام هِرَقْل!![2]

وكان معاوية يستغلّ كلّ سبيلٍ من أجل إخماد صوت المعارضين، حتّى إنّه كان يختبر أخلصَ الأصحاب عبر التطميع والترغيب، فأراد ذات مرّة أن يُسكّن أبا ذرّ الغِفاريّ بهذا الطريق أيضاً. ولدينا هنا مثالٌ رائع عن سياسته حيال الإمام الحسين عليه السلام، تلك السياسة التي رام فيها أن يخفّف غضب الإمام عليه السلام على الأمويّين عبر هديّة أرسلها إليه، لكنّ سهمه قد طاش عن الغرض، وخاب وخُزي.

قال الأصمعيّ: «عُرِضَت على معاوية جاريةٌ فأعجبته، فسأل عن ثمنها، فإذا ثمنها مئةُ ألف درهم! فابتاعها... ونظر إلى عَمْرو بن العاص فسأله: لمن تصلح هذه الجارية؟ فقال: لأمير المؤمنين. ثمّ نظر إلى غيره، فقال له كذلك، فقال: لا، فقيل: لمَن؟ قال: للحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ فإنّه أحقُّ بها لما لَه مِن الشرف، ولما كان بينَنا وبين أبيه. فأهداها له، فأمر مَن يقوم عليها، فلمّا مضت أربعون يوماً حمَلَها وحمل معها أموالًا عظيمة وكِسوة، وغير ذلك، وكتب: إنّ أمير المؤمنين اشترى جاريةً فأعجَبتْه، فآثرَك بها. فلمّا قَدِمت على الحسين بن عليّ أُدخِلت عليه، فأُعجب بجمالها، فقال لها: ما اسمُكِ؟ فقالت: هوى، قال: أنتِ هوى كما سُمّيتِ، هل تُحسنين شيئاً؟ قالت: نعم، أقرأُ القرآن، وأُنشد الأشعار، قال: اقرئي. فقرأت: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، قال: أنشديني، قالت: وليَ الأمان؟ قال: نعم. فأنشدت تقول:

---

١ ـ **ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٥٤.

٢ ـ **الكامل**، لابن الأثير ٣: ٢٥٠.

أنـتَ نِعْـمَ المَتـاعُ لـو كنـتَ تَبقـى   غَيــــرَ أنْ لا بقـــاءَ للإنســـانِ

فبكى الحسين، ثمّ قال: أنتِ حرّة، وما بعث به معاوية معكِ فهو لكِ. ثمّ قال لها: هل قلتِ في معاوية شيئاً؟ فقالت:

رأيتُ الفتى يَمضي ويَجمَعُ جُهدَهُ   رجـاءَ الغِنـى والوارثــونَ قُعــودُ

ومـا لِلفتـى إلّا نَصيبٌ مِـنَ التُّقـى   إذا فـارَقَ الـدُّنيا عليــهِ يَعُــودُ

فأمر لها بألف دينار وأخرجها، ثمّ قال: رأيتُ أبي كثيراً ما يُنشد:

ومَـن يطلـبُ الـدنيا لحـالٍ تَسُـرُّهُ   فسَـوفَ لَعَمْـري عَـن قليـل يَلومُهـا

إذا أدْبَرَتْ كانـت علـى المَـرءِ فتنـةً   وإنْ أقبلَـتْ كانـت قلـيلًا دوامُهـا

ثمّ بكى، وقام إلى صلاته»[1].

وجاء في خبر آخر «أنّ جاريةً له دخلت عليه وبيدها طاقةُ ريحان، فحيَّتْه بها، فقال لها: أنتِ حرّةٌ لوجه الله تعالى، فقيل له: تُحيّيك بطاقة ريحان لا خَطر لها، فتُعتقها؟! قال: كذا أدّبنا الله جلّ جلاله، قال: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾، فكان أحسنَ منها عِتقُها»[2].

وذكرنا سابقاً مواقف الإمام الحسينعليه السلام من معاوية في مجال وراثة الحُكم، فقد كانعليه السلام من أشدّ المعارضين، ولم يدّخر وسعاً للتعبير عن معارضته لهذا العمل.

وكان مروان هو الذي يحكم المدينة في البرهة التي عاش فيها الإمام الحسين وأخوهعليهما السلام، وكان شخصاً قذراً بذيءَ اللّسان، يستغلّ كلّ مناسبة للإساءة إلى أمير المؤمنين عليّعليه السلام وشتمه... يقول أبويحيى: «كنتُ بين الحسن بن عليّ والحسين ومروان بن الحكم، والحسين يُسابّ مروان... حتّى قال مروان: إنّكم أهلُ بيتٍ

---

١. **تاريخ مدينة دمشق**، تراجم النساء: ٤٦٩ ـ ٤٧٠ والخبر في الجزء السبعين، ص ١٩٦ ـ ١٩٧، طبعة دار الفكر ببيروت، دراسة وتحقيق علي شيري] المترجم.

٢. **نثر الدرّ** ١: ٣٣٥؛ **التذكرة الحمدونيّة** ٢: ١٨٦.

ملعونون»!! وكلامه هذا دليل على عمق خبث ذاته ولؤمها. «قال: فغضب الحسن وقال: ويلك قلتَ: أهل بيت ملعونين، فوالله لَقَد لَعنَ الله أباك على لسانِ نبيّه وأنتَ في صُلْبه»![١] وبهذا النمط ثأر مروان من النبيّ صلى الله عليه وآله.

وأراد معاوية ذات مرّة أن «يخطب ابنة عبد الله بن جعفربن أبي طالب على يزيد ابن معاوية، فشاور عبدُ الله حسيناً، فقال عليه السلام: أَتزوِّجُه وسيوفُهم تقطرُ مِن دمائنا؟! ضمّها إلى ابن أخيك القاسم بن محمّد (ابن الحنفيّة) »[٢]. وجاء في خبرآخرأنّ معاوية أراد من عمله هذا أن يتلافى صلاح الحيَّين بالصهر، أو بتعبيرآخرأراد استسلام الهاشميّين وانقيادهم للأمويّين[٣]!

وقَدِم معاوية الحجاز متظاهراً بالحجّ لأخذ البيعة من أهل المدينة ومكّة، وحضر اجتماعَ الناس بالمدينة (في رجب سنة ٥٦هـ)... وتحدّث، فسكت بعض أبناء الصحابة بعد كلامه، فأرجأ ذلك إلى أجلٍ آخر. وما ساس أهلَ المدينة، في الأقلّ، بالقهروالقوّة، وتحدّث مع معارضيه بمكّة مراراً، فلم يسمع جواباً شافياً، وحين كان الإمام الحسين عليه السلام بمكّة، منع معاويةُ حاكمَها أهل العراق من زيارة الحسين عليه السلام[٤].

وهلك معاوية في رجب سنة ٦٠ هـ، بدون أن يستطيع تهدئة جميع المعارضين وكسب تأييدهم لبيعة ابنه يزيد. وكان في مقدّمة المعارضين لهذه البيعة في زمانه: الإمام الحسين عليه السلام، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمان بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير. وبعد ذلك كان الناس يتردّدون إلى الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ما أثار الحاكمَ الأمويّ على المدينة، فكتب إلى معاوية يخبره بذلك، لكنّ معاوية كتب إليه قائلاً:

---

١ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ١٤٥ ـ ١٤٦.

٢ ـ نفسه: ١٤٩.

٣ ـ نفسه: ١٥٠.

٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٥٧ ـ ١٦٥.

«أن أتركْ حسيناً ما تركَك ولم يُظهِر لك عداوتَه، وما لم يُبدِ لك صفحتَه، واكمُنْ عنه كمونَ الشَّرى»[١]. ولمّا بلغ معاويةَ خبر معارضة الإمام عليه السلام وكُتُبِ أهل العراق إليه، كتب هو نفسه كتاباً إلى الإمام عليه السلام يحذّره فيه من الشِّقاق وبذر الخلاف بين الناس، وأن لايثقَ بأهل العراق... قال له: «واتّقِ الله، ولا تردّنّ هذه الأُمّةَ في فتنةٍ»[٢]، وفي تعبيرٍ آخر: «فاتّقِ الله يا حسين في شَقّ عصا الأمّة، وأن تَردَّهم في فتنة»[٣].

واستاء الإمام عليه السلام من كتاب معاوية هذا، فكتب إليه بعد قتل حُجْر بن عَديّ وعمرو بن الحَمِق الخزاعيّ، ونصب يزيد وليّاً للعهد، فانتقده بشدّة، وفي ما يأتي نصّ كتابه عليه السلام إليه: أمّا بعد، فَقَد بلَغَني كتابُك تذكرُ أنّه بلغَتْك عنّي أمورٌ ترغب عنها، فإن كانت حقّاً لم تقارّني عليها، ولن يَهديَ إلى الحسنات ويسدّد لها إلّا الله. فأمّا ما نُمِيَ إليك فإنّما رقّاه الملّاقون المشّاؤون بالنمائم، المُفرّقون بين الجميع، وما أُريد حرباً لك ولا خلافاً عليك، وايمُ الله لقد تركْتُ ذلك وأنا أخافُ اللهَ في تركه، وما أظنُّ الله راضياً عنّي بتَرْك محاكمتك إليه، ولا عاذري دونَ الإعذار إليه فيك، وفي أوليائك القاسطين الملحدين، حزبِ الظالمين، وأولياء الشياطين.

ألسْتَ قاتلَ حُجْرِ بنِ عَدِيٍّ وأصحابِه المُصلّين العابدين، الذين يُنكرون الظلمَ ويستعظمون البِدَع. ولا يخافون في الله لومةَ لائم، ظُلْماً وعُدواناً، بعد إعطائهمُ الأمانَ بالمواثيق والأيمان المُغلّظة؟!

أوَلسْتَ قاتلَ عَمْرِو بنِ الحَمِق الخُزاعيِّ صاحِب رسولِ الله، الذي أبلَتْه العبادة وصفّرت لونه وأنحلت جسمَه؟!

أوَلستَ المدّعي زيادَ ابنَ سُميّة المولودَ على فِراش عُبيدِ عبدِ ثَقيف، وزعمتَ

---

١ ـ نفسه ٣: ١٥٢؛ **رجال الكشي** ١: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

٢ ـ **الإمامة والسياسة** ١: ١٥٤.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٥٣.

أنّه ابنُ أبيك وقد قال رسول الله ﷺ: «الولَدُ للفِراش وللعاهِرِ الحَجَر»؟! فتركْتَ سنّة رسول الله ﷺ، وخالفْتَ أمرَه مُتعمّداً، واتّبعتَ هَواكَ مكذِّباً بغيرِ هُدًى من الله، ثمّ سلّطتَه على العراقَين، فقطع أيدي المسلمين وسَملَ أعينَهم وصلبهم على جذوع النخل، كأنّك لستَ من الأمّة وكأنّها ليست منك، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ألحقَ بقومٍ نَسَباً ليس لهم، فهو ملعون»!

أوَلستَ صاحبَ الحَضْرميَّيْنِ اللّذينِ كتب إليك ابنُ سُميّة أنّهم على دِين عليّ، فكتبتَ إليه: اقتلْ مَن كان على دينِ عليٍّ ورأيِه، فَقَتَلَهم ومثّل بهم بأمرك؛ ودينُ عليّ دينُ محمّد ﷺ، الّذي كان يضرب عليه أباك، والذي انتحالُك إيّاه أجلسَك مجلسَك هذا، ولولا هو كان أفضلُ شرفك تجشّمَ الرِحلَتَيْن في طلب الخمور. وقلتَ: انظرْ لنفسِك ودينك والأمّة، واتّقِ شقَّ عصا الألفة وأن تَرُدَّ الناسَ إلى الفتنة؛ فلا أعلم فتنةً على الأُمّة أعظمَ من ولايتك عليها، ولا أعلم لنفسي ودِيني أفضلَ من جهادك، فإنْ أفعَلْه فهو قربةٌ إلى ربّي، وإن أتركْه فذنبٌ أستغفرُ الله منه في كثيرٍ من تقصيري، وأسأل الله توفيقي لأرشدِ أُموري. وأمّا كيدُك إيّاي، فليس يكون على أحدٍ أضرَّ منه عليك، كفعلِك بهؤلاء النفر الذين قتلتَهم ومثّلتَ بهم بعد الصُّلح مِن غير أن يكونوا قاتَلُوك ولا نقضوا عهدَك، إلّا مخافةَ أمرٍ لو لم تقتلهم متَّ قبل أن يفعلوه، أو ماتوا قبل أن يُدركوه. فأبشرْ يا معاوية بالقصاص، وأيْقنْ بالحساب، واعلم أنّ لله كتاباً لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، وليس الله بناسٍ لك أخذَك بالظِّنّة، وقتْلَك أولياءَه علَى الشُّبْهة والتُّهمة، وأخذَك الناسَ بالبيعة لابنك، غلامٍ سفيهٍ يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب. ولا أعلمُك إلّا قد خَسِرْتَ نفسَك، وأوبقتَ دينَك، وأكلتَ أمانتَك، وغَشَشتَ رعيّتَك، وتبوّأتَ مَقعدَك مِن النار، فـ«بُعْداً للقومِ

الظّالمين!»[1].

إنّ الرُّؤى الباصرة للإمام الحسينعليه السلام في هذا الكتاب - الذي ورد في مصادر متنوّعة بأشكالٍ متفاوتة - لافتةٌ للنظر، فالإمامعليه السلام وصم معاويةَ في هذا الكتاب بالخيانة، وخرابِ الرعيّة بسبب نصب ابنه (فخُنْتَ أمانتَك، وأخربْتَ رعيّتَك). وكذلك عدّه عليه السلام شاربَ الخمر من الأشرار، فقال له: (فكيف تُولّي على أُمّةِ محمّدٍ مَن يشرب المسكر؟! وشاربُ المُسْكِر من الفاسقين، وشاربُ المسكر مِن الأشرار، وليس شاربُ المسكر بأمينٍ على دِرهم... فكيف علَى الأُمّة)؟![2]

وربّما جاء التركيز المسكر لا الخمر، ليعني أنّ كلّ مسكرٍ حرام، على خلاف من كان يعتقد أنّ الخمر فقط هو الذي وردت حرمتُه في القرآن، وغيره من المسكرات ليس حراماً.

وركّز الإمامعليه السلام في تهمةِ بثّ الفتنة تركيزاً كاملًا، فأجاب عنها بقولهعليه السلام: فلا أعلَمُ فتنةً علَى الأُمّة أعظمَ مِن ولايتِك عليها![3]

وجاءت توبيخات الإمامعليه السلام لمعاوية في النقطة المتمثّلة بقتلِه رجالًا كانوا يعارضون الظلمَ أوّلًا، والبدعةَ ثانياً، «يُنكرون الظلم، ويَستعظمون البِدَع، وبخاصّة

---

١ ـ جاء نصّ الكتاب في **أنساب الأشراف** (طبعة سهيل زكّار ٥: ١٢٠)، ويضاف إلى البلاذريّ الذي نقله في كتابه المذكور أنّ عدداً آخر من المؤرّخين القُدامى نقلوه أيضاً، منهم: ابن سعد في «**الطبقات الكبرى**» في **ترجمة الإمام الحسين**عليه السلام: ٥٤ ـ ٥٥، ومنهم: الدينوريّ الذي نقل فقراتٍ منه في «**الأخبار الطوال**»: ٢٢٤، ومنهم: ابن قُتيبة في كتاب «**الإمامة والسياسة**»: ١٨٠ ـ ١٨١، وهو من كُتُبِ القرن الثالث الهجريّ أو أوائل القرن الرابع. ومن المصادر التي نقلت نصّ الكتاب أو فقراتٍ منه: **المحبّر**: ٤٧٩ (وجاء فيه اسم الحضرميَّيْن اللّذَيْنِ قُتِلا بأمر معاوية وهما: مسلم بن زِيمر، وعبد الله بن نجيّ)؛ **تاريخ دمشق، ترجمة الإمام الحسين**عليه السلام: ١٩٧ ـ ١٩٨؛ **اختيار معرفة الرجال**: ٢٥٢ ـ ٢٥٩؛ **الاحتجاج**، للطبرسيّ ٢: ٨٥؛ **الدرجات الرفيعة**: ٤٣٤.

٢ ـ **دعائم الإسلام** ٢: ١٣١.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٢: ١٥٣ ـ ١٥٤.

أنّهم كانوا عابِدين زاهدين. ثمّ ذكر عليه السلام نماذج من ظلم معاوية وزياد في العراق، وصرّح بمخالفة معاوية لسُنّةِ النبيّ صلى الله عليه وآله في إلحاق زياد المجهول الأب بأبيه أبي سفيان![1]

ولمّا التقى معاوية بالإمام الحسين عليه السلام قال معاوية: أما بلغَك ما صنَعْنا بحُجْرٍ وأصحابه وشيعة أبيك؟! فقال: وما صنعتم؟! فقال معاوية: قتلناهم، وحنّطناهم وكفّناهم، وصلّينا عليهم ودفنّاهم. فقال الحسين عليه السلام:... لكنّا والله إن قتَلْنا شيعتَك ما كفّنّاهم ولا حنّطناهم، ولا صلّينا عليهم ولا دفنّاهم[2].

بدء حكومة يزيد

لمّا تسلّط يزيد على البلاد، طلب في المرحلة الأُولى من عامله على المدينة الوليدِ بن عُتبة بن أبي سفيان أن يأخذ له البيعةَ من أهلها، ويبدأ بالحسين عليه السلام! وذكرت المصادر أنّ غاية جهده أخذُ البيعة من هذا النفر من المعارضين[3]... جاء في معظمها أنّه قال: فخُذْ حسيناً، وعبدَ الله بن عمر، وابنَ الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصةٌ حتّى يُبايعوا،[4] ولكن جاء في بعضها أيضاً أنّه شدّد على الحسين عليه السلام بقوله: إنْ أبى عليك فاضربْ عنُقَه، وابعثْ إليّ رأسَه![5] وفي خبرٍ أورده ابن أعثم أنّه كتب إلى الوليد قائلًا: ولْيكُن جوابُك إليَّ رأسَ الحسين[6]! وجاء في بعض المصادر السُّنّيّة: وليكنْ أوّلُ مَن تبدأ به الحسين، وارفقْ به[7].

وسبب هذا التشدّد هو التعجيل في أخذ البيعة منهم كيلا تُتاح لهم الفرصة

١ ـ انظر: رجال الكشّي ١: ٢٥٢ ـ ٢٥٩.

٢ ـ الدرجات الرفيعة: ٤٢٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣١.

٣ ـ الأخبار الطوال: ٢٢٨؛ الكامل، لابن الأثير ٣: ٢٦٣.

٤ ـ مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٨؛ الردّ على المتعصّب العنيد: ٣٤.

٥ ـ اللهوف: ٢١؛ مثير الأحزان: ٩.

٦ ـ الفتوح ٥: ٢٥ ـ ٢٩؛ مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزميّ ١: ١٨٦.

٧ ـ تاريخ الإسلام، للذهبيّ ٢: ٢٦٨.

لجمع الأنصار من أرجاء العالم الإسلاميّ، ومن الطبيعيّ أنّ خروجهم من المدينة، وتوجّههم إلى مكّة أو العراق يولّد متاعب للأمويّين. قال مروان للوليد: «أرى أن تبعث إليهم الساعةَ فتدعوهم إلى البيعة... قبل أن يعلموا بموت معاوية، لأنّهم إنْ عَلِموا وَثَبَ كلُّ واحدٍ منهم في جانب، وأظهر الخلاف والمُنابذةَ، ودعا إلى نفسه»[1]. وأكّد للوليد حاكم المدينة أن يأخذ منهم البيعة قبل أن تظهر معارضة، فقال له: وإلّا فاضرب أعناقَهم![2] بيدَ أنّ الوليد لم يَعقِل طلبه، فقال له بشأن الحسين عليه السلام: فإنّه بقيّةُ وُلْدِ النبيّين[3]، فكيف يحقّ لي قتلُه؟!

واستدعى الوليدُ الإمامَ الحسين عليه السلام وابنَ الزبير، وكانا جالسين في المسجد، إلى دار الإمارة، فعرفا أنّ حدثاً - موت معاوية - قد وقع، لذلك اتّخذا سبيل الاحتياط، وعزم الإمام الحسين عليه السلام على أن لايذهب وحده إليه، فدخل منزله، ثمّ دعا بماءٍ، فلبس وتطهّر بالماء، وقام فصلّى ركعتين، وذهب إلى دار الإمارة مع (تسعة عشر)[4] من بني هاشم، وطلب منهم أن يتهيّأوا إذا سمعوا صوتَه قد علا وسمعوا كلامه وصاح بهم[5]. وحين دار الحديث مع حاكم المدينة حول بيعة يزيد، قال الإمام عليه السلام: لاخيرَ في بيعةٍ سرّ، والظاهرةُ خير[6]. وهكذا صرف الإمام عليه السلام البيعة عن نفسه في ذلك الوضع. ولمّا خرج عليه السلام، غضب مروان على الوليد، فقال له الوليد: وبّخ غيرَك مروان! إنّك اخترتَ لي التي فيها هَلاكُ دِيني... وإنّي قتلتُ حسيناً، سبحان الله![7] وحين

١ ـ تذكرة الخواصّ: ١٣٥.
٢ ـ تاريخ الإسلام، للذهبيّ ٢: ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
٣ ـ الفتوح ٥: ١٣.
٤ ـ مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب ٤: ٨٨.
٥ ـ الفتوح ٥: ١٦ ـ ١٧.
٦ ـ الإمامة والسياسة ١: ١٧٦.
٧ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٤٠.

بلغ يزيدَ خبرُ الوليد، عزَلَه، واستعمل على المدينة عمرَو بن سعيد بن العاص الذي كان يحكم مكّة يومئذٍ[١].

ويبدو أنّ الوليد أصرّ مرّة أخرى على أخذ البيعة من الإمام عليه السلام تلك اللّيلة، فكان موقفه عليه السلام أشدَّ من المرّة الأُولى، فقال بعد إلحاح الوليد على البيعة: يزيدُ رجلٌ فاسق، شاربُ خمر، قاتلُ النفس المحرَّمة، مُعْلِنٌ بالفِسق، ومِثْلي لا يُبايع مثله! ثمّ خرج من القصر[٢].

ورأى الإمام عليه السلام مروانَ في صباح الغد، فقال له مروان: «إنّي آمرُك ببيعة أمير المؤمنين يزيد، فإنّه خَوَلُك في دينك ودُنياك»، فقال عليه السلام: إنّا لله وإنّا إليهِ راجعون، وعلَى الإسلامِ السلامُ إذْ قد بُليَتِ الأُمّة بِراعٍ مِثْلِ يزيد! فاحتدم الجدال بينهما، فقال عليه السلام: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الخلافة مُحرَّمةٌ على آل أبي سفيان، وعلى الطلقاء وأبناء الطلقاء»، فقال مروان: لا تفارقْني، أو تبايع ليزيد صاغراً. ثمّ أشار إلى النزاع التاريخيّ بين بني هاشم وبني أميّة، فقال الإمام عليه السلام: يا مروان! إليكَ عنّي فإنّك رِجْسٌ و إنّا أهلُ بيت الطهارة[٣].

ولمّا بعثوا إلى ابن الزبير، أخبرهم أنّه سيأتي الساعة، وكرّر ذلك... ثمّ تباطأ، فبعثوا إليه تارةً أخرى، وحين فاتت الفرصة، ترك المدينة إلى مكّة آخرَ اللّيل.

وكان الإمام الحسين عليه السلام يعلم أنّ المدينة غير آمنة لكثرة الأمويّين فيها، فودّع قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، وسار بأهل بيته قاصداً مكّة أيضاً. ورضي حاكم المدينة في قرارة نفسه بذهابهما، ثمّ بدأ بالقبض على بعض أصحاب ابن الزبير، وكان فيهم عبد الله بن مطيع العَدَويّ الذي أُطلق بضغط قبيلته بني عَدِيّ.[٤] ويبدو أنّ لقاءه بالإمام

---

١ ـ **تاريخ الإسلام**، للذهبيّ ٢: ٢٦٨.
٢ ـ **الفتوح** ٤: ١٨ ـ ١٩.
٣ ـ نفسه ٥: ٢٥؛ وانظر: **اللهوف**: ٢٤.
٤ ـ **الفتوح** ٥: ٢١ ـ ٢٣.

الحسين عليه السلام حين خروج الإمام من المدينة كان قبل القبض عليه، وفي ذلك اللقاء حذّر الإمام عليه السلام من الذهاب إلى الكوفة قائلًا: فإذا أتيتَ مكّة، فاتّقِ الله ولا تأتِ الكوفة[1].

ونقل ابن أعثم أنّ الإمام عليه السلام حين ودّع قبر أُمّه وجدّه وأخيه صلوات الله عليهم، ملكَتْه عينه عند قبر جدّه صلى الله عليه وآله فرأى جدّه صلى الله عليه وآله وهو يقول له: يا حسين، كأنّك عن قريبٍ أراك مقتولًا مذبوحاً بأرض كَرْبٍ وبلاء مِن عصابةٍ من أُمّتي![2] وهذا الإخبار من الأخبار يدلّ بوضوحٍ على علم الإمام عليه السلام بواقعة كربلاء، وقد ورد مثل هذا الخبر في مصادر متنوّعة، وجرت دراسات كثيرة في هذا الموضوع، ومن المؤسف أنّ خبر كتاب «الفتوح» لابن أعثم وحدَه لايمكن أن يكون فيصلًا في هذا المجال.

وتحدّث محمّد ابن الحنفيّة مع أخيه الإمام الحسين عليه السلام حديثاً ذكرته الكتب المعهودة بصورٍ متباينة، فقد جاء في بعض الأخبار أنّه أراد منه أن يتنحّى عن بيعة يزيد[3]، ثمّ يبعث رسله إلى شتّى الأمصار ويدعو الناس إلى نفسه، فإن أفلح أقدم، وإلّا فلن ينقصه شيء إن ظلّ بالمدينة[4]. فوافقه الإمام عليه السلام في جوابه له، إلّا أنّه يُؤثر البقاء بمكّة، ويعمل بما أراد منه. ثمّ كتب إليه وصيّةً ذكر فيها هدفه الأصليّ من قيامه: إنّي لم أخرجْ أَشِراً ولا بَطِراً ولا مُفْسِداً ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ لطلبِ الإصلاحِ

---

١ .**أنساب الأشراف** ٢: ١٥٦.

٢ .**الفتوح** ٥: ٢٦؛ **أمالي الصدوق**: ١٥٢.

٣ .يا أخي أنت أَحبُّ الناس إليَّ وأعزّهم عَلَيَّ ولستُ أدّخرُ النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تَنَحَّ بِتَبِعَتِك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك... قال له الحسين: فإني ذاهب يا أخي... **تاريخ الطبريّ** ٦: ١٩٠ ـ ١٩١ باب خلافة يزيد.

٤ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٤١.

في أُمّةِ جدّي، أُريدُ أن آمُرَ بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسيرَ بسيرةِ جدّي وسيرةِ أبي عليّ بن أبي طالب[١]، وهذا النصّ مذكور في فتوح ابن أعثم وحده.

فيما نقل الدينوريّ أنّ أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام جميعاً خرجوا معه من المدينة، ولم يتخلّف منهم إلّا محمّد ابن الحنفيّة[٢]، وقيل: إنّ الإمام عليه السلام أمره بالبقاء ليوافيَه بأخبار المدينة. ويُستفاد من أخبارٍ أخرى أنّه قدم مكّة أيضاً يوم كان الإمام عليه السلام فيها، ونهاه نزلةً أخرى عن التوجّه إلى العراق[٣]. وفي مكّة عارض توجّهه إلى الكوفة، بل لم يأذن له بأخذ أبنائه[٤]. وكان عليه السلام حين خروجه من المدينة (ليلة السبت لثلاثٍ بقين من رجب سنة ستّين)[٥] يتلو ما حكاه سبحانه على لسان موسى عليه السلام وخروجه من بين آل فرعون: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٦]، وكان ابن الزبير قد خرج من المدينة قبله بليلةٍ.

وكان اختيار الإمام الحسين عليه السلام مكّةَ اختياراً إلهيّاً دقيقاً؛ إذ لم تتمتّع اليمن أو أيّ نقطة أخرى بأمنِ مكّة، كما كان له عليه السلام أن يزن فيها الأوضاع ويتّخذ القرار. ويبدو في الوهلة الأولى أنّ السبب الأصليّ للخروج من المدينة هو الابتعاد عن الظروف السائدة فيها لأخذ البيعة بالقوّة، وفي الوهلة الثانية العثور على ظروف مناسبة لجهاد يزيد، وتصحيح ما أمكن تصحيحه من الانحرافات التي أُصيبت بها الأُمّة.

---

١ ـ **الفتوح**: ٥: ٣٣؛ وانظر: **بحار الأنوار** ٤٤: ٣٢٩؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهرآشوب ٤: ٨٩.

٢ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٣٠.

٣ ـ يجب ألّا يكون هذا الخبر صحيحاً، فما ذكرته المصادر القديمة بشأن ابن الحنفيّة وحديثه مع الإمام عليه السلام لا يشير إلى أنّ حديثهما كان بمكّة أو عند المسير إلى العراق. (انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ١٦٦). أمّا خبر قدومه مكّة وحديثه مع أخيه، فقد ورد في المصادر المتأخّرة.

٤ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٦١.

٥ ـ **الإرشاد** ٢: ٣٤.

٦ ـ القَصص: ٢١.

وسار عليه السلام من المدينة إلى مكّة في الثامن والعشرين من رجب، ودخلها في الثالث من شعبان (ليلة الجمعة) مصادفاً ذلك واليومَ الذي كانت ولادته فيه، ولبث عليه السلام فيها ما يربو قليلاً على أربعة أشهر، أي من الثالث من شعبان حتّى الثامن من ذي الحجّة. ونزل عليه السلام عند دخولها دارَ العبّاس بن عبد المطّلب[١]... وأورد الدينوريّ أنّه «نزل شِعب عليّ، واختلف الناس إليه، فكانوا يجتمعون عنده حَلَقاً حَلَقاً... حتّى إنّ ابن الزبير كان يختلف إليه صباحاً ومساءً»[٢]، وكان بيّناً عند ابن الزبير أنّ الناس لايحفلون به والإمام عليه السلام مقيم بالبلد، لأنّ الإمام عليه السلام حين دخلها فَرِحَ به أهلُها فرحاً شديداً، وجعلوا يختلفون إليه بُكْرةً وعَشيّة[٣].

وطفق عليه السلام يجدّ في الإعداد للثورة بمكّة، وكان للبلاد الإسلاميّة يومئذٍ جناحان لا غيرهما، وهما: العراق، والشام: أمّا الشام، فكان حكراً على الأمويّين، وأمّا العراق فهو الجناح الوحيد الذي يتسنّى له تعبئة القوّة اللّازمة لثورة عامّة على بني أميّة... فمن كان ثوريّ التفكير، فما عليه إلّا أن يفكّر بالعراق وحده، والإمام الحسين عليه السلام كان عليماً أنّه إذا وُجِد له شيعة، فهم بالكوفة دون غيرها، وأحياناً بالبصرة، وكفى؛ ولهذا كان عليه السلام يتطلّع إلى إعلان شيعتهما عن استعدادهم للنهوض معه، وكان باليمن شيعة أيضاً، بيد أنّهم كانوا بعيدين عن مركز العالم الإسلاميّ

بداية تحرّك الشيعة بالكوفة ودعوتهم الإمام عليه السلام

انتعش شيعة الكوفة بهلاك معاوية، وبموقف الإمام الحسين عليه السلام المتمثّل بإبائِهِ بيعةَ يزيد، فشعروا أنّ قائدهم متأهّب لجهاد يزيد. وأدّى تساهل النعمان بن بشير

---

١ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٦.

٢ .الأخبار الطوال: ٢٣٠.

٣ .الفتوح ٥: ٣٨.

الأنصاريّ حاكم الكوفة إلى تلاقي الشيعة وتزاورهم وتواصلهم، والنعمان هذا هو الذي كلّفه معاوية يوماً ما بالغارة على العراق، وقيل فيه: كان النعمان عثمانيّاً مُجاهِراً بِبُغض عليٍّ، سيّئ القول فيه[1]، وقيل فيه أيضاً: كان رجلًا حليماً يحبّ العافيةَ[2]. وسكت الشيعة حتّى هذه الآونة؛ التزاماً منهم بوصيّة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لهم بالسكوت ما دام معاوية حيّاً. لذا خمدت جميع الأصوات في الحناجر؛ لكنّ تسلّط يزيد جعلهم متأهّبين لرفع أصواتهم بالإنكار، وكانوا يتمتّعون قبل ذلك بالتماسك السياسيّ، وكان يقودهم بعض الشخصيّات الوجيهة من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وأرفعهم سليمان بن صُرَد الخزاعيّ. كان ثلث أهل الكوفة، في الأقلّ، أُولي حِسٍّ شيعيّ؛ بيد أنّ عامّتهم كانوا تابعين لأشراف قبائلهم ورؤسائها الذين كانت الحكومة تُقيم لهم وزناً مضافاً إلى ما اتّصفوا به من خصائص خاصّة.

وكان أمام شيعة الكوفة آنذاك سبيل واحد لا غيرُه، وهو دعوة الإمام الحسين عليه السلام، فعقدوا اجتماعاتهم في دار سليمان بن صُرَد، وتحدّث إليهم قائلًا: فإنْ كنتم تعلمون أنّكم ناصِرُوه ومجاهدو عدوِّه، فاكتبوا إليه[3،4]، وقال لهم في موطن آخر: إن خِفْتُم الفشلَ فلا تَغُرّوه،[5] فكاتبوه بعد أن أخذ منهم العهود والمواثيق. ودلّت تجربة الماضي في ضعف دعم أهل الكوفة للإمام عليّ وابنه الإمام الحسن عليهما السلام على أنّ الشيعة لم يصمدوا على الطريق الذي اختاروه. وهذا موضوع صرّح به للإمام

---

١ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٥٨.

٢ ـ نفسه ٣: ٧٧.

٣ ـ تاريخ الطبري ٥: ٣٥٢؛ الفتوح ٥: ٣٨.

٤ ـ الإرشاد ٢: ٣٦.

٥ ـ المنتظم ٥: ٣٢٧.

الحسين عليه السلام جميعُ المعارضين لتحرّكه تلقاء الكوفة؛ ولكن ما الحيلة؟

وأزمع شيعةُ الكوفة جلبَ الإمام عليه السلام إلى مِصرهم حين عرفوا إباءَه بيعةَ يزيد، وعزمَه على جهاده: اجتمعت الشيعة في منزل سُليمان بن صُرَد وتذاكروا أمرَ الحسين ومسيره إلى مكّة، قالوا: فكتب إليه يأتينا الكوفةَ[1]. فبدأت المراسلة بعد ذلك، وامتنع سليمان، وهو رجل ذو تجربة، من أن يكتب متفرّداً بالأمر، فطلب من الجميع أن يكتب كلٌّ على حِدة، وهذا الأمر جعلهم جميعاً منهمكين في الحَدَث طبيعيّاً. وقد نصّ المؤرّخون كلّهم على أنّ أهل الكوفة كتبوا رسائل كثيرة إلى الإمام الحسين عليه السلام، وكان كلُّ فريقٍ يكتب رسالةً ويوقّعها جماعيّاً، ويرسلها إليه عليه السلام. ومضافاً إلى أكابر الشيعة، أنّ بعض الأشراف الانتهازيّين قد كتب إليه أيضاً، ومن هؤلاء: شِبَث بن رِبْعيّ، وحجّار بن أبجر العِجليّ، وعمرو بن الحجّاج، وشرذمةٌ غيرهم[2]، ممّن شهدوا كربلاء، بعد تقلّب الأحوال، وكانوا على رأس جيش الكوفة لحرب الإمام عليه السلام، وهذا النفر من الرجال اشترك في كتاب مستقلّ[3]، وذلك يدلّ على تواطئِهم معاً، وهو ما ذكره بعض الكوفيّين الذين لحقوا بالإمام الحسين عليه السلام فيما بعد، فقالوا له: إنّ هؤلاء الأشراف كاتبوك ليجعلوك سُوقاً وكسباً![4] وربّما فعلوا ذلك لاجتذاب الشيعة إليهم، أو أملًا منهم بنصر مُحتمَل للإمام عليه السلام، أو لإيقاع الإمام عليه السلام في المأزق الذي كان نصبه بنو أميّة.

وكان زعماء الشيعة الذين كتبوا رسالتهم معاً هم: سليمان بن صُرَد، والمسيِّب ابن نجبة، ورفاعة بن شدّاد، وحبيب بن مُظاهر، وهؤلاء هم الذين قادوا حركة

---

١ ـ **الفصول المهمّة**: ١٨٤.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٥٨. ونصّ كتابهم مذكور في **تجارب الأمم** ٢: ٤١.

٣ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٣١.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٧٢.

التوّابين، [ما عدا حبيب الذي رزقه الله الشهادة مع الإمام الحسين عليه السلام][1].

ومحتوى هذه الكتب واحد تقريباً، وموضوعاتها المهمّة واردة في كتاب سليمان بن صُرَد:... فالحمدُ لله الذي قصم عدوَّك الجبّارَ العنيد الذي انتزى على هذه الأُمّة فابتزّها أمرَها، وغصَبَها فيئَها، وتأمّر عليها بغير رضىً منها؛ ثمّ قتل خيارها، واستبقى شِرارها، وجعل مال الله دُولةً بين جبابرتِها وأغنيائِها، فبُعْداً له كما بَعُدت ثَمُود! إنّه ليس علينا إمام، فاقدمْ علينا، لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ[2].

ومن نصوصها نصٌّ نموذجيّ قصير معبِّر، وهو: أمّا بعد، فحيَّ هلا، فإنّ الناسَ ينتظرونك لا إمامَ لهم غيرُك، فالعَجلَ ثُمّ العَجَل... والسلام[3]. وفي تعبير آخر: قد فشا فينا الجور، وعُمِل فينا بغيرِ كتابِ الله وسُنّة نبيّه[4]. ويُلحَظ أنّ موضوعَي «الجور والبدعة» كانا ممّا ينكره الشيعة دائماً على الحكم القائم، وهو درس تعلّموه من خُطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة[5].

ولمّا بلغ حجم الكتب والرسائل مبلغاً دلّ على استعداد قُرابة اثني عشر ألفاً لاستقبال الإمام عليه السلام بالكوفة، أجاب عليه السلام عنها بعد أن كان قد سكت حتّى ذلك الحين، ورافق جوابَه عليه السلام خطوةٌ عمليّة لإقامة الحُجّة على أهل الكوفة وبيّن عليه السلام خطاب رسائلهم العديدة بقوله: «ومقالةُ جُلِّكم: إنّه ليس علينا إمام، فأقْبِلْ لعلّ الله

---

١ .هذا الاستثناء لم يذكره المؤلّف و إنّما أوردتُه هنا لأهمّيّته؛ لأنّ كلام المؤلّف ـقبل استدراكه ـ يوحي بأنّ حبيباً رضي الله عنه كان من قادة حركة التوّابين. المترجم.

٢ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٥١؛ **أنساب الأشراف** ٣: ١٥٧. ورد النصّ في كتاب **الفتوح** بشكل أوفى. وفيه إشارة إلى أنّ ابن معاوية تأمّر بلا مشورة، ولا إجماع، ولا علم من الأخبار.

٣ .**تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥١.

٤ .**تذكرة الخواصّ**: ١٣٦.

٥ .انظر: **نهج البلاغة**: الخطبة: ١٦٤. نصيحة الإمام عليّ عليه السلام لعثمان بن عفّان في تعريف الإمام العادل والإمام الجائر.

أن يجمَعنا بك على الهدى والحقّ»، وقد بعثتُ إليكم أخي وابنَ عمّي وثقتي من أهل بيتي، وأمرتُه أن يكتب إليّ بحالِكم وأمرِكم ورأيكم، فإن كتبَ إليّ أنّه قد أجمع رأيُ مَلَئِكم وذوي الفضل والحِجى منكم على مِثْل ما قَدِمتْ علَيّ به رسُلُكم، وقرأتُ في كتبكم، أَقْدِمُ عليكم وشيكاً إنْ شاء الله. فلَعَمْري ما الإمام إلّا العاملُ بالكتاب، والآخذُ بالقسط، والدائنُ بالحقّ، والحابسُ نفسَه على ذات الله. والسلام[1].

مسير مسلم بن عقيل عليه السلام إلى الكوفة ومآله

كان مسلم أشجعَ أبناء عقيل، وكان يناهز الخامسةَ والأربعين من العمر حين سار إلى الكوفة، وفي خبرٍ أنّه توجّه من مكّة تلقاء المدينة مع قيس بن مُسهِّر الصَّيداويّ[2]، ثمّ يمّم العراق مع دليلَين. وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أمره أن ينزل على هاني بن عروة[3]، وأفاد بعض الأخبار أنّه جاء هانيَ في بدء أمره[4]، إلّا أنّ أخباراً أخرى أشارت إلى أنّه نزل على المختار[5]. ويُرشد خبر آخر إلى أنّه نزل على مسلم بن عوسجة[6]، ويمكن أن يكون قد اتّخذ عدداً من البيوت لاستقراره كي لا يُعرَف مكانه على وجه الدقّة.

وسار مسلم [رضوان الله عليه] في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٦٠ هـ، ودخل الكوفة لخمسٍ مضين من شوّال في نفس السنة، أي بعد عشرين يوماً، ومكث فيها

---

١ . **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٥٣.

٢ . **الثقات**، لابن حبّان (السيرة النبويّة) ٢: ٣٠٧.

٣ . **ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٦٤.

٤ . نفسه: ٦٥.

٥ . **أنساب الأشراف** ٢: ٧٧؛ **الأخبار الطوال**: ٣٣٢؛ **الفتوح** ٥: ٥٦؛ **الإرشاد** ٢: ٤١.

٦ . **أنساب الأشراف** ٢: ٧٧؛ **الأخبار الطوال**: ٣٣٢؛ **الفتوح**: ٥: ٥٦؛ **الإرشاد** ٢: ٤١.

حتّى الثامن من ذي الحجّة وهو يوم شهادته. وما أن دخل الكوفة حتّى بدأ تردّد الشيعة إليه، فبايعوه رسولًا للإمام الحسين عليه السلام. وأساس البيعة هو العمل بكتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وآله، وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين، وتقسيم الغنائم بالعدل... وقد نقل المؤرّخون أنّ بين اثني عشر وثمانية عشر ألفاً بايعوه[١].

ويُستشفّ من أجواء الكوفة أنّ شيعتها هم الذين ابتكروا تحرّكهم السياسيّ، فبعث الإمام عليه السلام إليهم مسلماً استجابةً لدعوتهم، بيد أنّ شيعة البصرة كانوا قليلين[٢]، فكتب الإمام عليه السلام إلى رؤسائهم لحثّهم (حثّ الشيعة) على العمل والنشاط، وأمرهم أن يتهيّأوا. ومضمون كتبه عليه السلام ذات المحتوى الواحد هو: أنّه عليه السلام بدأها بذكر اصطفاء محمّد صلى الله عليه وآله على خَلْقه، وإكرامِه بالنبوّة، واختيارِه للرسالة، وأنّه نصح لعباد الله تعالى وبلّغ ما أُرسِل به... ثمّ تحدّث في أهل البيت ووصَفَهم بأنّهم ورَثَته بالحقّ، وأنّهم أحقُّ الناس بمقامه في الناس. ثمّ قال: فَاسْتأْثَرَ عَلَينا قومُنا بذلك، فرَضِينا وكَرِهْنا الفُرْقة[٣]... وأنا أدعُوكُم إلى كتابِ الله وسُنّةِ نبيّه صلى الله عليه وآله، فإنّ السُّنّة قد أُمِيتَت، وإنّ البدعة قد أُحْيِيَتْ![٤] ونقل البلاذريّ أنّه كتب إلى رؤساء البصرة قائلًا: إنّ السّنّةَ قد أُمِيتَت، وإنّ البدعةَ قد أُحْيِيَتْ ونُعِشَت[٥].

وأخذ سليمان مولى الإمام هذه الكتب إلى البصرة، وحين علم حاكمها عبيد الله بن زياد بقدومه، قبض عليه وصلبه[٦]. وكان يزيد بن مسعود [النهشليّ] من أهل

١ ـ التنبيه والإشراف: ٣٠٣؛ الإرشاد ٢: ٤١؛ إعلام الورى: ٢٢٣.

٢ ـ ذكر أبومِخْنَف مارية بنت سعد من بني عبد القيس التي كانت من شيعة البصرة الناشطين وأنّ الشيعة كانوا يجتمعون في منزلها إبّان نهضة الإمام عليه السلام. تاريخ الطبريّ ٥: ٣٥٣.

٣ ـ انظر: البداية والنهاية ٨: ١٥٧ ـ ١٥٨.

٤ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٥٧.

٥ ـ جمل من أنساب الأشراف ٢: ٣٣٥.

٦ ـ الفتوح ٥: ٦٣ ـ ٦٤.

البصرة، من بني سعد، قد عقد اجتماعاً مع عددٍ من كبار القبائل، وبعد حصوله على دعمهم كتب إلى الإمام الحسين عليه السلام يخاطبه أنّ أهل البيت حجّةُ الله على خَلْقه، ووديعتُه في أرضه، وأنّه وقبيلته مطيعون لأمره[١]. واستجاب بعضٌ آخر مثل يزيد بن نبيط، وهو من بني عبد القيس، وتوجّه مع وَلَديه إلى مكّة، وصحب الإمامَ حتّى استُشهد بكربلاء.

وأقدم الإمام عليه السلام على كسب شيعة البصرة آنذاك ليُعينوه، حتّى إذا توجّه تلقاء الكوفة، لحقوا به.

ولمّا رأى مسلم، وهو في ذروة تحرّكه، أنّ الظروف أصبحت مؤاتية، كتب إلى الإمام عليه السلام يدعوه إلى التعجيل بقدوم الكوفة وأن لا يتأخّر؛ لئلّا يُثير الأمويّون مشكلةً. وكان كلّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام حتّى هذا الحين، وكانت الظروف من كلّ جهة مناسبة لقدوم الإمام عليه السلام. ولم يُبدِ النعمان بن بشير حاكم الكوفة، لشدّة الاحتياط، استعدادَه لحرب مسلم بن عقيل والشيعة الذين كانوا مسيطرين على المدينة كما يبدو، حتّى نُقِلت عنه أخبارٌ شتّى، وحين رماه أنصار بني أميّة بالضَّعف، قال: أنْ أكونَ مِن المستضعفين في طاعة الله، أحبُّ إليّ مِن أن أكون من الأَعزّينَ في معصيةِ الله![٢] وطلب من الناس في كلامه ألّا يدخلوا في الفتنة والفُرقة[٣]. وفي هذه الآونة، كتب بعض أنصار بني أُميّة: كعمر بن سعد، ومحمّد بن الأشعث بن قيس، ومسلم بن سعيد الحضرميّ، وعُمارة بن عقبة، وعبد الله بن مسلم[٤] إلى يزيد يُخبرونه بوضع الكوفة وقدوم مسلم وبيعة الشيعة إيّاه، وقالوا له: إذا كانت لك حاجة بالكوفة،

---

١. **بحار الأنوار** ٤٤: ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

٢. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٥٦؛ **الفتوح** ٥: ٥٩.

٣. **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهرآشوب ٤: ٩١.

٤ - انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ٧٧ ـ ٧٨؛ **الأخبار الطوال**: ٢٣٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٥٦.

فابعثْ إليها رجلًا قويّاً يُنفّذ أمرَك، ويعمل مِثْل عملِك في عدوّك![1] فلم يجد يزيد حيلةً إلّا إرسال شخصٍ متفرعن مُريقٍ للدماء لا حسَبَ له ولا نَسَب، مثل عبيد الله ابن زياد، فذرابة لسانه وصرامة سيفه كفيلان بخمود أصوات أهل هذه المدينة؛ وحدث ما حدث بسبب ضَعف أهل الكوفة وفقدانهم الثبات. و إذا بتشدّد ابن زياد يغيّر أوضاع الكوفة، فقد جمع ابن زياد بين نهجه المستبدّ، واصطحاب الأشراف، وكونه رجلًا لا دينَ له ولا إيمان... وهذه الصفات جعلته عنصراً فظّاً غليظاً متشدّداً، فقبض على هاني فثارت قبيلته مِذْحج، لكنّ شُريحاً القاضي جاءهم وشهد على أنّ هانياً حيّ، فتفرّقوا، ثمّ وصل خبر يفيد أنّه تعرّض للأذى. فالتفّ الشيعة حول مسلم وحاصروا القصر، لكنّهم سرعانَ ما تفرّقوا بتثبيط الأشراف وتخذيلهم، فبقي مسلم وحده بالكوفة، فلجأ إلى دار امرأة تُدعى «طَوعة»، لكنّ قوّةً عسكريّةً لابن زياد غدرت به وقبضت عليه بعد أن أخبر ابنُ طوعة ابنَ زياد بوجوده في بيتهم، ثمّ استُشهد هاني ومسلم أمام دار الإمارة بالكوفة، واستُشهد بعدهما رجال كانوا قد نهضوا لدعم مسلم، وفيهم عبد الأعلى الكلبيّ، بعد أن ألقت شرطة ابن زياد عليهم القبض[2].

وهكذا خبت جذوة التحرّك الشيعيّ في مستهلّ تأجّجه، وكانت الصعوبة الأصليّة في ذلك الحين أنّ مسلماً لم يستطع أن يكتب كتاباً آخر إلى الإمام الحسين عليه السلام حول الظروف العصيبة التي تعيش فيها الكوفة، وقد أوصى عمر بن سعد قبل استشهاده أن يُخبر الإمام عليه السلام بالأوضاع السيّئة للكوفة، ويكتب إليه أن لا يأتيها، لكنّ عبيد الله بن زياد حال دون ذلك. وفي اليوم الذي استُشهد فيه مسلم أي الثامن من ذي الحجّة أو يوم التروية، تحرّك الإمام الحسين عليه السلام من مكّة قاصداً

١ - الإرشاد ٢: ٣٩.
٢ - أنساب الأشراف ٣: ٨٥؛ تاريخ الطبري ٥: ٣٧٩.

العراق مسرعاً، وكان قد اعتمر للحجّ، فجعلها عُمرةً مفردة، وخرج من مكّة[١].

مسير الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة وما حدث له في الطريق

كان مسير الإمام عليه السلام إلى الكوفة محتمَلًا من قبل، لذلك خشي عليه - وهو العالِم - بعضُ الأشخاص وحذّروه التوجّه إليها من وحي تفكيرهم بمصلحته عليه السلام، وهذه الاعتراضات كثيرة في المصادر، وقد أبداها غالباً رجال كانوا يجهلون أهدافه الأصليّة، ويفكّرون في حفظ نفسه وسلامته عليه السلام؛ لاسيّما أنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ مكّة نفسها لا أمن فيها له عليه السلام. واستند أكثر الاعتراضات إلى تجربة الكوفة السلبيّة في خذلان أبيه وأخيه عليهما السلام. وكان أصحابها يتحدّثون في فقدان الثقة بأهل الكوفة، وأوّل المحذّرين - ولا علمَ لهم بأسرار الإمام - عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر.. فقد أشار عبد الله بن عمر إلى انخداع الناس بمال بني أميّة وميلهم إليهم لمكانِ هذه الصفراءِ والبيضاء! وطلب منه أن يدخل في ما دخل فيه الناس، ويصبر كما صبر لمعاوية من قبل قائلًا: أن تدخلَ في صُلح ما دخل فيه الناس، واصبرْ كما صبرتَ لمعاوية من قبل، وأضاف: «فإنّ يزيد عسى أن لايعيش إلّا قليلًا، فيكفيك الله أمرَه»[٢]، [٣]... فأجابه الإمام عليه السلام جواباً دامغاً، فقال: أُفٍّ لهذا الكلام أبداً ما دامتِ

---

١ - **الإرشاد ٢: ٦٧**

٢ - **الفتوح ٥: ٣٨**

٣ - يُستشفّ من كلام عبد الله بن عمر عدّة أمور:

١ .تظاهره بالنصيحة والحرص على حياة الإمام الحسين عليه السلام مع أنّه لم ينصر آلَ البيت عليهم السلام في يومٍ من الأيّام.

٢ .خشيته من أن تندلع ثورةٌ عامّة فيما بعد على بني أميّة فتهدّ سلطانهم؛ لمكانة الإمام الحسين عليه السلام في قلوب الناس.

٣ .تحرّجه من أن يُطلَبَ منه موقفٌ مقابل يزيد، وهو يهرب من مواجهته بجهادٍ أو كلمةٍ ربّما أودى ذلك بحياته، فآثر السلامة والعافية على الاصطدام، وحذر مِن أن يظهر حكمٌ شرعيّ يُلزمه بجهاد الظلمة المفسدين الغاصبين!

السماواتُ والأرض، وسأله الإمام: «أنا عندَك على خطأٍ مِن أمري؟! قال: اللّهمّ لا... ولكنْ أخشى أن يُضرَب وجهُك هذا الحسَنُ الجميل بالسيوف»! فقال عليه السلام: إن لم أبايع فسيقتلونني في كلّ حال[١]. وكان له عليه السلام جواب آخر غير هذا، أجاب به عبدَ الله ابن عبّاس وابن الزبير، فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمرَني بأمرٍ وأنا ماضٍ فيه[٢]. ومع أنّ هذا الخبر ورد في المصادر السُّنّيّة أيضاً، إلّا أنّه نال اهتمام كتّاب الشيعة أكثر في القرون الأخيرة.

وكتب يزيد، في ذلك الحين، إلى ابن عبّاس، بوصفه كبيرَ بني هاشم، ليمنع الإمام الحسين عليه السلام من المسير[٣]، وحذّر، في سياق كتابه المذكور، أهلَ المدينة من مُؤازرة الإمام[٤]، فأجابه ابن عبّاس بكتابٍ ناصح، ووعظه بأن ينشغل بتلاوة القرآن، ونشر السُّنّة، والصلاة والصيام، وتركِ اللّهو واللَّعب، وأشار إلى أنّ الإمام الحسين عليه السلام استجار بحرم الله، لأنّ عمّال يزيد بالمدينة أساؤوا إليه[٥]. وكان ابن عبّاس يخشى على الإمام القتل؛ لذلك كان يلحّ عليه ألّا يُخرج النساءَ والصبيان معه، لكنّ الإمام عليه السلام كان عازماً على أخذهم[٦]، وعرض عليه التوجّهَ إلى اليمن فإنّ فيها عُزلة، ولنا بها أنصارٌ وأعوان[٧]، أو في رواية أخرى: فإنّ به حصوناً شِعاباً، ولأبيك به شيعة.[٨] لكنّ الإمام الحسين عليه السلام أخذ - بما يراه من أمر الله تعالى - بكتاب مسلم الذي أخبره فيه باجتماع الكوفيّين على بيعته: كتبَ إليَّ باجتماعِ أهلِ المِصْر على

ثمّ أنّى له أن يشير على إمام مفترض الطاعة كالإمام أبي عبد الله الحسين سلام الله عليه.

١ ـ **مقتل الحسين** عليه السلام، للخوارزميّ ١: ١٩٢ ـ ١٩٣.

٢ ـ نفسه ١: ١٩٢ ـ ١٩٣.

٣ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٩.

٤ ـ **الفتوح** ٥: ١١٧ ـ ١١٩.

٥ ـ **تذكرة الخواصّ**: ١٣٦ ـ ١٣٧.

٦ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٤٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٨٤.

٧ ـ **تذكرة الخواصّ**: ١٣٧.

٨ ـ **تاريخ الخلفاء** (موسكو) الورقة ٧٧ ب؛ **البداية والنهاية** ٨: ١٦٠.

بيعتي ونُصْرتي؛ فأشار ابن عبّاس إلى التجارب السيّئة لأهل الكوفة،[١] وكان جواب الإمام الآخر هو أنّه لو يُقتَل خارجَ مكّة خيرٌ من أن يُقتَل داخلَ حَرَم الله![٢] وسَرَّ ذهابُه عليه السلام من مكّة عبدَ الله بن الزبير؛ لأنّ ابن الزبير يستطيع أن يوجّه أنظار المكّيّين إلى نفسه في غياب الإمام عليه السلام عن بلدهم؛ وذُكر أنّه هو الذي كان يُسرّه توجّه الإمامَ عليه السلام تلقاءَ العراق، وقال له: هم شيعتُك وشيعةُ أبيك[٣]. وورد في بعض الأخبار أنّه كان يحذّره عليه السلام من المسير إلى العراق متظاهراً بالنصح، وقيل: إنّه كان يفعل ذلك لئلّا يُتَّهَم[٤]. ومهما كان، فإنّ بعضاً ذهب خاطئاً إلى أنّ توجّهه إلى الكوفة كان بتشجيعه[٥].

وكان معارضو مسير الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة كثيرين، أو على الأقلّ، صوّرتهم المصادر أنّهم كثيرون... فحذّر عبد الله بن جعفر - زوج زينب عليها السلام - الإمامَ عليه السلام من الشخوص عن المدينة، وقال بأنّه يستطيع أن يأخذ له الأمان من يزيد، فأخبره الإمام عليه السلام برؤياه النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال: أَمَرني بأمرٍ وأنا ماضٍ له[٦]. ويبدو أنّه كتب كتابه إلى الإمام عليه السلام بتوصية عمرو بن سعيد حاكم مكّة[٧]، وهو بعيد، وقيل: إنّ عوناً وجعفراً ابنَي عبد الله أتيا بكتاب أبيهما إلى الإمام عليه السلام، وبقيا معه ولم يرجعا.[٨] وكتب عمرو بن سعيد أيضاً إليه قائلًا: «... فإنّي أُعيذُك بالله مِن الشقاق؛ فإن كنتَ خائفاً فأقبِلْ إليّ، فلك عندي الأمانُ والبِرّ والصِّلة»، فكتب إليه الإمام الحسين عليه السلام: «...وإنّه لم يُشاقِقْ مَن دعا إلى الله وعَمِل صالحاً وقال إنّني مِن المسلمين، وخيرُ

---

١ ـ مروج الذهب ٣: ٦٤ ـ ٦٥.

٢ ـ **المعجم الكبير**، للطبرانيّ ٣: ١٢٨.

٣ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٦.

٤ ـ انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ١٦٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٨٤؛ **مختصر تاريخ دمشق** ١٢: ١٩٠.

٥ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٦.

٦ ـ **الفتوح** ٥: ١١٥ ـ ١١٦؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٩.

٧ ـ نفسه ٥: ١١٥ ـ ١١٦؛ نفسه: ٥٩.

٨ ـ انظر: **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٨٧؛ **العقد الفريد** ٤: ٣٧٧.

الأمـانُ أمـان الله»[١]. وأراد عمـر بـن عبـد الرحمـان المخزومـيّ أن يمنعـه عليه السلام أيضـاً مـن الرحيل إلى الكوفة قائلًا: «... لأنّك تأتي بلداً فيه عمّاله وأمراؤه ومعهم بيوتُ الأموال، وإنّما النـاس عبيـدُ الـدينار والـدرهم...»، فشكره الإمام عليه السلام على كلامه الـذي ذكره ناصحاً[٢].

والسؤال المهمّ هنا هو: أيمكن أن يكون الأمويّون هم الـذين حرّضوا بعض الأشخاص، وأجبروا بعضهم على أن يمنعوا الإمامَ عليه السلام من التوجّه إلى الكوفة؟ يبدو أنّ هذا الاحتمال قويٌّ جدّاً؛ ذلك أنّ طلب بعضهم - كعمرو بن سعيد - كان مشوباً بسوءِ الظنّ، كما أنّ يزيدَ أراد من عبد الله بن عبّاس أن يمنعه عليه السلام من المسير أيضاً، والدليل الآخر هو أنّ المعارضين كانوا غالباً ما يذكّرون الإمام بأن يكفَّ عن الشقاق، ويفكّرَ بالجماعة والطاعة. و«كتبت إليه عَمرة بنت عبد الرحمان تُعظّم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة! وتخبره أنّه إنّما يُساق إلى مصرعه»[٣]، وقال له أبوسعيد الخُدْريّ: «اتّقِ الله في نفسك، والزم بيتك، فلا تخرجْ على إمامك»!![٤].

وعلى أيّ حال، أنّ هناك بواعث أخرى على تكثير مثل هذه الأخبار بشأن المعارضة أيضاً، فيتعيّن علينا أن نشير منها إلى باعث الإساءة إلى شيعة الكوفة. وكذلك فإنّ هذه الأخبار تتعمّد التعريض بالإمام الحسين عليه السلام لاختياره الطريقَ الذي سلكه، وأشياء أخرى تُرضي أنصار بني أميّة؛ كما أنّ في ذلك توجيهاً لطلّاب العافية الذين تشبّثوا بهذه المعاذير تبريراً لقعودهم عن الثورة. علماً أن معارضةَ عددٍ كبير من الشخصيّات كانت من وحي الحرص على شخصيّة الإمام الكريمة والتفكير بمصلحته - كما يتصوّرونها - بلا التفاتٍ منهم إلى مهامّ الإمامة.

---

١. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٩؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

٢. أنساب الأشراف ٣: ١٦١؛ وانظر: مروج الذهب ٣: ٦٦.

٣. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٨.

٤. نفسه: ٥٧.

وقد وردت الأخبار- التي تشير بوضوحٍ إلى علم الإمام عليه السلام بواقعة كربلاء قبل حدوثها - في المصادر الشيعيّة بشكل رئيس، مع هذا، جاء بعض الروايات والأخبار أيضاً في: طبقات ابن سعد، وفتوح ابن أعثم، وبعض المصادر الحديثيّة لأهل السنّة. وفي هذا المجال دراساتٌ كثيرة عرضت آراءً متفاوتة، وقد أعددناها في مقالةٍ مستقلّةٍ تحت عنوان «الحكمة من شهادة الإمام الحسين عليه السلام»[١]، وفي أقسام أخرى في هذا الكتاب.

وخرج الإمام عليه السلام من مكّة ومعه تسعة عشر من بني عبد المطّلب، وزُهاء ستّين من مشايخ الكوفة وشبّانها[٢]، وكان خُروجُه عليه السلام من مكّة يوم الثلاثاء أو الأربعاء (التاسع أو الثامن من ذي الحجّة)[٣]، وذهب بعض إلى أنّه حين خرج منها كان معه اثنان وثمانون[٤]. ويوم التروية الذي عدّه أغلبُ المؤرّخين يومَ خروجه عليه السلام من مكّة هو نفس اليوم الذي خرج فيه مسلم بن عقيل في الكوفة، وقُتل بعد الغدر به.

وحاول عمرو بن سعيد والي مكّة منعَ الإمام عليه السلام من المسير، فجاءته عليه السلام مجموعةٌ من رُسُل الوالي المذكور لتنفيذ أمره، فأبى عليهم، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط؛ ومضى عليه السلام، فنادَوه: «يا حسين، ألا تتّقي الله، أتخرج من الجماعة»؟![٥] ولمّا خرج عليه السلام من مكّة وافاه يزيد بن نُبَيط البصريّ، ولحق وابناه[٦] معه بقافلة الإمام التي كانت ما زالت في الأبطح - أي داخل مكّة نفسها - وصَحِبه

---

١ .ذكر المؤلّف أنّ هذا العنوان قد ورد في هذا الكتاب، وهو لم يرد فيه. ولمّا أخبرتُه أيّد كلامي وكلّفني أن أكتب هنا: أنّه ورد في كتابنا الآخر: تأمّل في نهضة عاشوراء... المترجم.

٢ .نفسه: ٦١.

٣ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٦٠.

٤ .**الفتوح** ٥: ١١٩.

٥ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٦٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٨٥.

٦ .ذكر المؤلّف: وابنه معه... لكنّ الصحيح هو: وابناه معه. المترجم.

حتّى كربلاء واستُشهد هو وابناه فيها.[١] والتقى الإمام عليه السلام في التنعيم بقافلةٍ قادمةٍ من اليمن تحمل هدايا إلى يزيد من حاكمها الأمويّ، فأخذها الإمام عليه السلام وطلب من رجالها أن يسيروا معه إلى الكوفة إذا كانوا راغبين، وإلّا فهم أحرار، فصحبه عددٌ، ولم يبلغ كربلاءَ إلّا ثلاثةٌ منهم[٢].

ولمّا بلغ يزيدَ خبرُ مسير الإمام عليه السلام، كتب إلى ابن زياد مشيراً إلى ابتلاء بلده الكوفة من بين البلدان، وأمره أن يراقب الكوفة مراقبةً شديدة، ويَزيدَ أُعطيات أهل السمع والطاعة مِن ناسها مئةً مئة،[٣] وهدّده بأنّه إذا عجز عن ذلك فسيُعيده إلى نَسَبه السابق، أي إلى عُبَيد، وهو اسم عبدٍ كان في ثقيف![٤] وأكّد قائلًا: فَضَعِ المَناظرَ والمسالح، واحْتَرِسْ علَى الظَنّ وخُذْ علَى التُّهمة[٥].

والتقى الإمام عليه السلام في بداية مسيره بالفرزدق الشاعر الذي كان شابّاً آنذاك، فسأله عن الكوفة، فقال الفرزدق: أنت أَحبُّ الناسِ إلى الناس، والقضاءُ في السماء، والسيوفُ معَ بني أُميّة![٦] وفي خبرٍ آخر: قلوبُهم معك، وسيوفُهم عليك![٧] وقلوبُ الناس معك، وسيوفُهم مع بَني أُميّة[٨]. الفرزدق هذا ربّما مدحَ الأمويّين فيما بعد، ونُقل له شعر كثير في ملوكهم، مع أنّه نظم قصيدة رائعة في مدح الإمام السجّاد عليه السلام، وهي مشهورة. وجاء في تلك المصادر أنّ الإمام الحسين عليه السلام أيّد كلام الفرزدق

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٥٤.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٦٤.

٣ ـ نفسه ٣: ١٦٠، ٢٢٠.

٤ ـ **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢١٦؛ **نسب قريش**، مصعب الزبيريّ، ١٢٧ ـ ١٢٨ (ومنها تعتق أو تعود عبداً كما تُعتبد العبيد).

٥ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٨٠ ـ ٣٨١.

٦ ـ **ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٦٢ ـ ٦٣.

٧ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٤٥.

٨ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٨٦.

ضمنيّاً، وهذا ما يدلّ على علمه السابق بسوء الأوضاع بوضوح، وكلامه عليه السلام للفرزدق هو: ما أشكُّ في أنّك صادق، الناسُ عبيدُ الدنيا، والدِّين لَغْوٌ[لَعقٌ] على ألْسنتِهم، يَحُوطونَه ما دَرّتْ به معايشُهم، فإذا استُنبِطُوا قلّ الدَّيّانون![١] وكان هذا هو وضعَ الكوفة، وكان الإمام يعلم ذلك علماً ويقيناً، لكنّ الأمر الإلهيّ كان يقتضي التضحية، باستعداد شيعة الكوفة لنصرته، كما وافاه بخبرهم مندوبه مسلم بن عقيل.

ومرّ الإمام الحسين عليه السلام بقرابة عشرين منزلًا مختلفاً بين مكّة وكربلاء وذكرت المصادر التاريخيّة أسماءَها وبعض الأحداث التي وقعت فيها، والمنزلان الأوّلان هما: الصِفاح، وذات عِرق. وكان عليه السلام يجهد عند كلّ منزلٍ في تذكير الناس أو تنوير أفكار الحاضرين، فقد وافاه في ذات عرق رجلٌ يُدعى بِشْر بن غالب الأسديّ ووصف له الأوضاع السيّئة في الكوفة، ووافقه الإمام عليه السلام على كلامه أيضاً، ثمّ سأل بشرُ الإمامَ عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ**﴾[٢]، فقال عليه السلام: «نعم يا أخا بني أسد، هم إمامان: إمام هدًى دعا إلى هدًى، و إمام ضلالةٍ دعا إلى ضلالة، فهُدي مَن أجابه إلى الجنّة، ومَن أجابه إلى الضلالة دخل النار[٣]. ولم يصحب بشرٌ الإمامَ عليه السلام؛ ثمّ رأوه «يتمرّغ على قبر الحسين عليه السلام ندامةً على ما فاته من نُصرته»[٤]. ولقي الإمامَ عليه السلام في الثعلبيّة - موضع في الطريق - رجلٌ يُدعى أبا هرّة الأزْديّ، فسأله عمّا أخرجه، فقال عليه السلام: يا أبا هرّة، إنّ بني أُميّة أخذوا مالي فصبرتُ، وشتمُوا عِرْضي فصبرتُ، وطلبوا دمي فهربتُ، وايمُ الله يا أبا هرّة لَتقتلني الفئة الباغية!

---

١ .**بغية الطلب** ٦: ٢٦١٤؛ وانظر: **مختصر تاريخ دمشق** ٢٧: ١٢٠.

٢ .الإسراء: ٧١.

٣ .**الفتوح** ٥: ١٢٠.

٤ .**ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٨٨.

ولَيُلْبِسهُم الله ذُلّاً شاملًا وسَيفاً قاطعاً، وليُسلّطنّ الله عليهم مَن يُذلّهم[١]. وتدلّ هذه الأخبار على علم الإمام عليه السلام بالموقف الذي كان ينتظر رَكبَهُ، وإن لم يُوافِه خبرٌ مزعج من الكوفة بَعدُ.

إنّ الحديث في ظاهر هذه الحركة، أي الظروف التاريخيّة، هو غير الشيء الذي يعود إلى علم الإمام الباطنيّ، وعلى الرغم من دلالة الظروف الظاهريّة على عُسر الأوضاع في المستقبل، إلّا أنّها ما زالت إيجابيّةً. وكان باطن الأمر بيّناً عند الإمام عليه السلام، وكان عليه السلام يشير في كلماته إلى ذلك البُعد من القضيّة، فلمّا سأله عليه السلام شيخٌ من بني عكرمة أن لايسيرَ إلى الكوفة، فيُقدمَ على الأسنّةِ وحدّ السيوف، قال عليه السلام له: يا عبدَ الله، إنّه ليس يَخفى عَلَيّ الرأي ما رأيت، ولكنّ الله لا يُغلَب على أمره[٢]. ويمكن أن يدلّ هذا بوضوح على علمه عليه السلام بما قُدّر له.

وبعث عليه السلام إلى الكوفة رجلَين في وقتَين مختَلِفَين، ليأتياه بخبر مسلم، وذلك قبل أن يصل إليه خبر شهادته، وهذان الرجلان هما: عبد الله بن بُقْطُر [أو يَقْطُر]، أخو الإمام عليه السلام من الرضاعة، وقيس بن مُسَهَّر الصَّيداويّ... وكلاهما وقع في أسر زبانية ابن زياد، واستُشهدا [رحمهما الله]. وقد قال الإمام عليه السلام في كتابه الذي بعثه مع ذَينك الشخصين إلى أهل الكوفة:... إنّ كتاب مسلم بن عقيل ورد علَيَّ باجتماعكم لي، وتشوّقكم إلى قُدومي، ... وكتابي إليكم مِن بطن الرمّة، وأنا قادمٌ عليكم[٣]. وصرّح عليه السلام في كتابه هذا بأنّه خرج من مكّة يومَ الثامن من ذي الحجّة، أي يوم التروية[٤]. وأوفى خبرٍ عن هذا الكتاب ورد في كتاب ابن أعثم، وفيه نقاط بالغةٌ رائعة، فقد بدأه الإمام عليه السلام بكلام رسول الله صلى الله عليه وآله المأثور الذي قال فيه: مَن رأى

١ ـ الفتوح ٥: ١٢٣.

٢ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٩؛ الإرشاد ٢: ٧٦.

٣ ـ الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ انظر: أنساب الأشراف ٣: ١٦٦ ـ ١٦٧.

٤ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٤.

سُلطاناً جائراً مُسْتحِلّاً لحرام الله، أو تاركاً لعهد الله، ومخالفاً لسُنّة رسول الله [ﷺ]، فعَمِل في عبادِ الله بالإثم والعدوان، ثمّ لم يُغيّرْ عليه بقولٍ ولا فعل، كان على الله أن يُدخِلَهُ مُدخلَه [أي يدخله النار]. ثمّ قال عليه السلام في بني أُميّة: وَقَد عَلِمتُم أنّ هؤلاءِ لَزِمُوا طاعةَ الشيطان، وتولّوا عن طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله. ثمّ أشار إلى أنّ نفسه [المقدّسة] مع أنفسهم، وأهله وولده مع أهاليهم، وأولادهم، فقال: فَلكُم فيّ أُسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتُم عهدَكُم ومواثيقكُم، وخلعتُم بيعتَكم، فَلَعَمْري ما هي منكم بِنُكْرٍ، لَقَد فعلتُموها بأبي وأخي وابنِ عمّي![1] ويُستشَفُّ من آخر الكتاب أنّه كتبه بعد شهادة مسلم. وأيّاً كان، فإنّ هذين الكتابين متداخلان في المصادر المعنيّة؛ بيد أنّ مضمونهما هو ما تقدّم من المطالب. وحريٌّ بالذكر أنّ النصّ الذي حواه الكتاب بوصفه نصّاً مفصّلاً، هو عند أبي مخنف خطابُ الإمام الحسين عليه السلام في جيش الحرّ ابن يزيد الرياحيّ[2].

وكان خبر شهادة مسلم وهاني من أهمّ الأخبار السلبيّة المُمِضّة عن وضع الكوفة، وقد وافى الإمامَ عليه السلام في منطقة زَرود[3]، أو القُطقطانة[4]، أو شراف[5]، أو زُبالة[6]...

١ ـ **الفتوح** ٥: ١٤٣ ـ ١٤٥؛ **مقتل الحسين** عليه السلام، للخوارزميّ ١: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ (نوع المواضيع التي ذكرها الخوارزميّ مأخوذة من فتوح ابن أعثم. وكذا كثير من مواضيع **الإرشاد** للشيخ المفيد، فإنّها مأخوذة من أبي مخنف، وهي في **تاريخ الطبريّ** مأخوذة عنه أيضاً).

٢ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٠٣.

٣ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٤٦.

٤ ـ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢١٦. القُطقطانة: موضع بعد قصر بني مقاتل، وصل إليه الإمام الحسين عليه السلام يوم التاسع والعشرين من ذي الحجّة. ويبدو مستبعَداً أن يكون خبر استشهاد مسلم قد وافاه هناك.

٥ ـ **العقد الفريد** ٤: ٣٧٩.

٦ ـ **اللهوف**: ٧٣.

وناقلُه رجلٌ من بني أسد، قال: رأيتُهما يُجَرّانِ بأرجلهما في السوق!!

فجلس الإمام عليه السلام مع أصحابه وأهل بيته، فكانت آراء رهطه من أهل بيته التضحية. وكذبت بعض المصادر حيث ادّعت تحدُّث عليّ الأكبر عن الرجوع، وقال: «يا أبه ارجع فإنّهم [أهل الكوفة] أهل (كدر) وغدر وقلّة وفائهم، ولا يفون لك بشيء».[1] فلقد قال أبناء عقيل الذين استُشهد أخوهم: قد قُتِل أخونا وقد جاءك من الكتب ما نَثِقُ به[2]. والإمام عليه السلام نفسه قال: فما خَيرٌ في العيش بعد هؤلاء[3]. ودلّ خبر شهادة مسلم طبعاً، مع أخبار أخرى عن غِلظة ابن زياد وفظاظته، على انقلاب الوضع في الكوفة. لكنّ الكتب، والدعوات، والبيعات ما زالت قائمةً، وكان الشيعة، على أيّ حالٍ، كثيرين في هذه البلدة، ويُرجى أن ينصروا الإمام عليه السلام إذا التقوا به. وقال بعض أصحابه عليه السلام لمّا بلغهم خبر شهادة مسلم وهاني: إنّك والله ما أنتَ مِثل مسلم بن عقيل، ولو قَدِمتَ الكوفةَ لَكان الناسُ إليك أسرع[4]. وذكر بعضُ المؤرّخين أنّ كتاباً وصل إلى الإمام عليه السلام - بعد قليل - من محمّد بن الأشعث وعمر ابن سعد، وفيه خبر قتل مسلم بن عقيل.[5] وبعد هذا الخبر جمع الإمام عليه السلام أصحابه وقال: قد تَرَون ما يأتينا، وما أرى القوم إلّا سيخذلوننا. فمَن أحبّ أن يرجعَ فَلْيرجع، فانصرف عنه الذين صاروا إليه في طريقه، وبقي في أصحابه الذين خرجوا معه من مكّة ونُفَير قليل ممّن صحبه في الطريق، فكانت خيلهم اثنين وثلاثين فرساً.[6]

---

١ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٦٧. هكذا ورد الكلام وربّما الصحيح هو: «وقلّة وفاء». المترجم.

٢ .**العقد الفريد** ٤: ٣٧٩.

٣ .**الأخبار الطوال**: ٢٤٦؛ **أنساب الأشراف** ٣: ١٦٨.

٤ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٩٧؛ **مقتل الحسين** عليه السلام، للخوارزميّ: ٢٢٩؛ **نهاية الإرب**، للنويريّ ٢٠: ٤١٤.

٥ .**الأخبار الطوال**: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

٦ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٦٧ ـ ٦٨.

الكوفة بعد شهادة مسلم

شهدت الكوفة بعد شهادة مسلم وهاني طابعَ العنف والاستبداد التامّ والرقابة الشديدة، حيث شعر ابن زياد بكلّ وجوده بخطر الشيعة فيها، فأمر بإغلاق كافّة الطرق المؤدّية إليها، ووضع الحرس على جميع الجسور، وراقب تجوّل الناس، وتوخّى من عمله هذا قَطْعَ اتّصال الإمام الحسين عليه السلام بشيعة الكوفة، وكذلك مَنْعَ الشيعة من الالتحاق به عليه السلام، والحؤولَ دون فرار المتّهمين، وأمر بمراقبة الطريق الممتدّ بين بوّابة الشام وبوّابة البصرة فلا يترك أحَداً يلج ولا يخرج[1]. ووجّه الحُصَينَ ابن نُمير في أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة، وأمره أن يقيم بالقادسيّة إلى القُطْقطانة، فيمنعَ مَن أراد النفوذ من ناحية الكوفة إلى الحجاز[2]، إذ يمكن أن يلتحقوا بالإمام عليه السلام، وكان جيش الحرّ البالغ ألفاً، الذي اعترض الإمام عليه السلام في الطريق، قسماً من جيش الحُصَين المذكور[3]. وفي هذا الجانب، أُلقيَ القبض على المشتبَه بهم بالكوفة، وأُعدِم عددٌ منهم ليعتبر الآخرون. وسمع الإمام الحسين عليه السلام أعرابَ المناطق التي مَرَّ بها يقولون: «لانستطيع أن نلج ولا نخرج»![4] وجاء في خبرٍ آخر أنّ الرقابة كانت شديدة إلى درجةٍ ليس أحدٌ يَقْدر أن يجوز إلّا فُتِّش[5].

وقبض زبانية ابن زياد على اثنين من أصحاب الإمام عليه السلام، وكان عليه السلام قد أوفدهما إلى الكوفة رسولَين له، واستُشهدا، أوّلهما: عبد الله بن يَقْطُر الذي قَبض عليه مالك

---

١ .أنساب الأشراف ٣: ٣٧٧.

٢ .الأخبار الطوال: ٢٤٣.

٣ .تجارب الأمم ٢: ٥٩.

٤ .تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٢.

٥ .نفسه ٥: ١٤٥.

ابن يربوعٍ التميميّ وسلّمه لابن زياد... وورد في خبرٍ أنّه قبض عليه قبل أن يقبض على هاني ومسلم، وكان يحمل كتاباً من مسلم إلى الإمام عليه السلام، وفيه خبر بيعة أهل الكوفة ودعوتهم الإمامَ عليه السلام...[١] وفي الكوفة أُلقي بعبد الله بن يقطر من فوق القصر إلى الأرض، وكان قد أريد منه أن يلعن الإمامَ وأباه عليهما السلام وينسبهما إلى الكذب، فلمّا علا القصرَ لعنَ ابنَ زياد وأباه وشتمهما، فأُمِرَ به فأُلقيَ مِن فوق القصر إلى الأرض فتكسّرت عظامه، وبقي به رمق، فأتاه عبد الملك بن عُمَير اللَّخميّ فذبحه[٢].

والشخص الآخر هو: قيس بن مُسهَّر الصَّيداويّ الذي قَبضَ عليه الحُصين بن نُمَير، وكان قد قبض عليه طبعاً بعد شهادة مسلم، ولمّا شعر بالخطر مزّق الكتاب الذي كان معه عن آخره بأسنانه، فسأله ابن زياد: من أنتَ؟ قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ... فأمره ابن زياد أن يصعد المنبر ويلعن الحسين عليه السلام، فصعد المنبر وقال: الحسين بن عليّ خيرُ خَلْق الله، وأنا رسولُه إليكم، وقد فارقتُه في الحاجز، فأجيبوه وانصروه. ثمّ لعن عُبيدَ الله بن زياد وأباه، فأُصعد على أعلى القصر ثمّ رُميَ به على رأسه، فاستُشهد [رضوان الله عليه][٣].

إنّ موافاة الأخبار الإمام الحسين عليه السلام بشهادة: مسلم، وهاني، وعبد الله بن يقطر، وقيس بن مسهّر الصيداويّ، جعلت أوضاع الكوفة مظلمةً قاتمةً، فخاطب الإمام عليه السلام أصحابه قائلًا: أيُّها الناس، قد خذلَتْنا شيعتُنا... فمَن أراد منكمُ الانصرافَ فلينصرف. فتفرّق الناس... حتّى بقيَ في أصحابه الذين جاؤوا معه من الحجاز[٤]. والذين تفرّقوا هم من الأعراب الذين لحقوا به في الطريق ظنّاً منهم

١ ـ الفتوح ٥: ٧٦ ـ ٧٧.
٢ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٣٤٣؛ أنساب الأشراف ٣: ١٦٩.
٣ ـ الفتوح ٥: ١٤٥ ـ ١٤٧؛ أنساب الأشراف ٣: ١٦٧؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٥.
٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٦٨.

بظفره عليه السلام[١]، وكان الحسين لا يمرّ بماءٍ مِن مياه العرب، ولا بحيٍّ من أحيائها، إلّا تَبِعه أهله وصحبوه، لكنّهم تفرّقوا عنه عليه السلام عندما بلغهم خبر شهادة الثلّة المذكورة[٢]. وسنرى أنّ خبر شهادة قيس بن مسهّر نُقل إلى الإمام عليه السلام متأخّراً عن هذا الوقت.

ودخل عليه السلام منطقة زَرُود في الحادي والعشرين من ذي الحجّة، وكان قريباً من رَكبه زُهيرُ بن القَين البَجَليّ مع زوجته وبعض أصحابه وهم مُقْبلون من مكّة إلى الكوفة، وكان زهير حتّى هذا الحين مشهوراً بأنّه عثمانيُّ الهوى، ولم تكن له علاقة بآل عليٍّ عليه السلام. فأرسل إليه الإمام، فأَبى أن يلقاه، فوبّخته زوجته، فالتقى بالإمام عليه السلام، فتغيّر فُجأةً، وأرسل زوجتَه إلى منزلها مع أخيها، ولحق بالإمام عليه السلام وقال: إنّي قد وطّنتُ نفسي على الموت مع الحسين عليه السلام[٣]، نقل أبو مخْنف هذا الخبر عن زوجة زهير بن القين نفسه[٤]. وفي ضوء الرواية التي أوردها الشيخ المفيد، فإنّ زُهيراً اتّخذ هذا القرار لِما سمعه سابقاً من سلمان الفارسيّ - في إحدى الغزوات التي حصلوا فيها على غنائم كثيرة - فقد كان سلمان قد قال له: إذا أدركتُم سيّدَ شبابِ آل محمّد، فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم ممّا أصبتُمُ اليوم مِن الغنائم[٥].

أوّل لقاء للإمام الحسين عليه السلام لجيش ابن زياد

وكان أوّل لقاء للإمام الحسين عليه السلام لجيش الحرّ بن يزيد الرياحيّ - وقوامه ألف، وهو قسم من جيش الحُصَين بن نُمير البالغ أربعة آلاف، وكان هذا الجيش قد

١ . تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٩.
٢ . الفصول المهمّة: ١٨٩.
٣ . الأخبار الطوال: ٢٤٦.
٤ . تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٦ . ٣٩٧.
٥ . الإرشاد ٢: ٧٣.

أُشخص إلى القطقطانة لمراقبة المنطقة- في منطقة ذي حُسَم [ذي حُسُم][١] أو وادي السباع، و الإمام عليه السلام يومئذٍ يسير إلى الكوفة، ولمّا وصل جيش الحرّ، سأل الإمامُ عليه السلام الحرَّ وكان يريد وفاء الكوفيّين: «ألنا أم علينا؟ فقال الحرّ: بل عليك يا أبا عبد الله»[٢]. ثمّ تحدّث عليه السلام حول دعوة أهل الكوفة وكتبهم، وأنّه مستعدّ للانصراف إلى المكان الذي أقبل منه إذا انصرف الناس عن دعوتهم.

فقال الحرّ: ما نعرف هذه الكتب، ولستُ من القوم الذين كتبوا إليك، وقد أُمِرتُ بأن آتيَ بك إلى عبيد الله بالكوفة. فلم يستجب الإمام عليه السلام له ولم يرغب في المسير نحو الكوفة، وأراد لمِلَله إلقاء الحجّة عليهم، فأظهر أنّه يريد أن يتوجّه تلقاء الحجاز قاصداً الرجوع إليها[٣].

وعارض الحُرّ رجوعه وقال: «لم أُؤمَر بقتالك... فإذا أبيتَ فخذْ طريقاً لا يُدخلك الكوفة، ولا يردّك إلى المدينة، يكون بيني وبينك نَصَفاً حتّى أكتب إلى الأمير عبيد الله بن زياد». وهكذا كان[٤]، ولم يفكّر الحرّ إلّا بحلٍّ سلميّ يتخلّص فيه من عقوبة ابن زياد، ويخلّص نفسه من الاصطدام بابن فاطمة، ويبقى في عافية. وقال للإمام عليه السلام بعد الوصول إلى الكوفة، فلعلّ الله إلى ذاك أن يأتيَ بأمرٍ يرزقني فيه العافية مِن أن أُبتلى بشيءٍ مِن أمرك[٥]. وهناك قال: «وأنا أعلم أنّه لا يوافي القيامةَ أحدٌ من هذه الأمّة إلّا وهو يرجو شفاعةَ جدّك محمّدٍ صلى الله عليه وآله، وأنا خائف إن أنا قاتلتُك أن أخسر الدنيا والآخرة»![٦] وتدلّ هذه المواقف على استعداد سريرة الحرّ للتحوّل.

---

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠٣.

٢ ـ الفتوح ٥: ١٣٦ ـ ١٣٧.

٣ ـ الأخبار الطوال: ٢٤٧.

٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٦٩ ـ ١٧١، ٢٢٥.

٥ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠٣.

٦ ـ الفتوح ٥: ١٤٠.

وكان الحديث في الرجوع من أهمّ النقاط التي عرضها الإمام عليه السلام بعد ذلك الموقف إلى حين إتاحة فرصته [فرصة الحديث في الرجوع]. ولمّا وصل جيش العدوّ، وسار عليه السلام في الطريق الذي انتهى إلى كربلاء، صلّى عليه السلام الظهر والعصر، وكان يخطب الناسَ في كلّ مرّة إمّا قبل الصلاة أو بعدها. وتواصلت هذه الخطب في كلّ فرصةٍ ممكنة حتّى صُبح عاشوراء. وكان عليه السلام يحتجّ على الناس بكتبهم ودعوتهم إليه؛ ويُضاف إلى ذلك أنّه كان يتحدّث عن ماهيّة الحكومة الأُمويّة، ويرى أنّ الإمامة له دون غيره: ونحنُ أهلَ البيت أَولى بولاية هذا الأمر عليكم مِن هؤلاء المدّعين ما ليسَ لهم، والسائرين فيكم بالجَوْرِ والعُدْوان. ثمّ قال عليه السلام: وإنْ أنتم كَرِهتمُونا، وجَهِلتُم حقَّنا، وكان رأيُكم غيرَما أَتَتْني كتبُكم، وقَدِمتْ به علَيَّ رُسُلُكم، انصرفتُ عنكم.[١] لكنّ جيش العدوّ رفض هذا وعارضه.

ثمّ واصل عليه السلام مسيره نحو القادسيّة ليبتعد عن الكوفة أكثر فأكثر، وسار حتّى بلغ منطقة البِيضَة، فخطب عليه السلام هناك أيضاً، وتحدّث عن لزوم معارضة حكّام الجَوْر الذين أحلّوا حرامَ الله وحرّموا حلاله، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء.[٢] ونُقل عنه عليه السلام كلامٌ في منطقة ذي حُسُم أيضاً، وقد قام خطيباً، فتحدّث في تغيّر الدنيا وتنكُّرها، وإدبار معروفها، فقال: إنّه قد نَزَل مِن الأمر ما قد تَرَون؛ وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر مَعروفُها... ثمّ أشار إلى قِصَرِ عُمرها، وقال: ألا تَرَون أنَّ الحقَّ لا يُعمَل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه؟... إنّي لا أرى الموتَ إلّا شهادة [وفي نقل آخر: إلّا سعادة]، ولا الحياة مع الظالمين إلّا بَرَماً! فقام زهير بن القين مؤيّداً كلامه، فقال: «قد سَمِعنا - هَداك الله يا ابن رسول الله - مقالتك، والله لو كانت الدنيا لَنا باقيةً وكنّا فيها مخلَّدين، إلّا أنّ فراقها في نصرك ومواساتك، لآثرنا الخروجَ معك

١. تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠١-٤٠٢، الكامل، لابن الأثير ٤: ٢١.
٢. تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠٣.

على الإقامة فيها»[١]. ولم يتحدّث الإمام عليه السلام وحدَه أمام العدوّ، بل كان الخُطباءُ من أصحابه، بما أُوتوا من لسانٍ وجاهٍ، يجدّون في تبيان الحقائق للناس، فيتعيّن علينا إذن أن نَعُدَّ سياسةَ التنوير أحد المبادئ الأساسيّة للدعوة الحسينيّة.

وسار الإمام عليه السلام في أصحابه والحُرُّ يُسايره، وكان الحرّ يراقبه لئلّا يدخل الكوفة. وبلغ عليه السلام منطقةَ عُذَيب الهجانات في الثامن والعشرين من ذي الحجّة سنة ٦٠هـ، وإذا هو بأربعة رجالٍ مُقبِلين من الكوفة، وفيهم نافع بن هلال، يريدون اللّحاق به عليه السلام، فأراد الحرّ حبسهم كي لا يُدركوه، فقال عليه السلام: إذاً أمنعُهم ممّا أمنعُ منه نفسي، إنّما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد جعلتَ لي أن لا تعرضَ لي حتّى يأتيَك كتابُ ابن زياد[٢]. وكان قدومُ هؤلاء الأربعة إشارةً إلى أن يلحق بالإمام عليه السلام رجالٌ آخرون غيرهم، لكنّ إغلاق الطُّرق حالَ دون ذلك. وقد أخبره هؤلاء عن وضع الكوفة فقالوا: «أمّا أشراف الناس فقد أُعظِمت رشوَتُهم، ومُلِئت غَرائرهُم... فهُم أَلْبٌ واحدٌ عليك... وأمّا سائر الناس بعد، فإنّ أفئدتهم تهوِي إليك، وسيوفهم غداً مشهورةٌ عليك».

وسألهم الإمام عليه السلام عن رسوله قيس بن مسهّر، وكان عليه السلام يترقّب أخباره، [رضوان الله عليه]، فأخبروه بشهادته، فبكى لخبر شهادته، ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾[٣]، ودعا الله سبحانه أن يجمعَ الشيعة في الجنّة بعضَهم مع بعض[٤]: اللّهمّ اجعَلْ لنا ولشيعتِك مَنزلًا كريماً عندَك، واجمعْ بينَنا وإيّاهم في مُستقرِّ رحمتِك[٥].

---

١ ـ نفسه ٥: ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٧١.

٣ ـ الأحزاب: ٢٣.

٤ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

٥ ـ **الفتوح** ٥: ١٤٧. هكذا ورد في أكثر من مصدر. وربّما يكون: «ولشيعتنا». وهو الأنسب للسياق، إلّا أن يكون عليه السلام قد أراد أنّ الشيعة هم شيعة الله أيضاً، وهو الحقّ. المترجم

وأيأست هذه الأخبارُ مَن كان متأمِّلًا مِن وضع الكوفة أكثر، فلم يَبْقَ منها بصيصٌ من الأمل تقريباً؛ لكن بالنظر إلى كثرة الشيعة فيها، فبارقة الأمل ما زالت ماثلةً. وجاء الطِّرمّاح بن عَدِيّ بن حاتِم الطائيّ من الكوفة، وقال للإمام عليه السلام بأنّه رأى جمعاً كثيراً فيها وهم عازمون على المسير إلى كربلاء لحربه، وقال: أرى أن تقاتل هؤلاء الملازمين لك [جيش الحرّ المكوّن من ألف] هنا قبل أن تُؤْسَر بيد مَن يأتي بعدهم. فأبى الإمام عليه السلام وقال: إنّه قد كانَ بينَنا وبين هؤلاءِ القوم قولٌ لسنا نَقْدر معه على الانصراف، ولا ندري عَلامَ تنصرف بنا وبهم الأمورُ في عاقِبه[1]. ورجع الطرمّاح ليأخذ لأهله المِيرةَ التي كان قد هيّأها لهم، ثمّ يرجع إلى الإمام عليه السلام، بيد أنّه لمّا رجع ليلحق بالإمام عليه السلام، ووصل إلى منطقة عُذَيب الهجانات بلغه خبر شهادته، فرجع إلى قبيلته[2]. وقد تقدّم أنّ مثل هذا التقويم والآراء التي أدلى بها الإمام عليه السلام كانت اعتماداً على الظروف الظاهريّة لا على العلم الباطنيّ.

وقطع الإمام عليه السلام فلوات واسعة قبل أن يلتقي بجيش الحرّ، وأمر فتيانه في منطقة شَراف أن يُكثروا من استقاء الماء، [3] وحين التقى عليه السلام بجيش الحرّ، كان هذا الجيش ظامئاً، وله إلى الماء حاجةٌ فبادرَ الحسين عليه السلام إلى نجدتهم وأَمَرَ أصحابه بإسقائهم من الماء الذي كانوا ذخروه[4]، فصار الماء بعد ذلك من القضايا الأصليّة للجيش تدريجاً. ولمّا كتب عبيد الله إلى الحرّ أوّل كتابٍ له، أمرَه أن يُنزل الإمامَ عليه السلام «بالعراء في غير حصنٍ وعلى غير ماء»[5]، وعندما أرسل عمرَ بن سعد أيضاً،

---

١ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠٦.

٢ .الكامل، لابن الأثير ٣: ٢٨٢.

٣ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠٠.

٤ .الإمامة والسياسة ٢: ٥.

٥ .أنساب الأشراف ٣: ١٧٦؛ الأخبار الطوال: ٢٤٩.

قال له: خُلْ بينَه وبينَ الفراتِ أن يشرب[١].

ولمّا بلغ عليه السلام منطقةَ قصربني مُقاتل، وجد فسطاطاً مضروباً، وفيه رجل من أشراف الكوفة يُدعى عبيد الله بن الحرّ الجُعْفيّ، وكان قد خرج من الكوفة لئلّا يصادف الإمامَ أو أعداءَه، ولا يواجه الفريقَين كليهما، لكنّه صادف الإمامَ عليه السلام. وحين دعاه الإمام إلى أن يكون معه، أخبره بما عزم عليه، فرضي عليه السلام منه ذلك، وقال له: فإلّا تنصرْنا، فاتّقِ الله أن تكون ممّن يُقاتلُنا، فقال: «أمّا هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله»[٢]. وأنشد بعد ذلك شعراً عبّر فيه عن ندمه وحسرته على تركه إجابةَ الإمام عليه السلام حين دعاه إلى نُصرته، ثمّ مضى نحو أرض الجبل مغاضباً لابن زياد، واتّبعه أُناس من صعاليك الكوفة[٣]. ويمكن أن يكون رجال كُثرٌ مثله؛ رجالٌ كانوا مستعدّين فقط لتقديم خيولهم وسيوفهم للإمام الحسين عليه السلام، وهم يزعمون حبَّ أهل البيت عليهم السلام. وقد قال عبيد الله بن الحرّ للإمام عليه السلام:... «لو كان لك بالكوفة أعوانٌ يقاتلون معك لكنتُ أنا أشدَّهم على عدوّك، ولكنّي رأيت شيعتك بالكوفة وقد لزموا منازلهم خوفاً من بني أُميّة، ومن سيوفهم». وكان أيضاً مستعدّاً لتقديم فرسه وسيفه - لا نفسه - للإمام عليه السلام، فقال عليه السلام له: ما جِئْناك لِفَرسِك وسيفك، إنّما أتيناك لِنسألك النُّصْرة، فإنْ كنتَ قد بَخِلتَ علينا بنفسِك فلا حاجةَ لنا في شيءٍ من مالِك، ولم أكنْ بالذي اتّخذُ المُضِلّين عَضُداً، لأنّي قد سَمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: «مَن سَمِعَ واعيةَ أهلِ بيتي ولم ينصرْهم على حقّهم، إلّا أكبّه الله عَلى وجهِه في النار!»[٤] وقيل: إنّه ندم لاحقاً على تركه نُصرةَ الإمام عليه السلام[٥]، ولم يتبيّن لنا مقدار ندمه

---

١ ـ الفتوح ٥: ١٥٣؛ أنساب الأشراف ٣: ١٨٠.

٢ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٠٧.

٣ ـ الأخبار الطوال: ٢٦٢؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

٤ ـ الفتوح ٥: ١٣١ ـ ١٣٣.

٥ ـ نفسه ٥: ١٣٣.

وتوبته. وكان أنس بن الحارث الكاهليّ قد خرج من الكوفة بمثل ما خرج له ابن الحرّ، لكنّه جاء إلى الإمام عليه السلام بعد أن سمع كلامه لعبيد الله بن الحرّ، فقال له: «والله ما أخرجَني من الكوفة إلّا ما أخرج هذا من كراهةِ قتالك أو القتالِ معك، ولكنّ الله قد قذف في قلبي نُصرتك، وشجّعني على المسير معك!! فقال له الحسين عليه السلام: فاخرج معنا راشداً محفوظاً»[١]. وأخذ رَكْبُ الإمام عليه السلام الماء أيضاً في هذا المنزل، وساروا. وجاء كوفيّان آخران عند الإمام عليه السلام أيضاً واستأذناه بالذهاب لكثرة عيالهما ووجود أماناتٍ كثيرة عندهما للناس،[٢] وهذا طريقٌ للفرار أيضاً. وكان الإمام عازماً في تلك اللّحظات التي تقترب فيها الشهادة أن يكون أصحابه خيارَ الناس، لذلك لم يأذن لهم بالانصراف فحسب، بل كلّما كان الخطر يقترب أكثر فأكثر، كان يطلب ممّن يرغب في الانصراف أن ينصرف. ولمّا رأى فراس بن جَعدة بن هُبيرة المخزوميّ الأمرَ وصعوبته هالَه ذلك، فاستأذن الإمامَ عليه السلام في الانصراف، فأذِن له، فانصرف ليلًا.[٣]

الإقامة الجبريّة في كربلاء وتعبئة القوّات في الكوفة

كان الإمام الحسين عليه السلام في قصر بني مقاتل، فخفق خفقةً وهو على فرسه، ثمّ انتبه يسترجع، وقال: إنّي رأيتُ في المَنام آنفاً فارساً يُسايرنا ويقول: القومُ يَسيرون والمنايا تسير إليهم[٤]، فقال له ابنُه عليّ الأكبر: يا أبتِ، مِمّ استرجعتَ؟ فقال:... فعلمتُ أنّها أنفسُنا نُعِيَت إلينا، قال: يا أبتِ، لا أراكَ الله سُوءاً، أَلَسْنا علَى الحقّ؟ قال: بلى والذي إليه مَرجِعُ العباد، قال: يا أبتِ إذاً لا نُبالي، نموتُ مُحقّين، فقال له:

١. أنساب الأشراف ٣: ١٧٥.
٢. ثواب الأعمال: ٢٥٩.
٣. أنساب الأشراف ٣: ١٨٠.
٤. ترجمة الإمام الحسين: ٦٨.

جَزاكَ الله مِن وَلَدٍ خيرَ ما جزى وَلَداً عن والده[١]. وذهب بعض إلى أنّ هذا الكلام يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ السلام على عليّ الأكبر هو إلى جانب السلام على الإمام الحسين عليه السلام. وفي هذا المسير كان الإمام عليه السلام يجهد في الابتعاد عن الكوفة، والسير نحو البادية، لكنّ الحرّ كان يحول دون ذلك حتّى بلغوا كربلاء، وهو الموضع الذي كان يقال له: نَينوى[٢]. وفيها وصل كتاب ابن زياد إلى الحرّ يأمره قائلًا: لاتُنزِلْه إلّا العراء، في غيرِ حِصنٍ وعلى غير ماء![٣] وكلّفه أن يلزمه ولا يفارقه حتّى يأتيه بإنفاذ أمره. وسألهم الإمام عليه السلام أن ينزل نينوى أو الغاضريّة، فرفض الحرّ ذلك[٤]، فنزل عليه السلام آخر الأمر في مكان لا ماء فيه ولا بناء. وأراد زهير بن القين من الإمام عليه السلام أن يبدأ العدوَّ ما دام قليل العدد، فقال عليه السلام: إنّي أكرهُ أن أبدأَهم بقتالٍ حتّى يَبدأُوا[٥].

وكان أصحاب الإمام عليه السلام قليلين، لكنّهم كانوا متفانين غايةَ التفاني. وتفرّق الجُبناء وطلّاب الدنيا، وبقي الأصحاب المقاومون والصامدون في جميع تلك الأيّام التي كانت تصل فيها الأخبار المزعمة. وكان لبعضهم معنويّة صلبة ومقاوِمة، فلم يُبدوا ضعفاً أو خوراً، بل كانوا يُعبّرون عن نصرتهم لإمامهم، في كلّ لحظة، عبر كلماتهم المصرّحة بالتضحية والإيثار. وكثيرٌ منهم طاعنٌ في السنّ، وكان ممّن شَهِد الجملَ وصفّين مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وبعضهم كان في عداد قُرّاء الكوفة، ومن شخصيّاتها المُتديّنة المقدّسة، ومنهم: نافع بن هلال البجليّ، فقد خاطب الإمامَ عليه السلام قائلًا: لا عليك، فقد ابتُليَ جَدّك بالمنافقين، وكذلك ابتُليَ أبوك

١ ـ تاريخ الطبري ٥: ٤٠٧.
٢ ـ الأخبار الطوال: ٢٤٩.
٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٧٦.
٤ ـ تاريخ الطبري ٥: ٤٠٨؛ الفتوح ٥: ١٤١.
٥ ـ الأخبار الطوال: ٢٥٠.

بالمنافقين من القاسطين والمارقين والناكثين؛ وكذلك اليوم أنت مُبتلًى بهم، «فسِرْ بنا راشداً مُشرّقاً إن شئتَ أو مُغرِّباً... وإنّا على نياتنا ونصرتنا، نُوالي مَن والاك، ونُعادي مَن عاداك»[١].

ونزل الإمام عليه السلام كربلاء يوم الخميس الثاني من المحرّم سنة احدى وستّين، وضُرِبت خيمةٌ له ولبنيه، وخيمةٌ إلى جانب خيمته لسائر أهل البيت عليهم السلام[٢]. وهنا خاطب عليه السلام أصحابه قائلًا: الناسُ عبيدُ الدنيا، والدِّين لَعِقٌ على ألسنتِهم، يحوطونه ما درَّتْ مَعايشُهم، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء قلّ الديّانون،[٣] فجعلت أمّ كلثوم تبكي وتقول: «مات جَدّي رسولُ الله صلى الله عليه وآله، ومات أبي عليّ، وماتت أمّي فاطمة، ومات أخي الحسن عليهما السلام، والآن ينعى إليّ الحسينُ نفسَه». وأوصى عليه السلام نساء أهل بيته فقال: «انظُرْنَ إذا أنا قُتلتُ فلا تَشْقُقْنَ علَيَّ جَيباً، ولا تَخْمِشْن وَجْهاً»[٤].

ويُلحَظ في المصادر المعهودة اختلافٌ كبير حول عدد الذين كانوا مع الإمام عليه السلام في كربلاء، وعدد الذين صمدوا معه حتّى الشهادة، ويعود بعض الإحصائيّات إلى الأيام الأولى، فيُحتمَل طبعاً ذهاب بعضهم بعد ذلك. وقد ذكر كتاب الطبقات أنّ عدد الذين جاؤوا معه إلى كربلاء خمسون رجلًا، وأتاهم من جيش الكوفة عشرون رجلًا، وكان معه من أهل بيته تسعة عشر رجلًا.[٥] وذكرت مصادر أخرى أنْ كان معه خمسةٌ وأربعون فارساً ومئةُ راجلٍ[٦]، وهذا مرويٌّ عن الإمام

---

١. **الفتوح** ٥: ١٤٧ ـ ١٤٨.

٢. نفسه ٥: ١٤٨.

٣. **مقتل الحسين** عليه السلام، للخوارزمي: ٢٣٧.

٤. **الفتوح** ٥: ١٤٩ ـ ١٥٠.

٥. **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ١٦.

٦. **تاريخ الطبري** ٥: ٣٨٩.

الباقر عليه السلام.[١] وذكر اليعقوبيّ أنّ عمر بن سعد لمّا قدم كربلاء بأربعة آلاف، كان مع الحسين عليه السلام اثنان وستّون، أو اثنان وسبعون.[٢] ولدينا أيضاً في هذا الشأن إحصائيّاتٌ أخرى ستأتي لاحقاً.

ولمّا بلغ عبيدَ الله بن زياد نزولُ الإمام عليه السلام في كربلاء، كتب إليه قائلًا: «أمّا بعد ياحسين، فقد بلغني نزولُك بكربلاء، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية أن لا أتوسّد الوثير ولا أشبع من الخبز، أو أُلحقك باللّطيف الخبير أو تَرجع إلى حُكمي وحكمِ يزيد بن معاوية. فلمّا ورد الكتاب... رمى به، ثمّ قال: لا أفلَحَ قومٌ آثروا مَرضاةَ أنفسِهم على مَرضاةِ الخالق»![٣] فأغضب موقف الإمام عليه السلام بترك الجواب عبيدَ الله أشدَّ الغضب، فكلّف عمرَ بن سعد بحرب الإمام عليه السلام، وكان عمر متأهّباً للتوجّه تلقاء الريّ وهمدان حاكماً عليهما بعهدٍ من عبيد الله، فرفض عمر في البداية، إلّا أنّه رضي بعد ذلك حين قال له عبيد الله: «فارْدُدْ علينا عهدَنا» بحكومة الريّ وهمدان[٤]، وعلى الرغم من معارضة قبيلته بني زُهرة التي كانت من قريش.[٥] وورد في هذا الخبر نفسه أنّ عبيد الله هدّده بالذهاب، وهو ما يُستَبْعَدُ أن يكون صحيحاً. ولم يرد هذا الشيء في خبر البَلاذُريّ، وإنّما هدّده بأخذ عهده في حكومة الريّ،[٦] وقال له: إن سِرتَ بِجُندِنا، وإلّا فابعثْ إلينا بِعهدِنا. ولمّا رأى أنّ ابن

---

١ ـ نفسه.

٢ ـ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢١٦.

٣ ـ **الفتوح** ٥: ١٥٠ ـ ١٥١.

٤ ـ القصد من هَمَدان هنا مدينة دستَبَي التي كانت بين الريّ وهمدان. وذُكر ثغر دستَبَي في مواضع أُخرى. انظر: **الأخبار الطوال**: ٢٥١؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٠٩.

٥ ـ **ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٦٨.

٦ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

زياد مُصِرٌّ على ذلك، قَبِل منه[1]. وإنّ حلاوة إمارة الريّ خدعت عمر بن سعد، كما قال أبوعليّ مِسْكَوَيه: ثُمّ حلا في قلبه الإمارة، فاستجاب![2] واختِير عمر بن سعد لهذا العمل؛ لأنّه كان أقرب شخصٍ من الأُسَر القرشيّة الموجودة بالكوفة للإمام الحسين عليه السلام، وهو الذي بلّغه مسلمُ بن عقيل، قبل شهادته، بوصيّته لفرط غربته. وبعث إليه الإمام عليه السلام بُرير بن خُضير ليلةَ عاشوراء ليعظه، فقال: «إنّي والله أعلمه يا بُرير علماً يقيناً أنّ كلّ من قاتلهم وغصبهم على حقوقهم في النار لا محالة، ولكنْ وَيْحك يا بُرير! أتشيرُ علَيّ أن أترك ولايةَ الريّ فتصيرَ لغيري؟! فرجع برير إلى الإمام عليه السلام فقال: يا ابنَ بنتِ رسول الله، إنّ عمر بن سعد قد رضيَ أن يقتلك بمُلْك الريّ»![3] ونُسب إليه شعرٌ في ذلك[4].

وبدأ عبيد الله يوفد الجيش إلى كربلاء بعد تعيين عمر بن سعد قائداً له، وذلك لإجبار الإمام عليه السلام على بيعة يزيد، أو قتاله. وتوجّه عمر بن سعد إلى كربلاء على رأس أربعة آلاف، وكان مقرّراً قبل ذلك أن يذهب إلى دستَبَي، أي مكان مهمّته. وإلى هنا بلغ جيش الكوفة في كربلاء خمسة آلاف[5]، ووصل المدد إليها في اليوم الثاني من إقامة الإمام عليه السلام فيها.

المحاججات بين عمر بن سعد والإمام الحسين عليه السلام

على الرغم من أنّ عمر بن سعد كان واقفاً على قُبْح عمله، بيدَ أنّه أراد أن يُنهي مهمّته بالموادعة، ولا يتورّط في الحرب بظنّه، فحين وصل إلى كربلاء بعث إلى

---

١. تاريخ الطبري ٥: ٤١٠.
٢. تجارب الأمم ٢: ٦٤.
٣. الفتوح ٥: ١٧١ ـ ١٧٢.
٤. تاريخ الخلفاء/ الورقة ٨٢ ب.
٥. الفتوح ٥: ١٥٣.

الإمام عليه السلام رجلًا يسأله عمّا أقدمه إلى هذا المكان، فأجابه الإمام عليه السلام: «أبلِغه عنّي أنّ أهلَ هذا المِصْر كتبوا إليّ يَذْكرون أنْ لا إمامَ لهم، ويسألونَني القُدومَ عليهم، فوَثِقتُ بهم، فغَدروا بي، بعد أن بايعَني منهم ثمانية عشر ألفَ رجل، فلمّا دنوتُ، فعلمتُ غرورَ ما كتبوا به إليّ، وأردتُ الانصراف إلى حيثُ منه أقبلت، فمَنَعني الحرُّ بن يزيد، وسار حتّى جَعجَع بي في هذا المكان، ولي بك قرابةٌ قريبة، ورَحِمٌ ماسّة، فأطلِقْني حتّى أنصرف». ولمّا بلغ عُمرَ بن سعد هذا الخبرُ سُرّ وتصوّر أنّ ابن زياد يرضى منه برجوع الإمام عليه السلام، وهو أيضاً يسلم من قتاله عليه السلام، فقد قال: «الحمدُ لله، والله إنّي لأرجُو أن أُعفى من محاربة الحسين»[١]. فقد كان معظم قتلته لايريدون الابتلاء بدمه إلّا أنّ المطامع وحبّ الدنيا دفَعتهم إلى ارتكاب تلك الجريمة العظمى.

إنّ التحاق بعض شيعة الكوفة بالإمام الحسين عليه السلام شيءٌ كان ينتظره الإمام وأصحابه كحبيب بن مظاهر وغيره، ولمّا جاء قرّة بن قيس الحنظليّ إلى الإمام رسولًا لعمر بن سعد، ليسأله عن سبب قدومه، ورجع، قال له حبيب بن مظاهر: «وَيْحك يا قُرّة، أترجع إلى القوم الظالمين؟! فقال: أسير إلى صاحبي بالجواب ثمّ أرى رأيي».[٢] وحينما رآه حبيب قال: «كنتُ أعرفه بحسن الرأي، وقال له: عهدي بك وأنت حَسَنُ الرأي في أهل البيت»[٣]. ثمّ قال: ما كنتُ أراه يشهد هذا المشهد[٤]. ونقل المؤرّخون أنّ ابن زياد سمع بتسلّل الرجل والرجلَين والثلاثة إلى الإمام

١ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٥٤. ذكر المؤلّف أنّ العدد اثنا عشر ألفاً، وفي المصدر المذكور ثمانية عشر ألفاً. المترجم.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٧٧.

٣ ـ **الفتوح** ٥: ١٥٥ ـ ١٥٦.

٤ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤١١.

الحسين عليه السلام من الكوفة، فخرج فعسكر بالنُّخيلة، واستعمل على الكوفة عمرَو بن حُريث، وأخذ الناس بالخروج، وضبط الجسر فلم يترك أحداً يجوزه [للالتحاق بالإمام عليه السلام][1].

ولمّا بعث عمر بن سعد إلى ابن زياد عَرْضَ الإمام بالانصراف، أجابه: «قد فهمتُ كتابك، فاعرض على الحسين البيعة ليزيد، فإذا بايع في جميع مَن معه، فأعلِمْني ذلك ليأتيك رأيي»، فعرف عمر بن سعد أنّ ابن زياد يبغي الغائلة. ولمّا أرسل كتابَ ابن زياد إلى الإمام عليه السلام، لم يُجبه، وحين بلغ ابن زياد ذلك اشتدّ غضبه، وبدأ بتعبئة الجيش[2]. وكان واضحاً أنّ ابن زياد لم يكتفِ ببيعة الإمام وحدها ليزيد، بل يبدو أنّه كان يريد في البداية أن يحمل الإمام عليه السلام على البيعة، وبعد ذلك يُقسره على أعمالٍ أخرى لايمكن التكهّن بها ولا يُعلَم عقباها نوعاً ما. ويُستَشَفّ هذا من كتابه الغامض بأنّه سيرى رأيه بعد البيعة: فإذا فعل ذلك رأَينا رأيَنا![3]

ولمّا كان عبيد الله مُصِرّاً على الحرب، وكان يعلم أنّ الإمام الحسين عليه السلام لن يبايع، جعل إرسال قوّات أكثر إلى كربلاء في جدول أعماله، وصعد المنبر في الكوفة، وأخبر الناس بفضائل معاوية ومناقبه الموضوعة! وذكر أنّه أعاد إليهم اجتماعهم وأُلفتهم، وقال لهم: «وهذا يزيد قد عرفتموه أنّه حسن السيرة، محمود الطريقة، محسن إلى الرعيّة، متعاهد الثغور، يعطي العطاء في حقّه»[4]، «وقد زادكم مئةً مئةً في أُعطيتكم، فلا يبقينّ رجل من العرفاء وشيوخ القبائل والتجّار والسكّان إلّا خرج فعسكر معي، فأيّما رجلٍ وجدناه بعدَ يومنا هذا متخلِّفاً عن العسكر بَرِئتْ

---

١ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٩ .٧٠.
٢ .الأخبار الطوال: ٢٥١ .٢٥٢.
٣ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٢.
٤ .الفتوح ٥: ١٥٧.

منه الذّمّة»![1] وبعث إلى الحُصين بن نُمير، وكان بالقادسيّة في أربعة آلاف، فقدم النُّخيلة في جميع من معه، ثمّ استدعى أشراف الكوفة وأمرهم أن يطوفوا في الناس فيأمروهم بالطاعة، ويخوّفوهم الفتنة والمعصية، ويحثّوهم على اللّحاق بالعسكر. وبدأ بعد ذلك بتعبئة القوّات إلى كربلاء، فسُرّح الحصين في أربعة آلاف، وحجّار ابن أبجر في ألف، وشِبَث بن رِبعيّ [الذي تمارض كي لا يُسرَّح، فعرف ابن زياد ذلك، وأشخصه[2]] في ألف، ووجّه يزيدَ بن الحرث في ألف أو أقلّ. وعزماً منه على ألّا يتخلّف أحد بالكوفة، أمر ابنُ زياد القعقاعَ بن سويد بالتطواف بها في خيلٍ [فوجد رجلًا من قبيلة هَمْدان قد قدم يطلب ميراثاً له بالكوفة، فأُتي به ابنَ زياد، فأمر بضرب عنقه، فَلَم يبقَ بالكوفةِ مُحتلِمٌ إلّا خرج إلى العسكر بالنُّخيلة[3]]. ثمّ جعل ابن زياد يُرسل العشرين، والثلاثين، والخمسين إلى المئة يمدّ بهم عمرَ بن سعد بكربلاء، ووضع المناظرَ [المراقبين] على الكوفة لئلّا يفرّ أحد من الكوفة، ويجوز أحدٌ من العسكر مخافةَ لأن يَلحقَ بالحسين مُغيثاً له، ووضع بين عمر بن سعد والكوفة رسلًا يُوافونه بالأخبار، كي تصل إليه أخبار كربلاء في كلّ لحظة.[4] وكان عدد المسرَّحين إلى كربلاء عند ابن أعثم أقلّ[5]، وذُكِر أنّ جيش الكوفة كان خمسةً وثلاثين ألفاً،[6] وربّما فرّ كثير منهم من منتصَف الطريق. وكان أُمراء الجيش غالباً من أشراف الكوفة ومشايخ القبائل المختلفة الذين عقد بنو أُميّة الأمل على تطميعهم منذ اليوم الأوّل، واستغلّوهم لتعبئة القبائل من أجل الدفاع عنهم. ودفع

---

١ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٧٨.

٢ .نفسه.

٣ .نفسه ٣: ١٧٩؛ **الأخبار الطوال**: ٢٥٢.

٤ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٢٥.

٥ .**الفتوح** ٥: ١٠٩.

٦ .**مناقب آل أبي طالب** ٤: ٩٨.

ابن زياد مبالغَ طائلةً لأهل الرئاسة، أي الأشراف المذكورين: ووضع لأهل الرئاسة العطاءَ وأعطاهم، ونادى فيهم أن يتهيّأوا للخروج إلى عمربن سعد ليكونوا عوناً له في قتل الحسين![1] وكان لهؤلاء الأشراف دور مهمّ في حرف الحركات الثوريّة طوال هذه البرهة، وشهد جيش الكوفة كربلاءَ بنحوٍ تامّ في السادس من المحرّم[2].

الشيعة في الكوفة إبّان هذه البرهة

ماذا فعل شيعة الكوفة؟ هذا سؤال لم ينل نصيبه من البحث الجادّ لحدّ الآن، ولقد دلّت الأيّام الخمسة الممتدّة من وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء حتّى وصول جيش الكوفة الجرّار - الذي تراوح عدده بين اثنين وعشرين ألفاً وثمانية وعشرين ألفاً - إليها على أنّ الشيعة كانوا لا رأي لهم (أو قرار) ولا تنظيم لازم لاتّخاذ القرار المركزيّ، وهذه مشكلتهم أيضاً حين كان مسلم بن عقيل بينهم بالكوفة. وكان الخوف من سيف عبيد الله الذي كان يقتل المشتبَهَ بهم بلا هوادة قد أقعدهم في بيوتهم، فلم يفكّروا إلّا في أن يأمنوا على أنفسهم من تهديد الحكومة أوّلًا، ولا يُرغَموا على الانضواء إلى جيش الكوفة لحرب الإمام عليه السلام بكربلاء ثانياً. واشترك في جيش الكوفة خُوفاً وضَعفاً عدد كبيرمن الذين كانوا يستطيعون أن ينضمّوا إلى جيش الإمام عليه السلام في الظروف الاعتياديّة، وجدّ هؤلاء في أن يبتعدوا عن الجيش المذكور بُغية الفرار، فخرجوا معه من الكوفة، لكنّهم كانوا يأبقون منه ويفرّون طولَ المسير: وكان الرجل يُبعَث في ألفٍ، فلا يَصِلُ إلّا في ثلاثمائةٍ وأربعمائةٍ وأقلَّ من ذلك كراهةً منهم لهذا الوجه[3]. وكان هرثمة بن سليم من شيعة عليّ بن أبي طالب،

---

١ .**الفتوح** ٥: ١٥٧ .١٥٨.

٢ .نفسه ٥: ١٥٩.

٣ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٧٨ .١٧٩.

قدم كربلاء، ثمّ أبِقَ منها، قال: «غزونا مع عليّ بن أبي طالب غزوة صفّين، فلمّا نزلنا بكربلاء صلّى بنا صلاة، فلمّا سلّم رفع إليه من تربتها فشمّها، ثمّ قال: واهاً لكِ أيّتُها التُّربة، لَيُحشَرَنَّ منكِ قومٌ يَدخلون الجنّةَ بغير حساب! قال:... فأقبلتُ على فرسي حتّى وقفتُ على الحسين فسلّمتُ عليه، وحدّثته بالذي سمعتُ من أبيه في هذا المنزل، فقال الحسين: معنا أنت أم علينا؟ فقلتُ: يا ابن رسول الله ، لا معك ولا عليك... فقال الحسين: فولِّ هَرَباً حتّى لا تَرى لنا مقتلًا! فوَالذي نفسُ محمّدٍ بيده لا يَرى مقتلَنا اليومَ رجلٌ ولا يُغيثنا إلّا أدخَلَه اللهُ النارَ! قال: فأقبلتُ في الأرض هارباً»!![1]

وتواصل التحاق بعض الشيعة بالإمام الحسين عليه السلام واحداً واحداً في الأيّام الأخيرة، ومن هؤلاء: عبد الله بن عُمَير الكلبيّ الذي جاهد الكفّارَ في جبهات الحرب، فلمّا رأى القوم بالنخيلة يُعرَضون ليُسرَّحوا إلى الحسين، قال: «والله لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريصاً، وإنّي لأرجو ألّا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيّهم أيسرَ ثواباً عند الله مِن ثوابه إيّايَ في جهاد المشركين. فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سمع، وأعلمها بما يريد، فقالت: أصبتَ أصابك الله بك أرشَدَ أُمورك، افعلْ وأخرِجْني معك؛ قال: فخرج بها ليلًا حتّى أتى حسيناً، فأقامَ معه».[2] وكان حبيب بن مظاهر من شيعة الكوفة البارزين، وقد لحق بالإمام عليه السلام في هذه الأيّام، وسعى إلى أن يدعوَ عدداً من بني أسد، الذين كانوا ينزلون قريباً من ساحة القتال، ليلتحقوا بالإمام عليه السلام؛ فأقنعهم بذلك، لكنّ جيش ابن زياد وصل فحال دون لحاقهم[3]. والمثال الآخر مسلم بن عَوْسَجة، فقد كان من الشيعة المقيمين بالكوفة،

---

١ .وقعة صفّين: ١٤٠.

٢ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٩.

٣ .أنساب الأشراف ٣: ١٨٠.

وانضمّ إلى الإمام عليه السلام. ويدلّ هذا على أنّ شيعة الكوفة لو كانوا عزموا على النصرة لاستطاعوا أن يلتحقوا بالإمام الحسين عليه السلام، بل إنّ بعضهم جاء مع جيش الكوفة إلى كربلاء، والتحق بالإمام فيها. وهَمّ عمّار بن أبي سلامة الدالانيّ أن يفتك بعبيد الله بن زياد في عسكره بالنُّخيلة، فلم يمكنه ذلك، فلَطُف حتّى لَحِق بالإمام عليه السلام... وفي الطريق واجه جيش زحر بن قيس الذي كان متوجّهاً إلى كربلاء، فقاتل ببطولةٍ، وسار إلى كربلاء، ولحق بالإمام عليه السلام وهو يقاتل جيش زحر.[1]

بداية التشدّد في كربلاء منذ السابع من المحرّم

قُرِّر أن يُحال بين جيش الإمام عليه السلام وبين ماء الفرات منذ السابع من المحرّم، عملًا بأمر عبيد الله، أي لا يحقّ لهم الاستمتاع بالماء، وكان كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد هو: حُلْ بينَ حسينٍ وأصحابِه وبينَ الماء، فلا يذوقوا منه قطرة، كما صُنِع بالتّقيّ الزكيّ المظلوم![2] وجاء في خبر البلاذريّ أنّ هذا العمل كان قبل قتل الإمام عليه السلام بثلاثة أيّام. وجاء في خبر الصدوق: وحُلْ بين الماءِ وبينَه، كما حِيل بين عثمان وبين الماء يومَ الدار.[3] [أقول:] إنّ تدارك عمل الذين حاصروا عثمان منعوه الماء بهذا العمل، أمر في منتهى النذالة والخسّة؛ لأنّ الرجل الوحيد الذي سعى في إقناع الناس بإيصال الماء إلى عثمان ذلك اليوم هو الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، والذي حمل إليه الماء هو الإمام الحسين عليه السلام وإن حِيل بينه وبين ذلك. ومهما كان، فقد جاء في خبر ابن أعثم أنّ عمر بن سعد بدأ يتشدّد في الحصار، فوجّه عمرَو ابن الحجّاج - الذي كان ممّن كاتب الإمامَ الحسينَ عليه السلام - في خمسمئةٍ ليستقرّوا

---

١ .نفسه؛ وانظر: **مقتل الحسين** عليه السلام، للمقرّم: ٢٤٠.

٢ .نفسه؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤١٢؛ **الإرشاد** ٢: ٨٦.

٣ .**أمالي الصدوق**: ١٥٥.

في شريعة الفرات.[1] ولم يكن الماء في قبضة الإمام عليه السلام وأصحابه يومَ الثامن من المحرّم، فكانوا يشربون من الماء الذي كان عندهم من قبل. وجاء في خبرٍ رواه الخوارزميّ في مقتل الحسين عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام حَفَر حُفرةً خلف الخيمة فظهر شيءٌ من الماء فيها، لكنّه نَفِد بعد قليل[2]. وورد في خبرٍ آخر أنّ ابن زياد كتب إلى عمر ابن سعد: «أمّا بعد، فقد بلغني أنّ الحسين يشرب الماء هو وأولاده وقد حفروا الآبار ونصبوا الأعلام؛ فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فامنعهم من حفر الآبار ما استطعتَ، وضيّق عليهم ولا تَدَعْهم يشربوا من ماء الفرات قطرةً واحدةً»![3] ويدلّ هذا الكتاب على حفر الإمام عليه السلام بئراً، لكنّه نفد فيما بعد على ما يظهر.

ولمّا اشتدّ العطش بأصحاب الإمام عليه السلام يومَ التاسع من المحرّم، بعث الإمام عليه السلام خمسين من أصحابه مع عشرين قِربةً بقيادة أخيه العبّاس عليه السلام ونافع بن هلال ليُزيحوا جُند ابن الحجّاج عن المشرعة ويأتوا بمقدارٍ من الماء، وحين وصلوا إلى الشريعة، وقف عمرو بن الحجّاج، فتقدّم نافع؛ فسأله عمرو: ما جاء بك؟ قال: جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حَلّاتمونا عنه، قال: اشربْ هنيئاً، فقال نافع: أفَأَشربُ والحسينُ عطشان؟! فاقتحموا الماء، فثار إليهم عمرو واشتبكوا، فدفعوهم، ثمّ انصرفوا إلى رحالهم وقد مَلأوا قِربَهم[4].

وجرت مفاوضات بين الإمام الحسين عليه السلام وعمر بن سعد في هذه الأيام، وكان الإمام عليه السلام يؤكّد في كلامه الرجوعَ، ويلقي عليهم الحجّة المرّة تلو الأُخرى فيعرض عليهم عروضاً لاتبقي لهم عُذراً يعتذرون به. وذكرت المصادر مطالب متباينة حول

١ ـ الفتوح ٥: ١٦٢ ـ ١٦٣.

٢ ـ مقتل الحسين عليه السلام ١: ٢٤٤.

٣ ـ الفتوح ٥: ١٦٢.

٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٨١.

المكان الذي اقترحه عليه السلام للرجوع. وتُجمع المصادر القديمة تقريباً على خبرٍ أو - بكلمة أفضل - إرجافٍ زُعم فيه أنّ الإمام عليه السلام قال: «يا هؤلاء دعونا فلنرجع من حيث جئنا... فدعوني أمضي إلى الريّ فأجاهد الديلم... فدعوني أذهب إلى يزيد بن معاوية فأضع يدي في يده»[١]. ومع هذا كلّه، ذكر البلاذريّ هذا الخبر أيضاً، وهو: يقال: إنّه لم يسأله إلّا أن يُشخَص إلى المدينة فقط[٢]. كما قال عقبة بن سمعان: «صحبتُ حسيناً فخرجتُ معه من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق، ولم أفارقه حتّى قُتِل. وليس من مخاطبته الناس كلمة... إلّا وقد سمعتُها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغرٍ من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: دعوني فَلأذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمرُ الناس»[٣]. وفي تاريخ الطبريّ كتاب من عمر بن سعد جاء فيه ثلاثة عروض على لسان الإمام عليه السلام، وقَبِلَها ابن زياد بادئ الأمر، ثمّ رفضها بإصرار الشمر[٤]. ويُتوجَّس أنّ عمر بن سعد - الذي كان لايريد الحرب في أيّ حال - هو الذي اقترح العروض المذكورة في تحليل العرض الأصليّ للإمام عليه السلام، فورد الخبر في المصادر بالنحو المتقدّم. ومن الثابت المقطوع به أنّ الإمام عليه السلام لا يُحتمل منه أن يطرح مثل هذا العرض، نظراً إلى الوضع الذي عَرَضَ له ولركبه، وكانت لقاءات بينه وبين عمر بن سعد أيضاً، وهي إمّا ثلاثة أو أربعة على ما نقل المؤرّخون[٥]. وربّما كتب ابن زياد إلى ابن سعد حين بلغه خبرها، فقال له: ما بعثتُك

---

١ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٩؛ الإمامة والسياسة ٢: ٦؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٢٥؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٨٩.

٢ .أنساب الأشراف ٣: ١٨٢.

٣ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٣ .٤١٤.

٤ .نفسه ٥: ٤١٤.

٥ .نفسه.

لتنادم حسيناً![1] وجرى حوار ليليّ بينهما وسط العسكرين بلا ثالث لهما، ولم يعلم أحدٌ بما دار فيه، وإن رجمت المصادر التاريخيّة بتخرّصات وتخمينات[2]، وهذه التخرّصات والتخمينات تفتري على الإمام عليه السلام أنّه عرض على عمر بن سعد أن يدعا الجيشين ويذهبا عند يزيد! فأخبره ابن سعد أنّ ابن زياد يهدمُ داره ويأخذ أملاكه. وأورد ابن أعثم خبراً أكثر تفصيلًا، وفيه أنّ ابن سعد رفض في آخر الأمر طَلَبَ الإمام بترك القتال، وأنّ الإمام دعا عليه[3].

وعرض عمر بن سعد على ابن زياد طلب الإمام عليه السلام نزلةً أخرى، وربّما افترى فأضاف من عنده عروضاً أخرى، منها: أنّ الحسين عليه السلام مستعدّ للذهاب إلى يزيد وبيعته، أو للذهاب إلى أحد الثغور. ونقلت المصادر متن كتابه، وأنّه كتب بعد طرح العروض: هذا لكُم رضًى وللأُمّة صلاح.[4] وكان ابن زياد قد همَّ بالقبول، لكنّ الشمر ثناه عن رأيه قائلًا له: «إنّك والله إن فعلتَ وفاتَك الرجل، لاتستقيلُها أبداً»![5] فوافقه على كلامه وبعثه إلى ابن سعد ليقول للحسين عليه السلام: ليس لك إلّا أن تنزل على حُكْم ابن زياد! فقال الإمام عليه السلام: أَنزلُ على حُكْم ابنِ الزانية؟! لا والله لا أفعل، الموتُ دونَ ذلك وأحلى[6]. فقال ابن زياد للشمر: «...إنْ أبى [ابن سعد] أن يقاتلهم [الإمامَ عليه السلام وأصحابه] فأنت أمير الناس». ونصّ كتاب ابن زياد لابن سعد هو: «أمّا بعد، فإنّي لم أبعثك إلى حسينٍ لتُطاوله وتُمنّيه السلامة، وتكونَ له عندي شافعاً، فانظرْ، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم فابعث بهم إليَّ سلماً، وإن أبَوا

١ ـ مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزميّ ١: ٢٤٦.
٢ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٣.
٣ ـ الفتوح ٥: ٤٦٠.
٤ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٤.
٥ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٩.
٦ ـ الإمامة والسياسة ٢: ٦.

فازحفْ إليهم حتّى تقتلهم وتُمثّل بهم، فإنّهم لذلك مستحقّون! وإن قتلتَ حسيناً فأوطِئِ الخيلَ صدرَه وظهره لنَذْرٍ نذرتُه، وقولٍ قلتُه! وإن أنتَ أبيتَ فاعتزل عملَنا وجندنا، وخلِّ بين شمرِبن ذي الجوشن وبين العسكروأمرِالناس»[١]. وتُجمع المصادر، في أيّ حال، على دور الشمرفي إقناع ابن زياد بالتراجع عن رأيه... وكان تساهُلُ ابن سعد في حرب الإمام عليه السلام قد أقلق ابن زياد، فكان يكتب إليه مراراً بأن يبدأ الحرب، ويستعجلها.

إنّ كُتُب ابن زياد المتكرّرة لابن سعد، وقدوم الشمرإلى كربلاء واستعداده لقيادة الجيش، كلُّ أولئك حمل ابن سعد على أن يبدأ الحرب، ودخل الشمركربلاء عصر يوم الخميس التاسعَ من المحرّم (وعند بعض الجمعة التاسع من المحرّم)، وأبلغ ابنَ سعد آخرَكتابٍ لابن زياد،[٢] ووبّخ ابنُ سعد الشمرَلصرفه ابنَ زياد عن رأيه، وقال: لايستسلمُ والله الحسينُ، وستكون الحرب! لا، وأنا أتولّى ذلك، وكن أنتَ على الرجّالة.[٣] وأرسل ابنُ سعد كتاب ابن زياد إلى الإمام عليه السلام ليستسلم محض الاستسلام، لكنّ الإمام عليه السلام أجابه بالقول: والله لا أضَعُ يَدي في يدِ ابنِ مَرجانةَ أبداً.[٤]

وكان الشمرمن قبيلة بني كلاب، وصديقَ عبد الله بن أبي المحلّ، ابن أخي أمّ البنين (بنت حِزام بن ربيعة الكلابيّة) زوجة أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام وأمّ العبّاس وأشقّائه، فعندما سارا إلى كربلاء، أخذا كتاب الأمان للعبّاس وإخوته: عبد الله، وجعفر، وعثمان [رضوان الله عليهم]. وأخذ هذا الكتابَ إلى كربلاء مولىً لابن أبي

---

١. **أنساب الأشراف** ٢: ١٨٢ ـ ١٨٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤١٤ ـ ٤١٥؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهرآشوب ٤: ٩٧ ـ ٩٨.

٢. **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٠.

٣. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤١٦؛ **الإرشاد** ٢: ٨٩.

٤. **تذكرة الخواصّ**: ١٤١ ـ ١٤٢.

المحلّ، يقال له: كُزمان؛ لكنّ الفتية [الإخوة الأربعة] قالوا له: لاحاجةَ لنا في أمانِكم، أمانُ الله خيرٌ مِن أمان ابنِ سُميّة![١] وجاء في خبرٍ آخر أنّ الشمر نفسه أخذ كتاب الأمان إلى كربلاء، فقال له الإخوةُ الأربعة: لعنَكَ الله ولعَنَ أمانَك، أتُؤمِنُنا وابنُ بنتِ رسول الله لا أمانَ له؟![٢]

وكان ابن زياد يُشخص الرجال إلى كربلاء ليحفزوا عمر بن سعد على بدء الحرب، ولمّا رأى ابنُ سعد عزمَ ابن زيادٍ عبر ضغطه وتهديده، أمر بالهجوم عصر تاسوعاء. وكان الإمام الحسين عليه السلام متّكئاً على سيفه أمام خيمته، فسمع ضجيج القوم، فأمر أخاه العبّاس أن يأتيه بخبرهم، فجاءه يُخبره أنّ ابن سعد يقول: إمّا أن تنزل على حكم ابن زياد أو نُناجزك، فقال عليه السلام: «انصرفوا عنّا العشيّة حتّى ننظر ليلتَنا هذه فيما عرَضْتم»[٣]. فنادى ابنُ سعد في عسكر الكوفة: يا خيلَ الله اركبي، وذلك بعد صلاة العصر. والتقى العبّاس [عليه السلام] بالعدوّ مع عشرين من عسكر الإمام وفيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر [رضوان الله عليهما]، فقال رجلٌ لزهير: كنتَ عندَنا عُثمانيّاً، فما لك؟! فأجابه: والله ما كتبتُ إلى الحسين ولا أرسلتُ إليه رسولًا، ولكنّ الطريق جمَعَني وإيّاه، فلمّا رأيتُه ذكرتُ به رسولَ الله صلى الله عليه وآله، وعَرَفْتُ ما تقدّم إليه مِن غدْرِكم ونَكْثِكم، وميلِكُم إلى الدُّنيا، فرأيتُ أن أنصره وأكون في حزبه؛ حفظاً لِما ضَيّعتُم مِن حقّ رسول الله [صلى الله عليه وآله].[٤] وكلّم حبيبُ بن مظاهر أهلَ الكوفة في هذا الموقف قائلًا: «والله لَبئسَ القومُ عند الله غداً قومٌ قتلوا ذُرّيّةَ نبيّهم وعترتَه، وعُبّادَ أهلِ المِصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيراً»! وكان الإمام الحسين عليه السلام

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٥.

٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٨٤. [وفي تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٦: وابنُ رسول الله لا أمانَ له؟!] المترجم.

٣ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٠.

٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٨٤ ـ ١٨٥.

يبغي من إرجاء الحرب عن تلك اللّيلة فرصةً للعبادة: لَعلَّنا نُصلّي لربِّنا اللّيلَة ونـدعُوه ونستغفره، فهو يَعلمُ أنّي قد كنتُ أُحبُّ الصلاةَ له، وتلاوةَ كتابِه، وكثرةَ الدعاء والاستغفار.[1] وفي خبر ابن أعثم هنا زيادة تناسب الأخبار التي نقلها قبلَ ذلك، وهي أنّ الإمام عليه السلام حين كان مُتّكئاً على سيفه أمامَ خيمته، ملكتْه عينُه، ولمّا أفاق، قال لزينب عليها السلام التي أيقظته، وأخبرته بضجيج العدوّ: يا أُختاه، رأيتُ جَدّي في المنام وأبي عليّاً وفاطمة أُمّي وأخي الحسن عليهم السلام، فقالوا: يا حسين، إنّك رائحٌ إلينا عن قريب.[2] وجاء في خبرٍ ذكره الكلينيّ أنّ ابن زياد كان في يوم تاسوعاء نفسه واثقاً تماماً من عدم وصول أيّ مددٍ إلى الإمام الحسين عليه السلام من العراق،[3] وكان تاسوعاء في يوم الخميس[4]، ولا شكّ ولا ريب في أنّ يوم عاشوراء كان يومَ الجمعة، كما نصّ عليه كثيرٌ من المصادر[5].

عسكرُ الإمام عليه السلام ليلة عاشوراء

جمع الإمام الحسين عليه السلام أصحابَه وأهلَ بيته في ليلة عاشوراء، فحَمِد الله وأثنى عليه، وذكر النبيَّ صلى الله عليه وآله وما أكرمه الله به من النبوّة وما أنعم به على أُمّته، وقال: إنّي لا أحسَبُ القومَ إلّا مُقاتلوكُم غداً، وقد أَذِنتُ لكم جميعاً، فأنتُم في حِلٍّ مِنّي، وهذا اللّيل قد غَشِيَكُم، فمَن كانت له منكُم قوّةٌ فَلْيَضُمَّ رجُلًا مِن أهل بيتي إليه وتفرّقوا في سَوادِكُم... فإنّ القومَ إنّما يَطلبونَني، فإذا رأَوني لُهُوا عن طلبِكم. فقال أهل بيته: لا أبقانا الله بعدَك، لا والله لا نُفارقُك حتّى يُصيبَنا ما أصابَك، وقال ذلك أصحابه

---

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٦ ـ ٤١٧.

٢ ـ الفتوح ٥: ١٧٥ ـ ١٧٦؛ الإرشاد ٢: ٩٠.

٣ ـ الفروع من الكافي ٤: ١٤٧.

٤ ـ إعلام الورى: ٢٣٧؛ المنتظم ٥: ٣٣٧؛ الكامل ٣: ٢٨٤.

٥ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٠.

جميعاً، فقال: أَثابَكمُ الله على ما تَنْوُونَ الجنّةَ.[١] وتركهم أحراراً في بيعتِهم له، فأحلّ لهم بيعته قائلًا: أنتُم مِن بيعتي في حِلّ، وليس عليكم مِنّي ذِمام.[٢] وتكلّم مسلم بن عوسجة وسعيد بن عبد الله الحنفيّ وسائر الأصحاب. فقال مسلم: «أَنَخلِّيك ولم نعذر إلى الله فيك وفي أداء حقّك؟! لا والله حتّى أكسر رمحي في صدورِهم، وأضربَهم بسيفي ما ثبت قائمُه في يدي، ولو لم يكن سلاحي معي لَقذفتُهم بالحجارة دونَك»!![٣] وقال سعيد: «...والله لو علمتُ أنّي أُقتَلُ ثمّ أُحيى، ثمّ أُحرَقُ حيّاً، ثمّ أُذَرّ... يُفعَل ذلك بي سبعين مرّةً ما فارقتُكَ حتّى ألقى حِمامي دونَك...»[٤]. وقال زهير بن القَين: «والله لَوددتُ أنّي قُتِلت، ثمّ نُشرتُ ثمّ قُتلت... حتّى أُقتَل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفعُ بذلك القتلَ عن نفسِك وعن أنفسِ هؤلاء الفِتية من أهل بيتِك»![٥] وتكلّم من أهل البيت العبّاس[٦]، ثمّ الباقون منهم[٧]. وكان هذا المجلس قريباً من اللّيل، وبعد رجوع عسكر الكوفة[٨]، وهنا قال الإمام الحسين عليه السلام: «اللّهمّ إنّي لا أعرف أهل بيت أبرّ ولا أزكى ولا أطهر من أهل بيتي، ولا أصحاباً هم خير من أصحابي»[٩].

ودارت أمور أُخرى في تلك اللّيلة أيضاً، وأمر عليه السلام مَنْ عليه دَينٌ من أصحابه ألّا يقاتل معه،[١٠] وجاءه الضحّاك بن عبد الله المشرقيّ ومالك بن النضر [الأرحبيّ]

---

١. نفسه: ٧٠ ـ ٧١.

٢. تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٨.

٣. أنساب الأشراف ٣: ١٨٥؛ تاريخ الخلفاء/ الورقة ١٨٣.

٤. تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٩. وورد هذا في زيارة الناحية المقدّسة أيضاً.

٥. نفسه ٥: ٤١٩ ـ ٤٢٠.

٦. مقاتل الطالبيين: ٧٤ ـ ٧٥.

٧. تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٩؛ إعلام الورى: ٢٣٧.

٨. تاريخ الطبريّ ٥: ٤١٨.

٩. أمالي الصدوق: ١٥٦.

١٠. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧١.

فقال مالك بن النضر: علينا دَينٌ ولنا عيال، فقال لهما: أنتما في حِلّ، فانصرفا[١]. وقيل لمحمّد بن بشير الحضرميّ: «قد أُسِر ابنُك بثغر الريّ، قال: عند الله أحتسبه ونفسي... فسمع قولَه الحسين عليه السلام فقال له: رَحِمَك الله، أنت في حِلٍّ من بيعتي، فاعملْ في فَكاك ابنك، قال: أكلَتْني السِّباعُ حيّاً إن فارقتُك، قال: فأعطِ ابنَك هذه الأثواب يستعين بها في فَكاك أخيه. فأعطاه خمسة أثواب قيمتُها ألف دينار»[٢].

ويدلّ خبر عن الصدوق على أنّ عليّ الأكبر ذهب إلى شطّ الفرات ليلةَ عاشوراء ومعه عدد من الأصحاب، فأتوا بالماء، فقال الإمام عليه السلام لأصحابه: قُومُوا فاشربوا من الماء يكنْ آخرَ زادِكم، وتوضّأُوا واغسلوا ثيابَكم لتكونَ أكفانَكُم![٣] والظاهر أنّ هذا الخبر لم يرد في مصادر أُخرى.

وكانت زينب عليها السلام تمرّض الإمامَ السجّاد عليه السلام تلك اللّيلة، فسمعت الإمامَ الحسين عليه السلام ينشد شعراً[٤] يُشير فيه إلى مقتله، فقلقت ولطمت وجهها، وخرّت مغشيّاً عليها. فقام إليها الإمام الحسين عليه السلام فنضح على وجهها الماء، فاستفاقت، ثمّ قال لها: يا أُخَيّة، لايُذْهبنّ بحِلْمِكِ الشيطانُ[٥]. ثمّ قال: «فإنّ لي ولكلّ مسلمٍ أُسوةً برسول الله صلى الله عليه وآله»، ثمّ أوصاها أن لاتَشُقَّ عليه جيباً، ولا تخمِشَ وجهاً، ولا تدعوَ بالويل

---

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤١٩. [في هذا المصدر المتكلّم واحد وهو مالك بن النضر لكنّ المؤلّف ذكر أنّه اثنان.] المترجم

٢ ـ انظر: **ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٧١؛ **مقاتل الطالبيّين**: ٧٨.

٣ ـ **أمالي الصدوق**: ١٥٦.

٤ ـ قال عليه السلام:

يا دهرُ أُفٍّ لكَ مِن خَليلِ ... كم لك بالإشراقِ والأصيلِ
مِن طالبٍ بحقّهِ قَتيلِ ... والدهرُ لايقنعُ بالبديلِ
وإنّما الأمرُ إلى الجليلِ ... وكُلّ حيٍّ سالكُ سبيلِ

٥ ـ **أنساب الأشراف**: ١٨٥ ـ ١٨٦؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٤٤.

والثبور... قال الإمام السجّاد عليه السلام وهو يروي هذا الخبر: «ثمّ جاء بها حتّى أجلسَها عندي... وخرجَ إلى أصحابه»[١].

وقرّب الأصحابُ بعضَ خيامهم من بعض ليلةَ عاشوراء كما أمرَهم سيّدُهم أبوعبد الله الحسين عليه السلام، وقرنوا حبالها حتّى دخل بعضها في بعض ليكون المسير صعباً بينها. وأمر بإطناب البيوت (الخيام)، فقُرِنَت حتّى دخل بعضُها في بعض، وجعلوها وراءَ ظهورهم لتكون الحربُ مِن وجهٍ واحد[٢]، وقد فعلوا ذلك ليشتبكوا بالعدوّ من جانب واحد. ورُتّبت الخيام بشكل حافر، لتكون من ورائهم وعن أيمانهم وشمائلهم، وقد حُفَّت بهم البيوت [الخيام] إلّا الوجه الذي يأتيهم عدوُّهم منه. ولمّا جنّ اللّيل على الحسين وأصحابه، قاموا اللّيلَ كلّه يُصلّون، ويُسبّحون ويستغفرون، ويَدْعون ويتضرّعون[٣].

وشُبِّه دعاء الأصحاب واستغفارهم في بعض الأخبار بصوت النَّحْل، وقد ملأ الفضاء وكان لَهُم دَويٌّ كدَويِّ النَّحْل، ما بين راكعٍ وساجد، وقائمٍ وقاعد[٤]. وجعلوا أطراف الخيام كالخنادق، [وفي الطبريّ:] فحفروه في ساعةٍ من اللّيل، فجعلوه كالخندق[٥]. وألقوا فيه الشوك والحطب، وأجّجوا فيه النار، لِيَحُولوا دون وصول العدوّ إلى الخيام.[٦]

وأقبل الشمر (أو عَزرة بن قيس) في نصف اللّيل ومعه جماعة من أصحابه، حتّى تقارب من عسكر الحسين عليه السلام، وذلك للتجسّس وجمع المعلومات، وقد رفع

١ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢١٦ ـ ٢١٧؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٠ ـ ٤٢١؛ الإرشاد ٢: ٩٣ ـ ٩٤.
٢ ـ مناقب آل أبي طالب ٤: ٩٩؛ تجارب الأمم ٢: ٦٩.
٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٨٦؛ وانظر: تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢١.
٤ ـ اللهوف: ٩٤.
٥ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٢.
٦ ـ الفتوح ٥: ١٧٤ ـ ١٧٥.

الإمام عليه السلام صوته وهو يتلو هذه الآية: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**﴾[١]، فصاح رجلٌ من الأعداء: نحن الطيّبون، وأنتم الخبيثون! فأجابه برير بن خُضَير: أنتم الخبيثون! فصاح به الشمر: إنّ الله قاتلُك وصاحبَك عن قريب، فقال برير: أبِالموتِ تُخوّفُني؟! والله إنّ الموت أحبُّ إلينا مِنَ الحياةِ معَكم[٢].

غَداة يوم عاشوراء ومخاطبة الإمام عليه السلام عسكرَ الأعداء

ذكر بعض المؤرّخين أنّ عشرين إلى ثلاثين من عسكر الكوفة لَحِق بالإمام الحسين عليه السلام ليلةَ عاشوراء أو غداتَها (أو من اللّيل إلى الغداة)، جاء هذا الخبر في الإمامة والسياسة[٣]، وذكر بعض المصادر الأُخرى أنّهم كانوا ثلاثين[٤].

كان بُرَير بن خُضَير يُهازل عبدَ الرحمان بن عبد ربّه (أو حبيبَ بن مظاهر)؛ فقال له عبد الرحمان: «دَعْنا، فوالله ما هذه بساعةِ باطل»، فقال له برير: «والله لقد عَلِم قومي أنّي ما أحببتُ الباطلَ شابّاً ولا كَهْلًا، ولكنْ والله إنّي لَمُستبشرٌ بما نحن لاقُون، والله إنْ بينَنا وبين الحُور العين إلّا أن يَميل هؤلاءِ علينا بأسيافِهم، ولَوَدِدتُ أنّهم قد مالوا علينا بأسيافهم»[٥].

ونظّم عمر بن سعد عسكره غداة يوم عاشوراء - يوم الجمعة - بعد صلاة الصبح! وكانت تركيبةُ العسكر قَبَليّة؛ أي لكلّ قبيلة آمر، فعلى رُبع مَذْحِج وأَسَد: عبد الرحمان بن أبي سَبْرة الجُعفيّ؛ وعلى رُبع ربيعة وكندة: قيس بن الأشعث بن

١ .آل عمران: ١٧٨.

٢ .**الفتوح** ٥: ١٧٩ ـ ١٨٠؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢١ ـ ٤٢٢.

٣ .**الإمامة والسياسة** ٢: ١٢.

٤ .**العقد الفريد** ٤: ٣٧٩؛ **تاريخ ابن عساكر**، ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب: ٢٢٠.

٥ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٢؛ **رجال الكشّي** ١: ٢٩٣٥.

قيس؛ وعلى رُبع تميم وهَمَدان: الحُرّبن يزيد الرياحيّ، الذي عدل إلى الإمام الحسين عليه السلام فيما بعد واستُشهد معه؛ وعلى العامّة من ساكني الكوفة: عبد الله بن زهير الأَزْديّ. وجعل عُمرُ على ميمنته عَمْرَو بن الحجّاج، وعلى ميسرته شمرَبن ذي الجوشن، وعلى الخيل عزرةَ بن قيس، وعلى الرجّالة شَبَثَ بن رِبْعيّ.[١] والقوم اثنان وعشرون ألفاً، لايزيدون ولا ينقصون[٢]، وذهب بعض إلى أنّهم ثمانية وعشرونَ ألفاً...[٣] وقد تقدّم أنّ العدد بلغ أيضاً خمسةً وثلاثين ألفاً.

وعبّأ الإمام الحسين عليه السلام أصحابه غداةَ يومَ عاشوراء، وقد اختلف المؤرّخون القُدامى في عددهم، فذكر البلاذريّ أنْ كان معه اثنانِ وثلاثون فارساً وأربعون راجلًا... فجعل زهيرَبن القين في ميمنة أصحابه، وحبيبَ بن مظهر (أو مُظاهر) في ميسرتهم، وأعطى رايتَه أخاه العبّاس، وجعل البيوت - أي الخيام - في ظهورهم[٤]. وقال في موضع آخر: «وإنّهم لمئةُ رجلٍ أو قريبٌ من مئة، فيهم مِن صُلب عليّ خمسة، وستّةَ عشرَ من الهاشميّين، وفيهم رجلٌ من سُلَيم حليفاً لهم، ورجل من كَنانة حليفاً لهم»[٥]، وذكر الدينوريّ هذه الإحصائيّات أيضاً[٦]. وكان عليه السلام أمر قبل بدء القتال أن يُؤتى بقَصبٍ وحطب إلى مكانٍ من ورائهم منخفض كانوا حفروه فصار كالخندق، فأُجِّجت فيه النار لئلّا يأتي العدوّ من ورائهم، فيدخلَ حرم الإمام عليه السلام[٧].

وكان الشمر جلفاً صلفاً لا حياءَ له، فقال للإمام عليه السلام: «يا حسين، تعجّلتَ بالنار!

---

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٢؛ انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ١٨٧؛ **الأخبار الطوال**: ٢٥٣.

٢ ـ **الفتوح** ٥: ١٨٣.

٣ ـ **إثبات الوصيّة**: ١٢٦.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٨٧.

٥ ـ نفسه ٣: ٢٢٦.

٦ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٥٤؛ وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٢.

٧ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٨٧؛ **الأخبار الطوال**: ٢٥٣؛ **الفتوح** ٥: ١٧٤.

فقال عليه السلام:...أنتَ واللهِ أَولى بِها صِلِيّاً». ورام مسلم بن عوسجة [رضوان الله عليه] أن يرميَه بسهم، فاستأذن الإمامَ عليه السلام فمنعه قائلًا: إنّي أكرهُ أَن أبدأَهُم[1].

ونادى منادٍ من عسكر عمر بن سعد غداةَ العاشر من المحرّم: يا جُنْدَ الله اركبوا![2] وفي بداية القتال رفع الإمام عليه السلام رأسه إلى السماء وتأهّب للحرب داعياً: اللّهمّ أنت ثقتي في كلِّ كَرْب، ورجائي في كلِّ شِدّة، وأنت لي في كلِّ أمرٍ نزَلَ بِي ثقةٌ وعُدّة، وأنتَ وليُّ كلِّ نعمة، وصاحب كلِّ حسنة[3]، وعبارات نورانيّة أخرى مثلها[4]. وركب عليه السلام جوادَه، ووضع القرآنَ أمامَه، ثمّ بدأت الحرب[5]... وقبل أن تبدأ الحرب، أوصى عليه السلام أصحابه بعد صلاة الصبح بالتقوى والصبر والجهاد[6]. ولمّا تواجه العسكران، أمر عليه السلام بُريرَ بن خُضير الهَمْدانيّ أن يكلّم العدوّ ويحتجّ عليهم، فتقدّم برير حتّى وقف قريباً من القوم، فقال: «ياهؤلاء! اتّقُوا الله ؛ فإنّ نسل محمّدٍ صلى الله عليه وآله قد أصبح بين أظهُركم، وهؤلاءِ ذرّيّتُه وعترته وبناته وحريمه، فهاتُوا ما الذي عندكم وما تُريدون أن تصنعوا بهم، فقالوا: نريد أن نُمكّن منهم الأميرَ عبيدَ الله بن زياد فيرى رأيه فيهم. قال برير بن خضير: ولا تَقبلون منهم إن رجعوا إلى المكان الذي أقبلوا منه؟ يا أهل الكوفة، أنَسِيتم كتبَكُم إليه وعهودَكم التي أعطيتموها من أنفسكم؟!... وحُلْتم بينَهم وبين الماء الجاري! وهو مبذول يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس، وتَرِدُه الكلاب والخنازير، فبئس ما خلّفتم محمّداً صلى الله عليه وآله في ذُرّيّته، ما لكم؟! لا

---

١ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٣ ـ ٤٢٤؛ الإرشاد، للشيخ المفيد ٢: ٩٦.

٢ .الفتوح ٥: ١٧٥.

٣ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧١، وانظر الدعاء بكامله، فهو من عيون الأدعية، ولا يدرك غوره وأسراره إلّا الأوحديّ.

٤ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٣.

٥ .الكامل، لابن الأثير ٣: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

٦ .إثبات الوصيّة: ١٢٦؛ كامل الزيارات: ٧٣.

سقاكمُ الله يومَ القيامة!»،[١] فلم يكن جوابهم إلّا الاستهزاء والضحك[٢].

ثمّ خطب الإمام الحسين عليه السلام في أهل الكوفة إبلاغاً للحجج والبيّنات، فقال: لاتعجلوا حتّى أُخبرَكم خبري، والله ما أتيتُكم حتّى أَتَتْني كتبَ أماثلِكم بأنّ السُنّة قد أُميتت، والنفاق قد نجم، والحدود قد عُطِلت، فَاقْدِم لعلّ الله تبارك وتعالى يُصلحُ بك أُمّةَ محمّدٍ صلى الله عليه وآله، فأتيتُكم، فإذْ كَرِهتم ذلك فأنا راجعٌ عنكم، وارجعوا إلى أنفسكم فانظروا هل يصلح لكم قتلي، أو يحلّ لكم دمي؟! ألستُ ابنَ بنتِ نبيّكم، وابنَ ابنِ عمّه، وابنَ أوّلِ المؤمنين إيماناً؟! أوَليس حمزةُ والعبّاسُ وجعفرعمومتي؟! أو لم يَبلُغكم قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله فيّ وفي أخي: هذانِ سيّدا شبابِ أهلِ الجنّة؟! فإن صدّقتموني، و إلّا فاسألوا جابرَبن عبد الله، وأبا سعيد الخُدْريّ، وأنَس بن مالك، وزيد بن أرقم، فقال شمربن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف؛ إن كان يدري ما تقول![٣] فقال حبيب بن مظاهر للشمر: إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفاً! وهنا خاطب الإمامُ عليه السلام بعض الذين كانوا قد كاتبوه، وكانوا في عسكر الكوفة حتّى كانت لهم قيادةُ بعض الكتائب، فقال لهم: «ألم تكتبوا إليّ»؟! قالوا: لم نفعل، فقال قيس ابن الأشعث بن قيس: أوَ لا تنزل على حُكْم ابن زياد؟ فأجابه عليه السلام: «والله لا أُعطي بِيدي إعطاءَ الذليل، ولا أَفرُّ فِرارَ العبيد.[٤] وجعل عليه السلام يكلّم القوم بعد القوم، والرجل بعد الرجل، فيقولون: ما ندري ما تقول![٥] وقد ورد النصّ الكامل لهذا الكلام في مقتل أبي مِخْنَف ومصادر أخرى غيره،[٦] وكان عليه السلام يروم تعريف نفسه لمن لم يعرفه؛

١ ـ الفتوح ٥: ١٨١ ـ ١٨٢.

٢ ـ مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٠.

٣ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٢.

٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٨٨، ٢٢٦.

٥ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٤٤.

٦ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٤ ـ ٤٢٦؛ أمالي الصدوق: ١٥٨ ـ ١٥٩؛ الإرشاد ٢: ٩٨ ـ ١٠٠.

ليحملهم على مراجعة سلوكهم القبيح المَشين (راجِعُوا أنفسَكُم)، وفي الحقيقة كان يُلقي الحُججَ عليهم.[1] وكان حرمه الذين يسمعون كلامه عليه السلام يبكون جميعاً، فأرسل إليهم أخاه العبّاس عليه السلام لإسكاتهم. وكان هذا أطول خطبةٍ له عليه السلام في أهل الكوفة، فقد كشف فيها جميع الجوانب المرتبطة بنهضته وتعريف نفسه [المقدّسة]، والمواقف الخائنة لأهل الكوفة، إلّا أنّه تحدّث أيضاً بعد ذلك معهم، فورد كلامه المذكور في تُحَف العقول على شكل كتاب [رسالة]، وفي بعض المصادر الأخرى على شكل خطابة في غداة عاشوراء - حين كان العدوّ قد حاصرهم تماماً - فقال عليه السلام كلمتَه المعروفة: ألا وإنّ الدَّعيَّ ابنَ الدَّعيِّ قد ركَزَ بينَ اثنتين: بينَ السِلّة والذِلّة، وهَيهاتَ مِنّا الذلّة؛[2] بعد توبيخه لأهل الكوفة وبيانِ غدرهم. ونقل ابن عساكر خطبةً قصيرة أُخرى له عليه السلام حذّرَ فيها الناسَ من حُبّ الدنيا، وذكّرهم بأنّ أحداً لو بقي في الدنيا لكان الأنبياء أَولى بذلك، ولكنّ الله سبحانه خلق الدنيا للابتلاء، وأهلَها للفَناء، وخيرُ الزاد التقوى[3].

وكانت قلوب القوم محجوبةً عن أنوار نصائحه سلام الله عليه؛ إذ لا أذن صاغية لكلامه بين عسكر الكوفة، أمّا الذين كان عندهم مهاد التشيّع، ويمكن أن يقبلوا كلامه عليه السلام، فقد فرّوا في الحقيقة ولم يحضروا ساحة القتال أصلًا، ولم يتأثّر بكلامه ويعدل إلى الحقّ إلّا رجالٌ أحرار أنابوا، مثل الحرّ بن يزيد الرياحيّ، أو بعضُ آخر قيل: إنّهم لَحِقوا به غداةَ عاشوراء. ولمّا أتمّ عليه السلام كلامه ورجع، رماه رجلٌ من بني تميم

---

١. كشف الغمّة ٢: ٥٥ ـ ٥٦.

٢. تحف العقول: ٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ أمالي أبي طالب الزيدي: ٩٥ ـ ٩٧؛ مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزمي ٢: ٦ ـ ٨؛ تاريخ دمشق، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٢١٦ ـ ٢١٨.

٣. تاريخ دمشق، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٢١٥.

يُقال له: عمر، بسهمٍ أصاب كتفيه متعلّقاً في جُبّته[١]. وحين رأى عليه السلام أنّ العدوّ لم يلتفت إلى كلامه، تأهّب للقتال، وكان بيّناً أنّ هذه الحرب غير المتكافئة ستنتهي إلى غلبة العدوّ ظاهراً... مع هذا، أرجأ شنَّ الحرب شيئان- أو بتعبيرٍ آخر، عسّرا الشروع بها- أحدهما: أنّ أهل الكوفة، إن لم يلتفتوا حتّى تلك الآونة، أدركوا أهمّيّة القتال بعد خطاب الإمام، فصعب عليهم البدء به. والآخر: أنّ محاربة مئةِ رجلٍ لم تكن عسيرةً على جيشٍ يربو عدده على عشرين ألفاً، فيستعجلون فيه؛ لذلك عندما تقدّم زهير بن القين بعد الإمام عليه السلام ليخطب فيهم، كانت ما تزال هناك أرضيّة لسماع كلامه، وإن جدّ الشمر في منعه من مواصلة كلامه بأيّ شكل من الأشكال.

قال زهير بن القين في خطابه لأهل الكوفة: «عبادَ الله ، إنّ وُلْدَ فاطمة أحقّ بالنصر والودّ من ابن سميّة، فإن لم تنصروهم فلا تقتلوهم، وخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فلَعَمْري إنّ يزيد لَيرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين!! فرماه شمر بسهم وقال: اسكُتْ، أسكتَ الله نَأمَتَكَ [أماتك. والنأمة: الصوت]، فقال له زهير: ابشِرْ بالخزي يوم القيامة، فقال له شمر: إنّ الله قاتلُك وقاتلُ أصحابِك عن ساعة»[٢].

ونقل أبو مخنف خطابَ زهير بتفصيلٍ أكثر، منه قولُه رضوان الله عليه لأهل الكوفة: ونحنُ حتّى الآنَ إخوةٌ وعلى دينٍ واحد وملّةٍ واحدة، ما لم يقَعْ بينَنا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحةِ مِنّا أهْل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أُمّةً وأنتم أُمّة، إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم (أي امتحنَنا) بذُرّيّة نبيّه محمّدٍ صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا نَدْعُوكم إلى نَصرهم وخُذلان الطاغيةِ عبيدِ الله بن زياد. ثمّ ذكر موقف الأمويّين الفظّ الغليظ من أهل الكوفة، ومنه: قتلُ حُجْرِ بنِ عَدِيّ وهاني بن عروة؛ وقطعُ أيدي الشيعة وأرجلهم وصلبهم. وكان القسمُ الأول من خطابه تحليلًا

---

١ .تاريخ الطبري ٥: ٣٩٢.

٢ .أنساب الأشراف ٣: ١٨٨ .١٨٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤ .٢٤٥.

سامقاً بلغ فيه مبلغاً، فالشيعة استقلّوا عن كيان الفريق العثمانيّ بعد واقعة كربلاء، وكوّنوا فريقاً متميّزاً في دائرة اختلاف المذاهب. وعندما هدّد شمر زهيراً بالموت، قال زهير: «أفبالموت تُخوِّفُني؟! فوَالله لَلموتُ معه أحبُّ إليّ من الخُلْد معكم»! «ثمّ أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عبادَ الله، لايغرّنّكم مِن دِينكم هذا الجلفُ الجافي وأشباهُه، فوَالله لاتُنال شفاعة محمّد ﷺ قوماً هراقوا دماء ذرّيّته وأهلِ بيته، وقتلوا مَن نصرهم وذبّ عن حريمهم»، «فناداه رجل قائلاً له: إنّ أبا عبد الله يقول لك: أقْبِل، فلَعَمْري لئن كان مؤمنُ آل فرعون نصحَ لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ لو نفع النُّصح والإبلاغ»![1] ثمّ دعا الإمامُ عليه السلام عمر بن سعد، وكان كارهاً، ثمّ جاءه، فقال له الإمام عليه السلام: أتُقاتلني على مُلكِ الريّ؟! اعلم أنّك لاتهنأ بعدي بدُنياً ولا آخرة، وسترى يوماً يَسوؤك[2].

بداية القتال وإنابة الحرّ

لمّا تقابل العسكران، أيقن الكثيرون أنّ القتال سينشب بينهما، وكانت لُمّةٌ من أهل الكوفة تعتقد أنّهما سيتصالحان، لكنّها تشهد الآن تأهّباً لقتالٍ سيدور بينهما بعد دقائق. والقدرة التي كانت لعسكر عبيد الله تُنبئ عن مقتل الإمام الحسين عليه السلام ومَن معه، وهنا مُني الحرّ بن يزيد الرياحيّ، الذي كان في نظم ذلك العسكر، بامتحانٍ روحيّ بين الإنابة إلى الإمام الحسين عليه السلام من جهة، وبين بقائه آلةً بيد الدولة الأمويّة وأشخاصٍ أجلاف جُفاة مثل ابن زياد وشمر، من جهةٍ أُخرى. وكان قد اجترح سيّئةً كبيرةً، إذ جعجع بالإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في هذا المكان، ولم يكن يتوقّع أنّ قتالاً سينشب، فلمّا رأى أنّ القتال أصبح وشيكاً ندم على عمله،

---

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

٢. مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزمي ٢: ٨؛ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٢.

فجاء إلى عمر بن سعد بعد سماعه خطابَ الإمام عليه السلام وقال له: «أمُقاتِلٌ أنت هذا الرجل[١]»؟ «قال: إي والله ... فقال له الحرّ: أفما لكُم في واحدةٍ من الخصال الّتي عرَضَ عليكم رضى؟ قال عمر: لو كان الأمرُ إليَّ لفعلتُ، فقال الحرّ: سبحان الله! ما أعظمَ هذا! أن يعرض ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله عليكم ما يعرض فتأبَونه! ثمّ مال إلى الحسين عليه السلام»[٢].

وكان قال الحرّ لابن سعد أيضاً: «لو سَألَتْكُم هذا التركُ والديلمُ - وكانوا كفّاراً يومئذٍ - ما حلّ لكم أن تمتنعوا منه»؟![٣] ولمّا دنا الحرّ من الإمام عليه السلام، قال: أنا الذي حبستُك عن الرجوع، وسايَرْتك في الطريق، وجعجعتُ بك في هذا المكان، جعلني الله فداك يا ابنَ رسول الله، أفتَرى لي مِن توبة؟ وقد أَتيتُك مُواسياً بنفسي، أفتَرى ذلك لي توبةً ممّا كان منّي؟ فقال عليه السلام: نعم، إنّها لك توبة، فأبشِرْ، فأنت حرٌّ في الدنيا وأنت حرٌّ في الآخرة إن شاء الله.[٤] وانطلق الحرّ إليه عليه السلام بنحوٍ ظنّ فيه أهل الكوفة أنّه سيقاتل، فلمّا دنا منه عليه السلام قلب تُرسَه وسلّم عليه متواضعاً...[٥] وكان الحرّ يتصوّر - كما أخبر الإمامَ بذلكَ - أنّه يطيع القوم إطاعة ظاهريّة في بعض أمرهم، بحيث يرون أنّه غير خارج من طاعتهم، وأنّه كان يظن أنّهم سيقبلون خصلةً من الخصال التي عرضها الإمام عليه السلام عليهم، فقال: «والله لو ظننتُ أنّهم لايقبلونها منك ما ركبتُها منك»[٦]. وذكر ابن أعثم أنّ الحرّ جاء إلى الإمام عليه السلام بعد أن سمع استغاثته، إذ نادى عليه السلام: أما مِن مُغيثٍ يُغيثنا لوجه الله؟ أما مِن ذابٍّ يذبُّ عن حرمِ رسولِ

---

١. تاريخ الطبريّ ٥: ٤٢٧.
٢. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٢.
٣. أنساب الأشراف ٣: ٢٢٥.
٤. الأخبار الطوال: ٢٥٤.
٥. تاريخ الطبريّ ٥: ٣٩٢.
٦. نفسه ٥: ٤٢٧-٤٢٨.

الله؟[١] وبعد أن عدلَ الحرّ إلى الإمام عليه السلام، عنّف أهلَ الكوفة في خطابٍ وَجّهه إليهم، قال فيه: «لأمِّكُم الهَبَل والعبر، دعوتُموه، حتّى إذا أتاكم أسلمتموه، فصار في أيديكم كالأسير!!! قد حلّأتُموه ونساءَه وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودُ والنصارى والمجوس، ويتمرّغ فيه خنازير السواد، لَبِئسما خَلَفتُم به محمّداً في ذرّيّته، فدَعُوا هذا الرجل يمضي في بلاد الله (أينما كان)، أما أنتم مؤمنون؟ وبنبوّة محمّد مصدِّقون؟ وبالمعاد مُوقنون؟ فحملَتْ عليه رجّالةٌ لهم فرمته بالنبل، فأقبل حتّى وقف أمام الحسين»[٢]. وتحدّث بعض المصادر حول ابنٍ للحرّ أنّه قاتل الأعداءَ وقَتل منهم سبعين.

ويُضاف إلى الحرّ أنّ رَجُلَين من الخوارج، وهما: سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف، لمّا سمعا واعيةَ أولاد الحسين عليه السلام مالا بأسيافهما على عسكر ابن زياد، وقتلا ثلاثةً منهم، ثمّ قُتِلا[٣]. وذُكِر رَجُلٌ أيضاً يُدعى: أبا الشعثاء كان في عسكر عمر ابن سعد بكربلاء، ثمّ عدل إلى الإمام الحسين عليه السلام[٤].

وبدأ عمر بن سعد الحرب بسهمٍ رَماه صائحاً: اشهدوا لي عند عبيد الله أنّي أوّلُ مَن رمى![٥] وقال لأهل الكوفة: ما تنتظرون؟! ما هُم إلّا لقمةٌ واحدةٌ لكم[٦]. فلمّا رمى

---

١ ـ **الفتوح** ٥: ١٨٤ ـ ١٨٥.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٨٩؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

٣ ـ **عبرات المصطفين** ٢: ٨٥، نقلاً عن «رسالة تسمية من قُتِل من أصحاب الحسين عليه السلام»، مجلّة **تراثنا**، العدد الثاني: ١٥٤ ـ ١٥٥. وذكر المقرّم في مقتله أنّهما أنصاريّان، في حين ذهبت الرسالة المذكورة إلى أنّهما من المُحكِّمة (اسمٌ من أسماء الخوارج). وما الجمع بينهما بمتعذّر، وإن كان مستبعَداً ميلُ شخصٍ من الأنصار إلى الخوارج.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٨.

٥ ـ نفسه ٣: ١٩٠؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٩؛ **الفتوح** ٥: ١٨٣.

٦ ـ **أمالي أبي طالب الزيديّ**: ٩٧؛ **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ٨.

عمر، إرتمى الناس[1]. قال ابن أعثم: وأقبلتِ السِّهام كأنّها المطر وهي موجَّهةٌ إلى أصحاب الإمام عليه السلام، فقال عليه السلام لأصحابه: هذه رُسُلُ القوم إليكم، فقوموا إلى الموت الذي لا بدّ منه. فحمل بعضهم على بعضٍ فاقتتلوا ساعةً من النهار حملةً واحدة، حتّى قُتِل من أصحاب الإمام عليه السلام نيّفٌ وخمسون رجلًا! فعندها قبض عليه السلام بيده على لحيته [الشريفة الكريمة] وقال:... واشتدَّ غَضَبُ الله على قومٍ اجتمعَتْ آراؤُهم على قتلِ ابن بنتِ نبيِّهم، والله ما أجبتُهم إلى شيءٍ ممّا يُريدونه أبداً حتّى ألقى الله وأنا مُخضَّبٌ بدمي[2]. قال البلاذريّ: «وركب الحسين دابّة ووضع المصحف في حِجره بين يديه، فما زادهم ذلك إلّا إقداماً عليه. فبعث عمرُبن سعد الحصينَ بن نُمَير التميميّ مع خمسمئة، فرشقوا الإمام عليه السلام وأصحابه بالنبل حتّى عقروا [عامّةَ] خيولهم فصاروا رجّالةً كلُّهم»![3]

واستُشهِد في هذه الحملة أو جُرِح كثير من الأصحاب بالسهام التي أصابت أبدانهم، فما بقيَ واحدٌ من أصحاب الحسين إلّا أصابه مِن رميهم سهم[4]. وعدّ ابنُ شهرآشوب أسماءَ الذين استُشهِدوا في الحملة الأُولى، وهم ثمانيةٌ وعشرون من الأصحاب، وعشرةٌ من موالي الإمام الحسين عليه السلام ومَوْلَيان من موالي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فهؤلاء أربعونَ[5]. وهم الذين لم تتيسّر لهم فرصةُ المنازلة، إذِ استُشهِدوا في الرمي الأوّل. ورأينا أنّ ابن أعثم ذكر أنّ عددهم يربو على الخمسين[6].

ولم يبقَ مع الإمام عليه السلام بعد شهادة هؤلاء الخمسين إلّا عددٌ قليل من أنصاره،

---

١ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٠.

٢ ـ الفتوح ٥: ١٨٤.

٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٤؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

٤ ـ أمالي أبي طالب الزيديّ: ٩٧؛ مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزميّ ٢: ٨.

٥ ـ مناقب آل أبي طالب ٤: ١١٣.

٦ ـ الفتوح ٥: ١٨٤.

وهؤلاءِ هم الذين قاتلوا عسكر ابن زياد منازلَةً، وفيهم عبد الله بن عُمير الكلبيّ الذي استأذن الإمامَ عليه السلام للبراز بعد أن طلب يسارٌ مولى زياد ابن أبيه البراز، وكانت امرأة الكلبيّ في تلك الحال تُشجّعه قائلةً: قاتِلْ بأبي أنتَ وأمّي عن الحسين ذُرّيّة محمّدٍ صلى الله عليه وآله[1]. وفي الحقيقة، أنّ حبيب بن مظاهر وبُرير بن خُضير كانا يريدان القتال أوّلًا، فلم يأذن لهما الإمام الحسين عليه السلام، فلمّا استأذنه عبد الله بن عُمَير أذِن عليه السلام له، ولمّا قَتل عبدُ الله يساراً، خرج سالم مولى عبيد الله بن زياد، فقتله عبدُ الله بن عمير أيضاً على الرغم من أنّ أصابع كفّه اليسرى قد أطارها سالم بسيفه، وبعد أن قتله ارتجز بشعرٍ في الميدان، وأخذت امرأته عموداً ثمّ أقبلت نحو زوجها تقول له: فداكَ أبي وأمّي، قاتِلْ دونَ الطيّبين ذرّيّة محمّدٍ صلى الله عليه وآله، فأمرها الإمام عليه السلام أن ترجع، ودعا لهم.[2] وكان يسارٌ وسالم أوّل الهلكى من عسكر ابن زياد. وخبر عبد الله بن عمير بالنحو المتقدّم خبرٌ موثّق، وقد ذكر ابن أعثم وهبَ بن عبد الله بن عُمَير الكلبيّ الذي كان مع أمّه وامرأته في كربلاء، والشكل الذي نقل فيه ابن أعثم الخبر أروع حماسةً، وحظّه من الفضل أكبر. توجّه وهب إلى ساحة القتال فقاتل، ثمّ عاد فقال لأمّه: أرَضِيتِ أم لا؟ فقالت: لا، ما رَضِيتُ حتّى تُقتَل بين يدَي مَولاكَ الحسين، فحمل، ولم يزل يقاتل حتّى قُطِعت يمينُه، ثمّ قاتل حتّى قُطعت شماله، ثمّ قُتل.[3] وهذا الرجل طبعاً لا يمكن أن يكون إلّا عبد الله بن عُمَير الكلبيّ الوارد خبرُه في المصادر الموثّقة. ذكر الصدوق في أماليه وهب بن وهب الذي كان هو وأمّه

١ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٠.

٢ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٩ ـ ٤٣٠؛ ذكر ابن سعد أن قاتل سالم مولى عبيد الله هو عبد الله بن تميم... انظر: **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٢.

٣ ـ **الفتوح** ٥: ١٨٥ ـ ١٨٦.

نصرانيّين، وأسلما على يد الإمام الحسينعليه السلام، وشهدا معه كربلاء[1]. وهذا أيضاً هو نفس ذلك الشخص، والخبر المذكور بهذا النمط لايمكن أن يُركَن إليه كثيراً. وأورد الخوارزميّ جمعاً لهذين الخبرين[2]. ومن الجدير ذِكرُه أنّ عبد الله بن عمير بقيَ حيّاً بعد قتله يساراً وسالماً، ثمّ استُشهِد في حملةٍ أخرى، وسنذكر خبره.

وخرج بعده أبو الشعثاء يزيدُ بن زياد الكِنْديّ، وكان مع عسكر عمر بن سعد في كربلاء، ثمّ عدل إلى الإمامعليه السلام، فحين رأى أهل الكوفة قد ردّوا على الإمامعليه السلام ما سأل، هجرهم ولَحِق به... وكان رامياً ماهراً، فرمى ثمانيةَ أسهُمٍ أصاب منها بخمسةٍ قتلَتْ خمسة نفر.[3] وقد ذكر أبو مِخْنَف كثرة رميِهِ ومهارته قائلًا: فرمى بمئةِ سهمٍ ما سقط منها خمسةُ أسهم، ودعا له الإمامعليه السلام، وقال [أبو الشعثاء]: ولقد تبيّن لي أنّي قد قتلتُ خمسةَ نفرٍ. وأضاف أبو مخنف قائلاً فيه: وكان في أوّلِ مَن قُتِل![4] وكان رَجَزُه يومئذٍ:

يا ربِّ إنّي للحسينِ ناصرْ ولابْنِ سَعْدٍ تاركٌ وهاجِرْ[5]

وتختلف المصادر في تقدّم بعض المجاهدين واستشهادِهم، وتأخّرهم.

منازلة العسكرَين

اقترب عسكر عبيد الله من عسكر الإمام الحسينعليه السلام القليل بادئاً من الميمنة، ثمّ مِن قِبل الميسرة، وذلك بعد الرماية الأُولى لعبد الله بن عُمَير وأبي الشعثاء ومبارزتهما، فجثا أصحاب الحسينعليه السلام الباقون على الرُّكَب، وأشرعوا الرماح نحو

١ ـ أمالي الصدوق: ١٦١ ـ ١٦٢.

٢ ـ مقتل الحسينعليه السلام ٢: ١٢ ـ ١٣.

٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٧ ـ ١٩٨.

٤ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٥.

٥ ـ الفتوح ٥: ١٩٩.

المتقدّمين من عسكر ابن زياد، فلم تَقْدم خيلُهم على الرماح ورجعت، فرشق أصحابُ الحسين عسكر العدوّ بالنبل، فصَرَعوا منهم رجالًا، وجَرَحوا آخرين[١]. ونادى عبد الله بن حَوزة، وهو من أصحاب عمر بن سعد: «أبشِرْ يا حسين بالنار! فأجابه عليه السلام: كلّا! إنّي أَقدم على ربٍّ رحيم، وشفيعٍ مُطاع. ثمّ قال: مَن هذا؟! قالوا: ابن حوزة. فقال: حازَهُ الله إلَى النار! فاضطرب به فرسه في جدول، فتعلّقت رِجله بالركاب، ووقع رأسه في الأرض ونفر الفرس، فجعل يمرّ برأسه كلَّ حجر وأصل شجرة حتّى مات»[٢]. وكان مسروق بن وائل قد رأى ما صُنِع بابن حوزة، فترك عسكر الكوفة ورجع، وهو يقول: لقد رأيتُ من أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلُهم أبداً[٣].

ثمّ توجّه الأصحاب إلى ساحة القتال واحداً واحداً، واستُشهدوا بعد مبارزتهم، ومن هؤلاء: بُرَير بن خُضَير الهَمْدانيّ الذي كان مشهوراً بسيّد القُرّاء في الكوفة، و من شيعتها المشهورين، ولمّا طلب يزيد بن معقل مبارزاً، خرج إليه بُرَير فضربه ضربةً قويّةً قدّت المِغفر وبلغت الدِّماغ، فخرّ كأنّما هوى من شاهق، وسيف بُرير ثابت في رأسه، فحمل عليه رضى بن مُنقذ العبديّ، فاعتنق بُريراً، فاعتركا ساعةً، وجلس بُرير على صدره، فاستغاث رضى بأصحابه، فذهب كعب بن جابر، وحمل على بُرير بالرمح حتّى وضعه في ظهره [يقول عفيف بن زهير، وكان في كربلاء: قلتُ لكعب: إنّ هذا بُرير بن خضير القارئ الذي كان يُقْرِئنا القرآن في مسجد الكوفة![٤]] وحمل عليه، فاستُشهد بُرير. وفي الحوار الذي دار بين بُرير ويزيد بن معقل، أشار يزيد إلى آراء بُرير السياسيّة، وقال: هل تذكر وأنا أُماشيك في بني لوذان وأنت تقول:

---

١. أنساب الأشراف ٣: ١٩٠؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣٠.

٢. نفسه ٣: ١٩٠. ١٩١؛ نفسه ٥: ٤٣١.

٣. تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣١.

٤. نفسه ٥: ٤٣٢.

إنّ عثمان بن عفّان كان على نفسه مُسرفاً، و إنّ معاوية بن أبي سفيان ضالٌّ مُضِلّ، و إنّ إمام الهدى والحقّ عليُّ بن أبي طالب؟![1] وقالت أخت كعب لأخيها الذي قَتل بُريراً: «أعنتَ على ابن فاطمة وقتلتَ بُريراً سيّدَ القرّاء؟!... والله لاأُكلّمك أبداً»[2]. وذُكِر أنّ كعب بن جابر لم يندم على عمله، وكان يفتخر أنّه كسب لنفسه خيراً، وقد سمعه رجلٌ أيّامَ مصعب بن الزبير وهو يقول: يا ربِ إنّا قد وَفينا، فلا تجعلْنا يا رَبِ كمَن قد غَدَرا![3]، ونقل ابن أعثم كلام بُرير للكوفيّين، وأنّه صاح بهم: «...اقترِبوا منّي يا قتلةَ ابنِ بنت نبيّ ربِّ العالمين، وذرّيّته الباقين»![4]

وأورد البلاذريّ هنا خبر قتال الحرّ بن يزيد الرياحيّ، وجاء في المقتل المنسوب إلى أبي مخنف المشهور، وليس مقتله الأصليّ: استأذن الحرُّ الإمامَ عليه السلام بالبِراز وقال: فإنّي أوّلُ مَن خرج إليك، وأُحبّ أن أُقتَل بينَ يدَيك. فأذِن له الإمام عليه السلام.[5] وورد خبره هذا أيضاً في فتوح ابن أعثم،[6] ولم يرد هذا الخبر في المصادر القديمة الأُخرى. قال أبومخنف: إنّ الحرّ لمّا لحق بالإمام عليه السلام، كان رجل من أهل الكوفة من بني تميم يقال له: يزيد بن سفيان يتمنّى أن يقاتله، ولمّا جاء الحرّ إلى الميدان، قال له: هل لك يا حرّ بن يزيد في المبارزة؟ فبرز له الحرّ، وما لبث أن قتله.[7] وذكر

---

١ .نفسه ٥: ٤٣١.

٢ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٩١ .١٩٢.

٣ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٣٣. وهذا على عكس الخبر الذي نقله ابن أعثم، فقد ذهب ابن أعثم إلى أنّ قاتلَ برير هو شخصٌ يُدعى: بُجَير[!] بن أوس الذي ارتجز مفتخراً بقتله، ولكنّه ندم على عمله بعد أن عرّفه ابنُ عمّه بِبُرير، وأنشد شعراً في ندمه قال فيه: ليتني لم أفعل، وماذا أقول لخالقي يوم المحشر! **الفتوح** ٥: ١٨٧ .١٨٩.

٤ .**الفتوح** ٥: ١٨٦، ١٨٨.

٥ .**مقتل أبي مخنف**: ٧٧ .٧٨، وذكر له رجزاً أيضاً.

٦ .**الفتوح** ٥: ١٨٥.

٧ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٣٤.

البلاذريّ أنّ الحرّقتل رجلين هما: يزيدُ بن سفيان، ومُزاحم بن حُرَيث[١]. وسنرى أنّ بعض المصادر ذكر أنّ قاتل الشخص الثاني هو نافعُ بن هلال. وذهب بعض إلى أنّ قتال الحرّ كان مصادفاً لقتال زهير بن القين وقريباً من ظهر عاشوراء بعد شهادة حبيب بن مظاهر.

وبعد ذلك استُشهد الباقون من أصحاب الإمامعليه السلام منازلةً، أو في هجوم كتائب من عسكر ابن زياد، وجاء خبرهم في المصادر. وكان هؤلاء يقاتلون بشجاعةٍ، ولمّا لم تتعلّق قلوبهم بالدنيا في تلك اللّحظات، فقد حاربوا الأعداء بكلّ وجودهم وبرجولةٍ وبسالة، حتّى عبّر عن ذلك أحد الذين شهدوا كربلاء مع عمر بن سعد، فقال: «... ثارت علينا عصابةٌ أيديها في مقابض سيوفها، كالأُسود الضارية تَحْطم الفرسانَ يميناً وشمالًا، وتُلقي أنفسها على الموت، لاتقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيّة، أو الاستيلاء على المُلْك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها»[٢].

وكان عمرو [أو عليّ] بن قَرَظة الأنصاريّ من أصحاب الإمام الحسينعليه السلام وأخوه من أصحاب عمر بن سعد، فنادى أخوه الحسينعليه السلام بكلماتٍ أساء فيها إلى الإمامعليه السلام، واتّهمه بإضلال أخيه، فقال الإمامعليه السلام: إنّ الله لم يُضلَّ أخاك، ولكنّه هَداه وأَضلّك! فحمل على الإمام، فاعترضه نافع بن هلال، فطعنه فصرعه، ثمّ برئ بعد ذلك[٣]. ومن الشخصيّات البارزة في كربلاء: نافع بن هلال البَجَليّ، وكانت قبيلته بجيلة من قبائل الشيعة بالكوفة، واشتهر منها شيعةٌ كثيرون، وقد صدر عن

---

١ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٩٢. هذا هو المصدر الصحيح، لا كما ذكر المؤلّف أنّه **تاريخ الطبريّ**. المترجم.

٢ .**شرح النهج** ٣: ٢٦٣.

٣ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٩٢؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٣٤.

نافع هذا تعريفٌ للتشيّع، وهو طريف في مماثلته ما تقدّم عن بُرير، ولمّا برز نافع نادى: أنا الجمليّ، أنا على دِين عليّ، فخرج إليه مزاحم بن حُرَيث، فقال: أنا على دِين عثمان! فقال له نافع: أنت على دِين الشيطان! ثمّ حمل عليه فقتله[1].

وبعد منازلة بعض الأصحاب لأهل الكوفة، وقتلِ جماعةٍ من عسكر عبيد الله، صاح عمرو بن الحجّاج بأصحابه من عسكر ابن سعد: «يا حَمقى! أتَدرون مَن تقاتلون؟! فرسان المِصْر؛ قوماً مُستميتين، لايبرزنَّ لهم منكم أحدٌ، فإنّهم قليل، وقلّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لَقتلتموهم؛ فقال عمر بن سعد: صدقتَ، الرأيُ ما رأيتَ. وأرسل إلى الناس يعزم عليهم ألّا يبارزَ رجلٌ منكم رجلًا منهم». ثمّ حمل عمرو بن الحجّاج على عسكر الإمام من قِبل الميمنة، [وصاح عمرو بعسكر الكوفة: يا أهلَ الكوفة، الزَمُوا طاعَتكم وجماعتَكم، ولا ترتابوا في قتلِ مَن مَرقَ مِن الدِين، وخالف الإمام!][2]، ويُحتَمل أنّ عدد من كان مع الإمام عليه السلام في هذه الساحة اثنانِ وثلاثون رجلًا،[3] وقد أشار الخوارزميّ إلى هذا العدد، وقال: «فلا يحملون على جانبٍ من أهل الكوفة إلّا كشفوه»[4]. واحتدم القتالُ ساعة، واستُشهد فيه مسلم بن عوسجة الأسديّ، قتله اثنان من أهل الكوفة، فأفرحت شهادتُه نواصبَ أهلِ الكوفة، وارتعد شَبَث بن رِبعيّ الذي كان أميراً على قسمٍ من عسكر الكوفة، وذكر شجاعةَ مسلم بن عوسجة في جهاده للمشركين في آذربايجان، إذ قتل

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٣٥.

٢ ـ نفسه.

٣ ـ يُستفاد من كلام بعض المؤرّخين أنّ الذين كانوا مع الإمام في بداية رمي العدوّ ٣٢ رجلًا فقط. (**أنساب الأشراف** ٣: ١٩٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٣٦) وفي حين يبدو أنّ هؤلاء هم الذين بقوا من الأصحاب بعد الرمي المكثّف للعدوّ واستشهاد ٣٨ رجلًا منهم. وتناهز الإحصائيّة العامّة لشهداء كربلاء هذا العدد أيضاً.

٤ ـ **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ١٦.

هناك ستّةً من المشركين.[١] فمشى إليه الإمام عليه السلام، وكان فيه رمق، فقال له: رَحِمَك ربُّك يا مسلم، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ...﴾. ودنا من مسلم حبيبُ بن مظاهر، وكان صديقاً حميماً له، وبشّره بالجنّة، وقال له: «لولا أنّي أعلم أنّي في أثَرِك لاحقٌ بك مِن ساعتي هذه، لأحببتُ أن تُوصيَني بكلِّ ما أهمَّك... فقال له مسلم بن عوسجة: أُوصيك بهذا - وأشار بيده إلى الحسين [عليه السلام] - أن تموتَ دُونَه، فقال حبيب: أفعلُ وربِّ الكعبة»[٢]. ولهذا قيل: إنّ مسلم بن عوسجة أوّل مَن استُشهِد من أصحاب الحسين عليه السلام، فذلك إشارة إلى أنّه أوّل شهيد في الحملة الأولى لأهل الكوفة، وهو طبعاً بعد الرمي العامّ الأوّل، وبعد شهادة بعض الأصحاب فُرادى. مع هذا، جاء في زيارة الناحية أنّه كان أوّل شهيدٍ في كربلاء: كنتَ أوّلَ مَنْ شَرى نفسَه، وأوّلَ شهيدٍ مِن شهداء الله[٣]. (والله أعلم).

وتحدّثنا في ما تقدّم حول عبد الله بن عُمَير، وأنّه قَتل يساراً وسالماً من مَوالي آل زياد، وحين حمل شمر من جهة الميسرة، ثبت له أصحاب الإمام عليه السلام إلى أن حمل العدوّ حملةً شاملة، وفيها استُشهد عبد الله بن عمير، «فجعلت امرأته تبكي عند رأسه، فأمر شمر غلاماً له يقال له: «رستم»، فضرب رأسها بعمود حتّى شدخه، فماتت مكانَها»[٤]. وجاء في خبر الطبريّ أنّ عبد الله قاتَلَ هانئ بن ثبيت الحضرميّ وبكير بن حَيّ التَّيميّ، اللّذينِ حملا عليه فقتلاه بعد براز شديد. وفي ثنايا هذا الخبر أنّ عبد الله بن عمير كان القتيلَ الثاني من أصحاب الحسين عليه السلام[٥] (بعد بُرير أو

١ .أنساب الأشراف ٣: ١٩٢ ـ ١٩٣.

٢ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

٣ .إقبال الأعمال: ٥١٥.

٤ .أنساب الأشراف ٣: ١٩٤.

٥ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣٦.

مسلم بن عوسجة).

وفي هذا القتال التحم الباقون من أصحاب الإمام عليه السلام بنحوٍ لم يستطع العدوّ أن يتغلغل في صفوفهم، بخاصّةٍ أنّهم كانوا قد حفروا حُفَراً حول الخيام وأجّجوا فيها النار، فلم يحمل عليهم العدوّ إلّا من جانبٍ واحد. وبعث عمر بن سعد جماعةً ليدخلوا بين الخيام ويقلعوها من مكانها، فحاصرهم عدد من أصحاب الإمام عليه السلام وقتلوهم، فأمر ابن سعد أن يُحرقوا الخيام، فقال الإمام عليه السلام: «دَعُوهم فَلْيُحرقوها؛ فإنّهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها».[١] فعزم العدوّ على مهاجمة الخيام وحرقها، وحمل شمر بن ذي الجوشن حتّى طعن فسطاط الحسين برمحه، ونادى: عليَّ بالنارِ حتّى أحرّقَ هذا البيتَ على أهلِه! فصاح النساء والأطفال، وخرجوا من الفسطاط، وهنا وبّخه شَبَث بن ربعيّ، واستقبح عمله، فرجع شمر.[٢] وحمل عليه زهير بن القين الذي كان على ميمنة الإمام، مع عشرةٍ من أصحابه، فكشفه عن البيوت[٣]، لكنّ شمراً حمل عليه وقتل بعض مَن كان معه[٤]. واستدام القتال، واستُشهِد أصحاب الإمام عليه السلام واحداً واحداً، وكلّما استُشهد واحد منهم، كان يتبيّن فيهم النقص واضحاً؛ في حين لم يتبيّن في قتلى العدوّ ما يُقتَل منهم لكثرتهم[٥]، وتواصلت هذه الحوادث حتّى ظُهر عاشوراء.

ظهر عاشوراء واستشهاد حبيب والصلاة الأخيرة

استُشهد حبيب بن مظاهر قريباً من الظهر، وقصّته أنّ أبا ثمامة الصائديّ -

---

١ ـ نفسه ٥: ٤٣٧.

٢ ـ نفسه ٥: ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٤.

٤ ـ الإرشاد ٢: ١٠٥ ـ ١٠٧.

٥ ـ تاريخ الطبري ٥: ٤٣٩.

الذي كان من أصحاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام[١] - لمّا رأى الأصحاب يُقتل منهم الرجل والرجلان، دنا من الإمام الحسين عليه السلام وقال: يا أبا عبد الله؛ نَفْسي لك الفداء، إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتَل حتّى أُقتَلَ دُونَك إن شاء الله، وأُحبّ أن ألقى ربّي وقد صلّيتُ هذه الصلاةَ التي دنا وقتها، فقال الإمام عليه السلام: ذكرتَ الصلاة، جعلَك الله مِن المصلّين الذاكرين، نعم، هذا أوّل وقتها. ثمّ قال عليه السلام: سَلُوهم أن يَكفُّوا عنّا حتّى نُصلّي. فقال لهم الحُصين بن تميم: إنّها لاتُقبل! فقال له حبيب بن مظاهر: لاتُقبل زعمتَ الصلاةَ من آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وتُقبَل منك يا حِمار! وهنا حمل عليه حبيب،[٢] فضرب وجهَ فرسه بالسيف، فشبّ ووقع عنه، وحمله أصحابه فاستنقذوه. ثمّ حمل على حبيب بُدَيْلُ بن صُرَيم التميميّ، فقتله حبيب. فحمل عليه آخر من بني تميم، فطعنه فوقع، فذهب ليقوم فضربه الحصين على رأسه بالسيف فوقع، ونزل إليه التميميّ فاحتزّ رأسه، وتباهى الحُصين بن تميم، فعلّق رأس حبيب في عنق فرسه وجال به في العسكر، ثمّ دفعه بعد ذلك إلى التميميّ ليأخذه إلى ابن زياد فيتسلّم الجائزة[٣]. ولمّا قُتِل حبيب بن مظاهر هدّ ذلك حُسَيناً [عليه السلام] وقال عند ذلك: عند الله أحتسبُ نَفْسي وحُماةَ أصحابي[٤]. ولمّا جاء التميميّ إلى الكوفة، طلب منه القاسم بن حبيب - وهو يومئذٍ قد راهق - رأسَ أبيه ليدفنه فأبى، فصبر القاسم حتّى تسلّط مصعب بن الزبير على الكوفة، فقتل التميميّ.[٥] وتحدّث المقتل المنسوب إلى أبي مخنف - لا مقتله الأصليّ -

١ ـ رسالة تسمية من قُتل مع الحسين عليه السلام: ١٥٦.
٢ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.
٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٤ ـ ١٩٥؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٠.
٤ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٠.
٥ ـ نفسه؛ أنساب الأشراف ٣: ١٩٥.

ومعظمه غير مُسنَد، في شهادة أخوَين لحبيب، وهما عليّ ويزيد.

وجاء في خبر المصادر الموثّقة أنّ الحرّ بن يزيد الرياحيّ وزهير بن القين حملا على عسكر الكوفة في تلك الساعة، وكان إذا شدّ أحدهما، فإن استُلحم شدّ الآخر حتّى يُخلِّصه. ثمّ إنّ رجّالةً شدّت على الحرّ بن يزيد، فاستُشهد[١]. ونقلت المصادر بعض رَجَزه الذي تحدّث فيه عن صموده وأنّه لا ينْكُل عن العدوّ ولا يفرّ. قال ابن أعثم: «لمّا جُرح الحرّ، احتمله أصحاب الإمام عليه السلام فوضعوه بين يديه وفيه رمق، فجعل الإمام عليه السلام يمسح وجهه ويقول: أنت الحُرّ! كما سمّتْك أمُّك حُرّاً، وأنت الحرُّ في الدنيا والآخرة»[٢]. وتختلف حكاية أخذ الحرّ إلى الإمام عليه السلام في المقتل المشهور المنسوب إلى أبي مخنف تماماً. ورمى العدوُّ الحرَّ بالنبال حتّى صار بدنه كالقنفذ، ثمّ قطعوا رأسه ورَمَوه نحو الحسين عليه السلام، فمسح الإمام وجهه. وهذا الخبر أكثر تفصيلًا وعاطفةً، وأكثر منه عاطفةً حكاية مُصعب أخي الحرّ، وابنٌ للحرّ يُدعى عليّاً، وكان في عسكر الكوفة، ولمّا رأى استشهاد أبيه وعمّه قاتل، وقتل رجالًا إلى أن قُتل[٣].

ودخل الظهر وحان وقتُ الصلاة، وما زال زهير وعددٌ من الأصحاب قريباً من الإمام عليه السلام، فصلّى بهم الإمام صلاة الخوف...[٤] أي بدأ عليه السلام بركعتين من صلاة الظهر، وزهير بن القين وسعيد بن عبد الله الحنفيّ واقفان أمامه، وأتمّت المجموعة الثانية الصلاة، ثمّ اقتدت المجموعة الأُولى في الركعة الثانية، ولمّا وقف سعيد مدافعاً أمام الإمام، «استهدفه العدوّ يرمونه بالنبل، فما أخذ الحسين عليه السلام يميناً وشمالًا إلّا

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٠ ـ ٤٤١؛ أنساب الأشراف ٣: ١٩٥.

٢ ـ الفتوح ٥: ١٨٥ ـ ١٨٦؛ مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزميّ ٢: ١٠ ـ ١١.

٣ ـ روضة الشهداء: ٢٨١ ـ ٢٨٢. نقلتُ هذه الحكاية ليستبين مَدى اختلاف تفاصيل الوقائع التاريخية بشأن عاشوراء في هذا المصدر.

٤ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤١؛ أنساب الأشراف ٣: ١٩٥.

قام بين يديه، فما زال يُرمى حتّى سقط على الأرض». وفي هذه الساعة دعا الله سبحانه أن يُبلّغ رسولَه سلامَه، وهو يقول له: ما أردتُ بهذا العناء إلّا نُصرةَ ذرّيّته. وكان في بدنه عند شهادته ثلاثة عشر سهماً[١]. واستُشهد سعيد في الحقيقة بعد صلاة الظهر حين احتدم القتال، وكان يتولّى حراسة الإمام عليه السلام[٢]. وواصل العدوّ رشق الخيول المتبقّية من عسكر الإمام بالنبال ليقضي عليهم جميعاً. وحمل زهير بن القين وهو يرتجز بشعرٍ يخاطب به الإمام عليه السلام، ويُسمّيه هادياً مهديّاً، ويقول له: إنّه سيلتقي بجدّه النبيّ، وأخيه الحسن، وأبيه عليّ، وعمّه جعفر، وحمزة:

أَقْدِمْ هُدِيتَ هادياً مهديّا فاليومَ ألقى جَدَّكَ النبيّا
وحَسَناً والمُرتَضى عليّا وذَا الجَناحينِ الفَتى الكَمِيّا
وأَسَدَ الله الشهيدَ الحيّا

فشدّ عليه كوفيّان، هما: كثير بن عبد الله الشعبيّ ومهاجر بن أوس فقتلاه[٣]. وجاء في أمالي الصدوق: أنّه قتل تسعة عشر رجلًا، ثمّ قُتِل[٤]. وفي مناقب آل أبي طالب: أنّه قتل مئةً وعشرين، ثمّ قُتِل![٥] وهذه الأعداد تقريبيّة، وذكَرَ هذا المصدر أعداد قَتْلَى غيره من أصحاب الإمام عليه السلام أيضاً، وهي وإن كانت تقريبيّة إلّا أنّها تدلّ بلا شكّ على عظمتهم وشجاعتهم.

آخر الشهداء من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام

ما زال أصحاب الإمام عليه السلام ثابتين، يقاومون العدوّ دفاعاً عن الإمام عليه السلام،

---

١. **مقتل الحسين** عليه السلام، للخوارزميّ ٢: ١٧.
٢. **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٥ ـ ١٩٦.
٣. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤١.
٤. **الأمالي**: ١٦٠.
٥. **المناقب** ٤: ١٠٣ ـ ١٠٤.

فاستُشهد الرجل والرجلان منهم في هذه الحملات.

وجاء خبر قتل هؤلاء الرجال- الذين استُشهد بعضهم قبل الظهر- في كتاب الفتوح لابن أعثم أكثر من غيره. (وعنه أخذ الخوارزميّ في مقتله، وأحياناً ابن شهر آشوب في مناقبه). وهذه المصادر، وإن قدّمت لنا أخباراً دقيقةً لافتةً للنظر عن كربلاء، فلا بدّ من تحليلها ودراستها بتأمّلٍ أكثر.

وكان عمرو بن خالد الأَزديّ من هؤلاء الرجال، ارتجز وقاتل حتّى استُشهد[١]. واستُشهد بعده ابنُه خالد بن عمرو الأَزديّ[٢]. وذكر الخوارزميّ عمرو بن خالد الصيداويّ أيضاً، وقال: جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام فقال: أُريد اللِّحاقَ بأصحابي، فقال له الإمام عليه السلام: تقدّمْ، فإنّا لاحقون بك عن ساعة[٣].

وكان سعد [شعبة] بن حنظلة التَّميميّ مجاهداً آخر، ارتجز وقاتل، فاستُشهد[٤].

وكان عُمَير بن عبد الله المَذْحجيّ شهيداً آخَر، ارتجز، واقتحم الميدان، واستُشهد[٥].

وجُرح سوار بن أبي حُمَير، ثمّ استُشهد بعد ستّة أشهر[٦].

واستُشهد عبد الرحمان بن عبد الله اليَزنيّ بعد مسلم بن عَوسجة على ما قال ابن أعثم، ولشعره في الميدان مضمونٌ مهمّ في التشيّع، إذ وصف نفسه أنّه على دين حسينٍ وحسن:

---

١ ـ **الفتوح** ٥: ١٩٢.

٢ ـ نفسه ٥: ١٩٢ ـ ١٩٣.

٣ ـ **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ٢٤. هل هذا هو عمرو بن خالد الأزديّ نفسه؟ جاء في مقتل الخوارزميّ: عمرو بن خالد الصيداويّ، وفي (**مثير الأحزان**)، لابن نما الصفحة ٣٣: عمرو بن خالد.

٤ ـ **الفتوح** ٥: ١٩٣.

٥ ـ نفسه؛ **مقتل الحسين** عليه السلام، للخوارزميّ ٢: ١٤.

٦ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٨.

أنـا ابـنُ عبـد الله مِـن آل يَـزَنْ ... دِينـي علـى ديـنِ حُسَـينٍ وحَسَـنْ
أضـربُكم ضَـرْبَ فتًـى مِـن اليَـمَنْ ... أَرجُـو بـذاكَ الفـوزَ عنـدَ المُـؤتمَنْ[1]

وكـان زيـاد بـن عمـرو بـن عريـب الصـائديّ الهَمْـدانيّ المعـروف بـأبي ثُمامـة الصائديّ، الذي ذكّر الإمامَ الحسين عليه السلام صلاةَ الظهر، شهيداً آخر بعد الظهر[2]... وقد نقل له ابن شهرآشوب رَجَزاً جميلاً[3].

وجثا أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكِندي بين يدَي الحسين عليه السلام، ورمى ثمانية أسهم (وفي بعض الأخبار التي تقدّمت: مئة سهم)، قتل فيها خمسةً من عسكر الكوفة، وهو الذي لمّا سمع ردّ أهل الكوفة شروطَ الإمام عليه السلام، حمل عليهم حتّى قُتِل[4].

وقَتَل نافعُ بن هلال الجَمَليّ اثنى عشر رجلاً من أهل الكوفة بدقّة رميه، ثمّ كُسِرَت عضده، وأُخِذ أسيراً، فضرب شمرٌ عنقه. وقد أشرنا فيما تقدّم إلى قتاله لعددٍ من أهل الكوفة،[5] وكان قد كتب اسمه على أفواق نَبْله، وشعاره: أنا الجَمليّ، أنا على دين عليّ. ولمّا أُتي به عمرَبن سعد كانت الدماء تسيل على لحيته وهو يقول: لو بَقِيَت لي عَضُدٌ وساعد ما أسرتُموني! وحين أراد شمر ضرب عنقه، قال له نافع: «أما والله أن لو كنتَ من المسلمين لَعُظم عليك أن تلقى الله بدمائنا، فالحمدُ لله الذي جعل منايانا على يَدَيْ شِرار خَلْقه»! فقتله شمر[6]. ومن الحَريّ بالذِّكر أنّ نافعاً

---

١ .الفتوح ٥: ١٩٤.
٢ .أنساب الأشراف ٣: ١٩٨.
٣ .انظر: مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٤ ـ ١٠٥.
٤ .أنساب الأشراف ٣: ١٩٨؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٥ ـ ٤٤٦.
٥ .أنساب الأشراف ٣: ٢٩٧.
٦ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤١ ـ ٤٤٢.

هذا كان من أصحاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والمتربّين في كنف إمامته[١].

وقلّ عدد أصحاب الإمام عليه السلام تدريجاً، فعزم الباقون منهم - الذين لم يتسنَّ لهم مواجهةَ العدوّ - على أن يبقوا معه، فلا يُستَشهد الإمام قبل شهادتهم. وتنافسوا في أن يُقتَلوا بينَ يَدَيه... فجاءه الأَخَوان: عبد الله وعبد الرحمان ابنا عَزرة الغِفاريّان[٢]، فقالا: «يا أبا عبد الله، عليك السلام، حازنا العدوّ إليك، فأحببنا أن نُقتَل بين يديك، نمنعك وندفع عنك، فقال لهما: مَرحَباً بكما»[٣]. وأطال الخوارزميّ حوارهما مع الإمام عليه السلام، فقد ذكر أنّهما جاءا إليه وهما يبكيان، فقال عليه السلام لهما: «ما يُبكيكُما؟ فوالله إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعةٍ قريرَيْ عين، فقالا: جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكنّا نبكي عليك، نراك قد أُحِيط بك ولا نَقْدر أن نمنعك»[٤]. ونقل أبومخنف هذا الخبر بذكر رجلَين آخرين، وهما: سيف بن حارث بن سريع، ومالك بن عبد بن سريع الهَمْدانيَّين، وهما ابنا عمّ وأَخَوان لأُمّ، وبعد ذكر بكائهما وجواب الإمام لهما، ودّعا الإمامَ بقولهما: السلامُ عليك يا ابنَ رسول الله، فقال عليه السلام: وعليكما السلام ورحمة الله... وذهبا إلى الميدان، فقاتلا حتّى استُشهدا[٥].

وذكر ابن أعثم هنا بعض شهداء كربلاء الذين لم يَرِد ذِكرٌ لقتالهم في المصادر الأُخرى، ومنهم: عمرُو بن مُطاع الجُعْفيّ الذي ارتجز، وقاتل فاستُشهِد[٦]... ولم يذكره البلاذريّ ولا أبومخنف. ونصّ ابن أعثم كذلك على يحيى بن سُلَيم المازنيّ الذي

١ - أُشير إلى هذا الموضوع في المقتل المنسوب إلى أبي مخنف بقوله: «وكان ربّاه أمير المؤمنين عليه السلام».

٢ - في **أمالي الصدوق**: «عبد الله بن أبي عُروة الغِفاريّ».

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤٢؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٩.

٤ - **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ٢٣ - ٢٤.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤٢ - ٤٤٣؛ انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٨.

٦ - **الفتوح** ٥: ١٩٦ - ١٩٧؛ **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ١٨.

ارتجز وقاتل فاستُشهِد.[١] والشهيد الآخر الذي أورده ابن أعثم ولم يورده البلاذريّ ولا أبومخنف هو قُرّةُ بن أبي قُرّةَ الغِفاريّ... ونُقِل له رجزٌ أيضاً، وجاء فيه: فقاتَلَ حتّى قُتِل.[٢] والرجل الآخر هو مالكُ بن أنَس الباهليّ الذي حمل على العدوّ وهو يرتجز، وقاتل حتّى قُتل... ومن رجزه بيتٌ رائع هو:

آلُ علـــيٍّ شـــيعةُ الرحمـــانِ   آلُ زيـــادٍ شـــيعةُ الشَّـــيطانِ[٣]

ويُحتمل قويّاً أنّ المقصود من هذا الرجل هو رجلٌ آخر يُدعى أنس بن الحارث الكاهليّ، أو الباهليّ، الذي نقلت له مصادرُ الحديث السنّيّة رواية، وفيها إشارة إلى شهادته مع الإمام الحسين عليه السلام... وفيما يأتي نصّ الرواية: عن الأشعث بن سحيم، عن أبيه، عن أنس بن حارث، قال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ ابني هذا يُقْتَل بأرضِ العراق، فمَن أدركَه منكم فَلْيَنصُرْه، قال: فقُتِل أنَس مع الحسين[٤].

ومن شهداء كربلاء الآخرين: حنظلة بن أسعد الشّباميّ العِجْليّ الذي أورد الطبريّ خبره... فقد قام بين يدي الإمام عليه السلام، وتلا الآيات القرآنيّة التي تتحدّث في عذاب قوم نوح وعاد وثمود، ونادى: يا قوم! لاتقتلوا حُسَيناً فيُسْحِتَكُم الله بِعذابٍ وقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى! فترحّم عليه الإمام عليه السلام، وقال: «إنّهم قد استَوجَبوا العذاب حينَ رَدُّوا عليك ما دعوتَهم إليه من الحقّ». ثمّ استأذن الإمامَ عليه السلام بالرَّواح إلى الآخرة

---

١. **الفتوح** ٥: ١٩٤؛ **مقتل الحسين** ٢: ١٧ ـ ١٨؛ **المناقب** ٤: ١٠٢.

٢. **الفتوح** ٥: ١٩٤ ـ ١٩٥؛ **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ١٨؛ **مناقب آل أبي طالب** ٤: ١٠٢.

٣- **الفتوح** ٥: ١٩٦؛ **مقتل الحسين** عليه السلام ٢: ١٨؛ **المناقب** ٤: ١٠٢.

٤. **دلائل النبوّة**، أبونعيم الأصفهانيّ ٢: ٧١٠، الرقم ٤٩٣؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ٢٣٨ ـ ٢٣٩. قال أبونعيم في «**معرفة الصحابة**» (١: ٢٤٣، تحقيق عادل العزّاويّ): ذكره بعض المتأخّرين وعدّوه في زمرة الصحابة المقيمين بالكوفة. وانظر: **الاستيعاب** ١: ٢٠١؛ **أسد الغابة** ١: ١٤٦؛ **الإصابة** ١: ٨؛ وذكره ابن نما في «**مُثير الأحزان**»: ٣٢ باسم أنس بن الحارث الكاهليّ. وبشأن التحاقه بالإمام عليه السلام، انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ١٧٥.

واللِّحاق بإخوانه، فأذِن له، فسلّم على الإمام عليه السلام فأجابه، فاستقدم، فقاتل حتّى قُتل.[١] قال البلاذريّ قبل إيراده خبر شهادة عابس بن أبي شَبيب الشاكريّ [الهَمْداني]: «فلمّا رأى بقيّةُ أصحاب الحسين [عليه السلام] أنّهم لايَقْدرون على أن يمتنعوا، ولا على أن يمنعوا حسيناً، تنافسوا في أن يُقتَلوا، فجعلوا يُقاتِلون بين يَدَيه حتّى يُقتَلوا». وكان عابسٌ منهم، فقد جاء إلى الإمام عليه السلام وقال: «يا أبا عبد الله، والله ما أَقْدِر على أن أدفع عنك القتل والضيم بشيء أعزَّ علَيَّ مِن نفسي، فعليك السلام. وقاتل بسيفه، فتحاماه الناس لشجاعته، ثمّ تعطّفوا عليه من كلّ جانبٍ فقتلوه».[٢] وذهب معه إلى الميدان شوذب مولى آل شاكر، فاستُشهد شوذب أوّلًا، ثمّ عابس بعده[٣]. وكان عابس قال للإمام الحسين عليه السلام قبل ذهابه، دالًّا على سداد إيمانه: أُشهِدُ الله أَنّي على هَدْيِك وهَدْيِ أبيك... ويُضيف أبومخنف أنّه لمّا ذهب إلى الميدان قال العدوّ: «هذا الأسدُ الأَسْود، هذا ابنُ أبي شبيب، لايخرجنّ إليه أحدٌ منكم، فقال عمر بن سعد: ارضَخُوه بالحجارة... فلمّا رأى ذلك ألقى دِرعه ومِغْفَره، ثمّ شدّ على الناس»! قال الراوي: «فوالله لَرأيتُه يَكرُد [يطرد] أكثرَ مِن مئتينِ من الناس، ثمّ إنّهم تعطّفوا عليه مِن كلّ جانب، فقُتِل»... فرأيتُ رأسه في أيدي رجالٍ ذوي عدّة، كلٌّ يدّعي قتلَه[٤].

ومِن شهداء كربلاء: بدرُ بن المغَفَّل الجُعْفيّ الذي نقل البلاذريّ ارتجازه وشهادته[٥]. وأنيسُ بن مَعْقِل الأَصْبحيّ الذي روى ابن أعثم ارتجازه وشهادته[٦].

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٣.

٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٧.

٣ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

٤ ـ نفسه ٥: ٤٤٤.

٥ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٩٨.

٦ ـ الفتوح ٥: ١٩٨ ـ ١٩٩.

وارتجز عبد الرحمان بن عبد الله الكدن، واستُشهد، وارتجازه كان علامة على موقفه الشيعيّ:

إنّي لِمَن يُنكرُني إبنُ الكدنْ إنّي على دينِ حُسينٍ وحَسَنْ[١]

وقاتل حُويّ مولى أبي ذرّ الغِفاريّ بين يدَي الإمام الحسين عليه السلام حتّى استُشهد، وعدّ الدفاعَ عن آل محمّد عليهم السلام في رجزه هدفَ مبارزته[٢]، وهو لا جَرَمَ شيعيٌّ تربّى في مدرسة أبي ذرّ الغفاريّ. وأورد ابن أعثم خبر جُنادةَ بنِ الحارث الأنصاريّ أيضاً، ونقل ما ارتجزبه من شعر عبّر فيه عن وفائه للإمام عليه السلام في بيعته[٣]. وقاتل بعده ابنُه عمرُو بن جُنادة بعد أن ارتجز بأبيات كثيرة، ثمّ استُشهد، واشتمل شعره على تحليلٍ تاريخيّ للظروف التي كانت في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ علاقة المؤمنين الحقيقيّين من المهاجرين والأنصار بقريش إبّان كفرِها من جهة، و فسقها وفجورها من جهةٍ أُخرى، وتحدّث في بدايته في عداء قريش للأنصار والمهاجرين، وأنّ المهاجرين وفوارس الأنصار أراقوا دم الكفّار في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله، واليومَ يجب أن يُراقَ دمُ الفجّار والأراذل، الذين هجروا القرآن لنصرة القارونيّين[٤]، برماح المؤمنين، أولئك الفجّار الذين يطلبون بثأر بدر، ثمّ أقسم فيه أنّه وأصحابه يضاربون الفسّاق بكلِّ وجودهم واستطاعتهم.[٥] واستُشهد مع الإمام عليه السلام من الجُعفيّين الحجّاجُ بن مَسروق الجُعفيّ.

واستُشهد أربعةٌ من الأصحاب في مكانٍ واحد، وذكر أبو مخنف أنّ شهادتهم

---

١. **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٦.

٢. نفسه؛ **الفتوح** ٥: ١٩٨.

٣. **الفتوح** ٥: ٢٠١.

٤. هذا هو تحليل المؤلّف، ولم يرد في الشعر. المترجم.

٥. **الفتوح** ٥: ٢٠١-٢٠٢.

كانت في أوّل القتال. ويحوم الشكّ حول مراده من أوّل القتال (أي حول وقته)... إلّا أنّه في أيّ حال، يمكن أن يكون بعد الحملة الأولى للعدوّ وفي بداية القتال منازلةً، ورُبّما يُراد منه القتال الذي كان بعد صلاة الظهر، واحتماله ضعيف. ومن الحقيق بالقول: إنّ العبّاس عليه السلام كان ما زال في ساحة القتال عند شهادتهم، قال أبومخنف: «إنّ عمرو بن خالد الصَّيداويّ، وجابر بن الحارث السَّلمانيّ، ومجمّع بن عبد الله العائذيّ، وسعد مولى عمرو بن خالد الصيداويّ... شدّوا مُقْدِمين بأسيافهم على عسكر الكوفة، فلمّا وغلوا عطف عليهم الناس فأخذوا يحوزونهم، وقطعوهم من أصحابهم غير بعيد، فحمل عليهم العبّاس عليه السلام فاستنقذهم، وقد جُرحوا، فلمّا دنا منهم عدوّهم شدّوا بأسيافهم في أوّل الأمر حتّى قُتِلوا في مكانٍ واحد».[1] وذكر البلاذريّ: أنَّ آخِر من قُتِل من أصحاب الإمام عليه السلام وبعد شهادته عليه السلام هو سُوَيد بن عَمْرو الخَثْعميّ، وكان قد جُرِح قبل ذلك، «فسمع قائلًا يقول: قُتِل الحسين! فنهض بسكّينةٍ كانت معه فقاتل بها، فقتله اثنان مِن أهل الكوفة»[2].

دخول أهل البيت عليهم السلام ساحة القتال وشهادتهم

بدأ أهل بيت الحسين عليه السلام يقاتلون في وقتٍ لم يبقَ أحدٌ من الأصحاب، فلم يزل أصحاب الحسين يقاتلون ويُقتلون حتّى لم يبقَ معه غيرُ أهل بيته[3]. ثمّ قاتلوا واستُشهد عددٌ منهم، ذُكِر أنّهم أقلّ من ستّة عشر،[4] وذهب بعض المصادر إلى أنّهم

١ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤٦. وذكر البلاذريّ في **أنساب الأشراف** ٣: ١٩٨ ضمن هذا الخبر شهادة جياد (جابر!) بن الحارث السلمانيّ من بني مراد.

٢ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٣.

٣ .**الأخبار الطوال**: ٢٥٦.

٤ .**تاريخ خليفة بن خيّاط** ١: ٢٢٥. وروى فيه: أنّ الحسن البصريّ كان يقول: «أُصيب مع الحسين ستّة عشر رجلًا من أهل بيته ما على وجه الأرض يومئذٍ أهلُ بيتٍ لهم شبيهون». ونقل فيه عن محمّد ابن الحنفيّة أنّه قال: «قُتل مع الحسين بن عليّ سبعة عشر رجلًا كلّهم قد ارتكض في

أكثر من عشرين. و فيما يلي إحصاؤهم نقلاً عن محمّد بن سعد (م٢٣٠هـ)، وسنُضيف معلومات أُخرى في الهوامش وفي تضاعيف الأسماء التي ذكرها ابن سعد[١].

١- العبّاس بن عليّ بن أبي طالب: كان وسيماً جميلًا طويلًا، يركب الفرس ورجلاه تخطّان في الأرض، وكان أولاده وأحفاده يُسمُّونه «السقّاء»[٢]. وكان لواء الحسين عليه السلام معه. ورُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ زيد بن رقاد الجنبيّ وحكيم بن الطُّفَيل الطائيّ هما اللذان قتلاه[٣]. وكان عمره يوم شهادته أربعاً وثلاثين سنةً[٤]. قال الشيخ المفيد: «فلمّا رأى العبّاس... كثرةَ القتلى في أهله، قال لإخوته من أُمّه [أبناء أمّ البنين]: يا بَني أُمّي، تقدّموا حتّى أراكم قد نَصَحْتُم [ضحّيتم] لله ولرسوله... فركب [الحسين عليه السلام] يريد الفرات وبين يديه العبّاس أخوه، فاعترضته خيلُ ابن سعد، ورماه [رمى رجلٌ من الكوفيّين الإمامَ الحسين عليه السلام] بسهم فأثبته في حنكه، فانتزع الحسين عليه السلام السهم وبسط يده تحت حنكه فامتلأت راحتاه بالدم، فرمى به [ودعا عليهم]... وأحاط القوم بالعبّاس فاقتطعوه عنه [عن الحسين عليه السلام]، فجعل يقاتلهم وحدَه حتّى قُتل رضوان الله عليه. وكان المتولّي لقتله زيد بن ورقاء، وحكيم ابن الطفيل بعد أن أثخن بالجراح فلم يستطع حراكاً»[٥]. وقال البلاذريّ في موضعٍ

بطن فاطمة»، فيمكن أن يكون «ستّة عشر» إشارة إلى هذا المطلب، لا إلى جميع من كان مع الحسين عليه السلام من أهل بيته.

١ .ترتيب صاحب الطبقات (ونحن ذكرناه على أساس تلك الأسماء) لايتبع زمن استشهادهم. وذكر الدينوريّ من بين المؤرّخين شهداء أهل البيت تبعاً لترتيب شهادتهم.

٢ .**مقاتل الطالبيّين:** ٨٩؛ **المجدي في أنساب الطالبيّين:** ١٥.

٣ .**مقاتل الطالبيّين:** ٩٠.

٤ .**المجدي في أنساب الطالبيّين:** ١٥.

٥ .**الإرشاد** ٢: ١٠٩ ـ ١١٠.

آخر: «وقال بعضهم: قتل حرملةُ بن كاهل الأسديّ ثمّ الوالبيّ العبّاسَ بن عليّ بن أبي طالب مع جماعةٍ وتعاوروه، وسلب ثيابَه حكيمُ بن الطفيل الطائيّ، ورمى حرملةُ الحسينَ بسهمٍ فتعلّق بسرباله»[١]. وروى أبوالفرج الأصفهانيّ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وكانت أمّ البنين أمّ هؤلاء الأربعة الإخوةِ القتلى، تخرج إلى البقيع فتندب بَنيها أشجى نُدبة وأحرقَها، فيجتمع الناس إليها يسمعون منها، فكان مروان يجيء فيمَن يجيء لذلك، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي»[٢]. ونقل أبوالفرج أيضاً عن قاتل العبّاس عليه السلام، الذي اسودَّ وجهُه بعد ذلك، أنّه كان يقول: «...إنّي قتلتُ شاباً أمرد مع الحسين، بينَ عينَيه أثرُ السجود...»[٣].

٢- جعفربن عليّ بن أبي طالب: (ابن أمّ البنين، وعمره تسع عشرة سنة).[٤] قتله هانئ بن ثُبيت الحَضْرميّ، وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ خولّى بن يزيد الأصبحيّ هو الذي قتله[٥].

٣- عبد الله بن عليّ بن أبي طالب: (ابن أمّ البنين، وعمره خمس وعشرون سنة).[٦] قتله هانئ بن ثُبيت الحضرميّ، وذهب البلاذريّ أيضاً إلى أنّ هذا الشخص هو الذي قتل عبدَ الله بن عليّ، وأضاف قائلًا: «وجاء برأسه»[٧].

٤- عثمان بن عليّ بن أبي طالب[٨]: (ابن أمّ البنين)، عندما ذهب إلى الميدان،

---

١ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٠.

٢ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٩٠.

٣ ـ نفسه: ١١٨.

٤ ـ نفسه: ٨٨.

٥ ـ نفسه.

٦ ـ نفسه.

٧ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٠١.

٨ ـ قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «إنّما سمّيته باسم أخي عثمان بن مظعون». **مقاتل الطالبيّين**: ٨٩.

رماه خولّى بن يزيد بسهم، وشدّ عليه رجل من بني أبان بن دارِم فقتله[١]. وأمّ هؤلاء الأربعة هي أُمُّ البنين العامريّة من آل الوحيد، قال الدينوريّ مُشيراً إلى هذا الموضوع: «فصاروا أمامَ الحسينعليه السلام. يَقُونَه بوجوهِهم ونحورِهم، فحمل هانئ بن ثُبيت الحَضْرميّ على عبد الله بن عليّ، فقتله... ثمّ حمل على أخيه جعفر بن عليّ، فقتله أيضاً، ورمى [خُوَلّى] بن يزيد الأصبحيّ عثمانَ بن عليّ بسهمٍ فقتله، ثمّ خرج إليه، فاحتزَّ رأسه، فأتى عمرَ بن سعدٍ فقال له: «أثِبْني»، فقال عمر: عليك بأميرِك - يعني عُبيد الله بن زياد - فسَلْه أن يُثيبك. وبقي العبّاس[٢] بن عليّ قائماً أمام الحسين يُقاتل دونه، ويميل معه حيث مال، حتّى قُتِل، رحمة الله عليه»[٣].

٥- أبو بكر بن عليّ بن أبي طالب: لم يذكر ابن سعد قاتله، إلّا أنّ الدينوريّ قال: إنّه رماهُ عبد الله بن عقبة الغَنويّ بسهمٍ فقتله[٤]. وذكر أبومِخْنَف خبر قتله، إلّا أنّه قال: «وقد شُكَّ في قتله»[٥]، ورُوي عن الإمام الباقرعليه السلام: أنّ رجلًا من هَمْدان قتله[٦].

٦- محمّد الأصغر بن عليّ بن أبي طالب: رُوي عن الإمام الباقرعليه السلام[٧] أنّ رجلًا من تميم من بني أبان بن دارِم كان قتَلَه[٨].

٧- عليّ الأكبر: (وأُمّه ليلى[٩]، وُلد في عهد عثمان)[١٠]، وهو ابن الحسين بن عليّ، قَتَلهُ مُرّة بن مُنقذ بن نُعمان العَبديّ [عبد القيس]. قال أبومخنف، والبلاذريّ،

---

١ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠١.

٢ .ذكر المؤلّف أنّه عثمان، والصحيح هو العبّاس. المترجم.

٣ .**الأخبار الطوال**: ٢٥٧.

٤ .نفسه.

٥ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٨؛ **مقاتل الطالبيّين**: ٩١.

٦ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩١.

٧ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٨.

٨ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩١.

٩ .ذكر المؤلّف أنّها أمّ ليلى والصواب هو ليلى. المترجم.

١٠ .نفسه: ٨٧.

والدينوريّ: إنّه أوّلُ مَن قُتِل من أهل البيت[١]. وذهب ابن أعثم إلى أنّ أوّل شهيد من أهل البيت هو عبدُ الله بن مسلم بن عقيل[٢]. وقال ابن سعد: «ودعا رجلٌ من أهل الشام عليَّ بن حسين الأكبر - وأمّه آمنة بنت أبي مُرّة بن عروة بن مسعود الثقفيّ، وأمّها بنت أبي سفيان بن حرب - فقال: إنّ لك بأمير المؤمنين (يقصد معاوية أو يزيد لعنهما الله) قرابةً ورحماً، فإن شئتَ آمنّاك، وامضِ حيث ما أحببتَ، فأجابه الأكبر: أما والله لَقَرابةُ رسول الله ﷺ كانت أَولى أن تُرعى مِن قرابة أبي سفيان! ثمّ كرّ عليه وهو يقول:

أنا عليُّ بنُ حُسينِ بنِ عليّ ... نحنُ وربِّ البيتِ[٣] أَولى بالنبيّ

تاللهِ لا يحكُمُ فينا ابنُ الدَّعيّ ... أَضربُ بالسيفِ أُحامي عن أبي

ضَرْبَ غُلامٍ هاشميٍّ قَرَشيّ[٤]

ثمّ حمل على الأعداء (يبدو أنّه حمل مرّةً ثمّ رجع إلى أبيه، ثمّ حمل مرّةً أُخرى)[٥]. فأقبل عليه رجل من عبد القيس يُقال له: مُرّة بن منقذ بن النعمان فطعنه، فحُمِل فوُضع قريباً من أبيه، فقال له: قَتلُوك يا بُنَيّ؟! علَى الدُّنيا بَعدَكَ العَفاء، وضمّه أبوه إليه حتّى مات»[٦].

«فخرجت زينب عليها السلام مُسرِعةً تُنادي: وا أُخيّاه! يا ابنَ أُخيّاه! فجاءت ثمّ أكبّت عليه، فجاءها الحسين عليه السلام فأخذ بيدها فردّها إلى الفُسطاط، وأقبل إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه فقال لهم: احملوا أخاكم. فحملُوه حتّى وضعوه بين يدَيِ الفُسطاط

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤٦؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٠؛ **الأخبار الطوال**: ٢٥٦ (فكان أوّل من تقدّم منهم) **مقاتل الطالبيّين**: ٨٦ (هو أوّل من قُتل في الواقعة).

٢ ـ **الفتوح** ٥: ٢٠٣.

٣ ـ و روي: «وبيت الله».

٤ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤٦؛ **الإرشاد** ٢: ١٠٦.

٥ ـ **الإرشاد** ٢: ١٠٦.

٦ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٣.

الذي كانوا يقاتلون أمامه»[١]. ويتفاوت ما جاء في فتوح ابن أعثم مع ما جاء في المصادر الأخرى إلى حدٍّ ما، وفيه شيءٌ من التعقيد. فلمّا تقدّم عليّ الأكبر إلى الميدان، وهو يومئذٍ ابنُ ثاني عشرة سنةً[٢] على ما نقل [ابن أعثم]، رفع الحسين عليه السلام شيبته نحو السماء وقال: اللّهمّ اشْهَدْ على هؤلاءِ القوم؛ فقد بَرزَ إليهم غُلامٌ أشبهُ القومِ خَلْقاً وخُلُقاً ومَنْطقاً برسولك محمّدٍ صلى الله عليه وآله... فلم يزل يُقاتل حتّى ضجّ أهل الشام من يده[٣]، فرجع إلى أبيه وفيه جراحاتٌ كثيرة، فقال: يا أبه، العطشُ قد قتلني... فبكى الحسين عليه السلام، ثمّ قال: قاتِلْ قليلاً، فما أسرَعَ ما تلقى جَدَّك محمّداً صلى الله عليه وآله فيسقيك بكأسه الأوفى... ثم حمل، فلم يزل يقاتل، حتّى قُتل رحمه الله[٤].

٨- عبد الله بن الحسن بن عليّ[٥] عليه السلام: وأمّه بنت السَّليل بن عبد الله (أخي جرير ابن عبد الله البَجَليّ)، رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ حرملة بن كاهل الأسديّ قتله، وأورد ابن أعثم ارتجازه وشهادته:

إن تُنْكِروني فأنا فرعُ الحسَنْ ... سِبْطُ النبيِّ المُصطفى والمُؤتَمَنْ[٦]

٩- أبو بكر بن الحسن[٧] بن عليّ: هذا والذي قبله قتَلَهما عبدُ الله بن عقبة

---

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٧؛ الإرشاد ٢: ١٠٦ ـ ١٠٧.

٢ ـ ذهب الشيخ المفيد إلى أنّ عمره يناهز هذا العدد، قال: «وله بضع عشر سنةً». الإرشاد ٢: ١٠٦.

٣ ـ خليق بالذكر أنّ أهل الشام لم يشهدوا هذا القتال قطّ إلّا أن يُسمّى أهل الكوفة باسمهم، لأنّهم حُماة الأمويّين وأنصارهم!

٤ ـ الفتوح ٥: ٢٠٩.

٥ ـ في «ترجمة الإمام الحسين عليه السلام»: عبد الله بن الحسين بن عليّ، وهو لا جرم عبد الله بن الحسن كما جاء في طبعةٍ أخرى للطبقات. وفيه: أنّ هانئ بن ثُبيت قتله (ص ٧٦). وفي «مقاتل الطالبيّين: ٩٣» رواية تشير إلى أنّ هانئ بن ثبيت قال بإنّه قتل رجلاً منهم.

٦ ـ الفتوح ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥. انظر التوضيح الذي سيأتي بشأن عبد الله بن الحسين مقايسةً بما جاء هنا.

٧ ـ في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام لابن سعد: الحسين، وهو وَهْمٌ. وفي تاريخ الطبريّ ٥: ٤٦٨: الحسن.

الغَنويّ، وهو ما جاء في الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام في أبي بكر بن الحسن[1]، وذكر العُمَريّ النسّابة (أحد علماء القرن الخامس) : أنّ أبا بكر كُنية عبد الله بن الحسن الذي قُتِل في كربلاء، ودمه في بني غَنيّ، وزوّجه الحسينُ بن عليّ عليه السلام ابنته سُكَينة[2].

١٠- عبد الله بن الحسين: (ابن الرباب بنت امرئ القيس)، قتله حرملة الكاهليّ من بني أسد[3]... أمّا ابن سعد فقد قال بشأن عبد الله : «وجاء صبيٌّ من صبيان الحسين يشتدّ حتّى جلس في حجر الحسين، فرماه رجلٌ بسهمٍ فأصاب ثغرة نحره فقتله[4]، فقال الحسين: اللّهمّ إنْ كنتَ حبستَ عنّا النصر، فاجعلْ ذلك لِما هو خيرٌ في العاقبة، وانتقمْ لنا مِن القومِ الظالمين»[5].

وذكر البلاذريّ عبدَ الله بن الحسين أيضاً، قال: «ورمى حرملةُ بن كاهل الوالبيّ عبدَ الله بن حسين بسهمٍ فذبحه»[6]. وقال أبومخنف: «لمّا قَعَد الحسين (ولم يستطع النهوض للقتال) أُتيَ بصبيّ له فأجلسه في حجره، زعموا أنّه عبد الله بن الحسين. وقال: «قال عقبة بن بشير الأسديّ: قال لي أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين [الإمام الباقر عليه السلام]: إنّ لنا فيكم يا بني أسد دماً؛ قال: قلتُ: فما ذنبي أنا في ذلك

لكن جاء في رأي مُحشّي **الطبقات الكبرى**، الطبقة الخامسة، (ص: ٤٧٦): أنّ الحسين هو الصحيح كما ورد في **معجم الطبراني** ٣: ١٠٣.

١ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩٢.

٢ .**المجدي في أنساب الطالبيين**: ١٩. ويُحتمل احتمالًا قويّاً أنّ ما اشتَهر من زواج القاسم بن الحسن يرتبط في الحقيقة بأبي بكر بن الحسن.

٣ .**في تاريخ الطبريّ**: حرملة بن الكاهن.

٤ .**الأخبار الطوال**: ٢٥٨.

٥ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٣، ولعلّ المراد به عبد الله بن الحسن المجتبى عليه السلام.

٦ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠١.

رحمك الله يا أبا جعفر؟! وما ذلك؟ قال: أُتيَ الحسين بصبيٍّ له، فهو في حجره، إذ رماه أحدُكم يا بني أسد بسهمٍ فذبحه، فتلقّى الحسينُ دمه، فلمّا ملأ كفَّيه صبّه في الأرض، ثمّ قال: ربِّ إنْ تكُ حبستَ عنّا النصر من السماء، فاجعلْ ذلك لما هو خير، وانتقمْ لنا مِن هؤلاء الظالمين»[1].

وذكر ابن سعد في موضعٍ آخر ابناً للحسين عليه السلام عمره ثلاث سنين، أنّه لمّا وقعت النبال عن يمين الإمام عليه السلام وعن شماله، رماهُ عقبة بن بشر الأسديّ، وهو بين يَدَي أبيه فقتله[2].

ويُحتمل أنّ ما قيل في عبد الله بن الحسين يعود إلى صبيٍّ للإمام الحسين عليه السلام ذكره بعض المصادر باسم عليّ بن الحسين الأصغر، وهو المعروف عند الشيعة بهذا اللّقب أو بلقب «عبد الله الرضيع». أمّا الخبر المتداول بين الشيعة، فهو مأخوذ من فتوح ابن أعثم، ولم يَرد في المصادر القديمة الأخرى، قال ابن أعثم: «فبقيَ الحسين فريداً وحيداً ليس معه ثانٍ إلّا ابنه عليّ (رضي الله عنه)، وهو يومئذٍ ابن سبع سنين، وله ابن آخر يقال له: عليّ في الرضاع، فتقدّم إلى باب الخيمة فقال: ناولُوني ذلك الطفل حتّى أودّعه. فناولوه الصبيّ، فجعل يقبّله وهو يقول، يا بُنيّ، ويلٌ لهؤلاء القوم إذا كان غداً خصمهم جدُّك محمّدٌ صلى الله عليه وآله! قال: و إذا بسهمٍ قد أقبل حتّى وقع في لبة الصبيّ فقتله، فنزل الحسين رضي الله عنه عن فرسه وحفر له بطرف السيف، ورماه بدمه وصلّى عليه ودفنه، ثمّ وثب قائماً»[3]. [وأنشد أبياتاً بلغت سبعة عشر بيتاً!]. ولليعقوبيّ إشارةٌ مُجمَلة إلى هذه الحادثة، فقد قال: «فإنّه [الإمام الحسين عليه السلام] لَواقفٌ على فرسه، إذ أُتيَ بمولود قد وُلد له في تلك الساعة، فأذّن في

---

١ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٨.

٢ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٣.

٣ .الفتوح ٥: ٢١٠ ـ ٢١٢.

أُذُنِهِ... إذْ أتاه سهمٌ فوقع في حلق الصبيّ فذبحه، فنزع الحسين السهمَ مِن حلقه، وجعل يلطّخه بدمه ويقول: والله لَأنتَ أكرمُ على الله من الناقة»![1] ولم يرد في إرشاد الشيخ المفيد شيء في هذا الموضوع[2]. وذكر العالم العلويّ العَمْريّ (النسّابة في القرن الخامس الهجريّ) عَلِيَّينِ للإمام الحسين عليه السلام؛ أحدهما: عليّ الأكبر الذي استُشهد بالطفّ؛ والآخر: عليّ الأصغر، وهو الإمام السجّاد عليه السلام[3].

على أيّ حالٍ، من المحتمَل تماماً أنّ عبد الله بن الحسين الذي ذكر المؤرّخون أنّه رماهُ حرملة بسهمٍ وهو في حجر أبيه فذبحه بكربلاء، هو عليّ الأصغر نفسه؛ بخاصّةٍ أنّ تسمية الأولاد باسم عليّ كانت تيمّناً وتبرّكاً باسم جدّهم [أمير المؤمنين عليه السلام] قبل أن تكون تسميةً لولدٍ من الأولاد، ويمكن أن يكون اسم المسمّى

---

١ ـ **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٤٥.

٢ ـ من المؤسف أنّ وهماً قد حصل في هذا المجال، في متن **الإرشاد** الذي حقّقته مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، فقد جاء في باب ذكر أولاد الحسين عليه السلام ٢: ١٣٥: وكان للحسين عليه السلام ستّةُ أولادٍ: عليّ بن الحسين الأكبر، كنيته أبومحمّد، وأمّه شاه زنان بنت كسرى يزدجرد. وعليُّ بن الحسين الأصغر، قُتل مع أبيه بالطّف، وقد تقدّم ذكره فيما سلف، وأمّه ليلى بنت أبي مُرّة بن عُروة بن مسعود الثقفيّة. وجعفر بن الحسين، لا بقيّة له، وأمّه قضاعيّةٌ، وكانتْ وفاته في حياة الحسين. وعبد الله بن الحسين، قُتل مع أبيه صغيراً، جاءه سهم وهو في حجر أبيه فذبحه، وقد تقدّم ذكره فيما مضى. وذكر سكينةَ وفاطمةَ. وهذا وَهْم؛ لأنّ الذي استُشهد بكربلاء هو عليّ الأكبر، وأمّه ليلى، في حين لم يُشَرْ إليه هنا. علاوةً على ذلك، لم يتحدّث الشيخ المفيد قبل هذا في شهادة عليّ الأصغر الذي كانت أمّه ليلى، بل نقل خبر شهادة عليّ الأكبر. وما ذكره قبل ذلك هو خبرُ شهادة عبد الله بن الحسين الذي أُكِّد هنا أيضاً.

و إذا نظرنا في ما نقله الإربلّيّ عن الشيخ المفيد في **إرشاده**، يستبين الوَهمُ المذكور، فقد ذكر الإربلّيّ أنْ كان للحسين عليه السلام ستّة أولاد: عليّ بن الحسين الأصغر المكنّى بأبي محمّد، وأُمّه شاه زنان بنت كسرى. وعليّ بن الحسين الأكبر الذي استُشهِد مع أبيه بكربلاء، وأُمّه ليلى. وجعفر بن الحسين، وكانت وفاته في حياة أبيه. وعبد الله بن الحسين الذي كان صغيراً في حجر أبيه بكربلاء، إذ جاءه سهم فذبحه. انظر: **كشف الغمّة** ٢: ٢١٥ ـ ٢١٦.

٣ ـ **المجدي في أنساب الطالبيّين**: ٩١.

بعليّ: عبد الله في آنٍ واحدٍ، وهذا طبعاً احتمال. وقد ذكر الشيخ المفيد عبدَ الله بن الحسن بن عليّ أنّه ركض إلى عمّه عندما بقي وحيداً فريداً، فقال الحسين عليه السلام لزينب عليها السلام: «احبسيه يا أختي. فأبى وامتنع عليها امتناعاً شديداً، وقال: والله لا أُفارقُ عمّي. ولمّا أهوى أبجرُ بن كعب إلى الحسين عليه السلام بالسيف، قال له الغلام: ويلك يا ابنَ الخبيثة! أتقتل عمّي؟! فضربه أبجرُ بالسيفِ فاتّقاها بيده فأطنّها إلى الجلدةِ، فإذا يدُه معلّقة»![1] وجاءت هذه الرواية أيضاً في كتاب اللّهوف، وفيه: أنّ حرملة رماه بسهم وهو جالسٌ في حجر عمّه[2]. وورد في زيارة الناحية المقدّسة: السلامُ على عبدِ الله بنِ الحسن الزّكيّ، لعَنَ الله قاتلَه وراميه حَرْملةَ بنَ كاهلِ الأسديّ. فلا يمكن أن يكون عبد الله بن الحسين هو نفسه عبد الله بن الحسن، وقد ذكرتهما معاً رسالة فضيل الرسان - من أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام - وهي فهرس لشهداء كربلاء[3].

١٢- القاسم بن الحسن: قتله سعيد بن عمر الأَزْديّ[4]، قال ابن سعد: «وخرج القاسم بن حسن بن عليّ وهو غلام عليه قميص ونعلان، فانقطع شِسْعُ نعله اليسرى، فحمل عليه عمرو بن سعيد الأزديّ [!]فضربه، فسقط ونادى: يا عَمّاه! فحمل الحسين على الأَزْديّ فضربه فاتّقاها بيده فقطعها من المِرفق فسقط. وجاءت خيل الكوفيّين ليحملوه، فحمل عليهم الحسين، فجالوا ووطئوه حتّى مات. ووقف الحسين على القاسم فقال: عَزَّ على عمّك أن تَدْعُوَه فلا يُجيبُك، أو

---

١ .**الإرشاد** ٢: ١١٠.

٢ .**اللهوف**: ٧٢. (طبعة السيّد محمّد الصحفيّ).

٣ .انظر: **رسالة تسمية من قُتل مع الحسين** عليه السلام، مجلّة **تراثنا**، العدد ٢: ص ١٥٠.

٤ .أو كما جاء في موضع آخر من طبقات ابن سعد نفسه، وأيضاً **مقاتل الطالبيّين**: ٨٨، **والأخبار الطوال**: ٢٥٧: عمرو بن سعيد [سعد] الأزديّ [الأسديّ].

يُجيبُك فلا ينفعُك... ثمّ أمر به فحُمِل... حتّى وُضِع مع عليّ بن الحسين [الأكبر]»[١]. ونقل أبومخنف خبر شهادة القاسم عن حُمَيد بن مُسلم الأَزديّ بنحوٍ أكثر تفصيلًا[٢]، فقال: «خرج إلينا غلام كأنّ وجهه شقّة قمر، في يده السيف، عليه قميصٌ و إزارٌ ونعلان، قد انقطع شِسْعُ أحدهما، ما أنسى أنّها اليسرى، فقال لي عمرو ابن سعد بن نُفَيل الأزديّ: والله لأَشُدّنّ عليه؛ فقلتُ له: سبحانَ الله ! وما تُريده إلى ذلك ؟! يكفيك قتلُ هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم؛ قال: فقال: والله لَأَشدّنّ عليه؛ فشدّ عليه فما ولّى حتّى ضرب رأسَه بالسيف، فوقع الغلامُ لوجهه، فقال: يا عمّاه! قال: فجلّى الحسينُ كما يجلّى الصقر، ثمّ شدّ شدّة ليثٍ غُضُبٍ، فضرب عَمْراً بالسيف، فاتّقاه بالساعد، فأطنّها من لدن المرفق، فصاح، ثمّ تنحّى عنه، وحملتْ خيلٌ لأهل الكوفة ليستنقذوا عَمراً من حسين، فاستقبلت عَمراً بصدورها، فحرّكت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه، فوطئَتْه حتّى مات. وانجلت الغبرة، فإذا أنا بالحسين قائمٌ على رأس الغلام، والغلامُ يَفحص برجلَيه؛ وحسينٌ يقول: بُعْداً لقومٍ قتلوك؛ ومَن خَصمُهم يومَ القيامة فيك جدُّك! ثمّ قال: عزَّ والله على عمّك أن تَدْعُوَه فلا يُجيبُك، أو يُجيبَك ثمّ لاينفعُك!... ثمّ احتمله، فكأنّي أنظر إلى رِجلَي الغلام يَخطّانِ في الأرض، وقد وضع حسينٌ صدرَه على صدره؛ قال: فقلتُ في نفسي: ما يصنع به! فجاء به حتّى ألقاه مع ابنه عليّ بن الحسين وقَتلى قد قُتلتْ حولَه من أهل بيته، فسألتُ عن الغلام، فقيل: هو القاسمُ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب»[٣].

---

١ .هذا القسم في الطبقات، بل في مصادر كثيرة، مُبهم ولا يُفهَم. و إذا ضممنا هذا النصّ إلى ما ذكره البلاذريّ (أنساب ٣: ٢٠١) والطبريّ (٥: ٤٤٧)، يتبيّن تقريباً ما أوردناه هنا.

٢ .**ترجمة الإمام الحسين**عليه السلام: ٧٤؛ **الإرشاد** ٢: ١٨٠ .

٣ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٤٧ ـ ٤٤٨؛ **مقاتل الطالبيّين**: ٩٢ ـ ٩٣ نفس رواية أبي مخنف عن طريق عمرِبن

١٣- عَون بن عبد الله بن جعفر: قتله عبدُ الله بن قُطْبة الطائيّ، ذكر ذلك البلاذريّ،[١] فيما ذكر الدينوريّ عَدِيّ [عون] بن عبد الله بن جعفر الذي قتله عمرُو ابن نَهْشَل[٢]. وأمّ عون في خبرٍ هي جمانة بنت المسيّب بن نجبة الفَزاريّ[٣]، وفي خبر آخر: هي زينب عليها السلام بنت عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٤]، وهو الصحيح، إذ محمّد بن عبد الله بن جعفر أخوه لأبيه أمُّه الخوصاء.

١٤- محمّد بن عبد الله بن جعفر: قتله عامر بن نهشل التميميّ[٥]، قال ابن سعد: «وقد كان ابنا عبد الله بن جعفر لجآ إلى امرأة عبد الله بن قطبة الطائيّ ثمّ النبهانيّ، وكانا غلامين لم يبلغا، وقد كان عمر بن سعد أمر منادياً فنادى: مَن جاء برأسٍ فله ألف درهم. فجاء ابن قطبة إلى منزله، فقالت له امرأته: إنّ غلامين لجآ إلينا فهل لك أن تشرف بهما فتبعث بهما إلى أهلهما بالمدينة؟ قال: نعم أرِنيهُما. فلمّا رآهما ذبحهما، وجاء برؤوسهما إلى عبيد الله بن زياد فلم يُعطه شيئاً، (وفي خبر البلاذريّ: أنّه أمر بهدم داره)»[٦]، وهذه القصّة هي التي رواها الشيخ الصدوق لِابْنَيْ مسلم بن عقيل. ونقل البلاذريّ مُختصَراً في سطرين، في روايةٍ أُخرى، خبرَ هذين الصبيّين اللَّذينِ نسبهما إلى عبد الله بن جعفر، كالذي نقله ابن سعد[٧].

سعد.

١ .أنساب الأشراف ٣: ٢٠٠.

٢ .نفسه.

٣ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٦٩. لم يذكر المؤلّف هذا المصدر في كتابه وإنّما ذكر المقاتل مكانه، ثمّ أخبرني به. المترجم.

٤ .مقاتل الطالبيّين: ٩٥.

٥ .انظر: أنساب الأشراف ٣: ٢٠٠. أمّه الخَوصاء بنت خصفة بن ثقيف (من قبيلة بكر بن وائل). تاريخ الطبريّ ٥: ٤٦٩؛ مقاتل الطالبيّين: ٥٩.

٦ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٧.

٧ .أنساب الأشراف ٣: ٢٢٦.

١٥- مسلم بن عقيل بن أبي طالب: مبعوث الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، قتله عبيد الله بن زياد في الثامن من ذي الحجّة سنة ٦٠هـ.

١٦- جعفر بن عقيل: قتله بِشر بن حَوْط الهَمْداني، أو عروة بن عبد الله الخَثْعمي، وذهب البلاذريّ إلى أنّ الأخير (الخثعميّ) هو الذي قتله[١]. وقال الدينوريّ أيضاً: رماه عروة بن عبد الله الخثعميّ[٢] بسهمٍ فقتله[٣]، وهو مرويٌّ عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً[٤].

١٧- عبد الرحمان بن عقيل: قتله عثمان بن خالد بن أسير الجُهنيّ وبِشْر [بشير] ابن حَوْط القايضيّ، واسم قاتله في أنساب الأشراف: نَشْر بن شَوْط العثمانيّ![٥]

١٨- عبد الله الأكبر بن عقيل: قتله عَمرو بن صَبْح الصَدائيّ، وذهب المدائنيّ إلى أنّ قاتله هو عثمان بن خالد الجُهنيّ، ورجلٌ من هَمْدان[٦].

١٩- عبد الله بن مسلم بن عقيل:[٧] قتله عَمْرو بن صبح (صبيح) الصدائيّ، أو أُسَيد بن مالك الحضرميّ، وهذا هو كلام ابن سعد، في حين قال البلاذريّ والدينوريّ: «ورمى عَمْرُو بن صَبيح الصيداويّ (انظر إلى التفاوت في اسم أبيه ولقبه) عبدَ الله بن مسلم بن عقيل، واعْتَوَره الناسُ فقتلوه»[٨].

---

١ .نفسه ٣: ٢٠٠.

٢ .ذكر المؤلّف أنّه عبد الله بن عروة، والصحيح هو عروة بن عبد الله. المترجم.

٣ .**الأخبار الطوال**: ٢٥٧.

٤ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩٧.

٥ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٠.

٦ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩٧.

٧ .لم يرد اسم «مسلم» في الطبقات، بل وَرَدَ فيه: عبد الله بن عقيل الآخر! وأمّه رقيّة بنت الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٩.

٨ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٠؛ **الأخبار الطوال**: ٢٥٧.

وقال أبومخنف بعد شهادة عليّ الأكبر: «ثمّ إنّ عمرَو بن صبيح الصدائيّ رمى عبدَ الله بن مسلم بن عقيل بسهمٍ فوضع كفّه على جبهته، فأخذ لايستطيع أن يحرّك كفَّيه، ثمّ انتحى له بسهم آخر ففلق قلبَه»![1] وذكر البلاذريّ رقاد الجَنْبيّ أنّه كان يقول: «رميتُ فتىً مِن آل الحسين ويدُه على جبهته، فأثبتُّها فيها، وجعلت أُنَضْنِض سَهْمي حتّى نزعتُه مِن جبهته، وبقي النَّصلُ فيها»[2] !!

٢٠- محمّد بن أبي سعيد بن عقيل: قتله لقيط بن ياسر الجُهَنيّ، وذهب الدينوريّ إلى أنّ اسمه محمّد بن عقيل بن أبي طالب، رماه لقيطُ بن ناشر الجُهنيّ بسهمٍ فقتله[3].

٢١- رجلٌ من آل أبي لهب: وهو هاشميٌّ طبعاً، ولم يُسَمَّ شخصه.

٢٢- أبوالهَيّاج من أحفاد أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، وكان شاعراً، استُشهد في كربلاء.

٢٣- سليمان مولى الإمام الحسين عليه السلام: قتله سليمان بن عوف الحَضْرميّ، وقد تقدّم أنّه هو الذي أخذ كتابَ الإمام الحسين عليه السلام إلى شيعة البصرة، وقُتِل هناك بأمر ابن زياد.

٢٤- مَنْجَحْ (أو مُنْجِح)[4]، مولى الإمام الحسين.

٢٥- عبد الله بن بُقْطُر أخو الإمام الحسين عليه السلام من الرضاعة: رُمِيَ به من فوق القصر بالكوفة، فاستُشهِد[5].

---

١ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٤٧.

٢ .أنساب الأشراف ٣: ٢٠٠.

٣ .الأخبار الطوال: ٢٥٧.

٤ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٦٩.

٥ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام ٧٥ ـ ٧٧.

هذه أسماء الذين ذكرهم ابن سعد، أمّا بقيّة الأسماء الأخرى فهي:

٢٦- عبيد الله بن عبد الله بن جعفر: نقل أبوالفرج الأصفهانيّ عن النسّابة المعروف يحيى بن الحسن العلويّ أنّه قال: «قُتِل مع الحسين عليه السلام بالطَّف»[١].

٢٧- محمّد بن مسلم بن عقيل: روى أبوالفرج الأصفهانيّ عن الإمام الباقر عليه السلام: أنّ قاتلَيه هما: أبوجرهم الأَزْديّ ولقيطُ بن إياس الجُهَنيّ[٢].

٢٨- عليّ بن عقيل بن أبي طالب: ذكر أبوالفرج روايةً في شهادته بكربلاء[٣]، كما نقل في موضعٍ آخرعن محمّد بن عليّ بن حمزة أنّ إبراهيم بن عليّ بن أبي طالب قُتِل بكربلاء، وأضاف قائلًا: «وما سمعتُ بهذا من غيره، ولا رأيتُ لإبراهيم في شيءٍ من كتب الأنساب ذِكْراً»[٤].

٢٩- عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب: نقل خليفة بن خيّاط عن «أبي الحسن» أنّه قُتِل مع الحسين عليه السلام بكربلاء، وأمُّه الرباب بنت امرئ القيس.[٥] وقيل: هذا وَهْمٌ؛ لأنّه قتَلَه أصحابُ المختار يومَ المذار![٦]

٣٠- أبوبكربن القاسم بن الحسين بن عليّ: عَدَّهُ خليفة بن خيّاط في قتلى كربلاء[٧].

وذكرابن أعثم أسماءَ الشهداء من أهل البيت عليهم السلام، وبَيّن شهادتهم بالترتيب،

١ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩٦.

٢ .نفسه: ٩٧.

٣ .نفسه: ٩٨.

٤ .نفسه: ٩١ ـ ٩٢.

٥ .**تاريخ خليفة بن خيّاط** ١: ٢٢٥.

٦ .انظر **بحار الأنوار** ٤٥: ٣٥.

٧ .**تاريخ خليفة بن خيّاط** ١: ٢٢٥. هذا هو المصدر الصحيح، لا كما ذكره المؤلّف أنّه **بحار الأنوار**. المترجم.

وأورد لكلٍّ منهم رَجَزاً، فكتابه من هذه الوجهة يتميّز عن غيره من المصادر. ومعظم الشعر الذي كان يرتجزون به يُعرِّف نَسَبَهم وأُسرَهم، ويدور أيضاً حول الإمام الحسين عليه السلام وشخصيّته[١]. وقد رويت هذه الأشعار وتلك الأراجيز وشاعت في زِمن واقعة كربلاء، فصارت جزءاً من النصوص التاريخيّة.

أمّا الناجون من أهل البيت يوم كربلاء، فهم على ما نقل ابن سعد كالآتي:

عليّ بن الحسين[٢]: وهو الإمام السجّاد عليه السلام الذي بقيَ منه نسل الإمام الحسين عليه السلام، وكان مريضاً طريحاً في خيمةٍ قريبة من النساء يوم كربلاء، وكانت امرأته «أمّ محمّد» بنت الإمام الحسن عليه السلام في ركب الإمام الحسين عليه السلام أيضاً.[٣] وكان الإمام السجّاد عليه السلام يُرْعى ويُمَرَّض، فقال شمر بن ذي الجوشن الملعون مشيراً إليه عليه السلام: «أُقتلُوا هذا! فقال له رجل من أصحابه: سبحانَ الله ! أتقتل فتىً حدثاً مريضاً لم يقاتل؟! وجاء عمر بن سعد فقال: لاتعرضوا لهؤلاء النسوة ولا لهذا المريض. قال عليّ بن الحسين: فغَيَّبني رجلٌ منهم وأكرم نَزْلي واحتضنني، وجعل يبكي كلّما خرج ودخل، حتّى كنتُ أقول: إن يكن عندَ أحدٍ من الناس وفاءٌ فعند هذا، إلى أن نادى منادي ابن زياد: ألا مَن وجَدَ عليَّ بن حسين فليأتِ به؛ فقد جعلنا فيه ثلاثَمائة درهم. قال: فدخل والله عليّ وهو يبكي، وجعل يربط يدي إلى عنقي! وهو يقول: أخاف! فأخرَجَني والله إليهم مربوطاً حتّى دفعني إليهم، وأخذ ثلاثَمائة درهم، وأنا أنظرُ إليها»[٤].

---

١. الفتوح ٥: ٢٠٢ـ ٢٠٨.

٢. على ما جاء في المصادر القديمة، كان للإمام الحسين عليه السلام ابنان باسم عليّ: أحدهما عليّ الأكبر الذي استُشهد؛ والآخر عليّ الأصغر وهو الإمام السجّاد عليه السلام. أمّا اسم الطفل الذي استشهد بكربلاء - كما نُقِل في موضعه، في المصادر القديمة الموثّقة - فهو عبد الله.

٣. **ترجمة الإمام الحسين عليه السلام**: ٧٨.

٤. نفسه: ٧٨ـ ٧٩.

الحسن بن الحسن بن عليّ: وله بقيّةٌ [أي عَقَب، من نسله].

عَمرو بن الحسن بن عليّ، ولا بقيّة له [أي لا نسل له].

القاسم بن عبد الله بن جعفر.

محمّد بن عقيل الأصغر.

شهادة الإمام الحسين عليه السلام

لمّا قُتِل جميع أصحاب الإمام عليه السلام وأهل بيته، عَزَمَ العدوّ على قتله عليه السلام، ولم يَجْرُؤ أحدٌ على الاقتراب منه حتّى هذه الساعة؛ لأنّ كثيراً من أهل الكوفة لم يرغبوا في أن يُعرَفوا بأنّهم قتَلَةُ الإمام الحسين عليه السلام. فلمّا كان في الجيش الأمويّ أمثال أَنَس الألوث المجنون، وشمر الرِّجس الدنِس، وخولّى اللئيم الخبيث، إذاً لم يكن للآخرين دور! وننقل فيما يأتي عدداً من الأخبار في هذا المجال:

قال ابن سعد: «وعطش الحسينُ فاستسقى، - لم أجدها في الأصل - فجاءه رجل بماء فتناوله ليشرب، فرماه حُصينُ بن تميم بسهمٍ فوقع في فيه، فجعل يتلقّى الدم بيده ويَحمَدُ الله. وتوجّه نحو المسنّاة يريد الفرات، فقال رجلٌ من بني أبان بن دارِم: حُولوا بينه وبين الماء، فعرضوا فحالوا بينه وبين الماء وهو أمامهم، فقال حسين: اللّهمَّ أَظْمِئْه. ورماه الأبانيّ بسهمٍ فأثبته في حنكه، فانتزع السهم وتلقّى الدم فملأ كفَّه، وقال: اللّهمّ إنّي أشكُو إليك ما فَعَل هؤلاء! فما لبث الأبانيّ إلّا قليلًا حتّى رُئي و إنّه لَيُؤتى بالقُلّة [الجرّة العظيمة أو الكوز الصغير] أو العُسّ [القدح أو الإناء الكبير] إن كان لَيَروي عدّةً فيشربه، فإذا نزعه عن فيه قال: اسقُوني فقد قتلني العطش!! فما زال بذلك حتّى مات»![1] ونقل البلاذريّ خبر وقوع السهم في فم الإمام عليه السلام، وأضاف: أنّه عليه السلام رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهمّ إنّي أشكُو إليك ما

---

۱. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٠.

يُفعَل بي[١]. وأضاف ابن سعد قائلًا: «فلمّا قُتِل أصحابه وأهل بيته، بقي الحسين عامّةَ النهار لا يقدم عليه أحد إلّا انصرف، حتّى أحاطت به الرجّالة، فما رأينا مَكْسُوراً قطُّ أربطَ جأشاً منه، إن كان لَيُقاتلهم قتالَ الفارس الشجاع، وإن كان لَيشدُّ عليهم فينكشفون عنه انكشافَ المِعزى [إذا] شدّ فيها الأسد»[٢].

وتابع ابن سعد كلامه قائلًا: «فمكث مَلِيّاً من النهار والناسُ يتدافعونه ويكرهون الإقدام عليه، (قال الدينوريّ: وبقيَ الحسين عليه السلام مَليّاً جالساً، ولو شاؤوا أن يقتلوه قتلوه، غيرَ أن كلَّ قبيلة كانت تتّكل على غيرها، وتكره الإقدامَ على قتله)[٣]. فصاح بهم شمر بن ذي الجوشن: «ثكلَتْكُم أُمّهاتكم! ماذا تنتظرون به؟ أقدموا عليه! فكان أوّل من انتهى إليه زُرعة بن شُرَيك التميميّ فضرب كتفَه اليسرى، وضربه حسينٌ على عاتقه فصرعه. وبرز له سِنانُ بن أنس النَّخعيّ فطعنه في ترقوته، ثمّ انتزع الرمح فطعنه في بواني صدره، فخرّ الحسين صريعاً، ثمّ نزل إليه ليحتزّ رأسه، ونزل معه خُولّى بن يزيد الأصبحيّ فاحتزّ رأسه، ثمّ أتى به عبيدَ الله بن زياد»[٤]!

وقال في موضع آخر: «قتله سنان بن أنس النخعيّ، واحتزّ خولّى بن يزيد رأسه»[٥]! وقال الشيخ المفيد: «...فضرَبه زُرْعةُ بن شريك على كفّه [كتفه] اليُسرى فقطعها، وضربه آخرُ منهم على عاتقه فكَبا منها لوجهه، وطعنه سِنان بنُ أَنسٍ بالرمح فصرعه، وبدر إليه خُولّى بنُ يزيد الأَصبحيّ لعنه الله فنزل ليحتزّ رأسه فأُرعِدَ... ونزل شمرٌ إليه فذبحه!!! ثمّ دفع رأسه إلى خولّى بن يزيد فقال: احملْه إلى الأمير عمر بن

١ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠١.

٢ .قال ابن سعد في موضعٍ آخر: «... وحسينٌ عليه عمامةٌ سوداء وهو مُختَضِب بسوادٍ يقاتل قتال الفارس الشجاع». **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٣.

٣ .**الأخبار الطوال**: ٢٥٨.

٤ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٥.

٥ .نفسه؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢١٨.

سعد»[1]. وقال ابن سعد: «ووجدوا بالحسين ثلاثاً وثلاثين جراحة، ووجدوا في ثوبه مائةً وبضعةَ عشرَ خرقاً من السهام وأثرِ الضرب»!![2] وقال أيضاً: «ولمّا قُتل الحسين رضي الله عنه انتُهِب ثَقَلُه، فأخذ سيفَه القلافس النهشليّ، وأخذ سيفاً آخر جُميعُ ابن الخلق الأوديّ، وأخذ سراويلَه بحرُ الملعون بن كعب التميميّ، فتركه مجرّداً! وأخذ قطيفتَه قيسُ بن الأشعث بن قيس الكِنديّ، فكان يُقال له: قيس قطيفة! وأخذ نعلَيه الأسودُ بن خالد الأوديّ، وأخذ عمامتَه جابرُ بن يزيد، وأخذ بُرنسَه - وكان من خَزّ - مالكُ بن بشير الكِنديّ»[3].

وأورد البلاذريّ خبر مقتل الإمام عليه السلام قائلًا[4]: لمّا مُنِع الإمام عليه السلام من ماء الفرات، ورُمِيَ بسهمٍ في فَمه (وفي خبر الدينوريّ، رُمِيَ بسهمٍ في عاتقه، ونزعه الإمام عليه السلام)[5]، أقبل شمر بن ذي الجوشن في عشرةٍ أو نحوهم من رجال أهل الكوفةِ قِبَلَ منزل (خيمة) الحسين الذي فيه ثقله وعياله، فمشى [الحسين] نحوهم فحالوا بينه وبين رحله، فقال لهم: وَيْحَكُم! إنْ لم يكن لكم دِين، فكونوا في أمرِ دُنياكم أحراراً، امنعوا أهلي من طُغامكم وسفهائكم! فقال له شمر: ذاك لك يا ابنَ فاطمة. وأقدمَ عليه بالرجّالة، منهم: أبو الجنوب عبد الرحمان بن زياد بن زهير الجعفيّ، وخولّى بن يزيد الأصبحيّ، والقشعم بن عمرو بن نذير الجُعفيّ - وكان فيمن اعتزل عليّاً - وصالح ابن وهب اليزنيّ، وسنان بن أنس النخعيّ، فجعل شمر يحرّضهم عليه، فقال لأبي الجنوب: أَقْدِم على حسين، فقال له: وما يمنعك أنت من ذلك؟ قال: ألي تقول

---

١ ـ **الإرشاد** ٢: ١١٢.

٢ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٥.

٣ ـ نفسه: ٧٨. والبرنُس: كلّ ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متّصلًا به.

٤ ـ خبره قريب من خبر أبي مخنف الوارد في **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٠ ـ ٤٥١. ويمكن أن نقول: إنّه مأخوذٌ منه وإن كان فيه اختلاف يسير.

٥ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٥٨.

هذا؟! فقال له أبو الجنوب: هممتُ أن أخضخض سناني في عينك! وانصرف عنه شمر، وكان أبو الجنوب شجاعاً مقداماً، ثمّ إنّ شمراً أقبل في خمسين من الرجّالة، فأخذ الحسينُ يشدّ عليهم فينكشفون عنه، حتّى إذا أحاطوا به فضاربهم حتّى كشفهم عن نفسه، وشدّ بحر[أبجر][1] بن كعب بن عبيد الله على الحسين، فلمّا أهوى إليه بالسيف، غدا غلامٌ ممّن كان مع الحسين إلى الحسين، فضمّه الحسين إليه، فقال الغلام لبحر بن كعب: يا ابن الخبيثة! أتقتل عمّي؟! فضربه اللّعين بالسيف، فاتّقاه الغلام بيده فعلّقها بجِلدةٍ منها. ولمّا بقي الحسين في ثلاثة نفرٍ أو أربعة، دعا بسراويلَ محشوّة، فلبسها! فذكروا أن بحر بن كعب التميميّ سلبه إيّاها حين قُتل، فكانت يداه في الشتاء تنضحان الماء وفي الصيف تيبسان فكأنّهما عودان! وكان الحسين يحمل على الرجّالة عن يمينه وشماله حتّى انذعروا [فزعوا]، وعليه قميص من خزّ أو جبّة، وهو معتمّ... فما رأى الناس أربط جأشاً ولا أمضى جَناناً منه، كانوا ينكشفون عنه انكشاف المِعزى إذا شدّ فيها الذئب! ومكث الحسين طويلًا، كلّما انتهى إليه رجل فأمكنه قتلُه انصرف عنه كراهة أن يَتولّى قتلَه! ثمّ إنّ رجلًا: يقال له: مالك بن النسير الكِنديّ - وكان فاتكاً لايبالي على ما أقدم - أتاه فضربه على رأسه بالسيف وعليه بُرنس، فقُطع البرنس، وأصاب السيف رأسه، فأدماه حتّى امتلأ البُرنسُ دماً، فألقى الحسين البُرنس ودعا بقلنسوة فلبسها، وقال للرجل: لا أكلتَ بها ولا شَرِبت، وحشَرَكَ الله مع الظالمين! وأخذ الكنديّ البرنس فيقال: إنّه لم يزل فقيراً، وشُلّت يداه! وقالت زينب بنت عليّ لعمر بن سعد: يا عمر! أيُقتَل أبو عبد الله وأنت تنظر؟! فبكى عمر وانصرف بوجهه عنها. ونادى شمر في الناس: ويلكم! ما بالُكم تحيدون عن هذا الرجل؟! ما تنتظرون؟! اقتلوه

---

١ ـ الإرشاد ٢: ١١٠.

ثكلتكُم أمّهاتُكم! فحملوا عليه مِن كلّ جانب... فضربه زُرعة بن شريك التميميّ على كفّه [كتفه] اليسرى، وضُرِب على عاتقه، ثمّ انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو.. وحمل عليه - وهو في تلك الحال - سنانُ بن أنس بن عمرو النخعيّ، فطعنه بالرمح، فوقع! ثمّ قال سنان لخولّى بن يزيد الأصبحيّ: احتزّ رأسه! فأراد خولّى أن يفعل فضعف وأُرعِد، فقال له سنان: فَتَّ الله في عَضُدك وأبان يدَك! ونزل إليه فذبحه، ثمّ دفع رأسه إلى خولّى!!! (قال الدينوريّ: ونزل إليه خولّى بن يزيد الأصبحيّ ليحزّ رأسه، فأُرعِدت يداه! فنزل أخوه شبل بن يزيد، فاحتزّ رأسه، فدفعه إلى أخيه خولّى [حولّى])[1]. وكان الحسين عليه السلام قد ضُرب قبل ذلك بالسيوف، وطُعِن بالرماح، فوُجِد به ثلاثٌ وثلاثون طعنةً، وأربعٌ وثلاثون ضربةً... ويُقال: إنّ خولّى بن يزيد هو الذي تولّى احتزاز رأسه بإذن سِنان»[2].

وتختلف رواية ابن أعثم حول شهادة الإمام عليه السلام من غيره قَدْراً ما، ولم ترد موضوعاتها في المصادر القديمة الأخرى، فذكر أنّ الإمام عليه السلام تقدّم إلى ساحة القتال بعد شهادة صحبه وأهل بيته، وارتجز بأبيات عرّف فيها آله وأُسرته، وأكّد الإسلامَ والوحيَ والتشيّع، فقال:

أنا ابنُ عليّ الخيرِ مِن آلِ هاشمٍ ... كَفاني بهذا مَفْخَراً حينَ أَفْخَرُ
وجَدّي رسولُ الله أكرمُ مَن مشى ... ونحنُ سِراجُ الله في الخَلْقِ أَزهَرُ
وفاطمةٌ أُمّي سُلالةُ أحمدٍ ... وعمّيَ يُدْعى ذَا الجَناحينِ جعفرُ
وفينا كتابُ الله أُنزِلَ صادقاً ... وفينا الهدى والوَحْيُ والخيرُ يُذكَرُ
ونحنُ أَمانُ الأرضِ لِلناسِ كُلِّهِمْ ... نَصولُ بِهذا في الأنامِ ونَفْخَرُ
ونحن ولاةُ الحَوضِ نَسقي ولاتَنا ... بكأسِ رسولِ الله ما ليس يُنكَرُ

---

١ ـ الأخبار الطوال: ٢٥٨.

٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

وشـيعتُنا فـي النـاس أكـرم شـيعةٍ ومُبغضُـنا يـومَ القيامـة يَخْسَـرُ

إنّ الألفاظ الواردة في هذه الأبيات يمكن أن تكون مرتبطةً بذلك الزمن، فلا مجال لاحتمال أن تكون قد أُنشئت متأخّرةً، وأنّها تُمَثِّل لسانُ حالٍ. وقال ابن أعثم: «ثمّ إنّه [الحسين عليه السلام] دعا إلى البراز، فلم يزل يقتل كلَّ مَن خرج إليه من عيون الرجال، حتّى قتل منهم مقتلةً عظيمة، وتقدّم شمر بن ذي الجوشن في قبيلة عظيمة (وكان قدومه مع عدد من الرجّالة، وجاء في المصادر الأخرى)، فقاتلهم الحسين بأجمعهم وقاتلوه، حتّى حالوا بينه وبين رحله، قال: فصاح بهم الحسين رضي الله عنه: وَيْحَكُم يا شيعةَ آل أبي سفيان! إن لم يكن [لكُم] دِين، وكنتم لاتخافون المَعاد، فكونوا أحراراً في دُنياكُم، وارجِعُوا إلى أحسابِكُم إن كنتُم عُرُباً كما تَزْعمون! فناداه الشمر بن ذي الجوشن - لعنه الله -: ماذا تقول يا حسين؟! قال: أقول: أنا الذي أُقاتلكم وتقاتلوني، والنساءُ ليس لكم عليهنّ جُناح، فامنعوا عُتاتَكم وطُغاتكم وجهّالكم عن التعرّض لحرمي ما دُمتُ حيّاً! فقال الشمر: لك ذلك يا ابنَ فاطمة. قال: ثمّ صاح الشمر بأصحابه وقال: إليكم عن حريم الرجل واقصدوه في نفسه، فلَعَمْري إنّه لكفؤٌ كريم. فحمل عليه القوم بالحرب؛ فلم يزل يحمل عليهم ويحملون عليه، وهو في ذلك يطلب الماء ليشرب منه شربة، فكلّما حمل بنفسه إلى الفرات حملوا عليه حتّى أحالوه عن الماء، ثمّ رماه رجل منهم يُكنّى أبا الجنوب الجعفيّ بسهم فوقع السهم في جبهته، فنزع الحسين السهم فرمى به وسالت الدماء على وجهه ولحيته، فقال الحسين رضي الله عنه: اللّهمّ إنّك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العُصاةِ الطُّغاة، اللّهمّ فأحصِهِم عدداً، واقتلهم مدداً، ولا تَذَرْ على وجه الأرض منهم أحداً، ولا تَغفرْ لهم أبداً. ثمّ حمل عليهم كاللّيث المغضب، فجعل لا يلحق منهم أحداً إلّا لفحه بسيفه لفحةً ألحقه بالأرض، والسهامُ تقصده من كلِّ ناحية وهو يتلقّاها بصدره ونحره وهو يقول: يا أُمّةَ السُّوء! فبئس ما أَخْلَفْتُم

محمّداً في أُمّته وعترته، أما إنّكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتأهبوا قتلَه، بل يهون عليكم عند قتلكم إيّاي. وأيمُ الله ! إنّي لَأرجوأن يُكرمني الله بهوانكم، ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لاتشعرون. فصاح به الحصين بن نمير السكونيّ فقال: يا ابنَ فاطمة، وبماذا ينتقم لك منّا؟ قال: يُلقي بأسَكم بينكم، ويَسفك دماءكم، ثمّ يصبُّ عليكم العذابَ صَبّاً! فصاح الشمربن ذي الجوشن - لعنه الله - بأصحابه، فقال: ما وقوفُكم! وماذا تنتظرون بالرجل وقد أوثقته السهام؟! احملوا عليه، ثكلتكم أمّهاتُكم! فحملوا عليه مِن كلّ جانب، وأوثقته الجراح بالسيوف... فضربه رجل يقال له: زُرعة بن شريك التميميّ - لعنه الله - ضربة على يده اليسرى، وضربه عمرو ابن طلحة الجعفيّ - لعنه الله - على حبل عاتقه من ورائه ضربةً منكرة، ورماه سنان ابن أنس النَّخعيّ - لعنه الله - بسهمٍ فوقع السهم في نحره، وطعنه صالح بن وهب اليزنيّ - لعنه الله - طعنةً في خاصرته، فسقط الحسين رضي الله عنه عن فرسه إلى الأرض واستوى قاعداً، ونزع السهم من نحره، وأقرن كفَّيه، فكلّما امتلأتا مِن دمه خضّب به رأسه ولحيته وهويقول: هكذا حتّى ألقى ربّي بدمي مغصوباً على حقّي! وأقبل عمر بن سعد حتّى وقف عليه وقال لأصحابه: انزلوا إليه فخذوا رأسَه! قال: فنزل إليه نصربن خرشبة الضَّبابيّ - لعنه الله - وكان أبرص، فضربه برجله فألقاه على قَفاه، ثمّ أخذ بلحيته، فقال له الحسين: أنت الأبقعُ الذي رأيتُك في منامي، قال: أوَ تُشبّهني بالكلاب يا ابن فاطمة! ثمّ جعل يضرب بسيفه - لعنه الله - على مذبح الحسين [وأنشد شعراً]! فغضب عمربن سعد، ثمّ قال لرجل: انزل أنت إلى الحسين فأَرِحْه! فنزل إليه خولّى بن يزيد الأصبحيّ - لعنه الله - فاحتزّرأسه. وتقدّم إليه رجل من بني تميم يقال له: الأسود بن حنظلة - لعنه الله - فأخذ سيفه، وتقدّم إليه جعفربن الوبر الحضرميّ - لعنه الله - فأخذ قميصه، فلبسه فصار أبرصَ وأسقط

شعره، وأخذ سراويلَه يحيى بن عمرو الحرميّ فلبسه فصار زَمِناً مُقْعَداً من رجلَيه، وأخذ عمامتَه جابرُبن زيد الأَزْديّ فاعتمّ بها فصار مجذوماً، وأخذ درعَه مالكُ بن بِشر الكِنديّ فلبسه فصار معتوهاً! وارتفعت في ذلك الوقت غُبرةٌ شديدةٌ سوداءُ مظلمة، فيها ريح حمراء لا يُرى فيها أثرعين ولا قدم، حتّى ظنّ القوم أن قد نزل بهم العذاب، فبقَوا كذلك ساعة، ثمّ انجلت عنهم. وأقبل بعد ذلك فرس الحسين، وكان قبل ذلك غار من بين أيديهم أن لا يُؤخَذ، فوضع رأسَه في دم الحسين رضي الله عنه وأقبل يركض إلى خيمة النساء وهو يصهل! فلمّا نظرن أخوات الحسين إليه وبناته وأهل بيته رضوان الله عليهنّ إلى الفرس وليس عليه أحد رفعوا أصواتهم بالصراخ والعويل، وأقبل القوم حتّى أحدقوا بالخيمة، وأقبل الشمربن ذي الجوشن - لعنه الله - حتّى وقف قريباً من خيمة النساء فقال لقومه: ادخلوا فاسلبوا بِزيّهِنّ! قال: فدخل القوم فأخذوا كلَّ ما كان في الخيمة، حتّى أفضوا إلى قُرطٍ كان في أُذن أمّ كلثوم رضي الله عنها فأخذوه وخرموا أُذُنَها، وخرج القوم من الخيمة وأضرموها بالنار»[1]. ونُقل عن حميد بن مسلم الأَزديّ أنّه شَهِد سلب النساء... فصاح عمربن سعد: لايدخلْ أحدٌ منكم بيوت هؤلاء النسوة... مَن أخذ مِن متاعهنّ شيئاً فَلْيَردّه عليهنّ. فوالله ما ردّ أحدٌ منهم شيئاً، فوكّل بالفسطاط وبيوت النساء وعليّ بن الحسين مَن يحفظهم، ويمنع مَن يريد الإساءة إليهم[2].

العدوّ ينهب وأهل البيت عليهم السلام سبايا!

قال البلاذريّ: وسُلب الحسين ما كان عليه!!! فأخذ قيس بن الأشعث بن قيس الكنديّ قطيفةً له - وكانت من خَزّ- فسُمّي: «قيس قطيفة»، وأخذ نعلَيه رجلٌ من

---

١ ـ **الفتوح** ٥: ٢١٣ ـ ٢٢٠.

٢ ـ **الإرشاد** ٢: ١١٢ ـ ١١٣.

بني أود يقال له: الأسود؛ وأخذ سيفَهُ رجلٌ من بني نَهْشل بن دارِم، ومال الناس على الورس والحُلل والإبل فانتهبوها، وأخذ الرحيل [!] بن زهير الجُعفيّ وجرير بن مسعود الحضرميّ وأسيد بن مالك الحضرميّ أكثرَ تلك الحُلل والورس. وأخذ أبو الجنوب الجعفيّ ـ لعنه الله ـ جملًا، وكان يستقي عليه الماء وسمّاه بِاسمٍ مقدَّس!!! وجاذبوا النساء ملاحفَهنّ عن ظهورهنّ! فمنع عمر بن سعد من ذلك فأمسكوا. (قال ابن سعد: وأخذ رجلٌ من أهل العراق حِليّ فاطمة بنت حسين وهو يبكي! فقالت: لِمَ تبكي؟ فقال: أسلب ابنةَ رسول الله ولا أبكي؟! فقالت: دَعْه، قال: إنّي أخاف أن يأخذه غيري!)[1]. (ونقل الشيخ المفيد أنّ أبجر بن كعب كان ممّن ضرب الإمام عليه السلام بالسيف مرّات، وسلبَه سراويله بعد شهادته عليه السلام)[2]. ونادى عمر بن سعد في أصحابه: من ينتدب للحسين فيُوطئه فرسَه!!!. فانتدب عشرةٌ منهم... فداسوا الحسين بخيولِهم حتّى رضُّوا ظهره وصدره!!!.[3] وكان سنان بن أنس جريئاً على حرم الله، وكانت به لوثة [جُنون]. وقال هشام بن محمّد الكلبيّ: قال لي أبي محمّدُ ابن السائب: أنا رأيتُه وهو يُحْدِثُ في ثوبه، وكان هرب من المختار بن أبي عبيدة الثقفيّ إلى الجزيرة. ثمّ انصرف إلى الكوفة، فأقبل سنان حتّى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثمّ نادى بأعلى صوته:

أَوْقِرْ ركابي فضَّةً وذَهَبا ... أنا قتلتُ المَلِك المُحَجَّبا
قتلتُ خيرَ الناسِ أُمّاً وأَبا ... وخيرَهُم إذْ يُنسَبون نَسَبا[4]

---

١ ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٨.

٢ ـ الإرشاد ٢: ١١١.

٣ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

٤ ـ انظر: تاريخ الطبريّ ٥: ٤٥٤.

وخيرَهم في قومِهم مركبا[1]

فقال عمربن سعد: أشهد أنّك مجنون ما صححت قطّ، أدخِلوه إليّ! فلمّا أُدخل حذفه بالقضيب، ثمّ قال: يا مجنون! أتتكلّم بهذا الكلام؟! أمَا والله لو سَمِعك ابن زياد لَضرب عنقك... .

وقُتل من أصحاب الحسين عليه السلام اثنانِ وسبعون رجلًا،[2] وكان الهفهاف بن مهنّد الراسبيّ من شيعة البصرة، ولمّا وصل إلى كربلاء، كان الإمام الحسين عليه السلام قد استُشهد، فصار في عسكر عمربن سعد، وسلّ سيفه وحمل عليهم. ونُقل عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال: لم يشهد الناسُ... رجلًا قاتل مثلَه، وأحاط به الأعداء وقتلوه[3]... ودفن أهل الغاضريّة من بني أسد الجثمان القدسيّ للإمام الحسين [عليه السلام]، ودفنوا الأجساد الطاهرة لأصحابه رحمهم الله بعد ما قُتلوا بيوم وذلك بحضور الإمام السجّاد. وقُتِل من أصحاب عمربن سعد ثمانية وثمانون رجلًا [من قياداتهم وزعاماتهم البارزين، عدا عامّة القتلى] سوى من جُرحِ منهم، فصلّى عمرعليهم ودفنهم»[4].

وكُوفئ أهلُ الكوفة بزيادة سهمهم من بيت المال الذي كان من المحتمل أنّه جرى بأمرٍ من يزيد، فقد كتب يزيد إلى ابن زياد: أمّا بعد، فزِدْ أهلَ الكوفة أهلَ

---

١ .ذكر ابن أعثم قصّةً أُخرى حول هذا الشعر، فقال... فجاءه الرجل بالرأس، واسمه بشربن مالك، وأنشد هذه الأبيات، فقال له ابن زياد: إذا علمتَ أنّه كذلك، فلِمَ قتلتَه؟ ثمّ أمر بضرب عنقه! **الفتوح** ٥: ٢٢١ (لايمكن أن يَكون ضرب عنقه صحيحاً).

٢ .الإحصائيّات حول شهداء كربلاء متفاوتة، لكنّ للعدد «٧٢» شهرةً خاصّة. ونصّ الدينوريّ في «**الأخبار الطوال**»: ٢٥٦ على أنّ جيش الإمام عليه السلام تكوّن من اثنين وثلاثين فارساً وأربعين راجلًا. والعدد في الفهرس الذي صنّفه فضيل بن الزبير الرسّان «١٠٧» شهداء في كربلاء. انظر: **رسالة تسمية من قُتل مع الحسين** عليه السلام، مجلّة «**تُراثنا**» العدد ٢: ص١٤٩ ـ ١٥٧.

٣ .**رسالة تسمية من قتل مع الحسين** عليه السلام: ١٥٦ ـ ١٥٧.

٤ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

السمع والطاعة في أُعطياتهم مئةً مئة.[١] وتحدّثنا في موضعٍ آخر حول شيعة الكوفة، وننقل فيما يأتي خبر البلاذريّ أيضاً لارتباطه بهذا الموضوع، فقد قال: «إنّ أشياخنا من أهل الكوفة لَوقوفٌ على تلّ يبكون، ويقولون: اللّهمّ أنزِلْ عليه نصرك، فقلتُ: يا أعداءَ الله ! ألا تَنزلون فتنصرونَه»[٢]؟! وله خبرٌ رائعٌ آخر، إذ نقل فيه: أنّ رجلًا من أهل العراق سأل عبدَ الله بن عمر عن دم البعوض يُصيب المُحْرم، فقال: واعجباً مِن قومٍ يسألون عن دم البعوض وقد سَفكوا دَم ابنِ بنتِ نبيّهم؟![٣]

وقال البلاذريّ: «وبعث عمر برأس الحسين من يومه مع خولّى بن يزيد الأصبحيّ من حِمْير وحميد بن مسلم الأزديّ إلى ابن زياد، فأقبلا به ليلًا فوجدا باب القصر مغلَقاً، فأتى خولّى به منزله فوضعه تحت إجّانة[٤] في منزله، وكان في منزله امرأة يقال لها: النوار بنت مالك الحضرميّ، فقالت له: ما الخبر؟! قال: جئتُ بِغِنى الدهر! هذا رأس الحسين معكِ في الدار! فقالت: ويلك! جاء الناس بالفضّة والذهب وجئتَ برأس ابن بنت رسول الله ؟! والله لايجمع رأسي ورأسَك شيءٌ أبداً.[٥] وأقام عمر بن سعد يومَه والغد، ثمّ أمر حميد بن بكير الأحمريّ فنادى في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه أخوات الحسين وبناته ومَن كان من الصبيان، وعليّ بن الحسين الأصغر وهو عليل، فلطمن النسوة وصحن حين مَرَرْن بالحسين،

---

١ .نفسه ٣: ٢٢٠. ذهب بعض إلى أنّ هذا الكتاب كان مرتبطاً بالأحداث التي سبقت كربلاء من أجل خداع أهل الكوفة.

٢ .نفسه ٣: ٢٢٥.

٣ .نفسه ٣: ٢٢٧.

٤ .ذكر المؤلّف أنّه وضعه في تنور، والصحيح هو في إجّانة. المترجم.

٥ .ما نقله أبو مخنف من قصّة خولّى وجلبه رأس الإمام الحسين عليه السلام، وظهور النور منه في البيت أروع وأجمل. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٥. ومن الطبيعيّ أنّ فيه أشياء يجب أن تُدرّس وتُحلّل بتأمّلٍ على أيّ حال.

وجعلت العقيلة زينب بنت عليّ تقول: يا مُحمّداه! صلّى عليك مَليكُ السماء، هذا حسينٌ بالعراء، مُرمَّلٌ بالدماء، مُقَطَّعُ الأعضاء، يا محمّداه! وبناتُك سَبايا، وذُرّيّتك مُقتَّلة، تسفي عليها الصَّبا! فأبكت كلَّ عدوٍّ و وليٍّ.[١] وأضاف البلاذريّ قائلًا: «لمّا قُتِل الحسين جِيء برؤوس مَن قُتِل معه من أهل بيته وأصحابه إلى ابن زياد، فجاءت كِندة بثلاثة عشر رأساً وصاحبُهم قيسُ بن الأشعث، وجاءت هوازن بعشرين رأساً وصاحبُهم شمرُبن ذي الجوشن، وجاءت بنو تميمٍ بسبعة عشر رأساً، وجاءت بنو أسد بستّة عشر رأساً، وجاءت مذحج بسبعة أرؤس، وجاء سائر بني قيس بتسعة أرؤس».[٢] قال ابن سعد: «وأمر عبيد الله بن زياد بحبس مَن قدم به عليه من بقيّة أهل حسين معه في القصر، فقال ذكوان أبوخالد: خلِّ بيني وبين هذه الرؤوس فأدفنها، ففعل. فكفّنها ودفنها بالجبّانة، وركب إلى أجسادهم فكفّنهم ودفنهم»[٣]. و إذا صحّ هذا الخبر (وهو بعيدٌ جدّاً) فتعيّن أن نستثنيَ رأسَ الإمام الحسينعليه السلام الذي كان قد أُخِذ إلى يزيد بالشام، بل جميع الرؤوس الطاهرة قد أخذت على الرماح إلى الشام.

وأُركب سبايا كربلاء على الجِمال، وسِيقوا من منطقة القتال إلى الكوفة... وأمر ابن زياد برأس الحسينعليه السلام فَدِيرَبه في سِككِ الكوفة كلِّها وقبائِلها. ثمّ أُخذوا إلى

---

١. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٦.

٢. **أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٦ ـ ٢٠٧؛ وفيما يأتي إحصائيّة الدينوريّ: «جاءت هَوازِن منها باثنين وعشرين رأساً، وجاءت تميم بسبعة عشر رأساً مع الحصين بن نمير، وجاءت كِندة بثلاثة عشر رأساً مع قيس بن الأشعث، وجاءت بنو أسد بستّة رؤوس مع هلال الأعور، وجاءت الأزْد بخمسة رؤوس مع عَيْهَمة بن زهير، وجاءت ثقيف باثني عشر رأساً مع الوليد بن عمرو». وانظر أيضاً ما ذكره أبو مخنف: **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٨.

٣. **ترجمة الإمام الحسين**عليه السلام: ٨١.

قصر ابن زياد،[١] فاجتمع أهل الكوفة وخرجت نساؤهم يصرخن ويبكين، فقال الإمام السجّاد عليه السلام: هؤلاءِ يبكين علينا، فَمَن قتَلَنا؟[٢]! ولمّا أُدخل السبايا على ابن زياد، دار حوارٌ بينه وبين الإمام السجّاد عليه السلام، فسأله عبيد الله: «ما اسمك؟ قال: عليُّ بن حسين، قال: أوَ لم يقتل اللهُ عليّاً؟ قال: كان لي أخٌ يُقال له عليّ أكبر منّي قتله الناس، قال: بلِ الله قتَلَه، قال: ﴿**اللهُ يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوتِها**﴾[٣]، ﴿**وما كان لِنَفسٍ أن تَمُوتَ إلّا بإذْنِ اللهِ**﴾.[٤] فأمر بقتله، فصاحت زينب بنت عليّ بابن زياد: حَسْبُكَ مِن دمائِنا، أسأَلُك بالله إنْ قتَلتَه إلّا قتلتَني معه، فتركه»[٥]. وحادَثَ ابنُ زياد عقيلةَ الوحي زينبَ عليها السلام أيضاً... قال أبو مخنف: «لَبِست زينبُ ابنة فاطمة أرذلَ ثيابها، وتنكّرت، وحفّت بها إماؤها، فلمّا دخلت جلست، فقال عبيد الله بن زياد: مَن هذه الجالسة؟ فلم تكلّمْه، فسأل ذلك ثلاثاً، كلّ ذلك لا تكلّمه، فأجابه بعض إمائها: هذه زينبُ ابنة فاطمة [وبنت عليّ عليه السلام]، فقال لها عبيد الله: الحمدُ لله الذي فَضَحَكُم وقَتَلَكُم، وأكذب أُحدوثتَكم! فقالت: الحمدُ لله الذي أكرَمنا بمحمّد صلى الله عليه وآله، وطهّرَنا تطهيراً»[٦]. قال ابن سعد في خبر هذه الواقعة:... فقال عبيد الله: مَن هذه؟ فقالوا: زينب بنت عليّ بن أبي طالب، فقال: كيف رأيتِ صُنعَ الله بأهل بيتكِ؟ قالت: كُتِب عليهمُ القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمعُ الله بينَنا وبينك وبينَهم، قال: الحمدُ لله الذي قتلَكُم وأكذبَ حديثَكم، قالت: الحمد لله الذي

---

١. الإرشاد ٢: ١١٧ ـ ١١٨.

٢. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٥؛ رسالة تسمية من قُتل مع الحسين عليه السلام: ١٥٧.

٣. الزمر: ٤٢.

٤. آل عمران: ٤٥.

٥. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٩؛ الإرشاد ٢: ١١٦؛ وخبر أبي مخنف نقلاً عن سليمان بن أبي راشد هو نفسه مع بعض الإضافات.

٦. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٧.

أكرَمنا بمحمّدٍ وطهّرنا تطهيراً (وإنّما يُفتَضَحُ الفاسقُ، ويُكْذَب الفاجر، وهو غيرُنا، والحمدُ لله)[١]! (قال أبو مخنف: فغضب ابن زياد واستشاط، فقال له عمرو بن حريث:... إنّما هي امرأة، وهل تُؤاخَذ المرأة بشيءٍ من منطقها؟! إنّها لا تُؤاخَذ بقول... فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاةِ المردة من أهل بيتك؛ فبكت، ثمّ قالت: لَعَمْري لقد قتلتَ كهلي، وأبرتَ أهلي، وقطّعت فرعي، واجتثثتَ أصلي، فإن يَشْفِك هذا فقد اشتفيتَ، فقال لها عبيد الله: هذه سجّاعة[٢]، قد لعمري كان أبوكِ شاعراً سجّاعاً! قالت: ما للمرأة والسجاعة! إنّ لي عن السجاعة لشُغْلًا، ولكنّ نفثي ما أقول).[٣] فلمّا وُضعت الرؤوس بين يدي عبيد الله بن زياد جعل يضرب بقضيبٍ معه على فم الحسين»[٤].

ولم تذكر المصادر خطبة زينب عليها السلام بالكوفة، فلم يوردها أبو مخنف، والبلاذريّ، وابن سعد، والدينوريّ... أمّا ابن أعثم فقد أوردها مفصّلًا، ويبدو أنّه هو المصدر الأصليّ لهذه الخطبة. وراوي الخطبة هو خُزَيمة الأسديّ الذي ذكره السيّد ابن طاووس في اللّهوف باسم بشير بن خزيم الأسديّ،[٥] فقد نقل خطبتها لأهل الكوفة بالثناء على كلامها، وأنّها كانت تُفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وذكر أنّها أسكتت الناسَ، وبعد حمد الله والصلاةِ على رسوله وآله

---

١ .ما جاء بين القوسين منقول من **الإرشاد** (٢: ١١٥). والخبر نفسه، وهذه العبارة موجودة في كتاب الشيخ المفيد. وهي واردة في كتاب **الفتوح** (٥: ٢٢٦) أيضاً.

٢ .في **تاريخ الطبريّ**، و**الفتوح** ٥: ٢٢٧: شجاعة. والسجّاعة أنسب لقول الشعر وألفاظها عليها السلام. وجاءت هذه القصّة في كتاب **الإرشاد** (٢: ١١٦)، إلّا أنّه وردت كلمة «سجّاعة» مكان «شجاعة».

٣ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٧.

٤ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٩.

٥ .**اللهوف**، طبعة الصحفي: ٨٦.

الطاهرين الأخيار، وصفت أهل الكوفة بالخيانة والغَدْر والخَتل والخذل بسبب هتكهم حرمةَ ابنِ النبيّ ﷺ، وأوعدتهم بغضب الله سبحانه وسخطه، وخاطبتهم بقولها: أيّ كَبِدٍ لرسولِ الله ﷺ فَرَيتم، وأيّ دمٍ له سَفَكتُم، وأيّ حُرمةٍ له انتهكتُم... أفعَجِبْتُم أنْ أمطرتِ السماءُ دماً؟! ثمّ ختمت خطبتها بقولها: إنّ ربَّك لَبِالْمِرصاد[1].

ووردت خطبة الإمام السجّاد عليه السلام في مسجد دمشق بمحضر يزيد، في كتاب الفتوح مختصراً أيضاً، كما ذكرها بعض المصادر الأخرى... فقد صعد خطيب مسجد دمشق المنبر، ونالَ من الإمام عليّ بن أبي طالب والإمام الحسين عليهما السلام، ونسب فضائل موضوعة إلى معاوية ويزيد مفصّلًا، فانبرى له الإمام عليُّ بن الحسين عليه السلام فقال له: اشتريتَ مرضاةَ المخلوق بسخَط الخالق! ثمّ طلب من يزيد أن يصعد المنبر ويتكلّم للناس، فتملّص يزيد من ذلك، لكنّ مَن حوله مِن الناس طلبوا منه أن يأذن له ليتكلّم، فصعد عليه السلام المنبر، وبدأ بتعريف نفسه لأُناسٍ لم يعرفوا أهل البيت عليهم السلام.

رُوي أنّ يزيد أمرَ بمنبرٍ وخطيب؛ ليذكر للناس مساوئ للحسين وأبيه عليّ عليهما السلام، فصَعِد الخطيب المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وأكثر الوقيعة في عليّ والحسين، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد، فصاح به عليُّ بن الحسين: «وَيْلَك أيها الخاطب! اشتريتَ رضى المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأْ مقعدَك من النار»، ثمّ قال: «يا يزيد! ائذَنْ لي حتّى أصعد هذه الاعواد فأتكلّم بكلماتٍ فيهنّ لله رضىً ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب»، فأبى يزيد، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، اِئذَنْ له ليصعد، فلعلّنا نسمع منه شيئاً، فقال لهم: إن صعد المنبرَ هذا لم ينزل إلّا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان، فقالوا: وما قَدْر ما يُحسن هذا؟! فقال: إنّه من أهل بيت قد زُقّوا العلم

---

١ ـ الفتوح ٥: ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

زَقّاً. ولم يزالوا به حتّى أذِن له بالصعود، فصعد المنبر، فحَمِد الله وأثنى عليه، ثمّ خطب خُطبةً أبكى منها العيون؛ وأوجَلَ منها القلوب، فقال فيها:

«أيُّها الناس! أُعطِينا ستّاً، وفُضِّلْنا بسبع: أُعطينا العِلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبّةَ في قلوب المؤمنين، وفُضِّلْنا بأنّ منّا النبيَّ المختار محمّداًﷺ، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسدُ الله وأسد الرسول، ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سِبطا هذه الأُمّة، وسيّدا شباب أهل الجنّة، فمَن عَرَفَني فقد عَرَفني، ومَن لم يَعرِفْني أنبأْتُه بحَسَبي ونَسَبي: أنا ابنُ مكّةَ ومِنى، أنا ابنُ زمزمَ والصَّفا، أنا ابنُ مَن حمل الزكاةَ بأطراف الرِّداء، أنا ابنُ خير مَنِ ائتزر وارتدى، أنا ابن خير مَن انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجَّ ولبّى، أنا ابن مَن حُمِل على البراق في الهواء، أنا ابن مَن أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسُبحانَ مَن أسرى! أنا ابنُ مَن بلغَ بهِ جَبرائيل إلى سِدرة المنتهى، أنا ابنُ مَن دنا فتدلّى فكان مِن ربّهِ قابَ قوسَينِ أو أدنى، أنا ابن مَن صلّى بملائكة السما، أنا ابن مَن أوحى إليه الجليلُ ما أوحى، أنا ابن محمّدٍ المصطفى، أنا ابن عليٍّ المرتضى، أنا ابن مَن ضَرَب خراطيمَ الخَلْق حتّى قالوا: لا إله إلّا الله ، أنا ابن مَن ضَرَب بين يَدَي رسول الله بسيفَين، وطَعَن برمحَين، وهاجر الهجرتَين، وبايع البيعتَين، وصلّى القبلتَين، وقاتل ببدرٍ وحُنَين، ولم يكفُرْ بالله طَرْفةَ عَين.

أنا ابنُ صالحِ المؤمنين ووارثِ النبيّين، وقامعِ الملحدين ويعسوبِ المسلمين، ونورِ المجاهدين وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين، ورسولِ ربِّ العالمين، أنا ابن المؤيَّد بجَبرائيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المُحامي عن حُرَم المسلمين، وقاتلِ الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهدِ أعداءَه الناصبين، وأفخرِ مَن مشى مِن قريشٍ أجمعين، وأوّلِ مَن أجاب

واستجاب الله من المؤمنين، وأقدمِ السابقين، وقاصمِ المعتدين، ومبير المشركين، وسهمٍ مِن مرامي الله على المنافقين، ولسانِ حكمة العابدين، ناصر دين الله، ووليّ أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبةِ علم الله، سَمْحٌ سخيّ، بُهلولٌ زكيّ أبطحيّ، رضيٌّ مَرْضيّ، مِقدامٌ همام، صابرٌ صوّام، مُهذَّب قوّام، شجاعٌ قُمقام، قاطع الأصلاب، ومُفرّق الأحزاب، أربطُهم جَناناً، وأطبقُهم عِناناً، وأجرأُهم لساناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدُّهم شكيمة، أسَدٌ باسل، وغيثٌ هاطل، يطحنهم في الحروب - إذا ازدلفت الأسنّة، وقربت الأعنّة - طَحْنَ الرَّحى، ويَذْرُوهم ذَرْوَ الريح الهشيم، ليثُ الحِجاز؛ وصاحبُ الإعجاز؛ وكبشُ العراق، الإمامُ بالنصّ والاستحقاق، مكّيٌّ مدنيّ، أبطحيّ تِهاميّ، خَيفيٌّ عقبيّ، بَدْريٌّ أُحُديّ، شَجَريٌّ مهاجريّ، مِن العرب سيّدُها، ومِن الوغى ليثُها، وارثُ المشعرَين، وأبو السِّبْطَين، الحسنِ والحسَين، مُظهرُ العَجائب، ومفرِّقُ الكتائب، والشهابُ الثاقب، والنور العاقب، أسدُ الله الغالب، مطلوبُ كلِّ طالب، غالبُ كلِّ غالب، ذاك جدّي عليُّ ابنُ أبي طالب.

أنا ابنُ فاطمةَ الزهراء، أنا ابنُ سيّدةِ النساء، أنا ابنُ الطُّهْرِ البتول، أنا ابنُ بَضعةِ الرسول».

قال: ولم يزل، يقول: «أنا أنا» حتّى ضَجّ الناسُ بالبكاء والنحيب، وخَشِي يزيدُ أن تكون فتنة! فأمرَ المؤذّنَ أن يؤذّن، فقطع عليه الكلام وسكت، فلمّا قال المؤذّن: الله أكبر، قال عليّ بن الحسين: «كبّرتَ كبيراً لا يُقاس، ولا يُدرَك بالحواسّ، لا شيءَ أكبرُ مِن الله»، فلمّا قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلّا الله، قال عليّ: «شَهِد بها شَعْري وبَشَري، ولحمي ودمي، ومُخّي وعظمي»، فلمّا قال: أشهدُ أنّ محمّداً رسولُ الله. التفتَ عليٌّ مِن أعلى المِنبر إلى يزيد وقال: «يا يزيد! محمّدُ هذا جَدّي أم جَدُّك؟! فإن زعمتَ

أنّه جدُّك فقد كَذبت، وإن قلتَ: إنّه جدّي، فلِمَ قتلتَ عترته»؟![1]

رأس الإمام الحسين عليه السلام وسبايا أهل البيت في الشام

قال ابن سعد: وقدم برأس الحسين محفزبن ثعلبة العائذيّ على يزيد...[2] ومعه السبايا، والرجل الوحيد معهم هو عليّ بن الحسين عليه السلام الذي غُلّ بغِلٍّ إلى عنقه! ولم يكن عليه السلام يكلّم أحداً من الناس كلمةً في الطريق[3]. قال البلاذريّ مُشيراً إلى نصب رأس الإمام الحسين عليه السلام بالكوفة، وأنّه قد أُدِيربه فيها: «ثمّ دَعا [ابن زياد] زحرَبن قيس الجُعفيّ فسرّح معه برأس الحسين ورؤوسِ أصحابه وأهل بيته إلى يزيد بن معاوية»[4]... ويبدو أنّ الرؤوس أخذها زحر بن قيس هذا، أمّا السبايا فقد ساقها محفز ابن ثعلبة. وذكر أبو مخنف أنّ محفزالعائذيّ وشمراً هما اللّذانِ أخذا السبايا إلى الشام، وهناك رفع محفز صوته قائلًا: هذا محفّزبن ثعلبة أتى أميرَالمؤمنين باللِّئام الفجرة[5]!! ولمّا وُضِعت الرؤوس بين يدي يزيد - رأس الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام جميعاً - أنشد يزيد شعراً، ثمّ قال مراوغاً كمراوغة الثعلب: «أما والله يا حسينُ، لوأنا صاحبُك ما قتلتُك»!! فَلَمزَيحيى بن الحكم ابنَ زياد قادحاً فيه بشعرٍ:

---

١ .**المناقب**، للخوارزميّ الحنفي ٢: ٧٦ .٧٨/ ح٣٢.

٢ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٨٢. لم يذكرهذا الخبرَ السنّة المشايعون ليزيد والموالون لعثمان مثل ابن تيميّة وابن كثير، وذلك من أجل تبرئة يزيد من عمله، وممّا أنشده من شعروما أساء به من كلمات وهويضرب رأس الحسين عليه السلام... في حين أنّ جميع المصادر القديمة تقريباً التي نقلت حادثة عاشوراء روت نقل الرأس الشريف إلى الشام. (انظرعلى سبيل المثال: **الأخبار الطوال**: ٢٦٠: وأُدخل معهم رأس الحسين فرُميَ بين يديه!) للاطّلاع على كلام ابن تيميّة وابن كثير، انظر: **الطبقات الكبرى**/ الطبقة الخامسة ١: هامش ص ٤٩٠ .٤٩١.

٣ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٠.

٤ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢١٢؛ **الفتوح** ٥: ٢٣٥ .٢٣٦.

٥ .انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ٢١٤.

سُـميّةُ أمسـى نَسْـلُها عـددَ الحصـى وبنـتُ رسـولِ الله لـيسَ لَهـا نَسْـلُ[١]!

وعلى الرغم من أنّ يزيد كان يُريد أن يُلقي مسؤوليّة هذا العمل على عاتق ابن زياد، فقد قال ليحيى بن الحكم: اسكت![٢] ولمّا جلس يزيد «دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله، ثمّ دعا بعليّ بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه، فأُدخلوا عليه والناس ينظرون، فقال لعليّ بن الحسين: يا عليّ، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيتَ! فقال عليّ: ﴿**ما أَصابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلافِي أَنْفُسِكُم إِلَّافِي كتابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبرأَهَا**﴾[٣]، فقال يزيد: ﴿**وما أصابكُم مِن مُصيبةٍ فَبِما كَسَبَت أيدِيكُم ويَعفُوا عَن كَثيرٍ**﴾.[٤] فقال زين العابدين: هذا في حقّ من ظَلَمَ لا من ظُلِمَ. ثمّ دعا يزيد بالنساء والصبيان فأجلسوا بين يديه... فقال: قبّح الله ابن مرجانة! لو كانت بينه وبينكم رَحِمٌ أوْ قرابة - كما استلحق معاوية زياد بأبي سفيان - لما فعل هذا بِكُم، ولا بعث بكم هكذا». وفي هذا المجلس نفسه طلب رجلٌ شاميّ مِن يزيد أن يهب له فاطمةَ بنت الحسين عليها السلام، فلجأت إلى عمّتها زينب عليها السلام لمّا سمعته، «فقالت زينب عليها السلام، وكانت تعلم أنّ ذلك لا يكون: كَذِبتَ والله ولَؤُمتَ! ما ذلك لك ولا له! فغضب يزيد، فقال: كذبتِ والله، إنّ ذلك لي[٥]، ولو شئتُ أن أفعله لفعلتُ، قالت: كلّا والله، ما جعَلَ الله ذلك لك إلّا أن تخرج من

---

١ ـ ذكر البلاذريّ هذا البيت أيضاً. انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ٢٢٢. وقد غفل القائل عن أنّ نسل الأمويّين قد انقرض وفني، ونسل العلويّين ما زال قائماً ماثلًا متكاثراً: ﴿**إِنَّا أَعطَيناكَ الكَوثَرَ**﴾.

٢ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٠ ـ ٤٦١. وجاء في خبرٍ آخر أيضاً أنّ مروان بن الحكم كان يومئذٍ بدمشق، وأعرب أخوه يحيى هناك عن استيائه ممّا صُنِعَ بالإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته. **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٥.

٣ ـ الحديد: ٢٢.

٤ ـ الشورى: ٣٠.

٥ ـ نقل البلاذريّ هذه الجملة نفسها، واختصرها. **أنساب الأشراف** ٣: ٢١٧.

ملّتنا وتدينَ بغير ديننا! فغضب يزيد واستطار، ثمّ قال: إيّاي تستقبلين بهذا؟! إنّما خرج مِن الدين أبوكِ وأخوكِ، فقالت عليها السلام: بدينِ الله ودينِ أبي ودين أخي وجدّي اهتديتَ أنت وأبوك وجدُّك (إنْ كنتَ مسلماً!) قال: كذبتِ يا عدوّةَ الله ! قالت: أنت أمير مسلَّط، تشتمُ ظالماً، وتقهر بسلطانك! فكأنّه استحيا، فسكت»[1]، وإن كان لا حياءَ له.

وكان يزيد يحاولَ التنصُّل أمام الناس وذوي الإمام الحسين عليه السلام من مسؤوليّة قتل الإمام الحسين، وإلقاء إثم كربلاء على عاتق ابن زياد، لكنّ بقاء ابن زياد حاكماً على العراق عَدَدَ سنين بعد الواقعة، وسلامته من توبيخٍ ولو بسيط، يشهدان على كِذْب يزيد. قال أبو مخنف: «... ثمّ أمر بالنسوة أن يُنزَلْن في دارٍ على حدة، معهنّ ما يصلحهنّ، وأخوهنّ معهنّ عليُّ بن الحسين، في الدار التي هنّ فيها... فخرجن حتّى دخلن دار يزيدَ، فلم تبق من آل معاوية امرأةٌ إلّا استقبلتهنّ تبكي وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المَناحةَ ثلاثاً، وكان يزيد لايتغدّى ولا يتعشّى إلّا دعا عليّ بن الحسين إليه؛ فدعاه ذات يوم، ودعا عمر بن الحسن بن عليّ وهو غلام صغير، فقال لعمر بن الحسن (وكان ابن احدى عشرة سنة): أتقاتل هذا الفتى؟ يعني خالداً ابنَه، قال: لا، ولكن أَعطِني سكّيناً وأعطِه سكّيناً ثمّ أقاتلُه، فقال له يزيد؛ وأخذه فضمّه إليه:...هل تَلِدُ الحيّةُ إلّا حيّة[2]! ولمّا أرادوا أن يخرجوا دعا يزيدُ عليَّ بن الحسين ثمّ قال بخبث ودهاء: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أنّي صاحبُه ما سألني خَصلةً أبداً إلّا أعطيتُها إيّاه، ولَدفعتُ الحتف عنه بكلّ ما استطعتُ ولو

---

١ .**تاريخ الطبري** ٥: ٤٦١؛ **الفتوح** ٥: ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٢ .المراد هنا المدح، فالعرب قد تمدح الرجل بكونه حيّة، كقول النجاشيّ يمدح الأشعث في حرب صفّين:

أنت والله حيّة تنفثُ السّـ — ـمَّ قليل فيها غناءُ الراقي

بهلاك بعض وُلْدي، ولكنّ الله قَضى ما رأيتَ، كاتِبْني وأَنْهِ كلَّ حاجةٍ تكون لك. فطلب عليه السلام الرجوعَ إلى المدينة، فأمر يزيد بتجهيزهم، وسيّرَهم إليها مع الحرس»[١].

ونقل أبو مخنف في خبرٍ آخر عن أبي حمزة الثُّماليّ: أنّ يزيد لمّا كان ينكُت ثغر الحسين عليه السلام بمخصرةٍ كانت معه، قال له أبو بَرزة الأسلميّ: «...أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟!... رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يَرشفه، أما إنّك يا يزيد تجيء يومَ القيامة وابنُ زياد شفيعُك، ويَجيءَ هذا يومَ القيامة ومحمّد صلى الله عليه وآله شفيعُه»[٢]! وفي ذلك المجلس تمثّل يزيد بشعر ابن الزِّبَعْرى الذي أنشده حين أثأر المشركون من المسلمين في أُحُد... وهذا ما حدا بعضاً على الحكم بكفر يزيد، وإن لم يكُن هذا الحكم، فقتلُهُ سبطَ رسول الله صلى الله عليه وآله يكفي في إثبات كفره، وشعره هو:

لَيتَ أشياخي بِبدرٍ شَهِدُوا　　جَزَعَ الخَزْرج مِن وَقْعِ الأَسَلْ
فَجَزيناهُم بِبدرٍ مِثْلَها　　وأَقَمْنا مَيلَ بدرٍ فاعتَدَلْ[٣]

والمهمّ هو ما أضافه يزيد إلى شعر ابن الزِّبعرى فكشف فيه عن كفره الصريح، إذ قال:

لستُ مِن خِنْدفَ إن لم أنتقمْ　　مِن بَني أحمدَ ما كانَ فَعَلْ
فأَهَلّوا واستَهَلّوا فَرَحاً　　ثمّ قالوا: يا يزيدُ لاتُشَلّْ[٤]

---

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٢.

٢ ـ نفسه ٥: ٤٦٥؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢١٤ ـ ٢١٦؛ **الفتوح** ٥: ٢٤٠ ـ ٢٤١. وجاء في بعض الأخبار اسم زيد ابن أرقم (**أنساب الأشراف** ٣: ٢٠٧) وأنس بن مالك (نفسه ٣: ٢٢٠) أنّهما اعترضا على ابن زياد حين كان يضرب شفَتَي الحسين عليه السلام بمخصرته في الكوفة، ونطقا بنفس الكلام. ذكره المؤلّف بالعكس، وصحيحه هو كما جاء هنا. المترجم.

٣ ـ **الفتوح** ٥: ٢٤١؛ **مقاتل الطالبيّين**: ١١٩؛ انظر شعر ابن الزبعرى في: **سيرة ابن هشام** بتصحيح مصطفى السقّا، وإبراهيم الأبياريّ ٣ ـ ٤: ١٣٥ ـ ١٣٦.

٤ ـ **الآثار الباقية**، لأبي ريحان البيرونيّ: ٤٢٢؛ **البدء والتاريخ** ٦: ١٢. وأُضيف في **تاريخ الخلفاء**/ الورقة ٨٦ ب إلى ما نصّهُ: «فلم يجتمع عليه الرواة، ولو صحّ ذلك منه لم يُشَكَّ في كفره». وقد حكم

وبعث يزيد إلى المدينة من يُخبر أهلَها بخبر كربلاء قبل إرسال السبايا إليها، ثمّ أشخص السبايا إليها مع عددٍ من حرسه... ونقل ابن أعثم في كتاب الفتوح الزاخر بالأشعار العجيبة شعراً عند خروج السبايا من دمشق، وقد شقّ عنان السماء، وهو:

أيُّها القاتلون ظُلْماً حسيناً — أبْشِروا بالعذابِ والتنكيلِ
كُلّ مَن في السّماءِ يدعوعليكُم — مِن نبيٍّ ومُرسَلٍ وقتيلِ
قد لُعِنْتُم على لسانِ ابن داو — دَ وموسى وحاملِ الإنجيلِ[1]

ولمّا أتى أهلَ المدينة خبرُ شهادة الإمامِ الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، صرخت نساءُ بني هاشم وأعولن، وضَحِك الحاكم الأمويّ عمرو بن سعيد، فأنشد بيتاً متشفيّاً من آل البيت عليهم السلام، وقال: هذه واعيةٌ بواعيةِ عثمان بنِ عفّان![2] وكأنّ الإمام عليّاً عليه السلام أو الحسنَين عليهما السلام هم الذين قتلوا عثمان في المدينة! كما أشار إلى ذلك. وأيضاً شبّهوا منعَ الإمام الحسين عليه السلام الماءَ في كربلاء بمنع عثمان الماءَ عند محاصرته بالمدينة، وما هذا الادّعاء إلّا كِذبٌ وافتراء.

وكُتِبت موضوعات كثيرة حول رأس الإمام الحسين عليه السلام، يتعذّر الجمع بينها تقريباً... فخبرٌ يدلّ على أنّ يزيد عندما بعث السبايا إلى المدينة، بعث معهم الرأس الشريف إلى حاكمها عمرو بن سعيد، فقال عمرو: «وددتُ أنّه لم يبعث به إليّ، فقال مروان: اسكُت»! «ثمّ تناول الرأسَ فوضعه بين يديه، وأخذ بأرنبته»، وقال شعراً فيه طعنٌ على الإمام عليه السلام. ثمّ دُفِن الرأس الشريف في البقيع عند أُمّه فاطمة

بكفر يزيد ولعنه جملة من علماء العامّة منهم ابن الجوزيّ والقاضي أبويعلى والتفتازانيّ وجلال الدين السيوطيّ. انظر: **روح المعاني**، للآلوسيّ ٢٦: ٧٣ في قوله تعالى: ﴿فَهَل عَسَيتُم إن تَوَلَّيتم أن تُفسِدوا في الأرض﴾. (يراجع: **مقتل الحسين** عليه السلام، للسيّد عبد الرزّاق الموسويّ المقرّم، ص٢٩، ٣٤٨).

١ . **الفتوح** ٥: ٢٥٠ . ٢٥١ .

٢ . **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٦؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢١٧ .

[عليها أفضل الصلاة والسلام[1]]. وخبرٌ آخر يذكر أنّ يزيد دفع الرأس الشريف «إلى نسائه، فأخذته عاتكة ابنته[2]، فغسّلته ودهّنته وطيّبته؛ ثمّ دُفن في حائطٍ بدمشق، إمّا حائط القصر، و إمّا غيره. وقال قوم: دُفِن في القصر، حَفَر له وأعمق»[3]. والصحيح أنّ الرأس الشريف أعاده الإمام السجّاد عليه السلام إلى البدن الطاهر ودفنه معه.

ولمّا بلغ المدينة خبرُ كربلاء، تألّم عبد الله بن جعفر كثيراً حين سمع خبر شهادة الإمام الحسين، لكنّه قال: «الحمدُ لله عزّوجلّ على مصرع الحسين، إلّا تكن آست حسيناً يدي، فقد آساه وَلَدي».[4] واجتمع بنوهاشم في البقيع يبكون على شهداء كربلاء، وفيهم زينب بنت عقيل التي قالت، راثيةً قتلى الطفّ وهي تنوح:

ماذا تقولونَ إنْ قالَ النبيّ لكم: ... ماذا فَعَلتُم وأنتُم آخِرُ الأُمَمِ
بأهلِ بيتي وأنصاري[5] أما لكمُ ... عهدٌ كريمٌ أما تُوفُون بالذِّمَمِ؟!
ذرّيّتي وبنو عمّي بمَضْيَعةٍ ... مِنهم أُسارى وقتلى ضُرّجُوا بدمِ
ما كان ذاكَ جزائي إذ نصحتُكمُ ... أن تُخْلِفوني بسُوءٍ في ذوي رحمي[6]

---

١ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٨٤؛ **الطبقات الكبرى**/ الطبقة الخامسة ١: ٤٩٠ ـ ٤٩٢. وذكر أبو الحسن البيهقيّ المشهور بابن فندق (م ٥٦٥) أنّ حاكم المدينة كان سعيد بن العاص، ولمّا بلغه مقتل الحسين عليه السلام، هدم دار عليّ بن أبي طالب ودار عقيل ودار الرباب أمّ سُكينة! **لباب الأنساب** ١: ٣٥١.

٢ ـ ذكر المؤلّف أنّ زوجته (زوجة يزيد) هي التي أخذته، والصواب هو أنّ ابنته أخذته. المترجم.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢١٤.

٤ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦٦.

٥ ـ في «**الآثار الباقية**»:

بعترتي وبأهلي عند مفتقدي ... نصفٌ أُسارى ونصفٌ ضُرّجوا بدمِ

٦ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٢١؛ **رسالة تسمية من قُتل مع الحسين** عليه السلام: ١٥١؛ **البدء والتاريخ** ٦: ١٢ (ذكر بيتين منها)؛ **الآثار الباقية**: ٤٢٠ (نقل البيرونيّ ثلاثة أبيات، إلّا أنّه ذكر البيت الذي نقلناه في الهامش المتقدّم مكان البيت الثاني والثالث. وقال أبوريحان قبل ذكر هذا الشعر: «...اتّفق فيه قتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم، وفُعلَ به وبهم ما لم يُفعَل في جميع الأمم بأشرار الخلق من القتل بالعطش والسيف والإحراق وصَلْب الرؤوس و إجراء الخيول على

ونقل ابن أعثم لقاء الإمام السجّاد عليه السلام بيزيد، وأنّه عليه السلام قال له: «...ولقد كان جدّي عليّ بن أبي طالب عليه السلام يومَ بدر وأحدٍ والأحزاب في يده راية رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوك وجدّك في أيديهما راياتُ الكفّار»، ثمّ أورد الأبيات المذكورة على لسان الإمام السجّاد عليه السلام باختلاف طفيفٍ فيها.[1] وأنشد رجالٌ آخرون من آل عبد المطّلب أشعاراً في رثاء شهداء كربلاء أيضاً.[2]

تقويم السفر إلى العراق

إنّ السؤال المهمّ حول واقعة كربلاء هو: أكان في سفر الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق مصلحة من الوجهة التاريخيّة، أم لا؟ نحاول هنا أن يكون لنا تقويم سياسيّ مقتضَب لسفر الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق بغضّ النظر عن البعد الغيبيّ لواقعة كربلاء.

إنّ أوّل سؤالٍ نعرضه هو: هل كان أمام الإمام عليه السلام خيارٌ آخر غير التوجّه إلى العراق؟ وهل كان يُتوقَّع إمكان تنظيم ثورة ضدّ يزيد في العراق؟

إذا نظرنا في المصادر التاريخيّة المتداولة، شهدنا اعتراضاتٍ كانت تُطرَح مراراً،

الأجساد، فتشاءموا به، فأمّا بنو أميّة، فقد لَبِسوا فيه ما تجدّد وتزيّنوا واكتحلوا وعَيّدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطَّيّبات، وجرى الرسم في العامّة على ذلك أيّامَ مُلْكهم. وبقيَ فيهم بعد زَواله منهم. وأمّا الشيعة، فإنّهم يَنوحُون ويبكون أَسَفاً لقتل سيّد الشهداء فيه، ويُظهرون ذلك بمدينة السلام وأمثالها من المدن والبلاد، ويزورون فيه التربة المسعودة بكربلاء. ولذلك كَرِهَ فيه العامّة من تجديد الأواني والأثاث».

وحكم ابن حجر العسقلانيّ على أنّ كلمة «العامّة» لم يستعملها في مقابل كلمة «الشيعة» إلّا مَن كان شيعيّاً، ولعلّ هذا خير دليل على تشيّع أبي ريحان البيرونيّ. (انظر: **لسان الميزان** ٥: ٧٢ - ٧٣، طبعة الأعلميّ. وانظر أيضاً: **فهرست ابن النديم**: ٢٢٩ - ٢٣١.

١ - **الفتوح** ٥: ٢٤٥.

٢ - **أنساب الأشراف** ٣: ٢٢٢.

ومضمونها أنّه ليس في التوجّه إلى العراق مصلحة أبداً، وكانت هذه الاعتراضات مطروحةً منذ البداية... ولمّا دعا أهلُ الكوفة الإمامَ الحسين عليه السلام ليأتيهم بعد شهادة الإمام المجتبى عليه السلام، أجاب أنّه لا يقوم ما دام معاويةُ حيّاً[١]. ومن المحتَمل أنّ دليله عليه السلام على ذلك هو أنّ أهل العراق لم يَسَعْهم تحايُلُ معاوية وكيده، وقد رآهم بأمّ عينيه في حياة أبيه عليّ وأخيه الحسن عليهما السلام. وطُرح احتمال السفر إلى العراق بعد معارضة الإمام عليه السلام للبيعة، وعند توجّهه تلقاء مكّة. وفي ضوء ما أفاده بعض الروايات، اعترض عبد الله بن مطيع في منتصف طريق المدينة إلى مكّة، على المسير إلى الكوفة[٢].

ولمّا دخل عليه السلام مكّة، كان المعترضون على سفره إلى الكوفة كثيرين، فعرض عليه عبد الله بن عبّاس الذّهابَ إلى جبال اليمن وترك التوجّه إلى العراق؛ ذلك أنّ المنطقة جبليّة، وأنّ فيها شيعةً كُثْراً لأبيه، وهي آمنةٌ أيضاً[٣]... ونقل ابن أعثم هذا العرض لمحمّد ابن الحنفيّة[٤]. وكان عمرو بن عبد الرحمان بن هشام يقول له: وإنّما النّاسُ عَبيدُ الدينار والدرهم! وهذه الأموال بيد الأمراء، فلا تأتِ العراق[٥]. وكان عبد الله بن عمر معترِضاً، ويتظاهر بأنّه يخاف من إراقة الدماء[٦]. وقال له عبد الله بن جعفر مُشيراً إلى قتله في العراق: فإنّك إن قُتِلتَ أخافُ أن يُطفأ نورُ الأرض، وأنت روحُ

١ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ١٩٧؛ **الأخبار الطوال**: ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

٢ ـ **الفتوح** ٥: ٣٦، ٣٧؛ **الأخبار الطوال**: ٢٢٨، ٢٤٦؛ **الكامل في التاريخ** ٤: ١٩. وذكر في ص ٤١ لقاء الإمام الحسين عليه السلام لابن مطيع في طريق مكّة إلى الكوفة.

٣ ـ **الأخبار الطوال**: ٢٢٤؛ **الفتوح** ٥: ١١٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٨٧؛ **أنساب الأشراف** ٢: ١٦١ **الكامل في التاريخ** ٤: ٣٩.

٤ ـ **الفتوح** ٥: ٣٢.

٥ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٦١؛ **الفتوح** ٥: ١١٠؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٨٧.

٦ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٦٣؛ **الفتوح** ٥: ٣٩؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٧.

الهدى وأمير المؤمنين، فلا تعجَلْ بالمسير إلى العراق؛ فإنّي آخذٌ لك الأمانَ من يزيد[١]. ونُقِل عن أبي سعيد الخُدْريّ أيضاً قوله: لاتخرجْ على إمامِك[٢]. وكان المُسوّرِ ابن مخرمة من المعترضين أيضاً، فقد طلب من الإمام عليه السلام أن لا يُخدَع بأهل العراق[٣]. ولأبي واقد اللَّيثيّ نفس الكلام[٤]. ولم يشجّع الفرزدقُ الذي كان يسير من العراق إلى الحجاز، على مسير الإمام عليه السلام إلى الكوفة أيضاً[٥].

وذكرت المصادر التاريخيّة هذه الاعتراضات، ومن المحتمل أنّ كثيراً من الرواة المغرضين جدّوا في تضخيمها لِيُروا أنّ الإمام عليه السلام قد خُدِع حقّاً، وأنّه توجّه تلقاءَ العراق عَبَثاً. ومن المناسب - قبل أن نُورد جواب الإمام عليه السلام نفسه في وجوب الذَّهاب إلى العراق - أن نمهّد ذلك بمقدّمةٍ نستبين فيها مُرتكَزَ جواب الإمام عليه السلام بشكلٍ أفضل.

يدلّ التاريخ السياسيّ على أنّه قلّما شهد عصرٌ من العصور نجاح عملٍ سياسيّ زاوله رجل ثوريّ، وبدأه وأتمّه محتمِلًا نجاحَه القاطع، وبلوغ أهدافه بلا خطرٍ يُذكَر، والذين ينشطون إلى تسلّم السلطة، سواءً كان هدفهم خيراً أم شرّاً، يعيشون في الاحتمالات دائماً. وفي عالم السياسة يواجه، حتّى أنجحُ رجاله وأكثرهم شعبيّةً، مصاعب وشدائد، بل قد يفقدون كلَّ شيء. من هنا، يتعيّن علينا في هذا المجال أن لا نظنّ أنّنا يجب ألّا نتحرّك إلّا بيقينٍ تامّ. وهذا العمل بعيدٌ عن الحقائق التاريخيّة، وهو نابعٌ من السذاجة في جوهر النشاطات السياسيّة.

---

١ .**الفتوح** ٥: ١١٦؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٩١؛ **الكامل** ٤: ٤٠.

٢ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٧. وهذا الخبر يبدو أنّه من وضع الأمويّين.

٣ .نفسه: ٥٨. وهذا مشكوك فيه، لأنّ المسوّر من رواة أخبار النبيّ صلى الله عليه وآله في استشهاد الحسين عليه السلام.

٤ .نفسه: ٥٧.

٥ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٦٥.

ويُلزمنا هنا أن لا نُفكّر بأنّ الإمام عليه السلام يجب أن يكون واثقاً تماماً من النصر في سفره المذكور، فعلى مَن لم يستصوب ذهاب الإمام عليه السلام، ألّا ينظرَ إلى الأمثلة التي تبسط احتمالَ الخسارة، كقولنا: إنّ أهل الكوفة قد اختُبِروا مرّةً قبل ذلك! ومَن وافق على الذهاب، فلا يظنّنَّ أنّ الخسارة غير محتملة. ونظراً إلى هذا الأمر، يتعيّن علينا أن نقدّر موقف الإمام الحسين عليه السلام في تلك الظروف، ونقوّم بعد ذلك ذهابه إلى العراق بالنظر إلى الأدلّة التاريخيّة، وإلى كلامه الذي أدلى به.

عزم الإمام عليه السلام على ألّا يؤيّد يزيد وحكمه أبداً، حتى لو أدّت معارضته إلى شهادته، وفي الوقت نفسه كان يبحث عن سبيلٍ يستطيع به عند القدرة أن ينهض ثائراً عليه، ويتسلّم القيادة والإمامة التي كانت مهمّته، الإلهيّة، وهذا الإطار هو مطلبه عليه السلام. و كان عليه أن يختار من بين الاحتمالات الموجودة أحدها، وأن يبدي رأيه في العروض والاعتراضات. وهذه الخطّة كانت لا تقبل التغيير قطّ، ولذا كان كلّ عرضٍ أو اقتراح يَقدح فيها بنحوٍ من الأنحاء مدانٌ مرفوض برأي الإمام عليه السلام.

وكان للبلاد الإسلاميّة مواصفاتها الخاصّة من الوجهة السياسيّة في تلك الظروف، فكان على الإمام عليه السلام أن يعمل بشكلٍ يستطيع فيه - بالنظر إلى تلك الظروف - أن يبلغ أهدافه في الدفاع عن الإسلام و إقامة الحكم العادل بنجاح. ومن الطبيعيّ أنّه عليه السلام كانت له أهدافٌ على مستويات إلهيّة متعدّدة... ويمكن أن يكون الظفر بالحكومة أحدها لو ساعدت الظروف. و إذا كان هذا صعب المنال، فهو عليه السلام - في أيّ حالٍ - أدّى رسالته بوصفه آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر. وعلى فرض أنّه لم يحقّق نجاحاً في هذا المستوى، فله أن يطمئنّ إلى أنّه يسقي شجرة الإسلام بدمه الطاهر، ويُشعِر الناسَ بالوضع الشاذّ الذي يعيشون فيه.

من جهةٍ أُخرى، كان إطار الحقيقة القائمة هو أنّ يزيد لم يسمح لرجلٍ مثل الإمام الحسين عليه السلام - إذا لم يبايعه - بأن يحيا حياةً طبيعيّة، لأنّ الإمام عليه السلام لم يكن

الرجل الذي يستسلم للظلم، وحينئذٍ رأى يزيد أن خياره الوحيد عند ترك بيعته هو قتل الإمام عليه السلام. وبغض النظر عن الشام لم تكن المدينة ومكّة والحجاز بعامّةٍ في وضعٍ يستطيع أهله فيه مقاومة يزيد إذا أراد قتل الإمام عليه السلام.

وكان على الإمام عليه السلام أن يذهب إلى مكانٍ آخر... فالتوجّه إلى مكّة مؤقّتاً أمرٌ لابدّ منه، لأنّها البلد الحرام، فيمكن أن تكون آمنةً إلى حين، بيد أنّها لايمكن أن تكون معقلًا دائميّاً. ويضاف إلى ذلك أنّها لم توالِ الإمامَ ولاءً خاصّاً، حتّى إنّها بايعت أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بتلكّؤ. فالأنظار يمكن أن تُوجَّه إلى العراق وحده، وهو مقرّ شيعته؛ إذ كان كارهاً للشام بسبب ولاء أهله للأمويّين ونصبهم العداء لأهل البيت عليهم السلام، وطلبُ الكوفة من الإمام عليه السلام عزّز هذا الاحتمال، وببلوغ هذه الدعوة ذروتها، كان لا بدّ من المسير إلى العراق.

ولا يعني هذا التحليل خلوَّ العراق من الخطر، إذ السؤال هو أنّه عليه السلام لو أزمع الاستقرار في مكانٍ ما، فما هو المكان الذي يختاره؟ وهل كان عليه السلام ممّن يبايع؟ وهل كان يزيد ممّن يتركه حيّاً إذا لم يبايع؟ و إذا لم يذهب عليه السلام إلى العراق، أفلا تذكر كُتُب التاريخ أنّه لو كان ذهب إليه لانتصر؟ وألا تذكر أنّه لماذا لم يستجب لكتب الناس التي أرسلوها إليه من العراق؟ وتتساءل لماذا سمح لنفسه بأن تقتله زبانية يزيد في الحجاز، ولم يقم بعملٍ معيّن؟ فهذه الأسئلة تُثار في ذهن كلّ عاقل عند تركه عليه السلام السفر إلى الكوفة.

ويتعيّن علينا الالتفات إلى أنّ نتيجة كلام المعترضين المطالبين بتركه عليه السلام الخروجَ هي قبول حكومة يزيد ولو مؤقّتاً، وهذا غير ممكن عنده عليه السلام، حتّى إنّ كلام عبد الله بن جعفر يدلّ على هذا؛ لأنّ أخذ الأمان من يزيد مشروطٌ ببيعة الإمام طبعاً، وهذا مرفوضٌ في إمامته عليه السلام. ولنرَ الآن كيف دلّ على هذا الموضوع جواب الإمام عليه السلام نفسه وكذلك الأدلّة التاريخيّة.

إنّ من النقاط التي أشار إليها الإمام عليه السلام في مواطن عديدة هي أنّ يزيد وجَلاوِزَته لايَدَعونه يُواصل حياته في مكّة، بل يرومون قتله بأيّ صورةٍ كانت، وأجاب عليه السلام ابن عبّاس حين اقترح عليه البقاء: لَئِنْ أقتَلُ خارجاً منها بشبرَينِ أَحبُّ إليّ مِن أَن أُقتَلَ خارجاً منها بشبر[1]. وكما أنّ هذه الملاحظة تُلمع إلى رعاية حرمة مكّة، فهي تُلفت الأذهان كذلك إلى أنّ حياة الإمام عليه السلام كانت في خطر، ولا بدّ له من القيام بعملٍ ما.

وقال عليه السلام لابن عمر حين أنكر عليه الذهاب إلى العراق: إنّ القوم لايتركوني، ... فلا يزالون حتّى أُبايع، و إنّي كارهٌ فيقتلونني[2]. وتدلّ هذه الجملة على وضعه عليه السلام وعلى الحقيقة الموجودة جيّداً. وقال عليه السلام في موضعٍ آخر: ولو كنتُ في جُحْر هامَّةٍ من هوامّ الأرض لاستخرجوني ويقتلونني[3] وحين سُئِل عليه السلام عن سبب استعجاله في المسير قال: لو لم أعجَلْ لأُخِذتُ[4]، وقال نزلةً أخرى: إنّ بني أُميّة أخذوا مالي فصبرتُ، وشتموا عِرضي فصبرتُ، وطلبوا دَمي فهربتُ[5].

وهذه الأخبار شاهدُ صدقٍ على أنّهم كانوا عازمين على قتله عليه السلام، ولا رجاء لبقائه حيّاً ما لم يُبايع. والجانب الآخر في القضيّة هو التوجّه تلقاء العراق، فإذا تقرّر أن يخرج عليه السلام من مكّة، فما هي النقطة التي كان عليه أن يختارها؟

كانت الكتب المتكرّرة تصل إلى الإمام عليه السلام من العراق وهو بمكّة في البرهة الواقعة بين شعبان وذي الحجّة، وقد بلغت هذه الكتب مبلغاً أنّها أصبحت

---

١ .أنساب الأشراف ٣: ١٦٤؛ تاريخ الطبريّ ٤: ٢٨٩؛ الفتوح ٥: ١١٣ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، لابن عساكر: ١٩٠؛ المعرفة والتاريخ ١: ٥٤١؛ مجمع الزوائد ١: ١٩٢؛ مروج الذهب ٣: ٥٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٨.

٢ .أنساب الأشراف ٣: ١٦٤.

٣ .الفتوح ٥: ١١٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٨.

٤ .تاريخ الطبريّ ٤: ٢٩٠.

٥ .الفتوح ٥: ١٢٤.

الباعثَ الظاهريّ له عليه السلام على التوجّه تلقاء العراق. ولمّا كان يعترض الناس على ذهابه في كثيرٍ من المواطن، كان عليه السلام يَحتجّ إلزاماً لهم بالكتب المذكورة[١]. وحين واجه الحُرَّ في الطريق، ذكرها سبباً لقدومه إلى العراق، وعندما سأله عمر بن سعد عن سبب قدومه إلى العراق، كان الجواب هو الكتب المعهودة.

وحينما سأله بُحَيْر بن شدّاد عمّا أَقدَمه إلى الكوفة، قال: هذه كتبُ وجوهِ أهلِ المِصْر[٢]. وذكر هو عليه السلام غداةَ عاشوراء أنّها أحد أسباب قدومه، [٣] وأرى عليه السلام عبدَ الله بن عمر الكتبَ أيضاً، [٤] وكان يقول في كلّ موضعٍ يُعترض عليه، يضرب حقيبته وراءه ويقول: ها إنّ هذه مملوءةٌ كتباً[٥].

وكانت هذه الدعوة الواسعة جادّةً كما يبدو، بخاصّةٍ أنّ أكثر الكتب كانت من أكابر الكوفة فضلًا عن جماهيرها، أولئك الأكابر الذين كان الناس تبعاً لهم، وهؤلاء يشملون- مضافاً إلى الشيعة- كثيراً من أعيان الكوفة الآخرين. و لو كان الداعون هم الشيعة وحدهم، لما كان اهتمامٌ بدعوتهم؛ لأنّ عددهم غيرُ ذي بال، بَيد أنّ تلك الكثرة من الكتب هي التي ثبّتت جدّية الدعوة.

وفي مقابل هذه الدعوات، كان أهل الكوفة قد أخفقوا في مَرحلتين من الاختبار، احداهما في عصر الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، والأخرى في عصر الإمام الحسن عليه السلام. فماذا على الإمام الحسين عليه السلام الآن أن يختار: أسابِقةَ الناس السيّئة، أم وضعهم القائم في عصره؟ ونظراً إلى ما تقدّم ، فلو فرضنا أنّ احتمال النصر- عند

١ .**أنساب الأشراف** ٣: ١٦٣ .١٦٥.
٢ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٦٤.
٣ .نفسه: ٧٢.
٤ .نفسه: ١٩٢.
٥ .نفسه: ٢١٥.

أي شخص عاديّ - أقلّ من خمسين بالمئة، هل كان بوسعه سبيلٌ آخر؟ يبدو أنّ في الظروف السياسيّة الاعتياديّة لم يكن هناك سبيل لاحتمال النجاح قطّ كسبيل احتماله في الكوفة، حتّى إنّ احتمال التوجّه إلى اليمن لم يُحالفه النجاح أيضاً، لأنّ التشيّع في اليمن لم يبلغ مبلغه في الكوفة قطعاً، يُضاف إلى ذلك أنّ اليمن كانت سهلة المنال لِمعاوية، إذ هاجمها جيش الشام لمّا كان فيها والي الإمام عليّ عليه السلام وقتل خلقاً كثيراً من شيعتها.

إنّ أوّل سببٍ لاحتمال النصر هو وجود الكتب التي كانت تدلّ على أنّ عدداً كثيراً من الناس لا يُحافظون على الإمام عليه السلام فَحَسب، بل يُجاهدون عَدوّهُ أيضاً. وفي المقابل لم تُوجَّه إلى الإمام عليه السلام دعوةٌ من أيّ مكانٍ آخر، والرجال الذين كاتبوه عليه السلام في المرحلة الأُولى هم الشيعة من أمثال: سليمان بن صُرَد، والمسيّب بن نجبة، وحبيب بن مظاهر، ورفاعة بن شدّاد، ومن سواهم. واختار عليه السلام طريقاً معقولًا في الفرصة القليلة التي سنحت له، ولم يُجب عليه السلام في هذه المرحلة على الكتب التي وصلت إليه، ثمّ انهالت الكتب على مكّة تترى. يضاف إلى ذلك أنّ ممثّلي هذه الفئات ذهبوا إلى مكّة بأنفسهم وعرضوا على الإمام مطالبهم... وكان كلّ كتابٍ يصل إلى مكّة يحمل تواقيع وأسماء كثيرة، حتّى بلغ عدد الكتب في بعض الروايات مئةً وخمسين كتاباً، مع هذا لم يُجب عليه السلام حتّى الفترة الأخيرة على أيّ طلب...[1] وبعد ذلك اكتفى بإرسال مسلم بن عقيل فحسب لإتمام الحجّة على أهل الكوفة.

ومن أجل تبصير الناس بحجم الدعم الشعبيّ له و إلزامهم بما التزموا به في كتبهم، بعث ممثّله المباشر، أي مسلم بن عقيل، الذي كان رجلًا موثوقاً به تماماً إلى الكوفة، وكتب عليه السلام إلى أهلها كتاباً جاء فيه: إنّي بعثْتُ إليكم أخي وابنَ عمّي

١ ـ انظر: **الفتوح** ٥: ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥١؛ **تاريخ الطبري** ٤: ٢٦٢.

وثقتي من أهل بيتي مسلمَ بن عقيل، وقد أمرتُه أن يكتبَ إليَّ بحالِكم ورأيكم... فقوموا مع ابن عمّي وبايعُوه وانصُروه.[١]

ولمّا دخل مسلم الكوفة، بايعه الناس فريقاً فريقاً... وكان يكتب أسماءهم أيضاً، ويأخذ منهم العهد بأن لايغدروا ولا يخونوا، وأن ينصروا الإمامَ الحسين عليه السلام، وقد بلغ العدد الذي سجّله من المبايعين نيّفاً وعشرين ألفاً.[٢] وحين رأى مسلم الوضع بهذا الشكل، كتب إلى الإمام عليه السلام قائلًا: فإنّي أُخبِرُك أنّه قد بايَعَك من الكوفة نيّفٌ وعشرون ألفاً، فإذا بلغَكَ كتابي هذا فالعَجَل[٣].

وقيل: عندما سار الإمام عليه السلام، كان بيده أسماء ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة الذين كانوا بايعوا مسلماً[٤].

ماذا كان للإمام عليه السلام أن يفعل أمام هذا الكتاب؟ فإنّه لم يكن على ثقةٍ بأهل الكوفة قبل إرسال مسلم، أمّا الآن فقد وافاه كتاب مبعوثه، وهو خير دليل على بيعة أهل الكوفة له عليه السلام. من هنا، قال لابن عبّاس الذي اقترح عليه عدم المسير في المرحلة الأخيرة: أعلم أنّك من أهل النصيحة، ولكنّ مسلم بن عقيل كتب إليّ باجتماع أهل المِصر على بيعتي ونُصرتي، وقد أجمعتُ على المسير إليه.[٥] وجاء في خبرٍ آخر أنّ مسلماً كتب إلى الإمام عليه السلام: والناسُ كلُّهم معك ليس لهم في آل معاوية رأيٌ ولا هَوى[٦]. وهذا أمرٌ شَهِده مسلم بعينه، فأخبر عنه بثقةٍ تامّة، فقد شهد

---

١ ـ انظر: **الفتوح** ٥: ٥٢؛ **تاريخ الطبري** ٤: ٢٦٢.

٢ ـ انظر: **الفتوح** ٥: ٦٨؛ وانظر **تاريخ الطبري** ٤: ٢٥٩؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ٢٠٧؛ **مروج الذهب** ٣: ٥٤ وذكر أنّ عددهم اثنا عشر ألفاً؛ وانظر: **الإمامة والسياسة** ٢: ٥ (وذكر أنّ عددهم ثلاثون ألفاً).

٣ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٦٥؛ **تاريخ الطبري** ٤: ٢٨١؛ **الفتوح** ٥: ٧٧.

٤ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٦٥.

٥ ـ **مروج الذهب** ٣: ٥٤، ٥٥.

٦ ـ **تاريخ الطبري** ٤: ٢٨١.

وأيقن برغبة أهل الكوفة عن معاوية، وميلهم إلى آل عليّ، لكنّ قدوم ابن زياد والظلّ الاستبداديّ لحكومته قد غيّرا مسير التيّار، وكان تهديد الكوفة أمراً جادّاً عند بني أُميّة، فكتب الجواسيس إلى يزيد كتاباً قالوا فيه: قد بايَعَ مسلماً الترابيّة[1] (والترابيّة اسمٌ للشيعة نسبةً إلى كنية الإمام أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، وهي: أبو تراب)، وطلبوا منه أن يعجّل في الاستجابة لاستغاثة الكوفة. وكان إرسال عبيد الله لهذا السبب، إذ كان مُسَلَّماً عندهم أنّه لو تأخّر لفلتت الكوفة من أيديهم، وبخاصّةٍ أنّ النعمان بن بشير، مضافاً إلى حياده، قال في خبر من الأخبار: لابنُ بنْتِ رسولِ الله أَحَبُّ إلينا مِن ابنِ بَجْدَل![2,3].

ونقل ابن أعثم أنّ مسلماً لمّا قدم الكوفة بقي النعمان وحده في القصر، ولم يحضر أحدٌ صلاة الجمعة، ولم يُؤدَّ إليه الخراج، و إذا دعا فلا يُجاب، و إذا أمر بشيءٍ فلا يُطاع[4]. وهذه أدلّةٌ على أنّ مشكلة الكوفة قبل قدوم ابن زياد إليها كانت مشكلةً حقيقيّةً جادّةً عند بني أميّة، فمِن المناسب أن يسير الإمام الحسين عليه السلام إليها.

العلم بالشهادة في كربلاء

إنّ من القضايا التي كان لها قسطٌ وافر في البعد التاريخيّ لملحمة كربلاء العقائديّة عِلمَ الإمام الحسين عليه السلام بشهادته قبل وقوعها؛ الأمر الذي أدّى إلى بروز الخلافات في دراسة هذه الواقعة التاريخيّة، فاتّخذت غالباً طابع المواجهة بين أمرٍ كلاميّ وقضيّةٍ تاريخيّة. وفي هذا المجال أحاديث وروايات كثيرة تصرّح بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر بشهادة الإمام الحسين عليه السلام، وقد جمع العلّامة الأمينيّ قسماً منها في

١ ـ الفتوح ٥: ٦٠.
٢ ـ الإمامة والسياسة ٢: ٥.
٣ ـ المقصود بابن بجدل هو يزيد.
٤ ـ الفتوح ٥: ٤٨.

كتاب سيرتنا وسنّتنا. وكُتُبُ أهل السنّة زاخرةٌ بهذه الأخبار والآثار[١].

ويُضاف إلى هذه الروايات[٢] ذات الطابع التاريخيّ، أخبارٌ منقولة صرّحت أو ألمحت إلى وقوع حادثة كربلاء قبل تحقّقها، ونُقلت هذه الأخبار في الكتب التاريخيّة التي نشير إلى قسمٍ منها لاحقاً. وورد معظم الأخبار التي دلّت على علم الإمام عليه السلام - بعد مسيره من المدينة إلى مكّة، ثمّ إلى العراق - بشهادته في كتاب الفتوح الذي يتعيّن علينا أن نتعاطاه باحتياطٍ ودقّة.

فقد ورد في روايةٍ أنّ الإمام عليه السلام جاء إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله في اللّيلة التي سبقت خروجَه من المدينة إلى مكّة، فنام عند القبر ورأى في منامه النبيَّ صلى الله عليه وآله ومعه عدد من الملائكة، فاحتضنه النبيُّ صلى الله عليه وآله، وقال له: يا حسين، كأنّك عن قريبٍ أراك مقتولاً مذبوحاً بأرض كَرْبٍ وبلاء من عصابة مِن أمّتي، وأنت في ذلك عطشانٌ لا تُسقى... يا حسين، إنّ أباك وأمّك وأخاك قد قَدِموا علَيّ وهُم إليك مشتاقون، وإنّ لك في الجنّة درجاتٍ لن تنالها إلّا بالشهادة.

وورد في خبر آخر أنّه عليه السلام قال في مكّة: إنّي رأيتُ جَدّي صلى الله عليه وآله في منامي وقد أمرني بأمرٍ وأنا ماضٍ لأمره[٣]، وكتب عليه السلام إلى سعيد بن العاص، استناداً إلى الرؤيا: وأُعْلِمُك أنّي رأيتُ جَدّي في منامي فخبّرني بأمرٍ وأنا ماضٍ له[٤].

وأقبلت زينب عليها السلام إلى أخيها الحسين عليه السلام في منطقة الخزيميّة، وقالت: يا أخي، ألا أُخبرك بشيءٍ سمعتُه البارحة؟ فقال عليه السلام: فما ذاك؟ فقالت: خرجتُ... فسمعت

---

١. جمع العلّامة الشيخ محمّد باقر المحموديّ أكثر هذه الأخبار في الجزء الأوّل من كتاب **عبرات المصطفين**، ووثّقها بمصادر عتيدة.

٢. انظر: **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٠ ـ ٥١ وهوامش هاتين الصفحتين.

٣. **الفتوح** ٥: ٥١.

٤. نفسه ٥: ١١٦؛ وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٩١. وذكر عليه السلام هذا في كتابه إلى عبد الله بن جعفر أيضاً. انظر: **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ٢٠٢.

هاتفاً يهتف وهو يقول:

ألا يــا عــينُ فــاحتفِلي بِجُهــدِ ... ومَـن يبكـي علَـى الشـهداءِ بَعـدي
علــى قــومٍ تَســوقُهمُ المَنايــا ... بِمقــدارٍ إلــى إنجــاز وَعْــدي

فقال لها الحسين: يا أختاه، المقضيُّ هو كائن[1].

ومن الأخبار الأخرى أنّه عليه السلام عندما أتى كربلاء، وسأل عن اسمها فأُجيب، قال: ولَقَد مرّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صِفّين، وأنا معه، فوقف، فسأل عنه فأُخبر باسمه، فقال: «هاهنا مَحطُّ رِكابِهم، وهاهنا مِهْراق دمائِهم»، فسُئل عن ذلك، فقال: «ثَقَلٌ لآلِ بيتِ محمّدٍ، ينزلون هاهنا»[2].

ووضع الإمام عليه السلام رأسه فنام في منطقة الثعلبيّة وقت الظهيرة، ثمّ انتبه من نومه مسترجعاً، فسأله عليّ الأكبر عن سبب ذلك فأجابه عليه السلام: إنّي رأيتُ فارساً على فَرَس حتّى وقف علَيّ فقال: يا حسين، إنّكم تُسْرِعون المسيرَ والمَنايا بكم تُسرِع إلى الجنّة، فعلمتُ أنّ أنفُسَنا قد نُعِيَتْ إلينا[3].

وقال عليه السلام لأُخته غداة عاشوراء: يا أختاه، إنّي رأيتُ جَدّي في المنام وأبي عليّاً وفاطمة أُمّي وأخي الحسن عليهم السلام، فقالوا: يا حسين، إنّك رائحٌ إلينا عن قريب، وقَدْ والله يا أُختاه دنا الأمرُ في ذلك، لا شكّ[4].

وكذلك نُقل بشأن ليلة عاشوراء أنّ الإمام عليه السلام قال: رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله ومعه جماعةٌ من أصحابه، وقال لي: يا بُنيّ، أنت شهيدُ آلِ محمّد، واستبشرتْ بك السماواتُ

---

١ .الفتوح ٥: ١٢٢.

٢ .الأخبار الطوال: ٢٥٣.

٣ .ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٨؛ الفتوح ٥: ١٢٣.

٤ .الفتوح ٥: ١٧٥ ـ ١٧٦.

وأهلَ الصفيح الأعلى، فليكنْ إفطارُك عندي اللّيلة، عجِّلْ ولا تؤخّر[١].

وأثرفي موطنٍ آخرعن أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام، على ما نقل مجاهد، أنّه صعد المنبرفي الكوفةِ فقال: كيفَ أنتُم إذا أتاكُم أهلُ بيتِ نبيِّكم يحمل قويُّهم ضعيفَهم؟! فقال الناس: ما نفعل؟ فحرّك الإمام عليه السلام رأسه وقال: توردون، ثمّ تعرّدون، ثمّ تطيعون البراءةَ ولا براءةَ لكم[٢].

هذه أمثلةٌ تدلّ على علم الإمام عليه السلام بواقعة كربلاء قبل شهادته، لكنّ الطبيعيّ هو أنّه ليس الإمام الحسين عليه السلام فحسب، بل النبيّ صلى الله عليه وآله، لم يستعمل عنصرالعلم السابق في حياته السياسيّة، إلّا في مقام إثبات النبوّة أو الإمامة، إذ كانت سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام مطابقةً لظواهرالأمور ومعطياتها. وكان هذا العلم السابق يتحقّق بعِلمٍ إلهيّ يُعلمهم الله سبحانه به بطريقٍ من الطرق - بواسطة جبرئيل أو الرؤيا وأمثال ذلك - لأنّه خاصٌّ لله وحده، وكَون النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام سبّاقاً وأُسوةً يقوم على الوضع الموجود والتقويم الظاهريّ، لا على العلم السابق. وهذا نهج الأنبياء والأئمّة جميعاً في الظروف الطبيعيّة لحياتهم. ودارت هنا بحوثٌ تاريخيّة وكلاميّة كثيرةٌ لا يستوعبها كتابنا الموجَزهذا، فيتعيّن علينا دراستها وتحليلها في مقالةٍ مستقلّة.

الانحرافات الدينيّة وكربلاء

طرأت على الأُمّة الإسلاميّة في سنة ٦١ هـ - أي سنة نهضة كربلاء- تغييراتٌ كثيرة قياساً بالسنة الأخيرة من حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، وصحيحٌ أنّ ظهور الانحراف كان تدريجيّاً، بيدَ أنّ أُسسه - في رأيِ كثيرٍمن الباحثين- ظهرت في السنين الأُولى التي تلت وفاةَ النبيّ صلى الله عليه وآله. وكانت الانحرافات المذكورة في مجالات يتسنّى لِأُولي السياسة أن يستغلّوها بسهولة، ويُسيئون استخدامها في تحميق الناس، وأيضاً في

١ ـ نفسه ٥: ١٨١.

٢ ـ أنساب الأشراف ٤: ٨٢.

تسويغ استبدادهم وتعسّفهم. وكان لبني أُميّة دورٌ عظيم في ظهور هذه الانحرافات وتوسيع رقعتها، بخاصّةٍ دلّ تولّي يزيد على أنّهم لم يعتقدوا أيّ أصالةٍ للإسلام، وما إظهارهم الإسلامَ إلّا تغطيةً لِمُماشاة الناس ومجاراة عقائدهم العامّة وخداعهم.

وكان الإمام الحسين عليه السلام يصف بني أُميّة بالظلم والعدوان[١]، يُضاف إلى ذلك أنّه كان يراهم قوماً «لَزِموا طاعةَ الشيطان، وتركوا طاعةَ الرحمان، فأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء»[٢]، ولم يُظهروا الفساد، ويعطّلوا الحدود فحسب، بل حرّفوا كثيراً من المفاهيم الدينيّة أو استغلّوها في المسالك غير الشرعيّة. ونستعرض فيما يأتي أمثلة من هذه المفاهيم التي كانت مؤثّرةً في أسباب واقعة كربلاء، مقرونة بالأدلّة التاريخيّة.

كانت المفاهيم الثلاثة: طاعة الأئمّة، ولزوم الجماعة، وحُرمة نقض البيعة من أكثر الاصطلاحات السياسيّة- التي كان يستخدمها الحكّام- تداولًا. وربما يمكننا أن نقول: إنّما كانت أساسَ الحكم، وكانت تكفل دوامه. وهذه الاصطلاحات الثلاثة مبادئُ صحيحة كانت في عداد المفاهيم الدينيّة و السياسيّة والإسلاميّة، كما أنّ العقل يحكم بضرورتها ورعايتها من أجل المحافظة على المجتمع واستمراره، ومعنى طاعة الإمام اتّباعُ النظام الحاكم. والسؤال المهمّ هو: إلى أيّ مدىً يجب اتّباع الحاكم و إطاعته؟ أطاعة الإمام العادل وحده لازمة، أم يجب طاعة السلطان الجائر أيضاً؟

---

١ ـ **الفتوح** ٥: ١٣٧.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ١٧١؛ **الفتوح** ٥: ١٤٤ ـ ١٤٥؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٠٤. وقال عليه السلام في لفظٍ آخر: «ألا تَرَون أنّ الحقَّ لا يُعمَلُ به، وأنّ الباطلَ لا يُتناهى عنه. **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٠٥؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ٢١٤. وكذلك قال عليه السلام: فإنّ السُّنّة قَدْ أُمِيتَتْ، وإنّ البدعةَ قَدْ أُحْيِيَت. **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٦٦.

ومعنى حفظ الجماعة هو تركُ الشَّغَب والتمرّد، ومجانبة الأعمال التي تقضي على الوحدة، وتمهّد لتضعضع الأُمّة الإسلاميّة. والسؤال المهمّ هو: هل يجب السكوت أمام السلطان المستبدّ والحاكم الفاسق في أيّ ظرفٍ كان؟ وهل يمكن إدانة كلّ صوت معارض باعتباره مخلّاً بـ«الجماعة» ومسبّباً لـ«التفرقة»؟

ومعنى حرمة نقض البيعة هو رعاية العهد، وهو أمرٌ أثنى عليه الإسلام، وذُمَّ نقض العهد والبيعة كثيراً، وحجم دوره الإيجابيّ في القضايا السياسيّة بيّن واضح. لكن أيجب أن تُطرَح هذه المسألة بشكلٍ حرمة نقض العهد أمام حاكمٍ مثل يزيد إذا لم يُبايَع أو نُقِضت البيعة وتبدّدت الجماعة، أم يجب استثناء هذه الحالات أساساً؟ وكما تقدّم فإنّ ملوك بني أُميّة، ثمّ بني العبّاس كانوا يُكرهون النّاسَ على قبول حكومتهم من خلال استغلال هذه المفاهيم في شكلٍ مُحرَّف لم يكن له أيُّ قيد أو شرط.

وحين أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد، جاء المدينةَ ليُكره المعارضين على بيعته، وكانت عائشة في عدادهم، إذ كان معاوية قد قتل أخاها محمّدَ بن أبي بكر.. ولمّا دار الحديث حول البيعة، قال معاوية لعائشة: «...لكنّي أخذتُ البيعة لابني يزيد وقد بايعه كافّة المسلمين، أفَتَرَينَ أنقضُ بيعةً قد ثبتت وتأكّدت، وأن يخلع النّاسُ عُهودَهم؟! فقالت عائشة: إنّي لا أرى ذلك، ولكن عليك بالرِّفْق والتأنّي»[١].

ويُرينا هذا النموذج كيف رضيت عائشة بحكم يزيد في ظلّ ذلك المفهوم! ولننظر الآن نموذجاً آخر من هذا الموضوع: كان شمر يصلّي معنا ثمّ يقول: اللّهمّ إنّك تعلمُ أنّي شريف، فاغفرْلي! قلتُ: كيف يغفر الله لك وقد أعنْتَ على قتل ابنِ رسولِ

١. الفتوح ٤: ٢٣٧؛ الإمامة والسياسة ١: ١٨٣.

الله ﷺ؟! قال: وَيْحَك! فكيف نصنع، إنّ هؤلاء أمرُونا بأمرٍ فلم نُخالفهم، ولو خالفناهم كنّا شرّاً من هذه الحُمُر السقاة، قلت: إنّ هذا لَعُذرٌ قبيح، فإنّما الطاعة في المعروف.[1] وقال ابن زياد أيضاً لمسلم بن عقيل بعد القبض عليه: يا شاقّ! خرجتَ على إمامك وشققتَ عصا المسلمين[2]، فأجابه مسلم بكلّ شجاعة: كذِبتَ يا ابنَ زياد! والله ما كان معاويةُ خليفةً بإجماع الأُمّة، بل تغلّب على وصيّ النبيّ ﷺ بالحيلة، وأخذ منه الخلافة بالغصب!

وقال مبعوثو عمرو بن سعيد بن العاص حاكم مكّة للإمام الحسين عليه السلام عند خروجه منها: ألا تتّقي الله تخرجُ عن الجماعة وتُفرّق بينَ هذه الأمّة؟[3]

وكان عمرو بن الحجّاج، أحدُ قادة ابن زياد، يقول متفاخراً: «هذه فرسان مذحج... لم تخلع طاعةً، ولم تفارق جماعة»[4]. وكان ينصح عسكر ابن زياد أيضاً قائلًا لهم: إلزمُوا طاعتَكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتلِ مَن مَرقَ عنِ الدين وخالفَ الإمام[5]. وكان رجال من أمثال عبد الله بن عمر، الذي كان يُعدّ من فقهاء أهل السنّة ومُحدّثيهم، يظنّون أنّ الناس إذا رضُوا ببيعة يزيد، فإنّهم سيرضَون أيضاً، فقال عبد

---

١ .**لسان الميزان** ٣: ١٥١ (الطبعة الجديدة ٣: ٥٠٤). واللّفظ «**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام»: ٨٨: «كان شمر بن ذي الجوشن الضّبابيّ لايكاد أو لايحضر الصلاة معنا، فيجيء بعد الصلاة فيصلّي، ثمّ يقول: اللّهمّ اغفر لي فإنّي كريم لم تلدني اللّئام، قال: فقلت له: إنّك لَسيّئ الرأي يومَ تُسارع إلى قتل ابن بنت رسول الله ﷺ، قال: دَعْنا منك يا أبا إسحاق، فلو كنّا كما تقول وأصحابُك كنّا شرّاً من الحمير السقّاءات».

٢ .**الفتوح** ٥: ٩٨.

٣ .**تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٨٩. وهذه الدعايات هي التي جعلت كثيراً من الناس، لاسيّما أهل الشام، يعتبرون الإمام الحسين عليه السلام خارجيّاً، ويكفّرونه.

٤ .نفسه ٤: ٢٧٥.

٥ .نفسه ٤: ٣٣١.

الله هذا لمعاوية: فإذا اجتمع الناسُ على ابنك يزيد لم أُخالِف![1] وهو الذي قال للإمام عليه السلام: لاتشقَّ عصا المسلمين.[2] «وكتبت عمرة بنت عبد الرحمان بن عوف إلى الإمام عليه السلام تُعظّم عليه ما يريد أن يصنع، وتدعوه إلى الطاعة ولزوم الجماعة»[3].

وكانت عقيدة الجبر من الانحرافات الدينيّة في الأمّة الإسلاميّة، فاستُغِلّت هذه العقيدة المنحرفة قبل واقعة كربلاء أيضاً، وكان معاوية مبتدعها في صدر الإسلام، وهو الذي عمل على بثّها حسب ما قاله أبوهلال العسكريّ المعتزليّ[4]. وللقاضي عبد الجبّار المعتزليّ تعبيرات رائعة في تأييدها على لسان معاوية عند إشارته إلى أنّه هو مؤسّس «المجبّرة»،[5] وكان معاوية يقول في بيعة يزيد: إنّ أمر يزيدَ قضاءٌ من القضاء، وليس للعباد الخِيَرةُ مِن أمرهم.[6] وقال عبيد الله بن زياد أيضاً للإمام السجّاد عليه السلام: أوَ لَم يقتل الله عليّاً؟ فقال عليه السلام: كان لي أخ يُقال له عليّ، أكبرُ منّي، قتَلَه الناسُ[7]. وعندما أُنكر على عمر بن سعد قَتْلُهُ الإمامَ الحسين عليه السلام طمعاً في حكومة الريّ قال: «كانت أموراً قُضيت من السماء»[8]!

وكان كعب الأحبار يتكهّن في حياته بأنّ الخلافة لاتصل إلى بني هاشم! (بيد أنّ العبّاسيّين، ثمّ العلويّين - في طبرستان - قد حكموا [وكلاهما مِن بني هاشم]).

---

١ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ١٦٧. وكان ابن عمر هذا جباناً حسب كلام معاوية نفسه، **الفتوح** (٤: ٢٦٠). وهو الذي قال للإمام الحسين عليه السلام: «مهلًا عمّا قد عزمتَ عليه، وارجعْ من هنا إلى المدينة، وادخلْ في صلح القوم». انظر: **الفتوح** ٥: ٣٩؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ١٦٦.

٢ .**الكامل في التاريخ** ٤: ١٧.

٣ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٥٨.

٤ .**الأوائل**، للعسكريّ ٢: ١٢٥.

٥ .**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**: ١٤٣.

٦ .**الإمامة والسياسة** ١: ١٨٣ - ١٨٤.

٧ .**ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام: ٧٩.

٨ .**الطبقات الكبرى** ٥: ١٤٨.

ونُقِل هذا الأمر أيضاً عن عبد الله بن عمر أنّه كان يقول: فإذا رأيتَ الهاشميّ قد مَلَك الزمان، فقد هَلَك الزمان[1]! ونتيجة هذه الانحرافات بالنسبة إلى المستقبل أيضاً هي أنّ أهل السُّنّة لم ينظروا إلى حركة الإمام الحسين عليه السلام كحركةٍ ضدّ الفساد، بل نظروا إليها كـ«تمرُّدٍ» غير قانونيّ.[2]

التبعات السياسيّة لواقعة كربلاء في المجتمع الشيعيّ

إنّ واقعة كربلاء من الحوادث الحاسمة في اطّراد التيّار الشيعيّ عبر التاريخ، وقد أشرنا قبل ذلك إلى أنّ أُسُس التشيّع - لاسيّما أهمُّها، أي الإمامة - مذكورةٌ في القرآن والسُنّة. إلّا أنّ تميّز الشيعة عن سائر الفرق القائمة في الأمّة تاريخيّاً قد تحقّق تدريجاً، وأدّت السنّة والفكرة التي خلّدتها أيّام خلافة الإمام عليّ عليه السلام إلى تماسُك الشيعة فكريّاً إلى حدٍّ كبير. واستبان دعم الأُمويّين لما اصطفوه من الإسلام، الذي لم تسمح سياسة معاوية بانكشاف جوهره وافتراقه عن الإسلام الحقيقيّ الأصيل في تولّي يزيد الحكمَ أكثر فأكثر. وفي حادثة كربلاء أصبح التميّز التاريخيّ للشيعة عن سائر الفرق التي تأثرت بالإسلام الأُمويّ ثابتاً مسلَّماً به. وتيسّر منذ ذلك الحين تمييز الشيعة - الفريقِ الذي يتّبع سُنّة وسيرة الإمام عليّ عليه السلام وخلفائه - عن سائر الفرق تماماً.

وكان بين الشيعة فريقٌ يتّبع الأئمّة عليهم السلام في كلّ شأن، ويَراهم أوصياءَ النبيّ صلى الله عليه وآله ومُصطَفَيه، من جهةٍ أُخرى كانت فئاتٌ من أهل العراق وبعض المناطق الأُخرى تعتقد فقط تفضيل العلويّين على الأمويّين. فتشيّعهم ينحصر في هذا المستوى لا غير. أمّا الذين استُشهدوا مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، فقد كانوا من الشيعة

---

١ ـ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ١٩٣.

٢ ـ **تاريخ اسلام**، جامعة كمبريج ١: ١٨١ (النصّ الإنجليزيّ)؛ وانظر: **الاختلاف في اللفظ**: ٤٧ ـ ٤٩.

الذين يعتقدون أنّ الإمامة حقّ الإمام عليّ عليه السلام وأبنائه عليهم السلام لا غير. وقد طلب الإمام الحسين عليه السلام من الناس في مواطن عديدة أن يُرجعوا الحقَّ إلى أهله، وأن يُعينوه؛ لأنّ الأمويّين غاصبون لهذا الحقّ[1]، فقال عليه السلام في موضع: أيُّها الناس، أنا ابنُ بنتِ رسولِ الله، ونحن أولى بولايةِ هذه الأمور عليكم مِن هؤلاء المدّعين ما لَيسَ لهم،[2] وقال عليه السلام في موضعٍ آخر: وأنا أحقُّ مِن غيري؛ لقرابتي مِن رسول الله[3].

وفضلًا عن ذلك كان أصحاب الإمام الحسين عليه السلام يعبّرون عن هذه العقيدة في فُرصٍ متنوّعة، نظماً ونثراً، فقد قال مسلم بن عقيل لابن زياد:... «والله ما كان معاوية خليفةً بإجماع الأُمّة، بل تغلّب على وصيِّ النبيّ بالحيلة، وأخذ منه الخلافةَ بالغصب»[4]! وكان عبد الرحمان بن عبد الله اليزنيّ ـ وهو من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ـ يقول:

أنا ابنُ عبدِ الله مِن آلِ يَزَنْ ... دِيني على دِينِ حسينٍ وحَسَنْ[5]

وكذلك خاطب الحجّاجُ بن مسروق الإمامَ الحسين عليه السلام قائلًا:

ثمّ أباكَ ذا النّدى عليّا ... ذاك الذي نَعْرِفُه الوَصِيّا[6]

وأنشد نافع بن هلال البَجَليّ قائلًا:

أنا الغلامُ التَّمَميُّ البَجَليّْ ... ديني على دينِ حُسَينِ بنِ عليّْ[7]

وارتجز عثمان بن عليّ بن أبي طالب ـ رحمهم الله ـ قائلًا:

---

١ . أنساب الأشراف ٣ : ١٧٠؛ الفتوح ٥: ١٣٥.

٢ . الفتوح ٥: ١٣٧.

٣ . نفسه ٥: ١٤٤، ١٤٥.

٤ . الفتوح ٥: ٩٨.

٥ . نفسه ٥: ١٩٤.

٦ . نفسه ٥: ١٩٩.

٧ . نفسه ٥: ٢٠١.

إنّــي أنــا عثمــانُ ذُو المَفــاخرْ شـيخي علـيٌّ ذُو الفِعـالِ الطّاهرْ
وابْــنُ عــمٍّ للنَّبِــيِّ الطــاهرْ أخُــو حســينٍ خِيــرةُ الأخــايرْ
وســــيّدُ الكِبــــارِ والأصــــاغرْ بعـدَ الرسـولِ والوصـيِّ الناصـرْ[1]

وكان نافع بن هلال يقول: أنا الجمليّ، أنا على دِينِ عليّ، فقال رجل من عسكر العدوّ أمامه: «أنا على دين عثمان»[2]. ويُمكن أن يُفهَم من هذه الأشعار والأشعار التي نُقلت عن أبي الفضل العبّاس عليه السلام وغيره العقيدةُ الشيعيّة التي كان يحملها أصحابُ الإمام عليه السلام، لا في مستوى الولاء السياسيّ، بل في مستوى البعد العقائديّ الرساليّ.

١ ـ نفسه ٥: ٢٠٦.
٢ ـ تاريخ الطبريّ ٤: ٣٣١، ٣٣٦.

الفصل الثامن

انتقال الحكم
من آل سفيان
إلى آل مروان

نزاع الحجاز والشام

لم يكبح الحكم الأمويّ بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام كابح كما هو ظاهر، فجرّأ ذلك على شخصيّة يزيد غيرِ الحازمة أحدَ الباقين من أولاد المهاجرين، أي عبد الله بن الزبير، وأدّى إلى اضطراب الوضع في الحجاز. وكان عبد الله من المؤلّبين على حرب الجمل، إلّا أنّه كان ذا صلة ما بالإمام الحسين عليه السلام أثناء وجود الإمام بمكّة خلال بضعة أشهر، على الرغم ممّا كان يُبطنه، فكان يتظاهر بمجاراة الإمام سياسيّاً، وإن نصّ جميع المؤرّخين على أنّه كان يتمنّى رحيل الإمام عليه السلام إلى الكوفة ليصفو له الحجاز. وسارت الأمور على ما كان يتمنّى، واستُشهِد الإمام عليه السلام بكربلاء، فبقي عبد الله في الحجاز بلا منازع، بيدَ أنّه لم يرغب بعدُ في الاصطدام بيزيد جهرةً، بل زعم أنّه لا يريد الخلافة لنفسه، وإنّما يريد تعيين الخليفة على أساس الشورى[1] فبدأ يأخذ البيعة من أهل الحجاز خفيةً!

حاول يزيد ـ وربّما كان قلقاً من التبعات المتوقَّعة لثورة كربلاء ـ أن يستخدم المكر والحيلة كأبيه، فبعث بالجوائز إلى ابن الزبير ليخدعه، لكنّ ابن الزبير رفضها، وعقد العزم على معارضته، وانضمّ إليه جماعة من أهل مكّة والمدينة[2].

ثمّ وجّه إليه يزيد مرّةً ثانيةً جماعةً من أكابر الشام ليطوّعوه بالترغيب والترهيب، فأخبرهم ـ وهو يصف يزيد بالفسوق ـ بأنّه لا يريد البغي، وأنّه جاء الحرم ليأمن من

---

١ - **أنساب الأشراف** ٤:١٦، ١٧.

٢ - نفسه ٤: ١٧.

شرّ يزيد وغيره، قائلًا: «إنّما أنا حمامةٌ من حمام هذا المسجد»[١]!

ولم يُطق يزيد السكوت عن ابن الزبير؛ لأنّه كان يخشى أن يسبّب له متاعب بالحجاز، لذا أمر عمرَو بن سعيد بن العاص حاكمَ المدينة أن يبعث جماعةً إلى مكّة للقضاء عليه[٢]. فأشخص هذا الحاكمُ عمرَو بن الزبير أخا عبد الله الذي كان أمويَّ الأمّ إلى حرب أخيه، فنشب بينهما قتالٌ قريباً من مكّة، وهُزِم فيه عمرو وأُسِر، واعتلّ بعد تعذيبه بشدّة كحدٍّ شرعيّ بسبب جرائمه، ومات في سجن عبد الله دون أن يطبّبه أحد[٣]!

ومكّن هذا القتال الزبيريّين من الأمويّين فصاروا أكثر قدرةً، وانضمّ إليهم جماعة من أهل المدينة والطائف. وحلّ الوليد بن عتبة محلّ عمرو بن سعيد، وكان ابن الزبير يراه ضارّاً به في المدينة، فكتب إلى يزيد بأن يعزله إذا أراد الإصلاح، ويرسلَ مكانه رجلًا سهلَ الخليقة ليّنَ الكَنَف، فبعث يزيد عثمانَ بن محمّد بن أبي سفيان. وثقلت يومئذٍ وطأة الزبيريّين على الأمويّين الذين كانوا في مكّة والطائف[٤]، ثمّ خضعت هاتان المدينتان لسلطة ابن الزبير تدريجاً، فوثقت الشام بأنّها لا يمكنها تهدئة الحجاز بقوّاتها الموجودة فيه، فعليها أن تسرّح إليه جيشاً من الشام!

واقعة حَرّة واقم (٦٣هـ)

إنّ من أفظع جرائم الأمويّين وأخوفها بعد قتلهم الإمام الحسين عليه السلام واقعةً اشتهرت في تاريخ الإسلام باسم (واقعة الحَرّة)، والحَرّة اسمٌ لسلسلتين من الأحجار الجبليّة بالمدينة، الممتدّة في جانبَيها الشرقيّ والغربيّ من الشمال إلى الجنوب،

---

١ - **الفتوح** ٥: ٢٨٥؛ **أنساب الأشراف** ٤: ١٩، ٢٠، ٢١.

٢ - **أنساب الأشراف** ٤: ٢٣.

٣ - **الفتوح** ٥: ٢٨٥، ٢٨٦؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٢٨.

٤ - **الفتوح** ٥: ٢٧٧.

وكانت الواقعة المذكورة قرب الحرّة الغربيّة، وهي ترتبط بثورة أهل المدينة في السادس والعشرين أو السابع والعشرين من ذي الحجّة سنة ٦٣ (لا ٦٢ [١] أو ٦٤) [٢، ٣]، تلك الثورة التي قمعها جيش الشام بوحشيّة. وقد نقل المؤرّخون ثلاث روايات في سببها:

الأُولى: قال البلاذريّ: «لمّا قتلَ عبدُ الله أخاه عمرَو بن الزبير... دعا الناس إلى إظهار خلع يزيد وجهاده، وكتب إلى أهل المدينة بذلك، فاجتمع أهل الحجاز على أمرِ ابن الزبير وطاعته، وأخذ البيعةَ له على أهل المدينة عبدُ الله بن مطيع. وأتى يزيدَ خبرُه، فكتب إلى عامله أن يوجّه إليه وفداً من أشراف المدينة لاستمالة قلبه...» [٤]. والموضوع الرئيس في هذه الرواية هو أنّ المدينة وقفت أمام يزيد بسبب بيعة ابن الزبير، ويشهد لذلك أنّ ابن الزبير قال لأنصاره بعد واقعة الحرّة: قُتِل أصحابكم في هذه الواقعة [٥]. وذكر أبو الفرج بعض التوضيحات أيضاً حول خلع أهل المدينة يزيد، وبيعتهم ابنَ الزبير بعد أن بدأت الثورة [٦].

الثانية: قال اليعقوبيّ: لمّا وَلِيَ عثمان بن محمّد المدينة، أتاه ابن مينا على عادته لأخذ الصوافي - وهي الأشياء المختارة من بيت المال والخاصّة بالخليفة - فمنعه أهل المدينة من أخذ تلك الأموال التي كانوا يرونها حقَّهم، فدار شجارٌ بينهم وبين الوالي، ممّا أدّى إلى وثبة الناس وإخراج الأمويّين من المدينة [٧]. ونقل ابن

---

١ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥١؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٤٢.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٧٤، وذهب إلى غير الصواب في تاريخها.

٣ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢٢١؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٧٤، ٣٨٠؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٤١.

٤ - **أنساب الأشراف** ٤: ٣١.

٥ - **مختصر تاريخ دمشق** ٣: ١٥٦.

٦ - **الأغاني** ١: ٢١ - ٢٤.

٧ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥٠.

قتيبة رواية مماثلةً لهذه الرواية أيضاً[1].

الثالثة: رواية الطبريّ، هي أنّ عثمان بن محمّد أرسل بعد تعيينه وفداً من أشراف المدينة إلى يزيد لاستمالة قلوبهم، وأسنى لهم من البذل والأعطيات، فذهبوا إلى الشام، ولمّا انصرفوا عنه، طفقوا يشتمونه، وقالوا: إنّا قَدِمنا مِن عند رجلٍ ليس له دِين، يشرب الخمر، ويَعزِف بالطنابير، ويَضرِب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويُسامر الخُرّاب والفتيان! وإنا نُشهِدكم أنّا قد خلعناه، فتابَعَهم الناس[2].

ويبدو أنّ القضايا الثلاث كلّها مطروحةٌ، وقد عرض البلاذريّ الثالثة منها بعد الأولى. ولا ريب أن الاتّجاه الزبيريّ كان عاملاً أساسياً في الحجاز أيضاً. وأصبحت القضيّة الثانية مجالاً آخر لامتعاض الناس من الأمويّين أيضاً.

واشتهر أهل الحجاز في المصادر التاريخيّة «بالبكريّة» و«العُمَريّة»، كما اشتهر أهل الشام «بالأُمويّة»، وعُرفت مناطق كالعراق «بالتشيّع» وأمثاله. وانتشرت مثل هذه الظاهرة بين أهل الحجاز، لا سيّما أهل المدينة الذين كانوا متواطئين في قتل عثمان، فقلب بنو أميّة لهم ظهر المجنّ، وكذا فعل أهل الحجاز. ويُضاف إلى ذلك أنّ أهل المدينة من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا تطميع عمر لم يَسَعْهُم أن يرضوا بالأمويّين؛ لِما شاهدوه من معاملة معاوية وأبنائه في ابتزاز صوافي الأموال.

ومهّد ظهور ابن الزبير على المسرح السياسيّ وضَعفُ بني أميّة في الحجاز لثورة أهل المدينة، وحاول يزيد في البداية - إن صحّ الخبر- أن يدعوهم إلى الهدوء بواسطة عبد الله بن جعفر[3]، لكنّهم أبوا. وأتاهم النعمان بن بشير الأنصاريّ المنحاز إلى الأمويّين - الذي مال إلى الزبيريّين بعد ذلك وقُتِل - مُوفَداً من يزيد، ودعاهم

---

١ - الإمامة والسياسة ١: ٢٠٦.

٢ - تاريخ الطبريّ ٥: ٣٦٨؛ أنساب الأشراف ٤: ٣١.

٣ - الإمامة والسياسة ١: ٢٠٦، ٢٠٧.

إلى «طاعة الإمام» و«لزوم الجماعة»[١] فرفضوه. ونقل الطبريّ عن عمرو بن سعيد أنّه قال: «أجمع أهلُ مكّة والمدينة كلّهم على ابن الزبير»[٢]. وحاصر الثوّارُ الأمويّين وأنصارَهم ومواليهم الذين كانوا قُرابة ألف رجلٍ في دار مروان بن الحكم[٣]، ثمّ أخرجوهم من المدينة أذلّةً، وصبيانُهم يرمونهم بالحجارة.[٤] وشرطوا عليهم أنْ إذا أقسموا أن لا يعودوا مع جيش الشام، فإنّهم يأذنون لهم بالخروج من المدينة فرضوا، وإنْ نكث الأرجاس منهم - كمروان[٥] وكثير مثله - عهدَهم. وذهب الواقديّ إلى أنّ ابن الزبير هو الذي أخرجهم، وذكر أن المُخرَجينَ من مكّة والمدينة وسائر المناطق كانوا زهاءَ أربعة آلاف[٦]. وأورد ابن أعثم أنّ قائد الثوّار، أي عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، كان والياً على المدينة بأمر ابن الزبير[٧].

وسئم يزيد من أساليبه السياسيّة لتذليل ابن الزبير وأهل المدينة، فوجّه إليها جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة الذي اشتهر بـ«المسرف» لكثرة مَن قتل من الناس، وقوام جيشه خمسة آلاف[٨]، وكان من المحتمل أنّه يكفي للقضاء على المدينة ومكّة، وربّما تجاوز هذا العدد. وأُوصيَ أهل الشام أن ينهبوا المدينة ويسلبوها، ويستولوا على بيوت الناس بعد النصر[٩]. وكانوا قد أخذوا سهمهم من بيت المال

---

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٣٦٧.
٢ - نفسه ٥: ٣٦٩؛ أنساب الأشراف ٤: ٣٢.
٣ - تاريخ الطبريّ ٥: ٣٧٠؛ أنساب الأشراف ٤: ٣٢.
٤ - الإمامة والسياسة ١: ٢٠٨.
٥ - نفسه ١: ٢١٠.
٦ - أنساب الأشراف ٤: ٣٧، ٣٨.
٧ - الفتوح ٥: ٢٩٢ — ٢٩٣.
٨ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٥٠.
٩ - الإمامة والسياسة ١: ٢٠٩؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٧٢.

وافياً عند إيفادهم، فضلًا عن ذلك أنّه زِيدَ في عطائهم مئة دينار[١].

وكان أهل المدينة قد حفروا خندقاً في مدخلها (في المكان الذي كان رسول الله ﷺ قد حفر الخندق، أي المسافة بين الحَرّة الشرقيّة والغربيّة شمال المدينة)، ربّما كان في نفس مكان الخندق المذكور الذي حفره النبيّ ﷺ في معركة الأحزاب؛ كي يستطيعوا أن يدافعوا عنها. وقادتهم: عبد الله بن مطيع، ومَعقِل بن سِنان، وعلى رأسهم عبد الله بن حنظلة الذي استُشهد هو وأبناؤه عند نشوب القتال.

ولمّا وصل جنود الشام إلى المدينة، استقرّوا في منطقة الحرّة بأمر عبد الملك ابن مروان الذي كان قد أُخرج منها أيضاً مع بني أُميّة، فاستطاعوا بمساعدة مروان أن يخدعوا جماعةً من بني حارثة بالوعود الماليّة[٢]، كي يدخلوا المدينة بواسطتهم. ودام هجومهم والقتال أقلّ من يوم واحد، وبعد ذلك وقعت المدينة في قبضة أهل الشام[٣]. و أوصى يزيد أن تُباحَ أموال المدينة لجند الشام ثلاثةَ أيّام، ولم يترك الجندُ جريمةً إلّا ارتكبوها، ففضلًا عن قتل عدد كبير من الناس، انتهكت كثير من الحرمات![٤] وقَتَل مسلم بن عقبة كثيراً من الأسرى الذين كان فيهم رجال من قريش[٥]، وبين القتلى جماعةٌ من صحابة النبيّ ﷺ، وقد قطع رؤوسَهم بعد قتلهم[٦].

وبلغ عدد القتلى، على ما نقل ابن قتيبة، ألفاً وسبعمئة من الأنصار والمهاجرين

---

١ - **أنساب الأشراف** ٤: ٢٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٧١.

٢ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢١١.

٣ - توقّع بعض من قبل تهاون أهل المدينة وتقاعسهم (**الإمامة والسياسة** ١: ٢١٠). ودهش بعض من تركهم المقاومة (**الإمامة والسياسة** ١: ٢١٦، ٢١٧).

٤ - **أنساب الأشراف** ٤: ٣٧؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥٠؛ **الفتوح** ٥: ٢٩٥.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٧٨.

٦ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢١٣.

وأبنائهم، وعشرةَ آلاف من سائر الناس[١]. وأضاف ابن قتيبة قائلًا:

«وقُتل من أصحاب النبيّ ﷺ ثمانون رجلًا»[٢]. وذكر الهيثم بن عَدِيّ أنّ المقتولين كانوا ستّةَ آلافٍ وخمسمئة[٣]. وذكر المسعوديّ أنّ الذين عُرِفوا هم تسعون ونيّف من قريش، ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس[٤]. وأورد ابن أعثم أنّ ألفاً وثلاثَمئةٍ من أولاد المهاجرين، وألفاً وسبعمئةٍ من أولاد الأنصار قد قتلوا[٥]، مضافاً إلى من قُتل من سائر الناس!

وتدلّ هذه المعلومات على أنّ عدداً كبيراً من أهل المدينة قد قُتل في هذه الواقعة، وأنّ دُوراً كثيرةً قد انتُهبت. قال عوانة بن الحكم: «دخلوا من قِبل بني حارثة إلى المدينة، فلم يبقَ دار إلّا انتُهبت، إلّا دار أُسامة بن زيد... ودار امرأة من حِمْيَر... وكان أهل الشام يقاتلون أهلَ المدينة ويقولون: يا يهود»[٦]! وفي واقعة الحرّة لم يحقد الأمويّون على الأنصار وحدهم، بل شمل حقدهم عدداً من أُسر المهاجرين أيضاً حتّى قُتِلوا. ويتعيّن علينا هنا أن نلتفت إلى ملاحظتَين:

---

١ - نفسه ١: ٢١٥.

٢ - نفسه ١: ٢١٦، ٢٢٠.

٣ - **أنساب الأشراف** ٤: ٤٢.

٤ - **مروج الذهب** ٣: ٧٠ – ٧١.

٥ - **الفتوح** ٥: ٢٩٥.

٦ - **أنساب الأشراف** ٤: ٣٧ . كما نرى فإنّ جرائم مسلم بن عقبة هي من الموارد التي صرّح بها: الطبريّ، وابن قتيبة، والبلاذريّ، ومن سواهم . فكيف هبّ «فلهاوزن» للدفاع عنه وجدّ في تبرئته؟ (**تاريخ الدولة العربيّة**: ١٥٦) ثمّ حاول بعد ذلك أيضاً أن يظهر الخلافات بين الشام والمدينة كخلافاتٍ سياسيّة بحتة، في حين أنّ من الثابت هو أنّ هذه الرؤية محاولة لتطهير الشام وبني أميّة . ونحن لا نريد طبعاً أن ندافع عن أهل المدينة دفاعاً محضاً. لكنْ كان للبواعث الدينيّة تأثيرها . (نفسه: ١٦١) . ودفاعه عن الشام واضح في مواطن أخرى أيضاً. (ص ١٦٢) وكذلك دفاعه عن الحجّاج وتكذيب التهم المنسوبة إليه (ص ٢٤٧ – ٢٤٨). ووصف سليمان الشهوانيّ الفاجر بأنّه رجل متديّن.(ص ٢٥٦).

الأولى: يجب أن نقول من الوجهة السياسيّة: إنّ من الملاحظات المهمّة ـ مضافاً إلى الممهّدات التي وطّأت لهذه الواقعة في بداية العقد السابع ـ هي أنّ أهل المدينة كانوا قد اشتركوا في قتل عثمان سنة ٣٦ هـ، فكان بنو أميّة يحسبون الواقعة كردٍ على قتل عثمان كما تذرّعوا، وقد أفرغوا مجهودهم وبذلوا الكثير من أجل عثمان، بخاصّةٍ، أنّهم كانوا يرون أهل المدينة من المقصّرين الأصليّين في قتله، وهكذا كان يفكّر يزيد نفسه[١]. والشاهد الآخر هو أنّ مسلم بن عقبة أُسِر في غطفان أيّامَ النبيّ ﷺ، فاشترته امرأة من الأنصار وأعتقته. ولمّا طُلِب منه في واقعة الحرّة أن يأخذ هذه القضيّة بنظر الاعتبار، قال: لكنّكم قتلتُم عثمان! ولمّا بلغ يزيدَ خبرُ الواقعة، أنشد شعرَ ابن الزِّبَعْرى الذي كان نظمه في أُحُد، أي «ليتَ أشياخي ببدرٍ شَهِدوا»[٢]، وفيه إشارةٌ إلى الثأر من الأنصار لقتلهم رجالات قريشٍ في بدر. وعندما حمل جند الشام على المدينة، كانوا ينادون: يا لثاراتِ عثمان![٣] وعبّر مسلم عن شعوره بعد واقعة الحرّة بأنّه اشتفى من قَتَلَة عثمان[٤]! وكان عبد الملك يقول لأهل المدينة: إنّكم لا تُحبّوننا وأنتم تذكرون يومَ الحَرّة، ونحن لا نُحبّكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان[٥]!

الثانية - مبدأ «طاعة الخليفة» ولزوم حفظ «الجماعة» بين أهل الشام مبدأ آخر حملهم الأمويّون على التمسّك به بشدّة، فاستغلّوه في تسييرهم إلى المدينة[٦].

---

١ - **الأغاني ١: ١٤.**

٢ - **الأخبار الطوال: ٢٦٧؛ أنساب الأشراف ٤: ٤٢.**

٣ - **الإمامة والسياسة ١: ٢٠٨.**

٤ - **أنساب الأشراف ٤: ٤١.**

٥ - **مروج الذهب ٣: ١٢٢.**

٦ - **تاريخ الطبريّ ٤: ٣٧٣، ٣٧٥.**

وطوّعت لمسلم بن عقبة - الذي كان يصرّ على المبدأ المذكور أيّ إصرار - أن يهاجم المدينة ويهتك حرمتها! وكان يقول بعد المذابح التي ارتكبها: «اللّهمّ إنّك تعلم أنّي لم أغشّ خليفةً قطّ، في سرٍّ ولا علانية، وأنّ أزكى عملٍ عملتُه في نفسي بعد شهادة أن لا إله إلّا الله قتلي أهلَ الحرّة»[1]! وكان يقول: «... فما شيءٌ أحبُّ إليَّ مِن أن أموت على طهارتي قبل أن أُحدِث حدثاً، فإنّ الله قد طهّرني بقتل هؤلاء الأرجاس»[2]! ونَقل عنه خَلَفُه الحُصَين بن النُّمير ـ الذي هلك في طريق مكّة بعد الحرّة ـ أنّه كان يقول: اللّهمّ إنّك تعلم أنّي لم أُشاقّ خليفةً، ولم أفارق جماعةً قطّ، فاغفر لي»[3].

وهذه الاعتذارات منه كلّها كما قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[4].

وأشرنا في القسم المرتبط بثورة كربلاء إلى أثر هذا النوع من الانحرافات الدينيّة. وإذا كان مبدأ رعاية الجماعة وطاعة الإمام مقبولًا، فإنّ رعاية الإمام نفسه للحدود الدينيّة شرط لطاعته.

وتوجّه عسكر الشام بعد قتله أهلَ المدينة ونهبِه دُورَهم، تلقاءَ مكّة ليفعل بابن الزبير وأعوانه كما فعل بالمدينة، فهلك مسلم بن عقبة في منتصف الطريق، فخلفه الحُصَين بن النمير حسب أمر يزيد، فسار هذا المجرم إلى مكّة، ونصب المجانيق على جبل أبي قُبَيس، وكان يرمي حرمَ الله بالنار والحجارة لشهور[5]! ولمّا بلغه هلاكُ

---

١ - **أنساب الأشراف** ٤: ٤٠؛ **الفتوح** ٥: ٣٠١.

٢ - نفسه ٤: ٤١.

٣ - نفسه ٤: ٤٢؛ **تاريخ الطبري** ٤: ٣٨٢؛ ذكرنا آنفاً توضيحات في هذا المجال عند الحديث عن الانحرافات الدينيّة في كربلاء.

٤ - الكهف: ١٠٤.

٥ - **الفتوح** ٥: ٣٠١؛ **الأخبار الطوال**: ٢٦٨.

يزيد في ربيع الأوّل سنة ٦٤هـ، أقلع عن الهجوم، ودخل مكّة لزيارة بيت الله بعد موادعة، وعرض على ابن الزبير أن يذهب معه إلى الشام، ويولّيه الخلافة، فرفض[1]. ورجع الحصين إلى الشام ليشارك في المداولات الدائرة حول الخلافة. وخلا العراق لابن الزبير يومئذٍ؛ لأنّ عبيد الله بن زياد فرّ منه إلى الشام بعد سماعه بهلاك يزيد.

ولم يواجه ابنُ الزبير مشكلةً في الحجاز أثناء تلك الفترة، وكانت مشكلته هي العراق الذي تحرّك فيه الشيعة نزلةً أخرى بعد التخلّص من تسلّط الأمويّين، فلهم القدرة على أن يخلقوا له بعض المشاكل بسبب ما كان لهم من جاهٍ فيه.

حركة التّوّابين (٦٥هـ)

قامت هذه الحركة بالكوفة سنة ٦٥هـ بمساعي ثُلّةٍ خيّرة من رجال الشيعة الذين ندموا على تخلّفهم عن الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء، فنهضوا ضدّ الحكم الأمويّ وابتغاء الانتقام من قتَلَة الإمام عليه السلام، وإن ظهرت بدايتها كحركة وجدانية تأنيبيّة في قلوب كثير من الشيعة بعد واقعة كربلاء. والحقيقة أنّ شيعة الكوفة الذين تعذّبت ضمائرهم لخذلانهم الإمامَ بعد تلك الواقعة الأليمة، عزموا على تطهير أنفسهم من ذلك الذنب العظيم بنحوٍ من الأنحاء. وكانوا يعتقدون أنّ خذلانهم الإمام عليه السلام ذنبٌ لا يُغتفَر، ولا يُجبَر، ولن يتطهّروا منه إلّا بقتل قَتَلَةِ الإمام أو قتل أنفسهم.

وعاشت الكوفة في ظلّ الحكم الأمويّ المشؤوم وعاملِه عبيد الله بن زياد حيناً من الزمن بعد واقعة كربلاء، وعلى الرغم من أنّ الشيعة قد قُهِروا يومئذٍ، بيد أنّهم ما زالوا منجم الخطر فيها، مع وجود ضجيج ابن الزبير الذي ملأ شرق البلاد الإسلاميّة. ومن المناسب أن نُشير إلى مثالٍ واحدٍ من جرأة الشيعة على عبيد الله بن زياد، فبعد واقعة كربلاء، صَعِد عبيد الله المنبر في مسجد الكوفة فقال: «الحمد لله الذي

١ - نفسه ٥: ٣٠٦.

أظهر الحقَّ ونصر أمير المؤمنين يزيدَ بن معاوية وحزبه [وقتل الكذّاب!!..]، فوثب عبد الله بن عفيف الأَزْديّ، الذي كانت ذهبت عينه اليسرى يومَ الجمل، وذهبت الأخرى يوم صِفّين، فقال: «إنّ الكذّاب ابن الكذّاب واللهِ أنت وأبوك، والذي ولّاك وأبوه، تقتلون أبناءَ النبيّين، وتتكلّمون كلامَ الصدّيقين!.. فقال عبيد الله: يا عدوَّ الله! ما تقول في عثمان؟ فقال عبد الله: أقول فيه: إنّه رجلٌ أحسن وأساء، وأصلح وأفسد، واللهُ وليُّ عباده يقضي في عثمان وغيره بالحقّ والعدل، ولكنْ إن شئتَ فسلني عنك وعن أبيك وعن يزيد وأبيه! فقال عبيد الله: لا أسألك حتّى أُذيقَك الموت، قال: قد كنتُ دعوتُ اللهَ أن يرزقني الشهادة قبل أن تلدك أمُّك... فلمّا ذهب بصري يئستُ منها، فالحمد لله الذي رزقنيها على يأسٍ وعرّفني إجابةَ دعائي»[١].

وقد استُشهد في ذلك رضوان الله عليه على يد الطاغية عبيد الله.

ولمّا علا ضجيج ابن الزبير بمكّة، واحتُمل نشوب ثورةٍ بالكوفة، استدعى ابنُ زياد عمرَو بن حُرَيث (واليه على الكوفة) وسأله عن خبر ابن الزبير، أحقٌّ أم باطل؟ وقال له أيضاً: لستُ أخافُ على أمير المؤمنين [يزيد] من ابن الزبير، وإنّما أخافُ عليه من هذه الترابيّة شيعة أبي تُراب عليّ بن أبي طالب. ولكن هل تعلم اليوم بالكوفة أحداً لا يتولّى عليّاً وولده؟ فقال عمرو بن حريث: ما أعلم ذلك أيّها الأمير إلّا علماً يقيناً إلّا مَن كان لعليّ عدوّاً. فذكر ابنُ زياد اسمَ المختار، ثمّ أمر ابنَ حُرَيث بحَبْسه، فأسرع عبد الله بن عمر إلى نجدته[٢]؛ لأنّه أخو زوجته.

ودلّت الحوادث الواقعة لاحقاً على أنّ الموالين لعليّ وولده عليهم السلام بالكوفة كُثْر، وكانوا يتواصلون خفيةً يومئذٍ، وكان أمام الشيعة مشكلتان: الأُولى: من جهة

---

١ - المحتبر: ٤٨٠ –٤٨١.

٢ - الفتوح ٥: ٢٦٨، ٢٦٩.

الأمويّين، والأخرى: من جهة الأشراف وكثيرٍ من أهل الكوفة الذين شاركوا في حرب الحسين عليه السلام، وموقف هؤلاء موقف مضادّ للشيعة حتماً، وإذ فكّر جماعة من الشيعة الآن في الثأر بدم الإمام الحسين عليه السلام، فلا جَرَم أنّهم يصطدمون بأهل الكوفة أنفسهم، أولئك الذين قتلوا الإمام عليه السلام[1]، بعد غدرهم وخيانتهم!

ولمّا هلك يزيد سنة ٦٤ هـ، دعا سليمانُ بن صُرَد الخزاعيّ الشيعة، فلبّى عددٌ غفيرٌ منهم دعوته[2]، إلّا أنّهم لم يمكنهم البروز والظهور؛ لأنّ قواعد الحكم الأمويّ في العراق لم تتضعضع بعدُ، فبدأوا عملهم بالتبليغ والدعوة، ووجّهوا دُعاتهم إلى أرجاء البلاد من أجل جمع الشيعة وتعبئتهم[3]. فلمّا أخذ وضع بني أميّة يتدهور تدريجاً، واعتزل معاوية الثاني بن يزيد الحكم ثمّ قُضي عليه، ألمّ بالشام نزاع واضطراب قلقاً على مستقبل الحكم. وكان النزاع بين أصحاب عبد الله بن الزبير من جهة، وأصحاب مروان بن الحكم من جهة أخرى، وتبعه ذلك ضَعفُ الحكم الأمويّ في العراق، الذي انتهى بزواله بعد حين، ثمّ أخضعه عبد الملك للسلطة الأمويّة مرّة أخرى في بداية العقد السابع.

واستثمر الشيعة الفرصة، فواصلوا مساعيهم التي بدأوها سنة ٦١ هـ، من أجل تعبئة القوى وجمع السلاح[4]، وجدّوا في ذلك. وقد تولّى أربعة من شيعة الكوفة المعروفين تنظيم الناس إلى جانب سليمان بن صُرد، وهؤلاء هم: المسيّب بن نَجَبة، وعبد الله بن سعد بن نُفَيل، و رَفاعةُ بن شدّاد، و عبد الله بن والٍ.. وشارك

١ - نفسه ٦: ٤٧.

٢ - **تجارب الأمم** ٢: ٩٧، ٩٨.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٣٢؛ انظر: **تجارب الأمم** ٢: ٩٧ .

٤ - نفسه.

كثير من وجوه الشيعة في الاجتماع الذي عُقِد لهذا الأمر[١].

وتحدّث قادة الشيعة في الاجتماع المذكور، وركيزة كلامهم جبرُ الظلم الذي ارتكبوه بحقّ أهل البيت النبويّ عليهم السلام، وخذلانهم الإمامَ الحسين عليه السلام، فعزموا على التوبة وقتل أنفسهم لتلافي خطئهم، مستندين إلى قوله تعالى: ﴿**ياقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾[٢،٣]، وتعهّدوا جميعاً في هذا المجلس على التعاون والتعاضد، واتّفقوا على أنّ من أراد مساعدة الحركة ماليّاً، فليراجع عبد الله بن والٍ[٤].

واختير سليمان قائداً للحركة، وكان شيخاً كبيراً، ومن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحاب الإمام عليّ عليه السلام، وأوّل الأعمال التي قام بها هو أنّه كتب إلى سعد بن حُذَيفة بن اليَمان، الذي كان من شيعة المدائن، طالباً منه التعجيلَ إلى نصرهم مع شيعة المدائن التي كانت من الحواضر الشيعيّة، وعيّن له زمانَ الخروج ومكانه، والزمان هو الأوّل من ربيع الآخر[٥] سنة ٦٥ هـ، أمّا المكان فهو «النُّخَيلة» معسكر الكوفة المعروف، وطلب منه أن يتأهّبوا ويَعُدّوا العُدّةَ اللّازمة[٦].

ووردت الملاحظة الأساسيّة بشأن جوهر هذه الحركة في الكلمات التي نُسِبت إلى أحد خطباء «التوّابين»، فقد قال عبيد الله بن عبد الله في اجتماع التوّابين، مشيراً إلى عظمة ذرّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله، وما جرى مِن انتهاكٍ لحرمتهم في كربلاء، فاتحاً

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٢٨.

٢ - البقرة: ٥٤.

٣ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٠٦؛ **تجارب الأمم** ٢: ٩٦؛ **الفتوح** ٦: ٥٠.

٤ - **تجارب الأمم** ٢: ٩٦.

٥ - ذكر المؤلّف أنّه ربيع الأوّل والصحيح هو ربيع الآخر. المترجم.

٦ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٣٠، ٤٣١؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٢٠٦، **تجارب الأمم** ٢: ٩٧؛ **الفتوح** ٦: ٥٢. وكتب كتاباً مثله إلى شيعة البصرة، ورئيسهم المثنّى بن مخرّبة العبديّ.

باب التوبة أمامهم: إنّا نَدْعُوكم إلى كتابِ اللهِ وسُنّةِ نبيّه، والطلب بدماءِ أهلِ بيتهِ، وإلى جهادِ المُحلِّين والمارقين؛ فإنْ قُتِلْنا فما عندَ الله خيرٌ للأبرار، وإنْ ظَهَرنا رَدَدْنا الأمرَ إلى أهل بيتِ نبيّنا[1].

ولمّا بدأ التّوّابون حركتهم، كانت الكوفة والبصرة بيد عمّال عبد الله بن الزبير، ففرّ عبيد الله بن زياد حين سمع أخبار الشام والعراق. ولمّا لم يكن هناك بديل للأجهزة القائمة، وجّه عبد الله بن الزبير ـ الذي كان قد تقلّد الأمر بمكّة منذ سنة ٦١ هـ ـ عمّالَه إلى العراق، فخضع «الشرق الإسلاميّ» لسلطة الزبيريّين حينئذٍ، وكان الحاكم فيه رجلًا يُدعى عبدَ الله بن يزيد الأنصاريّ، ومسؤول الخراج إبراهيم بن محمّد بن طلحة.

وحين عرف أشراف الكوفة ـ الذين كانوا يدعمون بني أميّة ظاهراً وباطناً ـ احتمال ظهور حركةٍ شيعيّةٍ، لجأوا إلى آل الزبير والتفّوا حولهم، فيما التفّ الشيعة ومَن مال إليهم حولَ سليمان بن صُرَد، أو كما سنرى، لحقوا بالمختار. والقضيّة المهمّة بالنسبة إلى التّوّابين هو ردُّ الفعل الذي يجب أن يكون لهم من الأشراف، ومن الجهاز الحاكم في الكوفة على حدٍّ سواء. وهذان موضوعان مترابطان؛ ذلك أنّ الكوفة كانت بيد حاكمها الزبيريّ، وأنّ الأشراف كانوا من حُماة الحكم الزُّبيريّ، فمن الطبيعيّ أنّ الشيعة لم يَسَعْهم أن يصطدموا بهم.

واتّخذ الحاكم الزبيريّ على الكوفة عبدُ الله بن يزيد موقفاً ماكراً في البداية، فحاول أن يُلفت أنظار الشيعة إلى الشام، ويوجّههم إلى جيشها الذي يقوده عبيد الله بن زياد، مُخبرَهم أنّهم سيلقَون الدعم طبعاً إذا طلبوا قَتَلَة الحسين بن عليّ، وقاتلَه هو عبيد الله بن زياد، فلا ينبغي للتوّابين أن يسفكوا الدماء داخل المدينة[2].

---

١ - **تاريخ الطبري** ٤: ٤٣٣.

٢ - انظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٣٥؛ **تجارب الأمم** ٢: ٩٩؛ ٥: ٢٠٧.

وهذا الموقف حفظ أمن المدينة من جهة، وجعل أعداء آل الزبير يقتتلون فيما بينهم من جهة أخرى، فأمن الزبيريّون من جهتهم بسهولة. ويبدو أنّ هذا الموقف، وإنْ عرضه إبراهيم بن محمّد بن طلحة كموقفٍ مساوم، إلّا أنّه أسفر في الحقيقة عن خروج التوّابين من الكوفة ومواجهتهم جيشَ الشام الجرّار بعددهم القليل، حتّى لو لم يقصد عبد الله بن يزيد المكرَ والخديعة. فأدّى -في أيّ حال- إلى بدء الشيعة نشاطهم العلنيّ، وتعبئةِ أنفسهم للتوجّه تلقاء الشام[1].

وكان المسير إلى الشام ممّا يرضاه سليمان بن صُرَد نفسه أيضاً... وعلى الرغم من أنّ بعض الأشخاص قال له: إنّ قتَلَة الإمام الحسين عليه السلام هم في الكوفة، بيد أنّه صرّح بأنّ المسبِّب الأصليّ هو عبيدُ الله بن زياد[2]، من هنا لم يعارض الشيعة هذا القرار وهذه الرغبة. وكذلك ذكر سليمان أنّ المعركة داخل الكوفة ستُفضي إلى اقتتال الإخوة، وزيادة الأعداء! مضافاً إلى أنّ عبيد الله بن زياد هو القاتل الأصليّ، فإنّ رجالًا مثل عمر بن سعد ليس لهم قوّة تُذكَر[3]، وربّما كان سليمان يقصد ملاحقةَ هؤلاء في مرحلةٍ متأخّرة.

وبينما كانت الكوفة في حيص بيص قَدِم المختار، وكان من الشيعة المعروفين، وتفيد الأخبار المنقولة أنّه كان يُعِدّ الخطط في ذهنه لتعبئة الشيعة وحشدهم، لكنّه جُوبِه بحركة التوّابين في الكوفة. وكان المختار يرى أنّ هذه الحركة لا تستطيع أن تقطع شوطاً أساسيّاً للظفر بهدفها الذي تتوخّاه، وأنّ عملها لا يسبّب إلّا قتل الشيعة، فأدّى هذا الكلام إلى التفاف ثلّة من الشيعة حوله[4]... كما جاء في

١ - أنساب الأشراف ٥: ٢٠٨؛ تجارب الأمم ٢: ٩٩.

٢ - تاريخ الطبريّ ٤: ٤٥٣ - ٤٥٤.

٣ - الفتوح ٦: ٦٥ - ٦٦.

٤ - تاريخ الطبريّ ٤: ٤٩٩؛ وانظر: أنساب الأشراف ٥: ٢٠٧؛ تجارب الأمم ٢: ٩٨.

بعض الأخبار أنّ قرابة رُبع الذين بايعوا سليمان بن صُرَد مالوا إليه[١] فيما بعد.

وبايع سليمانَ زهاءُ ستّةَ عشرَ أو اثني عشر ألفاً، لكنّ الذين تهيّأوا للتوجّه معه تلقاءَ الشام كانوا أربعة آلاف رجل تقريباً، ثمّ لحق بهم ألفٌ آخر بعد أن بعث إليهم يَدْعوهم إلى المسير معه[٢]. ولمّا خرجوا من الكوفة، تَنفّس قَتَلَةُ الحسين الصعداء (مثل شَبَث بنِ رِبْعيّ وغيره من كبراء الكوفة) وانشرحوا، ولم يخافوا إلّا من المختار، فكادوا به عند حاكم الكوفة فحبسه[٣]! ولم يُطلَقَ إلّا بعد واقعة التوّابين، ووساطةِ زوج أخته عبدِ الله بن عمر مرّة أخرى... وكان الجوّ السائد للتوّابين هو الإخلاص المزيج بالعزم على التوبة... فتنادى الناس من كلّ جانب: إنّا لا نطلبُ الدنيا، وليس لها خَرَجْنا[٤].

وفي تلك الآونة تغلّب مروان على الضحّاك بن قيس في الشام، ووجّه جيشاً إلى العراق، وكان بيّناً أنّ التوّابين لم يستطيعوا الصمود أمامه. وتراجع حاكم الكوفة الزبيريّ عن موقفه الأوّل، وأرسل إلى سليمان بن صُرَد أن يصبر قليلًا حتّى يُهيّئَ جيشاً أيضاً لحرب عبيد الله بن زياد[٥]. وسبب هذا الموقف الجديد هو أنّ الحجاز كانت في خطرٍ حقيقيٍّ من جهة الشام، بخاصّة أنّ هزيمة التوّابين تُجرّئ أهل الشام على مهاجمة العراق أكثر... لكن سليمان رفض هذا العرض يومئذٍ. وبعد خروجهم من الكوفة، وفي منتصف الطريق وافاه كتاب حاكم الكوفة المذكور الذي أعاد فيه نفس العرض، فردّه أيضاً! وكان سليمان يقول بأنّه إذا وافق عليه، فإنّ عدداً من

---

١ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٠٨.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٥٢ ـ ٤٥٣؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٢٠٨.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٥٠.

٤ - نفسه ٤: ٤٥٣.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٥٥.

الجند يتفرّق عنه، فلا يستطيع أن يُعبّئ مثل هذا الجيش... ثمّ ذكر أنّه لو وافق على ذلك لكان الحكم بيد الزبيريّين، وسيقاتل هو وأصحابه بعد نصرهم من أجل عبد الله بن الزبير، وما في هذا القتال إلّا الضَّلال! والحقّ أنّ سليمانَ وأصحابه لم يفكّروا بالهزيمة التي كانوا يرونها شهادةً في سبيل الله تعالى؛ إذ كانوا مُقْبلين على الشهادة، وصرّحوا بأنّهم لو ظهروا لأعادوا الأمر إلى أهله[1] [أي لو انتصروا لسلّموا لأهل البيت عليهم السلام أمرَ الحكومة]، وبهذا البرهان لا مجال لاتّحادهم مع ابن الزبير وقوّاته.

لقد توجّه التوّابون في البداية تلقاء كربلاء، وانفصل منهم جماعة على طول الطريق[2]، وزاروا قبر الإمام الحسين عليه السلام، وبعد بكاءٍ ونحيب كثير سألوا الله أن يقبل توبتهم... ثمّ ودّعوا الإمام الشهيد واحداً واحداً[3]، وساروا صوبَ الجصّاصة، ثمّ الأنبار، فالصدود،[4] وكانوا يقصدون الشام؛ لذا ذهبوا إلى هيت، ومنها إلى قرقيسيا. ورحّب بهم زُفر بن الحارث الذي كان من معارضي حكومة مروان بعد النزاعات الداخليّة في الشام، فجهّزهم، وزوّدهم بمعلومات حول منطقة القتال، ثمّ ساروا إلى الشام، وتحدّث إليهم سليمان بن صرد مرّةً أخرى، وأكّد التأسّي بسيرة الإمام عليّ عليه السلام في جرحى الشام وأسراهم، وأعاد التأكيد للتوبة.

ولمّا لم تبق إلّا مسافةٌ قليلة بينهم وبين العدوّ، تقدّم المسيّب بن نَجَبَة مع عدد منهم كمقدّمةٍ للجيش وحملوا، فهزموا طلائع العدوّ، وحصلوا على غنائم منهم. ثمّ توافى الجيشان... فعرض الجيش الأمويّ عليهم أن يرضَوا بحكومة عبد الملك

---

١ - نفسه ٤: ٤٥٩؛ وانظر: **تجارب الأمم** ٢: ١٠٣.

٢ - رجع قرابة ألف رجل؛ انظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٢٠٩ . وذكر ابن أعثم أنّ عددهم عند المواجهة كان ٣٣٠٠ رجل، ٦: ٨١.

٣ - **الفتوح** ٦: ٨٩.

٤ - [جاء في النصّ الفارسيّ: «الصدور»، لكنّ الصحيح هو الصدود]. المترجم.

بعد هلاك أبيه مروان، لكنّهم لمّا كانوا شيعة، طلبوا منهم أن يسلّموهم عبيدَ الله بن زياد[1] لِما ارتكبه من مذابح، ثمّ يذهبوا معاً إلى عبد الله بن الزبير ويخلعوه، وقالوا: نَرُدّ الأمرَ إلى أهل بيت نبيّنا الذين آتانا اللهُ مِن قِبلِهم بالنعمةِ والكرامة[2]... ومن الطبيعيّ أن لا يضرع أحدٌ منهم للآخر.

ونشب القتال، فهُزم العدوّ في اليوم الأوّل، لكنّ وصول المدد المستمرّ والقوّات الجديدة لأهل الشام، وزيادة عددهم، ثَقّل الوطأة على التوّابين أكثر فأكثر، إذ أُضيف إلى جيش الحصين بن النمير المؤلَّف من اثني عشر ألفاً في اليوم الثاني ثمانيةُ آلاف بقيادة شُرَحْبيل بن ذي الكِلاع[3]... واستُشهد سليمان في اليوم الثالث من القتال، ثمّ استُشهد بعده المسيِّب بن نَجَبة، ثمّ عبد الله بن سعد بن فُضَيل، وبعد مدّة قليلة استُشهد عبد الله بن والٍ الذي قُدِّر له أن يتولّى أمر القيادة بعدهما [هكذا استدرك المؤلّف]. وقال قاتله في سياق تعريفه مَنْ قتَلَ:... فزعموا أنّه كان من فقهاء أهل العراق الذين كانوا يُكْثرون الصومَ والصلاة، ويُفتون الناس[4]. ولمّا آل الأمر إلى رفاعة بن شدّاد، جمع من تبقّى من أصحابه، وأقفلهم إلى العراق ليلًا.

وكان من المقرّر أن ينضمّ إليهم شيعة المدائن والبصرة، إلّا أنّهم لم يستطيعوا الوصول إليهم في الوقت المناسب، وحين توجّه إليهم قرابةُ مئةٍ وسبعين من شيعة المدائن، وثلاثمائة من شيعة البصرة بقيادة المثنّى بن مُخَرَّبة، التقوا بمن كانوا

---

١ - ذكر المؤلّف اسم عبد الملك بن مروان، وهو سهو، إذ جاء في المصدر المذكور اسم عبيد الله، وهو أنسب. المترجم.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٦٤؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٢١٠؛ **تجارب الأمم** ٢: ١٠٩ ونقل ابن أعثم كلامهم: هلمّ إلى طاعة أهل بيت النبوّة؛ **الفتوح** ٦: ٨٢.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٦٥. [و فيه: أنّ الذي أخذ الراية بعد المسيّب هو عبد الله بن سعد، لا عبد الله ابن والٍ. المترجم].

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٦٨.

منصرِفين إلى العراق، فانصرفوا معهم أيضاً...[١] وقد ذهب البلاذريّ إلى أنّ شيعة البصرة لحقوا بالتوّابين عند قبر الحسين عليه السلام[٢]، وهو غير صحيح على ما يظهر. وبهذا انتهت حركة التوّابين بلا نتيجة ملحوظة ملموسة، وإن كانت لا تخلو من نتائج على المدى البعيد.

ونسجّل فيما يأتي بعض الملاحظات حول التوّابين:

١ - نظراً إلى الأمثلة والشواهد المتقدّمة، يتَسنّى لنا الحكم على العقيدة الدينيّة التي كان يحملها التوّابون جيّداً، فقد استوت هذه العقيدة على «تشيّعٍ عقائديّ»، كان الركن الأهمّ فيه هو اعتقاد الإمامة، فالملحوظ المتكرّر في كلماتهم هو تفويض إمامة الأُمّة إلى أهل البيت عليهم السلام... ويُضاف إلى ذلك، أنّ العمل بسيرة الإمام عليّ عليه السلام يدعم التشيّع العقائديّ الذي كان عليه شيعة العراق أيضاً.

٢ - تحلّي التوّابين بحالة روحيّة خاصّة، فهم أناسٌ لم يشهدوا واقعة كربلاء، لأيّ سببٍ كان، ولم يستفيقوا إلّا على شهادةِ ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله بأفجع صورة، وسَبْيِ حرمه وتسييرِهم في أزقّة الكوفة. وقد لقي الكوفيّون تثريباً أيّ تثريب، إذ عنّفهم الإمام السجّاد عليه السلام، وزينب وأمّ كلثوم عليهما السلام أشدَّ التعنيف! ونتيجة هذه الواقعة، وهذا الموقف الذي اتّخذه أهل البيت عليهم السلام من أهل الكوفة الذين وُصفوا بالخيانة، هو شعور أهل الكوفة بإثم عظيم، ذلك الإثم الذي أنّب ضميرهم الدينيّ بالغَ التأنيب. ويعود ذلك غالباً إلى أنّهم رأوا أنفسهم مخذّلين؛ لأنّهم هم الذين كانوا قد دعوا الإمام عليه السلام إلى الكوفة.

والشيء الوحيد الذي يمكن أن يُريحهم هو اجتثاث التبعات الروحيّة لهذا الإثم... وهم، وإن كانوا يعتقدون أنّ من طرق تطهيرهم هو الانتقام من قَتَلَة الإمام

---

١ - **تجارب الأمم** ٢: ١١١، ١١٢؛ **تاريخ الطبري** ٤: ٤٧٠.

٢ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢١١.

الحسينعليه السلام، إلّا أنّ الشهادة كانت ألذّ وأطيب عندهم، إذ كانوا يشعرون أمام هذا الذنب العظيم بأنّهم حتّى لو قتلوا قَتَلَة الإمامعليه السلام، فلا يمكن أن يُريحوا ضمائرهم أو يُهدّئوها. ومع علمهم بوجود جيش جرّار متوجّه إليهم من الشام مع ابن زياد، لم يرتابوا في الحرب أدنى ارتياب.

٣ - كان التوّابون من الوجهة السياسيّة يفتقدون النظرة التقويميّة الصحيحة لما يجري في الكوفة، فقلّما فكّروا في الاستيلاء على الكوفة، والانتقام من قتلة الإمام الموجودين فيها، وتجهيز العراق أمام الشام... وهذه هي الأُمور التي تابعها المختار بعدهم. وشيءٌ واحد كان مهمّاً عندهم، وهو «التوبة»... التوبة التي تُنال بـ «الشهادة». وحين أزمع رفاعة بن شدّاد في اللّحظات الأخيرة من القتال على إبعاد البقيّة الباقية منهم عن ميدان القتال، والرجوع إلى العراق، عارضه رجال منهم، فقال له أحدهم، ويُعرَف بالكنانيّ: إنّي لا أُريد ما تريد، أُريد لقاءَ ربّي، واللِّحاقَ بإخواني، والخروجَ من الدنيا إلى الآخرة. ثمّ استُشهد في حملة[١].

وحمل عبد الله بن عزيز الكِنْديّ على عسكر الشام من نقطة أخرى، بعد أن أودع ابنَه عند رجال من كِندة الشام ليبعثوا به إلى قومهم بالكوفة، وقاتل حتّى استُشهد[٢]. وعصى كُريبُ بن زيد الحِميَريّ ومعه مئةٌ تقريباً أمرَ رفاعة، وقال: «إنّه قد بلغني أنّ طائفةً منكم يريدون أن يرجعوا... فأمّا أنا فوالله لا أُولّي هذا العدوَّ ظَهْري حتّى أرِدَ مَواردَ إخواني». فآمنه ابن ذي الكلاع[٣]، وهو من أُمراء الشام؛ لأنّ كليهما من حِمْيَر، فقال له كُرَيب: إنّا قد كنّا آمنين في الدنيا، و إنّما خرجنا نطلب أمان الآخرة[٤].

---

١ - تاريخ الطبري ٤: ٤٦٨.

٢ - نفسه ٤: ٤٦٩.

٣ - ذكر المؤلّف أنّه ذو الكلاع، الصحيح هو ابن ذي الكلاع . المترجم.

٤ - نفسه.

إنّ الكلمات والأشعار المأثورة عن التوّابين في حملاتهم على عسكر الشام تعبّر جميعها عن مفهوم التوبة وتجلّيه في الرحيل عن هذه الدنيا والتمتّع بفيض الشهادة، فقد كان سليمان ينادي في أوّل الحرب: يا شيعة آل محمّد، فَوَاللهِ ما بينَكم وبين الشهادةِ ودخولِ الجنّة والراحةِ من هذه الدنيا إلّا فراقُ الأنفس، والتوبةُ والوفاء بالعهد. ثمّ أنشد قائلًا:

إليك ربّي تُبتُ مِن ذنوبي ... وقَدْ عَلاني في الوَرى مَشيبي
فارحمْ عُبَيداً غيرَ ما تكذيبِ ... واغفرْ ذُنوبي سيّدي وحَوبي[١]

وقال عبد الله بن سعد:

اِرحمْ إلهي عبدَكَ التَّوّابا ... ولا تُؤاخِذْهُ فقَدْ أنابا
لا كوفةً يبغي ولا عِراقا ... لا، بل يُريدُ المَوتَ والعِتاقا[٢]

وقال رفاعة بن شدّاد:

يا ربِّ إنّي تائبٌ إليكا ... قَدِ اتّكلْتُ شِدّتي عَلَيكا[٣]

وقال صخر بن حُذَيفة الذي كان يقاتل مع ثلاثين من أبناء عمومته:

إنّي إلى اللهِ مِنَ الذَنْبِ أفرّ ... أَنْوي ثوابَ اللهِ فيمَنْ قَد أَسِرْ[٤]

ثورة المختار (سنة ٦٦ – ٦٧هـ)

المختار هو ابنُ أبي عُبيد الثقفيّ الذي ذاع صِيته واشتهر بسبب شجاعته في الحملات الأُولى للعرب المسلمين على الفُرس كقائدٍ للمسلمين، وقد تولّى قيادتهم في موقعة الجسر، ورُزِق الشهادة فيها.

---

١ – الفتوح ٦: ٨٣.
٢ – نفسه ٦: ٨٣.
٣ – نفسه ٦: ٨٤.
٤ – نفسه ١: ٨٥.

وأوّل سابقة للمختار في التاريخ الإسلاميّ هو ما نُسِب إليه من موقفٍ غير شيعيّ اتّخذه من الإمام الحسن عليه السلام، فلمّا جُرح الإمام عليه السلام في ساباط المدائن، وأقام في دار حاكم المدائن، وكان عمّ المختار، عرضَ المختار على عمّه أن يسلّمه لمعاوية ويُثبت له حُسن نيّته، فاضطرب عمُّه من هذا الكلام، وسكت المختار[1].

فقيل: إنّ الشيعة كانت تراه من العثمانيّة[2] بسبب هذا الموقف، إلى أن انتمى إليهم آجلًا، وهذا خبر مختلَق مفترىً لا محالةَ؛ لأنّ الرواة الأمويّين كانت لهم دوافع كثيرة على إظهار المختار بمظهر الرجل المنافق المذبذب الكذّاب المتزعزع. يضاف إليه، أنّه كان من شيعة الكوفة المعروفين قبل واقعة كربلاء كما هو ثابت مُسلَّم به، ولذلك نزل مسلم بن عقيل في داره حين بُعث إلى الكوفة[3]. ولمّا قُبض على المختار واستُشهد مسلم بعد الهجوم على قصر ابن زياد[4]، لم يستطع المختار أن يشترك في ثورته، إذ لم يُضرَب لها أجل من قبل. وكان المختار قد خرج من الكوفة[5]، وحين عاد إليها، كان ابن زياد قد أحكم قبضته عليها، وأعلن الأحكام العُرفيّة، وحُبس عدد كبير من الناس في المسجد كُرْهاً!

ولم يكن المختار عل علمٍ بالأوضاع، فقبض عليه عمّالُ عمرو بن حُرَيث، وكان المختار صديقاً لعمرو، فحثّه على الشفاعة له عند ابن زياد و إخبارِهِ بأنّه استسلم طوعاً. ثمّ سُجن المختار، ولبث في السجن طول المدّة التي كانت فيها واقعةُ كربلاء، ثمّ أُفرج عنه بوساطة زوج أخته عبد الله بن عمر، فأمره ابن زياد أن يغادر

---

١ - **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن سعد: ١٥٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٤١.

٢ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢١٤.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٤٠، وانظر: **مبعوث الحسين**: ٩٨؛ **الكامل في التاريخ** ٤: ٢٢؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٢١٥.

٤ - لم يهجم مسلم على قصر ابن زياد كما ذكر المؤلّف، وهو المشهور. ولمّا أخبرتُ المؤلّف بذلك استدرك بقوله: «بعد محاصرته»، أي محاصرة مسلم عليه السلام. المترجم.

٥ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢١٥.

الكوفة خلال ثلاثة أيّام[1]. وكان طبيعيّاً أنّ ذلك يعود إلى خوف ابن زياد من تحرّكاته ضدّ الأمويّين.

وقيل: إنّه فقد إحدى عينيه بسبب السياط التي ضُرب بها بأمر ابن زياد[2]. ثُمّ توجّه إلى مكّة، وبعد سنةٍ توطّن الطائف التي كانت فيها قبيلته ثقيف، وكان عبد الله بن الزبير حاكم مكّة يومئذٍ، فدعاه إلى التعاون معه بعد رجوعه إلى مكّة، فبايعه بعد أن أخذ منه تعهّداً بأن يكون شريكَه في الأعمال. وحاصر جيش الشام مكّة في تلك البرهة، فدافع المختار عن الحرم مع سائر المسلمين دفاعاً شديداً إلى أن تقهقر جيش الشام، وشارك في ذلك الدفاع جماعةٌ من الخوارج أيضاً[3]؛ وسبب ذلك هو مواجهة انتهاك الجيش الشاميّ لحُرمة الكعبة والحرم.

وعاد المختار إلى الكوفة بعد انتهاء الحصار، وحين خضعت لسلطة الزبيريّين. وكان ابن الزبير شاكّاً في المختار، فلم يعتدّ به ولم يفوّض إليه عملًا. ونسب أغلب المؤرّخين إلى المختار أنّه كان بعد واقعة كربلاء يُكثر من الحديث عن الانتقام من قَتَلَةِ الإمام الحسين عليه السلام، وعن ثورته المتوقَّعة[4]!

وصادف قدومُه إلى الكوفة تأهّب التوّابين للخروج منها، ومن الطبيعيّ أنّ شخصيّة سليمان بن صرد وسابقته تفوقان شخصيّة المختار وسابقته كثيراً. ولم يتمكّن المختار، رغم رغبته في ذلك، من استمالة الشيعة إليه، وفي الوقت نفسه،

---

١ - **تاريخ الطبري** ٤: ٤٤١ - ٤٤٢. وقال اليعقوبيّ: وكان المختار ... أقبل في جماعة عليهم السلاح يريدون نصر الحسين بن عليّ عليه السلام، فأخذه عبيد الله بن زياد فحبسه. انظر: **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٥٨.

٢ - **المحبّر**: ٣٠٣.

٣ - **تاريخ الطبري** ٤: ٤٤٦.

٤ - نفسه ٤: ٤٤٧.

لم يؤيّد عملَ سليمان، وكان يقول فيه بصراحة: لا عِلمَ له بالحروب والسياسة[١].

وأدّى تصريح المختار إلى تباطؤ عمل التوّابين... ومع ذلك، كان معظم الشيعة مع سليمان. ولم يلتحق بالمختار آنذاك إلّا ثلّةٌ قليلة بلغت ربع التوّابين كما ذكر بعض المصادر. ولم يكن أمام المختار سبيلٌ إلّا الصبر، وكان عليه أن ينتظر حتّى يتبيّن أمر التوّابين[٢]. وبعد خروج سليمان من الكوفة، دفع قَتَلَةُ الإمام الحسين عليه السلام حاكمَها الزبيريّ إلى سجن المختار؛ لأنّهم كانوا خائفين منه خوفاً عظيماً. كان هذا على الرغم من الضغوط التي مارسها الشيعة على الحاكم المذكور، وكذلك استناداً إلى سابقته مع المختار، فطلبوا منه أن يطلقه. وبعد ذلك تشفّع عبد الله بن عمر إلى ابن الزبير فيه، فأطلقه بعد ضمانةٍ قدّمها الشيعة[٣]. ولمّا بلغ الكوفة خبر انكسار التوّابين ورجوعهم إليها، كان المختار في السجن، فكتب إلى رفاعة بن شدّاد يُعزّيه، وترحّم على سليمان وأثنى عليه، وطلب من الباقين أن يتهيّأوا للثورة، ودعاهم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، والطلب بدماء أهل البيت عليهم السلام، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المُحلّين (الذين هَتكُوا حُرمة الإسلام، وحَلّلوا حرامَه)[٤]!

وعزل عبدُ الله بن الزبير حاكمَ الكوفة سنة ٦٦هـ، وولّى مكانه عبدَ الله بن مطيع، وقد ذكر ابن مطيع في بداية عمله أنّه يسير في الشؤون الماليّة بسيرة الخليفة الثاني والثالث فأنكر عليه السائب بن مالك الأشعريّ ذلك بتحريض المختار، وقال له: «... غيرَ أنّا نُحبّ أن تسير فينا بسيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب...»[٥].

---

١ - نفسه ٤: ٤١٩، ٤٢٤.

٢ - **الفتوح** ٦: ٥٦.

٣ - نفسه ٥: ٧٤؛ وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٨٨.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٧١، ٤٧٨؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٢١٢.

٥ - **الفتوح** ٦: ٨٨؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٢٢٠ - ٢٢١.

ومارس المختار عملَه سِرّاً، وكان يجمع الشيعة في مجالس خاصّة، ويدعوهم إلى نفسه كممثّلٍ لمحمّد ابن الحنفيّة. وفي الوقت الذي حازت هذه القضيّة الشيعةَ إليه، ولّدت الشكّ في نفوسهم أيضاً، الشكّ في مدى صدق المختار بادّعائه تمثيلَ محمّد ابن الحنفيّة! فعزموا على الذهاب إلى المدينة والاستفسار من محمّد ابن الحنفيّة نفسه عن الموضوع كي يطمأنّوا، فتوجّه عبد الرحمان بن شُرَيح وجماعةٌ معه إلى المدينة والتقوا بمحمّد ابن الحنفيّة لقاءً خاصّاً وسألوه عن موقفه من المختار، فأخبرهم عن تأييده له بنحوٍ غير صريح، قائلًا: وأمّا ما ذكرتُم مِن دعاءِ مَن دَعاكم إلى الطلب بدمائِنا، فَوَاللهِ لَودِدْتُ أنّ اللهَ انتصرَ لَنا مِن عدوِّنا بِمَن شاءَ مِن خَلْقِه[1].

ولم يقل أكثرَ من ذلك، فقاموا وأتَوُا الكوفة، وجاءهم سائر الشيعة يسألونهم عن الأمر، فأخبرهم ابنُ شريح أنّهم سألوا محمّد ابن الحنفيّة، «فأمرهم بمظاهرته[2]»، «وأذن لهم في نُصرته[3]». وهذا ما أدّى إلى التحاق من لم يكن التحق به من الشيعة سابقاً.

وكان المختار يبحث عن رجالٍ أشدّاءَ وُجَهاء؛ كي يُعزّز قاعدته الشعبيّة بهم وبدعم بعض رؤساء القبائل... ومن هؤلاء: إبراهيم بن مالك الأشتر الذي كانت له منزلته؛ لشهرة تشيّع أبيه من جهة، ولشجاعته ووجاهته عند نَخَع الكوفة من جهةٍ أُخرى... فحادَثَه المختار، فحازه إليه، وبه عزّز موقعه بالكوفة، وإن انفصل عنه إبراهيم بعد ذلك.

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٩٣؛ **الفتوح** ٥: ٩١، ٩٢، ٩٣.

٢ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٢١.

٣ - انظر: **الفتوح** ٦: ٩٥. وقال أبيه: وهو سيّد الناس في محبّة أهل البيت عليهم السلام. [هذا كلام أحد الشيعة لإبراهيم بن مالك الأشتر، ويريد هنا أباه مالكاً] المترجم.

وقُرِّر أن تبدأ الوثبة ليلةَ الخميس الرابعَ عشر من ربيع الأوّل سنة ٦٦هـ، وتخرج المدينة من قبضة آل الزبير. وكان عبد الله بن مطيع أمر قبلَ ليالٍ من سماعه خبرَ تحرّك المختار، بإحكام السيطرة على الكوفة أكثر ومراقبة التجوّل ليلًا. وفي أيّ حال، لا يمكن لمثل هذا الخبر أن يسدل عليه الستار، ولذا كان قد أُعلِم من البداية أنّ جماعةً من الترابيّة بايعت المختار[١].

اصطدم إبراهيم وجنوده بعسكر ابن مطيع قبل الموعد بليلتين، فأفلح في قطع رأس إياس بن مضارب رئيس شرطة ابن مطيع، وتفريقهم. ولكن كان واضحاً أنّ عليهم أن يبدأوا عملهم قبل الأجل المسمّى... ورُفِع شعار يا منصورُ أمِتْ (وهو الشعار الذي كان يرفعه المسلمون في حروب صدر الإسلام)، وشعار يا لثاراتِ الحسين[٢]، وهو الاتّجاه الأصليّ في حركة المختار، ولحق به الشيعة. قال ابن أعثم: وجعل الناسُ يخرجون إليه من كلِّ ناحيةٍ على كلِّ صَعْبٍ وذَلول[٣].

وكانت كتائب إبراهيم تتجوّل في المدينة (الكوفة) ليتمكّن الشيعة من الالتحاق بهم... وعملًا بسيرة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، لم يُجِز المختار لأصحابه أن يبدأوا الحرب قبل أن يبدأها عدوُّهم، فطلب من إبراهيم ألّا يبدأها[٤]. وحدثت اشتباكات عديدة عند استيلاء قوّات المختار على المدينة[٥]. وعلى الرغم من وجود القوّات الغفيرة تحت يد عبد الله بن مطيع (قُرابة عشرين ألفاً)[٦]، استطاع المختار ـ الذي كان تحت يده خُمْسُ هذا العدد ـ أن يُخرج المدينة من ابن مطيع،

---

١ - **الفتوح** ٦: ٩٩؛ كان بنو أميّة، وتبعاً لهم آل الزبير، يريدون من لقب الترابيّة عادةً امتهان الشيعة.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٩٨؛ **الفتوح** ٦: ١٠٣.

٣ - **الفتوح** ٦: ١٠٥.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٩٨.

٥ - **الفتوح** ٦: ١٠٣.

٦ - نفسه ٦: ١٠٦؛ وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٠٠، ٥٠١.

ويُسيطر عليها.

وكان أمراء جيش المختار يحضّون الشيعة أثناء القتال باستمرارٍ على التشدّد في الحرب، فكان يزيد بن أنس أو مالك بن السائب الأشعريّ يقول: يا معشرَ الشيعة، قد كنتم تُقتَلون، وتُقطع أيديكم وأرجلكم، وتُسمَل أعينُكم، وتُرفَعون على جُذوع النخل في حبِّ أهل بيت نبيّكم، وأنتم مُقيمون في بيوتِكم وطاعةِ عدوّكم... فما ظنُّكم (إذ أتيتم إلى هنا) بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم؟ إذاً واللهِ لا يَدَعون منكم عَيناً تطرف، ولَيقتُلنّكم صَبراً![1]

وأخيراً، حاصر أصحابُ المختار قصرَ الإمارة بعد مقتل راشد بن إياس بن مضارب، وتفرّق الجند الذين كانوا يقاتلون بقيادة شبث بن ربعيّ، وخرج عبد الله ابن مطيع من القصر خفيةً بعد ثلاثة أيّام، واستسلم الباقون بعد أخذ الأمان.

وكان الأشراف ـ وهم أهمّ فئة مقتدرة بالكوفة ـ قد مالأوا بني أميّة قبل قدوم الزبيريّين، ثمّ التحقوا بهم حين قدموا ـ خوفاً من الشيعة وغلبتهم[2]، وكذلك تأسّى بهم كثير من الناس. وكان معظم جند المختار من الموالي الفُرس وغير الفُرس، على عكس التوّابين الذين كان جندهم كلّهم عرباً... يُضاف إلى ذلك أنّ الشريحة العربيّة التي كانت شيعيّة، التحقت به أيضاً.

والموالي أناس كانوا يحملون ذكرياتٍ طيّبةً للمعاملة الإنسانيّة والإسلاميّة التي كان يعاملهم بها أمير المؤمنين عليه السلام من جهة، وتحمّلوا ضغط بني أميّة والأشراف التابعين لهم خلال الفترة التي تلت سنة ٤٠هـ، من جهة أخرى؛ لذا كانوا يبحثون عن الفرصة المناسبة كي يتمكّنوا من تغيير موقعهم العويص في المجتمع، والتحرّر من ربِقة الذُّلّ الذي كانوا قد مُنوا به من قبل... فظهور المختار كان في مصلحتهم

---

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٠٣؛ الفتوح ٦: ١٠٨، ١٠٩.

٢ - انظر: تاريخ الطبريّ ٤: ٥٠٧.

ليحصلوا بسببه على قدرةٍ وجاهٍ لهم، كما كان في مصلحة المختار نفسه على حدٍّ سواء ليقمع عدوّه بمؤازرتهم.

ولمّا تقرّر أن يكون القتال في غداة اليوم الموعود قرأ شَبَث بن رِبْعيّ سوراً قصيرة في الصلاة، وحين أُنكر عليه ذلك، قال: تَرَون الديلم قد نزلت بساحتكم، وأنتم تقولون: لو قرأت سورة البقرة وآل عمران[1]! ولمّا فرّ الناس جميعهم، نادى شبث بن ربعيّ: أأنتم مِن عَبيدِكم تَهربون[2]؟! وبلغ كُره الأشراف للموالي مبلغاً أنّهم إذا أَسروا منهم أحداً قتلوه، أمّا إذا أسروا أحداً من العرب فإنّهم يُطْلقونه[3]. وقال الدينوريّ: «... وكان جُلّهم [جند المختار] أبناء الفُرس الذين كانوا بالكوفة»[4]. وكان قائد عسكر الشام يقول أمام عسكر المختار: «يا أهلَ الشام، إنّكم إنّما تقاتلون العبيد الآباق، وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست لهم تقيّة، ولا ينطقون بالعربيّة»[5]، وقال محمّد بن الأشعث - وهو من الأشراف، وقد فرّ إلى البصرة - لمصعب: «ورائي الترك والديلم»[6]. ولمّا أخذ الأشراف والزبيريّون الكوفة بعد سنة أمر مصعب بقتل الموالي جميعاً! «فقد بدا كفرهم (بنظرهم)، وعظم كِبرهم، وقلّ شكرهم»[7]! والخبر العجيب هو ما قاله المُغيرة بن شُعبة قبل ذلك بسنين: لو دُعيَ العجم إلى نُصرة آل محمّد

---

١ - نفسه ٤: ٥٠١؛ **الفتوح** ٦: ١٠٧. تعبير «الديلم» كان يطلق غالباً على كفّار الفرس، والموالي مسلمون طبعاً (أو في الأقل كثيرٌ منهم)، لكنّ هذه الكلمة كانت تستعمل من أجل النظر إليهم ككفّار، ومن ثَمّ عزلهم عن العرب المسلمين.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٠٢؛ **الفتوح** ٦: ١٠٨.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٠٢.

٤ - **الأخبار الطوال**: ٢٩٣، وانظر: ٣٠٦.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥١٦.

٦ - **الفتوح** ٦: ١٣٨.

٧ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٩٤؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٧٧.

والطلبِ بدمائهم، لاجتمعوا على ذلك[١]! وانتصر المختار في خاتمة المطاف، وفرّ بعض الأشراف إلى البصرة، ولزم بعضُهم بيوتَهم منتظرين القضاء الإلهيّ الذي ظهر بعد حين.

وبايع المختارَ أهلُ الكوفة أميراً عليهم، ونظراً إلى عقيدته الشيعيّة قال لهم: «ما بايعتم بعد بيعةِ عليٍّ بن أبي طالب وآلِ عليٍّ أهدى منها»[٢]. ثمّ عرض أُسس تلك البيعة: «العملُ بكتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، والطلبُ بدماء أهل البيت عليهم السلام، وجهادُ المُحلِّين، والدفع عن الضعفاء، وقتالُ من قاتَلَنا، وسِلمُ مَن سالَمَنا»[٣].

وحاول المختار ـ الذي وقعت الكوفة في قبضته ـ أن يبدأ بإقرار الأمن العامّ، ثمّ يقتصَّ من الذين كان لهم دَورٌ في واقعة كربلاء، وأبدى حُبَّه ولطفه بالأشراف في البداية، وجدّ في استمالتهم وكسبهم[٤]، حتّى إنّ بعض الموالي أساء به الظنّ، لكنّه أعلمهم مُلمِّحاً بأنّ هدفه الأصليّ هو ما يتوقّعونه منه، وأنّ موقفه المذكور مؤقّت، فلا يشقّنّ عليهم ذلك[٥]. وكانت الكوفة مركزاً للأمصار الشرقيّة من العالم الإسلاميّ، وكذلك لشمال العراق، فمناطق: الموصل، وحُلوان (القريبة من سَرْبُل ذهاب)، والمدائن، وكذلك أرمينيّة، وآذربايجان، وأرّان، وحُوران، وماهيان، والريّ، وأصفهان... كانت خاضعة لسلطة العراق.

ولم يصرف المختار وقتاً طويلًا لتهدئة الكوفة، إذ وافاها خبرُ قدوم الجيش الأمويّ بقيادة عبيد الله بن زياد وسار هذا الجيش، الذي كان هزم التوّابين، إلى

١ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٢٣ . ومن الجدير بالذكر أنّ المغيرة لم يدرك كربلاء، وكان يخشى من نسبة هذا الكلام إليه، ولكن مهما كان فهو يعبّر عن حقيقة.

٢ - **الفتوح** ٦: ١٠٣.

٣ - نفسه ٦: ١٠٦، وانظر: **تاريخ الطبري** ٤: ٥٠٠، ٥٠١.

٤ - **تاريخ الطبري** ٤: ٥٠٣.

٥ - نفسه ٤: ٥٠٩.

الموصل بعد أن اصطدم بقبيلة قيس بن غَيلان.[١]

ووجّه المختار جيشاً قوامُه ثلاثة آلاف لقتال ذلك الجيش البالغ ستّة آلاف فنشب القتال بينهما، وقُتل ربيعة بن مُخارِق آمر عسكر ابن زياد، وأسر أصحاب المختار ثلاثُمائةٍ منهم... مع هذا، فقد كان بيّناً أنّ هذا العدد لا قِبَلَ له بجيش الشام، لذا أمدّهم المختار بسبعة آلاف، وقائدهم إبراهيم بن مالك الأشتر، كقوّة إسناد.

إنّ تولّي المختار الأمرَ لا يمكن أن يروق للأشراف أبداً؛ لأنّه أعلن أنّ هدفه من عمله هو الانتقام من قَتَلَة الحسين بن عليّ عليهما السلام، والأشراف كانوا من قتَلَتِه الأصليّين، فكان هذا هو السببَ الأوّل لسخطهم عليه. أمّا السبب الثاني فهو إقباله على الموالي واجتذابهم إلى حركته، بسبب ضآلة القُوى الشيعيّة بالكوفة، وهذا يعني سحقَ الأشراف. وكان أهمّ ماينتقدونه عليه تخصيصه نصيباً من الفيء لهم[٢].

وانتهت هذه الانتقادات التي جرت في دار شَبث بن رِبْعيّ بإيفاد شبث إلى المختار و إخباره بهذه الأمور. فجاءه وقال له:... وأعظمْ الأشياء عليك أنّك عَمَدتَ إلى عَبيدِنا وهم فَيئُنا الذين أفاءَ الله بِهم، فأخذتَهم إليك، ثمّ لم تَرضَ بأخذِهم حتّى جعلتَهم شركاءَ في فَيئنا، ولا يحلُّ لك هذا في دِينك، ولا يَجملُ بك في شرفِك[٣].

فمطلبهم في الحقيقة هو أنّه لو تعهّد بإرجاع الموالي إليهم، لأقلعوا عن معارضته.

---

١ - جاء في خبر ابن أعثم (٦: ١٣٩) أنّ جيش الشام رجع إليها بعد اصطدامه بالمختار ثمّ توجّه إلى الجزيرة، ومنها إلى الموصل للاستيلاء على العراق.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥١٨.

٣ - **الفتوح** ٦: ١٤٦.

فعرض المختار عليهم ما كان واثقاً من رفضهم له، وهو أنّه لو فعل ما يريدون، فهل يكونون إلى جانبه في حرب آل الزبير وبني أُميّة[١]؟ فذهب شبث ليأتيَ بالجواب، لكنّه لم يرجع، وهذا يعني أنّهم عزموا على التمرّد.

وانتقادهم الآخر كان تشيّعَ المختار وحُماتِه، وإظهارُهمُ البراءة من أسلافنا الصالحين[٢]! ويُحتمَل أنّ مرادهم هو ذمُّ الشيعة لكثيرٍ من صحابة النبيّ ﷺ (لِما أحدثوه من الانحرافات).

وذهبوا إلى عبد الرحمان بن مخنف لاستشارته، فحذّرهم من حرب المختار، وقال لهم:... ومَعَه أشرافُكم وشجعانكم وفرسانكم، ومعه أيضاً عبيدُكم، وفيهم شجاعة العرب وعداوة العجم! وطلب منهم أن يصبروا حتّى تصل العساكر من البصرة (من آل الزبير)، أو من الشام[٣]. فرفضوا ذلك؛ لأنّ أغلب القوّات الموالية للمختار آنذاك، بخاصّة إبراهيمَ بن مالك الأشتر، قد سارت نحو الموصل، فشعروا بأنّهم يستطيعون هزيمته في هذه الآونة بسهولة.

وبدأ التمرّد، وكان جيش إبراهيم الذي خرج من الكوفة لم يصل إلى المدائن بعدُ... ورأى المختار تدهور الأوضاع، فبعث إلى إبراهيم ليرجع إلى الكوفة، وتصدّى بنفسه لمفاوضة المتمرّدين مفاوضةً عقيمةً ليُشغلهم[٤]. لكنّ القتال بدأ قبل وصول إبراهيم بيومٍ واحد. وكان تعجيل إبراهيم في الرجوع، وصمودُ المختار قد أفضيا إلى نصره وهزيمتهم. فقُتِل مئة وخمسة وثلاثون من أصحابه، وستُّمئة

---

١ - نفسه.

٢ - **تاريخ الطبري** ٤: ٥١٨.

٣ - **الفتوح** ٦: ١٤٧؛ **تاريخ الطبري** ٤: ٥١٨؛ لقد وهم المؤلّف في ترجمة النصّ إذ لم يرد فيه أنّ الموالي أو عبيدهم فيهم شجاعة العرب وعداوة العجم، بل جاء في **تاريخ الطبري**: فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، ولم يرد هذا الكلام في **الفتوح**. المترجم.

٤ - **الفتوح** ٦: ١٤٩.

وأربعون رجلًا من الذين عبّأهم الأشراف للقتال.

إنّ تمرّد الأشراف حفزّ المختار ـ الذي لم يثأر بدماء أهل البيت عليهم السلام حتّى ذلك الحين، ورجا انحياز الأشراف إليه ـ حفّزه على القيام بعمل مناسب في هذا المجال، وكان أوّل إجراء اتّخذه هو قتل (٢٨٤) أسيراً كانوا أُسِروا في حربه مع أشراف الكوفة، وهؤلاء شَهِد عليهم الناس أنّهم كانوا في كربلاء قد قاتلوا الإمامَ الحسين عليه السلام.

ثمّ أعلن أنّه مَن أغلق بابَه فهو آمن، إلّا رجلًا شَرِكَ في دمِ آل محمّد صلى الله عليه وآله[1].

وهنا أيقن الأشراف أنّه سيقبض عليهم هذه المرّة بكلّ صرامة حتّى يُفنيَهم، ففرّوا إلى البصرة، واختفى جماعة منهم في الكوفة نفسها. وأعلن المختار ما مِن دينِنا تَرْكُ قومٍ قتلوا الحسينَ يمشون أحياءً في الأرض! وهذا يعني الإعلانَ عن قتلهم، وكان أصحابه يذكرون مَن اشترك في واقعة كربلاء واحداً بعد الآخر، ويأتون بهم إليه، فكان يقطع أيدي بعضهم وأرجلَ بعضٍ، حتّى قتل منهم مقتلةً عظيمة[2]، وقد خُمِّن عدد المقتولين الذين أجرموا في كربلاء بثلاثة آلافٍ تقريباً[3].

وممّن نالَتهم يدُ الانتقام: شمرُ بن ذي الجوشن [لعنه الله] الذي قبض عليه رسلُ المختار في منتصف طريق فراره إلى البصرة، ومنهم عمرُ بن سعد بن أبي وقّاص [لعنه الله] الذي كان قائد الجيش في كربلاء، وكان المسبِّبَ والمتّهمَ الأوّل في الكوفة آنذاك بعد ابن زياد، وكان المختار قد آمَنه في البداية (حين كان يحاول استمالة الأشراف)، وقيّد ذلك الأمان بقوله: «إلّا إذا أحدثَ حَدَثاً»! ولمّا قُبِض عليه في تلك الجَلَبَة، أراهم عمر كتابَ الأمان، فأخبروه أنّ هذا القيد يمكن أن يشمل

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٢٤.

٢ - الفتوح ٦: ١١٩.

٣ - نفسه ٦: ١٣٩.

كلَّ إحداث[١]، حتّى طيران الحمامة! أو الدخول في البيت والخروج منه.

ولم يقتل المختارُ عمرَ بن سعد فحسب، بل قتل ابنَه حفصاً معه أيضاً، وبعث برأسيهما إلى المدينة وقال: «هذا بالحسين عليه السلام، وهذا بعليّ بن الحسين [الأكبر]، ولا سَواء»[٢]. «وروى بعضهم أنّ عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام لم يُرَ ضاحكاً يوماً قطّ منذ قُتِل أبوه، إلّا في ذلك اليوم»[٣]؛ لأنّه كان قبل ذلك باكياً كئيباً في أكثر وقته، وقد نقل الطبريّ وابن أعثم أخباراً مفصّلةً عن قتلِ مُختَلَف الرجال.

وأوجدت هذه الحوادث حدّاً خاصّاً؛ وامتاز الشيعة عن سائر الفِرق تماماً. و إذا كان المختار قد سعى قبل ذلك إلى استمالة جميع الأجنحة، فرصيدُه الآن هم الشيعة وحدهم. ونِدّه أنصار آل الزبير مضافاً إلى أنصار بني أميّة، وعددهم ليس بقليل، وقد ولّى كثير منهم إلى البصرة، وكثير ظلّ يتربّص الفرصة أيضاً، مع هذا كان المختار يجدّ في زيادة وجده وحبّه. وقد تحدّث المؤرّخون في سيرته، فقال الطبريّ:... وكان المختارُ أوّلَ ما ظهرَ أحسنَ شيء سيرةً وتألّفاً للناس[٤]، وقال ابن أعثم: وأحبّه الناسُ حبّاً شديداً[٥]، وقال البلاذريّ: وأحسَنَ المختارُ مُجاورةَ أهلِ الكوفة والسيرةَ فيهم[٦]، وهذا الإحسان للشيعة طبعاً، لا للذين كان غاضباً عليهم، من هنا قيل: كان عبد الله بن جعدة أكرمَ خلقِ الله على المختار؛ لقرابته مِن

---

١ - نفسه ٦:، ١٢٢، ١٢٣. وأثر عن **الإمام الباقر** عليه السلام أنّه قال: أمّا أمان المختار لعمر بن سعد إلّا أن يحدث حدثاً؛ فإنّه كان يريد به إذا دخل الخَلاءَ وأحدث... .

٢ - **الفتوح** ٦: ١٢٣.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥٩.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٣١.

٥ - **الفتوح** ٦: ١٢٠.

٦ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٢٨ - ٢٢٩. قال المَقْدسيّ: «و كان المختار يحتال في استمالة الناس بضروبٍ من الحيل». انظر: **البدء والتاريخ** ٦: ٢٢.

عليّ عليه السلام[١]. وحين فرغ المختار من علاج مشاكله الداخليّة بقمع الأشراف والمنتمين إلى الأمويّين والزبيريّين، فكّر في توسيع المناطق الخاضعة لحكومته.

وكانت البصرة، وهي مأمنُ الفارّين من الكوفة وقاعدةُ الزبيريّين في العراق، من المناطق التي عُنَي بها، كما كانت بؤرةَ خطرٍ عليه طبعاً. ويمكن لعمله أن يستميل شيعتها، وعددُهم جِدُّ قليل، وكان زعيمهم المثنّى بن مخرَّبة الذي سارع إلى نُجدة التوّابين، بيد أنّه لم يستطع أن يشهد قتالهم في وقته، وبايع هذا الرجلُ المختارَ، فوجّهه المختار إلى البصرة ليُنهض الناس على ابن الزبير، فذهب وجمع فريقاً من قومه وغيرهم، ونشب قتال بينه وبين معارضيه، وقُتِل فيه أربعون رجلًا من أصحابه، ثمّ توسّط الأحنف بن قيس بينهما، فتوجّه تلقاء الكوفة والتحق بالمختار مع ثُلّةٍ من أنصاره[٢].

أمّا المنطقة الأخرى التي نالت اهتمام المختار فهي الحجاز، المَقرُّ الأصليّ لابن الزبير، والحجاز كان مُعرَّضاً يومذاك لخطر حملة الجيش الأمويّ عليه من جهة وادي القُرى. وقد حاول المختار في خطّةٍ معيّنة أن يبعث إليه جيشاً ويسيطر على المدينة، متظاهراً بإعانة ابن الزبير على دفع الخطر الشاميّ، فقبل ابن الزبير معونته، فأشخص المختارُ ثلاثةَ آلاف رجل إلى الحجاز، ليس فيهم إلّا سبعمئة من العرب[٣]. وأشخص ابن الزبير أيضاً ألفَ رجل إلى المدينة، وهو لم يطمئنّ إلى المختار طبعاً، وأوصاهم بأن يجاروا أصحاب المختار إذا هم رَضُوا أن يكونوا في طاعتهم، و إلّا فَلْيقضوا عليهم! ولم يُرد المختار أن ينكشف هدفه الحقيقيّ، فأوصى قائد جيشه بأن يسير إلى الحجاز، وسيبعث إليه في الفرصة المناسبة كتاباً

---

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٣١.

٢ - نفسه ٤: ٥٣٦، ٥٣٧.

٣ - نفسه ٤: ٥٤٢.

يحتوي على تعليماته اللّازمة.

واصطدم جيش ابن الزبير بجيش المختار قبل أن تصل تعليمات المختار إلى جيشه. وهُوجم أصحاب المختار، إذ أبَوُا الانضواءَ تحت راية الزبيريّين، فقُتِل كثير منهم، كما فرّ عدد غفير منهم أيضاً. واستبان الهدف الحقيقيّ للمختار في كتابٍ لاحقٍ له كتَبَه إلى محمّد ابن الحنفيّة، جاء فيه: فإنّي كنتُ بعثتُ إليك جُنداً ليُذلّوا لك الأعداء، وليحوزوا لك البلاد. ويتبيّن من هذا الكتاب أنّ هدف المختار كان هو القضاء على أعداء أهل البيت عليهم السلام، وإطلاقَ الحجاز للسيادة الشيعيّة، فأجابه ابن الحنفيّة ممجِّداً إيّاه ومُثْنياً على نيّته، وقال له بعد أن استأذنه المختار في بعث جيش كثيفٍ إلى المدينة: «واعلمْ أنّي لو أردتُ القتال لَوجدتَ الناس إليّ سراعاً، والأعوانَ لي كثيراً، ولكنّي أعتزلُهم...»[1].

ولمّا ذهب محمّد ابن الحنفيّة وجماعةٌ من بني هاشم معه إلى مكّة، طلب منهم ابن الزبير مُوعِداً أن يبايعوه... وحين أبَوا، حَبَسهم وهدّدهم بالحرق! وهذا عمل كان يتطلّب من ابن الزبير جرأةً بالغة؛ لكنّه لاحظ أنّهم إذا لم يبايعوه فلا قِبَلَ له بتوطيد حكمه في المناطق الأُخرى ببالٍ رخيّ، يضاف إلى ذلك أنّ بيعتهم مِن شأنها أن تُضعف عمل المختار الذي كان يزعم أنّه مبعوثُ محمّد ابن الحنفيّة في الكوفة. وعندما أُنكر على عروة بن الزبير ـ الذي كان يزعم أنّه فقيه ـ عملَ أخيه عبد الله بن الزبير في حصر بني هاشم وجمعه الحطب لحرقهم، قال: «إنّما أراد بذلك أن لا تنتشر الكلمة ولايختلفَ المسلمون، كما فعل عمر بن الخطّاب ببني هاشم لمّا تأخّروا عن بيعة أبي بكر، فإنّه أحضر الحطب ليحرق عليهم الدار»![2] وإذ رأى ابن

١ - نفسه.

٢ - أنساب الأشراف ٣: ٢٨٢.

الحنفيّة الأوضاع بهذا الشكل بعث إلى المختار من أجل أن يُسارع إلى إغاثتهم[١]، فوجّه المختار مئةً وخمسين رجلًا إلى مكّة في ثلاث مجموعاتٍ لئلّا يَعرف أمرَهم أحد، وأمرهم أن يخلّصوا بني هاشم بلا قتال، فسار هؤلاء حتّى وافَوا مكّة، وتحرّكوا نحو زمزم، حيث محبس بني هاشم، وهم يردّدون شعار يالثارات الحسين[٢]، فأطلقوهم. وامتنع ابن الزبير ومبعوثو المختار من القتال الذي يسبّب إراقة الدماء في الحرم، ولمّا دخل أصحاب المختار مكّة وهم يحملون الخشب (لا السيوف)، اشتهروا بـ«الخَشَبيّة»[٣].

ويمكن أن نعدّ مواجهة جيش الشام أهمَّ عمل قام به المختار، وكان ذلك في سنة (٦٧هـ) حين التقى جيش المختار بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر، بجيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد، فقُتِل في هذه المواجهة بعض الرجال المهمّين من قادة الشام الذين كانوا اشتركوا في حروب كثيرة ضدّ العراق، ومنهم: عبيد الله بن زياد، و الحُصَين بن النُّمَير السكونيّ، و شَرْحَبيل بن ذي الكِلاع، وضَلَّ مَن بقيَ منهم في الموصل متعثّراً متشرّداً.

أمّا الذين فرّوا إلى البصرة خوفاً من المختار، فهم المؤلّبون الأصليّون لمصعب ابن الزبير على مهاجمة الكوفة، وحرّضوه على قمع المختار و إخضاع الكوفة لسلطة آل الزبير، وفيهم: محمّد بن الأشعث بنِ قيس الذي كان من قَتَلَةِ الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان أحد أُمراء القوّات الزبيريّة في الحملة على الكوفة! فضلًا عن

١ - نفسه ٣: ٢٨٣؛ **الكامل في التاريخ** ٤: ٢٥٠.

٢ - **أنساب الأشراف** ٣: ٢٨٥.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٤٤؛ **مروج الذهب** ٣: ٩٩؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٨٥، ٥: ٢٣١. وقيل: إنّهم حملوا الخشب الذي كان قد جمعه ابن الزبير لحرق ابن الحنفيّة وسائر بني هاشم.

ذلك أنّهم أرسلوا إلى الكوفة أشخاصاً لتثبيط الناس عن نُصرة المختار[١]. يضاف إليه أنّ إبراهيم الأشتر الذي كان بسط سيادته على الموصل، رفض الرجوع إلى الكوفة لدعم المختار. وحاول المختار أيضاً أن يعبّئ أهل الكوفة، فخطب فيهم، وممّا كان قاله لهم: «إنّ فرّاركم الذين بَغوا عليكم أتَوا أشباهُهم من الفاسقين فاستغوَوهم عليكم، ليَمصَحَ[٢] الحقّ وينتعش الباطل».[٣] ولمّا التقى الجانبان، طلب الزبيريّون من جند المختار أن يبايعوا عبدَ الله بن الزبير أميراً للمؤمنين ويَدَعوا الحرب، أمّا أصحاب المختار فقد طلبوا منهم أن يبايعوا المختار ويجعلوا الخلافة في «آل الرسول»[٤].

وكان القائد الأصليّ لقوّات ابن الزبير هو المهلّب بن أبي صُفْرة، وقائد قوّات المختار هو أحمر بن شُمَيط... وتولّى محمّد بن الأشعث قيادة القوّات الفارّة من الكوفة إلى البصرة، وانتهى القتال في مصلحة ابن الزبير وأعوانه، واستُشهد المختار مع ثلّة من أنصاره.

وكنّا قد ذكرنا فيما تقدّم أمثلةً جمّةً على عقيدة المختار وأصحابه للتشيّع، وحبّه الشديد لأهل البيت عليهم السلام، حتّى لا يمكن الشكّ في ذلك تاريخيّاً... وكذلك توجد أمثلة على دعم محمّد ابن الحنفيّة له، ممّا يؤيّد ثورته، وإن كان نسبيّاً. وموقفه في الانتقام من الأمويّين والأشراف يدلّ بوضوح على استعداده للتضحية بمقامه من أجل بلوغ هدفه المتمثّل بالقبض على قَتَلَة الإمام الحسين عليه السلام وإبادتهم.

---

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٩٩.

٢ - مَصَح الشيء يمصَح مُصوحاً، إذا ذهب. ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٣٤٤ «مصح».

٣ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٥٩.

٤ - نفسه ٤: ٥٦٠.

وتوجيهه الضربات القاصمة الكثيرة للكيان الأمويّ، ومحاربته للحزب الزبيريّ، دفعاهم إلى التخرّص عليه وقذفه بأنواع التُّهم، كادّعائه «النبوّة»!، وزعمه «المهدويّة» لابن الحنفيّة! وتأسيسه الفرقة الكَيْسانيّة، وأعمّ من ذلك كلّه رميه بلقب «الكذّاب» الذي أشار إليه جمع من المتون[١]، وأغلب هذه التقوّلات ـ كما ألمع إليه أحد الباحثين أيضاً ـ حِيك عليه بعد وفاته[٢].

ونحن نعتقد ـ على فرض وجود أخطاء عند المختار ـ أنّ الحريّ بالعلم هو أنّ أهمّ سبب للافتراء عليه هو ضرباته التي أنزلها بالكيان الأمويّ، والزبيريّ... فحين وصل خبر قتله إلى مكّة قال ابن الزبير لابن عبّاس: «ألم يَبلُغْك قتلُ الكذّاب؟ قال ومن الكذّاب؟! قال: ابن أبي عُبَيد، فقال: قد بلغني قتلُ المختار، قال: كأنّك تكره تسميته كذّاباً وتتوجّع له! فقال: ذلك رجلٌ قتَلَ قَتَلَتَنا، وطلب بدمائِنا، وشفى غليلَ صدورِنا، وليس جزاؤُه مِنّا الشتمَ والشَّماتة»[٣]. وذُكر المختار عند ابن عبّاس مرةً فقال: صلّى عليه الكرامُ الكاتبون.[٤] وقيل: إنّ ابن عبّاس، و ابن الحنفيّة، بل وابن عمر أيضاً كانوا يقبلون هداياه.[٥]

ولمّا أُخذ رأس عبيد الله بن زياد ابن أبيه إلى الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام بالمدينة، قالوا: لم يبقَ مِن بني هاشم أحدٌ إلّا قام بخُطبةٍ في الثناء على المختار، والدعاءِ له وجميلِ القول فيه[٦]. وروى الكشّيّ أيضاً عنَ الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: لا تَسبُّوا المختار؛ فإنّه قتَل قَتَلَتَنا، وطلب بثأرِنا، وزوّج أراملَنا، وقسم فينا المالَ على

---

١ - انظر: مصنّف عبد الرزّاق ٥: ٣٠٠.

٢ - Hadgson , How did the early shia become sectarian . p ٣.

٣ - أنساب الأشراف ٢: ٢٨٧، ٥: ٢٦٥.

٤ - نفسه ٥: ٢٦٦.

٥ - نفسه ٥: ٢٧٠.

٦ - الطبقات الكبرى ٥: ١٠٠.

العُسرة[1].

إنّ ابن الزبير الذي أقرّ ببغضه لأهل البيت عليهم السلام منذ أربعين سنة، لم يَسَعْه أن يسكت عن المختار ولم يعتدّ به، وهو يراه جادّاً في تحكيم مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وأمّا بنو أميّة فأمرُهم واضح، إذ فقدوا قادتهم وأمراءهم على يديه في حربهم معه!

وحسبنا في تعبّد المختار أن نذكر خبراً نقله الطبريّ وغيره... فلمّا استُشهد، «بعث مصعب بن الزبير إلى أمّ ثابت بنت سمرة بن جُندَب امرأة المختار، و عَمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّ وهي امرأة المختار، فقال لهما: ما تقولان في المختار؟ فقالت أُمّ ثابت: ما عسانا أن نقول، ما نقول فيه إلّا ما تقولون فيه أنتم! فقالوا لها: اذهبي. وأمّا عمرة، فقالت: رحمةُ الله عليه، إنْ كان لعبداً من عباد الله الصالحين. فرفعها مصعب إلى السجن، وكتب فيها إلى عبد الله بن الزبير أنّها تزعم أنّه نبيّ»!! فأمره عبد الله بقتلها[2].

إنّ مِن أفظع التهم التي قُذِف بها المختار هي تنبّؤه، وهذه التهمة واهية لا أساس لها بتاتاً، ومردُّها جُملٌ نقلها المؤرّخون على لسانه، وأغلبها نثر مسجّع. (و قد أورد الطبريّ وسواه كثيراً منها)[3] ... ومن التهم الأُخرى أنّه كان يصف نفسه بالكهانة والإخبار بالغيب، أو أنّه قام بحركات كان يقوم بها الأنبياء[4]... وتجاوزت هذه الأخبار الحدَّ حتّى إنّها جانبت الصواب، و إن لم يبرأ الرجل من العيب، كأيّ رجل، لكنّه كان بريئاً من تلك التهم.

---

١ - **اختيار معرفة الرجال:** ١٢٥ وللاطّلاع على أحاديث أخرى تؤيّد المختار، انظر: **بحار الأنوار** ٤٥: ٣٣٢ —٣٩٠؛ **بهجة الآمال** ٧: ٣؛ **وسفينة البحار** ٢: ١٤٦ —١٥٠ وغيرها.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٧٤؛ **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦٤؛ **مروج الذهب** ٣: ٩٩.

٣ - انظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦.

٤ - مثال ذلك خبرٌ لهم عن الكرسيّ، فقد ذكروا أنّه قال لأصحابه كذباً: ائتوني بكرسيّ عليّ بن أبي طالب. انظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٢٤١ —٢٤٢.

إنّ الجديد في ثورة المختار اجتماعيّاً هو حضور المَوالي الذي يتعيّن علينا أن نقول فيه: إذا استثنينا حضورَهم المحدود جدّاً مع الخوارج، فهو ظاهرة جديدة تماماً، ولم يكن لهم دور يُذكَر في المجتمع العربيّ بالعراق قبل ثورته، وإن تفوّقوا تفوّقاً علميّاً خاصّاً في أواخر القرن الأوّل الهجريّ تدريجاً. وقد أسفرت ثورة المختار عن ظهورهم كقوّةٍ مفيدةٍ مشهودةٍ في العراق. وعلى الرغم من قمعهم بشدّة لاشتراكهم في ثورته، لكنّ الإفادة منهم زادت دورهم في المجتمع. وكان عَرضُ الكثيرين على مصعب بن الزبير هو اقتُلْ هؤلاءَ المَوالي؛ فإنّهم قد بدا كفرُهم وعَظُم كِبْرُهم، وقلّ شكرُهم[1]! فقيل: إنّه قتل ستّة آلافٍ منهم!!

ودلّت الحوادث المتأخّرة، حتّى زوال بني أميّة، على أنّ ارتقاء المَوالي الفُرس قد بدأ منذ عهد المختار فما بعده، حتّى بلغ دورهم في المجتمع الإسلاميّ ذروته حين ولّاهم بنو العبّاس الأعمال. وحاول عبد الملك بن مروان ـ الذي كان يشعر بخطرٍ كبير من جهتهم ـ أن يزيد اهتمامه بهم ليقضي على مجال تمرّدهم؛ لذلك جعل سهمهم من بيت المال أكثرَ ممّا كان قد جعله لهم معاوية[2].

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٧٧.

٢ - العقد الفريد ٥: ١٤٨.

الفصل التاسع

الإمام السجّاد عليه السلام

الإمام السجّاد عليه السلام

وُلِدَ الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام ، الإمام الرابع من أئمّة الشيعة المشهور بـ«زين العابدين»، و بـ «السجّاد»، سنة ٣٨ هـ، على القول المشهور[١]، وفي بعض الأخبار سنة ٣٥ أو ٣٦ هـ[٢]، وذهب أحمد بن القاسم الكوفيّ إلى أنّه ولد سنة ٣٠ هـ[٣]، وذكرت مصادر متنوّعة أنّ يوم ولادته هو منتصف جُمادى الأولى[٤]، وقيل: هو التاسع من شعبان[٥]، كما قيل: الخامس منه[٦].

و إذا كانت ولادته عليه السلام في سنة ٣٨ هـ، فمن البيّن أنّه عليه السلام أدرك قسماً من حياة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام ، وكذلك عصر إمامة عمّه الحسن المجتبى وأبيه الحسين عليهما السلام ، وأنّه شهد محاولات معاوية في الضغط على شيعة العراق والمناطق

---

١ - **تواريخ النبيّ والآل**: ٢٩؛ عن: **الإرشاد** ١: ٢٨٤؛ **مسارّ الشيعة**: ٣١٢؛ **التهذيب** ٦: ٧٧؛ **روضة الواعظين**: ٢٤٢؛ **كشف الغمّة** ٢: ١٠٥؛ **الفصول المهمّة**: ١٨٣؛ **الدروس**: ١٥٣؛ **مناقب ابن شهر آشوب** ٤: ١٧٥ **إعلام الورى**: ٢٥٦ .

٢ - **تواريخ النبيّ والآل**: ٣٠؛ عن: **الإقبال**: ٦٢١؛ **مصباح المتهجّد**: ٧٣٣ . وذكر البيهقيّ في كتاب (**لباب الأنساب**) الأقوال الثلاثة في ولادته عليه السلام .

٣ - **الاستغاثة** ١١٦ . المشكلة التي كانت قائمة هي أنّ بعضاً، مثل الكوفيّ هذا، أراد أن يجعل الإمام السجّاد عليه السلام هو الابن الأكبر للإمام الحسين عليه السلام . وقيل: إنّ هذا هو رأي الشيخ المفيد والشيخ الطوسيّ في كتابه الرجاليّ، وعليّ وأحمد ابنَي طاووس، والعلّامة في (**خلاصة الرجال**)، في حين أنّ أعاظم المؤرّخين والمحدّثين يرون أنّ الإمام السجّاد عليه السلام هو أصغر من عليّ الأكبر الذي استشهد في يوم عاشوراء . انظر بهذا الشأن: **تواريخ النبيّ والآل**: ٣١.

٤ - منها: **مسارّ الشيعة**: ٣١؛ و**مصباح المتهجّد**: ٧٣٣؛ و **إعلام الورى**: ٢٥٦ .

٥ - **روضة الواعظين**: ٢٤٢.

٦ - **كشف الغمّة** ٢: ١٠٥.

الأُخرى. بيد أنّ بعض الكتّاب ذهب ـ اعتماداً على الأخبار المنقولة عن واقعة الطفّ ـ إلى أنّ عمره أقلّ من المشهور، وأنّ ولادته كانت حوالي سنة ٤٨هـ، وتدلّ هذه الأخبار على أنّ بعض الأشخاص كان يريد قتله عليه السلام بعد شهادة أبيه عليه السلام وأنصاره، لكنّ بعضاً آخر حال دون ذلك لأنّه لم يبلغ الحلم. وقال حميد بن مسلم الذي شهد كربلاء: أتى شمر بن ذي الجوشن لقتل عليّ بن الحسين الأصغر، فقلت: إنّما هو صبيّ... فما زال ذلك دَأبي أدفع عنه...[١].

و نقل أيضاً أنّ عبيد الله بن زياد لمّا عزم على قتله، شكّ في إدراكه وعدمه[٢]، وأشار الجاحظ إلى نفس هذا الشكّ[٣].

و إذا صحّت هذه الأخبار[٤]، فيتعيّن أن يكون عمره عليه السلام أقلّ من المشهور؛ لأنّ أقصى سنّ البلوغ هو خمس عشرة سنةً، فلابدّ وفق هذه الأخبار، أن يكون الوضع بنحوٍ يقتضي عمراً في هذا الحدّ.

و على الرغم من أنّ هذه الأخبار قد نُقِلت في مصادر عديدة، لكن بعض الشواهد يحول دون قبولها، ومنها: أوّلًا: المشهور بين المؤرّخين وكتّاب السِيَر هو أنّ ولادته عليه السلام كانت في سنة ٣٨هـ، فعمره يوم كربلاء ثلاث وعشرون سنةً. ثانياً: الأخبار المذكورة غير بعيدة عن فطنة المؤرّخين أولي النظر، فتعارضها مع المشهور المحرز صوابه عندهم واضح ومنتقد منذ القرون الأولى.

قال محمّد بن عمر الواقديّ ـ وهو من أبرز رواة الأخبار التاريخيّة عند أهل السنّة، بعد نقله كلام الإمام الصادق عليه السلام الذي قال فيه: «مات عليّ بن الحسين وهو ابن

---

١ - **تاريخ الطبري** ٥: ٤٥٤.

٢ - نفسه ٥: ٤٥٨.

٣ - **شرح النهج** ١٥: ٢٣٦.

٤ - **زندگاني علي بن الحسين** [حياة عليّ بن الحسين]، السيّد جعفر شهيديّ: ٣٢، ٣٣.

ثمانٍ وخمسين سنةً» ـ: «فهذا يدلّك على أنّ عليّ بن الحسين كان مع أبيه وهو ابن ثلاث أو أربع وعشرين سنة. وليس قول من قال: إنّه كان صغيراً ولم يكن أنبت بشيء، ولكنّه كان يومئذٍ مريضاً فلم يقاتل، وكيف يكون يومئذٍ لم ينبت وقد وُلدَ له أبو جعفر محمّد بن عليّ؟! ولقي أبو جعفر جابر بن عبد الله وروى عنه، وإنّما مات جابر سنة ثمانٍ وسبعين»[1].

ثالثاً: يُستشفّ من مواقف الإمام عليه السلام من عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية أنّ عمره كان أكثر ممّا جاء في الرأي الأوّل، وما دار من كلام في كربلاء حول بلوغه أو عدم بلوغه. وما تمهّد له من صعود المنبر [في الشام] يمكن أن يدلّ بدوره على العمر الذي يستلزمه الظرف القائم آنذاك، فشخصٌ يُشَكّ في بلوغه لا يمكن أن يُقبَلَ له ذلك المقام الذي أقامه فيه يزيد.

رابعاً: تدلّ الروايات المتعدّدة الواردة في المصادر التاريخيّة حول ولادة الإمام الباقر عليه السلام على أنّه كان في الرابعة من عمره يوم كربلاء، ولم يشكّ أحد في هذه الروايات. وإذا قبلنا هذه الأخبار، فلا سبيل لنا إلّا قبول القول المشهور، مع فارق سنة أو سنتين أقلّ أو أكثر.

وآخر كلام لنا هو أنّ بعضاً، كالبيهقيّ في (لباب الأنساب)، ذكر الأقوال الثلاثة (سنة ٣٣، و٣٦، و٣٨هـ) في ولادة الإمام عليه السلام، ولا علاقة لها جميعاً بالقول المذكور سابقاً. وذكر ابن عساكر سنة ٣٣هـ[2]، وذهب الزهريّ إلى أنّه كان مع أبيه في كربلاء

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٥: ٢٢٢؛ **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٥٦؛ **كشف الغمّة** ٢: ١٩١. ومن الطبيعيّ أنّ الاستدلال بسنة وفاة جابر وحدها لايمكن أن يدلّ على ولادة الإمام الباقر قبل واقعة كربلاء، وإن يقلّل احتمال ولادته بعدها. واستناد الواقديّ هو إلى أصل خبر ولادة الإمام الباقر، لا إلى لقائه بجابر.

٢ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٣٠.

وهو ابن ثلاث وعشرين[١].

و صرّحت الأخبار التاريخيّة بأنّ وفاته عليه السلام كانت في الخامس والعشرين، أو الثاني والعشرين، أو الثامن عشر[٢] من المحرّم سنة ٩٢[٣]، أو ٩٤[٤]، أو ٩٥هـ[٥].

و ذكر الشبراويّ أنّه عليه السلام استُشهد سنة ٩٤هـ، بسمّ دسّه إليه الوليد بن عبد الملك[٦].

و من الموضوعات الخلافيّة الأخرى الجديرة بالبحث نوعاً ما: الإلمام باسم أمّ الإمام عليه السلام ونسبها الدقيق. ومن المؤسف أنّنا لانستطيع لحدّ الآن أن نبدي رأياً دقيقاً حول هذا الموضوع رغم البحوث والدراسات التي أنجزها بعض الكتّاب. وقد كُذّب أخيراً ولادته عليه السلام من أمّ ساسانيّة المَحْتِد؛ لئلّا يستغلّ ذلك أعداء التشيّع فيقولوا إنّ انتشار التشيّع في إيران يعود إلى مصاهرة الأئمّة للأسرة الساسانيّة، عن طريق بنت يزدجرد الثالث التي زُعم أنّها والدة الإمام السجّاد عليه السلام. وأورد الأستاذ جعفر الشهيديّ في كتابه المصنّف حول حياة الإمام القسم الأعظم من الأخبار التي تدور حول هذا الموضوع ونقدها. وفي أيدينا أخبار محدودة أيضاً تدلّ على أنّ أمّه عليه السلام كانت أمّ «ولد». وعلى الرغم من جميع الاختلافات الموجودة في هذه الأخبار، أو تضارب بعضها مع أخبار الفتوحات وغيرها، فإنّ الثابت هو أنّ لأصل

---

١ - نفسه: ٢٣١ .

٢ - **الإرشاد**: ٢٨٥؛ **مصباح الكفعمي**: ٥٠٩؛ **كفاية الطالب**: ٤٥٤ بالترتيب .

٣ - **كشف الغمّة** ٢: ١٠١.

٤ - **مسارّ الشيعة**: ٢٦؛ **مصباح المتهجّد**: ٧٢٩؛ **فرق الشيعة**: ٦٦؛ **تاريخ دمشق، ترجمة الإمام زين العابدين**: ١٢ / الحديث الخامس.

٥ - **الكافي** ١: ٤٦٨؛ **إثبات الوصيّة**: ١٧١؛ **التهذيب** ٦: ٧٧؛ **مروج الذهب** ٣: ١٦٠.

٦ - **الإتحاف بحبّ الأشراف**: ١٤٣.

الخبر شهرةً وافية، وقد ورد في أقدم الكتب الشيعيّة، مثل: وقعة صفّين[١]، وتاريخ اليعقوبيّ[٢]، وبصائر الدرجات[٣]، وتاريخ قمّ[٤]، المصنّفة جميعها في القرن الثالث والرابع. ونقل الكلينيّ في (الكافي) أيضاً روايةً عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد[٥].

و كذلك نقل القاضي نعمان هذا الخبر في القرن الرابع[٦]. وذكر الإمام عليه السلام أيضاً بوصفه ابن الخِيرتَين: فخيرتُه من العرب قريش، ومن العجم فارس، وكانت أمّه بنت كسرى[٧]. ونُسب إلى أبي الأسود الدؤلي (م٦٩ هـ) بيتٌ في الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، قال فيه:

و إنّ غلاماً بين كسرى وهاشمٍ لأكرمُ مَن نِيطت عليهِ التَّمائمُ[٨]

وقد ناقشنا في موضع آخر علاقة هذا الموضع بانتشار التشيّع، ومع إقرارنا بالشكّ في أصل القضيّة، درسنا توهّم الارتباط بينهما بنحو مناسب[٩]. ويبدو أنّنا يمكن أن نقرّ فقط بانتساب والدة الإمام السجّاد عليه السلام إلى احدى الأسر المهمّة التي قد تكون من الأسر الساسانيّة ذات القدرة والسلطة في جميع مراكز الولايات يومئذٍ. بيد أنّ من العسير إثبات كونها بنت كسرى ملك الفُرس نفسه.

و تُرشد النصوص التي نقلها محدّثو الشيعة في الكتب الروائيّة إلى أنّه عليه السلام

١ - **وقعة صفّين**: ١٢.
٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٣٣٥
٣ - **بصائر الدرجات**: ٩٦.
٤ - **تاريخ قمّ**: ١٩٦.
٥ - **الكافي** ٢: ٣٦٩.
٦ - **شرح الأخبار** ٣: ٢٦٦.
٧ - **نثر الدرّ** ١: ٣٣٩؛ **زهر الفردوس** ١: ٢٩٠.
٨ - **الكافي** ١: ٤٦٦؛ **بحار الأنوار** ٤٦: ٣، عن: **ربيع الأبرار**، للزمخشريّ.
٩ - انظر: كتابنا **تاريخ تشيع در إيران** (تاريخ التشيّع في إيران) ١: ١٤٥ – ١٦٤.

خليفةُ أبيه الحسين عليه السلام ووصيّه، وقد رواها الشيخ الكلينيّ في «الكافي»، والشيخ الحرّ العامليّ في «إثبات الهداة»، وغيرهما، والأحاديث المأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في أسماء أئمّة الشيعة تدعم هذا الموضوع أيضاً. وبغضّ النظر عن ذلك، فإنّ رضى الشيعة به إماماً، وقبول إمامته على مرّ التاريخ دليلان أصيلان على صدق هذه الوصاية. والشبهة الوحيدة التي اعترت بعض أتباع أهل البيت عليهم السلام في تلك البرهة هي إمامة محمّد ابن الحنفيّة التي سنتناولها بعد هذا بإيجاز. وتهدي النصوص الشيعيّة أيضاً إلى لزوم اقتناء الأئمّة لبعض وسائل النبيّ صلى الله عليه وآله كسيفه أو درعه. وكانت عند الإمام السجّاد عليه السلام كما نصّت عليه مصادر أهل السنّة أيضاً[١].

و كان العصر الذي عاش فيه الإمام السجّاد عليه السلام عصراً مُنيت فيه القيم الدينيّة بتحريف الأمويّين وتلاعبهم، فتعيّن على أهالي احدى الحواضر الإسلامية المهمّة (المدينة) مثلاً أن يبايعوا يزيد عَبيداً له! وصارت الأحكام الإسلاميّة ألعوبةً بيد أشخاص مثل: عبيد الله بن زياد، والحجّاج، و عبد الملك بن مروان. وكان الحجّاج [لعنه الله] يخال عبدَ الملك أهمَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وأفضل منه [و العياذ بالله]! وكان يأخذ الجزية من المسلمين على خلاف النصوص الدينيّة، ويترك الناس في أيدي الجلّادين لأدنى تهمة وافتراء!

و من الجليّ في ظلّ مثل هذه الحكومات مدى انحطاط التربية الدينيّة للناس، وكيفية تطاول القيم الجاهليّة، وكان الإمام السجّاد عليه السلام في تلك الظروف من أهل العبادة الذين كان أهمّ تأثير اجتماعيّ لهم هو إقرار العلاقة بين الناس وربّهم بواسطة الدعاء. وكان عليه السلام الشخصيّة التي تأثّر بها جميع الناس وولعوا بنهجها وسلوكها، وكان كثيرٌ من طلّاب العلم رواةَ أحاديثه، والمرتشفين من منهله الفيّاض النابع من

١ - الطبقات الكبرى ١: ٤٨٦، ٤٨٨.

علوم النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام، وقد وصفه المؤرّخ والعالم السنّيّ محمّد بن سعد قائلًا: وكان عليّ بن الحسين ثقةً مأموناً، كثيرَ الحديث، عالياً رفيعاً وَرِعاً.[١]

وقال الشافعيّ في رسالة صنّفها في حجّيّة خبر الواحد: وجدتُ عليَّ بن الحسين - وهو أفقه أهل المدينة - يُعوِّل على خبر الواحد[٢]. وكان ابن شهاب الزُّهريّ من علماء عصره عليه السلام، وقد اقتبس منه بولعٍ تامّ، وأثنى عليه بعبائر جمّة، على الرغم من أمويّة هواه، ووجود الأحقاد بين الأمويّين والشيعة، وقد نصحه الإمام السجّاد عليه السلام في رسالةٍ بعثها إليه؛ ليُعيد النظر في موقعه كآلةٍ بيد الحكّام الأمويّين[٣]، كما عنّفه الإمام عليه السلام مرّةً بسبب إساءته إلى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٤]، مع هذا، لم يزل الزهريّ يروي علومه عليه السلام، كما نقلت شتّى الكتب ما رواه عنه[٥]، يضاف إلى هذا أنّه وَلِهَ بعبادة الإمام عليه السلام وإخلاصه... فُنقل ما نصّه: كان الزهريّ إذا ذكر عليَّ بن الحسين يبكي ويقول: زينُ العابدين[٦]!

و نقلوا عنه أيضاً قولَه: عليُّ بن الحسين أعظم الناس مِنّةً علَيّ[٧]، وقوله: ما رأيتُ أحداً أفقهَ مِن عليِّ بن الحسين[٨]: وبلغ ثناؤه عليه عليه السلام مبلغاً أنّ بعض المروانيّين قال له: يا زهريّ! ما فعل نبيُّك؟! يعني عليَّ بن الحسين[٩].

و كان أبو حازم من بين المحدّثين الآخرين يقول: ما رأيتُ هاشميّاً أفضلَ من

---

١ - **الطبقات الكبرى ٥: ٢٢٢.**

٢ - **شرح النهج ١٥: ٢٧٤.**

٣ - **تحف العقول: ٢٠٠.**

٤ - **شرح النهج ٤: ١٠٢.**

٥ - على سبيل المثال: **الطبقات الكبرى ٨: ١٧٢؛ حلية الأولياء ٣: ٨٦؛ كشف الغمّة ٢: ١٠٣.**

٦ - **حلية الأولياء ٣: ١٣٥.**

٧ - **الطبقات الكبرى ٥: ٢١٤.**

٨ - **زين العابدين،** لسيّد الأهل: ٤٣.

٩ - **شرح الأخبار ٣: ٢٥٨.**

عليّ بن الحسين، ولا أفقهَ منه[١]. ونُقِل عن الجاحظ أيضاً أنّه كان يقول: وأمّا عليُّ بن الحسين بن عليّ، فلم أرَ الخارجيَّ في أمرِهِ إلّا كالشيعيّ، ولم أرَ الشيعيّ إلّا كالمعتزليّ، ولم أرَ المعتزليّ إلّا كالعامّيّ، ولم أرَ العامّيّ إلّا كالخاصّيّ، ولم أجدْ أحداً يتمارى في تفضيله، أو يشكُّ في تقديمه[٢] (على سائر الناس).

وسنشير لاحقاً إلى أنّ من الأسباب المهمّة لذيوع صيت الإمام السجّاد عليه السلام ومحبّته عند الناس انتشار تعبيراته الجميلة في قالب الدعاء، تلك التعبيرات التي عطفت الجميع إليه. وكان سعيد بن المسيّب، وهو من مشاهير المحدّثين السنّة، يقول: ما رأيت أورعَ من عليّ بن الحسين[٣]. واشتهر عليه السلام في زمانه بألقاب: عليّ الخير، وعليّ الأغرّ، وعليّ العابد[٤]. وكان مالك بن أنس يعتقد أيضاً أنّه ليس في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله مِثلُه[٥] (في زمانه).

وقال ابن أبي الحديد فيه: كان عليُّ بن الحسين غايةً في العبادة[٦]! وقيل له: «ذو الثّفنات»، لكثرة سجوده، وظهور آثار السجود في سيماه[٧]. وقال ابن حبّان فيه: وكان من أفاضل بني هاشم مِن فقهاء المدينة وعُبّادِهم... يقال: عليّ بن الحسين سيّدُ العابدين في ذلك الزمان[٨]. وقال أبو زهرة: فعليٌّ زين العابدين كان إمامَ

---

١ - تذكرة الخواصّ: ١٨٦؛ كشف الغمّة ٢: ٨٠.

٢ - عمدة الطالب: ١٩٣.

٣ - حلية الأولياء ٣: ١٤١؛ كشف الغمّة ٢: ٨٠؛ مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٢٣٦؛ تهذيب التهذيب ٧: ٣٠٥؛ سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩١.

٤ - شرح النهج ١٥: ٢٧٣.

٥ - تهذيب التهذيب ٧: ٣٠٥.

٦ - نفسه ١: ٢٧.

٧ - انظر: معجم الأدباء ١١: ١٠٣.

٨ - الثقات ٥: ١٦٠.

المدينة نُبْلًا وعلماً[١].

و ذُكِر أنّه عليه السلام إذا توضّأ تغيّر وجهه، وحين سئل عن سبب ذلك قال: أتَدْرونَ بينَ يَدَي مَن أريد أن أقوم[٢]! وقيل: كان وجهه يتغيّر أثناء الصلاة ويرتجف بدنه، ولمّا سُئل عن ذلك قال: أريد الوقوف بين يَدَي مَلكٍ عظيم[٣]! ولم يلتفت إلى أيّ شيءٍ وقت الصلاة. فانكسرت يد ابنه في بعض اللّيالي وهو في الصلاة، وكان يصيح من الألم، وجيء بالمجبّر وجبر الصبيّ وهو يصيح من الألم، وكلّ ذلك لم يسمعه عليه السلام، فلمّا أصبح رأى الصبيّ ويده مربوطة إلى عنقه[٤]. وقال الزمخشريّ: وضع عليّ بن الحسين عليه السلام يده في الماء ليتوضّأ ثمّ رفع رأسه إلى السماء والقمر والكواكب، ثمّ جعل يفكّر في خلقها حتّى أصبح وأذّن المؤذّن، ويدُه في الماء[٥]. وسئلت مولاة له أن تصفه، فقالت: «ما أتيتُه بطعامٍ نهاراً قطّ، ولا فرشتُ له فراشاً ليلًا قطّ»[٦]. وذُكر أنّه كان عليه السلام يصلّي، فوقعت عليه حيّة، فلم يتحرّك لها، ثمّ انسابت بين قدميه، فما حرّك إحداهما عن مكانه، ولا تغيّر لونه[٧].

و كان في التصدّق وتفقّد المحرومين حديث الألسن، وبعد شهادته عُلِمَ أنّه كان يَعول مئة بيت من فقراء المدينة[٨]. ونقل الإمام الباقر عليه السلام أنّه كان يحمل جِراب الخبز على ظهره بالليل يُعطي فقراء أهل المدينة ويقول: صدقة السرِّ تُطفئ غضبَ

---

١ - الإمام الصادق عليه السلام: ٢٢.

٢ - صفة الصفوة ٢: ٥٥؛ نور الأبصار: ١٢٧؛ الطبقات الكبرى ٥: ٢١٦؛ الإتحاف: ١٣٦؛ الفصول المهمّة: ٢٠١؛ العقد الفريد ٣: ١١٤.

٣ - شرح الأخبار ٣: ٢٥٨.

٤ - نفسه ٣: ٢٦٣.

٥ - ربيع الأبرار ٣: ١٦٠، ٦٦٣.

٦ - مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب ٢: ٢٥٥.

٧ - شرح النهج ١٠: ١٥٩.

٨ - حلية الأولياء ٣: ١٣٦؛ كشف الغمّة ٢: ٧٧، ٨٧؛ مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٢٣٨.

الربّ[1].

وكان الناس يحبّونه، ولذا جاء في الخبر «أنّ القرّاء كانوا لايخرجون إلى مكّة حتّى يخرج عليّ بن الحسين، فخرج وخرَجْنا معه ألف راكب»[2]. [هذا كلام سعيد ابن المسيّب]. «وخرج عليه السلام [ذات مرّة] في ثيابٍ حِسان، فرجع مسرعاً يقول: يا جارية، رُدّي علَيّ ثيابي؛ فقد مشيت في ثيابي هذه، فكأنّي لست عليّ بن الحسين»[3]!

وكان «إذا سار على بغلته في سكك المدينة لم يقل لأحدٍ: الطريق، وكان يقول: الطريق مشترك، ليس لي أن أنَحّيَ أحداً عن الطريق»[4].

وكان يُخفي نسَبَه عن رفقائه في السفر، فيقال له: ما بالُك إذا سافرت كتمتَ نسَبَك عن أهل الرّفْقة؟ فيقول: أكرهُ أن آخذ برسول الله ما لا أعطي مِثْلَه[5]! كما قال جويرية بن أسماء: ما أكلَ عليُّ بن الحسين مِن قرابته من رسول الله درهماً[6].

وروي عن ابنه الباقر عليه السلام أنّ أباه قاسَمَ اللهَ مالَه مرّتين[7].

وعاد الإمام عليه السلام محمّد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل محمّد يبكي، فقال:

---

١ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٣٨.

٢ - **رجال الكشّي**: ١١٧.

٣ - **مكارم الأخلاق**: ٥٨؛ **وسائل الشيعة** ٢: ٣٦٤. ونقل طبعاً أنّه كان يلبس ثياباً حسنة في بعض الأوقات؛ لئلّا يظنّ أحدٌ أنّه يعمل خلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾. الأعراف: ٣٢. انظر: **تفسير العيّاشي** ٢: ١٥ / الحديث ٣٢؛ **مستدرك الوسائل** ٣: ٢٠٣. وانظر: **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٤٦.

٤ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٤٧.

٥ - **نثر الدرّ** ١: ٣٤١؛ **ربيع الأبرار** ٣: ٦٩.

٦ - **سير أعلام النبلاء** ٤: ٣٩١.

٧ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٣٨. هذا هو الصحيح، لا كما ذكر المؤلّف أنّه **سير أعلام النبلاء**. المترجم.

ما شأنك؟ قال: عليَّ دَين، قال عليه السلام: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال عليه السلام: فهو عليّ[١].

هذه شذرة من فضائل الإمام السجّاد وسيرته العمليّة عليه السلام.

الإمام السجّاد عليه السلام والشيعة

كان الشيعة في الأيّام الأخيرة من واقعة كربلاء يعيشون في أسوأ الظروف كمّاً وكيفاً، وكذلك سياسيّاً واعتقاديّاً، فصارت الكوفة، التي كانت عاصمة الاتّجاهات الشيعيّة، مركزاً لقمع الشيعة. واستُشهد في كربلاء شيعة الإمام الحسين عليه السلام الخُلّص الذين كانوا في المدينة ومكّة، أو الذين أفلحوا في اللحاق به من الكوفة، وإذا كان كثير منهم لا يزال بالكوفة، إلّا أنّهم لم يجرؤوا على البروز تحت وطأة الظروف العصيبة التي فرضها ابن زياد. وكانت كربلاء انتكاسةً عظمى لهم من الوجهة الروحيّة، حتّى خُيِّلَ إليهم أنّهم لن يستطيعوا أن يخرجوا من بيوتهم. واستُشهد ثلّة من أهل البيت عليهم السلام وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام، ولم يبق من وُلْد الإمام الحسين عليه السلام، من نسل فاطمة عليها السلام إلّا ولدٌ واحد لم يشتهر آنذاك، بخاصّة أنّ ابن الإمام الأكبر، أي عليّ الأكبر قد استُشهد أيضاً. وإنّ وجود الإمام السجّاد عليه السلام في المدينة وبعده عن العراق حال دون توجيه التيّارات الشيعيّة بالكوفة.

فكان على الإمام عليه السلام في مثل تلك الظروف التي قد يُجتثّ فيها أساس التشيّع، أن يعمل من مؤتنف الأمر، ويعطف الناس إلى أهل البيت عليهم السلام، وقد نجح في هذا السبيل[٢].

---

١ - نفسه: ٢٣٩؛ **شرح الأخبار** ٣: ٢٦١ ـ ٢٦٢ (واسم الرجل في هذا المصدر زيد بن أسامة بن زيد).

٢ - **دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام** ١: ٦١ (الطبعة الأولى) مقالة: الإمام السجّاد عليه السلام باعث الإسلام من جديد.

ودعمَ التاريخ هذا النجاح؛ لأنّه استطاع عليه السلام أن ينفخ في الشيعة حياة جديدة ويمهّد لنشاطات الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام. ويشهد التاريخ على أنّه بعمله الذي طال أربعاً وثلاثين سنةً، أنقذ الشيعة من أعسر عصر مرّ بهم، ذلك العصر الذي لم يشهد معلماً واضحاً إلّا قمعهم بواسطة الزبيريّين والأمويّين فالعشرون سنة من تسلّط الحجّاج على العراق وعبد الملك بن مروان على الأقاليم الإسلاميّة جميعها، لم تشهد إلّا سحق الشيعة وحدهم، وفي آونة أخرى من حكمهما، سحق سائر المعارضين لبني أميّة، من الخوارج وغيرهم من الثائرين كعبد الرحمان بن محمّد بن الأشعث. وكان أهدأ على الحجّاج كثيراً وأرخى لباله أن يسمع كلمة الكافر من أن يسمع كلمة الشيعيّ[1].

وشهد العراق في تلك السنين نهضتين شيعيّتين، وكلتاهما لم تثمر، على الرغم من النجاح المؤقّت لاحداهما، فتلا ذلك وعيد الأمويّين لهم بالقتل والتعذيب والسجون وعيداً شديداً بالغاً، وكانت احدى النهضتين نهضة التوّابين بقيادة سليمان بن صُرَد الخزاعيّ وثلّة من أعلام شيعة الكوفة معه، وقد تحدّثنا عنها في ما تقدّم. وادُّعيَ قبولهم إمامةَ عليّ بن الحسين عليه السلام[2]، ولم نظفر في أمّهات المصادر بما يشهد على هذا الزعم. والمهمّ هو أنّهم كانوا إجمالًا ينوون عند نصرهم تقديمَ أهل البيت عليهم السلام لإمامة الأمّة، ولم يكن من نسل فاطمة عليها السلام لهذا العمل طبعاً إلّا عليّ بن الحسين عليه السلام، فهل كان يدور في أذهانهم هذا الموضوع حقّاً؟ لا ندري، ولم يحدّثنا التاريخ بشيء في هذا المجال. ويبدو أنّه لم تربطهم بالإمام عليه السلام علاقة سياسيّة خاصّة. ويعود أغلب الطابع الشيعيّ لنهضتهم إلى اشتراك مشاهير الشيعة الناشطين بالكوفة فيها، وإلى أصولها العاطفيّة. أي التوبة بسبب خذلانهم الإمامَ

---

١ - انظر: كلام الإمام الباقر عليه السلام في **شرح النهج** ١١: ٤٤؛ **الإمام الصادق** عليه السلام، لأبي زهرة: ١١١ – ١١٢.

٢ - **تشيّع در مسير تاريخ** [التشيّع في مجرى التاريخ]: ٢٨٦.

الحسين عليه السلام، والاستشهاد بوصفه الطريقَ الوحيد لقبول التوبة المذكورة. ولم يكن لمحمّد ابن الحنفيّة ذكر في هذه الحركة أيضاً.

و أخطاؤهم السياسيّة الرئيسة هي إقدامهم بلا دراسةٍ للوضع، وخروجهم من الكوفة، وتركهم أنفسهم في مهبّ الأحداث؛ ولذلك لم يتعاون معهم المختار لاعتقاده فقدان قيادتهم للوعي العسكريّ والسياسيّ، بل أدّى موقفه هذا إلى امتناع بعض الشيعة من دعم نهضتهم.

و هذا الغموض نفسه يَحيق بموضوع علاقة الإمام السجّاد عليه السلام بثاني حركة شيعيّة، أي حركة المختار. وشاب هذا الارتباطَ مصاعبُ أيضاً، لا من جهة الرؤية السياسيّة فحسب، بل من جهة البعد الاعتقاديّ أيضاً. وقيل: إنّ المختار استمدّ الإمام عليَّ بن الحسين عليه السلام بعد أن أفلح في عطف الشيعة إليه بالكوفة، بيد أنّ الإمام لم يجبه عمّا أراد[1].

و موقفه عليه السلام هذا طبيعيّ على ما يبدو نظراً إلى السياسة التي انتهجها حتّى آخر عمره، فقد كان الإمام عليه السلام بعد واقعة الطفّ يرى تعذُّرَ إحياء ذلك المجتمع الميّت عبر المسك بزمام قيادته، يُضاف إليه أنّ الانهماك في حركة سياسيّة أخرى، مع وجود قدرة سائر الأحزاب، كان يستتبع أخطاراً لم تستحقّ المجازفة فيها. ولهذا السبب دلّت طبيعة حركة الإمام عليه السلام خلال إمامته على أنّها لم تكن حركة سياسيّة فحسب، إذ كان اعتزال السياسة في كثير من المواطن نوعاً من النشاط السياسيّ بمعناه المعيَّن.

و بدأ الجانب الاعتقاديّ للقضيّة أيضاً منذ أن طلب المختار من محمّد ابن الحنفيّة دعمه وتأييده... وقد أجابه محمّد، لكن لا بطابع رسميّ، فشاع من ذلك

---

١ - رجال الكشّي: ١٢٦.

الحين قبول شيعة العراق إمامةَ محمّد ابن الحنفيّة، وإن لم يُحرَز ذلك، لكنّ ما اشتهر باسم الكيسانيّة فيما بعد بدأ بالقصّة منذ عصر المختار.

ولمّا رسخ بعض عقائد الغُلاة في بعض الشيعة في الكوفة، تعرّض المختار للتُّهم أيضاً، فأشِيع أنّ له قسطاً وافراً في ظهورهم. ولأسباب كثيرة لا يسعها هذا الموجز ونحن تناولناها في موضع آخر - يحوم الشكّ حول هذه الأمور جميعها، بل حول ما يسمّى بالكيسانيّة التي كانت تعتقد إمامة محمّد ابن الحنفيّة أو مهدويّته. لكنّ الأدلّة والشواهد قائمة على موقف الإمام السجّاد عليه السلام الرافض للغلاة، وهذا يعني وجود الانحراف بين شيعة العراق، ذلك الانحراف الذي حال دون دعمه لهم دعماً تامّاً ودون إقامة علاقةٍ مباشرة معهم.

وقد قال لجماعةٍ منهم: أحبّونا حبّ الإسلام، ولاترفعونا فوق حدّنا[١]. وجاء في خبر آخر: أحبّونا حبّ الإسلام، ولا تحبّونا حبّ الأصنام[٢]. وقال أبو خالد الكابليّ أيضاً: سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: إنّ اليهود أحبّوا عزيراً حتّى قالوا فيه ما قالوا، فلا عُزيرَ منهم ولا هُم من عزير، وإنّ النصارى أحبّوا عيسى حتّى قالوا فيه ما قالوا، فلا عيسى منهم ولا هُم من عيسى، وأنا على سنّةٍ من ذلك، إنّ قوماً من شيعتنا سيُحبّونا حتّى يقولوا فينا ما قالت اليهود في عُزَير وما قالت النصارى في عيسى ابن مريم، فلا هُم منّا ولا نحن منهم[٣].

وتفيد المصادر الشيعيّة أنّ محمّد ابن الحنفيّة لم يكن منحرفاً، بل إنّه كان

---

١ - انظر: **سير أعلام النبلاء** ٤: ٣٨٩ - ٣٩٠؛ **الطبقات الكبرى** ٥: ٢١٤. (وفيه: أنّه عليه السلام قال لهم: أحبّونا حبّ الإسلام، فوالله ما زال بنا ما تقولون حتّى بَغّضتُمونا إلى الناس)؛ **حلية الأولياء** ٣: ١٢٦. ويريد عليه السلام من كلامه المذكور في المتن: لا تغلوا فينا.

٢ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٤٢.

٣ - **رجال الكشّي**: ١٢٠؛ وانظر: **الطبقات الكبرى** ٥: ٢١٤؛ **نسب قريش**، لمصعب الزبيريّ: ٥٨.

يعتقد إمامة الإمام السجّادعليه السلام، فلا يقين لنا أن نُثبت أنّه طرح نفسه إماماً لشيعة الكوفة، ويمكن أن نفترض حلولًا حول الغموض الموجود، منها: أنّه دخل في معرض الأحداث بأمر الإمام السجّادعليه السلام للمحافظة على الإمام وبقائه بعيداً عن ظواهر المجتمع، ولم نجد أيّ دليل تاريخيّ خاصّ يؤيد هذه الرؤية.

و من الضروريّ أن نذكر هنا أننا لا نستطيع لأسباب متنوّعة أن نصدّق بأنّ الإمام السجّادعليه السلام قال في المختار: يكذب على الله وعلى رسوله[1]، لاسيّما أنّه قال حين بَعَث إليه المختار رأسَ عبيد الله بن زياد: جزى اللهُ المختارَ خيراً[2]. كما ورد أيضاً أنّ في ذلك اليوم لم يبقَ من بني هاشم أحد قام بخُطبةٍ إلّا في الثناء على المختار والدعاء له، وجميل القول فيه[3]. وروي عن الإمام الباقرعليه السلام أيضاً أنّه قال: لا تسبّوا المختار؛ فإنّه قتَلَ قتَلَتَنا، وطلب ثأرنا، وزوّج أراملَنا، وقسم فينا المالَ على العُسرة![4] كما عبّرعليه السلام لابن المختار عن صالح موقفه من أبيه[5].

و لم تدم حركة المختار في شكلها السياسيّ طويلًا، كما وضّحنا ذلك من قبل، إذ قمعها الزبيريّون سنة ٦٧ هـ، مع هذا تركت تأثيرها الخاصّ في الكوفة من حيث تهييج المشاعر الشيعيّة وإحيائها، وكذلك تحفيز المَوالي على المشاركة في الشؤون السياسيّة.

و ما طرأ من الانحراف الذي تقدّم بيانه ـ حتّى يمكن الافتراض على الرغم من رغبة ابن الحنفيّة ـ ولّد الشكّ عند بعض لاعتقاد الإمام، وكان هناك من شكّ في

---

١ - الطبقات الكبرى ٥: ٢١٣.

٢ - رجال الكشّي: ١٢٧.

٣ - الطبقات الكبرى ٥: ١٠٠.

٤ - رجال الكشّي: ١٢٨.

٥ - نفسه: ١٢٦.

اختياره، ومن هؤلاء القاسم بن عوف الذي كان أحدَ أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام، فقد اعترف هو نفسه بأنّه كان متردّداً بين عليّ بن الحسين ومحمّد ابن الحنفيّة [1]، ثمّ صار إلى عليّ بن الحسين. ومنهم، على ما صرّح به الكشّيّ فرات بن أحنف [2].

ويدور خلاف حول سعيد بن المسيّب، فقد عدّه بعض في أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام، بيد أنّه كان يُفتي بقول العامّة... وموقفه هذا، على ما جاء في رجال الكشّيّ، هو من أجل أن ينجو من بطش الحجّاج [3]! ومهما كان فاحترامه للإمام عليه السلام أمرٌ لم يقبل الشكّ، واستضاءته العلميّة والأخلاقيّة به مُحرَزة، لكنّه لم يشهد جنازتَه، وأُنكِر عليه ذلك [4].

و إذا استُثني هؤلاء، فإنّ هناك رجالًا آخرين كانوا من أثبت رجالات الشيعة كما نصّت عليه المصادر الشيعيّة، فقد جاء في رواية أنّ ثلّة منهم كانوا معه عليه السلام في بداية أمره، وهم: سعيد بن جُبير، و سعيد بن المسيِّب، ومحمّد بن جُبير بن مُطعم، ويحيى بن أمّ الطويل، وأبو خالد الكابليّ [5]. وذهب شيخ الطائفة [الشيخ الطوسيّ] إلى أنّ عدد أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام كانوا مئةً وثلاثةً وسبعين رجلًا [6].

و أفلح عليه السلام، على أيّ حال، في بقاء الشيعة، بل في توسيع نطاقهم، وتجلّى نهجه الفقهيّ في نقل الأحاديث النبويّة عن طريق الإمام عليّ عليه السلام، تلك الأحاديث التي

---

١ - نفسه: ١٢٤.

٢ - نفسه.

٣ - نفسه.

٤ - نفسه: ١١٦

٥ - **رجال الكشّي**: ١١٥ . وذكرت رواية ثلاثة، وجاء فيها: «ارتدّ الناس بعد قتل الحسين إلّا ثلاثة يحيى بن أمّ الطويل، وأبا خالد الكابليّ، وجُبيَر بن مطعم . ثمّ إنّ الناس لحقوا وكثروا ...» انظر: **اختيار معرفة الرجال**: ١٢٣.

٦ - **رجال الطوسي**: ٨١ ـ ١٠٢.

عدّها الشيعة وحدَها صحيحة. وهكذا قطع الشيعة أوّل أشواطهم الفقهيّة في معارضة الانحرافات الموجودة، وإن أرجئ القسم الأعظم من هذا العمل إلى وقتٍ متأخّرٍ بعدها. وكان الإمام عليه السلام يذكر في الأذان فقرة حَيَّ على خيرِ العمل، وحين أنكر عليه ذلك قال: هو الأذانُ الأوّل[1]. يضاف إليه أنّ اعتزال الانحرافات التي كانت قائمة في العراق أفضى إلى المحافظة على الأسس الاعتقاديّة الأصيلة للشيعة ضدّ الانحرافات. ومع ما بذل عليه السلام من مساعي مهمّة أدّت إلى بقاء الشيعة طبعاً، لم تكن المدينة مكاناً مناسباً لارتقاء الشيعة بسبب الاعوجاج الذي أسِّس فيها منذ عصر صدر الإسلام، وكانت قد أَلِّبت ضدّهم، حتّى صرّح عليه السلام بأنّه لا يوجد عشرون رجلًا يحبّونهم في مكّة والمدينة[2]، في حين كان في العراق رجال أكثر يحبّونهم عليهم السلام.

مواقف الإمام السجّاد عليه السلام من الأمويّين

تجلّى أوّل موقف للإمام عليه السلام من الحكّام الأمويّين بعد واقعة كربلاء عند مواجهة عبيد الله بن زياد، فقد سأله ابن زياد عن اسمه، فقال: عليّ، فقال: أو ليس اللهُ قد قتَلَ عليّاً؟! فقال عليه السلام: كان لي أخ يقال له: عليّ، قتَلَه الناس، فقال: بل قتَلَه الله! فقال: اللهُ يتوفّى الأنفس حين موتها. واستدلاله عليه السلام هذا هو إشارةٌ إلى أنّ أعداء أهل البيت هم الذين قتلوا أخاه، والله توفّى نفسَه، فأراد ابن زياد قَتْلَه، لكنّ شجاعة زينب عليها السلام في موقفها منه صرفَتْه عمّا أراد[3].

وتحدّث عليه السلام مع يزيد في الشام[4] وعنّفه، ثمّ خطب خطبةً غرّاء عرّف فيها نفسَه وأسرته لأهل الشام وكانوا غافلين لم يعرفوا مَن هم أهل البيت النبويّ؛ بسبب تبليغ

---

١ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ١: ٢١٥ (طبعة الهند).

٢ - **شرح النهج** ٤: ١٠٤؛ وانظر: **بحار الأنوار** ٤٦: ١٤٣؛ **الغارات**: ٥٧٣.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٦ – ٤٥٧؛ **نسب قريش**، لمصعب الزبيريّ: ٥٨.

٤ - **العقد الفريد** ٥: ١٣١.

الأمويّين، فلمّا سمعوه تنبّهوا إلى حدٍّ كبير؛ لذلك حال يزيد دون مواصلته خُطبتَه الشريفة في المسجد، وألقى يزيد - متهرّباً - تبعة إثمه على عاتق ابن زياد من أجل إرضاء الناس ودفع نقمتهم، ثمّ أرسل الإمامَ السجّادعليه السلام وسائر سبايا كربلاء إلى المدينة باحترام. وكان من النقاط المهمّة في خطبة الإمام السجّادعليه السلام هي أنّه سمّى نفسه وأباه وأسرته أبناءَ رسول الله صلى الله عليه وآله، في حين كان معاويةُ وبنو أميّة ينسبونهم إلى عليّ عليه السلام، ولم يسمحوا بنسبتهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله!

وثار أهل المدينة على الأمويّين في واقعة الحرّة بعد حينٍ مضى على مأساة كربلاء، وقائد ثورتهم هو عبدُ الله بن حنظلة (حنظلة هذا هو المعروف بغسيل الملائكة) وصبغتها مضادّة للأمويّة، ومناهِضةٌ ليزيد وحياته غير الدينيّة المشاقّة للإسلام. ولم يكن للإمام عليه السلام وسائر بني هاشم موقفٌ مؤيِّد لهذه الثورة، لذلك خرج من المدينة مع بعض أعضاء أسرته، وكانت تلك الحركة عنده عليه السلام زبيريّةَ الخطّ تماماً، مضافاً إلى طابعها غير الشيعيّ، لا سيّما وأنّ زعيمها [الأصليّ] هو عبد الله بن الزبير أحد مساعير حرب الجمل. وأدنى موقف للإمام عليه السلام بوصفه إمامَ الشيعة كان يستتبع أخطر نتيجة على الشيعة، ولهذا لم يشترك في تلك الحادثة التي لم تكن ذات نهج واضح، بل لم تكن ذات نهج صائب صحيح.

يضاف إلى ذلك، أنّ الناس لمّا طردوا بني أميّة من المدينة في بداية الأمر، آوى عليه السلام امرأة مروان بن الحكم، بطلب من مروان نفسه، وذلك من وحي غيرته ومروءته عليه السلام. وذكر الطبريّ أنّه فعل ذلك لصداقةٍ قديمة بينه وبين مروان[١]! وهذا كذب محض، إذ لا ينبغي أن تكون له علاقة قديمة بمروان الذي كان أرجَس وجهٍ أمويّ، وهو عليه السلام في ذلك العمر الذي لم يسمح بمثلها، وفي حالٍ كان أبوه وجدّه عليهما السلام

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٢٤٥؛ الإمامة والسياسة ١: ٢٠٨.

قد خاضا فيها أشدّ النزاعات مع تلك الأسرة الجاهليّة المنحرفة. ومروان هو الذي عرض على حاكم المدينة أن يأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام ليزيد بالقوّة، أو يقتلَه إذا امتنع منها. وعمل الإمام السجّاد عليه السلام كان جواباً منطلقاً من أدبه على خسّة الأمويّين ونذالتهم بالنحو الذي يحكم التاريخ فيه على أعمالهم، كما كان كرماً ومروءةً ركع لهما التاريخ وسجد.

ولمّا قمع مسلم بن عقبة المعروف بمسرف حركةَ أهل المدينة واقترف تلك الجرائم الكبرى التي شهدها العصر الأمويّ، تعامل مع الإمام السجّاد عليه السلام بلين واحترام، وذلك يعود إلى موقفه عليه السلام من الحركة، إذ لم يشترك فيها. وأخذ مسلم بن عقبة البيعة من الناس كعبيدٍ ليزيد، لكنّه لم يجرؤ على أخذها من الإمام عليه السلام ولو بشكل عاديّ[١]. وكان مسلم قد شتم الإمام وأجداده قبل قدوم الإمام إليه، لكنّه عامله بهدوءٍ حين دخل عليه السلام. ولمّا ذهب الإمام، سئل مسلم من موقفه منه، فقال: ما كان ذلك لرأيٍ منّي، لقد ملئ قلبي منه رعباً.[٢]

وتقدّم أنّ التاريخ يشهد على أنّ الإمام السجّاد عليه السلام حافظ بسيرته العمليّة على الشيعة، فأبقى عليهم، ووسّع كيانهم، ممهّداً لنشاطاتٍ قادمة.

ونظراً إلى سابقة العلاقات العلويّة الأمويّة، كان الأمويّون يُسيئون الظنّ بالإمام عليه السلام بشدّة، فأدنى تحرّك يظهر منه يستتبع عواقب وبيلة، فلا قيمة عنده عليه السلام للقيام بمثل هذه الأعمال. وأهمّ مبدأ دينيّ - سياسيّ أفاد منه الإمام في حياته السياسيّة هو التقيّة، وهي درعٌ ضمن فيه الشيعة حياتهم على مرّ التاريخ، ونبّههم عليها أئمّتُهم مراراً. ومن الطبيعيّ أنّ الذين لم يحتاجوا إليها بسبب الحرّيّة التي كانوا يتمتّعون بها من قِبَل السلطة، أنكروها لإضعاف الشيعة، في حين كان يصرّح

١ - شرح النهج ٣: ٢٥٩؛ وانظر: الطبقات الكبرى ٥: ٢١٥؛ كشف الغمّة ٢: ١٠٧.

٢ - مروج الذهب ٣: ٧٠، ٧١.

القرآن بها، فلم يشعر أهل السنّة بالحاجة إليها لأنّ الحكومة كانت بأيديهم، فأخرجوها من حيّز الأحكام الفقهيّة الإسلاميّة المسلّم بها، لا لشيء إلّا للتجرّم على الشيعة فحسب.

قال الإمام السجّاد عليه السلام في روايةٍ: التاركُ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذِ كتابَ الله وراءَ ظهره، إلّا أن يتّقي تُقاة، قيل: وما تقاته؟ قال: يخاف جبّاراً عنيداً يخافُ أن يَفْرط عليه أو أن يطغى[1].

و الاستناد إلى مبدأ التقيّة، وإن كان قرآنيّاً، فهو من الوجهة الفقهيّة ممّا أكّده الأئمّة الذين ابتُلوا في الأغلب. وكان الإمام السجّاد عليه السلام يعيش في ظروف صعبة حقّاً، ولم يكن أمامه حكم آخر إلّا التقيّة. وهذه التقيّة هي التي حفظت الشيعة في تلك الظروف أساساً، ولم يُصب الخوارجَ - كفرقة متطرّفة - منها حظّاً، فتلقّوا ضرباتٍ أساسيّة عمليّة بالغة بسبب ذلك. جاء في روايةٍ أنّ رجلًا دخل على الإمام السجّاد، فقال: «كيف أصبحت أصلحك الله؟ فقال عليه السلام:... أصبحنا في قومنا بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، إذ كانوا يُذبّحون أبناءَهم ويَستحيُون نساءَهم. وأصبح شيخُنا وسيّدنا يُتقرَّب به إلى عدوّنا بشتمه أو سبّه على المنابر.. فلَئِن كانت العرب صدقت أنّ لها الفضلَ على العجم، وصدقت قريشٌ أنّ لها الفضلَ على العرب لأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله منها، فإنّ لنا أهلَ البيت الفضلَ على قريش؛ لأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله منّا، فأصبحوا يأخذون بحقّنا ولايعرفون لنا حقّاً... فهكذا أصبحنا إذ لم تعلمْ كيف أصبحنا، قال الرجل: فظننتُ أنّه أراد أن يُسمع من في البيت»[2].

و يتعيّن علينا أن نقول إجمالًا: إنّ تقيّة الإمام عليه السلام في تعامله مع الأمويّين أدّى

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٥: ٢١٤؛ **حلية الأولياء** ٣: ١٤٠.

٢ - **الطبقات الكبرى** ٥: ٢١٩ -٢٢٠. [لم يرد هذا الهامش في أصل الكتاب، وأضيف من بركات مراجعة المصادر التي استعان بها المؤلّف سدّده الله وسدّدنا] المترجم.

إلى كفّ شرورهم عنه في المدينة، وقلّما لفت نظر المعارضين إليه. فضلاً عن ذلك، فإنّ بُعده العلميّ تجلّى أكثر فأكثر في حفظ الدّين. والثناء الكثير عليه الذي جرى على ألسنة علماء السنّة آيةٌ على ما نقول، ولو كان قد تصدّى للمواجهة لما سمحوا لأنفسهم أن يصفوا هذا البعد من شخصيّته عليه السلام.

استثمار الإمام السجّاد عليه السلام الدعاء

حينما مُني المجتمع بالانحراف غلبت عليه روح حبّ الترف والإقبال على الدنيا، وحاق به الفساد السياسيّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ، فلا بصيصَ من الأمل في الانفراج السياسيّ. وقد استطاع الإمام السجّاد عليه السلام أن يستثمر الدعاء للتعبير عن بعض عقائده، ويُوجِد تحرّكاً في المجتمع مرّة أخرى من أجل التوجّه إلى معرفة الله وعبادته. وإنّ القصد الأصليّ من الأدعية هو المعرفة والعبادة المذكورتين، إلّا أنّ عباراتها تستطقّ لنا أن نقول: يمكن للناس أن يتعرّفوا من تضاعيف هذه العبارات على المفاهيم الإسلاميّة التي يتوخّاها عليه السلام.

و لا تضمّ الصحيفة السجّاديّة المشهورة ـ التي تربو أدعيتها على خمسين دعاءً ـ إلّا قسماً من أدعيته عليه السلام التي تمّ جمعها، ثمّ جمعت أيضاً سائر الأدعية، فبلغت مع الصحيفة المعروفة ستّ مجموعات، يحوي بعضها أكثر من مئة وثمانين دعاءً ومناجاة.[١] ولم تكن الأدعية المذكورة موجودة عند الشيعة فحسب، بل كانت عند أهل السنّة أيضاً...[٢] وهذا يدلّ على نفوذها في مجتمع ذلك العصر. وكان قد اشتهر عليه السلام بها أكثر من سائر الأئمّة عليهم السلام.

و يُلحظ في أدعيته عليه السلام تعبير يتكرّر غالباً، وقلّما يخلو منه دعاء... وهذا التعبير

---

١ - **الذريعة** ١٥: ١٨ ـ ٢١.

٢ - **شرح النهج** ٥: ١١٣، ٦: ١٧٨ ـ ١٨٦، ١١: ١٩٢.

هو الصلاة على محمّد وآل محمّد، وهو أساساً من أمارات الأدعية الصحيحة. وإذا كانت تسمية الأبناء باسم عليّ تُستهجَن في زمنٍ ما، ويُهدَّد أصحابها، وإذا لم يستقم أمر الأمويّين إلّا بسبّ عليّ عليه السلام[1]، فإنّ لاستعمال التعبير المذكور قيمتَه التي يتألّق بها جيّداً. وتعبيرٌ مثل محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، الأخيار الأنْجَبين[2] هو نموذج من النماذج التي تكرّرت مرّاتٍ عديدة.

و تركيز الإمام في صلة آل محمّد عليهم السلام به صلى الله عليه وآله في الصلاة أمر فرضه الله سبحانه في الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله، وله شأن بالغ لبيان العقائد الشيعيّة. ومن المناسب أن نروي عنه عليه السلام حديثاً في تأكيد هذا الارتباط بين النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام، قبل أن ننقل بعض مضامين أدعيته عليه السلام، فقد قال عليه السلام: إن اللهَ فرض على العالَم الصلاة على رسول الله، وقرنَنا به، فمَن صلّى على رسول الله ولم يُصلِّ علينا لقي الله تعالى وقد بتر الصلاة عليه وترك أمرَه[3]. فاقتران محمّد وآل محمّد [عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام] يمكن أن يكون له تأثيرٌ مهمّ في موقف الناس من أهل البيت النبويّ الكريم.

و من المضامين السياسيّة الدينيّة المهمّة في الصحيفة عرضُ الإمامة، فمفهوم الإمامة كمفهوم شيعيّ يدلّ خلال أمد بعيد ـ مضافاً إلى اتّسامه ببُعد الأحقّيّة للخلافة والقيادة ـ على الأبعاد الإلهيّة للعصمة والاستضاءة بعلوم الأنبياء [عليهم السلام] لاسيّما نبيّنا صلى الله عليه وآله. وننقل فيما يأتي بعض الأمثلة لهذه الأدعية، قال عليه السلام: ربّ صلّ على أطائب أهل بيته الذي اخترتَهم لأمرك، وجعلتهم خزنةَ علمِك وحفظةَ دينِك، وخُلفاءَك في أرضك، وحُججك على عبادِك، وطهّرتَهم من الرِّجس والدَّنس تطهيراً

١ - شرح النهج ١٣: ٢٢٠؛ أنساب الأشراف ١: ١٨٤.

٢ - الصحيفة السجّاديّة، الدعاء ٦ / الفقرة ٢٤.

٣ - تاريخ جرجان: ١١٨.

بإرادتِك، وجعلتهمُ الوسيلةَ إليك والمسلك إلى جنّتك[١].

وقال عليه السلام في موضع آخر: اللّهمّ إنّ هذا المقامَ لخلفائك وأصفيائِك، ومواضعَ أمنائِك في الدرجةِ الرفيعةِ التي اختصَصْتَهم بها، قدِ ابتزُّوها... وحتّى عادَ صِفوتُك وخلفاؤُك مَغلوبين مقهورين مُبتَزّين... اللّهمّ العن أعداءَهم، الأوّلين والآخرين، ومن رضِيَ بفعالِهم، وأشياعَهُم وأتباعَهُم[٢].

وقال عليه السلام: وصلّ على خِيَرتِكَ اللّهمّ من خَلْقِك، محمّدٍ وعترته الصَّفْوَة من بريّتِكَ الطاهرين، واجعلنا لهم سامعينَ ومُطيعين، كما أمرتَ.[٣]

وقال عليه السلام: اللّهمّ اجعلني من أهل التوحيد والإيمانِ بك، والتصديقِ برسولك والأئمّة الذين حَتمتَ طاعتَهم[٤].

وقال عليه السلام في موطن آخر: اللّهمّ إنّكَ: أيّدتَ دينكَ في كلّ أوانٍ بإمامٍ أقمتَه عَلَماً لعبادك، ومناراً في بلادك بعد أن وَصَلْتَ حَبلَه بحبلِك، وجعلْتَه الذّريعةَ إلى رضوانك، وافترضت طاعتَه، وحذّرت معصيته، وأمرتَ بامتثال أمره والانتهاء عندَ نهيه، وألّا يتقدّمَه مُتقدِّم، ولا يتأخّرعنه متأخّر، فهو عصمةُ اللّائذين، وكهف المؤمنين، وعروة المتمسّكين، وبهاءُ العالَمين...[٥] وأقِم به كتابك، وحدودَك وشرائعَك، وسُننَ رسولك صلواتُك اللّهمّ عليه وآله، وأحْيِي به ما أماتَه الظالمون من مَعالم دينك، واجْلُ به صَداءَ الجَور عن طريقتك، وأبِنْ به الضّرّاء من سبيلك، وأزِلْ به الناكبين عن صراطك، وامحَقْ به بُغاةَ قصدِك عِوَجاً... واجعلْنا له سامعين

١ - **الصحيفة السجّاديّة**: الدعاء ٤٧/ الفقرة ٥٦.

٢ - نفسه: الدعاء ٤٨ / الفقرة ٩ - ١٠.

٣ - نفسه: الدعاء ٣٤.

٤ - نفسه: الدعاء ٤٨ . دعاؤه عليه السلام يوم الأضحى ويوم الجمعة.

٥ - نفسه: الدعاء ٤٧.

مطيعين[١].... .

يتبيّن من هذه الفقرات أنّ الإمامعليه السلام كان في صدد توسيع العقيدة الشيعيّة في مفهوم الإمامة، وهومِن أهمّ المفاهيم الشيعيّة . وذكرنا في حديثنا عن خلافة الإمام عليّعليه السلام ما يشبه هذا التمجيد والثناء على أهل البيت عليهم السلام في نهج البلاغة. وأشير فيما تقدّم إلى أنّ نطاق الأدعية لاينتهي عند هذا الحدّ، بل يمتدّ ليشمل أهدافاً عباديّة وفكريّة وأخلاقيّة واجتماعيّة وسياسيّة أخرى تتوخّاها هذه الأدعية، ومن المناسب أن نلمع إلى هدف فكريّ واحد من الأهداف المذكورة، فقد نقل الإربلّيّ أنّ الإمامعليه السلام كان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم، إذ سمع قوماً يُشبّهون الله بخَلْقه، ففزع لذلك وارتاع له، ونهض حتّى أتى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فوقف عنده رافعاً صوته يناجي ربَّه، فقال في مناجاته له: إلهي بَدَت قُدرتُك ولم تُبد هيئةً فجَهِلُوك، وقَدَّروك بالتقدير على غير ما أنت به، شَبَّهُوك، وأنا بريءٌ يا إلهي مِن الذينَ بالتشبيه طَلَبوك...[٢] .

إنّ من الأعمال التي نهض بها أهل البيت عليهم السلام في الأعصار المتنوّعة إراءة الناس مَن هم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله الذين وردت حقوقُهم وفضائلهم في القرآن والسنّة بهذا الحجم. وكان بنو أميّة يعرّفون أنفسهم في الشام بأنّهم أهلُ بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك فعل بعضُ نساء النبيّ صلى الله عليه وآله بالحجاز، ثمّ توفّين تدريجاً، ولمّا لم يكن لهنّ ولد، رُفعت منهنّ صفة أهل البيت، فلم يبق أهلُ بيتٍ بعدهنّ إلّا بنو فاطمة عليها وعليهم السلام.

إنّ التعريف بهذا الأمر عملٌ كان يتعيّن أن يتحقّق، لاسيّما أنّ الأحداث التي تلت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله سبّبت إزالة آل الرسول صلّى الله وسلّم عليه وعليهم عن

---

١ - **الصحيفة السجّاديّة**: الدعاء ٤٧.

٢ - **كشف الغمّة** ٢: ٨٩.

مراتبهم ودورهم الحقيقيّ. وهذا موضوع معروف في خطبة الإمام عليه السلام وأيّدته بعض الأخبار التاريخيّة أيضاً. وأنقل لك -عزيزي القارئ- هنا خبراً أثِرَ في هذا المجال: أُتِيَ بحرمِ رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى أدخلوا مدينة دمشق من باب يُقال له «توماء»، ثمّ أُتِيَ بهم حتّى وقفوا على درج باب المسجد حيث يُقام السبي، وإذا شيخ قد أقبل حتّى دنا منهم، وقال: الحمد لله الذي قتلكم وأهلكَكُم، وأراح الرجالَ من سطوتكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم، فقال له عليّ بن الحسين: يا شيخ! هل قرأت القرآن؟! قال: نعم قد قرأته، قال: فعرفت هذه الآية: ﴿**قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1]؟ قال الشيخ: قد قرأت ذلك، فقال عليّ بن الحسين: فنحن القربى يا شيخ، ثمّ قال له: هل قرأت في سورة بني إسرائيل: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ**﴾؟ قال الشيخ: قرأت ذلك، فقال عليّ: نحن القربى يا شيخ، ولكن هل قرأت هذه الآية: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى**﴾[2]؟ قال الشيخ: قد قرأت ذلك، فقال عليّ: فنحن ذو القربى يا شيخ! ولكن هل قرأت هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[3]؟ قال الشيخ: قد قرأت ذلك، قال عليّ: فنحن أهل البيت الذين خُصِصنا بآية الطهارة! فبقي الشيخ ساعة ساكتاً نادماً على ما تكلّمه؛ ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهمّ إنّي تائبٌ إليك ممّا تكلّمته، ومن بُغض هؤلاء القوم، اللّهمّ إنّي أبرأ إليك من عدوّ محمّدٍ وآل محمّد من الجنّ والإنس[4].

إنّ بكاء الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الأدعية والعبادة الحقّة درس تربويّ

١ - الشورى: ٢٣.
٢ - الأنفال: ٤١.
٣ - الأحزاب: ٣٣.
٤ - **الفتوح** ٥: ٢٤٢ - ٢٤٣.

للمجتمع الفاسد يومذاك، إذ كان بنو أميّة قد استهزأوا بالإسلام. وكان بكاؤه المتكرّر عليه السلام هو من أجل واقعة الطفّ المُمِضّة.

و قال له مولى له: يا ابن رسول الله أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال عليه السلام له: ويحك إنّ يعقوب النبيّ عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً، فغيّب الله عنه واحداً منهم فابيضّت عيناه من كثرة بكائه عليه، وشاب رأسه من الحزن، واحدودب ظهره من الغمّ، وكان ابنه حيّاً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمّي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني![1]

و هكذا أفضى بكاؤه عليه السلام تلقائيّاً إلى أن ينتبه الناس ويعوا ثورة كربلاء في مواطن كثيرة، مضافاً إلى أنّه نفسه كان ينقل وقائعها في مواضع عديدة[2].

الإمام السجّاد عليه السلام والعبيد

إنّ من مساعي الإمام عليه السلام التي كانت ذات صبغة دينيّة وسياسيّة على حدّ سواء، الاهتمام بشريحةٍ تعرّضت لأشدّ الضغوط الاجتماعيّة، بخاصّة في عصر الخليفة الثاني فما تلاه وبالأخصّ في عهد الأمويّين، وكانت من أكثر شرائح الأمّة الإسلاميّة حرماناً في القرون الأولى، فالعبيد والإماء من: الفُرس، والروم، والمصريّين، والسودانيّين تحمّلوا أشقّ الأعمال، وامتهنهم سادتهم أبلغ الامتهان.

و كانت سيرة الإمام السجّاد الإسلامية مع الموالي كسيرة جدّه أمير المؤمنين صلوات الله عليهما، فاجتذب قسماً من موالي العراق، وجدّ في رفع مقامهم الاجتماعيّ، فقد أعتق جاريةً له وتزوّجها، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيّره

---

١ - **الخصال**: ٥١٨ ـ ٥١٩ / باب «ذكر ثلاث وعشرين من الخصال المحمودة التي وصف بها زين العابدين عليه السلام».

٢ - انظر: **تاريخ الطبري** ٥: ١٩٦، ٢١٢ (طبعة عزّ الدين).

بذلك، فكتب إليه الإمام عليّ السجّاد عليه السلام: قد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة، قد أعتق رسول الله صلى الله عليه وآله صفيّة بنت حُيَيّ وتزوّجها، وأعتق زيدَ بن حارثة وزوّجه ابنةَ عمّته زينبَ بنت جحش[1]. فأحيا عليه السلام بذلك السيرة النبويّة الحسنة التي طمس الأمويّون معالمها.

و ذكر سيّد الأهل أنّه عليه السلام كان يشتري العبيد من غير حاجةٍ منه إليهم إلّا إعتاقهم، وقال: «و عرف العبيد منه ذلك، فباعوا أنفسهم له واختاروه وتفلّتوا من أيدي السادة ليقعوا في يده، وجعل الدولاب يسير، والزمن يسير، وزين العابدين يَهَب الحرّيّة في كلّ عام وكلّ شهر وكلّ يوم، وعند كلّ هفوة وكلّ خطأ، حتّى صار في المدينة جيش من الموالي الأحرار والجواري الحرائر، وكلّهم في ولاء زين العابدين، قد بلغوا خمسين ألفاً أو يزيدون»[2].

و أورد العلّامة الأمين العامليّ أيضاً أنّه عليه السلام كان يُعتق في آخر كلّ شهر رمضان عشرين منهم، وقال أيضاً: «و لقد كان يشتري السودان وما به إليهم من حاجةٍ، يأتي بهم عرفات... فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال[3]. وتعرّفوا أثناء هذه المدّة على شخصيّته العلميّة الأخلاقيّة المتورّعة العظيمة عليه السلام عن قرب، فمن الطبيعيّ أن تحبّه قلوبهم، فيرغبوا في المبادئ والأفكار الشيعيّة.

و كانت جارية له تصبّ الماء على يديه، فوقع الإناء من يدها وشجّت وجهه، فنظر إليها فقالت: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ﴾، فقال: كظمتُ غيظي، فقالت: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فقال: عفوتُ عنكِ، فقالت: ﴿واللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ﴾[4]. فقال: اذهبي

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٥: ٢١٤؛ **العقد الفريد** ٧: ١٤٠.

٢ - **زين العابدين**، لسيّد الأهل: ٧: ٤٧.

٣ - **أعيان الشيعة** ٤: ٤٦٨ (الطبعة الأولى).

٤ - آل عمران: ١٣٤.

فأنت حرّةٌ لوجه الله[١].

وكان خارجاً من المسجد، فلَقِيَه رجل فسبّه، فثارت إليه العبيد والموالي، فقال عليه السلام: مهلًا عن الرجل... فقال: ما سُتِر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة؟ وأمر له بألف درهم[٢].

و نتحدّث في ختام هذا البحث حول عفوه عليه السلام. ومن المناسب هنا أن ننقل روايةً رائعة أخرى عنه: قال عبد الله بن محمّد بن عمر: كان هشام بن إسماعيل يُسيء جوارنا ويؤذينا، ولقيَ منه عليّ بن الحسين أذىً شديداً، فلمّا عُزل أمر به الوليدُ أنَ يُوقَف للناس، فقال: ما أخاف إلّا من عليّ بن الحسين! فمرّ به عليّ وقد وقف عند دار مروان، وكان عليّ قد تقدّم إلى خاصّته ألّا يعرض له أحد منهم بكلمة؛ فلمّا مرّ ناداه هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته[٣].

بنو هاشم بعد واقعة كربلاء

إذا استثنينا الإمام السجّاد عليه السلام، فقد كان لشخصيّتين علويّة وعبّاسيّة نشاطات سياسيّة واجتماعيّة في تلك البرهة، وهاتان الشخصيّتان هما: محمّد ابن الحنفيّة، ابن الإمام عليّ عليه السلام؛ وعبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب الذي تعود شهرته الواسعة إلى الأحاديث التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، لا سيّما في التفسير[٤]. أمّا محمّد ابن الحنفيّة، فكان له مقام رفيع بين الشيعة بسبب علويّته، وإن لم يكن من أبناء فاطمة عليها السلام، وقد توجّهت إليه الأنظار لقيادة الشيعة سياسيّاً - وكان

---

١ - **شرح الأخبار** ٣: ٢٦٠.

٢ - **كشف الغمّة** ٢: ١٠١؛ **الإتحاف**: ١٣٧، ١٣٨؛ **مختصر تاريخ دمشق** ١٧: ٢٤٣.

٣ - **تاريخ الطبري** ٦: ٥٢٦؛ **شرح الأخبار** ٣: ٢٦٠.

٤ - انظر: ثلاث مقالات في تاريخ التفسير والنحو، لمحمّد باقر حجّتي: ٢٧ فما بعدها (طهران، ١٣٦٠ ش، ١٩٨١ م) [فارسيّة].

الشيعة قد طرحوا قيادة أهل البيت عليهم السلام من الوجهة السياسيّة - بخاصّة لِكبَر سنّه قياساً بسائر العلويّين، وكان شخصيّةً بارزةً في حروب أبيه عليه السلام، وله شأن عنده عليه السلام[١]. وتحليله هو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام هما عينا أبيهما عليه السلام وهو [أي محمّد] يمينه عليه السلام، فهو يدفع من عينيه بيمينه[٢]. وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول في تبيان مقام هؤلاء الإخوة الثلاثة: أين النجم من الشمس والقمر[٣]؟! ودفع عليه السلام إلى ابنه محمّد الراية، وقال الحسن والحسين عليهما السلام: «إنّما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما؛ لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤] [أي للمحافظة على أرواحهما]. واستغلّ ابن الزبير فيما بعد انتساب محمّد إلى غير فاطمة عليها السلام لتهشيم شخصيّته[٥]، ومع هذا لم يكن للقضيّة تأثير كبير عند الشيعة.

و لا شكّ في أنّ ابن الحنفيّة كان من الشيعة الأشدّاء، كما يتبيّن من سلوكه وعمله، لكن لم يحصل أيّ دليل وثائقيّ في كتب التاريخ على ادّعائه القيادة، وإن استغلّه بعض وأنشأ فرقةً باسمه، واعتقد مهدويّته. وما أكثر الذين يُمنَون بمثل هذه الأوضاع! كما أنّ بعض الأئمّة عليهم السلام قد مُني بهذا الوضع أيضاً. وكان ابن الحنفيّة يروي الأحاديث التي تهدي الناس إلى أهل البيت النبويّ الكريم عليهم السلام، فنقل عنه أنّه قال: من أحبّنا لله نفعَه الله بحبّنا ولو كان أسيراً بالدّيلم[٦]. وكان محبّو أهل البيت عليهم السلام كثيرين، إلّا أنّ العاملين بقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾ قليلون؛ لذا قال الإمام السجّاد عليه السلام: ما بمكّة والمدينة عشرون رجلًا

١ - **شرح النهج** ١: ٢٤٣.

٢ - نفسه ١: ٢٤٣ و١١: ٢٨ . كان من أشجع بني هاشم. انظر: **شرح النهج** ١٥: ٢٨٥.

٣ - نفسه: ٢٤٥.

٤ - نفسه ٩: ١١١.

٥ - نفسه ٤: ٦٣.

٦ - **شرح النهج** ٤: ١٠٥.

يحبّنا[١]! وإن كان الموالون السياسيّون كثيرين جدّاً.

والتعبير الذي كان يخاطب به ابنَ الحنفيّة أصحابُهُ عادة هو: يا ابن خير الأخيار، وابن أبرّ الأبرار، ما خلا النبيّين والمرسلين[٢]. وكان خطر ابن الحنفيّة على ابن الزبير أكثر من خطر المختار عليه - وهما مناوئان شديدان له - لسببين: الأوّل: أنّ المختار رفع لواء المعارضة في الكوفة باسمه، والآخر: أنّ ابن الحنفيّة تولّى قيادة قسم من التيّارات الشيعيّة على ما يبدو. وكان قصارى جهد ابن الزبير هو تدنيس سمعتهما، فترك ذكر النبيّ ﷺ (الصلاة عليه) في خطب الجمعات أربعين أسبوعاً من أجل هذا الفعل، ولمّا سُئل عن سبب ذلك قال: إنّ له أهيلَ سوءٍ، فإن ذُكِر مدُّوا أعناقهم لذكره[٣]! وله في هذا المجال تعبيرات أقذع[٤]، منها: بيت سوءٍ لا أوّل لهم ولا آخر! وهذا ما ارتاع له ابن عبّاس بشدّة، فأخرجه ابن الزبير إلى الطائف[٥]. وابن الزبير نفسه كان يعترف بأنّه يكتم بغضهم أربعين سنةً[٦]، وهو الذي حفّز أباه على ترك نصرة أهل البيت عليهم السلام، بل على المسير إلى حرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة الجمل، فقال فيه الإمام عليه السلام: ما زال الزبير رجلًا منّا أهل البيت حتّى نشأ ابنه المشؤوم عبدُ الله[٧]! ونقل ابن أبي الحديد أنّه هو الذي حرّض عائشة أيضاً، على حدّ تعبير عبد الله بن عمر[٨]، وليس اعتباطيّاً أن تحبّه عائشة بعد أبيها، أكثر من غيره[٩].

---

١ - نفسه.

٢ - **الفتوح** ٦: ٢٣٩، ٢٤٠.

٣ - **أنساب الأشراف** ٤: ٢٩.

٤ - **شرح النهج** ٤: ٦٢؛ ٢٠: ١٢٧، ١٢٨؛ **العقد الفريد** ٥: ١٦١.

٥ - **شرح النهج** ٢٠: ١٢٨.

٦ - نفسه ٤: ٦٢؛ ٢٠: ١٤٨.

٧ - نفسه ٢٠: ١٠٢.

٨ - نفسه: ١٠٧.

٩ - نفسه: ١١٠.

ويُستشفّ من هذه السوابق جيّداً أنّه كان شديد الحقد على العلويّين، ولم يكفّ عنهم قطّ، في حين كان عدوُّه الأصليّ هم بني أميّة. ومن الطبيعيّ ألّا يبايعه بنو هاشم، لذلك سجن: ابن الحنفيّة، وابن عبّاس، وأربعةً وعشرين رجلًا من بني هاشم في مدخل بئر زمزم، حتّى أنقذهم رسل المختار بهجوم مباغت وبلا سلاح[١]، وكان قد أراد أن يحرقهم! ولمّا أُنكر هذا العمل على مسامع أخيه عروة - المشهور برواية الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله - ذكر أن حصره لهم، وجمعه الحطب لإحراقهم هو من أجل أن لا يختلف المسلمون، وأن يدخلوا في الطاعة، فتكون الكلمة واحدة، كما فعل عمر بن الخطّاب ببني هاشم لمّا تأخّروا عن بيعة أبي بكر، فإنّه أحضر الحطب ليحرق عليهم الدار[٢]!! ولم يجرؤ ابن الزبير على ما عزم عليه؛ لأنّ كثيراً من أصحابه إنّما التفّوا حوله واستحبّوا الفاسد على الأفسد بسبب ظلم الأمويّين، ولم يسمحوا له أن يقوم بمثل هذا العمل[٣].

ووقع ابن الزبير في أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فانبرى له ابن الحنفيّة، ودارت بينهما مشادّات كلاميّة[٤]، فأمر ابن الزبير بإخراجه، فأنكر عليه ابن عبّاس ذلك[٥]. وأراد عبد الملك أن يستغلّ هذا الخلاف لمصلحته، فكتب إلى ابن الحنفيّة عارضاً عليه السفر إلى الشام، في حين طلب ابن عبّاس من عبد الملك، وهو يُثني على ابن الحنفيّة، أن يراعي حاله، فاستجاب له عبد الملك، وتوجّه ابن الحنفيّة إلى الشام، وكلّما مرّ عليه أحد من أهل الشام، وهو في طريقه إليها، تحدّث في

١ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦١. وفي خبر آخر: سبعة عشر رجلًا. انظر: **شرح النهج** ٢٠: ١٢٣، ١٢٤.

٢ - **شرح النهج** ٢٠: ١٤٧؛ **مروج الذهب** ٣: ٨٦.

٣ - انظر: **شرح النهج** ٢٠: ١٢٨.

٤ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦٢.

٥ - **الفتوح** ٦: ٢٥٢.

صيامه وقيامه، وذاعت أوصافه وجرت على ألسن الناس، فشعر عبد الملك بالخطر، فأرسل إليه ـ وهو ما زال في الطريق ـ أن إذا أراد دخول دمشق فعليه أن يبايعه، فأبى ابن الحنفيّة وقفل راجعاً إلى مكّة وسكن في شِعب أبي طالب عند بعض أصحابه الكوفيّين، ثمّ بدأ النزاع بينه وبين ابن الزبير مرّة أخرى، فأخرجه إلى الطائف. وأخرج ابنُ الزبير ابنَ عبّاس من مكّة أيضاً في الوقت نفسه، فقدم الطائف، فكان كلاهما يزري عليه، وفيها مات ابن عبّاس سنة ٦٨ هـ، فصلّى عليه ابن الحنفيّة[١].

ويكتنف الغموض المرحلة الأخيرة من حياة ابن الحنفيّة، فمن سُمِّيَ بالكيسانيّة قال: إنّه حيّ، ويعيش في جبل رضوى. وذكر ابن أعثم أنّه ذهب من الطائف إلى رضوى مع أربعين من شيعته، ولا أثر له حتّى يومنا هذا[٢]. وأشار اليعقوبيّ أيضاً إلى ذهابه إلى جبل رضوى.[٣] ويُلحَظ في شعر السيّد الحميريّ ـ الذي كان كيسانياً يوماً ما ـ نوع من اعتقاد مهدويّة ابن الحنفيّة وغيبته في جبل رضوى، فقد قال مشيراً إلى حديث النبيّ ﷺ في المهديّ بأنّ اسمه وكنيته اسم النبيّ ﷺ وكنيته:

يفوز بكُنيتي واسمي لأنّي ... نَحلْتُهُماهُ والمهديُّ بعدي
يُغيَّب عنهم حتّى يقولوا: ... تضمّنه بطيبة بطنُ لحدِ
سنين وأشهراً ويُرى برضوى ... بشِعبٍ بين أنمارٍ وأسدِ[٤]

١ - انظر: **الفتوح** ٦: ٢٤٠ – ٢٥٢.

٢ - نفسه ٦: ٢٥٣.

٣ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦٢.

٤ - **الأغاني** ٧: ٢٣٤. وجاء في السيّد الحميريّ: أنّه ترك هذه العقيدة، وصار من أتباع الإمام الصادق عليه السلام، وأنشد قائلاً:

ونُقلت أبيات للشاعر كُثيّر عزّة في عقائد الكيسانيّة، قال فيها:

ألا إنّ الأئمّــةَ مــن قــريشٍ ... وُلاةُ الحــقّ أربعــةٌ سَــواءُ
علــيٌّ والثلاثــة مــن بَنيــهِ ... هــمُ الأسباطُ لـيس بهـم خفـاءُ
فسِــبطٌ سـبطُ إيمــان وبِــرٍّ ... وسـبطٌ غيَّبتْــه كــربلاءُ
وسـبطٌ لا يـذوق المـوتَ حتّـى ... يقـود الخيْـلَ يَقـدمُها اللِّـواءُ
تغيّــبَ لا يُـرى فـيهم زمانـاً ... برضـوى عنـده عسـلٌ ومـاءُ[1]

وذهبت مصادر الملل والنّحل الإسلاميّة إلى أنّ مؤسّس المذهب الكيسانيّ هو المختار، وأنّه سمّاه بهذا الاسم نسبةً إلى كيسان من موالي عليّ بن أبي طالب[2]، ووردت في كتب الفِرق والمذاهب وجوهٌ أخرى لهذه التسمية أيضاً، ويعتقد بعض الكتّاب أنّ المذهب الكيسانيّ من مبتدَعات الرواة.[3]

ويرى بعض آخر أنّ لابن الحنفيّة قسطاً في ظهور أصل المذهب الكيسانيّ، وجعل له بنو العبّاس ذلك أيضاً، وهم الذين جدّوا منذ البداية في تصوير حكومتهم على أنّها تحقّقت بالوصاية عن طريق عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أي عَهِد النبيُّ صلى الله عليه وآله بها إلى عليّ عليه السلام، وبعده إلى الحسنين عليهما السلام، ثمّ وصلت إلى ابن الحنفيّة بواسطة الإمام الحسين عليه السلام، ومنه انتقلت إلى ابنه أبي هاشم، ولمّا حضرته الوفاة

تجعفـرتُ باسـم اللهِ واللهُ أكبـرُ ... وأيقنــتُ أنّ الله يَعفــو ويَغفــرُ

وشكّ بعض مشتبهاً في رجوعه عن الكيسانيّة. **الأغاني** ٧: ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤١ – ٢٤٢.

١ - **الملل والنحل** ١: ١٣٣، ١٣٤؛ **شرح الأخبار** ٣: ٢٩٧.

٢ - **الملل والنحل** ١: ١٣١.

٣ - انظر: **مذاهب ابتدعتها السياسة في التاريخ**، لعبد الواحد الأنصاريّ، طبعة بيروت، ١٩٧٣؛ **قاموس الرجال**: ٤٥٢. وأكثر الكتب تفصيلاً في الكيسانية هو كتاب (**الكيسانيّة في الأدب والتاريخ**)، لوداد القاضي. ويؤسفني أنّي لم أفد منه في كتابي هذا.

عَهِد بها إلى محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس[١]. وعن هذا الطريق وجّه بنو العبّاس سلطانهم!

ويدلّ ترابط هذين الموضوعين على أنّ المذهب الكيسانيّ في مصلحة بني العبّاس، بحيث إنّ الوصاية - بزعمهم - قد انتقلت إليهم عبر هذا الطريق، ثمّ تبيّن لهم بعد ذلك على أنّه ليس في مصلحتهم، فاجتهدوا في إثبات سلطانهم عن طريق جدّهم العبّاس وإثبات وراثته للنبيّ صلى الله عليه وآله[٢].

وكان عبد الله بن عبّاس الشخصيّة المهمّة الأخرى في بني هاشم، وعدّ من المعارضين الأشدّاء لابن الزبير بمكّة؛ وقد انبرى له منذ بداية الأمر، وحين كان يزيد حيّاً حاول أن يحفّزه على ابن الزبير، إذ كان يظنّ أنّه يستطيع أن يغتنم الفرصة المتاحة لمصلحته، بيد أنّ ابن عبّاس هاجم يزيد بشدّة في جوابه عن كتابه، وقال له مشيراً إلى قتله الإمام الحسين عليه السلام وفتيانَ عبد المطّلب: لا أباً لك! أنسيتُ قتلَك الحسين وفتيانَ عبد المطّلب مصابيحَ الدجى الذين غادرهم جنودُك مصرَّعين في صعيدٍ واحد، مرمّلين بالدماء، مسلوبين بالعراء، غير مكفّنين؟!... وقال له بشأن أبيه: وقد أماتَ أبوكَ السُّنّة جهلًا، وأحيا البدعَ والأحداثَ المُضلَّةَ عَمداً[٣]. فأجابه يزيد متّهماً إيّاه بالاشتراك في قتل عثمان، فيما ذكّره ابن عبّاس في جوابه بأنّ أباه معاوية كان أكثرَ الناس تقصيراً في حقّ عثمان، إذ تباطأ عن نُصرته حتّى هلك[٤]!

---

١ - **شرح النهج** ٧: ١٤٩، ١٥٠.

٢ - انظر: **الحياة السياسيّة للإمام الرضا** عليه السلام، ص ٣٧ فما تلاهما.

٣ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٤٨، ٢٥٠. ذكر الفسويّ النصّ الكامل لهذه الرسالة في كتاب **المعرفة والتاريخ** ١: ٥٣١ - ٥٣٣.

٤ - **أنساب الأشراف** ٤: ١٨.

وكان ابن عبّاس يرى - كما كان محمّد ابن الحنفيّة يرى ذلك أيضاً[١] - أنّ الحكومة ساءت غاية السوء، إذ انتقلت من النبوّة والخلافة الى ملكٍ عقيم، فكان يقول للناس: «فمن سمع مقالتي فليهرب من بني أميّة وآل الزبير؛ فإنّهم يدعون إلى النار»[٢]. وكان موقفه في أحداث مكّة أيّام ابن الزبير منسجماً تماماً مع موقف ابن الحنفيّة، وقد دافع عنه أساساً، وطالما تشاجر ابن عبّاس مع ابن الزبير بسبب ذلك وما يشبهه[٣]، وأهمّ شجار دار بينهما حين صعد ابن الزبير المنبر لتبكيته برَمْيه أنّه يعتقد متعة النساء، هادفاً من ذلك جعله أمام الناس الذي كانوا يتّبعون الخليفة الثاني في النهي عن المتعة، خلافاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله في تجويزها، فقام إليه ابن عبّاس وأجابه بأنّ عقيدته للمتعة عملٌ بسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله في تجويزها، وإذا كان شاكّاً في ذلك فليسأل اُمّه![٤]

ودعمُه لابن الحنفيّة، ومعارضته لابن الزبير، سبّبا إخراجه من مكّة، فتوجّه تلقاء الطائف؛ وظلّ على معارضته، وقال للناس في ابن الزبير: بقي أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضّأن تحتها قلوب الذئاب... ليظنّ الناسُ أنّهم من الزاهدين. وهذا ما دفع ابن الزبير إلى توبيخه في كتاب كتبه إليه، لكنّ ابن عبّاس، الذي كان شخصيّة لامعةً، لم يدّخر وسعاً في جوابه جواباً حادّاً معنّفاً[٥].

وتوفّي ابن عبّاس بالطائف سنة ٦٨ هـ، وصلى عليه ابن الحنفيّة، وقال: اليوم

---

١ - **الفتوح** ٦: ٢٣٨.

٢ - **أنساب الأشراف** ٥: ١٩٦.

٣ - **شرح النهج** ٢٠: ١٣٤، ١٤٨.

٤ - انظر: **الزواج المؤقّت في الإسلام «المتعة»**: ٩٩، ١٠٣ عن **صحيح مسلم** ٤: ١٣٣؛ **نصب الراية** ٣: ١٨٠؛ انظر: **شرح النهج** ٢٠: ١٣٠.

٥ - **شرح النهج** ٢٠: ١٢٥، ١٢٦.

مات ربّانيُّ هذه الأمّة رحمه الله تعالى[١]. ولم يحدث أيّ خلاف مع بني هاشم حتّى تلك الفترة والفترات التي تلتها، ثمّ بدأ الخلاف بين آل أبي طالب وبني العبّاس تدريجاً، واتّسع نطاقه على مرّ الأيّام، وبلغ مبلغاً أنّ آل أبي طالب عدّوا أهمّ عدوّ لبني العبّاس في عهد المنصور، فتحمّلوا أشدّ الضغوط منهم.

و ما نقل بشأن بني هاشم بعد حكم عبد الملك يدلّ على مراعاة عبد الملك لهم، وأنّه كتب إلى الحجّاج ينهاه عن سفك دم بني عبد المطّلب؛ لأنّ آل أبي سفيان فقدوا الحكومة؛ بسبب ما قاموا به من أعمال جائرة بحقّهم[٢]. ولم يكن لبني هاشم في هذه الفترة - إلى ما قبل ثورة زيد بن عليّ سنة ١٢٢هـ - نشاط سياسيّ واضح ، إلّا ما قيل في نشاط العبّاسيّين بشكلٍ غامض.

١ - تذكرة الحفّاظ ١: ٤١.

٢ - العقد الفريد ٥: ١٤٩.

الفصل العاشر

حكومة بني مروان

حكومة بني مروان

كان هلاك يزيد بن معاوية في صفر سنة ٦٤هـ، بداية تضعضع الحكم السفيانيّ، ولم يقتصر هذا التضعضع على الأقاليم البعيدة عن العاصمة دمشق فحسب، بل شمل دمشقَ أيضاً. وزاد التضعضع المذكور حين أعلن معاوية الثاني اعتزاله الحكم بعد مضيّ زهاء أربعين يوماً - وهو الأشهر - أو أربعة أشهر - وهو غريب - على تولّيه له، قائلًا: ألا وإنّ جَدّي معاوية بن أبي سفيان نازعَ الأمرَ مَن كان أَولى به منه في القرابة برسول الله، وأحقَّ في الإسلام، وأوّلَ المؤمنين، وابنَ عمِّ رسولِ ربِّ العالمين، وأبا بقيّة خاتم المرسَلين.

ثمّ ذكر بعض الأعمال المنكَرة التي زاولها جدّه وأبوه، فقال في أبيه يزيد: وقد قتَلَ عترةَ الرسول، وأباحَ الحرمة، وحَرَق الكعبة! وما أنا المتقلّدَ أمورَكم، ولا المتحمِّلَ تَبعاتِكم، فشأنكم أمركم[1]، فقال له مروان بن الحكم: «سُنَّها فينا عُمَريّة» [أي على سنّة عمر]! فأجابه قائلًا: «ما كنتُ أتقلّدُكم حيّاً وميّتاً»[2]. ووجود مثل هذا الابن ليزيد كان أمراً عجيباً، بخاصّة حين يُذكَر أخوه عبدالرحمان بن يزيد أيضاً بأنّه كان ناسكاً متألّهاً[3].

وكان الخطر الأكبر الذي يهدّد الأمويّين هو الشرق الإسلاميّ، إذ ظهر في مكّة بديلٌ قويّ نسبيّاً منذ سنة احدى وستّين، فكان ممهَّداً أن يُستغَلّ هذا التضعضع

---

١ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٤.

٢ - نفسه.

٣ - أنساب الأشراف ٤: ٧٢.

وتُقوَّض أركان الحكم الأمويّ في تلك المنطقة. وأراد حاكمها عبيد الله بن زياد بعد هلاك يزيد أن يحتفظ بالبصرة والكوفة أميراً عليهما، لكنّ وثبة الناس بالبصرة ألجأته إلى الفرار تلقاء الشام[1]. وظلّ العراق منذ ذلك الحين خاضعاً لحكم آل الزبير بعد المختار حتّى سنة اثنتين وسبعين، واكتفى الأمويّون بالشام ومصر.

وحين تزعزع الحكم الأمويّ في الشام أيضاً، هبّ جماعةٌ لنصرة آل الزبير وأرادوا قطع دابر الأمويّين، وحاكم مدينة حمص يومئذٍ النعمان بن بشير الأنصاريّ، فأصبحت هذه المدينة ذات ميولٍ زبيريّة، ونشط الضحّاك بن قيس الذي كان من أوجه أمراء الأمويّين، فسيطر على دمشق، وانضمّ ناتل بن قيس الجذاميّ حاكم فلسطين إلى أصحاب ابن الزبير، وبدأ عبد الرحمان بن مجدم الفهريّ عمله في مصر والياً لابن الزبير عليها. والأقليم الوحيد الذي ظلّ خاضعاً للحكم الأمويّ هو الأردنّ، وواليه آنذاك هو حسّان بن بجدل الكلبيّ[2]. وأمّا القبائل فقد دعمت قيسٌ ابنَ الزبير، ودعمت كلبٌ عمرَو بن سعيد ومروان بن الحكم بن أبي العاص[3]... وتشمل قيس قبائل: سُلَيم، وهوازن، وغطفان. والقبائل الموالية لمروان هي: كلب، وغسّان، وسكون، وسكسك، وتنوخ، وطيّئ (الشاميّة)، وقين[4]. وقد نشب بينهما قتال سنة أربع وستّين. وبايع مروان بن الحكم أصحابه سلطاناً بوصفه شيخ قريش وبني أميّة، وقاتل هو وفريق عمرو بن سعيد الضحّاكَ بن قيس، وهُزمت قيس في

---

١ - **مروج الذهب** ٣: ٨٥؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٧٨.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥٥.

٣ - **الإمامة والسياسة** ٢: ١٦ . ويعود خلاف هاتين القبيلتين إلى زواج معاوية من امرأة كلبيّة، فشعرت قيس، وعلى رأسها الضحّاك بن قيس، بثلب قيمتها الاجتماعيّة؛ لذا نهضت كلب في الفرصة المناسبة لدعم الأمويّين، واتّخذت قيس موقفاً عدائيّاً منها . انظر: **تاريخ الدولة العربيّة**: ١٧٧.

٤ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ١٧٧.

حرب شديدة وقعت في مرج راهط، وقُتل الضحّاك فيها. ودخل مروان دمشق، وأرسى نزلة أخرى الحكمَ الأمويّ في فرعه الجديد، وهو الفرع المروانيّ، وقيل: كان المحرّض الأصليّ على فرض مروان هو عبيد الله بن زياد[١].

وأصبح مروان هو المؤسّس للسلسلة المروانيّة في كلّ حال، ولم تُعهَدْ حكومته وطريقة تولّيه الحكم من قبل في بعض الوجوه تقريباً، وكان معاوية قد تولّى الحكم بالقوّة أيضاً، بَيْدَ أنّ للمكر والخديعة وقعاً في ظهور حكومته، أمّا مروان فقد تربّع على العرش بقوّة السيف تماماً، وقد ذكر المسعوديّ أنّه كان أوّلَ مَن تولّى الأمر بقوّة السيف على كُرهٍ من جماعة الناس[٢].

ومن المعضلات التي واجهتها حكومته: عمرُو بن سعيد الذي كان له قسط مهمّ في هذا التغيير، وعُيّن خلفاً له بعد ابنه[٣]، ثمّ قتله عبد الملك بطريقةٍ دنيئة جدّاً. ومنها: خالد بن يزيد بن معاوية الذي بايعته جماعة من أهل الأردنّ أثناء انتفاض الأمور واضطرابها، وكان تزوّج مروانُ أمّه امتهاناً وتحقيراً له، فشكا خالد إلى أمّه امتهان مروان وتحقيره له، فقضت عليه زوجته الجديدة سنة ٦٥هـ[٤].

ومن المحتمل أنّ مروان أعدّ خطّة للاستيلاء على الحجاز، وإن نسب بعض المصادر ذلك إلى عبد الملك. وهزم حُبَيْش بن دُلَجة جيش ابن الزبير في المدينة ودخلها، وأكل التمر على منبر النبيّ ﷺ، وسار إلى الربذة بعد حين، واشتبك فيها مع جيشٍ بعثه عبد الله بن الزبير، وقُتِل معظم جند الشام وأُسِروا[٥]. وقيل: كان

---

١ - **أنساب الأشراف** ٥: ١٣٨، ١٤١.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ٨٦.

٣ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٨.

٤ - **أنساب الأشراف** ٥: ١٣٤، ١٤٥؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٥٧؛ **العقد الفريد** ٥: ١٤٦.

٥ - **أنساب الأشراف** ٥: ١٥٣؛ **الإمامة والسياسة** ٢: ١٨١؛ **العقد الفريد** ٥: ١٥١.

الحجّاج في عسكر حُبيش أيضاً.

ولا وجود لنقطة مضيئة مشرقة في سابقة مروان، وقد تمثّل أوّل ظهوره على المسرح السياسيّ في مصاهرته لعثمان، وفي خضمّ اختلاف عثمان والناس، بعث كتاباً إلى حاكم مصر، باسم عثمان وعلى غير علمٍ منه، يأمره فيه بقتل محمّد بن أبي بكر وأصحابه. وحكم المدينة عددَ سنين، وكان يسبّ الإمام عليّاً عليه السلام طوال تلك السنين[1]! ولمّا أمر يزيدُ حاكمَ المدينة بأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام، بعد هلاك أبيه معاوية، عرض مروان على الحاكم المذكور قتلَ الإمام إذا امتنع من البيعة. وقيل في أخلاقه: كان مروانُ فاحشاً سَبّاباً![2]

وطالت حكومة مروان تسعة أشهر، ثمّ مَلَكَ ابنه عبد الملك بعد هلاكه في رمضان سنة ٦٥ هـ، وكان عبد الملك قبل ذلك مشهوراً في المدينة بالعبادة وقراءة القرآن[3]، «فلمّا أفضى الأمر إليه أطبق القرآن وقال: هذا آخر العهدِ بك»![4]

وكان أهم أمرٍ يواجهه في الداخل هو عمرو بن سعيد الذي قرّر مروان أن يخلّفه بعد عبد الملك، ولمّا عزم عبد الملك على غزو العراق سنة ٦٨هـ ثار عمرو في دمشق واستولى عليها، فرجع عبد الملك من منتصف الطريق، ونصبه وليّاً لعهده مكراً وخديعةً، ثمّ قتله بعد حين[5]! وعَمَلُ عبد الملك هذا كشف عمق مكره وكيده

---

١ - **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن سعد: ١٤٣؛ عن عمير بن إسحاق: كان مروان أميراً علينا ست سنين، فكان يسبّ عليّاً في كلّ جمعة على المنبر... ثمّ أعيد مروان فكان يسبّ عليّاً سلام الله عليه.

٢ - **الإمامة والسياسة** ٢: ١٧.

٣ - **أنساب الأشراف** ٥: ٣٧٢؛ **تاريخ الخلفاء**: ٢١٦ عن ابن سعد.

٤ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٧ . وفي خبر آخرٍ قال للقرآن: هذا فراق بيني وبينك!

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٥٩٩؛ **أنساب الأشراف** ٤: ١٣٧، ١٣٨، ٥: ١٥٠.

في التاريخ، فنهض رجال كابن عبّاس ينكر عليه فِعلته.[١]

وكان عبد الملك قد حاول قبل ذلك ـ ولم يَقُم المختار بثورته بعدُ ـ أن يستولي على العراق مستعيناً بالعناصر العثمانيّة في البصرة، فبعث خالدَ بن عبد الله وزوّده بكتب إلى أشرافها، ثمّ سيّر إليها جيشاً بقيادة مالك بن مَسْمَع، فلم يُفلح في السيطرة عليها، وفرّ الاثنان إلى الشام، واشتهرت هذه الحادثة في التاريخ باسم يوم الجفرة بالبصرة. وذهب ابن أعثم إلى أنّ القائد في هذه الواقعة هو زحرُ بن قيس، وذُكر أنّ عبد الملك طلب من المروانيّين أن يثوروا للقضاء على حكومة ابن الزبير، فدعا برجلٍ يقال له زحر بن قيس، وضمّ إليه ألف فارس وأمره بالمسير إلى البصرة[٢]، فاقتتل الجانبان، ووقعت الهزيمة على المروانيّين.

وأمر مصعب حاكمُ العراق المروانيّين في البصرة بطلاق نسائهم؛ ثمّ أمر بهدم دورهم، ثمّ أخذَ أموالهم[٣]. ودلّت هذه القضيّة على أنّ عبد الملك كان لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل بسهولة، فصالح الرومَ لحلّ مشكلاته وتعزيز قوّاته[٤] - وهذا ما فعله معاوية قبلَه عند حربه مع أمير المؤمنين عليه السلام - فهدّأ بعد ذلك مناطق الشام الثائرة كفلسطين التي كان يحكمها ناتل بن قيس الجذاميّ!، ثمّ فكّر تدريجاً بالاستيلاء على العراق بعد بضع سنين، أي سنة ٧٢ هـ، وكان مصعب يريد السيطرة على الشام، فلمّا هُزم ناتل بن قيس، عدل عن ذلك[٥].

وفي الوقت الذي سبّب الخوارج للزبيريّين، بخاصّة في العراق، مشكلاتٍ

---

١ - **أنساب الأشراف** ٤: ١٤٤.

٢ - نفسه ٤: ١٥٥، ١٥٧.

٣ - **الفتوح** ٦: ٢٥٦.

٤ - **مروج الذهب** ٣: ٩٨؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٣٠٠.

٥ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦٩؛ **مروج الذهب** ٦: ٩٨

عسيرةً في أواخر الستّينات وأوائل السبعينات، فكّر عبد الملك بغزو العراق، فعبّأ قواه... وكان الزبيريّون يحكمون الشرق الإسلاميّ والحجاز تسع سنين (دام تسلّط ابن الزبير على العراق ثماني سنين)، وكان لابن الزبير شعبيّة أكثر من بني أميّة، لكنّ بعض صفاته نفّر جميع الذين كان بإمكانهم أن يساعدوه[١]، ومن هذه الصفات: البخل[٢]، وحبّ الدنيا، فابتعد الناس عنه بسبب ذلك. وقد قيل في بخله:

عَدِمتَ قريشاً رضُوا بك سيّداً   وأنت بخيلُ الكفِّ غيرُ جوادِ

ولم يكن لآل الزبير في البصرة قاعدةٌ تُذكَر على الرغم من الضغط الشديد الذي مارسه مصعب بن الزبير؛ لأنّ هذه المدينة أساساً تختصّ بأصحاب الجمل والمروانيّين والعثمانيّين، ولم يكن لهم في الكوفة قاعدة أيضاً لتشيّعها النسبيّ. ومهّد قمع ثورة المختار لعناء الشيعة عناءً بالغاً، وزادت محادّة عبد الله بن الزبير لبني هاشم -ولا سيّما لمحمّد ابن الحنفيّة- ضجرَ الشيعة ورغبتَهم عنه. وقيل في مصعب بن الزبير: إنّه كان دائم التقتيل للشيعة[٣].

وأدّت الحروب المتوالية للخوارج إلى وثبة عدد آخر من الناس، وكان بغض عبد الله بن الزبير لأعدائه قد كرّه شخصيّته إلى قلوب الناس. ولمّا كان يحمل البغض لبني هاشم (وصرّح أنّه يُكنّه منذ أربعين سنة)[٤] لم يَرُق له حتّى الصلاةُ على محمّد ﷺ في خطبة الجمعة، وكان يقول: «إذا ذكرتُه فإنّ أهل بيته يشرئبّون لذِكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به»[٥]! وعُدّت هذه السجايا من أسباب ضعفه في

١ - **أنساب الأشراف** ٤: ٢٩.

٢ - نفسه ٥: ١٩٧.

٣ - نفسه.

٤ - **شرح النهج** ٢٠: ١٤٧.

٥ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٦١؛ **الأغاني** ٢: ٢٧٧.

العراق والحجاز. وكان نفوذه في الحجاز أكثر من العراق، وفي الوقت نفسه فإنّ هزيمته قد وقعت - كما يبدو - بسبب ضعف الدعم العراقيّ له إلى حدٍّ ما. لكنّ اقتدار عبد الملك، واعتماده على جيش الشام الذي كان مضرب الأمثال في طاعة ملوكه[1]، وبخاصّة ضغط الحجّاج الذي كان سبباً مهمّاً جدّاً في تحريض أهل الشام على المسير إلى العراق[2]، كان من أهمّ البواعث على هزيمة ابن الزبير وانتصار عبد الملك.

ولمّا كانت قاعدة ابن الزبير في العراق أضعف، سار إليه عبد الملك سنة اثنتين وسبعين، ولم يبق شريفٌ (في البصرة) إلّا كاتَبَه، إلّا المهلّبَ بن أبي صفرة[3]. وحين بدأ القتال التحق عدد كبير من جند مصعب بن الزبير بقوّات الشام، فبقي بين أصحابٍ قلائل[4]، فقاوم حتّى الرمق الأخير، وسأل في اللّحظة الأخيرة من حياته عروةَ بن المُغيرة عن الإمام الحسين عليه السلام كيف صنع بإبائه عن النزول على حكم ابن زياد، وعزمه على الحرب، فقال:

إنّ الألى بالطفّ مِن آلِ هاشمٍ ... تَأَسَّوا فَسَنُّوا للكرام التَّأَسِّيا[5]

وكان مقتل إبراهيم بن مالك الأشتر من أهمّ الأسباب التي أضعفت مصعباً[6]، فصمد بعد ذلك حتّى هلك. وكان مصعب أهمّ حاكم زبيريّ حكم العراق طولَ الفترة التي كان خاضعاً فيها لسلطة آل الزبير، إلّا برهةً يسيرة، وكان ذا تعصّبٍ عنصريٍّ عربيٍّ خاصّ، وله رؤية سيّئة، لا سيّما رأيه في الفُرس، بسبب مناصرتهم

---

١ - **وفيات الأعيان**: ١: ٢٥٢.

٢ - **العقد الفريد** ٥: ١٥٨.

٣ - **أنساب الأشراف** ٥: ٣٣٣.

٤ - نفسه.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٦؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٣٤٤.

٦ - **الفتوح** ٦: ٢٦٦.

للمختار غالباً[1]!

وحينما انتهى القتال، بايع أهلُ العراق عبد الملك، فخَضع الشرق الإسلاميّ كلّه لسلطة المروانيّين، ولم يبق إلّا الحجاز الذي كان يحكمه عبد الله بن الزبير. وأدرك عبد الملك حسّاسيّة الحجاز منذ مدّة طويلة بسبب مناسك الحجّ، حتّى منع الناس من الذهاب إلى الحجّ، ففكّر بمهاجمته، وعلى وجه الخصوص كان هناك من لم يعترف بحكومة عبد الملك رسميّاً مع وجود ابن الزبير في الساحة السياسيّة[2]، ومن هؤلاء: عبد الله بن عمر الذي يُحتَمل أنّه لم يبايع عليّاً عليه السلام، ولم يشهد حروبه، لكنّه ذهب إلى الحجّاج ليلاً وبايعه بذلّة بعد قتل ابن الزبير[3].

ووجّه عبد الملك الحجّاجَ بن يوسف الثقفيّ إلى الحجاز للاستيلاء على مكّة، فلبث حيناً في الطائف، مركز قبيلة ثقيف، ثمّ سار إلى مكّة. وهذه هي المرّة الثانية التي يُسيّر فيها الأمويّون جيشاً إلى مكّة للقضاء على ابن الزبير، إذ كانت الأولى سنة أربعٍ وستّين حين رجع الحصين بن نمير قائد جيش الشام منها بعد موافاة الخبر بهلاك يزيد، أمّا هذه المرّة فقد حاصرها الحجّاج على رأس جيش قوامُه اثنا عشر ألفاً، ودام حصاره ثمانية أشهر[4]، ونُصب المنجنيق على الجبال المحيطة بها، وجعلوا يرمون البيت الحرام وابن الزبير بالنار والحجارة[5]، حتّى احترقت الكعبة! ولم

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٤: ١٦١، ١٦٣ـ٢٦٢.

٢ - قال السيوطيّ: «بويع بعهدٍ مِن أبيه في خلافة ابن الزبير، فلم تصحّ خلافته، وبقي متغلّباً على مصر والشام، ثمّ غلب على العراق وما والاها إلى أن قُتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصحّت خلافته من يومئذٍ، واستوثق له الأمر». **تاريخ الخلفاء**: ٢١٥.

٣ - **الإيضاح**: ٧١؛ **المسترشد في الإمامة**: ١٦ . وتحدّثنا حول آرائه السياسيّة مفصّلًا في كتاب: «**تاريخ تحول دولت وخلافت**» [تاريخ تطوّر الحكومة والخلافة].

٤ - **وفيات الأعيان** ٣: ٧٣.

٥ - **الفتوح** ٦: ٢٧٩.

يرعَوا حتّى عن تدنيس المسجد الحرام بالقاذورات بكلّ صلافة[١]! وأخيراً سقطت مكّة في العاشر من جُمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، ووقعت بيد الأمويّين. ثمّ سار الحجّاج إلى المدينة، ورُويَ أنّه أساء بالغ الإساءة إلى بقيّة الصحابة، أمثال: جابر بن عبد الله الأنصاريّ، ومالك بن أنس، وسَهْل بن سعد، وثلّةٍ أخرى غيرهم[٢].

وامتدّت حكومة المروانيّين بعد ذلك لتشمل جميع الأقاليم الإسلاميّة، وكان عبد الملك سفّاكاً للدماء، إذ أخضع مع عمّاله الظالمين: كالحجّاج، ويزيد بن المهلَّب، وهشام بن إسماعيل[٣]، الناس بالسيف، وكان عبد الملك نفسه يقول: «ألا وإنّي لا أداوي أدواءَ هذه الأمّة إلّا بالسيف»[٤]! وكان يكره الأمر بالمعروف بشدّة، ويقول: واللهِ لا يأمرُني أحدٌ بتقوى اللهِ بعد مَقامي هذا إلّا ضربتُ عنُقَه[٥]! وودّ في آخر عمره - كغيره من الحكّام [الطواغيت] - لو كان منذ وُلدِ إلى يومه [الأخير] حمّالاً[٦]!

الحجّاج في العراق

كان الحجّاج أهمّ رجلٍ اضطلع بدورٍ أساسٍ في توطيد أركان المَلَكيّة (الحكومة المروانيّة)، حتّى قال عبد الملك لبنيه بشأنه: «... فإنّه هو الذي وطّأ لكمُ المنابر»[٧]. وذكر يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج أنّه [الحجّاج] وقف همّته وحياته كلّها

---

١ - نفسه ٦: ٤٨٦؛ **عقلاء المجانين**: ١٧٨ نقلاً عن **الصحيح من سيرة النبي** ﷺ ١: ٢٣.

٢ - **تاريخ الطبري** ٥: ٣٥؛ **تاريخ الخلفاء**: ٢١٥.

٣ - **مروج الذهب** ٣: ٩١. «وكان له إقدام على الدماء، وكان عمّاله على مثل مذهبه...».

٤ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٨.

٥ - نفسه: ٢١٨، ٢١٩.

٦ - نفسه: ٢٢٠.

٧ - نفسه: ٢٢٠؛ **الإمامة والسياسة** ٢: ٥٨.

على البيت الأمويّ[١]. وقد يسعنا أن نقول: إنّ عظمة الأمويّين عند الحجّاج كانت أعلى وأرفع كثيراً من عظمة رسول الله ﷺ عنده، فهو نفسه قال في الاستدلال على تفضيل الخليفة على النبيّ ﷺ: أخليفةُ أحدِكم في أهله أكرمُ عليه أم رسولٌ في حاجته ؟![٢] ونقل الجاحظ أنّه كان يمتعض من الناس الذين كانوا يزورون قبر النبيّ ﷺ، فكان يقول: هلّا طافُوا بقصرِ أميرِ المؤمنين عبد الملك، ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خيرٌ مِن رسوله[٣] ؟! وكان آخرون يذكرون استدلاله هذا أيضاً من أجل رَوَقانِهِ[٤] (روقان الحجّاج)! وكفى في حبّه لعبد الملك قولُه: «واللهِ لو علمتُ أنّ عبد الملك لا يرضى عنّي إلّا بنقض هذا البيت [الكعبة] حَجَراً حَجَراً، لَنقضته في مرضاته»![٥]

وكان عبد الملك يدرك هذا الحبّ، فقال لكاتبه حين سلّط الحجّاجَ على العراق سنة ٧٥هـ: اكتبْ عهدَه على العراقين، وأَطْلِقْ يدَه في الرجال والسلاح والأموال[٦].

ولمّا قدم الحجّاج العراق، كان هذا الإقليم يعجّ بالاضطرابات، ولم يعرف الهدوء في العقد السابع الهجريّ تقريباً، فغطّ في هدوء مجدّد لعقدينِ من الزمن

١ - **وفيات الأعيان** ٢: ٤٢٥.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ١٤٧. ونُسب مثل هذا الخبر إلى خالد بن عبد الله القسريّ حاكم مكّة سنة ٨٩هـ، فقد صعد المنبر وذكر أفضليّة الخليفة على الرسول، مقايساً الوليد بن عبد الملك بإبراهيم الخليل عليه السلام، وعدّ مقامَ الوليد أعلى من مقامه عليه السلام، وقال: استسقى إبراهيم فسقاه الله ملحاً أجاجاً، واستسقاه الخليفة فسقاه عذباً فراتاً! انظر: **تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٢٥.

٣ - **النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية**: ٨١؛ وانظر: **البداية والنهاية** ٩: ١٣٦.

٤ - **مروج الذهب** ٢: ٢٢٨.

٥ - **الإمامة والسياسة** ٢: ٥٢.

٦ - **الفتوح** ٧: ٤.

بسطوة سيفه، وكان بطشه يفوق التصوّر، فلم يجرؤ أحد على معارضته. مع هذا ـ وكما سنرى ـ استتبع هذا البطشَ والعنف ثوراتٌ في نهاية المطاف! وكان الحجّاج قال ساعة دخوله الكوفة: «... إنّه (عبد الملك) قلّدني بسيفين حين توليته إيّاي عليكم: سيف رحمة، وسيفِ عذابٍ ونقمة! فأمّا سيف الرحمة فسقط منّي في الطريق، وأمّا سيف النقمة فهو هذا»[١]! وفي خطبته هذه اتّهم أهلَ العراق بالشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق[٢]، وأذلّ أهل الكوفة، الذين عبّر عنهم ابن أعثم أنّهم كانوا «ذوي هيئةٍ وعزّة»، فجعلهم في قبضته[٣]. وكان وجوده للعراق ممّا أخبر به أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من قبل ودُعي عليه: اللّهمّ عجِّلْ عليهم بالغلام الثَّقَفيّ[٤]! ونسب بعض هذا القول إلى عمر بن الخطّاب لاحقاً[٥]!

وبلغت روح الحجّاج الدمويّة في قتل الناس درجةً قيل فيها عند نقل خبرٍ أُسطوريّ عنه: إنّه لم يرضع في طفولته حليبَ أحد، وإنّما رُضع الدمَ وحده، وهذا هو عرض إبليس الذي ظهر بصورة إنسان[٦]! وقال ابن خلّكان في سيرته: وكان للحجّاج في القتلِ وسفكِ الدماء والعقوبات غرائبُ لم يُسمَع مِثلُها[٧،٨].

ومحصّلة أعماله العنيفة الشديدة في العراق قتلُه أكثرَمِن مئةٍ وعشرين ألفاً[٩]، وكان في سجونه ما يربو على خمسين ألف رجل وثلاثين ألف امرأة مختلطِين،

---

١ - الإمامة والسياسة ٢: ٣٢.

٢ - الفتوح ٧: ٨؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣؛ مروج الذهب ٣: ١٣٢؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٧٣.

٣ - الفتوح ٧: ٤.

٤ - مروج الذهب ٣: ١٤٢.

٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١: ١٠٧.

٦ - وفيات الأعيان ٢: ٣٠؛ مروج الذهب ٣: ١٣٢.

٧ - وفيات الأعيان ٢: ٣١.

٨ - نفسه: ٣٠.

٩ - تاريخ الطبريّ ٥: ١٨٣؛ وانظر: معجم البلدان ٥: ٣٤٩.

ونصفهم عُزب[١]. وقال فيه السيوطيّ: وقد قتل [الحجّاج] من الصحابة والتابعين ما لا يُحصى، فضلًا عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة خَتْماً![٢] وكان الحاكمَ المطلق على العراق والشرق الإسلاميّ، أي خراسان وسجستان وجميع حواضر إيران من سنة ٧٥ إلى سنة ٩٥هـ . وعلى الرغم من جميع الضغوط، فقد أمضى أغلب هذه الآونة تقريباً في قمع الخوارج، والشيعة، أو الثائرين من عامّة أهل السنّة؛ حتّى شغله قمعه المذكور عن الفتوحات، ولم يتفرّغ لها إلّا في الفترة الأخيرة من حكمه، ويتعيّن علينا أن نقول: كان له أعداء كُثر في العراق أيضاً، فقمعهم جميعاً بقسوةٍ، وإن لقي مشاكلَ جمّة في هذا الطريق.

وكان عدوّه اللّدود الأوّل الخوارج، ومن قادتهم قَطَريّ بن الفجاءة الذي استطاع وحده أن يُشغله عَدَدَ سنين، ولمّا هُزموا في كرمان وتبدّدوا، نهض في المرّة الثانية شبيب الخارجيّ الذي استحوذ على الكوفة مرّتين ولعدّة ساعات، وأفلح الحجّاج في القضاء عليهم أخيراً بعد حروبٍ خاضها معهم مسنَداً بالمدد الذي وافاه من الشام[٣]. ونزيد أنّ الخوارج كان متفرّقين في مدائن العراق أيضاً، ويجب أن نقول: كان أكثر من نصف المحبوسين في سجون الحجّاج أُولي ميولٍ خارجيّة، وقد حُبِسوا بهذه التهمة.

أمّا الفريق الآخر الذي عارضه في العراق معارضةً واسعةً فهم الشيعة، وقد تفرّقوا وفقدوا تماسكهم بعد انهيار نهضة التوّابين سنة ٦٥هـ، وثورة المختار سنة ٦٧هـ. وكان عبد الملك قد حاول أن يتظاهر أن لا شغلَ له بآل عبد المطّلب، فكتب إلى الحجّاج أن يسير بهذه السيرة، فذكر ابن عبد ربّه أنّه لم يتعرّض لأحدٍ من الطالبيّين

---

١ - **مروج الذهب** ٣: ١٦٦.

٢ - نفسه: ٢٢١.

٣ - انظر: **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٧٤، ٢٧٥.

طوال حكمه[١]. وهذا لا يعني طبعاً أنّه لم يناوئ الشيعة، بل فعل ذلك بسبب خلوّ العراق من الطالبيّين الذين يمكن أن يصطدموا به، وإلّا فإنّ الشيعة الذين كانوا يعيشون في الكوفة وسائر مدائن العراق تعرّضوا لأسوأ أنواع الاضطهاد والتضييق؛ حتّى قال الإمام الباقر عليه السلام: «... ثمّ جاء الحجّاجُ فقتَلَهم كلَّ قِتْلة، وأخَذَهم بكلِّ ظِنّةٍ وتُهمة، حتّى إنّ الرجلَ لَيُقال له: زِنديقٌ أو كافر، أَحَبُّ إليه من أن يُقال: شيعةُ عليّ»[٢]! وكان الحجّاج يسرّه أن يسمع كلاماً مثل كلام رجلٍ من احدى القبائل جاءه فقال له: «... ما سُبّ أميرُ المؤمنين عثمان في نادٍ لنا قطّ... وشَهِد منّا صفّينَ مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلًا، وما شَهِدها مع أبي تراب منّا إلّا رجلٌ واحد... وما منّا أحد تزوّج امرأةً تحبّ أبا تراب ولا تتولّاه... وما منّا رجل عُرِض عليه شتمُ أبي تراب ولعنُه إلّا فعل، وقال: وأزيدكم ابنَيه الحسنَ والحسين وأمَّهما فاطمة!!»[٣].

وجلد الحجّاج رجالًا مثل عطيّة بن سعد العوفيّ الذي وُصِف بموالاة عليّ عليه السلام، جلَدَه أربعمئةِ جلدةٍ ليسبّ عليّاً [صلوات الله عليه]، ولم يفعل[٤]. واستغلّ مَن كان يريد أن تكون له حظوة عنده توجّهاتِه هذه، فجاءه أحدهم، وهو عليّ بن الأصمع، وقال له: إنّ أبوَيَّ عقّاني فسمّياني عليّاً، فسَمِّني أنتَ، فغيّر اسمه وقدّم له العطايا[٥].

وكان قلقاً من الشيعة، ومن أبسط فكرة شيعيّة أيضاً، فقد دعا يحيى بنَ يعمر من خراسان إلى العراق لأنّه قال: إنّ الحسن والحسين عليهما السلام هما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم

---

١ - العقد الفريد ٥: ١٤٩.

٢ - شرح النهج ١١: ٤٤.

٣ - مروج الذهب ٣: ١٤٤؛ شرح النهج ٤: ٦١.

٤ - شذرات الذهب ١: ١٤٤.

٥ - وفيات الأعيان ٣: ١٧٥.

يكتفِ بنفيه إلّا بعد أن استدلّ له بالقرآن على بنوّة عيسى عليه السلام لإبراهيم عليه السلام، فعرض بذلك سبيلًا لصواب فكره[1]. وكان الحجّاج يصرّ على موالاة عثمان كثيراً، وعلى قتل كلِّ مَن كان ظنيناً بالاشتراك في إيذائه بنحوٍ من الأنحاء[2].

وجدّ عمّال عبد الملك، وكذلك عبد الملك نفسه في توسيع الوهي بين العلويّين والزبيريّين - الذين كان بينهم خلاف سابق - وإرسال بعضهم على بعض، ففي مجلسٍ من تلك المجالس التي أُقيمت لأجل ذلك تمارض الإمام السجّاد عليه السلام ولم يحضر فيه[3]، وأكره عبدُ الملك آلَ عليّ عليه السلام على سبّه، كما أكره آل الزبير على سبّ عبد الله بن الزبير[4]. وشاع هذا النهج بعده في عصر ابنه سليمان، فقد كان هذا يرغم الناس على سبّ الإمام أمير المؤمنين عليّ [صلوات الله وسلامه عليه] بعد تهديدهم بالقتل[5]!

و مجمل القول: إنّ الوضع الماليّ لأهل البيت عليهم السلام بلغ، بسبب وطأة الأمويّين، مبلغاً أنّ حاكم العراق كتب فيه قائلًا: إنّ أهل هذا البيت من بني هاشم [بني عليّ] قد كانوا هلكوا جوعاً حتّى كانت همّة أحدهم قوت يومه![6]

و كان للحجّاج أعداء آخرون أيضاً في كنفه مضافاً إلى الشيعة والخوارج، وهم الذين خرجوا عليه لأيّ سببٍ من الأسباب، وبدافع مكافحة الجور الأمويّ طبعاً، ففي السنة الأولى التي تسلّط فيها على العراق، ألغى الزيادة التي كانت في سهم أهل البصرة من بيت المال، فثار عليه أهلها بقيادة عبد الله بن الجارود، وسرعان ما

---

١ - نفسه ٦: ١٤٧

٢ - **الموفّقيّات**: ٩٩.

٣ - **نسب قريش**، لمصعب الزبيريّ: ٤٧، ٤٨.

٤ - **نسب قريش**، للزبير بن بكّار: ٨٣ .

٥ - **وفيات الأعيان** ٢: ٤٢٦ .

٦ - نفسه ٧: ١٠٦

قُمِعت ثورتهم[١]. وكانت هذه الواقعة في سنة ٧٥هـ. وحدثت ثورة أخرى بقيادة مطرف بن المُغيرة الذي كان هو وأبوه من أنصار الأمويّين، وحكما الكوفة والمدائن، ثمّ جنح إلى الخوارج، والتقى به مبعوثو شبيب الخارجيّ، وعرض عليهم إذا انتصروا جعل الحكم شورى والحاكم قرشيّاً، لكنّ الخوارج رفضوا عرضه[٢]، والأسباب التي كان يعتقد أنّه ثار على الحجّاج لأجلها هي الاستئثار بالفيء، وتعطيل الحدود والتسلّط بالجبريّة[٣].

وسار مع أنصاره من المدائن تلقاء قصر شيرين، ثمّ توجّه إلى منطقة سامان حوالي أصفهان بعد حين، ومنها يمّم قمّ وكاشان[٤]، ولحق به تدريجاً أنصار من الريّ وأصفهان، من بين العرب الذين كانوا قاطنين هناك طبعاً، وربّما فيهم بعض الفُرس. وكتب حاكم أصفهان إلى الحجّاج أن يعجل في العمل إذا أراد هذه المدينة. وطلب الحاكم العربيّ لمدينة همدان منه أن يأذن له في الذهاب لقمع مطرف، فرفض الحجّاج طلبه لخوفه من انتشار العرب في أراضي الخراج.[٥] وأخيراً سار إليه جيش مؤلّف من أهل الشام والريّ سنة ٧٧هـ، فقضوا على حركته. فخوّل عبد الملك الحجّاج جميع المناطق الشرقيّة، حتّى خراسان وسجستان، فعزم على الفتوحات والظفر بغنائم جديدة للحكومة الأمويّة بعد أن لم تكن في مستطاعه إلى ذلك الحين، وكان أمرها قد انتهى قبله بتسلّط يزيد على البلاد. وقد واجه عمله في إرسال الجيوش لتوسيعها مشكلةً تطلّبت عاماً أو عامين من أجل

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٦.
٢ - نفسه ٥: ١٠٨ — ١٠٩.
٣ - نفسه ٥: ١٠٨.
٤ - نفسه ٥: ١١٣.
٥ - نفسه ٥: ١١٥.

علاجها[١].

ثورة عبد الرحمان بن الأشعث

اختير عبد الرحمان بن محمّد بن الأشعث بن قيس لقيادة جيشٍ جرّار من أهل العراق لينهض بالفتوحات في سجستان ولم تربط هذا الشخص وأسرته بأهل البيت عليهم السلام علاقاتٌ حسنة، فقد اشترك الأشعث في قتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وبنته جعدة قتلت الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، واشترك ابنه محمّد في قتل الإمام الحسين عليه السلام؛ وهذا ما أبانه الإمام الصادق عليه السلام في كلامه فيهم.[٢] وعبد الرحمان هذا نفسه كان مسؤولًا عن جمع صدقات المدينة بأمر حكومة آل الزبير[٣]. توجّه جيشه إلى سجستان عام ٨٠هـ، ثمّ أزمع إيقاف الأعمال العسكريّة في العام الذي تلاه بعد أن حقّق بعض المكاسب، وعرض على الحجّاج ذلك فردّه. وكان يدرك هو وجنده مشقّات العمل، فلم يرضخوا لأمر الحجّاج فأصبح ذلك ذريعةً لمعارضة الحجّاج والحكومة الأمويّة.

و رجع جيشه إلى العراق - كجيش متمرّد - بدل أن يواصل أمر الفتوحات، وكانت له جميع الإمكانيّات اللازمة لمواجهة العراق، إلّا خلوّه من العرب المتواجدين بسجستان، ولو كان هذا العمل في خراسان لتيسّر أمره أكثر[٤].

و دعا عبد الرحمان الناس إلى كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلى خلع أئمّة الضلالة، وجهاد المحلّين.[٥] فدخل جيشه البصرة في ذي الحجّة سنة ٨١هـ، وكان

---

١ - صدر في العراق كتاب سنة ١٤٠٥هـ بعنوان: «**الحجّاج رجل الدولة المفترى عليه**»، للدفاع عن الحجّاج.

٢ - **روضة الكافي**: ٢٤٥.

٣ - **أنساب الأشراف** ٤: ٦٠.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٤٩.

٥ - نفسه.

أهل البصرة قرّاؤهم وحفّاظهم وشيوخهم قد ضاقوا ذرعاً من اضطهاد الحجّاج، فخلعوا بأجمعهم عبد الملك من الحكم، وانضمّ إليه في الكوفة أهلها كلّهم أيضاً.[١] وكان بين أصحابه فريق كبير من القرّاء، وكذلك جمّ غفير من فقهاء العراق[٢] الذين كان فيهم ابن أبي ليلى، وهو الذي ضربه الحجّاج وشتمه ليسبّ عليّاً عليه السلام[٣]، وفيهم أيضاً كثيرٌ من محبّي أمير المؤمنين عليه السلام، وقد تولّى كُمَيل بن زياد قيادة القرّاء.[٤] ففزع عبد الملك من هذه الحركة، ووعدهم بعزل الحجّاج ليحافظوا على الهدوء، فرفض عبد الرحمان وأصحابه وُعودَه، وكانوا قد شعروا بقرب النصر، ولم يكونوا يطمئنّون إلى عهود عبد الملك[٥]! يضاف إلى ذلك أنّهم كانوا مناهضين لبني أميّة أساساً، لا لشخص الحجّاج فحسب، وهو ما استبان تماماً من كلامهم في خلع عبد الملك.

و كانت تُنقَل في هذه الثورة كلماتُ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في تأليب الناس على بني أميّة، ممّا يدلّ على وجود أولي الميول الشيعيّة بين الثوّار[٦]، إلّا أنّ الاتّجاه العامّ للثورة، قياساً بنهضة التوّابين والمختار، لا يبدي وجودَ مثل تلك الميول أبداً، بخاصّة أنّ قيادة الثورة بيد من كانت آصرة أسرته بأهل البيت عليهم السلام غير طيّبة. والقاسم المشترك الوحيد بين الفرق المتنوّعة التي تعاضدت في الثورة هو: العداء لبني أميّة، وعزيمة الإطاحة بالحجّاج. والموضوعات التي كانوا يفيدون منها في دعاياتهم ضدّ بني أميّة هي جَور بني أميّة وإذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة: قاتلوهم على جورٍ في الحكم، وتجبّرهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم

---

١ - نفسه٥: ١٥٥.

٢ - **الطبقات الكبرى** ٦: ٢٩٣.

٣ - **تذكرة الحفّاظ** ١: ٥٨.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٥٨.

٥ - نفسه ٥: ١٥٧.

٦ - نفسه ٥: ١٦٣ . وجاء في خبر ورد في **عمدة الطالب**: أنّه كان بايع أحد العلويّين.

الصلاة[1].

و من الأسباب المهمّة التي أرسخت الثورة في تلك الظروف هي وطأة الحجّاج على الأعراب الذين أسلموا وهاجروا إلى المدن. وخَفْضُ الخراج الذي كان نتيجة هذه الهجرة قد دفع الحجّاج إلى إخراجهم من المدن، و إسكانهم في مناطقهم التي كانوا فيها، فضجّوا جميعاً منادين تحت هذه الوطأة: يا محمّداه![2] وهذا الأمر جعلهم يميلون إلى عبد الرحمان من أجل القضاء على الحجّاج... يضاف إليه، أنّ إرسال أهل العراق إلى أبعد المناطق من أجل الحرب ـ وخصوصاً من أجل الغنائم التي كانت تقع بيد الحجّاج ـ كان سبباً آخر للثورة[3]. ومن المؤكّد أنّنا يجب أن نعتبر آثار أخذ الجزية من المَوالي الذين أسلموا قضيّةً مهمّة في هذه الحركة، وقيل: «كان أكثرُ مَن قاتله وخلعه وخرج عليه: الفقهاء، والمقاتلة، والموالي من أهل البصرة»[4].

و استمرّت ثورة عبد الرحمان حتّى سنة ٨٣هـ ... ومن أهمّ معاركه معركة دَير الجماجم التي حدثت في هذه السنة نفسها، وأدّت هزيمة عبد الرحمان وأسر عددٍ كبير من أنصاره إلى عجزه عن الصمود في المعارك اللاّحقة، فتوجّه في خاتمة المطاف تلقاء سجستان، وتفرّق عنه كثير من أصحابه في طريق خراسان، وهو نفسه رحل إلى هَراة لاجئاً عند أحد ملوكها. وحين وقّع الحجّاج ورَتبيل ملك هراة معاهدةً سنة ٨٥هـ، كان رأس عبد الرحمان من بنودها، فقَبِل رتبيل ذلك، وبعثه إلى الحجّاج!

و كان قد قتل الحجّاج خلقاً كثيراً من أسرى دَير الجماجم، وما ترك منهم إلّا من

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٦٣ .

٢ - نفسه ٥: ١٨٢.

٣ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ٢٢٥.

٤ - **العقد الفريد** ٣: ٣٦٤.

أقرّ على نفسه بالكفر، ومات في غضون ذلك عدد من فقهاء العراق المشهورين أيضاً[١]، وكان الشعبيّ أحد الفقهاء، وقد باع نفسه للحجّاج بعد الهزيمة! ومن الفقهاء أيضاً سعيد بن جُبَير الذي قبض عليه خالد بن عبد الله القسريّ حاكم مكّة بعد حينٍ مضى على الهزيمة، فبعث به إلى الحجّاج، فقتله بعد أن سأله عن عقيدته في الخلفاء الأوَل، وهو مَعْلَمٌ على شكّه في قبولهم. وفَقَد الحجّاج بعد ذلك توازنَه النفسيّ والعقليّ بسبب قتل سعيد![٢] وقد بلغ قتلُ أسرى دَير الجماجم حدّاً من الإسراف أنّ عبد الملك نفسه أنكر على الحجّاج عمله أيضاً[٣]، أو تظاهر بذلك!

و يتعيّن علينا أن نعدّ حربَ ابن الأشعث والحجّاج مثالًا آخر على حروب العراق والشام، وكانت حربه هي الحرب الرابعة التي شبّت بين الجانبين: فالأولى كانت حرب الإمام عليّ عليه السلام؛ والثانية حرب التوّابين والمختار؛ والثالثة حرب مصعب؛ والرابعة هي الحرب المذكورة... وهذه المرّة أيضاً لم ينجح أهل العراق المتشتّتون المتفرّقون، ونجح أهل الشام بسبب وحدتهم ودعمهم المستمرّ للملوك الأمويّين.

و هلك عبد الملك سنة ٨٦هـ، فترك الدنيا بعد أن أزاح هو والحجّاج عقبات جمّة عن طريق الحكم الأمويّ، وبعد أن لاقى مصاعب كثيرة جدّاً في عهده، فمهّد لاستمرار الحكم المروانيّ. ويراه بعض المؤرّخين مُبدعاً لبعض الأمور في التاريخ الإسلاميّ، فهو: «أوّل من ضرب للناس سككاً فيها ذِكرُ الله وذِكرُ رسوله، وهو أوّل ملكٍ بَخِل، وهو أوّل من غَدَرَ في الإسلام! وأوّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء! وأوّل من نهى عن الأمر بالمعروف! وأوّل من نقل الديوان من الفارسيّة إلى العربيّة، وأوّل

١ - نفسه ٥: ١٦٩؛ **الإمامة والسياسة** ٢: ٤٧.

٢ - **الإمامة والسياسة** ٢: ٥٤؛ **مروج الذهب** ٣: ١٥٦.

٣ - **مروج الذهب** ٣: ١٣٣؛ **تهذيب تاريخ دمشق** ٤: ٤٧؛ **وفيات الأعيان** ٢: ٣٥.

من أحدث الأذان في الفِطر والأضحى»[١] ! ووليَ الحُكمَ بعده ابنُه الوليد، فواصل سيرة أبيه ومعه الحجّاج أيضاً، وفيه وفي عمّاله قال عمر بن عبد العزيز: «كان الوليد بالشام، والحجّاج بالعراق، وعثمان بن حبارة بالحجاز، وقرّة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جوراً»![٢] وقيل في الوليد أيضاً: إنّه أوّل من تجبّر من الخلفاء[٣]! ومن أهمّ أعماله بناء المسجد الأمويّ بدمشق، والهدوء الذي ساد الأقاليم الإسلاميّة في عهده من شوّال سنة ٨٦ إلى جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ، فأدّى إلى استئناف الفتوحات في أرجاء العالم، حتّى قال الذهبيّ فيه: «... وفُتحت فيها الفتوحات العظيمة كأيّام عمر بن الخطّاب»[٤]. وأهمّ حملاته حملة القسطنطينيّة من جهة، وحملة الأندلس من جهة أخرى.

وكان كأبيه مَديناً للحجّاج إلى حدٍ كبير، وكان يستشيره باستمرار، فحين جاء وفد من أهل العراق إلى المدينة وشكوا إلى حاكمها عمر بن عبد العزيز من جور الحجّاج، كتب عمر إلى الوليد بهذا الشأن، فشاور الوليدُ الحجّاج فأشار عليه بعزل عمر عن حكومة المدينة ونصب عثمان بن حيّان المرّيّ مكانه، وعثمان هذا هو الذي بعث بأهل العراق - وكانوا قد لجأوا إلى المدينة - في جوامع [أغلال] إلى الحجّاج[٥].

وحكم بعد الوليد أخوه سليمان، وامتدّ حكمه من جمادى الآخرة سنة ٩٦ إلى صفر سنة ٩٩هـ، ونصب هذا عمرَ بن عبد العزيز حاكماً بعده. ويتعيّن أن نسمّي هذا

---

١ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٨ . يكتنف ضربه السكك غموضٌ كثير.

٢ - نفسه: ٢٢٣.

٣ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ٢١٦؛ عن **أنساب الأشراف** .

٤ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٢٥.

٥ - **تاريخ الطبري** ٢: ١٢٨٥، ١٢٦١ نقلاً عن **تاريخ الدولة العربيّة**: ٢٤٧.

العصر، كما أشير إليه، عصر الهدوء بعد الحملات المتوالية لعبد الملك من أجل توطيد دعائم الحكم المرواني، وفي ظلّه استطاع الملوك الأمويّون أن يزيدوا القدرة الاقتصادية للمجتمع، مضافاً إلى توسيع الفتوحات الّتي كانت وراءها حسابات خاصّة لهم، بخاصّة أنّ النزاعات السياسيّة الداخليّة التي وجّهت ضربةً شديدة إلى اقتصاد المجتمع قد أفلت. وليس اعتباطيّاً أن يُعتَبَر الوليد أسنى الملوك عند أهل الشام[١]. ومن أعمال سليمان: ملاحقة أصحاب الحجّاج وأقاربه وتعذيبهم، وسبب موقفه هذا هو المشاكسة التي جرت بينهما أيّام ولاية عهده![٢]

وعاش الحجّاج حتّى سنة ٩٥هـ، وفيها هلك، وحسبنا في الحكم عليه كلام شريح في تكفيره[٣]، وقد سجد الحسن البصريّ شكراً لله حين بلغه خبر هلاكه[٤]!

حكومة عمر بن عبد العزيز

إنّ شخصيّة عمر بن عبد العزيز الذي حكم من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١هـ شخصيّة لامعة عند المؤرّخين المهتمّين بالملوك الأمويّين؛ ذلك أنّه كان قياساً بملوك بني أميّة، لا غيرهم، ذا خصائص متميّزة، فذكر ابن الأثير: أنّه قرأ سِيَر الملوك، ولم يكن أحد أحسن منه سيرةً بعد الخلفاء الراشدين[٥]، ويعدّونه عادةً خامس الخلفاء الراشدين[٦].

١ - **العقد الفريد ٥: ١٧٣.**

٢ - **تاريخ الدولة العربيّة ٥: ٢٥٠.**

٣ - **وفيات الأعيان ٢: ٤٦٣.**

٤ - نفسه ٢: ٥٣ (و هامشه عن:) **العقد الفريد ٥: ٤٩.**

٥ - **الكامل في التاريخ ١: ٤٠٣.**

٦ - نفسه ٥: ٦٥.

ويُحتمل صواب ما نُقل عن الإمام الباقر عليه السلام: أنّه نجيب بني أميّة![1] وقيل: إنّه حين وليَ المدينة كان على اتّصال بعلماء الحديث والفقه فيها، لذا كان هو نفسه عالماً بالحديث والفقه أيضاً[2]، وإن كان يصرّح بأنّ ما عنده من علم هو في المدينة فقط، ولمّا ذهب إلى الشام [ووليَ الحُكم] نَسِيه كلَّه![3] وأكثر مَن سعى في استخلافه هو رجاء بن حَيْوَة الذي كان أحدَ علماء البلاط الأمويّ[4]. ولنا فيما تقدّم إشارات حوله.

و من أجل التعرّف على هذا الحاكم وعلى السياسة التي انتهجها في الأمّة الإسلاميّة بقطع النظر عن دافعه على عمله، أكان سياسيّاً أم دينيّاً؟ ويتسنّى الالتفات إلى ملاحظة مهمّة، وهي أنّه حاول إيجاد وضعٍ متعادل في الأمّة، فجعل

---

١ - نفسه ٥: ٦٢؛ **سير أعلام النبلاء** ٥: ١١٧. وذكره أيضاً: الذهبيّ في (**تذكرة الحفّاظ** ١: ١١٩)، وفي (**العبر في أخبار من غبر**١: ٩١)، والسيوطيّ في (**تاريخ الخلفاء** ٢٣٠ – ط السعادة بمصر). هذا ما يرويه علماء السنّة، أمّا في المصادر الشيعيّة فروي قول الإمام الرضا عليه السلام: «في كلّ حيّ نجيبٌ إلّا في بني أميّة» (**الخصال**، للشيخ الصدوق ٢٢٨ / ح ٦٤). قيل: تغليباً، ولمعاداتهم لآل النبيّ صلى الله عليه وآله و اغتصابهم الخلافة منهم، وقد ورد بالخصوص عن **الإمام الباقر** عليه السلام قوله فيه: «لَيَلِيَنَّ هذا الغلامُ فيُظهر العدل، ويعيش أربع سنين ثمّ يموت، فيبكي عليه أهل الأرض ويلعنه أهل السماء. قال: يجلس في مجلسٍ لا حقّ له فيه»! (**بحار الأنوار**٤٦: ٢٥١/ ح ٤٤ – عن: **الخرائج والجرائح** ١: ٢٧٦ / ح ٧) ومن قَبله قال الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام: يا عبد الله بن عطاء أترى هذا المُترف؟! (يريد به عمر بن عبد العزيز وقد مرّ وعليه شِراكاً فضّة)، وإنّه لن يموت حتّى يليَ الناس (أي يكون عليه والياً). قال: قلت: هذا الفاسق؟! قال: نعم، فلا يلبث إلّا يسيراً حتّى يموت، فإذا مات لعنه أهل السماء، واستغفر له أهل الأرض! (**بحار الأنوار**٤٦: ٢٣ / ح ٢ – عن **بصائر الدرجات**، للصفّار القمّيّ). [ولا بأس بمراجعة: **الإمام زين العابدين** عليه السلام، للسيّد عبد الرزّاق الموسويّ المقرّم ص٦٣، و**جهاد الإمام السجّاد** عليه السلام، للسيّد محمّد رضا الحسينيّ الجلاليّ، ص ٢٦١ - ٢٦٥].

٢ - **الأغاني** ٩: ٢٧٣.

٣ - **سير أعلام النبلاء** ٥: ١٢١.

٤ - نفسه ٥: ١٢٣.

حكومته على أساس هذا التعادل لا على أساس الاضطهاد والاستبداد. والاتّجاه الأصليّ لهذا التعادل هو الاهتمام بالقيم المقبولة في الأمّة الإسلاميّة، مثل رعاية الأحكام والسنن الدينيّة، والمحافظة على حرمة الشخصيّات المحبوبة - لبعض الفرق في الأقل - وحثّ عمّاله على إنصاف الناس وترك الظلم والإجحاف بحقّهم، وتقديم صورة دينيّة لحكومته. ومن المحتمل أنّه كان يعتقد أنّ الوضع القائم سيعجّل في انقراض الأمويّين، وإنّما الإصلاح الأساسيّ يثبّت الأوضاع لمصلحتهم... ومهما كان، من الأفضل أن نستعرض مواقفه من الفِرق والجماعات المتنوّعة، ونحاول هنا أن نسلّط الضوء على الأبعاد المختلفة لهذه المواقف.

موقفه من الشيعة: لا يعني تقديمُ هذا الموقف أنّه كان يميل أكثرإلى انتهاج سلوكٍ مناسب مع الشيعة، لكن يجدر القول: إنّ بعض المصادر المتعاطفة مع الشيعة حاول إظهار ميله المذكور على سبيل الاحتمال، كعقيدة أصيلة كان يحملها حيال الإمام عليّ عليه السلام. وربّما أرادت المصادر هذه أنّ تدلّ على إهمال الملوك الآخرين للحقوق التي كان يعترف بها لأهل البيت عليهم السلام. ومن أعمال عمر الثاني: إزالة السنّة السيّئة التي أشاعها الحكّامُ الأمويّون من معاوية[1] فما بعده، وهي سبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر الذي اتّخذ طابعاً رسميّاً وعامّاً في الخُطَب. وقيل: إنّ عمر كان يعمل بهذه السنّة السيّئة في بداية حياته، ثمّ التفت إلى خطئه وضرر هذه السنّة السيّئة على حكومته بعد حين، فكان يذكر الإمام عليّ عليه السلام بخير دائماً[2]. ولمّا وليَ، لم يكتف بترك هذه السّنّة وحده، بل كتب إلى عمّاله جميعاً يأمرهم بتركها[3]، ولا شكّ في أنّه قد أقدم على تركها حسب ما جاء في

---

١ - **شرح النهج** ٤: ٥٦.

٢ - **سير أعلام النبلاء** ٥: ١١٧.

٣ - **الكامل في التاريخ** ٥: ٤٢. وجاء في هامش كتاب **تاريخ الدولة العربيّة** عن فلهاوزن أنّ أحد الباحثين شكّ في هذا الأمر، وإن لم يذكر وجهاً لشكّه. انظر: ص ٢٩٩.

المصادر التاريخيّة[1]. وفي هذا الشأن نظم الشاعر الشيعيّ كُثيّر عزّة شعراً في مدحه، أنشده في مجلسه فكان ممّا قال فيه:

وُليتَ فلم تَشْتُم عليّاً، ولم تُخِفْ بَرِيّاً، ولم تَتْبَعْ مقالةَ مُجرم

تكلّمتَ بالحقّ المُبين وإنّما تُبَيّنُ آياتِ الهُدى بالتكلّمِ[2]

ويدلّ ما جاء في بعض الأخبار على أنّ معرفته بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد زادت تدريجاً، لا سيّما أنّه وجد كتبه عليه السلام في خزائن الشام فأظهرها للناس[3]. ونقل عنه قوله: أزهدُ الناس في الدنيا عليّ[4]. ولا يمكن الحكم الصريح على موقفه، أكان يمتلك الجرأة على إبداء الموقف المذكور حقّاً، وهو بين الأمويّين، وبمؤازرتهم تولّى الحكم أم لا؟ مع أنّا إذا وضعنا جميع الأخبار الواردة في هذا الباب جنباً إلى جنب، فإنّ صحّة الخبر ستكون محتملة. وشتّان بين هذا الموقف وموقف الوليد بن عبد الملك حين صعد المنبر ونقل حديثاً [مفترىً] مبايناً لحديث المنزلة [المشهور المتواتر]، فزعم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: إنّما هو أنت منّي بمكان قارون من موسى![5] ويدلّ خبر آخر على احترام عمر بن عبد العزيز للإمام الباقر عليه السلام[6].

ومن أعماله الأخرى: إعادة «فدك» إلى بني فاطمة عليها السلام، وكانت فدك من الغنائم التي كُسِبت من غير قتال، فصارت خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد نحلها صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام، ثمّ أخِذت منها بأدلّة واهية. وإرجاعها إلى العلويّين آية على أنّ حجّة الخليفة الأوّل والثاني كانت باطلة، في حين كان عمر يرى نفسه متمسّكاً بفقهِ

١ - انظر: شرح النهج ٤: ٥٦؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٥؛ مروج الذهب ٣: ١٨٤.

٢ - سير أعلام النبلاء ٤: ١٤٧؛ الأغاني ٩: ٢٥٨، ٢٥٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٥؛ الكامل في التاريخ ٥: ٤٢؛ شرح النهج ٤: ٥٩.

٣ - شرح النهج ٦: ٧٢.

٤ - الكامل في التاريخ: ٣: ٤٠١.

٥ - مختصر تاريخ دمشق ٦: ٢٧٨.

٦ - نفسه ١٣: ٧٧ – ٧٨.

معظمه يقوم على سيرة الخليفة الثاني! وقد عبّر بعض الباحثين عن توجّهه هذا بأنّه، كما قيل، لم يكن تابعاً الخليفة الثاني، بل كانت له آراؤه أيضاً[١]. وحاول ابن الأثير أن ينسب الانحراف في قضيّة فدك إلى عصر معاوية، وأنّ معاوية وهبها لمروان بن الحكم، وذلك تغافلاً منه، بل قصداً للتضليل حول مَن الذي كانت بيده أيّام الخلفاء الراشدين! (أي ترك الحقيقة وحرف البحث) في حين تؤكّد الأخبار الصريحة الأخرى أنّ هذا العمل قام به عثمان، كما أنّ إخراجها من يد أهل البيت عليهم السلام كان في بداية حكم أبي بكر. وفي الوقت نفسه قال ابن الأثير: لمّا ولي عمر بن عبد العزيز، ردّ فدكاً إلى أولاد فاطمة عليها السلام، ثمّ أخذت منهم، وردّها المأمون إليهم[٢].

و تدلّ أخبار أخرى أيضاً على عنايته ببني فاطمة عليها السلام، فقد كتب إلى واليه على المدينة أن يقسّم في ولد عليّ بن أبي طالب عشرة آلاف دينار، فكتب إليه: إنّ عليّاً قد ولد له في عدّة قبائل من قريش، ففي أيّ وُلْده؟ فكتب إليه:... إذا أتاك كتابي هذا فاقسمْ في وِلْد عليّ مِن فاطمة[٣]....

و نقل أبو الفرج الأصفهانيّ أمثلةً على إكرامه لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ،[٤] ولمّا أُنكر عليه ذلك قال: إنّ الثقة حدّثني حتّى كأنّي أسمعُه مِن فِي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّما فاطمة بَضعةٌ منّي، يسُرّني من يسرّها. ثمّ قال: ليس أحدٌ من بني هاشم إلّا وله شفاعة[٥]. وجاءه مرّةً مولىً لعليّ عليه السلام، وبعد أن عرّف نفسه، عرفه

١ - **تاريخ الدولة العربيّة:** ٢٨٧ (ومعنى هذا أنّه لم يكن يتبعهما اتّباعاً تامّاً).

٢ - **الكامل في التاريخ** ٢: ٢٢٤ـ٢٢٥، وانظر ٣: ٦٣.

٣ - **مروج الذهب** ٣: ١٨٤.

٤ - **الأغاني** ٩: ٢٦٢ - ٢٦٤.

٥ - نفسه ٩: ٢٦٣.

فجلس على الأرض، وقال: أنا والله مَولى عليّ. ثم نقل حديث رسول الله ﷺ. مَن كنتُ مولاه، فهذا عليّ مولاه[١].

و نظراً إلى مقام هذا الرجل في الحكم، فإنّ قوّة الأخبار المذكورة تولّد شكّاً وإن كان ضعيفاً، بَيْدَ أنّ الشيعة أثنوا عليه فيما بعد بقصائد نظموها، لما صدر عنه من أعمالٍ سمعوها بالتواتر، ومنهم الشريف الرضيّ رحمه الله الذي قال يخاطبه:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العَيْـ ـنُ فتىً من أميّةٍ لبكيتُكْ
غيرَ أنّي أقولُ: إنّك قد طِبْـ ـتَ وإن لم يَطِبْ ولم يَزْكُ بيتكْ
أنت نزّهتَنا عن السبِّ والقذْ فِ فلو أمكنَ الجزاءُ جزيتُكْ[٢]

و يتعيّن علينا الالتفات إلى ملاحظةٍ أيضاً، وهي أنّ العلويّين هم أصحاب الخلافة بعد الأمويّين، فيمكن أن تؤثّر رعايتهم وتسكين غضبهم وتقويض بغضهم في الحركة الإصلاحيّة لعمر الثاني من أجل تثبيت بني أميّة. وفي هذا العصر نفسه بدأت دعوة بني هاشم التي كان يقودها بنو العبّاس طبعاً، فسعى عمر بن عبد العزيز في إزالة مثل هذه العقبات في هذا المجال، وكان ضمان استمرار الحكم الأمويّ من خلال ممارسة سياسة عاقلة غير عدوانيّة.

موقفه من الخوارج: كان الخوارج الفريقَ الآخر الذي شكّل خطراً رئيساً على الأمويّين، وهم الذين كانوا بثوراتهم المتواصلة مصدر إزعاج وتنغيصٍ لحكّامهم، ولم يستطع أولئك الحكّام أن يقضوا عليهم قضاءً تامّاً قطّ. وكانوا خرجوا في العراق سنة ١٠٠هـ، وهزموا جيشاً أرسله حاكمه في قتالٍ خاضوه معه، ثمّ توجّه إليهم جيشٌ آخر بعد حين، و كتب حينئذٍ عمر بن عبد العزيز وفقاً لسياسته السابقة، إلى قائدهم بسطام من قبيلة بني يشكر: «بلغني أنّك خرجتَ غضباً لله ولنبيّه، ولستَ

١ - نفسه ٩: ٢٦٤.

٢ - شرح النهج ٤: ٦٠.

أولى بذلك منّي، فهَلُمَّ أناظرك، فإن كان الحقّ بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا»، فوافق بسطام، وبعث إليه رَجُلَين للمدارسة والمناظرة.

و ختم الطبريّ حديثه في هذا الخبر مكتفياً بذكر كلام موجزٍ عن بطلان بيعة يزيد بن عبد الملك عند الخوارج، وعن جواب عمر بن عبد العزيز حين سُئل عن سبب إقراره ليزيد المذكور ملكاً بعده، فقال للمبعوثَين: صَيَّره غيري، وأنظرُ في الأمر. وذكر الطبريّ أيضاً أنّ بني مروان خافوا أن يُخرج عمرُ ما عندهم وأن يخلع يزيد، فدسّوا إليه [إلى عمر] من سقاه سمّاً[1]. أمّا المسعوديّ فقد أورد خبره مسنداً مفصّلًا، فنقل أنّ مبعوثَي الخوارج خاطبا عمر بن عبد العزيز قائِلَين له: إنّك لتجري بالعدل والإحسان (في الأقلّ بشكلٍ جدليّ)... رأيناك خالفتَ أعمالَ أهل بيتك، وسمّيتها المظالم... فإن زعمتَ أنّك: على هدىً وهم على ضلال، فالعنْهم وتبرّأ منهم! فحاول عمر أن يُدينهما في مثال اتّخذ طابع الحوار والجدل، فسألهما عن رأيهما في أبي بكر وعمر، هل يرضيان بسيرتهما؟ فأجابا بالإيجاب، فقال لهما ما ملخّصه: إنّ أبا بكر قاتل المرتدّين وسبى ذراريهم، ولمّا قام عمر بعده ردّ تلك السبايا. (أي أنّه خطّأ عمل أبي بكر) لكن هل برئ من أبي بكر؟ قالا: لا. ثمّ ضرب لهما مثالًا آخر حول سيرة أصحابهم المتضاربة، فهل برئ أحدهم من الآخر؟ وبهذا الاحتجاج أعلَمَهما أنّه أيضاً لا يلعن أسلافه ولا يتبرّأ منهم، فرضي أحدهما ولم يرجع إلى أصحابه، أمّا الآخر فقد رجع إليهم. قال المسعوديّ: ولعمر مع الخوارج أخبار غير ماذكرنا، ومراسلات، ومناظرات... وقد أتينا على ذكرها... في كتابَينا (أخبار الزمان)، و(الأوسط)[2].

---

١ - **تاريخ الطبري** ٥: ٣١٠، ٣١١.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ١٩١- ١٩٣. وذكر ابن الأثير مثل هذا الخبر مع زيادات طبعاً. انظر: **الكامل في التاريخ** ٥: ٤٦_٤٨.

و من الواضح أنّ مثل هذه الأعمال والتحرّكات خلال ما يربو على عامين من الحكم قد جرى وفق سياسةٍ معيّنة؛ ليفقد الخوارج دافعهم اللّازم على الخروج، ولا ينغّصوا على السلطة أمنها وهدوءها.

موقفه من ظلم الناس والإجحاف بحقّهم: وكان العمل الآخر لعمر بن عبد العزيز هو تخفيف الظلم الذي مارسه الحكّام قبله بحقّ الناس، بخاصّة أنّ النظرة السيّئة التي حملها الناس على الحكومة التي كانت تبتزّ صفراءَ الغنائم وبيضاءَها وتُقطع أراضيَ كثيرةً لها، يمكن أن تولّد انفجاراً في المجتمع وتُوجّه الناس نحو المعارضين من الخوارج أو الشيعة ونحو ثورات كثورة عبد الرحمان بن الأشعث؛ لذا «بدأ ابن عبد العزيز ببني أميّة، وأخذ ما كان في أيديهم من الغصوب فردّها على أهلها»[1]. إلّا أنّه في الوقت نفسه راعى جانب الاحتياط، فلم يأخذ من الأملاك التي كانت بيد الأمويّين، بل زاد أعطيات أهل الشام الذين كانوا السندَ الأصليّ للحكم الأمويّ، ولم يزد أعطيات أهل العراق[2]! ومن البيّن أنّه لم يُرِد ولم يستطع أن يقوم بهذا العمل؛ لأنّ بني أميّة حينئذٍ يتبدّدون من الأصل، لكن كان ممكناً - إلى جانب ذلك - رفع الضغط عن أكتاف الآخرين. وكان أهل العراق ممّن تحمّل الضغط والاضطهاد والامتهان، ولم يتعرّض الموالي الفرس فيه وحدهم للظلم والامتهان - في جميع الحكومات إلّا في خلافة الإمام عليّ عليه السلام - بل تعرّض عربه أيضاً لاضطهادٍ كثيرٍ في حُكمِ الحجّاج، وحكم بني أميّة أساساً.

نقل الطبريّ كتاباً كتبه عمر بن العزيز إلى واليه على الكوفة بشأن أهلها، فقال له: فإنّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاءٌ وشدّة وجور في أحكام الله وسنّةٌ خبيثة استنّها

---

١ - الأخبار الطوال: ٣٣١؛ سير أعلام النبلاء ٥: ١٢٩؛ الأغاني ٩: ٢٥٥.

٢ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٦.

عليهم عمّال السوء، وإنّ قوامَ الدين العدلُ والإحسان، فلا يكوننّ شيءٌ أهمّ إليك من نفسك، فإنّه لا قليل من الإثم. ولا تحملْ خراباً على عامرٍ ولا عامراً على خرابٍ، انظر الخرابَ فخذ منه ما أطاق أصلحه، حتّى يعمر، ولا يُؤخَذ من العامر إلّا وظيفة الخراج في رفقٍ وتسكين لأهل الارض، ولا تأخذنّ في الخراج إلّا وزن سبعة ليس لها آيين، ولا أجور الضرّابين، ولا هديّة النيروز والمهرجان، ولا ثمن الصّحف، ولا أجور الفيوج، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح، ولا خراج على مَن أسلم من أهل الأرض»[١].

و يدلّ هذا الكتاب على أنّ حكّام بني أميّة كانوا ينهبون الناس ويبتزّونهم تحت عناوين مختلفة، وكانوا يستغلّون شعائر المجوس وطقوسهم، وهي النوروز والمهرجان، ويطلبون منهم الهدايا في تلك المناسبات، وهو ما كان يصنعه المنصور العبّاسيّ لهذا الهدف وحده، أي أخذ هدايا النوروز، وكان الإمام الكاظم عليه السلام يرى أنّ تعظيم هذه الأيّام من بقايا المعالم المجوسيّة[٢].

و النقطة المهمّة الأخرى هي أخذ الخراج والجزية من الأشخاص الذين كانوا أسلموا، وهذا عمل سَنَّه الحجّاج للتعويض عن نقص بيت المال، إذ إنّ إسلام عدد كبير من الناس وانخفاض الخراج سبّبا له مشاكل ماليّة. أمّا عمر بن عبد العزيز، فقد حاول برفع الجزية عمّن أسلم - وكانوا السبب الأصليّ لالتحاق عدد كبير من الموالي بعبد الرحمان بن الأشعث - أن يحول دون نشوب ثورات جديدة، بل أدّى رفع الخراج والجزية عن حديثي العهد بالإسلام إلى انتشار الإسلام أيضاً. ولمّا ثار بكير وشاح على أميّة بن عبد الله والي خراسان سنة ٧٧هـ، (وكان أميّة

---

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٣٢١.

٢ - انظر: مسند الإمام الكاظم عليه السلام ١: ٥١ -٥٢.

يومئذ قد توجّه إلى بخارى للحرب، وثار عليه بكير في خراسان) خاف من قلّة جنده، فلا يمكنه أن يصمد أمام أميّة، لكن قيل له: «إنّما يكفيك أن ينادِيَ منادٍ من أسلم رفعنا عنه الخراج، فيأتيك خمسون ألفاً من المصلّين أسمَعُ لك من هؤلاء وأطوع»[١].

و من الجليّ أن نموّ الإسلام قد توقّف عمليّاً أيّام حكم الحجّاج بسبب ما كان من الغلظة والتشدّد، فقام عمر بن عبد العزيز بهذا العمل وفقاً للسياسة التي كان قد انتهجها، فقد جاءه من خراسان ذات مرّة رجلان من العرب ورجل من الموالي، فقال له الرجل الذي كان من الموالي: «يا أمير المؤمنين، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلُهم قد أسلموا من أهل الذمّة يؤخذون بالخراج!

فكتب عمر إلى حاكم خراسان: انظر من صلّى قِبَلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية، فسارع الناس إلى الإسلام»[٢]. وعومل بربر المغرب مثل هذه المعاملة التي نقل البلاذريّ خبرها[٣].

ولوحظ بين الخطب والكتب التي أثِرت عنه أمثلة كثيرة على اهتمامه بالزهد والشؤون الدينيّة، وقد يكون فيها إفراطٌ بالغ دفاعاً عن بني أميّة في الأقلّ، بيد أنّه لا يتسنّى إنكارها بعامّةٍ[٤]. ولوحظ رفعه إلى درجة الأولياء، لكنّ الحقيقة هي أنّه يمكن أن يُقام له وزن قياساً بسائر الحكّام الأمويّين، فهو كان يحكم بين أسرة أمويّة، على أيّ حال، وكان جهده توطيد نظامها... نقل خالد بن ربعيّ أنّه قرأ في التوراة أنّ

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ١٢٩.

٢ - نفسه ٥: ٣١٤.

٣ - انظر: تاريخ الدولة العربيّة، فلهاوزن: ٢٨٥؛ فتوح البلدان: ٢٣٣.

٤ - انظر: تاريخ الطبريّ ٥: ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٢؛ الأغاني ٩: ٢٦٦، ٢٦٩.

السماوات والأرض بكت أربعين يوماً على عمر بن عبد العزيز[١]! وواضح أنّ محاولاتٍ كانت موجودة لاختلاق فضائل له عن هذا الطريق.

و من الأعمال العلميّة لعمر بن عبد العزيز: أمره، كخليفة، بتدوين الحديث لأوّل مرّة، وإن أهمل هذا الأمرَ مَن جاء بعده فكتب إلى أمراء جيشه ليكتبوا له علم علمائهم[٢].

و كان الزهريّ أوّل من بدأ بتدوين الحديث[٣]، وكان معاصراً لعمر بن عبد العزيز وأحد علماء البلاط الأمويّ، وهو الذي ذكر أنّ عمر أمره بتدوين الأحاديث وإرسال نسخها إلى الأمصار[٤]. وجاء في خبر آخر أنّه كتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن محمّد بن حزم الأنصاريّ الذي كان نفسه من المحدّثين: «انظرْ ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنّة، أو حديث عُمرة، فاكتبْه، فإنّي قد خشيتُ دروسَ العلم وذَهاب العلماء»[٥]. وكتب مثل ذلك إلى أهل المدينة أيضاً[٦].

ومهما كان، فإنّ هذا العمل إيجابيّ، لكنّ كثيراً من المحدّثين - كما ذكرنا ذلك مفصّلاً في موضع آخر- لم يرغبوا في كتابة الحديث حتّى أواسط القرن الثالث، وكان ذلك طمساً طويلاً لمعالم السُّنّة النبويّة بين جمهور المسلمين[٧].

توفّي عمر بن عبد العزيز في رجب سنة ١٠١هـ، فتولّى الأمر بعده يزيد بن عبد الملك الذي كان من المقتفين لسياسة الظلم والإجحاف والاضطهاد، والخبر

---

١ - سير أعلام النبلاء ٥: ١٤٢.

٢ - مصنّف عبد الرزّاق ٩: ٣٣٧.

٣ - جامع بيان العلم ١: ٨٨، ٩١.

٤ - نفسه ١: ٩٢.

٥ - سنن الدارمي ١: ١٢٦؛ تقييد العلم: ١٠٥، ١٠٦.

٦ - سنن الدارمي ١: ١٢٦؛ أخبار أصفهان ١: ٣١٢؛ تدريب الراوي ١: ٣١٢.

٧ - انظر: مقدّمة على تاريخ تدوين الحديث، قمّ.

الذي ورد بشأن سمّ بني أميّة لعمر خبر قائم على التخمين وإن كان محتملًا.

حكومة يزيد بن عبد الملك

إذا قبلنا أنّ عمر بن عبد العزيز استطاع أن ينهض ببعض الإصلاحات، ويحسّن نظرة الناس إلى الأمويّين نوعاً ما، فإنّ الحكم رجع بعده إلى سيرته الأولى حكماً «عربيّاً أمويّاً»، مورس فيه الظلم والإجحاف بحقّ الناس من جديد، وأهمل الدّين وتُرك... روى السيوطي أنّ عبد الرحمان بن زيد بن أسلم قال: لمّا وَليَ يزيد بن عبد الملك سنة (١٠١هـ) أمر الناس جميعاً أن يسيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأُتِيَ بأربعين شيخاً فَشَهِدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب![١] وقال المسعوديّ في وصف يزيد بن عبد الملك: «... فتيّ الشباب، شديد الفخر، ظاهر الكِبْر، يحبّ اللّهو، يستعمل الحجاب... لا يعرف صواباً فيأتيه، ولا خطأ فيدَعَه»![٢]

و كان عمر بن عبد العزيز قد أجرى إصلاحات في الشؤون الماليّة قبل يزيد على الرغم من الخسارة التي أصابت بيت المال، فهو لم يأخذ الجزية من المسلمين الجدد -العمل الذي كان قبله وبعده- بل كان يعفو عن كلّ من يدفع الخراج بعامّة، وقيل له: «ما بال الأسعار غاليةً في زمانك، وكانت في زمان مَن كان قبلك رخيصة؟ فقال: إنّ الذين كانوا قبلي كانوا يكلّفون أهل الذمّة فوق طاقتهم، فلم يكونوا يجدون بدّاً من أن يبيعوا ويكسد ما في أيديهم، وأنا لا أكلّف أحداً إلّا طاقته، فباع الرجل كيف شاء»[٣]. وطلبوا منه أن يأخذ الجزية من اليهود والنصارى الذين أسلموا، فردّ طلبهم[٤]، وأمر أن يُؤذَن لأهل الخراج القاطنين في الفرات بخاتم

١ - ينظر: **تاريخ الخلفاء**: ٢٤٦.

٢ - **التنبيه والإشراف**: ٢٧٧.

٣ - **الخراج**: ١٣٢.

٤ - نفسه: ١٣١.

الذهب، ولبس الطَيلُسان[١]، وركوب الخيل، ويؤخذ ما زاد على ذلك.[٢] ومن الواضح أنّ أعماله هذه هي أعمال إصلاحيّة إذا قيست بالمعاملة الشديدة السابقة التي فَرَضَت على أهل الذمّة الرحيلَ القسريّ إلى مناطقهم، وكان خُتم اسم المنطقة على جباههم أو أيديهم كي لا يخرجوا منها. أما يزيد بن عبد الملك، فقد ترك هذه الإصلاحات جانباً؛ إذ أمر حاكمه على العراق عمر بن هُبَيرة سنة (١٠٥هـ) بمسح أرض السواد [العراق] مرّة أخرى، وهذا عمل تُرِك بعد الخليفة الثاني، واعتُمِد على الإحصاء السابق. وفرض عمّالُ يزيد الضرائب حتّى على النخيل، فتضرّر الناس الذين كانوا يدفعون الخراج أضراراً بالغة. وامتهنهم، وأخذ منهم الهدايا، وأخذ ما كانوا يقدّمونه في النيروز والمهرجان، والمساحة التي يؤخذ بها مساحة ابن هبيرة[٣]. وتشدّد يزيد على أهل اليمن وأمر ألّا يُعفى عنهم حتّى الموت، وكان عمر بن عبد العزيز قد أمر برفع التشدّد الذي كان يمارسه أخو الحجّاج بحقّهم، لكنّ الوضع السابق عاد إليهم في حكومة يزيد[٤].

و قد ترك الاضطهاد والتشدّد في عهد يزيد آثاراً أسوأ في خراسان، فكان كثير من الأمراء والحكّام والملوك في مناطقها الشرقيّة، كلّ في نطاق حكومته، قد اعتنقوا الإسلام، والتزموا بدفع الخراج أيضاً، وبين هؤلاء: السُغدُ الذين اعتنقوا الإسلام بعددهم الغفير، وكانوا حماةً مناسبين جدّاً للعرب المسلمين الساكنين في تلك الديار، وقاتلوا أتراكَ ما وراء النهر، فأدّت إعادة الضغوط الماليّة عليهم ـ حين تولّى يزيد ـ إلى ميلهم إلى الأتراك سنة (١٠٢)، واستنصارهم لمواجهة المسلمين. وفي

---

١ - كساء فارسيّ كان يلبسه الأشراف والعلماء، وهو من صوف.

٢ - **عيون الأخبار** ١: ٥٣.

٣ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٣١٣.

٤ - **النجوم الزاهرة** ١: ٢٣٩.

الحرب التي دارت في تلك السنة بين سعيد خذينة حاكم خراسان من جهة، والأتراك ومعهم طائفة من السغد من جهة أخرى، هُزِم الأتراك والسغد، فأمر سعيد جيش المسلمين أن لا يلاحق السغد، فإنّ السغد بستان أمير المؤمنين! وأضاف بأنّه لا يريد أن يرحلوا عن هذه المنطقة، حتّى حينما حدث بينهما قتال يسير، وأكّد مناديه هذا الأمر أيضاً.[١] وبعد عزل سعيد خُذَينة، عُيِّن سعيد بن عمرو الحرشيّ مكانه حاكماً على خراسان. وغادر السغد منطقتهم إلى فرغانة لشعورهم بالرعب من العرب، فأسكنهم ملك فرغانة في بعض أرجائها، وبلغ شأن السغد عند العرب مبلغاً طلب فيه ابن هبيرة حاكم العراق منهم أن يعودوا إلى منطقتهم، وأعلمهم بتولية كلّ من يرغب في حكمه حاكماً عليهم، لكنّهم امتنعوا من الرجوع، وبعد ذلك أخذ القتال يزداد بين العرب وبين الأتراك والسغد[٢]، وأصبح شرق خراسان غير آمنٍ للعرب. ولمّا وليَ نصرُبن سيّار حكم خراسان، رضي بالشروط الصعبة للسغد وصالحهم[٣].

ويُستشفّ من كلام المسعوديّ أنّ يزيد كان ميّالًا إلى اللّهو واللعب ومغازلة النساء. حتّى إنّه لم يدفن امرأة كان يعشقها فماتت، أيّاماً[٤]! وحكم مسلمة بن عبد الملك العراق ردحاً من الزمن، وتولّى أمره بعد أن هزم يزيدَ بن المهلَّب، إلّا أنّه عُزِل بعد حينٍ لأنّه لم يدفع الخراج، ونُصِب مكانه عمرو بن هبيرة الذي كان من الحكّام الأمويّين ذوي الغِلظة في العراق.

---

١ - **تاريخ الطبري** ٥: ٣٥٥.

٢ - نفسه ٥: ٣٦٢ - ٣٦٦.

٣ - نفسه ٥: ٥٠٨.

٤ - **مروج الذهب** ٣: ١٩٨ - ١٩٩؛ **تاريخ گزيده** [التاريخ المختار]: ٢٨٣؛ **تاريخ مختصر الدول**: ١١٥ - ١١٦.

تمرّد يزيد بن المهلّب

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من الحكم الأمويّ في عددٍ من أرجائه نهضات وثوراتٍ كثيرةً ذات حوافز متنوّعة، وفي الواثبين والثائرين انتهازيّون مثل يزيد بن المهلّب؛ وطلّاب عدالة مثل الحارث بن سريج؛ وعلويّون مثل الشهيد زيد بن عليّ عليه السلام؛ وابنه يحيى؛ وخوارج؛ وأخيراً عبّاسيّون قطفوا ثمرة تلك النهضات والثورات.

خرج يزيد بن المهلّب في العراق عام (١٠٢هـ)، وهو نجل المهلّب بن أبي صفرة، من قبيلة الأزد، الذي اشتهر بحروبه مع الخوارج أيّام عبد الله بن الزبير، وكذلك عبد الملك بن مروان. ونُصِب يزيد والياً على خراسان إبّان حكم سليمان بن عبد الملك، وأنجز عدداً من الفتوحات في مناطقها، وفي جرجان أيضاً، وحين تولّى عمر ابن عبد العزيز سجنه، لامتناعه عن دفع الأموال ـ التي قال: إنّه حصل عليها من الغنائم ـ إلى الحكومة[1]. وكان سجيناً يومَ وَليَ يزيد بن عبد الملك الأمر، ففرّ إلى العراق خوفاً من القتل. وكان حاكم البصرة يومئذٍ عديّ بن أرطاة الذي سجن أسرة يزيد بن المهلّب وأبناءه بأمر يزيد بن عبد الملك. واستطاع ابن المهلّب بسياسة مناسبة، أن يجمع حوله عدداً من القبائل، وبذل وأعطى، فاجتمع معه زهاء ثلاثة آلاف رجل[2]، ونشب قتال بينه وبين عديّ بن أرطاة ومعه جماعة من أهل البصرة، وكذا من أهل الشام الذين كانوا ساكنين هناك، فهزمهم يزيد بن المهلّب، واستولى على البصرة[3]. وأدى انتصاره هذا إلى سيطرته على المنطقة الشرقيّة، والأهواز، وكرمان، ومكران، والسِّنْد، والهند، ... وبعث ولاته إلى تلك المناطق. وكان في

---

١ - **التنبيه والإشراف**: ٢٧٧.

٢ - **الفتوح** ٨: ٣.

٣ - نفسه ٨: ٥.

الغرب جنود الشام الذين يخاطبهم الأمويّون بـ«جنود الله»[١]؛ ليُخيفوا أهل العراق بهم. ودلّت التجارب السابقة على وجود الخوف في أيّ حال؛ لأنّ العراق ذاق طعم الهزيمة منهم مراراً، وذاقها هذه المرّة في نهاية المطاف أيضاً.

وبايع أهل البصرة ـ الذين رأوا أنفسهم بمعزل عن شرّ الأمويّين ـ يزيدَ بن المهلّب على أساس «العمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ»، وشرطوا عليه ألّا يعيد إليهم سيرة الحجّاج الفاسق[٢]! فقال لهم: «إنّ جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم»[٣].

و كان واضحاً عند بعض البصريّين أنّ ابن المهلّب كان حتّى هذا الحين آلةً بيد الأمويّين، وكان يظلم الناس كما هم يظلمونهم، وإذ وقعت مصالحُه في خطر، رفع شعارَ العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ. وممّن نظر إليه بهذه النظرة: الحسنُ البصريّ الذي كان له موقع اجتماعيّ، فحثّ الناسَ على ألّا ينصروه، وحجّته على هذا العمل هوأن يزيد كان بالأمس يظلم الناس في هوى بني أميّة[٤]، فقال له الناس: دعانا إلى سنّة «العُمَرَين»! وقالوا له: «وكأنّك متعصّب لفسّاق أهل الشام، أوَ ليس هم الذين أحلّوا حرم الله وحرم رسوله محمّد ﷺ، يقتلون أهل المدينة ثلاثة أيّام وينهبونهم...»؟![٥] ولبث الحسن البصريّ ساكتاً يوم كان يزيد بن المهلّب بالبصرة، فلمّا خرج منها لحرب أهل الشام، واصل كلامه عليه، وكان موقعه بالبصرة قد ثبّط بعض الناس عن يزيد، فقال فيه مروان بن المهلّب خليفة أخيه يزيد بالبصرة:«...

١ - نفسه ٨: ٧، ٢١.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٣٥؛ وانظر: **الفتوح** ٨: ٨.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٣٥.

٤ - نفسه ٥: ٣٣٦.

٥ - **الفتوح** ٨: ٩. إلّا أنّ الطبريّ نقل هذا الكلام عن الحسن البصريّ، لا عنهم ٥: ٣٣٦. المترجم.

لِيُكفّنّ عنّا وعن ذِكْرنا ومن اجتمع إليه من سقّاط أهل الأبلّة وعلوج البصرة - ومن المحتمل أنّه يشير إلى العجم فيها -. وحين سمع الناس كلامه، وثبوا للدفاع عن الحسن البصريّ، فمنعهم»[١].

و شعر يزيد بن عبد الملك بخطرٍ حقيقيّ جدّاً، فوجّه إلى حرب ابن المهلّب مسلمة بن عبد الملك الذي كان يقود حروب العرب المسلمين ضدّ الروم عادةً، فشاور ابن المهلّب أصحابه قبل عزمه على القتال، فأشار عليه بعضهم بالذهاب إلى الشرق والاستقرار بين فارس وجبل خراسان، وبعضهم أشار عليه بالذهاب إلى الموصل فيأمنوا ويلحق بهم جماعةٌ من الناس أيضاً[٢]، فأبى يزيد ذلك. وكان قوام جيش الشام قرابة خمسين ألفاً، فاستقلّهم يزيد قائلاً: «إنّما هم بَرابرة، وأقباط، وجرامقة، وأنباط، وجراجمة، وأخلاط مغاربة، وسقالبة، زرّاعون وفلّاحون أوباش وأخناش»![٣] ويدلّ كلامه هذا وما تقدّم من كلام أخيه في علوج البصرة على عربيّة وثبته، بل نظرتها الاستعلائيّة الخاصّة، وعلى أنّه لم يُفد من الموالي.

و عُرض عليه الصلح في بداية القتال، فاستحبّ الحربَ عليه... وتمخّضت الحرب عن ثلاثة آلاف قتيل، ومنهم يزيد وإخوته الأربعة[٤]، وقُتِل كثير من أسرى البصرة أيضاً مع أنّهم صرّحوا بأنّ تخاذلهم في الحرب هو الذي أظفر أهل الشام بهم.[٥] و نشبت هذه الحرب في صفر سنة (١٠٢هـ) في منطقة «العَقْر» القريبة من الكوفة، واشتهرت بـ«يوم العقر». وفرّمَن بقي من أسرة ابن المهلّب من البصرة تلقاء

---

١ - الفتوح ٨: ١٤؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٤١.

٢ - تاريخ الطبريّ ٥: ٣٣٧؛ الفتوح ٨: ١٣.

٣ - الفتوح ٨: ١٤.

٤ - نفسه ٨: ١٩.

٥ - نفسه ٨: ٢٠ـ٢٢.

الشرق، فلاحقهم أهل الشام، وقتلوهم جميعاً في منطقة «قندابيل» بالهند. وقُتِل من العراقيّين الذين كانوا معهم: النعمان بن إبراهيم بن مالك الأشتر، ومحمّد بن إسحاق بن الأشعث أيضاً، وكانا ممّن شَهِدا الحرب.[١]

و حريّ بالعلم أنّ مصير معظم العمّال والحكّام الأمويّين إمّا البقاء على رأس الحكم، أو السجن، وكان سجناؤهم يُقتَلون نوعاً ما. وقد سُئل ابن المهلّب عن سبب امتناعه عن بناء منزلٍ له، فقال: منزلي إمّا دار الإمارة، أو السجن[٢]! وربّما لم يَدُر في خَلَده أنّ القبر هو منزله الثالث!

و من الشعراء الذين كانوا يؤيّدونه عن بعد: ثابت قُطنة، الشاعر المرجئيّ الذي شهد فتوحات الشرق، وكان يحثّ الناس على نُصرته من هناك... نقل أبو الفرج الأصفهانيّ ترجمةً موجزة له، وعدّه في المرجئة، وذكر شعره المفصّل في مدح يزيد، وحضَّه على قتال بني أميّة[٣]، ولمّا هُزم يزيد، هجا ثابتُ الناسَ الذي خذلوه[٤].

وجملة القول في تمرّد يزيد بن المهلّب: إنّه رجلٌ انتهازيّ، ظلم عدد سنين، وحين غضب عليه بنو أميّة خرج عليهم، وتابعه الناس الذين ضاقوا ذرعاً بظلم الأمويّين، وعلى وجه الخصوص، بتحقير أهل الشام للعراق، و إن لم يكونوا جادّين في متابعته، لذلك هُزِموا.

و نحن نتحدّث عن تمرّد يزيد بن المهلّب في هذه السنة، من الضروريّ أن نشير إلى تمرّد أخر أيضاً في أفريقية، فقد نقل الطبريّ أنّ: «في سنة (١٠٢) قُتل يزيد بن أبي مسلم بأفريقية وهو والٍ عليها، وكان سبب ذلك أنّه كان، فيما ذُكِر، عزَمَ أن يسير بهم

---

١ - **الفتوح** ٨: ٢٤.

٢ - **عيون الأخبار**١: ٣١٢، ٢٣٣.

٣ - **الأغاني** ١٤: ٢٧٧ – ٢٧٨.

٤ - نفسه ١٤: ٢٧٩.

بسيرة الحجّاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممّن كان أصله من السواد من أهل الذمّة، فأسلم بالعراق ممّن ردّهم إلى قُراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحوِ ما كانت تُؤخَذ منهم وهم على كفرهم، فلمّا عزم على ذلك... قتلوه، وولّوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم... وهو محمّد بن يزيد مولى الأنصار.. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنّا لم نخلع أيدينا من الطاعة... فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إنّي لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم! وأقرّ محمّد بن يزيد على أفريقية»[١]. ومن الجدير ذكره أنّ يزيد بن أبي مسلم كان قبل ذلك كاتِبَ الحجّاج، وأراد أن يطبّق سياسته تقليداً له[٢].

حكومة هشام بن عبد الملك

خَلَفَ هشامٌ أخاه يزيد في شوّال سنة (١٠٥هـ)، وحكم حتّى سنة (١٢٥هـ)، وكانت مدّة حكمه تسعَ عشرةَ سنة وسبعةُ أشهر، فتولّى بذلك رئاسة أطول حكومة وأقدرها في الدولة الأمويّة. ذكر المسعوديّ بعض صفاته، لا سيّما حبّه للخيل[٣]، ووصفه اليعقوبيّ بالحزم والدراية، والبخل، والحسد، والغلظة، والقسوة، وغير ذلك.[٤] وقال الذهبيّ في وصفه: «فيه ظلم مع عدل»![٥] ونُقل عن عدد من الرجال أنّه كان يكره سفك الدماء بشدّة![٦] ولذلك أمر بقمع ثورة زيد بن عليّ! ونُقل عن عبد الله بن عليّ الذي لاحق الباقين من الجيش الأمويّ وقتل مروانَ بن محمّد، أنّه قال: «جمعتُ

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٣٥٩؛ **الكامل في التاريخ** ٥: ١٠١.

٢ - انظر: **النجوم الزاهرة** ١: ٢٤٥.

٣ - **مروج الذهب** ٣: ٢٠٥؛ انظر: **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥١٥ –٥٢٠؛ **العقد الفريد** ٥: ١٩٢، حول حبّه لارتداء اللباس.

٤ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٣٢٨.

٥ - **سير أعلام النبلاء** ٥: ٣٥٢.

٦ - نفسه.

دواوين بني مروان فلم أرَ ديواناً أصحَّ ولا أصلح للعامّة والسلطان من ديوان هشام»[١].
وكان يمنع حتّى بني مروان أن يأخذوا العطاء من بيت المال، إلّا أن يذهبوا للغزو أو يرسلوا بدلًا عنهم[٢]. ونقل الطبريّ أنّه عَنَّفَ بعض ولده لأنّه لم يحضر الجمعة[٣]، كما عزل ابنه سعيداً الذي كان حاكم حِمص بسبب زناه[٤]. وأشار الأصفهانيّ إلى أخبار حول ملاحاةٍ بينه وبين خلفه الفاسق الوليد بن يزيد الذي سنذكر أخبار فسقه، ويُستشفّ منها أنّه كان يعاقر الخمرة، وله ندماء فاسقون نوعاً ما[٥]. وتفيد أخبار أخرى أنّه كان متأثّراً بالزهريّ، وهو المحدّث المعروف المرتبط بالأمويّين، وأحياناً بغيره. وجدّ في قتل مَن اتُّهِم بالقدريّة، فمن ذلك إصراره على قتل الجَهم من صفوان. وجاء في كتابٍ وُجد في محفوظاته لاحقاً أنّه أمر واليه على خراسان نصرَ بن سيّار بالبحث عن رجل من الدهريّة ظهر في خراسان، وقَتْلِهِ[٦]. وتحدّثنا في موضع آخر حول الجهم، وغَيلان الدمشقيّ الذي قتله هشام أيضاً عام (١١٩)[٧].

و يضاف إلى حبّه للزهريّ أنّه استمال إليه محدِّثين أخرين وفيهم منصور بن المعتَمِر[٨]، وكان أبو الزناد كاتب بني أميّة[٩]. ومن الأحداث الخطيرة في عهده ثورة زيد بن عليّ عليه السلام، التي سنتحدّث عنها في موضعها مفصّلًا.

و من عمّال هشام المهمّين في العراق خالد بن عبد الله القسريّ الذي حكم

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٥١٦.
٢ - نفسه ٥: ٥١٥ .
٣ - نفسه ٥: ٥١٦.
٤ - العقد الفريد ٥: ١٩٥.
٥ - الأغاني ٧: ٥ — ٦.
٦ - تاريخ الجهميّة والمعتزلة: ١٧.
٧ - تاريخ الطبريّ ٥: ٥١٦.
٨ - الإيضاح: ٩١ .
٩ - سير أعلام النبلاء ٥: ٤٤٩.

العراق خمس عشرة سنة منذ بدأ سلطانُ هشام، وقد عدّه بعض المؤرّخين في عداد زياد بن أبيه والحجّاج[١]، ولم يُفْرِطوا طبعاً ولم يُغالوا. وكان من ثقات بني أميّة، وعليه اعتمادهم، وهذه صفة اتّصف بها الحجّاج أيضاً، إذ كان شديد الولاء لهم. وعلى الرغم من غضب هشام عليه ذات مرّة إلّا أنّه لم يصدّق كلام واليه على العراق، الذي اتّهم خالداً بمساعدة أهل البيت النبويّ، وأراد أن يلقيَ تبعة ثورة زيد على عاتقه، فكتب هشام في جوابه عن كتاب يوسف بن عمر[و هو الوالي المذكور] الّذي وجّه تلك التهمة إلى خالد: «كَذِبتَ وكذب مَن أرسلك، ومهما اتّهمْنا خالداً فلسنا نتّهمه في طاعة»[٢]. ويستبين شَبَهُه بالحجّاج في نسبة ما تفوّه به الحجّاج من تفضيل «الخليفة» على «الرسول» إليه أيضاً[٣]، وإن نَسب خالد هذا المطلب فيما بعد إلى بعض بطانة هشام تعريضاً وازدراءً. ونُقل عن خالد قوله: «لو أمرني أمير المؤمنين [هشام] لنقضتُ الكعبة حَجراً حجراً ونقلتُها إلى الشام»![٤] فيجب أن نقيسه بالحجّاج في هذا المجال أيضاً.

حكم العراق خمس عشرة سنة بلا منازع، وكانت حكومته تعتبر حكومةً على القسم الشرقيّ للأقاليم الإسلاميّة تقريباً. ويعود تأييد هشام إيّاه إلى صرفه يزيد بن عبد الملك عن قصده، إذ أراد تنحية أخيه [هشام] وتعيين ابنه الوليد خلفاً له،[٥] لذلك كان هشام يحبّه، وتَحمّلَه خمس عشرة سنةً. ولمّا كانت أمّ خالد نصرانيّة، وبنى لها كنيسةً أيضاً، فقد اتُّهم بنشر النصرانيّة، وهجاه بعض الشعراء أقذع

١ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ١١٦.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٥٨.

٣ - **الأغاني** ٢٢: ١٨ . وقد مرّ كلام الحجّاج سابقاً، وهو: «أيّما أكرم عندكم على الرجل رسولُه في حاجته أو خليفته في أهله» . المترجم.

٤ - نفسه ٢٢: ١٦ — ١٧.

٥ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٣١٤.

الهجاء. ورُمي بأنّه «يهدم المساجد، ويبني البِيَعَ والكنائس، ويُولّي المجوس على المسلمين، ويُنكح أهل الذمّة المسلمات»![١]

قال الأصفهانيّ: «وكان زنديقاً وأمّه نصرانيّة، فكان يُولّي النصارى والمجوس على المسلمين، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم، وكان أهل الذمّة يشترون الجواري المسلمات ويَطأونهنّ، فيُطلق لهم بذلك، ولا يغيّره عليهم»[٢].

وهجاه الفرزدق، فأنشد يقول وهو في حبسه:

أبلــغْ أميــرَ المــؤمنينَ رســالةً ... فعجّـلْ - هَـداكَ اللهُ- نَزْعَـك خالـدا

بنــى بِيعــةً فيهــا الصليــب لأمّــهِ ... وهَدَّم مِن بُغضِ الإله المَساجدا[٣]!

وقال مشيراً إلى حكومته:

وكيــف يَــؤُمُّ المسلميــنَ وأُمُّــهُ ... تَــدينُ بــأنّ اللهَ ليــس بواحــدِ[٤]؟!

وصرّح الأصفهانيّ باختلافه إلى الزنادقة[٥]. ونظراً إلى دين أمّه، والتُّهم التي شاعت عنه، لا نستبعد حسنَ معاملته لغير المسلمين، وتفضيله إيّاهم على المسلمين أحياناً!

وكان فظّاً غليظاً في سيرته مع الشيعة، وكان موقفه من أمير المؤمنين عليّ عليه أفضل الصلاة والسلام عدائيّاً. وقد أساء إليه أشنعَ الإساءات وأشدَّها وأوقحها حتّى يُخجِل ذِكرها! وعقيدته [لعنه الله] أنّ الإمام عليه السلام في قعر جهنّم، وكان يهب الأموال من أجل سبّه ولعنه. وقد نقل الأصفهانيّ أخباراً عديدةً في هذا المجال[٦]، ولَعنَه في

---

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٤٥٨.

٢ - الأغاني ٢٢: ١٦.

٣ - نفسه ٢٢: ٢١.

٤ - نفسه.

٥ - نفسه ٢٢: ٢٤.

٦ - الأغاني ٢٢: ١٥ — ١٨.

كلّ خبر نقله: لَعَن اللهُ خالداً ومَن والاه، وقبّحهم، وصلوات الله على أمير المؤمنين.

و عُزل خالد سنة ١٢٠هـ، وقيل في عزله كلام متباين لا يمتّ إلى كتابنا بصلةٍ كثيراً، وما رجّحه المؤرّخون هو مخاصمة هشامٍ له بسبب كثرة غلاله التي أضرّت بدخله.[١] وذهب خالد إلى الشام بعد عزله، ولكنّه قبل ذهابه بفترةٍ عذّبه يوسف بن عمر، ونزل به البلاء الذي كان قد أنزله يوَم كان والياً بعمر بن هبيرة، وآذاه هشام في الشام أيضاً. ولمّا وليَ الوليد بن يزيد، سلّم خالداً ليوسف بن عمر مقابل مبلغٍ طائلٍ من المال، فقتله يوسف، ثمّ قتل ابنُ خالدٍ يوسفَ في سجن يزيد بن الوليد[٢].

و استمرار خالد في حكمه على العراق والشرق الإسلاميّ خمس عشرة سنة كان مزيّةً استأثر بها لنفسه بسبب رعايته الدقيقة لمطالب الأمويّين، ومن هذه المطالب: الظلم التامّ الذي كان يتّصف به، ولذا مُنح لقب «الجبّار العنيد»[٣]! ومنها محادّته لآل عليّ عليه وعليهم السلام، وكان متميّزاً بها، وعُرف عنه شدّة ولائه لبني أميّة، ولم يحمل هذه الروحَ قطّ رجالٌ مثل يزيد بن المهلّب، لأنّ الشعور بالاستقلال كان حيّاً في وجودهم بما كانوا يمتلكونه من قدرة.

ثورات الخوارج في عصر المروانيّين

إنّ أهمّ السنين التي شهدت نشاط الخوارج - أو زمان الشُّراة كما يصطلح عليه الرواة - طوال تاريخ حياتهم هي الستّينات وأواخر السبعينات من القرن الأوّل الهجريّ؛ وإن بقوا بعدها أيضاً وحاربوا الأمويّين والعبّاسيّين. وكانت المراكز الأصليّة لنشاطهم حوالَي البصرة والكوفة، ثمّ استقرّوا في: فارس، وكرمان، وخوزستان،

---

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٤٦٨.

٢ - انظر: المصدر نفسه ٥: ٥٤١، ٥٤٣، ٥٥٩ —٥٦١.

٣ - انظر: المصدر نفسه ٥: ٥٦٣. ٥٦٤.

وسجستان بعد مطاردتهم من هناك. وكان استقرارهم مؤقّتاً على الدوام فكانوا يتنقّلون من مكان إلى آخر. وبدأ أوسع انتشار لهم من سنة هلاك يزيد (٦٤هـ) وضعف السلطة الأمويّة واضمحلالها في العراق إلى زمن غزو عبد الملك بن مروان للعراق، وقد أدّى تساهل آل الزبير في بعض هذه السنين إلى نموّهم، حتّى إنّهم أدّوا مناسك الحجّ بمكّة سنة ثمانٍ وستّين بحرّيّة[١].

و ثار أحدهم، وهو مرداس بن أديّة بعد هلاك معاوية، وبعد واقعة كربلاء، وكان عبيد الله بن زياد حاكم العراق يومئذٍ، فقتله جندُ عبيد الله[٢]. ووجد عبيد الله نفسه أمام عددٍ كبير من الخوارج في العراق، فانتهج سياسة الشدّة والعنف، وكان يقول: «فما علمتُ بعد قولي كلمة الإخلاص عملًا أقربَ إلى الله من قتلي مَن قتلتُ من الخوارج»[٣]. ولمّا أراد أن يتولّى إمارة الكوفة بعد هلاك يزيد حتّى تعيين من يخلفه بالشام، ذكر أنّ أحد خدماته لأهل البصرة القبضُ على جميع المشتَبه بهم وإيداعُهم السجن[٤]، بيد أنّ الناس - الذين كان كثير من السجناء أقرباءهم - طلبوا منه أن يُطلقهم، ففعل حين رأى الوضع على غير ما يرام، فظفر الخوارج بحرّيّة العمل، ولمّا فرّ إلى الشام، رُفعت العقبة من طريقهم تماماً. وذكر ابن قُتيبة في الإمامة والسياسة أنّه يومَ كان حاكم العراق، جَدَّ في البحث عن الخوارج، فقبض عليهم وقتلهم لأدنى ظنّ.

و جاء في زياد وابنه عبيد الله أنّهما قتلا ثلاثة عشر ألفاً من الخوارج[٥]، وسبّبت

---

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥١٥؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٦٣.

٢ - العراق في العصر الأمويّ: ٢٣٠.

٣ - أنساب الأشراف ٤: ١٠٩.

٤ - نفسه ٤: ١١٦.

٥ - تاريخ الطبريّ ٤: ٤٠٣.

هذه الضغوط فرار عدد كبيرٍ منهم تلقاء مكّة، وكان يحكمها عبد الله بن الزبير يومئذٍ، ولم يُعادهم عبد الله آنذاك، بل حاول أن يستعين بهم لمواجهة الأمويّين، فشعروا بالأمان، وحالفوه خلافاً لعقائدهم، ووجّهوا ذلك بـ«الدفاع عن حرم الله»[١]. وكان ابن الزبير عثمانيَّ الهوى، وكان المحرّض الأصليّ لأبيه في حرب الجمل التي اندلعت - ادّعاءً - ثأراً بدم عثمان الذي كان يبغضه الخوارج أشدَّ البغض، إلّا أنّ المصالح المشتركة جعلتهم يلتفون حوله، وكان ابن الزبير يقول: لو أعانَني الشيطانُ على أهل الشام لَقَبِلْتُه![٢] ولمّا رجع جيش يزيد من مكّة بعد سماعه خبر هلاكه، جاء الخوارجُ ابنَ الزبير فسألوه عن رأيه في عثمان، فأخبرهم أنّه يؤيّد سياسته، فهجروه.

و نشط جماعة منهم في اليمامة والبحرين وعمان وهجر بقيادة نجدة بن عامر الحنفيّ بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، مضافاً إلى الخوارج الذين كان يقودهم نافع بن الأزرق مؤسّس فرقة الأزارقة. وتولّى نجدةُ القيام بمناسك حجّهم عام ٦٨ هـ، لكنّه لم يتعاون مع نافع قبل موته بسنين لأسبابٍ مختلفة، فعزله الخوارج بعد حين ونصبوا مكانه أبا فديك الذي قُتِل أيضاً غبّ مدّة[٣].

و أدّى تساهل آل الزبير في العراق إلى أن يُضايق الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق (المقتول سنة ٦٥ هـ) أهلَ البصرة، ويغلقوا الطريق بوجه القوافل التجاريّة في مناطقها الشرقيّة والشماليّة الشرقيّة... وضاقت الأرض على أهل البصرة بما رحبت، وأخذوا تهديد الخوارج مأخذَ الجدّ، فتأهّبوا لقتالهم، وخاضوا حروباً يسيرة معهم، لكنّهم لم ينتصروا فيها، فانضمّوا إلى المهلّب بن أبي صفرة، المشهور بشجاعته وبحروبه

---

١ - نفسه ٤: ٤٣٦؛ أنساب الأشراف ٤: ٥٨.

٢ - أنساب الأشراف ٤: ٩٤؛ شرح النهج ٥: ١٣١.

٣ - انظر: تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٧٣؛ تاريخ الطبريّ ٤: ٢٦٧.

الطويلة التي خاضها معهم بلا هوادة، وقاتلوهم. وأدّت المساعدات الماليّة التي قدّمها تجّار[١] البصرة إلى المهلّب، المتولّي للقيادة بأمر عبد الله بن الزبير، إلى نكبتهم حتّى حين. وكان صمود الخوارج أمراً عجيباً، وعددُهم غالباً أقلّ من جيش العراق، بيد أنّ مقاومتهم كانت شديدة جدّاً، وكان المهلّب نفسه يقول: سبحانَ الله العظيم! ما رأيتُ ولا سَمِعتُ بمِثْلِ هؤلاء القوم ساعةً قطّ، كلّما ينقص منهم أن يزيد فيهم[٢].

و تقهقر الخوارج في هذه الحروب مراراً بعد تقديمهم خسائر فادحة، ولُوحقوا مرّةً حتّى أصفهان، لكنّهم قَدِموا فارس نزلةً أخرى، وعسكروا في منطقة أرّجان، وبلغ عددهم اثنين وثلاثين ألفاً[٣]. ومن الطبيعيّ أنّ كثيراً من الذين لحقوا بهم كانوا من الفُرس المعارضين للأمويّين. وتواصلت الحروب في الأهواز ونَوبَنْدجان - إحدى مناطق شيراز - وتغيّر قائد جُند العراق برهةً، لكنّ هزائم[٤] القائد الجديد (ابن مَعْمَر) أثبتت أنّ النصر لا يتحقّق إلّا بقيادة المهلّب، فعيّنه ابن الزبير مرّة أخرى. وأطيح بآل الزبير، لكنّ الأمويّين لم يستغنوا عنه، فظلّ يقاتلهم لأكثر من ثلاث سنين بعد غزو الأمويّين للعراق إلى أن انهزموا في نهاية المطاف بسبب اختلاف كلمتهم وتشتّت أمرهم، لا بسببٍ عسكريّ.

و قادهم قطريّ بن الفُجاءة بعد مقتل نافع بن الأزرق في الحرب التي وقعت في الأهواز، وعارضه جماعة منهم في كرمان، فتوجّه مع جمع من جنوده تلقاء

١ - الكامل في الأدب ٣: ٣١٢؛ شرح النهج ٤: ١٤٦، ١٨١.

٢ - الفتوح ٧: ٤٤.

٣ - نفسه ٦: ١٩.

٤ - نفسه ٦: ٣١-٤٦.

طبرستان، وقُتل هناك.[١] وتقاتل فريقان منهم بقيادة ابن عبد ربّه الكبير وابن عبد ربّه الصغير، كلّ على حِدة، وهلكوا. والمهلّب نفسه كتب إلى الحجّاج من قبل يخبره أن إبادة الخوارج لا تتحقّق إلّا ببثّ الفرقة بينهم[٢].

وما إن طُمس أثر الأزارقة حتّى هبّ شبيب الخارجيّ، أشجع الخوارج، لمعارضة الحجّاج وقتاله. وهزم جيش العراق مرّة بعد مرّة منذ سنة ٧٦هـ، فما تلاها، ودخل الكوفة مرّتين والحجّاج مختبئٌ في قصره، وأرغم المنتمين إلى بني أميّة على بيعته، وفيهم أبو بردة بن أبي موسى الأشعريّ[٣]. ولم يُغِثِ الحجّاجَ إلّا جيشُ الشام وحده، وكان الحجّاج قد كتب إلى عبد الملك قائلًا: وقد عجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة، في كلٍّ يقتل أمراءهم[٤]. هذا على الرغم من وطأة الحجّاج على أهل العراق، وتعبئتهم لقتال الخوارج كرهاً[٥]، وهو نفسه أمهلهم ثلاثة أيّام حتّى يخرجوا مع المهلّب لحربهم، وقتل شيخاً كبيراً أبى الخروج، مع أنّه قَبِل عذرَه؛ كي لايجرؤ الآخَرون على المعارضة[٦].

وعلى الرغم من الهزائم الكثيرة والخسائر الفادحة التي مُنِيَ بها الخوارج على مرّ السنين، فقد نجحوا في المحافظة على أنفسهم ونجاتها من الهلاك. بيد أنّا إذا نظرنا إلى أعمالهم من مقالة بلوغ الهدف، يتعيّن علينا أن نقول: إنّهم هُزِموا وانكسروا؛ لأنّهم كانوا يقاتلون لإسقاط بني أميّة، ولم يظفروا بهدفهم قطّ... وكانوا كلّما اجتمعوا، تفرّقوا بسبب حملة العدوّ عليهم. فيتسنّى لنا أن نقول: انتصروا (في

---

١ - تاريخ الطبري ٥: ١٢٥ – ١٢٦.

٢ - نفسه ٥: ١٢١ – ١٢٢؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٧٦.

٣ - نفسه ٥: ٧٧.

٤ - تاريخ الطبري ٥: ٨٥.

٥ - مروج الذهب ٣: ١٣٠.

٦ - الكامل في الأدب ٢: ٢١٢؛ الأغاني ١٤: ٢٤٤.

بقائهم)، وانكسروا (في بلوغ أهدافهم)، وينبغي تقويم عللهما. ومن الأسباب التي أثّرت في بقائهم ـ واحتمالاً، في صدّ حملات عدوِّهم وقمع معارضيهم، وأدت إلى سرعة نفوذهم في الناس[١] ـ أنّ حروبهم كانت حروبَ عصابات، فكانوا يباغتون العدوّ ويدمّرونه قبل أن ينظّم نفسه. وكانت الغارات اللّيليّة عملَهم الدائم... يضاف إليها أنّهم كانوا يلجأون إلى الاغتيال في كفاحهم[٢]، وكانوا يقمعون معارضيهم مستعينين بالعناصر المحلّيّة، فجلّادوهم الذين كانوا يعيّنهم الحكّام لم يأمنوا على أنفسهم، ويُقتَلون. وعجزوا ذات مرّة عن قتل القاتل، فذبحوا بعيره[٣]، وربّما أفلحوا في قتله أيضاً في بعض المواطن[٤]. قال ابن زياد في هذا الشأن: ما أدري كيف أصنع، ما أقتل رجلاً من هذه المارقة إلّا قُتِل قاتلُه![٥] وكانوا يقتلون الجواسيسَ الذين ينقلون أخبارهم إلى الحكّام[٦].

وقاتلوا الحجّاجَ فحسنت سمعتُهم إلى حدٍّ ما بسبب سوءِ سمعته؛ فقد كان مرتجلاً برأيه مستبدّاً، اشتهر بالفساد والخبث، ولم يَرْعوِ عن ظلم أحدٍ. وهكذا كان الأمويّون، فساعدت الخوارجَ هذه الصفةُ على تأليب الناس عليهم وحثّهم على مناصرة أنفسهم[٧]. واستطاعوا إدخال كثيرٍ من العبّاد والزهّاد في سلكهم، فقال أحد هؤلاء العبّاد، وهو صالح بن مسرح، لأتباعه بشأن الظلم الموجود: متى أنتم مُقيمون؟ هذا الجور قد فشا، وهذا العدل قد عفا، ولا تزداد هذه الولاةُ على الناس إلّا

---

١ - **شرح النهج** ٥: ٨٣.

٢ - **الحيوان** ١: ٤١ فما بعدها.

٣ - **أنساب الأشراف** ٤: ١٩.

٤ - نفسه ٤: ٩١ – ٩٢.

٥ - نفسه ٤: ٩١.

٦ - نفسه ٤: ٩٤.

٧ - نفسه ٤: ١٩.

علوّاً وعُتوّاً وتباعداً عن الحقّ، وجرأة على الربّ. فطلب منه الخوارج إثر ذلك أن يلحق بهم، فثار عام ستّة وسبعين، ثمّ قُتِل بعد مدّة، فقادهم شبيب غِبّ مقتله.[١] وكان عبد الله بن يحيى أحد قادتهم باليمن، وقد قيل فيه: فرأى باليمن جوراً ظاهراً، وعسفاً شديداً، وسيرةً في الناس قبيحة! وهذا ما دعاه إلى جمع أصحابه، والنهوض ثائراً وهو يقول: «لا يحلّ لنا المُقامُ على ما نرى، ولا الصبرُ عليه»[٢].

و يُلحظ تحرّكهم بسبب ظلم الحكّام وجورهم في كلمات أبي حمزة الخارجيّ سنة احدى وعشرين ومئة أيضاً،[٣] ومن الطبيعيّ أنّ مكافحة الظلم يمكن أن تجتذب كثيراً من الناس إليهم.

و لمّا كان معظم نشاطاتهم في إيران، فقد انتمى إليهم كثيرٌ من الموالي، وإن لم ينطبق هذا على جميع فِرقهم، وكان مزيّةً مهمّةً لهم، بخاصّةٍ أنّ الفُرس كانوا يتمتّعون بشجاعة كافية، كما قيل: الموالي أشجع الخوارج وأشدّهم جسارةً[٤].

و تتكوّن الشريحة التي نجم عنها الخوارج، كما أخبرَ المهلّب بذلك، من: الحدّادين، والصبّاغين، والقصّابين، وغيرهم غالباً[٥]. ودخلت هذه الشريحة الاجتماعيّة المتوسّطة في سلكهم طبعاً بسبب ما لاقته من الضغوط... يضاف إلى هذا، أنّ زهدهم الذي اشتهروا به[٦]، ولعلّ ما ورد في بعضهم من تعبير العُبّاد

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٠.

٢ - **الأغاني** ٢: ٩٧، ٦: ١٤٩؛ **شرح النهج** ٥: ١٠٦.

٣ - **شرح النهج** ٥: ١١٤، وانظر: ١١٧، ١١٨، ١١٩.

٤ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦٢؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٣٧٣.

٥ - **الكامل في الأدب** ٣: ٣١٤؛ **شرح النهج** ٤: ١٤٧.

٦ - وإن لم يُعلَم صواب هذا الموضوع على نحو الدقّة، إذ ورد خبر مثلًا حول إقبال شبيب الخارجيّ على الخوارج بدافع ماليّ. وشكّ أستاذنا العلّامة السيّد جعفر مرتضى في زهدهم، وذكر ذلك في كتاب له بعنوان عليّ والخوارج المطبوع ببيروت سنة ٢٠٠٢م، في فصلٍ عنوانه الخوارج طامعون أم زُهّاد؟! ونقل أمثلة يدلّ بعضها على ذلك، وإن كان بعض الأمثلة

النُسّاك[1]، ساعد كثيراً في استمالة الناس إليهم.

ومن العوامل السلبيّة التي أعانتهم خوفُ الناس منهم، بخاصّة أنّ بعض القبائل وأهالي المدن أيضاً كانوا يساعدونهم محافظةً على أرواحهم وأطفالهم وأولادهم الذين لم تكن لهم أيّ حصانةٍ منهم. ويتعيّن أن نقول في هذا الشأن: إنّ هذا الأمر كان، في الوقت نفسه، أحدَ العقبات الأصليّة في طريق نموّهم، وبنفس المقدار الذي كان الناس يساعدونهم فيه خوفاً منهم إذا واجهوهم، وكانوا يساعدون الجهازَ الأمويّ من خلال الابتعاد عنهم خلاصاً من شرّهم، إذ كانوا في نظرهم أولي قلوبٍ قاسية. ولم يمتنع تجّار البصرة ـ ومن المحتمل تجّار سائر المناطق الذين كانوا يرون وجودَ الخوارج مضرّاً لتجارتهم ـ من مساعدة الأمويّين.

إنّ صراحة الخوارج قد أبادتهم، وتحريم الأزارقة للتقيّة كان يُجبر الخارجيّ الأزرقيّ على المعارضة بأيّ نحو كان ومهما كانت الظروف. وكانوا يثورون أحياناً بخمسين أو مئة رجل، وهذه الثورات غير المنظّمة التي كانت في غير وقتها هي التي سبّبت انكسارهم، في حين استطاع الشيعة أن يحافظوا على أرواحهم من شرّ بني أميّة في مواطن كثيرة بفضل رعايتهم للتقيّة.

وكان وجود المذهب الشيعيّ في العراق، بخاصّةٍ في الكوفة عقبةً في طريق تغلغل الخوارج، وقيل: كان الشيعة الذين قتل الخوارجُ إمامَهم، يكنّون بغضاً عجيباً للخوارج، فاستغلّ بنو أميّة هذا البغض، لذلك كان عدد خوارج الكوفة أقلّ

والشواهد ضعيفاً. يُضاف إليه أنّ في الكتب التاريخيّة نصوصاً كثيرة تدلّ على زهدهم، وقد نُقِلت بشأنهم أخبار خاصّة، ولم يذكرها الأستاذ ... وكلامه حول زمرة منهم طبعاً صادقٌ تماماً.

١ - **الكامل في الأدب** ٢: ١٤٩؛ **العراق في العصر الأمويّ**: ٢٢٧، ٢٣٠؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٨٩؛ **شرح النهج** ٥: ١٠٦.

كثيراً من خوارج البصرة.[1]

اتّساق عقائد الخوارج

إنّ أهمّ أمرٍ في اتّساق عقائد الفِرق المختلفة عادةً هو الانشقاق الذي يحصل فيها، فيُعرَف فيما بعد كأهمّ عقيدة للفرقة المنشقّة، حتّى كان اسم تلك الفرقة يؤخذ من ذلك الانشقاق أحياناً، وإن كانت بعض الفرق تعرف باسم رؤسائها أحياناً. أمّا الخوارج فاسم فرقتهم أخِذ مِن خروجهم على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وكان تكفيرُهم للإمام عليه السلام ولعثمان هو أهمَّ عقيدة عندهم وأعمّها. والحقيقة هي أنّ الحديث في الكفر والإيمان أهمّ مسألة دفعت الفرق المتنوّعة إلى إبداء آرائها، وولّدت المشاكل للفِرق الأولى... وقد دار الحديث في هذا المجال لأوّل مرّةٍ حول كفر عثمان وأصحاب الجمل وإيمانهم، ثمّ أدخل أهل الشام في هذا الموضوع. ولمّا كان فريق من أهل العراق يقاتلون أهل الشام معتقدين كفرهم، فوجئوا بالتحكيم، فشكّوا في جهادهم، ورأوا أنّ رفع الشكّ يتحقّق بقوّة اعتقاد كفر المعارضين، حتّى إنّهم كفّروا الإمام عليّاً عليه السلام لأنّه رضيَ بالتحكيم. والمسألة التالية هي أنّه إذا كُفِّر أحدٌ بسبب قبوله التحكيم ككبيرة من الكبائر، فما هو حكم الذين يرتكبون الكبائر؟ فعلى أساس موقفهم المتطرّف هذا، كفّروا مرتكبَ الكبيرة، وهذا التطرّف هو من أهمّ أسباب انكسارهم. ونحن نعلم أنّ المعتزلة يعتقدون أنّ مرتكب الكبيرة فاسق (لا مسلم فاسق، ولا مؤمن ولا كافر)، أمّا الإماميّة فإنّ فقههم يقول: إنّ مَن شَهِد الشهادتين مسلم، وله ما لسائر المسلمين من الحقوق، فيتعيّن القبول بإطلاق المسلم الفاسق على مرتكب الكبيرة.

و أشار الشهرستانيّ إلى عقائد الخوارج قائلًا: «و يحملهم القول بالتبرّي من

---

١ - العراق في العصر الأموي: ٢٤٢

عثمان وعليّ رضي الله عنهما، ويقدّمون ذلك على كلّ طاعة، ولا يُصحّحون المناكحات إلّا على ذلك»![1] فالذي ظهر أساساً هو الخوض في مفهوم الكفر والإيمان بشأن قضايا عثمان والإمام عليّ عليه السلام، ثمّ أصبحت هذه القضيّة أهمّ قضيّة عند الخوارج. والمبدأ المهمّ الآخر من مبادئهم هو أنّهم يرون الخروج على الإمام، إذا خالف السنّة، حقّاً واجباً[2].

و كان الأزارقة الذين مارسوا نشاطهم في البرهة المعهودة، من أشدّ فِرقهم تطرّفاً وإفراطاً، إذ كانوا يرون غير الخوارج، رجالهم ونساءَهم وأطفالهم، مشركين يجب قتلهم،[3] مستندين - بغبائهم - إلى قوله تعالى: **﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً﴾**[4]! وكان المعتدلون من أتباعهم كالصفريّة يمتنعون من قتل الأطفال، وكان اعتقاد تحريم التقيّة من أصل عقائدهم، وبسببه اختلفوا مع خوارج اليمامة، وانفصلوا عن نجدة الحروريّ[5].

و إذا استثنينا هذه العقائد، فإنّ كتب الفِرق نسبت بعض العقائد الفقهيّة والكلاميّة إليهم، وأكثرُها مرويّ عن طرق مخالفيهم، وقلّما صرّح الخوارج بها لتفرّقهم الناتج من الحروب المتواصلة التي خاضوها، وعُزلتهم عن المراكز العلميّة للمسلمين والتي أبعدتهم عنها. وانقرض أغلب فرقهم إلّا الإباضيّة الذين لهم أتباع اليومَ في عُمان وشمال أفريقية. ومن العسير تبيان صحّة العقائد المنسوبة إليهم

١ - **الملل والنحل** ١: ١٠٦؛ **تبصرة العوامّ**: ٤٦.
٢ - **الملل والنحل** ١: ١٠٦.
٣ - نفسه ١: ١٠٩، ١٤٠؛ **الأغاني** ٦: ١٤٢.
٤ - نوح: ٢٦_٢٧.
٥ - **الملل والنحل** ١: ١١٢.

وسقمها، ومن خصائصهم: تغيير العقيدة. ويبدو أن الإباضيّة شكّوا حتّى في أصل تبرّي الخوارج من الإمام عليّ عليه السلام، وعبّرت الكتب الصادرة أخيراً لبعضهم عن حبّهم للإمام عليّ عليه السلام.

و أدّت مناهضة كتب الفرق والمذاهب لفرقةٍ كالخوارج إلى الإفراط والمبالغة في بعض العقائد المنسوبة إليها. ولمّا كان القسم الأعظم من الخوارج في بعض الموارد من الموالي، فقد جاؤوا بنظريّةٍ جديدة في الإمامة، وأنكروا شرط القرشيّة الذي كان يعتقده به أهل السنّة بشدّة على مرّ ستّمئةِ سنةٍ في الأقلّ[1]. وربّما أثار هذه العقيدة بعض القبائل العربيّة الموالية للخوارج، التي كانت تعتقد خلافة مستقلّة عن السيطرة القبليّة، أو في منافسة قريش مبدئيّاً. (أي كانت ترى أنّ الخلافة أهمّ من القيود القبليّة).

و من فرق الخوارج: اليزيديّة التي كان تطرّفُها أكثر في باب عجميّة العقائد الخارجيّة، كما عبّر عن ذلك بعض المنشقّين من العجاردة، فقد كان أصحابها يزعمون أنّه سيبعثُ الله رسُولًا من العَجَم، ويُنزل عليه كتاباً قد كُتب في السماء، ويترك شريعة محمّدٍ المصطفى![2] وفي باب المسائل الكلاميّة تدلّ عقيدتهم بعدم التشبيه والتجسيم، وكذلك خلق القرآن على شَبَهِ عقائدهم بعقائد المعتزلة، وعلى مخالفة عقائد أهل الحديث، وإن احتُمل تأثّرهم بالمعتزلة. ويمكن أن نعدّ ابتعادهم عن الأجواء المدنّسة بالإسرائيليّات، والتفكير غير المدنّس المتوكّئ على ثقافة الإسلام الأولى سَبَبَ بعض عقائدهم الصحيحة في هذا الباب. وفي مجال خلق القرآن يتعيّن علينا أن نقول: إنّ ظهور هذه العقيدة كان في القرن الثاني، ولا بدّ من أنّ الخوارج قد تأثّروا بالفرق الأخرى في هذا الموضوع، ومهما كان فإنّ تغلغل بعض عقائد المعتزلة بين الخوارج موضوع جدير بالبحث والتحقيق والمتابعة.

---

١ - **الملل والنحل** ١: ١٠٧.

٢ - **تبصرة العوامّ**: ٤١؛ **الملل والنحل** ١: ١٢٢.

الفصل الحادي عشر

الشيعة في العقود الأخيرة من الحكم الأمويّ

الشيعة تحت وطأة الأمويّين

أشرنا في موضعٍ سابقٍ إلى أنّ للأمويّين ثلاثة أعداءٍ ألدّاء وهم: الخوارج الذين ولّدوا مصاعبَ جمّة للحكم الأمويّ في أعصارٍ متنوّعة؛ والشيعة الذين وقفوا من معاوية موقفاً جادّاً منذ عصر أمير المؤمنين عليه السلام فما بعده، ثمّ ثار: الإمام الحسين عليه السلام، والتوّابون، والمختار، وزيد بن عليّ، ويحيى بن زيد على بني أميّة... ويضاف إلى هذه الثورات أنّ الفكر الشيعيّ ـ لاسيّما نظريّة الشيعة السياسيّة في شرعيّة الحكم العلويّ ـ كان يهدّد الأمويّين تهديداً خطيراً، كاتّجاهٍ قويّ واسع بين المجتمع، والحقيقة أنّ الشيعة هم الذين كانوا يُعرَفون كبديلٍ بالقوّة للحكم الأمويّ بعد زواله. أمّا العدوّ الثالث فهو العراقيّون، شيعة وغير شيعة، وهؤلاء كانوا يثورون على بني أميّة بين حينٍ وآخر لما كانوا يعانونه من امتهان أهل الشام إيّاهم، وهو الذي يُحتمَل نجومُهُ عن تعصّبٍ قبليّ، وأحياناً إقليميّ. وهذه التحرّكات التي تحدّثنا حولها سابقاً كانت تُخفي أهدافها تحت غطاء «إحياء السُّنّة النبويّة»، وأيضاً «العدالة الاجتماعية»، كما أنّ القادة أو الناس الذين كانوا يجارونهم أُولي نيّةٍ طيّبة أيضاً.

فهذه الأخطار الثلاثة كلّها كانت جدّيّة، والخطران الأوّلان طبعاً أهمّ من الثالث. ونحن نعلم أنّ الخوارج استطاعوا أن يُعجزوا بني أميّة بالعراق في نهاية المطاف، واغتنم بعض المتظاهرين بالتشيّع الفرصة، فأطاحوا بالحكم الأمويّ ومسكوا بزمام الأُمور. وإذ أدرك بنو أميّة هذه التهديدات تماماً، حاولوا التضييق على الشيعة، والحؤول دون توسيع نفوذهم بأيّ نحو من الأنحاء.

وتحدّثنا فيما تقدّم حول اضطهاد الأمويّين للعلويّين، ونحاول هنا أن نوضّح

الأبعاد المختلفة لهذه القضيّة من خلال أمثلةٍ وشواهدَ أخرى، فقد كان الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بوصفه إمامَ الشيعة، يُسَبُّ طوال العهد الأمويّ إلّا الفترة الوجيزة التي حكم فيها عمربن عبد العزيز[1]، فقد سبّه أشخاص مثل خالد بن عبد الله القسريّ الذي كان يتشدّق بذلك على المنبر بنحوٍ متواصل[2]، ويستعمل أقذع الألفاظ [مسيئاً إليه][3]. وتوجيهاً لعملهم هذا، حضّوا بعض المحدّثين على وضع الأحاديث في ذمّه عليه السلام؛ ولهذا السبب شهدنا هشامَ بن عبد الملك يكتب إلى الأعمش، الشخصيّة الشيعيّة بالكوفة، أنّ يصنّف له كتاباً في فضائل عثمان وقبائح عليّ! فأبى ذلك[4]. ولم يأبَ الزهريّ وأمثاله نقلَ مثلِ هذه المفترَيات المختلَقات، ولمّا بلغه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يخضب لحيته، قال [الزهريّ]: «مكتوب في التوراة ملعون من غيّرها بالسواد، يعني اللِّحية »[5]. وكان ولاة بنيّ أميّة يسبّون الإمام عليّاً عليه السلام وأبناءه في جميع الأقاليم الإسلاميّة[6]، وكان دافعهم إلى هذا العمل [المَشين] هو إظهار شخصيّاتهم بمظهر سيّئ، وإقصاءَهم عن الساحة الفكريّة والسياسيّة للأمّة بتوجيه أسوأ التُّهم إليهم؛ لذا كان التشدّد في سبّه مستساغاً عندهم تماماً. وقد كتب الحجّاج إلى واليه على فارس أن يدعو عطيّة بن سعد ليلعن عليّاً عليه السلام، وإلّا فليضربه أربعمئة سوط ويحلق رأسه ولحيته[7]! فأبى عطيّة أن يفعل، فضربه أربعمئة سوط وحلق رأسه ولحيته. وكان الحجّاج يُكره

١ ـ الطبقات الكبرى ٥: ٣٩٢ ـ ٣٩٤.

٢ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٨٧.

٣ ـ الأغاني ٢٢: ١٥ فما تلاها.

٤ ـ شذرات الذهب ١: ٢٢١.

٥ ـ الطبقات الكبرى ١: ٤٤١.

٦ ـ البيان والتبيين ٣: ٢٢١.

٧ ـ الطبقات الكبرى ٦: ٣٠٦.

رجالًا، مثل ابن أبي ليلى الذي كان من فقهاء العراق، على سبّ الإمام عليه السلام بصراحة[١].

وكان افتراء الأحاديث لمعاوية، وكذلك ما وضع لأبي بكر وعمر؛ تبكيتاً للشيعة فقط، الذين كانوا يسمّونهم روافض، مألوفاً! وكثير من هذه الأحاديث الآن موجود في محفوظات «الأحاديث الموضوعة» التي جمعها حتّى أهل السنّة أنفسهم[٢].

ولمّا حجّ هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ، أي في السنة الثانية من حكومته، قال له حاكم المدينة الذي كان من حَفَدَة عثمان، مشيراً إلى فضائل عثمان: «... ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب... ينبغي له [لهشام] أن يلعنه في هذه المواطن... قال [هشام]: ما قَدِمنا لشتم أحدٍ ولا للعنه، قدمنا حجّاجاً»[٣].

وهذا لا يعني أنّ هشاماً لم يكن من أهل اللّعن، إذ تشهد سيرته كلّها على مناوءته لأهل البيت عليهم السلام والشيعة، وهو الذي قتل زيدَ بن عليّ وكثيراً من الشيعة، ويُحتمَل أنّ لجوابه المذكور عمّا أراده الحاكم سعيدُ بن عبد الله، سبباً خاصّاً في تلك الظروف، وإلّا فهشام هو الذي أساء بوقاحة تامّة إلى الإمام الباقر عليه السلام حين سأل عنه أخاه زيداً الذي كان ذهب إلى الشام، حيث قال له: «ما فعل أخوك البقرة»؟! فدلّ على خبثه بسؤاله المَشين المُسيء هذا، فأجابه زيد رضوان الله عليه: سمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله باقراً، وتُسمّيه البقرة! لقد اختلفتما إذاً[٤]. ثمّ نقل له زيدٌ حديثَ جابر بن عبد الله الأنصاريّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الإمام الباقر عليه السلام سلامَ رسول الله صلى الله عليه وآله.

واتّخذت الضغوط على الشيعة أشكالًا شتّى، وكان من الذين شملتهم

---

١ .أنساب الأشراف ٢: ١٨١.

٢ .الموضوعات ١: ٣٠٤، ٢: ١٥.

٣ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٨٤ .٤٨٥.

٤ .عيون الأخبار١: ٢١٢.

«الكُميتُ بن زيد الأسدي» الذي كان من أفضل شعراء العرب، فسجنه خالد بن عبد الله القسريّ بسبب عقيدته الشيعيّة، وهجائِه بني أميّة، وكتب هشام بن عبد الملك إلى خالد يأمره بإخراج لسانه من قفاه وصلبه على باب داره![1]

وحين رأى الكميتُ نفسه مُوعَداً أشدّ الوعيد، فرّ من السجن بلباس زوجته التي ذهبت لزيارته، ولمّا لم يكن له محيص، ألجأته الظروف إلى الاستجارة بمسلمة بن عبد الملك، واستطاع أخيراً أن يُقنع هشاماً بالعفو عنه ويُنقذ بذلك نفسه[2]. وتشيّعه الذي جسّده حضورُه عند الإمام الباقر عليه السلام وسائر أهل البيت هو أمرٌ ثابت مسلَّم به[3]، وهاشميّاته هي أفضل دليلٍ على هذا الأمر.

وقتل يوسفُ بن عمر الذي حكم العراق من سنة ١٢٠ إلى سنة ١٢٦هـ عدداً غفيراً من الشيعة سوى قمعه لثورة زيد بن عليّ... قال ابن أعثم: فقتَلَ يوسفُ بن عمر مِن شيعة آل محمّد خَلْقاً كثيراً رحمةُ الله عليهم[4]. وأخبر يوسف هشاماً في كتابٍ كتبه إليه بالشقاء والبؤس اللّذين نزلا بسبب وطأة الحكومة على أهل البيت النبويّ[5].

ومن المؤسف أنّ دعايات الأمويّين ضدّ الشيعة، عدوِّهم الرساليِّ السياسيّ، أدّت إلى اتّخاذ المصادر السنّيّة المتأخّرة موقفاً غليظاً من الشيعة. وعلى الرغم من تأثُّر بني أميّة، وأصحاب المصادر المذكورة أنفسهم بالثقافة اليهوديّة، فقد شبّهوا الشيعة باليهود[6]! ويتعيّن علينا أن نعدّ هذه التهم انعكاساً دعائيّاً، وضعَ بنو أميّة حجرَه الأساس. ومن الضروريّ هنا أن نورد خبراً مفصّلاً أُثِرَ عن الإمام الباقر عليه السلام في

١ ـ الفتوح ٨ : ٨٢ ـ ٨٣.
٢ ـ نفسه ٨ : ٨٤.
٣ ـ نفسه ٨ : ٩٥.
٤ ـ نفسه ٨ : ١٢٤.
٥ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٨٨.
٦ ـ العقد الفريد ٢ : ٤١٠.

بيان اضطهاد الشيعة، ننقله فيما يأتي نصّاً؛ لنتصوّر ظروف الشيعة في ذلك العصر بنحوٍ أفضل. قال الإمام عليه السلام لبعض أصحابه: يا فلان، ما لَقِينا مِن ظلم قريشٍ إيّانا، وتظاهرِهم علينا، وما لقيَ شيعتنا ومُحبّونا من الناس! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وقد أخبر أنّا أَولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريشٌ حتّى أخرجتِ الأمرَ عن مَعدِنِه، واحتجّتْ علَى الأنصار بحقّنا وحجّتنا. ثمّ تداولتها قريش واحدٌ بعد واحد، حتّى رجعت إلينا، فنكَثَت بيعتَنا، ونصبت الحربَ لنا. ولم يزل صاحب الأمر [أمير المؤمنين عليه السلام] في صعودٍ كَؤود، حتّى قُتِل! فبُويع الحسن ابنه وعُوهد، ثمّ غُدِر به وأُسلِم، ووثب عليه أهلُ العراق حتّى طُعِن بخنجرٍ في جَنْبِه... ثمّ بايع الحسينَ عليه السلام مِن أهل العراق عشرون ألفاً، ثمّ غدروا به، وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم، وقتلوه! ثمّ لم نزل - أهلَ البيتِ - نُستَذَلُّ ونُستضام، ونُقصى ونُمتهَن، ونُحرَم ونُقتَل، ونخاف ولا نأمن على دمائِنا ودماءِ أوليائنا. ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقُضاة السوء وعمّال السوء في كلّ بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورَوَوا عنّا ما لم نَقُلْه وما لم نفعله؛ ليُبغّضونا إلى الناس! وكان عُظْم ذلك وكُبره زمنَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقُتِلَتْ شيعتُنا بكلّ بلدة، وقُطعَتِ الأيدي والأرجل على الظِّنّة، وكان من يُذكَر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجِن أو نُهب ماله، أو هُدِمت داره! ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد... ثمّ جاء الحجّاج فقتَلَهم كلَّ قتلة، وأخذهم بكلّ ظنّةٍ وتهمة، حتّى إنّ الرجل ليُقال له: زنديق أو كافر، أَحَبُّ إليه من أن يُقال: شيعة عليّ! وحتّى صار الرجل الذي يُذكر بالخير - ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً - يحدِّث بأحاديث عظيمةٍ عجيبة من تفضيل بعضِ مَن قد سَلَف من الولاة، ولم

يخلق اللهُ تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت، وهو يَحسَب أنّها حقّ؛ لكثرة مَن قد رواها ممّن لم يُعرَف بكذبٍ ولا بقلّةِ ورع![1]

هذا كلام الإمام الباقر عليه السلام في مجرى الظلم الذي حلّ بالشيعة على مرّ التاريخ[2].

الحركات الداخليّة للشيعة

ربّما لا يوجد مبحث أهمّ من المبحث الذي يدرس الأوضاع الفكريّة والاجتماعيّة للشيعة في هذه البرهة، المبحث الذي يتعيّن أن يكشف الوجه الحقيقيّ للفِرق والجماعات المختلفة التي كانت تعيش في ظلّ لفظ «الشيعة». وتقدّم لنا في الحديث في خلافة الإمام عليّ عليه السلام بحثٌ مفصّل حول اطّراد التشيّع واتّساعه، والذي نُوقش فيه مفهوم الإمامة بوصفها «نصّاً إلهيّاً»، كان معهوداً عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، بخاصّة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نفسَه جَدَّ واجتهد كثيراً في شرحه وبسط القول فيه للمسلمين[3]. وذكرنا في حديثنا حول حياة الإمام السجّاد عليه السلام وفكره شواهدَ على ما بيّنه الإمام عليه السلام وشرحه في أدعيته بشأن مفهوم الإمامة الإلهيّة، وهي تدلّ على أنّه عليه السلام عرض الإمامةَ كقيادةٍ ربّانيّة، والإمامَ كشخصٍ مُفترَض الطاعة نصبه الله سبحانه وتعالى[4]. ويجب أن نتكلّم هنا حول المشاكل التي مُنيَ بها الشيعة في تيّاراتهم الداخليّة خلال هذه المدّة.

والحقيقة أنّ الشيعة قد مُنُوا بالانحرافات في داخل كيانهم، وسببها غالباً قطع العلاقة بالأئمّة عليهم السلام. ومن الطبيعيّ أنّ القيادة والشيعة على حدّ سواء لم يتيسّر لهما

---

١ .شرح النهج ١١: ٤٤؛ **الإمام الصادق**، أبو زهرة: ١١١ـ١١٢.

٢ .تحدّثنا عن الظلم الذي نزل بأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في كتابنا **الشيعة في إيران ـ دراسة تاريخيّة**.

٣ .تحدّثنا حول ذلك فيما تقدّم.

٤ .انظر: **استثمار الإمام السجّاد عليه السلام للدعاء**.

التواصل والترابط المستمرّ في ظلّ الحكومة المستبدّة الغاشمة، فالانحراف في مِثل هذه الظروف أمرٌ طبيعيّ، ولم يتسنَّ للأئمّة عليهم السلام، مع جميع الجهود التي بذلوها، السيطرة على الشيعة كما ينبغي، بخاصّة الذين كانوا في العراق، ولم يسهل وصولهم إليهم - فضلًا عن خراسان - فيوجّهوهم ويراقبوهم فكريّاً. وكنّا قد ذكرنا في كتابنا «الشيعة في إيران - دراسة تاريخيّة» مقدّمةً حول «أشكال ظهور التشيّع»، فمن الضروريّ الرجوع إليها لإكمال ما يُذكَر. وسنتناول هنا بالدراسة والتحليل ما لم يُشَر إليه، أو ما قلّ الحديث عنه في ذلك الكتاب.

حراك الغلوّ والغلاة

إنّ من الحركات الداخليّة الشيعيّة المهمّة التي تجذّر فيها الانحراف، وكان لها دور أساس في إسدال الستر على التشيّع، حركةً ظهرت في التاريخ الإسلاميّ تحت عنوان الغلوّ، وتحدّثنا حول ذلك مفصّلًا في كتاب «الشيعة في إيران»، كما أشرنا آنفاً... مع هذا، لا بدّ لنا هنا من إشارات إلى هذا الموضوع أيضاً.

يعود ظهور الغلوّ إلى عصر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقد جعلت شخصيّته عليه السلام النـاسَ بين مُفْرِطٍ ومُفَرِّطٍ فيه، حتّى بلغ الأمر ببعضهم أن نسبوا إليه صفاتِ الإلُوهيّة، في حين بلغ ببعضهم الآخر أن كفّروه! ومهما كان سبب هذه القضيّة من النظرة التاريخيّة، نستطيع أن نقول بضرس قاطع إنّ المواقف المذكورة كانت موجودةً في عهده عليه السلام، وإن دار حول كمّيّتها ونوعها خلافٌ كثير يصعب تبيانه. وذهب بعض الباحثين - وذكرنا آراءهم سلفاً - أنّ من يُدعى بـ«عبد الله بن سبأ» - الذي عُرِف أنّه جذر الغلوّ - هو شخصيّةٌ أُسطوريّة اختُلِقت لتشويه سمعة التشيّع. مع هذا، يجب ألّا نعتبر إنكاره بمعنى إنكار وجود الأفكار الغالية بين الشيعة في عصر الإمام عليه السلام.

والسؤال المهمّ هنا: ما هو الغلوّ؟ فالثابت أنّ أصل الغلوّ يرتبط بنسبة الصفات الإلوهيّة إلى الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أو إلى أبنائه عليهم السلام جميعاً. وتعدّ هذه العقيدة كفراً عند الشيعة الاثني عشريّة الإماميّة، كما ورد في روايات جمّة مأثورة عن الأئمّة عليهم السلام. ومن المناسب أن نذكر شعراً للشاعر الشيعيّ السيّد الحمْيَريّ في توضيح هذا المعنى للغلوّ:

قومٌ غَلَوا في عليّ لا أباً لَهُمُ ... وأجْشَموا أنْفُساً في حُبِّهِ تَعَبا

قالوا: هُوَ اللهُ! جلَّ اللهُ خالقُنا ... مِن أنْ يكونَ له ابنٌ أو يكونَ أبا[1]

ومن هؤلاء لُمَّةٌ نفاهم الإمام عليّ عليه السلام إلى المدائن، وحين وافاهم خبر شهادته عليه السلام، أنكروه، ولم تتهيّأ أنفسهم لقبوله[2]. ووردت في كتب التاريخ روايات وأخبار عديدة ومتعارضة في تشدّد الإمام عليه السلام عليهم، ومن الواضح أنّ كثيراً من المؤرّخين والكتّاب غيّروها حسب عقائدهم. ومن هذه الأخبار خبر حرقهم، ووسمهم بالزندقة[3].

وكان بعض الشيعة المنحرفين يتمسّكون بهذه العقائد في عصر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أيضاً، فقد قيل للحسن بن عليّ: إنّ أُناساً من الشيعة يزعُمون أنّ عليّاً دابّة الأرض... فقال: كَذِبوا، أُولئك ليسوا بشيعة، أُولئك أعداؤه[4].

ومن المؤكّد أيضاً أنّ الوضّاعين، كما قال الإمام الباقر عليه السلام، قد افتروا على الأئمّة بعض الروايات في عهود متأخّرة، من أجل دحر الشيعة وقمعهم، وكان تشويه سمعة الشيعة بافتراء عقائد الغلوّ عليهم أمراً شائعاً جدّاً.

---

١ ـ **العقد الفريد** ٢: ٢٤٥.

٢ ـ انظر: مقتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام (مجلّة **تراثنا**، العدد ١٢)، ص ١٢١.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٢: ١٦٦، ١٨١.

٤ ـ نفسه ٢: ١٤٢؛ **تاريخ دمشق** ٣٨: ١١٢ (عن هامش الأنساب)، للاطلاع على معنى دابّة الأرض، انظر: **لسان العرب** ١: ٣٧٠: وفيه أنّ دابّة الأرض من علامات يوم القيامة.

وكانت عقائد الغلوّ موجودةً في العراق إلى حدٍّ ما بعد ثورة كربلاء، وإبّان نهضة التوّابين وثورة المختار، وعلينا طبعاً ألّا ننسى هذه الحقيقة - التي أشرنا إليها في حديثنا حول المختار أيضاً - وهي أنّ أنواع التهم نُسِبت إلى المختار بما فيها الغلوّ، من أجل خذلانه وعدم نُصرته. وركّزت كتب الفِرق والمذاهب كثيراً، بخاصّةٍ في الكَيسانيّة، التي عدّتها من غُلاة الشيعة، ونسبت عقائد وانشقاقاتٍ مختلفةً إليها. ومن المحتمَل أنّ كثيراً من هذه العقائد قد شاع بين الغلاة المتأخّرين، ونسبوها إلى غيرهم لدوافع منها تشويه سمعة الشيعة وأئمّتهم.

وبغضّ النظر عن صحّة وسقم ما قيل في غلوّ عقائد الكيسانيّة، فإنّ الذي يُستشفّ من بعض كلمات الإمام السجّاد عليه السلام هو أنّ ما اعتقدته اليهود والنصارى في عُزَيرٍ والمسيح عليهما السلام، اعتقده بعض المسلمين في أهل البيت عليهم السلام أيضاً. فقال عليه السلام في أحد المواطن: أَحِبُّونا حُبَّ الإسلام، ولا تَرفعونا فوقَ حدِّنا[1]. وقال في موطنٍ آخر: إنّ قوماً مِن شيعتنا سيُحبّونا حتّى يقولوا فينا ما قالت اليهودُ في عُزَير، وما قالت النصارى في عيسى ابن مريم، فلا هُم منّا ولا نحنُ منهم[2]. وحقيقٌ بالذِّكر أنّ الغلاة زعموا فيما بعد أنّ الإمام الحسين عليه السلام كالمسيح عليه السلام لم يُستشهَد، بل الذي استُشهد مكانَه هو أسعدُ بن حنظلة الشاميّ[3]!

ونقل الطبريّ خبراً عن أبي مِخْنَف أيضاً، وهو يدلّ على أنّ بعض الغلاة كانوا بالكوفة، فقد جاء فيه: «عن أبي مخنف قال: حدّثني حَصِيرة بن عبد الله أنّ هند بنت المتكلّفة الناعطيّة كان يجتمع إليها كلُّ غالٍ من الشيعة، فيتحدّث في بيتها وفي بيت ليلى بنت قمامة المزنيّة، وكان أخوها رفاعة بن قمامة من شيعة عليّ عليه السلام،

---

١. حلية الأولياء ٣: ١٣٦.

٢. اختيار معرفة الرجال: ١٠٢.

٣. علل الشرائع: ٢٢٥ - ٢٢٧؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٦٩ - ٢٧١.

وكـان مقتصـداً، فكانـت لا تحبّـه، ولمّـا بلـغ ابـنَ الحنفيّـة خبـرُ هـاتين المـرأتَين الغاليتَين، كتب إلى الشيعة بالكوفة: أمّا بعد، فاخرجوا إلى المجالس والمساجد، فـاذكروا الله علانيـةً وسِـرّاً ولا تتّخِـذوا مـن دون المـؤمنين بِطانـةً، فـإن خَشِـيتم علـى أنفسـكم - اتّقيـتم - فاحـذروا علـى ديـنكم الكـذّابين، وأكْثِـروا الصـلاة والصـيام والدعاء؛ فإنّه لـيس أحدٌ من الخلق يملكُ لأحدٍ ضـرّاً ولا نفعـاً إلّا ما شاء الله: ﴿**كُلُّ نفسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[١]، ﴿**ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**﴾[٢]، ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ**﴾[٣]، ﴿**وَاعْمَلُوا صالِحاً**﴾[٤]، ﴿**وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُم**[٥]﴾، حسناً، ولا تكونوا من الغافلين»[٦].

وكمـا أشـرنا فيمـا تقـدّم، أنّ بعـض المـؤرّخين حـاول أن يقـدّم معنـىً خاصّـاً للغلوّ مرادفاً لبعض عقائد الشيعة الإماميّة، وينقل الخبر بشكلٍ تكون الهجمة فيه موجّهةً إلى هذه الفرقة. وإذا أنعمنا الفكر يسيراً، تسنّى لنا أن ندرك تحريف الخبر، لا سيّما أنّ مواقف ابن الحنفيّة وأمثاله وكلمات المعصومين التي أُطلِقت بلا تقيّة، كما جاءت في مصادر الشيعة، وضّحت السبيل تماماً.

جهاد الأئمّة للغلوّ

لقد عـارض أئمّـة الشيعة بصراحةٍ حراك الغلوّ المنحرف الذي ظهرت نماذجه البيّنـة فـي عصـر الإمـامَينِ الصـادقَين عليهما السلام، فبيّنـوا العقائـد الصـحيحة وحـدود الاعتقـادات الدينيّـة الصـائبة. وشـهد عصـر الإمـام البـاقر عليه السلام هـذا الانحـراف بشكلٍ

---

١ ـ المدّثّر: ٣٨.
٢ ـ الأنعام: ١٦٤
٣ ـ الرعد: ٣٣.
٤ ـ المؤمنون: ٥١.
٥ ـ البقرة ٢٢٣.
٦ ـ **تاريخ الطبري** ٤: ٥٦٦، ٥٦٧؛ **أعلام النساء** ٥: ٢٥٢. (انظر: الأعراف: ٢٠٥).

واضح، وتولّت وجوه الغلاة المنحرفين قيادة الانحراف، وخدعت بعض الناس.

وكان من هؤلاء: المُغيرة بن سعيد الذي أمضى معظم حياته في عصر الإمام الباقر عليه السلام، فأحرقه خالد بن عبد الله القسريّ حاكم العراق سنة ١١٩هـ، وقد ذهب الطبريّ في أخباره إلى أنّ حركته كانت خروجاً على الحكومة، ووصفه بأنّه ساحر، وقال: «خرج المُغيرة بن سعيد في سبعة نفر... وكان خروجهم بظَهر الكوفة، فأُخبِر خالد القسريّ بخروجهم وهو على المنبر، فقال: أطعموني ماءً»[١]! وجديرٌ بالذِكر أنّه كان من مَوالي خالد نفسه، فأحرقه خالد وأصحابه ولم يتراجعوا عن عقائدهم. وتبرّأ منه الإمام الباقر عليه السلام[٢]، وجاء هذا الموضوع في روايات عديدة نقلها الكشّيّ. ودَسُّه في الكتب التي كانت فيها أحاديث الإمام الباقر عليه السلام، ووضع الروايات على لسانهم، وتعلّم السحر والشعوذة من الأمور التي صُرّح بها بشأنه[٣].

وأنشد أبو هريرة العجيليّ موقف الغلاة من الإمام الباقر عليه السلام:

أبا جعفرٍ أنت الوليُّ أُحِبُّهُ ... وأَرضى بِما تَرضى بِهِ وأُتابِعُ
أَتَتْنا رجالٌ يَحمِلونَ عليكُمُ ... أحاديثَ قد ضاقَتْ بِهِنّ الأضالعُ
أحاديثَ أفشاها المُغيرةُ فِيهمُ ... وشَرُّ الأُمورِ المُحدَثاتُ البَدائعُ[٤]

وكان منهم: بيان بن سمعان[٥] الذيساير المغيرة، فأحرقه خالد بن عبد الله معه أيضاً[٦]، وقد ذمّته المصادر الشيعيّة بشدّة، ونُقل أنّه كذب على الإمام عليّ بن

---

١ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٥٦ ـ ٤٥٧؛ **الملل والنحل** ١: ١٥٧؛ ذكر عقائده في باب التشبيه.

٢ .**الطبقات الكبرى** ٥: ٣٢١.

٣ .**اختيار معرفة الرجال**: ٢٢٣، فما بعدها.

٤ .**الإمامة والسياسة** ٢: ١٥١.

٥ .جاء في بعض الكتب: بنان، وفي بعضها: بيان، كما في **تاريخ الطبريّ**. ويبدو أنّ الثاني هو الصحيح.

٦ .**المقالات والفرق**: ٣٣.

الحسين[١]. ومنهم: حمزة بن عُمارة البربريّ الذي لعنه الأئمّة ودَعَوا عليه وعلى أمثاله كأبي الخطّاب، وبزيع، والمُغيرة بن سعيد[٢].

ووردت معلومات مفصّلة حول الغلاة وعقائدهم في كتاب سعد بن عبد الله، والنّوبختيّ. و إن كان الغلاة ورؤساؤهم منحرفين جدّاً وبعيدين عن الدين، لكن يجب أن نحتاط كثيراً حيال ما جاء في كتب الفِرق والمذاهب، بخاصّةٍ ما كتبه أهل السنّة، فهو مَشوب عادةً بسوءِ ظنّ كبيرٍ، وتُهمٍ عمياء!

ومن المناسب أن نستعرض هنا أيضاً مواقف الإمام الصادق عليه السلام منهم، وهو الذي قضى قسماً من حياته الشريفة في العهد الأمويّ، وكان للغلاة في هذا العهد، والعهد العبّاسيّ أيضاً، ضجيجهُم وجَلَبَتُهم.

وحريٌّ بالعلم أنّ انحراف الغلوّ كان انحرافاً عميقاً نقض أساسَ الدين، وهدّده! فلا يَسلم الدينُ أصولُه وفروعه وكلُّ شأن فيه من تحريفهم ودسّهم، كما فكّروا. مع هذا، كان هذا الاتّجاه في الظاهر مشتملاً على نوعٍ من النزعة العرفانيّة التي كانت تخدع الناس وتستقطبهم بجاذبيّتها الخاصّة. وكان انتشاره في العراق أكثر من الحجاز،ذلك أنّ العراق كان ملتقى الثقافات: الفارسيّة، والسريانيّة، والروميّة، واليهوديّة، وغيرها... فمن الطبيعيّ أنّه كان على درجةٍ من الاستيعاب حتّى يترك آثاره على فكر المسلمين. وتفاعُل الثقافات تأثُّراً وتأثيراً أوقع أغلبَ العقائد الدينيّة في بلبلةٍ وتشويش.

وكان تيّار الغلوّ خطراً على التشيّع من جهات، فهو لم يُوجِد التشويش والبلبلة في عقائد الشيعة ويعزلها فحسب، بل أرى الآخرينَ الشيعةَ أُناساً غير ملتزمين

---

١ ـ اختيار معرفة الرجال: ٣٠٢.

٢ ـ نفسه: ٣٠٥.

بفروع الدين، وجعل الجميع يُسيئون الظنّ بهم أيضاً[١]. وإذا ألقينا الآن نظرةً يسيرةً على كتب الفرق، تستبين هذه الحقيقة، وهي أنّها وإن تذكر التشيّع الغالي مستقلًّا عن غيره في تقسيمها للفرق، لكنّ الأغلب هو أنّ رؤساء الفرق والمذاهب، بل عموم الرجاليّين من أهل السنّة لم يميّزوا تمييزاً واضحاً بين فرق الشيعة، أو لم يريدوا التمييز أصلًا، فحذّروا الناس من قبول أحاديثهم. ومن أسباب هذه النظرة السيّئة، في الأقلّ، رسوخُ الأفكار الغالية في الشيعة، وقد بقيت معالمها نوعاً ما على الرغم من جميع المساعي التي بذلها أئمّة الشيعة، وبَعدَهم علماء الأُصول. ومثالها رسوخ الروايات حول تحريف القرآن في بعض كتب الحديث الشيعيّة، وأصلها من الغلاة[٢].

وقد حال الإمام الصادق عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام بعده دون هذا الانحراف بشدّة، وقبل ذلك أوجدت المساعي المبذولة من عصر الإمام عليّ إلى عصر الإمام الباقر عليهما السلام شعبيّةً لأهل البيت عليهم السلام وانتشاراً للحركة الشيعيّة، وكان الغلاة يحاولون من خلال تغلغلهم في صفوف الشيعة أن يدمّروهم من الداخل، ويشوّهوا سمعتهم في الخارج... فالنهضة العلميّة للإمام عليه السلام من أجل تهذيب الشيعة، والتحرّك لإبطال الغلوّ، وإبعاد الشيعة عن هذا التيّار، كان ذلك من أهمّ أعمال الإمام الصادق عليه السلام للمحافظة على الثقافة الإسلاميّة الأصيلة التي كانت عند الأئمّة عليهم السلام، وورثها الشيعة منهم. ونستعرض فيما يأتي تلك الأعمال التي نهض بها عليه السلام من أجل دحر الغلاة ونبذهم، وردّ آرائهم، وتكفيرهم أيضاً.

---

١ .حتّى إنّ الخوارج كانوا اتّهموا الشيعة بأنّهم يزعمون أنّ حبّ أهل البيت يُغنيهم عن القيام بالأعمال الصالحة، ويُنجيهم من العذاب بسبب سوء أعمالهم. انظر: **الأغاني** ٢٠: ١٠٧، نقلًا عن: **العقيدة والشريعة في الإسلام**: ٢٠٣.

٢ .انظر: **أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنّة**: ٦٦.

فمن هذه الأعمال: إبعاد الشيعة النبلاء عن الغلاة المُنحرفين، إذ يمكن أن يؤثّر وجود العلاقة بين الغلاة وما يُحتمَل من صفاتهم الجاذبة في بعض الشيعة فيجرّهم إليهم، بخاصّة أنّ الغلاة كانوا يزعمون أنّهم مرتبطون بالأئمّة عليهم السلام، ويصرّحون بأنّ تكذيب الأئمّة وجودَ هذا الارتباط هو للتقيّة، وكان هذا الأمر مؤثّراً في خداع الشيعة البسطاء. جاء في خبر مسندٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال للمفضّل مشيراً إلى أصحاب أبي الخطّاب وسائر الغُلاة: يا مفضَّل، لا تُقاعِدُوهم، ولا تُواكلوهم ولا تُشاربوهم، ولا تصافحوهم![1] ... وأكّد عليه السلام هذا الموضوع مرّةً أخرى فقال: وأمّا أبو الخطّاب محمّد بن أبي زينب الأجدع، ملعونٌ وأصحابُه ملعونون، فلا تُجالس أهلَ مقالتهم؛ فإنّي منهم بريء، وآبائي عليهم السلام منهم بُراء[2].

وكان عليه السلام، بخاصّةٍ، ذا حسّاسيّةٍ أكثر بالنسبة إلى شباب الشيعة، فكان يقول: احذروا على شبابِكم الغلاةَ لا يُفسدوهم، الغلاة شرُّ خَلْق الله، يُصغّرون عظمةَ الله، ويَدْعون الربوبيّةَ لعبادِ الله[3]!

ولم يوصِ عليه السلام بترك مجالسة الغلاة فحسب، بل كان يُحذّر الشيعة بصورةٍ عامّةٍ من معاشرة أهل البدع أيضاً: واحذرْ مُجالسةَ أهلِ البِدع؛ فإنّها تُنبت في القلب كفراً وضلالًا مُبيناً[4]. وابتغاءً منه عليه السلام دحرَ الغلاة وطردَهم من المجتمع الشيعيّ، كان يستنكر عقائدهم، ويطلب من الشيعة أن يرفضوا مزاعمهم، متّخذاً من «كتاب الله سبحانه» ميزاناً لأخباره وأقواله عليه السلام.

نقل الشهرستانيّ روايةً جاء فيها: أنّ الفيض بن المختار دخل على الإمام جعفر

---

١ ـ **اختيار معرفة الرجال**، الحديث ٥٢٥؛ **مستدرك الوسائل** ١٢: ٣١٥.

٢ ـ **الغَيبة**: ١٧٧؛ **مستدرك الوسائل** ١٢: ٣١٥.

٣ ـ **أمالي الشيخ الطوسيّ** ٢: ٢٦٤.

٤ ـ **مستدرك الوسائل** ١٢: ٣١٥؛ عن **مصباح الشريعة**: ٣٨٩.

ابن محمّد عليه السلام، فقال: جُعلت فداك، ما هذا الاختلاف الذي بين شيعتك؛ فإنّي ربّما أجلس في حلقتهم بالكوفة فأكاد أشكّ، فأرجع إلى المفضّل فأجد عنده ما أسكن إليه. فقال أبو عبد الله: أجَل، إنّ الناس أغْرُوا بالكذب علينا، حتّى كأنّ الله عزّوجلّ فرضه عليهم لا يريد منهم غيرَه، وإنّي لأُحدّث أحدهم الحديثَ فلا يخرج مِن عندي حتّى تناوله على غير تأويله[١].

ونُقلت رواية أخرى ذكرها السهميّ في كتابه، وفيها: قال عيسى الحجرانيّ*: «قلتُ لجعفر بن محمّد عليه السلام: إنْ شئتَ أخبرتُك بما سَمعتُ القومَ يقولون، قال: فهاتِ، قال: قلتُ: فإنّ طائفة مِنهم عَبَدُوك واتّخذوك إلهاً مِن دونِ الله، وطائفةً أخرى والَوك بالنبوّة!.. فبكى [عليه السلام] حتّى ابتلّت لحيتِه، ثمّ قال: إنْ أمكنَني اللهُ من هؤلاء فلم أسفِك دماءَهم سفكَ اللهُ دمَ ولدي على يدي»[٢].

وربّما أضاف الرواة في هذه الروايات أشياء من عندهم طبعاً، وأرادوا تفنيد ما هو ثابت عند الشيعة، على لسان الإمام عليه السلام طبقاً لأذواقهم، وسنلاحظ بعضها بعد ذلك.

واعتقد بعض الغلاة أنّ المهديّ هو الإمام الباقر عليه السلام، وأنكر الإمام الصادق عليه السلام ذلكَ[٣]. وكان اعتقاد نبوّة بعض الأئمّة المعصومين موجوداً بين الغلاة، وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: مَن قال: إنّا أنبياء، فعليه لعنةُ الله، ومن شكّ في ذلك فعَلَيه لعنةُ الله[٤]!

١ ـ **مصابيح الأسرار**، الورقة ٢٦، مجلّة **تراثنا**: العدد ١٢، ص ١٨.

* [في المصدر المنقول عنه: الجرجانيّ وهو الصحيح كما أيّد المؤلّف]

٢ ـ **تاريخ جرجان**: ٣٢٢، ٣٢٣. [وجاء في هذا المصدر أنّ اسمه عيسى الجرجانيّ] المترجم.

٣ ـ **اختيار معرفة الرجال**: ٣٠٠.

٤ ـ نفسه: ٣٠١.

وذهب بعض الغلاة إلى أنّ لفظ «إله» ولفظ «إمام» واحد، وقال: ﴿**هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ**﴾، قالوا: هو الإمام. وهذا الكلام هو الذي جعل الإمامَ الصادق عليه السلام يعدّهم شرّاً من المجوس واليهود والنصارى والمشركين[1]!

تشدّد الإمام عليه السلام في أمر الغلاة لعقيدتهم في نسبة الإلوهيّة إلى الأئمّة، فكان يقول عليه السلام: لَعَنَ اللهُ مَن قال فينا ما لا نقولُه في أنفسِنا، ولَعَنَ اللهُ مَن أزالَنا عن العبوديّة للهِ الذي خلَقَنا وإليه مآبُنا ومَعادُنا، وبيدهِ نَواصينا[2].

ويتّفق فقهاء المسلمين على تكفير المنكِر للأمور البديهيّة الضروريّة في الإسلام، ويكبح هذا الحكم جماح بعض الانحرافات، بشرط أن يكون في مجراه الطبيعيّ. وقد جدّ الإمام عليه السلام بتكفيره للغلاة في أن يطردهم من صفوف المسلمين، وينقذ الفكر الشيعيّ من دَنَسِهم بنحو تامّ.

وكان أعمال الغلاة اصطباغ المفاهيم الدينيّة بالرمزيّة، حتّى تنفصل تلك المفاهيم عن معانيها الأصليّة، وتفقد أصالتها في ظلّ المعنى الرمزيّ. كتب الإمام الصادق عليه السلام إلى أبي الخطّاب أحدِ رؤساء الغلاة قائلًا له: بَلَغَني أنّك تزعم أنّ الزِنى رجل، وأنّ الخمرَ رجل، وأنّ الصلاةَ رجل، وأنّ الصيام رجل، وأنّ الفواحش رجل، وليس هو كما تقول. إنّا أصلُ الحقّ، وفروعُ الحقّ طاعة الله، وعدوّنا أصلُ الشرّ، وفروعهم الفواحش[3].

وقال عليه السلام في روايةٍ أُخرى:... على أبي الخطّاب لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين، فأشهدُ أنّه كافرٌ فاسقٌ مُشرك[4]! وخاطب الغلاةَ في موضع آخر فقال:

---

١ ـ نفسه: ٣٠٠.

٢ ـ نفسه: ٣٠٢.

٣ ـ اختيار معرفة الرجال: ٢٩١.

٤ ـ نفسه: ٢٩٧.

تُوبُوا إلى الله؛ فإنّكم فُسّاقٌ كفّارٌ مُشركون[1]!

وتكفيره الصريح عليه السلام إيّاهم أغلق الباب بوجهِ كلِّ ادّعاء كاذب كانوا يدّعونه، ويقولون: إنّ الإمام عليه السلام كان يعاملهم بالتقيّة، وهذا الموقف البيّن دفع الشيعة إلى التنكّر للغلاة مطلقاً.

ومن المجالات التي ساعدت على نشر أفكار الغلاة هو دعوة أتْباعهم إلى التحرّر من قيد العمل بـ«الفروع الفقهيّة»، وأحياناً «المحرّمات الشرعيّة». فكانوا يفترون على الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن عَرَفَ الإمام فَلْيَفعلْ ما يشاء»، فقال عليه السلام في جواب هذه الفرية: إنّما قلتُ: إذا عَرَفت فاعملْ ما شئتَ من قليلِ الخيرِ وكثيرِهِ؛ فإنّه يُقبَل منك[2]. وقصده عليه السلام هو بيان مبدأ مهمّ كان الشيعة يعتقدونه، وهو أنّ الأحكام تابعةٌ لأمر الولاية، وأن قبول الأعمال مرهونٌ بالولاية، ولولا الولاية لما كان لأداء الأعمال فائدة تُذكَر، فأوّلَ الغلاةُ هذه العقيدة إلى غير معناها الأصليّ، وكان قعود الغلاة عن العمل جعل الشيعة رعايةَ الأحكام الفقهيّة مِلاكاً في معرفتهم، وميّزوا الغالي من غيره بذلك[3].

ويتعيّن علينا ألّا نتغاضى عن تأثير الحُمق في ظهور الغلاة[4]، كما أنّ لحبّ الدنيا واستقطاب المُريدين لمن يزعم منهم نيابته للأئمّة، ورفعهم إلى مقام الإلوهيّة ليعرّفوا أنفسهم أنبياءَ لهم، تأثيراً مهمّاً في ظهورهم. وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول: إنّ الناسَ أُولِعُوا بالكذب علينا... وإنّي أُحدّث أحدَهم بالحديث فلا يخرج مِن عندي حتّى يتأوّله على غير تأويله؛ وذلك أنّهم لا يطلبون بحديثنا وبحبّنا ما

١ .نفسه.

٢ .الكافي ٤: ٤٦٤.

٣ .اختيار معرفة الرجال: ٥٣٠.

٤ .نفسه: ٢٩٥.

عند الله، وإنّما يطلبون الدنيا[١].

إنّ تعريف الإمام عليه السلام الشيعة تهذيب الأحاديث المأثورة لكي يستطيعوا تمييز الأحاديث المختلقَة من قبل الغلاة، المتناثرة في المجموعات الحديثيّة الشيعيّة، عن الأحاديث الصحيحة لأهل البيت عليهم السلام، عيّن القرآن الكريم معياراً لذلك، فقال: لا تَقْبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافَقَ القرآنَ والسُّنّة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدّمة، فإنّ المُغيرةَ بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أبي أحاديثَ لم يحدِّثْ بها أبي. فاتّقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربِّنا تعالى وسُنّةَ نبيِّنا صلى الله عليه وآله؛ فإنّا إذا حدّثنا قلنا: قال الله عزّ وجلّ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله[٢].

ويُلحَظ هذا التحرّك السيّئ للغلاة الوارد في الرواية المتقدّمة في مواطن أخرى أيضاً... قال الإمام الصادق عليه السلام: كان المُغيرة بن سعيد يتعمّد الكذب على أبي، ويأخذ كتبَ أصحابه، وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتبَ من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدسّ فيها الكفرَ والزندقة، ويسندها إلى أبي، ثمّ يدفعها إلى أصحابه، فيأمرهم أن يُثْبتوها في الشيعة، فكلُّ ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلوّ، فذاك ما دسّه المُغيرة بن سعيد في كتبهم[٣].

واستطاع الإمام عليه السلام بحركته السديدة الصائبة هذه أن يُنقذ الشيعة النبلاء من الغلوّ، بيد أن المؤسف هو بقاء آثار الغلوّ السيّئة في الحؤول دون نموّ الشيعة أكثر. وبسبب وجود الغلوّ منع أبو حنيفة أصحابه من نقل حديث الغدير[٤]، وهذا العمل، وإن كان مذموماً جدّاً في عالم نقل الحديث وذريعةً واهية، لكنّه يدلّ على عظم

١. نفسه: ١٣٦.

٢. نفسه: ٢٢٤.

٣. اختيار معرفة الرجال: ٢٢٥.

٤. أمالي الشيخ المفيد: ٢٧.

الضرر الذي لحق بهذا الحراك حتّى بنقل أصحّ الروايات في فضائل الإمام عليّ عليه السلام.

وسبب تفصيلنا هذا البحث هو التحرّك المبدئيّ للأئمّة عليهم السلام في المحافظة على النواة الأصليّة للتشيّع ضدّ الغلاة، مضافاً إلى قصدنا أن نُريَ انحراف الغلاة في تاريخ التشيّع، بخاصّة أنّ وجود الغلاة جعل عوامَّ الناس يحقدون على أهل البيت عليهم السلام[1]، فما كان عليهم إلّا أن يدافعوا عن أنفسهم.

التشيّع في تفضيل الإمام عليّ عليه السلام

الصورة الأخرى للتشيّع في نطاق تيّاراته الداخليّة هو التشيّع الذي يعتقد تفضيل البيت العلويّ وأحقّيّته بالخلافة، ولا يعتقد أنّ الإمامة هي «إمامة إلهيّة»، وأنّ الإمام «مُفترَضُ الطاعة». وهذه الرؤية تفضّل الإمام عليّاً عليه السلام على عثمان أو على سائر الخلفاء في مجال السياسة والقيادة فقط، ونظراً إلى ما اختصّت به هذه الطائفة من الفضائل قياساً بسائر الطوائف ذات الجاه السياسيّ[2]. وبهذا التعريف للتشيّع يكون كثير من محدّثي أهل السنّة، بل معظم محدّثي العراق شيعةً. و إذا استعرضنا كتاب «ميزان الاعتدال» للذهبيّ أدركنا أنّ نسبةً كبيرة من الرجال الذين أصبح بعضهم في عداد كبار علماء السنّة لاحقاً، قد اتُّهِموا بالتشيّع في عصرهم أو بعد عصرهم بقليل، وبين أولئك رجال لم يعتقدوا خلافة معاوية على وجه الخصوص، وأدانوه بشدّة. و منهم: محمّدَ بن جرير الطبريّ[3]، والحاكم النيسابوريّ العالِمَان الرفيعَان لأهل السنّة في القرن الثالث والرابع الهجريّين. وكان منهم رجال

---

١ .انظر: **العقيدة والشريعة في الإسلام**: ٢٠٧.

٢ .ذكرنا هذا الموضوع مفصّلًا في كتابنا «**الشيعة في إيران، دراسة تاريخيّة**»، تحت عنوان «التشيّع السياسيّ».

٣ ـ تحدّثنا حول تشيّعه في مقالةٍ مفصّلة في كتاب «**الجغرافية البشريّة للشيعة**».

كُثر في العراق إبّان القرن الأوّل الهجريّ، حتّى إنّ عدداً كبيراً منهم تعرّض لاضطهاد الحجّاج وغيره من الولاة الأمويّين بسبب مودّتهم للإمام عليّ عليه السلام وأهل البيت النبويّ.

إنّ ما يجب أن نعرفه بشأن هذه الثّلة هو أنّ أفرادها لا يُعتبَرون شيعةً بالمعنى الأصيل للتشيّع، وبروزها في العراق يعود إلى رسوخ التشيّع في الكوفة، وهذا نفسه يعود إلى وجود الإمام أمير المؤمنين وابنه الإمام الحسن عليهما السلام فيها خلال خمس سنين. والشيعة الذين تربّوا خلال هذه المدّة نشروا التشيّع والروح الشيعيّة في هذه المنطقة. ولا شكّ أن المحدّثين الذين نشأوا، بالكوفة على وجه الخصوص قد تأثّروا بهذه الروح، ولم يفعلوا كما فعل سائر محدّثي البلدان الذين امتنعوا من نقل فضائل الإمام عليّ عليه السلام بسبب نزعتهم العثمانيّة. ولا ذريعة للعثمانيّين في اتّهام المحدّثين الكوفيّين إلّا أنّهم لم يلتزموا بالحدود التي كان العثمانيّون قد وضعوها في نقل فضائل أهل البيت، بل في نقل مثالب الصحابة. ولهذا السبب اتُّهم بعض الرجال ـ كالأعمش الذي كان شخصيّةً شيعيّة ـ بإفساد أحاديث أهل العراق[1].

وحين يُقال: إنّ العراق كان ذا جوّ شيعيّ، مع ما في هذا الكلام من قيود من الوجهة الكمّيّة، فإنّما يراد هذا النوع من التشيّع، وإن كان عدد الشيعة - الذين يعتقدون أنّ أهل البيت أئمّة و هداة دون سواهم - كثيرين.

والشيعيّ العقائديّ هو الذي كان يرى أنّ الإمام إنّما هو من أبناء الإمام عليّ عليه السلام فحسب، وأنّه وصيّ الأوصياء[2] ومفترض الطاعة، سواءً كانت لهذا الإمام سلطة

---

١ ـ **شذرات الذهب** ١: ٢٢١.

٢ ـ كان الشيعة العقائديّون يستعملون عنوان وصيّ الأوصياء في الأئمّة عليهم السلام. على سبيل المثال، عندما كان جابر بن يزيد الجعفيّ ينقل روايةً عن الإمام الباقر عليه السلام، يقول: حدّثني وصيّ الأوصياء. وهذا ما حمل محدّثي العامّة على تركه، وقال سفيان الثوريّ: «هذا أهوَنَهُ». انظر: **المعرفة والتاريخ** ٢: ٧١٦؛ **ميزان الاعتدال** ١: ٣٨٣؛ **تهذيب التهذيب** ٢: ٤٩.

سياسيّة أم لم تكن. واعتقاد هذا المبدأ معيار لإثبات التشيّع العقائديّ، ومن شكّ في هذا المبدأ أدنى شكّ لم يجد له مكاناً في المجتمع الشيعيّ. وورد تعريف هذا الشيعيّ على لسان أبان بن تَغلِب، فقد قال: الشيعةُ الذين إذا اختلف الناسُ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذوا بقول عليّ عليه السلام، وإذا اختلف الناس عن عليّ أخذوا بقول جعفر ابن محمّد عليه السلام[1].

والواقع أنّ مفهوم الإمامة قد أُخِذ من حديث الغدير، وكان المخالفون يسمّون من يعتقده رافضة، وكان الأئمّة عليهم السلام يعمدون أحياناً إلى تجنّب مثل هؤلاء ونسبتهم إليهم حفظاً للظواهر[2]. مع هذا، تفسّر روايات أهل البيت عليهم السلام مفهوماً للولاية بصراحة، وهو يكوّن النواة المركزيّة لعقائد الشيعة، حتّى تضعها روايات جمّة في عداد الصلاة، والصيام، والحجّ، والزكاة، بل تؤكّدها أكثر من غيرها[3]. وكان الأئمة عليهم السلام يعرّفون أنفسهم عمليّاً أئمّةً للشيعة، وعلى الشيعة أن يدفعوا إليهم الحقوق الماليّة المفروضة. ولم يعتبر الأئمّة عليهم السلام حكّام زمانهم ظالمين جائرين ومصاديق بارزة للطاغوت فحسب، بل كانوا يرون أنفسهم الأئمّة الشرعيّين الربّانيّين، وكانوا يعملون بما عُهِد إليهم من المسؤوليّات الماليّة والسياسيّة، وبما كلّفهم به الشرع المقدّس من واجبات بوصفهم أئمّة. فمثلًا لمّا قيل للإمام الصادق عليه السلام: ما نفعل بأموالٍ تركها أبوك الباقر عليه السلام؟ قال: ما كان لأبي بسببِ الإمامة فهو لي، وما كان غيرُ ذلك فهو ميراثٌ على كتاب الله وسُنّة نبيِّه[4]. ونُقل عنهم بشأن

١ ـ **رجال النجاشي**: ١٢ / ترجمة أبان بن تغلب.

٢ - للاطلاع على رأي الإمام الصادق عليه السلام في أحد العامّة بالنسبة إلى زرارة بن أعين، ينظر: **المعرفة والتاريخ** ٢: ٦٧٢؛ **ميزان الاعتدال** ٢: ٦٩.

٣ ـ ينظر: **وسائل الشيعة** ١: ٧، ١٠، ١١، ١٢، ١٧، ١٨.

٤ ـ نفسه: ٦: ٣٧٤.

الروايات المرتبطة بالأنفال أنّ هذه الأموال لهم[1]. ومن المؤسف أنّ بعض الكتّاب السنّة الذين لم ينالوا حظّاً وافراً من العلم و المستشرقين وصفوا الأئمّة عليهم السلام بصورة كأنّهم لم يدّعوا الإمامة، وأنّ الآخرين قد نسبوها إليهم، فلم يحفلوا بهذه الروايات الشيعيّة الكثيرة الواردة في أبواب الفقه المختلفة، وهي لاتدع أيّ مجال للشبهة من الوجهة التاريخيّة.

ومهما كان، فإنّ العراق شهد جمّاً غفيراً كان يحمل هذه العقيدة، وينظر إلى أهل البيت كمصطفَين عيّنهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله بأمرٍ من الله تعالى وأوجب طاعتهم. ومن الممكن طبعاً أنّهم واجهوا مصاعب وانحرافات في المصاديق... كتب هشام ابن عبد الملك ـ الذي كان يخشى من ثورة العلويّين ـ إلى يوسف بن عمر مبيّناً عقيدة أهل الكوفة بقوله: أمّا بعد: فقد عرفتَ حال أهل الكوفة في حبّهم أهلَ البيت ووضعِهم إيّاهم في غير مواضعهم؛ لافتراضهم على أنفسهم طاعتَهم، (ووظّفوا عليهم شرائعَ دِينهم). ونحلتِهِم إيّاهم عظيم ما هو كائنٌ ممّا استأثر الله بعلمه دونَهم[2].

وتدلّ المضامين الواردة في هذه الرسالة الرسميّة على وجود نوعٍ من التشيّع العقائديّ، وقُطبه الإمام المفترَض الطاعة، الإمام الذي يتولّى مهمّة بيان الشريعة للناس أيضاً. وكما أُشير، فقد ظهرت انحرافاتٌ في هذه القضيّة أيضاً، وتعود غالباً إلى انقطاع شيعة العراق عن المدينة، مركز حياة الأئمّة الأطهار عليهم السلام وسائر العلويّين، وكذلك إلى الضغط الذي مارسه الحكّام الأمويّون، ثمّ العبّاسيّون ضدّهم، فلم يتيسّر لبعض شيعة العراق معرفةُ الإمام الحقيقيّ. ومع هذا، كان المبدأ القائل: إنّ الحكومة حقُّ آل عليّ عليهم السلام وحدهم، موجوداً منذ البداية. ونرجو الرجوع إلى ما ذكرناه في العقائد السياسيّة للتوّابين من أجل إثبات هذه النقطة، وأهمّ من ذلك التشيّع

١ ـ انظر: **الحكومة الإسلاميّة في أحاديث الشيعة الإماميّة**: ٨٤ ـ ٨٨.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٣٨؛ **تاريخ الطبري** ٥: ٤٨٩.

الموجود في قمّ، الذي انتقل إليها من الكوفة. وتدلّ العقيدة الشيعيّة الأصيلة لأهلها ـ التي كانت بيّنةً تماماً في أواخر القرن الثاني للهجرة ـ على أنّ الأشعريّين كانوا ملمّين بأُسس التشيّع العقائديّ بالكوفة، ومنها أخذوا تراثهم الشيعيّ.

وأشرنا فيما تقدّم إلى أنّ بُعد الأئمّة عليهم السلام - الذين كانوا يعيشون في المدينة - عن العراق مهّد لظهور بعض الانحرافات، ومنها: عقيدة بعض الشيعة إمامة محمّد ابن الحنفيّة كإمامٍ مفترَض الطاعة لبعض العراقيّين بعد أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهما السلام، ولا يمكن الشكّ في بزوغ هذه العقيدة ولو بشكلٍ محدود جدّاً.

وكان كُثَيِّر عَزَّة المتوفّى سنة ١٠٥هـ، من الشعراء أُولي العقائد الشيعيّة[١]، وقد أنشد - بوصفه شيعيّاً كيسانيّاً معتقداً إمامة محمّد ابن الحنفيّة - قائلًا:

ألا إنّ الأئـمّةَ مِـن قُـريشٍ ... وُلاةُ الحـقِّ أربـعةٌ سَـواءُ
علـيٌّ والثـلاثةُ مِـن بَنيـهِ ... هُمُ الأسباطُ ليسَ بِهم خَفاءُ
فَسِـبطٌ سـبطُ إيـمانٍ وبـرٍّ ... وسِبـطٌ غَيّـبَتْه كربـلاءُ
وسِبطٌ لا تـراهُ العـينُ حتّـى ... يقـودَ الخيـلَ يَقْـدِمُها اللِّواءُ
تَغيَّـبَ لا يُـرى عـنهم زَمانـاً ... بِرَضـوى عنـدَه عَسَـلٌ ومـاءُ[٢]

وله شعر آخر يدلّ على عقيدته أنّ المهديّ هو ابن الحنفيّة، قال فيه:

هُـدِيتَ يـا مَهـديّنا ابـنَ المُهتـدي ... أنـتَ الـذي نَرضـى بـه ونَرتجـي
أنتَ أبنُ خيرِ الناسِ مِن بعدِ النبيّ ... أنـتَ إمـامُ الحـقِّ لسـنا نَمتـري
يا ابن عليٍّ سِرْ ومَنْ مثلُ عليّ[٣]؟!

---

١ ـ الطبقات الكبرى ٥: ٢٩٢؛ الأغاني ٩: ٣.

٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٠٢؛ الأغاني ٩: ١٤؛ مروج الذهب ٣: ٧٨. وكان للسيّد الحِمْيَريّ مثل هذا الشعر أيضاً، انظر: الأغاني ٧: ٢٤٥.

٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٨٩.

وبغضّ النظر عمّا كان عليه هذا الشاعر من زللٍ في عقيدة التشيّع الحقيقيّ، إلّا أنّه كان يعتقد الأساس الأصليّ للتشيّع، وهو الولاية الإلهيّة، لذا رفض الخلفاءَ بعد النبيّ ﷺ، وأنشد قائلًا:

بَرِئتُ إلى الإلهِ مِن ابنِ أروى النبي   ومِن دِينِ الخوارج أجمعينا

إنّ رفض شرعيّة خلافة الخلفاء الأُوَل أصلٌ من أصول التشيّع العقائديّ الرساليّ، الذي يرى الإمامةَ أمراً من الله سبحانه. وكان لكُثيّرٍ صديقٌ يُدعى خندقاً الأسديّ أدّى معه مناسك الحجّ ذات مرّة، ونادى في الناس رافعاً صوته: «إنّكم على غير حقّ، قد تركتم أهلَ بيت نبيّكم والحقُّ لهم وهم الأئمّة. فوثب عليه الناس، فضربوه ورموه حتّى قتلوه»[1]! وجاء في خبرٍ أورده الأصفهانيّ: أنّ الإمام الباقر عليه السلام شهد جنازة كثيّر، وأراد من الناس أن يفرجوا له ليرفعها.[2] ومن الواضح أنّ هذا الشاعر، كالسيّد الحِمْيريّ، قد ثاب إلى الحقّ بعد تصرّم الأيّام، ولَطُف به الإمام عليه السلام إمّا بسبب تركه المذهب الكَيسانيّ أو بسبب مودّته لأهل البيت عليهم السلام، إذ حافظ على جذوة ودّهم في نفسه.

وكان السيّد الحميريّ من شعراء الشيعة الذين سلكوا هذا النهج أيضاً في بادئ أمرهم، فقد خاطب محمّدَ ابن الحنفيّة، وهو يعتقد أنّه لم يمت، بل غاب في «جبل رَضوى»، فقال:

ألا قُلْ لِلوصيّ فَدَتْك نَفْسي   أطَلْتَ بذلك الجبلِ المُقاما[3]

ونُقل له شعر كثير في المذهب الكيسانيّ، مع هذا، وردت روايات عدّة في تغيير مذهبه، وقد كذّبها الأصفهانيّ على لسان بعض الرواة، وقيل في شعرٍ نُسب إليه: إنّه

---

١ ـ الأغاني ١٢: ١٧٠.

٢ ـ نفسه ٩: ٣٦.

٣ ـ نفسه ٩: ١٤؛ أنساب الأشراف ٢: ٢٠٢؛ مروج الذهب ٣: ٧٩.

آمن بإمامة جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام. ولايعرف سببُ الجدّ البالغ في تكذيب هذا الشعر، ويمكن أن تكون له أسباب، منها: أنّهم أرادوا أن يدلّوا على أنّه رجلٌ من غلاة الشيعة، لا من أتباع الإمام الصادق عليه السلام. ونُقل عنه شعر يظهر تغييرَ مذهبه، قال فيه:

تَجَعْفَرْتُ بِاسْمِ اللهِ واللهُ أكبرُ[١]...

وأُشكل على هذا الشعر بأنّ شعر السيّد أبلغ ممّا نسب إليه القول: «تَجعفرتُ باسمِ الله»، ولا يقوى هذا الإشكال على الاحتجاج به. وقال في أبياتٍ أخرى له:

أيا راكباً نحوَ المدينةِ جَسْرَةً عَذافرةً تهوى بِها كلُّ سَبْسَبِ
إذا ما هَداكَ اللهُ لاقيت جعفراً فقلْ يا أمينَ اللهِ وابنَ المُهذَّبِ[٢]

ونقل الكشّيّ روايةً[٣] تدلّ على أنّ السيّد قد غيّر مذهبه وصار جعفريّاً، ومن المحتمل أنّه غيّر عقيدته بعد مناظرةٍ جرت بينه وبين البحّاثة مؤمن الطاق، أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وغُلب فيها[٤]. ونظراً إلى أنّ وفاته كانت في عصر المنصور العبّاسيّ، فمن المستبعَد جدّاً أنّه ظلّ على الكيسانيّة، ذلك أنّ الشكّ في عدد أتباع الكيسانيّة موجود من الأساس. بعبارةٍ أخرى، إذا استثنينا بعض الأخبار المشار إليها، فلا شاهد آخر على وجود أتباع لهذا المذهب، يُضاف إلى هذا، أنّ القسم الأعظم ممّا كان، قد تبدّد باتّباع عبد الله بن معاوية أو بني العبّاس.

ونُقل عن السيّد الحميريّ شعر في البراءة من الخلفاء الأُوَل أيضاً[٥]، ولمّا كان المهديّ العبّاسيّ وليّاً للعهد، طلب منه السيّد أن يقطع عطاء بني تَيم وبني عَدِيّ؛

١ ـ الأغاني ٧: ٢٣١؛ وانظر: مروج الذهب ٣: ٧٩.
٢ ـ الأغاني ٧: ٢٣١.
٣ ـ اختيار معرفة الرجال: ٢٨٨.
٤ ـ نفسه: ٢٤٥.
٥ ـ الأغاني ٧: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

لأنّهم منعوا أهل البيت حقّهم بعد النبيّ ﷺ، ففعل[١]. وترحّم عليه الإمام الصادق عليه السلام كما جاء في خبر الأغاني[٢].

ومهما كان، فقد أدّى الشعراء من أمثال: كُثيّر عزّة، والسيّد الحميريّ، والكميت ابن زيد الأسديّ دوراً جليلاً ثميناً في إحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام، ولا سيّما إحياء ذِكْر الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، واستعملوا في أشعارهم الجميلة أروع التعابير في هذا الشأن. وقيل: إنّ السيّد الحميريّ لم يُنشِد شعراً إلّا استهلّه بقوله:

أَجَدَّ بآلِ فاطمةَ البُكورُ فدَمعُ العينِ منهمرٌ غزيرُ[٣]!

وكان يقول:

أُقْسِمُ باللهِ وآلائِه والمرءُ عمّا قالَ مَسؤولُ
إنّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ علَى التُّقى والبِرِّ مَجْبولُ

وكان ينادي رافعاً صوته: مَن أتاني بفضيلةٍ لعليّ بن أبي طالب ما قلتُ فيها شعراً فله ألفُ دينار[٤]! ويحظى دور الشعراء الشيعة في تاريخ التشيّع بشأن رفيع يضيق المجال عن ذكره هنا[٥].

إنّ الاعتقاد الأصيل للتشيّع، وما كان شائعاً بين عامّة الشيعة تعليمات كان الأئمّة عليهم السلام ينشرون مناهجها الأساسيّة، وقد تولّى الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام، في الفترة التي نتحدّث فيها، بيانَ هذا الاتّجاه الأصيل، ويشمل أتباع الإمام الباقر عليه السلام جمهوراً كثيفاً من رواة الحديث الذين جمعت كتب الرجال الشيعيّة،

١ ـ نفسه: ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٢ ـ نفسه: ٧: ٢٤٢، ٢٧٧.

٣ ـ نفسه: ٢٤٥.

٤ ـ نفسه: ٢٥٧.

٥ ـ تحدّث صديقنا الفاضل الدكتور صادق آئينه وند حول شعراء الشيعة وأدبائهم ودورهم في صيانة قيم التشيّع الثوريّ مفصّلاً في كتابه «**ادبيات انقلاب در شيعه**» [أدب الثورة عند الشيعة].

ككتاب الشيخ الطوسيّ، أسماءهم[١]. ومن لوازم اعتقاد الإمامة الإلهيّة للأئمّة عليهم السلام هو أنّ الأحاديث المأثورة عنهم في أمر الشريعة والفقه وحدَها تحظى بالاعتبار، بكلمةٍ أخرى، كان الأئمّة عليهم السلام يبذلون غاية جهدهم في سبيل تعريف الناس بأهل البيت كدعامةٍ لقيادتهم السياسيّة والدينيّة، وعنوان «مُفتَرَض الطاعة» هو المحور في جميع القضايا، ومن لوازمه الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام في كلّ أمرٍ ورَدَ في كلمات المعصومين عليهم السلام من عصر أمير المؤمنين عليه السلام فما بعده. واستعرضنا سابقاً كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أهل البيت وشخصيتهم ومنزلتهم. وظهرت في أواخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني، إبّان قيادة الإمام الباقر عليه السلام وبعده الإمام الصادق عليه السلام للشيعة، نِحَلٌ فكريّة وفرق متنوّعة، كلٌّ منها كان يدّعي قيادة المسلمين، ومعظمها كان يقرّ بالقيادة السياسيّة القائمة للسلاطين، وكان أصحابها يحاولون أن تكون القيادة الدينيّة بأيديهم. أمّا أئمّة الشيعة عليهم السلام، فقد كانوا يصرّون في كلماتهم - كما جاء في حديث الثقلَين أيضاً - على أنّ المصدرين المعتمَدَين الموثَّقَين الوحيدَين هما: القرآن وأهل البيت لا غيرهما «كتاب الله، وعترتي أهل بيتي».

ونرى في كلمات الإمام الباقر عليه السلام أمثلةً جمّة تدعو الناس إلى الاستهداء بأهل البيت عليهم السلام علميّاً، ولا ترى الحديث الصحيح إلّا عندهم، فقد جاء في بعضها أنّه عليه السلام خاطب سَلَمة بن كُهَيل والحكَمَ بن عُيَينة قائلًا: شَرِّقا أو غرِّبا، لن تَجِدا عِلماً صحيحاً إلّا شيئاً خرَجَ مِن عندِنا أهلَ البيت[٢]. وقال في كلام آخر له وهو يُشير إلى الحسن البصريّ أحد العلماء المعروفين في ذلك الزمان: فَلْيذهبِ الحسنُ - يعني البصريّ - يميناً وشمالًا، فَوَاللهِ ما يُوجَد العلمُ إلّا هاهنا[٣]. وجاء في رواية أخرى:

---

١. رجال الطوسي: ١٠٢، ١٤٢.

٢. اختيار معرفة الرجال: ٢٠٩، ٢١٠؛ الكافي ١: ٣٩٩؛ بصائر الدرجات: ٩.

٣. الكافي ١: ٥١؛ وسائل الشيعة ١٨: ٤٢.

فَلْيذهب الناسُ حيث شاؤوا، فَوَاللهِ ليس الأمرُ إلّا مِن هاهنا، وأشار إلى بيته[١].

وهذه الكلمات تدعو الناس بصراحة إلى اعتبار العِترة هي المعيارَ من أجل وعي المعارف الدينيّة الأصيلة، وقبول مثل هذه الدعوة يعني قبول التشيّع. وقد ورد في كلامٍ آخر له عليه‌السلام ما نصّه: آلُ محمّدٍ أبوابُ الله، والدعاةُ إلى الجنّة والقادة إليها[٢].

وقال عليه‌السلام في كلام آخر: كلُّ شيءٍ لم يَخرجْ مِن هذا البيت فهو وَبال[٣]!

إنّ إصرارنا على نقل هذه الأقوال مفصّلًا، هو لتبيان تأثيرها الخاصّ في استتباب التشيّع تاريخيّاً.

وكذلك جاء في خبرٍ عنه عليه‌السلام أنّه قال: أيُّها الناس، أين تذهبون؟ وأين يُراد بكم؟ بِنا هَدى اللهُ أوّلكُم، وبنا ختم آخرَكم[٤]. ولمّا قدم هشام بن عبد الملك المدينة، قال الإمام عليه‌السلام: الحمدُ للهِ الذي بعَثَ محمّداً بالحقّ نبيّاً، وأكرمَنا به، فنحن صفوةُ الله على خَلْقه، وخِيرَتُه مِن عبادِه، وخلفاؤُه، فالسعيدُ مَن اتّبعَنا، والشقيُّ مَن عادانا وخالَفنا[٥]. وبسبب هذا الكلام دعاه هشام إلى الشام.

ونرى في كلمات الإمام الصادق عليه‌السلام أيضاً أمثلةً كثيرة تدعو الناس إلى أهل البيت عليهم‌السلام لا إلى غيرهم، وإلى أحاديثهم لا إلى غيرها، وتؤكّد اعوجاجَ سائر السُّبل؛ فقد جاء في بعضها: أيّتُها العصابة الحافظُ اللهُ لهم أمرَهم، عليكُم بآثارِ رسولِ الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وسُنّته، وآثارِ الأئمّة الهُداة مِن أهل بيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله[٦]. وقال الصادق عليه‌السلام

---

١ ـ **الكافي ١: ٣٩٩؛ بصائر الدرجات: ١٢.**

٢ ـ **تفسير العيّاشي ١: ٨٦؛ وسائل الشيعة ١٨: ٩.**

٣ ـ **الميزان ٣: ١٧٦،** عن **الكافي.**

٤ ـ **الكافي ١: ٤٧٨.**

٥ ـ **دلائل الإمامة: ١٠٤؛ بحار الأنوار ٤٦:** / ٣٠٦ ح١ـعن: الأمان من الأخطار للسيّد ابن طاووس، ص ٥٢، طبعة النجف الأشرف.

٦ ـ **وسائل الشيعة ١٨: ٢٣، ٦١؛ روضة الكافي:** ٨ / ح١.

ليونُس بن ظُبيان: يا يونُس، إنْ أردت العلمَ الصحيح فعندَنا أهلَ البيت؛ فإنّا وَرِثناه وأُوتينا شرعَ الحكمة وفصلَ الخِطاب[١]. وقال عليه السلام: إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإنّ الناس لَيحتاجون إلينا. وإنّ عندنا كتاباً بإملاءِ رسولِ الله وخطّ عليّ، صحيفة فيها كلُّ حلالٍ وحرام[٢]. وهذا كلام يذكّر الناس بكلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي خاطب به أهل الكوفة مراراً: أهلَ الكوفة، سَلُونا عمّا قال اللهُ ورسولُه؛ فإنّا أهلَ البيت أعلمُ بما قال اللهُ ورسولُه[٣].

وتدلّ هذه الأمثلة على وجود توعيةٍ عقائديّة متماسكةٍ للأئمّة عليهم السلام من الوجهة التاريخيّة، لأجل التعريف بأهل البيت كمحورٍ عقائديّ للمسلمين.

ومن الضروريّ أن نشير هنا إلى أنّ وجود التقيّة في القسم الأعظم من حياة الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، حِيالَ الحكومات الفاسقة الجائرة، وحِيال ضجيج عوامّ العامّة على حدٍّ سواء، ولّد مشاكل فكريّة عدّة للشيعة، وقد ألمعنا إلى بعضها في حديثنا حول الغلاة. فضلاً عن ذلك، أنّ مشاكل سياسيّةً خاصّة كانت تطرأ في حياة الأئمّة عليهم السلام أيضاً، ولا يتيسّر لنا أن نخوض فيها هنا. وقد حملت الدعوة إلى مرجعيّة أهل البيت رجالًا من المنتسبين إليهم وإلى الأسرة الهاشميّة على ادّعاء الإمامة في مقابل الأئمّة العلماء المتّقين من أهل البيت، وأوجدوا المحن للأئمّة عليهم السلام. ومهّدت الانشقاقات الداخليّة في صفوف العلويّين الطريق لتوسيع هذا الانحراف، وآلت إلى إحداث الانشقاقات في المذهب الشيعيّ نفسه من جهة، وإلى حرمان أئمّة الحقّ من حقّ إمامتهم الربّانيّة من جهة أخرى. ونشير هنا إلى بعض هذه الانشقاقات.

---

١ ـ **وسائل الشيعة** ١٨: ٤٨.

٢ ـ **الكافي** ١: ٢٤١.

٣ ـ **المعرفة والتاريخ** ٢: ٧٥٩.

ثورة زيد بن عليّ والمذهب الزيديّ في الشيعة

إنّ من النزعات الداخليّة الشيعيّة، التي عُرِفت كفرقةٍ من فرق الشيعة: النزعة الزيديّة. وهذه الفرقة قريبة من أهل السنّة في الأُصول والفروع إلى حدٍّ كبير، وتابعة للكلام المعتزليّ والفقه الحنفيّ في مواضع معدودة. مع هذا، كانت لها هويّة شيعيّة من الوجهة السياسيّة، وعدّها أرباب الملل والنحل من فرق الشيعة.

ويبتني التصوّر العامّ على أنّ النزعة الزيديّة أُخِذت من نهج زيد بن عليّ، وتأثّرت عقائدها بثورته وبالحركات المتأخّرة التابعة لها. ونبدأ حديثنا هنا بسردٍ تاريخيّ لثورة زيد.

وُلد زيد بن عليّ من أمّ ولد[١]، كان المختار قد أهداها إلى الإمام السجّاد عليه السلام[٢]. وكان زيد من الوجوه العلويّة التي نظّمت أوّل ثورة في التاريخ بعد ثورة كربلاء، وثورته في الحقيقة هي فاتحة الثورات المماثلة التي نهض بها الزيديّون في أرجاء الأقاليم الإسلاميّة، وقاتلت الجيوش الأمويّة والعبّاسيّة مراراً كثيرة على قلّة رجالها.

ذهب الدينوريّ إلى أنّ ثورة زيد قامت سنة (١١٨هـ)، وهو في غاية البعد[٣]، أمّا محمّد بن إسحاق فقد ذكر أنّها كانت في سنة (١٢٠)[٤]، وأورد سائر المصادر سنة (١٢١) أو (١٢٢)... ولم يشكّ أحد في أنّها كانت في شهر صفر. ويرى ابن كثير أنّها وقعت سنة (١٢٢)[٥]، ورأي ابن أبي الحديد[٦]، والزبير بن بكّار[٧]، والمسعوديّ[٨]،

١ .يقال للأَمَة التي تلد لصاحبها ولداً، ومن ثمّ لايصلح أن تُباع: أمّ ولد.
٢ .مقاتل الطالبيّين: ٨٦.
٣ .الأخبار الطوال: ٣٢٨.
٤ .عمدة الطالب: ٢٥٨.
٥ .البداية والنهاية٩: ٣٢٨.
٦ .شرح النهج ٧: ١٦٥.
٧ .عمدة الطالب: ٢٥٨.
٨ .التنبيه والإشراف: ٢٧٩.

وجماعة غيرهم، أنّها شبّت سنة (١٢١)[١].

وحاول أحد الباحثين بأدلّة قدّمها أن يجعل سنة ثورته سنة (١٢٢)، في حين لا توجد قرائن على صحّة رأيه[٢]، فيحتمل بقوّة في ضوء تلك الأدلّة أنّ الثورة كانت في صفر سنة (١٢٢)، ولمّا كان شهر صفر هو الشهرَ الثاني من السنة، وتهيّأت بعض مقدّمات الثورة سنة (١٢١)، فربّما ظنّ بعض أنّ هذه السنة هي سنة الثورة. والدليل الآخر هو أنّ عزل خالد القسريّ كان في جمادى الأولى سنة (١٢٠)، ونظراً إلى أنّ بعض الوقائع حدث بعد ذلك، وإلى الوقت الذي ذكره المؤرّخون من وجود زيد بالكوفة، فنستبعد أن تكون الثورة قد قامت في بداية سنة (١٢١).

وأوّل حادثة في هذه الثورة ترتبط بالوقت الذي ادّعى فيه خالد بن عبد الله القسريّ (أو غلامه طارق[٣]، أو ابنه يزيد كما في بعض الأخبار) - تحت وطأة التعذيب الذي لقيه بعد قدوم يوسف بن عمر العراق - أنّه أودع زيدَ بن عليّ وداود ابن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، وغيرهما مالًا، فكتب يوسف إلى هشام بن عبد الملك بذلك، فدعا هشام زيداً وسائر من سمّاهم يوسف إلى الشام، فقالوا له: هذا الادّعاء علينا كاذب! ثمّ بعث بهم هشام إلى الكوفة لمتابعة القضيّة أمام خالد وبمحضر يوسف بن عمر. وكان زيد ومَن معه خائفين من يوسف بن عمر، فأخذوا كتابَ أمانٍ من هشام ورجلًا مِن قِبله ليراقب معاملة يوسف بن عمر لهم، وساروا إلى الكوفة، ثمّ تبيّن أنّ خالداً أو ابنه أو طارقاً ادّعَوا ذلك تحت وطأة التعذيب ليأمنوا

١ ـ **عمدة الطالب** (عن الواقديّ): ١٢١؛ **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٣٢٦؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٨٢؛ **مروج الذهب** ٣: ٢٠٦، (وذكر سنة (١٢٢) أيضاً).

٢ ـ انظر: **سيرة وقيام زيد بن عليّ** [سيرة زيد بن عليّ وثورته]: ٢٤.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٣١.

على أنفسهم حتّى حين[1]. ولا بدّ أن تكون هذه الواقعة قد حدثت بعد سنة (١٢٠) أو في السنة التي عُزِل فيها خالد بن عبد الله عن ولاية العراق. وفي تلك البرهة إمّا كان زيد بن عليّ بالمدينة، وطلب هشام - بعد أن بلغه خبرُ خالد - من حاكمها أن يبعث به إليه بالشام[2]، وإمّا كان بالشام أو قريباً منها متولّياً صدقات أمير المؤمنين عليه السلام، كما في بعض الأخبار، لحلّ مشكلته أو مشكلة بني الحسن.

ويُستشَفّ من بعض الأخبار التي نقلت قضيّةً أخرى في الذهاب إلى الشام أنّ زيداً كان قد ذهب إليه قبل ذلك أيضاً، فجاء في هذا الخبر أنّ زيداً وعبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن المجتبى اختلفا في صدقات أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يُرفَع الاختلاف في المدينة، بل ظهرت مشاكل أخرى أيضاً، فتوجّه زيد تلقاء الشام لينظر هشام في هذه القضيّة، ولم يأذن له هشام، فرفع زيد إليه القصص، وكلّما رفع إليه قصّة كتب هشام في أسفلها: «ارجع إلى أميرك...». وأصرّ زيد على الدخول عليه فأذِن له هشام في نهاية المطاف، وأخبره بأنّه لا يصدّقه. ثمّ أمر بعد مدّة بإخراجه من الشام، فيمّم زيد المدينةَ بادئَ أمره، ثمّ غيّر طريقه متوجّهاً إلى العراق بعد قليل[3].

ويظهر أنّ هذا الخبر يعكس أمراً آخر لامتعاض زيد من الجهاز الحاكم، لكنّ الذي يجول في الذهن هو أن هذه السفرة كانت قبل ادّعاء خالد بن عبد الله، والحدّ الأدنى هو أنّ خالداً كان من أسباب سخط زيد واستيائه. وذكر المؤرّخون بعض الملاحظات بشأن لقائه لهشام، وهي التي أثارت غضبه على الأمويّين، منها: أنّه

---

١ ـ انظر: تاريخ الطبريّ ٥: ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٧؛ مقاتل الطالبيّين: ٩٠ ـ ٩١؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٣١؛ الفتوح ٨: ١١٠؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٢٥.

٢ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٧٢.

٣ ـ شرح النهج ٣: ٢٨٦ ـ ٢٨٧؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٨٦؛ رياض العلماء ٢: ٣١٩ ـ ٣٢٣.

أخبر جابرَ الجعفيّ لاحقاً أنّه لا يسعه السكوت عن هشام، وهو يخالف كتابَ الله تعالى، ويحكم حكم الطواغيت! فقال له: «إنّي شاهدتُ هشاماً ورجلٌ عنده يسبّ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ للسابّ له:... أما إنّي لو تمكّنتُ منك لاختطفتُ روحك وعجّلتُك إلى النار! فقال لي هشام: مَهٍ جليسُنا يا زيد»[١]!

والموقف الآخر هو أنّ هشاماً خاطبه مرّةً قائلًا: «لقد بلغني يا زيد أنّك تذكر الخلافة وتتمنّاها، ولستَ هناك، وأنت ابنُ أَمَة، فقال زيد:... إنّه ليس أحدٌ أولى بالله ولا أرفع عنده منزلةً من نبيٍّ ابتعثه، وقد كان إسماعيلُ عليه السلام مِن خير الأنبياء ووَلَد خيرَهم مُحمّداً ﷺ، وكان إسماعيل ابنَ أَمَةَ، وأخوه [إسحاق عليه السلام] ابن صريحة مثلك، فاختاره الله عليه وأخرج منه خير البشر»[٢]. ويتبيّن من هذا الموقف أنّ زيداً - من وجهة نظر هشام - كان يفكّر في الخلافة من قبل، كما نُقل أنّه كان يتحدّث مع أخيه الباقر عليه السلام في النهوض، وذلك في بعض مواقفه منه، في حين تُوفّي الإمام عليه السلام قبل نهضة زيد بستّة أشهر في الأقلّ.

والموقف الآخر لزيد من هشام أنّ هشاماً سأله: «ما فعَلَ أخوك البقرة؟!» قاصداً بسؤاله الإساءة إلى الإمام عليه السلام، فقال زيد: «سمّاه رسولُ الله ﷺ الباقر وتُسمّيه البقرة؟! لقد اختلفتما إذاً»[٣]!

ومهما كان، فالذي يبدو هو أنّ اعتراف خالد القسريّ المذكور آنفاً حمل هشاماً على أن يُشخصه إلى يوسف بالعراق، لكنّه لمّا كان خائفاً منه، كتب إلى يوسف[٤]

١ .تيسير المطالب: ١٠٩. ذكر المؤلّف أنّ الرجل السابّ كان نصرانيّاً، ولم يرد في المصدر المذكور. للمترجم.

٢ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٨٦؛ العقد الفريد، ٤: ١١٧، ٥: ٢٢٥، ٧: ١٣٩؛ شرح النهج ٣: ٢٨٧؛ مروج الذهب ٣: ٢٠٦؛ عمدة الطالب: ٢٥٥؛ الحور العين: ١٨٩؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٣٢٥.

٣ .عيون الأخبار ١: ٢١٢؛ شرح النهج ٣: ٢٨٦، ٧: ١٣٢؛ عمدة الطالب: ١٩٤.

٤ .ذكر المؤلّف أنّه كتب إلى خالد، فيما هو كتب إلى يوسف. وهكذا جاء في المصدر المنقول عنه. المترجم.

قائلًا: «... ولا يُقيمنَّ [زيد] قِبَلَكَ ساعةً واحدةً؛ فإنّي رأيتُه حلو اللّسان، شديد البيان، خليقاً بتمويه الكلام، وأهلُ العراق أسرعُ شيءٍ إلى مِثله»[١]! والطريف أنّ زيداً لمّا كان يخرج من الشام، قال هشام: يخرج وربِّ الكعبة[٢]. ولبث زيد بالكوفة بعد أن انتهت قضيّة ادّعاء خالد ورجع الباقون، الذين كان قد ادُّعيَ عليهم، إلى المدينة.

زيد بن عليّ عليه السلام في الكوفة

عُدّت الكوفة مركزَ العراق فيما مضى، وكانت قاعدة الخلافة يوماً ما، واستوعبت قبائل كثيرة جدّاً، واعتُبِرت أخطر حاضرةٍ إسلاميّة على بني أُميّة من بين جميع الحواضر الإسلاميّة، لذلك كانت تُراقَب بأشدّ الضغوط الأمنيّة والعسكريّة. ولمّا فارق زيد هشاماً، قال له هشام: يا زيد، اخرجْ حيث شئتَ ولا تدخُل الكوفة[٣]! وكتب ذلك إلى يوسف أيضاً[٤]. وكما ذكر؛ فإنّه مكث في الكوفة حيناً بعد انتهاء مخاصمته لخالد بن عبد الله. وكان يوسف بن عمر يؤكّد كلَّ يوم أن يعجِّل الخروجَ من الكوفة، لكنّ زيداً كان يعتذر في كلّ مرّة، واعتلّ في احداها بأنّه يتهيّأ للخروج، أو أنّه يريد أن يبتاع أشياء، حتّى أُجبِر آخر الأمر، فخرج منها[٥]. ذكر اليعقوبيّ أنّهم أخرجوه من الكوفة، ولمّا انصرف رُسُل يوسف، انكفأ راجعاً إلى الكوفة[٦]. ونقل ابن أعثم أنّ رسل ابن عمر رافقوه حتّى منطقة العُذَيب، ثمّ قفلوا راجعين[٧]، ورجع زيد بن

---

١ .تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٣٢٥.

٢ .شرح النهج ١٥: ٢٧٥.

٣ .أنساب الأشراف ٣: ٢٣٦.

٤ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٨٨.

٥ .نفسه: ٤٨٧؛ مقاتل الطالبيّين: ٩١.

٦ .تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٣٢٦.

٧ .الفتوح ٨: ١١١.

عليّ بعدَهم إلى الكوفة، وطالت إقامته الأُولى بالكوفة أربعة أشهر[١].

ويدلّ خبر آخر على أنّ الشيعة كانت تتردّد عليه، إلّا أنّ الثورة لم تكن أمراً جادّاً، بخاصّةٍ أنّ أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة أصرّوا عليه ألّا يذهب[٢]، وتحدّثوا كثيراً في غدر أهل الكوفة[٣]. وهكذا توجّه إلى المدينة وهو يعاني من وطأة يوسف بن عمر من جهة، ومن التراخي في العمل من جهة أخرى. فشعر شيعة الكوفة بعد رحيله بأنّهم أضاعوا فرصةً ثمينة، فلحقوه، وأدركوه في القادسيّة، وحالوا بينه وبين الذهاب، وطلبوا منه أن يرجع إلى الكوفة فيقوّض الحكم الأمويّ بمؤازرة الشيعة... وقالوا له: «أين تذهب يا ابنَ رسولِ الله، وتَذَر الكوفةَ ولك بها مئةُ ألف سيف يقاتلون عنك بني مروان»؟![٤] وقالوا: «... وليس قِبلَك من أهل الشام إلّا عدّة قليلة، لو أنّ قبيلة من قبائلنا نحو مذحج أو هَمدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لَكَفَتْكَهم...»[٥]. فرجع معهم بعد أن أخذ منهم عهوداً كثيرة[٦].

وعاد إلى الكوفة متخفّياً، حتّى إنّ يوسف بن عمر لم يعلم بعودته الثانية إليها ردحاً من الزمن، إلى أن كتب إليه هشام يُعلمه بذلك، بعد أن وافاه بعض بخبر عودته[٧].

ومكث فيها أكثر من عشرة أشهر، أمضى منها شهرين في البصرة[٨]، وانهمك

---

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٨٨.

٢ ـ ذكر المؤلّف أنّهم أصرّوا عليه أن يذهب، والحال ـ وهو الحقّ ـ أنّهم أصرّوا عليه أن لا يذهب. المترجم.

٣ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٨٨، ٤٨٩؛ **أنساب الأشراف** ٢: ٢٣٣.

٤ ـ **الفتوح** ٨: ١١؛ **الفخري**: ١٣٢؛ **مقاتل الطالبيّين**: ٩١.

٥ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٨٧

٦ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٩١.

٧ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٠٤.

٨ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٩٢؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٧٣؛ **عمدة الطالب**: ٢٥٦.

أثناء هذه المدّة الطويلة نسبيّاً في دعوةِ مختلَف الناس، وكان مختفياً في بيوت شتّى[1]، فإمّا لم يعلموا بوجوده في الكوفة خلال هذه المدة، أو أنّهم لم يعثروا على مكانه. ونُقل أنّ يوسف بن عمر لم يصدّق برجوعه إلى الكوفة في بادئ الأمر مع جميع ما سمعه من تحذير هشام إيّاه باحتمال خروجه [ثورته] ، وكان يقول: «لقد كلّمتُ زيداً فرأيتُ ثَمَّ نُبلًا وعقلًا، ولم يكن ليُفسد نفسَه»[2]. ولمّا عرف تأهّب الكوفة للثورة، وأدرك أنّ زيداً يتهيّأ لنهضة ثوريّة بعد دعوى أهل السواد [العراق] - فلّاحي الأراضي الخصبة حوالَي الكوفة وسهول العراق - أمر بمراقبة الطرق وتفتيش كلِّ من يخرج من المدينة، لئلّا يصل كتابٌ من زيد إلى سائر الأرجاء[3].

وكان من أصحابه الأصليّين بالكوفة نصرُ بن خُزَيمة، الذي مكث عنده حيناً، ولمّا كان زيد في داره، كان الشيعة يأتونه من كلّ ناحية[4]. ومن مخابئه الأخرى بيت امرأة من الأَزْد، وكان قد تزوّجها أثناء وجوده بالكوفة[5]، ويُستشفّ من الأخبار المرتبطة بالأحداث التي تلت شهادتَه وجود امرأة أخرى كانت له بالكوفة مع ثلاثة أولاد.

وصارت البنود التي بايع الناسُ عليها زيداً أساساً للبيعات المتأخّرة في الثورات الزيديّة، وقد ورد بعضها في بيعة التوّابين وأتباع المختار أيضاً: إنّا نَدْعُوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، وجهادِ الظالمين، والدفعِ عن المُستضعَفين، و إعطاءِ المحرومين، وقَسمِ هذا الفيء بينَ أهله بالسّواء، وردِّ الظالمين، و إقفالِ المحمّرة،

---

١ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٣٧؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٢.
٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٣٢.
٣ ـ الفتوح ٨: ١١٤.
٤ ـ نفسه ٨: ١١٢.
٥ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٢؛ الفتوح ٨: ١١٣.

ونصرِنا أهلَ البيت على مَن نَصَب لنا وجَهِل حقَّنا[١]. وقد ذكر ابنُ أعثم هذه الفقرات أيضاً[٢]، ونقل أيضاً أحد كتب زيد، التي وقعت بيد جلاوزة يوسف بن عمر، وخاطب فيه الناس:... وقد عَرَفْتُم حالَكم الذي أنتُم عليه مِن الفتنة في دينِكم، والبلاء في معايشِكم، مِن أمرِ سفكِ الدماء، والاستئثارِ عليكم بفَيئِكم... وأنا أدعُوكم إلى كتابِ الله وسنّة نبيّه محمّدٍ ﷺ، والدفعِ عن المُستضعَفين، ومجاهدةِ الظالمين الذين انتبزوا أهلَ البيت، بيتِ نبيّ ربِّ العالمين[٣]. وكان زيد يُصرّ في دعوته على عدّة من النقاط التي كان بعضها ذا طابَعٍ دينيّ وبعضها ذا طابع اقتصاديّ، وكان يؤكّد تأكيداً خاصّاً لدفع الظلمِ الذي حلّ بأهل البيت فسلب حقوقهم. ولمّا كان أهل الكوفة مظنّةَ شكٍّ في رعاية عهودهم، فقد تشدّد زيد كثيراً في أخذ البيعة منهم وإلزامهم بمراعاتها[٤].

وكتب زيد، في تلك الفترة التي كان يعيش فيها متخفّياً، كتباً إلى مُحبّي أهل البيت ومعارفهم في سائر المدائن، يحضُّهم فيها على الجهاد مشيراً إلى جور بني أميّة وسوء سيرتهم... قال في أحدها: لا تقولوا خرجنا غَضَباً لكم، ولكن قولوا: خرجنا غَضَباً للهِ ودِينهِ[٥].

وأوفد مبعوثيه إلى الأمصار من أجل دعوة الناس إلى البيعة، فوجّه يزيدَ بن أبي

---

١ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٩٢؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٣٧، ٢٣٨. وذكر البلاذريّ «فضال المحمّرة» مكان «إقفال المحمّرة». قال الباحث الجليل الشيخ محمّد باقر المحموديّ في الهامش: «فإن صحّت فالمراد منه إحقاق حقوق مسلمي العجم الذين كانوا بالكوفة والعراق، فإنّهم كانوا محرومين مِن كثيرٍ من الحقوق العامّة الإسلاميّة». (المحمرة إشارة إلى الحُمرَاء). انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ٢٣٨.

٢ .**الفتوح** ٨: ١١٣.

٣ .نفسه ٨: ١١٦.

٤ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٣٨.

٥ .نفسه. ذكر المؤلّف: «ولرسوله» مكان «لدينه». والصحيح هو «لدينه». المترجم.

زياد إلى الرقّة، ولبّى جماعةٌ من أهلها دعوته[١]، وبايعه جماعة من أهل المدائن وواسط أيضاً، فراقب يوسفُ بن عمر طُرقَهما وبوّاباتهما بشدّة[٢]. وبعث عبدةَ بن كثير وحسن بن سعد إلى خراسان لأخذ البيعة من أهلها[٣].

وشارك بعض العلماء والفقهاء في ثورته بصورةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة، أو أنّهم قدّموا مساعداتهم لها بأشكال أخرى، ومن أشهرهم أبو حنيفة الذي كان من أعلام فقهاء العراق، والمبرّزين في مذهب القول بالرأي، وكان من الناحية السياسيّة نقيضاً للحكومة إبّان العصر الأمويّ والعبّاسيّ، فدعم زيداً في ثورته أيّام الحكم الأمويّ، كما دعم النفس الزكيّة في العصر العبّاسيّ. ولم يسعه، بوصفه مُرجئيّاً، ألّا يدافع عن مثل هذه الحركات، وإن كان الإرجاء مناوئاً للتشيّع ومناقضاً له، إلّا أنّه ثوريّ الحركة في طبعه. وأيّدت مصادر كثيرة عقيدة أبي حنيفة المرجئيّة[٤]. وبسبب مشاركته في المواقف المضادّة للحكومات اتُّهم بالجهميّة أيضاً[٥]. وقيل: إنّ المرجئة لم يعدلوا بزيدٍ أحداً[٦]. وأشرنا قبل ذلك إلى أنّ واضع أساس الجهميّة هو الجهم بن صفوان الذي كان من أصحاب الحارث بن سريج، الوجه الثوريّ في خراسان. وأُجبر أبو حنيفة طبعاً على عمل خوّله إيّاه المنصور[٧]. وأيّد محمّد بن جعفر بن محمّد عليه السلام خبر اشتراكه في ثورة زيد بصورة غير مباشرة[٨]. ونُقل عن

١ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٩٩.

٢ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٤٠.

٣ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ١٠٠.

٤ ـ **جامع بيان العلم** ٢: ١٨٢؛ **تاريخ جرجان**: ١١١؛ **المجروحين** ٣: ٦٣؛ **المعارف**: ٢٦٨. وتحدّثنا حول هذا الموضوع مفصّلًا في [المرجئة تاريخاً وفكراً] المطبوع في المقالات التاريخيّة، الدفتر العاشر.

٥ ـ **تاريخ بغداد** ٢: ١٧٩؛ **تاريخ جرجان**: ٢٢٥.

٦ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٨٧.

٧ ـ **نور القبس**: ٣٠٨.

٨ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٩٩.

الزمخشريّ أيضاً أنّه [أبو حنيفة] كان يحضّ الناس على المشاركة في ثورته[١]. وقال البلاذريّ: «وبعث [زيد] إلى أبي حنيفة، فكاد يُغشى عليه فَرَقاً! وقال: من أتاه من الفقهاء؟ فقيل له: سَلَمة بن كُهَيل، ويزيد بن أبي زياد، وهاشم البريد، وأبو هاشم الرمّانيّ، وغيرهم. فقال: لستُ أقوى على الخروج. وبعث إليه بمالٍ قوّاه فيه»[٢]. ونقل الأصفهانيّ هذا الخبر أيضاً، وأورد أنّ أبا حنيفة قال للفضل بن الزبير: «قل لزيد: لك عندي معونة وقوّة على جهاد عدوّك، فاستعن بها أنت وأصحابك في الكُراع [اسم لجماعة الخيل] والسلاح؛ ثمّ بعث ذلك معي إلى زيد، فأخذه زيد»[٣].

وكان منصور بن المُعتمر من الفقهاء الذين يحضّون الناس على معاونته[٤]، وقيل بشأنه: فيه تشيّعٌ قليل[٥]، ونسبه البعض إلى الخشبيّة، وهو الاسم الذي اصطُنع لأصحاب المختار[٦]. والطريف أنّ زيداً كان يرغب حتّى في الزهريّ العالم المنتمي إلى البلاط الأمويّ، فأراد منه الخروج معه، فقال له الزهريّ: «أمّا ما دام هشامٌ حيّاً فلا، فإن أخّرتَ الخروج إلى ولاية الوليد خرجتُ معك»[٧]. وكان الزهريّ من أقرب الناس إلى هشام، مع هذا، جاء في خبرٍ أنّه لمّا أُخِذ رأسُ زيدٍ إلى هشام، قال الزهريّ: أهلكَ أهلَ هذا البيت العجلةُ، فسأله راوي الخبر: أَوَ يملكون؟ قال: حدّثني عليُّ بن الحسين، عن أبيه، عن فاطمة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال لها: المهديُّ

١ .الكشّاف ١: ٢٣٢.

٢ .أنساب الأشراف ٣: ٢٣٩.

٣ .مقاتل الطالبيّين: ٩٩ ـ١٠٠.

٤ .نفسه .

٥ .تذكرة الحفّاظ ١: ١٤٣.

٦ .الطبقات الكبرى ٦: ٣٣٧.

٧ .أنساب الأشراف ٣: ٢٣٩.

مِن وُلْدِكِ[١]. وأجاب هلالُ بن حباب، الذي كان يومئذٍ قاضي المدائن، زيداً وبايعه[٢]، واختلفت الروايات في مشاركة سلمة بن كُهَيل زيداً في ثورته[٣].

وكان الأعمش من أكابر فقهاء العراق وأعلامهم، وكان ذا نزعة شيعيّة... قال عثمان بن عُمَير: أرسلني زيد بن عليّ إليه أدعوه إلى نصرته والجهاد معه، فقال لي: «ما أعرَفَني بفضله! أقرِئْه منّي السلام» وقل له: «يقول لك الأعمش: لستُ أثق لك - جُعلتُ فداك - بالناس، ولو أنّا وجدنا لك ثلاثمئةِ رجلٍ أثقُ بهم لَغيّرنا لك جوانبها»[٤].

وبلغ عدد الذين بايعوه وأُحصِيت أسماؤهم في الديوان خمسة عشر ألفاً سِوى من كان قد بايعه في: المدائن، والبصرة، وواسط، والموصل، وخراسان، والريّ، وجرجان، والجزيرة[٥].

وكان من المبايعين عدد كبير من الوجوه المعروفة، حتّى قال المسعوديّ: «فمضى عليها إلى الكوفة وخرج عنها، ومعه القرّاء والأشراف»[٦]، وإن جُهِل عددُ مَن لَحِق به منهم عند نشوب الحرب. وكان من المبايعين جماعةٌ من الخوارج أيضاً.

ومن الضروريّ أن نوضّح هنا أنّ زيداً أزمع بحركته المنفتحة هذه أن يستقطب شرائح متنوّعة. وسنتحدّث حول ذلك في مناسبة أخرى. وتدلّ شواهد عدّة على أنّ الخوارج أرادوا كسائر الفرق أن يستغلّوا موقع زيد، وعددهم غامض طبعاً... قال البلاذريّ: «ولمّا قدم زيد الكوفةَ أقبلت الشيعة تختلف إليه، وأتته المحكّمة

---

١ ـ مقاتل الطالبيّين: ٩٧ ـ ٩٨.

٢ ـ نفسه: ٩٩.

٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٣٩.

٤ ـ مقاتل الطالبيّين: ١٠٠؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٣٩.

٥ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩١؛ الفخريّ: ١٣٢ ـ ١٣٣؛ مقاتل الطالبيّين: ٩٢.

٦ ـ مروج الذهب ٣: ٢٠٧.

الخوارج] أيضاً، فبايعوه جميعاً حتّى أُحصِيَ في ديوانه خمسة عشر ألفاً، ويقال: اثنا عشر ألفاً من أهل الكوفة خاصّة سوى أهل المدائن، والبصرة...»[١]، وذكر ابن بة، الذي كان زيديّاً، هذا الخبرَ أيضاً[٢].

نقل الحميريّ، وهو من مؤرّخي الزيدية، عن السيّد أبي طالب في كتاب «الدعامة» أنّ طوائف الناس، على اختلاف آرائهم، اجتمعت على مبايعة زيد، فلم يكن الزيديّ أحرص عليها من المعتزليّ، ولا المعتزليّ أسرعَ إليها من المرجيّ، ولا المرجيّ من الخارجيّ، فكانت بيعته عليه السلام مشتملة على فِرق الأمّة مع اختلافها[٣].

قل شعراً لأحد الخوارج، كان قد أنشده في رثاء زيد، أشار فيه إلى مشاركة شتّ الفرق في ثورته، وأكّد أنّ أهل الكوفة خذلوه، في حين لو كان معه الخوارج لنصروه:

يا أبا حسينٍ لو شُراةُ عِصابةٍ   عَلَقتْكَ لكان لِوِرْدِهم إصدارُ[٤]

ويلوّح هذا البيت بغياب الخوارج عن زيد، وإن يستبين تعاطفَهم.

قتال زيد بن عليّ للقوّات الأمويّة

بذل يوسف بن عمر قصارى مساعيه في البحث عن زيد، منها: أنّه دسّ مملوكاً له وأعطاه مبلغاً من المال، وأمره أن يتّصل بالشيعة، ويتظاهر لهم بأنّه قدم مـ خراسان حبّاً لأهل البيت عليهم السلام، فلم يزل يتدسّس حتّى أُدخِل على زيد[٥]. وجمع يوسف الناس في المسجد بأمر هشام، وأحلفهم رجلًا رجلًا على خبره ليوافوه بمكانه[٦].

---

١ .أنساب الأشراف ٣: ٢٣٧.

٢ .عمدة الطالب: ٢٥٦.

٣ .الحور العين: ١٨٥ - ١٨٦.

٤ .نفسه ١٨٧.

٥ .أنساب الأشراف ٣: ٢٤٤؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٥٠٥.

٦ .أنساب الأشراف ٣: ٢٣٢.

وأدّت هذه الإجراءات إلى أن يخرج زيد قبل الأجل الذي كان ضربه مع أصحابه، ويبدأ عمله قبل الموعد المقرّر بأسبوع في الأقلّ. وأمر يوسف بن عمر- في يوم الثلاثاء الذي بدأت الثورة في آخره- جميعَ الناس الذين يُظَنُّ خروجهم مع زيد، وكذلك وجوه أهل الكوفة، أن يجتمعوا في المسجد، «ونادى مناديه: أيّما رجلٍ من وجوه العرب والموالي أدركناه في رحله اللّيلة، بَرِئَت منه الذمّة، ائتُوا المسجد الأعظم. فأتوا المسجد»[١]. وهذا ما حال بين زيدٍ وبين الناس حتّى صعب عليهم التلاقي[٢]. وخرج زيد من دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة ليلة الأربعاء، وكانت ليلةً شديدة البرودة، ومعه ثمانية عشر رجلًا من أصحابه، وأوقدوا ناراً عظيمة. وأُغلِق باب المسجد بوجه الناس الذين كانوا فيه، ولم يأذن عمّال الحكومة بخروج أحدٍ منه، وارتفعت الضجّة والتكبير من كلّ ناحية؛ والتحق بزيد مَن استطاع من الناس[٣].

واختلفت الأخبار في عدد الملتحقين به تلك اللّيلة وغدها، فخبرٌ يقول: كانوا أربعمئة[٤]، وآخر يقول: مئتين وعشرين[٥]، وثالث ذكر أنّهم ثلاثمئة[٦]. ونُقل عن عوانة أنّ عدد أصحاب زيد كان مئتين وخمسين رجلًا[٧]، وجاء في خبر آخر أنّ أربعَمئةٍ اجتمعوا إلى زيد في أوّل اللّيل، ثمّ أصبح وهم أقلُّ من ثلاثمئة[٨]! وذكر سعيد بن

١ .نفسه ٣: ٢٤٣؛ مقاتل الطالبيّين: ٩٢؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٩.

٢ .مقاتل الطالبيّين: ١٠٠.

٣ .الفتوح ٨: ١١٧؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٤٣؛ وانظر: تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٩.

٤ .أنساب الأشراف ٣: ٢٤٣.

٥ .الفتوح ٨: ١١٨؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٥٠٠، وعددهم فيه ٢١٨؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٤٤.

٦ .عمدة الطالب: ٢٥٧.

٧ .أنساب الأشراف ٣: ٢٤٩.

٨ .نفسه .

خَيثم الذي كان مع زيد أنّ عددهم كان خمسَمئة[1].

ولا حاجة لنا هنا إلى سردٍ مفصّل للمناوشات التي حدثت خلال يومين، فقد نقل أبو الفرج الأصفهانيّ وغيره أخبارها، فنسرد نحن فيما يأتي أهمّ أحداث اليومين المذكورين.

إنّ الشعار الذي اختاره زيد عند صولته على العدوّ هو: «يا منصورُ أَمِت»، وهو عين الشعار الذي نادى به رسولُ الله ﷺ يومَ بدر. وزيد نفسه روى الحديث القائل: إنّ شعار النبيّ ﷺ في بدر كان «يا منصورُ أَمِت»[2]؛ لذلك اختاره شعاراً له أيضاً[3]، واستُخدم كذلك في سائر الثورات التي تفجّرت لاحقاً. ولمّا شعر زيد بتكرار تجربة أهل الكوفة في خذلانهم الإمامَ الحسين عليه السلام، نادى: فَعَلُوها حسينيّة[4]!

وأشرنا في موضعٍ سابقٍ إلى أنّ الكوفة أُناسٌ عُجُلٌ، إذْ ما كان أسرعهم في الندم على أمرٍ كانوا يعتزمونه متعجّلين، لكنّ مشكلتهم في هذه المرّة ليست الغدر والخيانة، بل الحصار؛ لأنّهم حُوصِروا في المسجد الأعظم فلم يتيسّر لهم مرافقة زيد والخروج معه، إذ لم تسمح الحكومة لأحدٍ بالخروج من المسجد. وكان زيد بأمسّ الحاجة إلى مؤازرة المبايعين في تلك الظروف، ولمّا بلغه خبر الناس، لم يستصوب عذرهم، وقال: لا والله، ما هذا لمَن بايعنا بِعُذر[5]! وأخبر زيدٌ، في بداية تحرّكه العسكريّ، نصرَ بن خزيمة الذي كان من أقرب أنصاره إليه منذ البداية، بخوفه من تكرار حادثة كربلاء بقوله: فَعَلُوها حُسينيّة، بيد أنّ نصراً قال له: الناس محصورون

---

١. مقاتل الطالبيّين: ٩٥.

٢. شرح النهج ١٤: ١٣٣.

٣. مقاتل الطالبيّين: ٩٢؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٤٦؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٩؛ الطبقات الكبرى ٢: ١٠٦.

٤. تاريخ مختصر الدول: ١٦١.

٥. مقاتل الطالبيّين: ٩٣.

في المسجد ولم يَدعوهم يخرجوا منه. فعزموا على مهاجمة المسجد وتخليص الناس[١]، لكنّ الجيش الأمويّ الذي كان على سطح المسجد جعل يرمي الناسَ وأصحابَ زيد من فوق المسجد بالحجارة، ولم يُسمَح بفتحَ باب المسجد[٢]، فاقترب أصحاب زيد من المسجد بقوّة ونادوا: يا أهل المسجد، أخرُجوا من الذُّلِّ إلى العزّ، ومن الضلالة إلى الهُدى[٣].

ومن المحتمل أنّ بعض الناس الذين كانوا يستطيعون المساعدة أحجموا عنها يومئذٍ، لكنْ - كما أُشير- كان هناك عذر في الأقلّ لمن كان في المسجد، أمّا الباقون فلم يجرؤوا على الخروج من بيوتهم خوفاً من جلاوزة الحكومة أن يقتلوهم، فحينئذٍ لم ينبغِ لهم أن يخدعوا زيداً بذلك الشكل. وحين استغاث الناسَ في كُناسة الكوفة، لم يُجبه إلّا اثنان أو ثلاثة[٤]! وكان يقول، وهو يقرّ بأنّ بعض الناس محصورون في المسجد: أين الباقون لا يخرجون إلينا[٥]؟! وذكر ابن أعثم كلام رجالٍ كانوا يسمعون استغاثة زيد وهم في بيوتهم، فلم يخرجوا[٦].

وكان قتال زيد الأصليّ مع أهل الشام مباشرة، على عكس حادثة كربلاء. وكان هؤلاء قد أُوقفوا في الكوفة لمثل هذه الأوقات، وتمكّن زيد في القتال الذي خاضه خلال يومين أن يقضي على القسم الأعظم من القوّات الشاميّة، لكنّه لم يتيسّر له أن يقوم بعملٍ- كما هو طبيعيّ- أمامَ اثني عشر ألفاً من أهل الشام[٧] وصفوفهم المكثّفة

١ ـ نفسه ٩٤؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٤٧؛ **الفتوح** ٨: ١١٩؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٠٠ ـ ٥٠١.

٢ ـ **الفتوح** ٨: ١٢٠، **مقاتل الطالبيّين**: ٩٤.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٤٧.

٤ ـ نفسه ٣: ٢٤٦.

٥ ـ **الفتوح** ٨: ١١٩.

٦ ـ نفسه ٨: ١١٩.

٧ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٩٥.

التي لم يستطع رجالها أن يلووا أعناقهم[١]. ولمّا كان هشام قد بلغه تهيّؤ زيد، بعث ثمانية آلافِ رجل لإسناد يوسف بن عمر مضافاً إلى ما كان من أهل الشام في العراق من قبل[٢].

وجاء في خبرٍ أنّ نساء الكوفة عرضن على زيد أن يخرجن فيقاتلن معه! فقال: «... فَوَاللهِ ما تُرجى رجالُكم، فكيف النساء»[٣]؟! وقيل: إنّ رجلًا من أهل الشام شتم، أثناء القتال، فاطمةَ صلوات الله وسلامه عليها، فجعل زيد يبكي حتّى ابتلّت لحيتُه، وجعل يقول: أما أحدٌ يَغضَبُ لفاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ؟![٤] وزادت محنة زيد حين بعث إليه يوسف بن عمر ألفاً وثلاثمئة من الرُّماة الماهرين المعروفين بالقيقانيّة، وهم من أهل السِّند، فرموا مَن تبقّى من أصحاب زيد بسهامهم[٥]!

وخصّص يوسف بن عمر ألف دينار لمن يأتيه برأس زيد بن عليّ...[٦] ونقل ابن أعثم أنّ زيداً حمل عليهم كاللّيث المُغضب، ولم يُشابه في حملاته إلّا جدَّه الحسين عليه السلام، حتّى وقع سهمٌ في جبهته[٧]، فحُمل بعد جرحه إلى دار رجل من هَمْدان - احدى قبائل العراق الشيعيّة - وأُتي بالطبيب لينزع السهم من جبهته، فلمّا نزع السهم شَهِق شهقةً فارق الدنيا فيها[٨]، وكان له من العمر عند شهادته

---

١ .**عمدة الطالب**: ٢٥٧.

٢ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٤٨.

٣ .نفسه ٢: ٢٤٧.

٤ .**مقاتل الطالبيّين**: ٩٦.

٥ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٤٦. وسمّاهم الأصفهانيّ في مقاتله (ص٩٦): نجّاريّة. [لكنّ العدد في الأنساب ألفان وثلاثمائة لا ألف وثلاثمائة كما ذكر المؤلّف. المترجم].

٦ .نفسه٣: ٢٤٨.

٧ .**الفتوح** ٨: ١٢١.

٨ .نفسه ٨: ١٢١؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٥٠.

اثنتان وأربعون سنةً[١]. ولم يُفتَح باب المسجد ويخرج الناس إلّا بعد شهادته[٢].

وتتبّع يوسف بن عمر جسده ليبعث برأسه إلى هشام... واختلفت الأخبار في مَن دلّه عليه، فقيل: غلامُ زيد الذي كان سِندياً، وقيل: غلامٌ آخر، وقيل: هو الحجّام الذي أُتيَ به لنزع السهم من رأسه... وأيّاً كان، فقد عُرِف مدفنه[٣]، وأُخرج وبُعث برأسه إلى هشام، وصُلِب جسده في كُناسة الكوفة، وصُلب معه أيضاً أصحابه المقرّبون: نصرُ بن خُزَيمة، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة، وزياد بن عبد الله الفِهريّ[٤].

وغضب يوسف بن عمر أشدّ الغضب على أهل الكوفة وهدّدهم في المسجد، وبدأ يشتم أهل البيت! ثمّ أمر بتفتيش دُور الكوفة جميعها، وقتل أو حرق كلّ من وجده جريحاً[٥]، كما فعل ذلك بكلّ من أسره.

وممّن أُتيَ به إليه امرأةُ زيد، وقد عرّوها، وجلدوها بالسياط حتّى استُشهدت[٦]! وقُتِل عبد الله بن يعقوب الذي كان أعطى يحيى بنَ زيد بنتَه[٧]، وجلد يوسف بن عمر المرأة التي طلبت من أمّها أن تُؤوي ابنةَ زيد خمسمئة سوطٍ! وخرّب بيوتاً كثيرةً[٨]! وأمر أيضاً بقطع يد المرأة التي قوّت زيداً على أمره، وقطع رِجلها، وضرب

---

١ .مقاتل الطالبيّين: ٨٨.

٢ .أنساب الأشراف ٣: ٢٥١.

٣ .انظر: عمدة الطالب: ٢٥٧؛ مروج الذهب ٣: ٢٠٧؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٥٠٣؛ الفتوح ٨: ١٢٢؛ مقاتل الطالبيّين: ٩٧؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٥٠ .٢٥١.

٤ .الفتوح ٨: ١٢٢.

٥ .نفسه ٨ : ١٢٣؛ وانظر: تاريخ الطبريّ ٥: ٥٠٤.

٦ .الفتوح ٨: ١٢٣؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٥٥.

٧ .أنساب الأشراف ٣: ٢٥٥.

٨ .نفسه.

عنق زوجها[١]! ووكّل بجسد زيد أربعمئة رجل يحرسونه، ينوب في كلّ ليلة مئة رجل لئلّا يأخذه أحد[٢]. ولمّا بلغ الوليدَ بن يزيد خبرُ قيام يحيى بن زيد بن عليّ و شهادته بعد مضيّ أربع سنين على شهادة أبيه، أمر بإحراق زيد، وذرّ رماده في الهواء أو إلقائه في الفرات[٣]. وبقيت لزيد أمّ ولد ومعها ثلاثة أولاد لها، فأمر هشام أن يُدفعوا إلى الفضل بن عبد الرحمان من بني عبد المطّلب[٤].

وأمر هشام بدفع أُعطيات أهل الكوفة على الرغم من غضبه الشديد لثورة زيد[٥]! إلّا أنّه حظر على أهل مكّة والمدينة أُعطياتهم سنةً واحدةً[٦]. وكتب إلى عامله على البصرة القاسم بن محمّد الثقفيّ «أن يُشخص كلَّ مَن بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفاً من خروجهم، وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوماً منهم، وأن يعرضهم في كلّ أسبوع مرّةً، ويقيم لهم الكفلاء على ألّا يخرجوا منها»، فأنشد الفضل بن عبد الرحمان قصيدة طريفة له في هذا الحُكم:

كلَّما حُدِّثوا بأرضٍ نعيقاً ... ضَمّنُونا السجون أو سَيَّرُونا
أشْخَصُونا إلى المدينة أَسرى ... لا كفاهُم ربّي الذي يَحذَرونا[٧]

ونُقل عن ابن أبي الزناد «فقيه المدينة» وكان من أذناب بني أميّة، أنّه قال في هشام بن عبد الملك: «ما كان فيهم [ملوك بني أميّة] أحدٌ أكره إليه الدماء من هشام بن عبد الملك، ولقد ثَقُل عليه خروج زيد بن عليّ، فما كان شيء حتّى أُتيَ

١ ـ نفسه.

٢ ـ نفسه ٣: ٢٥٦.

٣ ـ **مروج الذهب** ٣: ٢٠٧؛ **عمدة الطالب**: ٢٥٨؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٥٧؛ **تاريخ الطبري** ٥: ٥٣٨.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٥٨.

٥ ـ **الفتوح** ٨: ١٢٤؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٥٩.

٦ ـ **الأغاني** ٧: ٢٢.

٧ ـ **شرح النهج** ٧: ١٦٥.

برأسه، وصُلب بدنه بالكوفة»[1]. ودعوى كراهية هشام للدماء كذب صراح.

وجاء في مصدر آخر «أنّ الناس كانوا معه [مع هشام] في دَعَةٍ وسكون وراحة، لم يخرج عليه خارج... إلّا ما كان من قيام زيد بن عليّ بن الحسين في بعض نواحي الكوفة»، إلى أن فصَلَ الحاكم رأسَه عن بدنه[2]! والقول بهدوء الوضع في عهد هشام قولٌ مجانب للصواب، فمِمّا اتّفق في عصره قيامُ الخوارج بثورات عديدة، يضاف إليه أنّ خراسان هاجت على الأمويّين كالبحر الغاضب، وثار فيها الحارث بن سريج... فكيف يمكن القبول أنّ العصر كان عصرَ هدوءٍ وسكون؟

وذهب اليعقوبيّ إلى أنّ خروج زيد حرّك الشيعة بخراسان، «فظهر أمرهم، وكثر مَن يأتيهم ويميل معهم، وجعلوا يذكرون للناس أفعالَ بني أميّة، وما نالوا من آل رسول الله، حتّى لم يبقَ بلدٌ إلّا فشا فيه هذا الخبر، وظهرت الدُّعاة...»[3].

زيد بن عليّ عليه السلام والزيديّة والإماميّة

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ الزيديّة تُعدّ حراكاً منحرفاً عن سياق التشيّع. وبلغ هذا الانحراف مبلغاً بحيث تفاقم الصدع بين الشيعة وتدهورت فيه علاقات الشيعة الإماميّة والزيديّة بشدّة، وقذف أحدهما الآخر بكلمات نابية، وذلك في أواخر عهد الإمام الصادق عليه السلام.

وإذا كنّا لم نقرّ بأن زيداً كان مؤسّس الزيديّة بالمعنى الدقيق للكلمة، لكن يمكن لنا أن نقول: إنّ لما نُسب إليه - وهو غير صحيح قطعاً - دوراً استُغِلَّ في تأسيس هذه الفرقة، وهذه أهمّ قضيّة يتعيّن علينا أن ندرسها ونحلّلها هنا. فالذي

١ .الطبقات الكبرى ٥: ٣٢٦.

٢ .الإمامة والسياسة ٢: ١٢٥.

٣ .تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٢٦.

يؤكّده الزيديّة تأكيداً ويركّزون فيه تركيزاً - ويعبّرون عنه بأشكال متنوّعة طبعاً - هو أنّه لم يُنصَب أحد من أهل البيت بعد أمير المؤمنين والحسنَين عليهما السلام نصباً خاصّاً على وجه التعيين، وإن كان لأهل البيت تفضيلٌ خاصّ على غيرهم. وشرط الإمامة عندهم القيام بالسيف، فأيّ رجلٍ من أهل البيت قام به، كان للإمامة أهلًا. وأدّى هذا التصوّر إلى فقدان الزيديّة حسّاسيّة الشيعة الإماميّة بشأن الإمامة، بل إلى حمل نظرة متساهلة إلى الشيخين، أي أبي بكر وعمر. فلا إشكالَ خاصّاً عليهما في سائر الأمور، عندهم، وإن منعا عليّاً عليه السلام من تولّي الخلافة!

وسبّب هذا التساهل تعزيز علاقات الزيديّة بعلماء أهل السنّة الذين كان لهم ميل إلى شيعة العراق، وكانت له آثاره الفكريّة والفقهيّة الخاصّة... على سبيل المثال، نراهم في العقائد خاضعين للنظام الفكريّ المعتزليّ خضوعاً تامّاً، وفي الفروع الفقهيّة لرأي أبي حنيفة الذي كان سائداً في العراق، فلم يبق في هذا المجال إلّا عدد من الأحكام الفقهيّة الشيعيّة. ومهما كان، فإنّ الباعث على هذا الوضع يمكن أن يكون تساهلهم في الإمامة، وهو الذي ربطهم بالسنّة وأقرّ علاقتهم بهم. ومن السذاجة أن نظنّ أنّ الزيديّة استسلموا بيُسرٍ وسهولة، فهم كانوا يرون أنفسهم مستقلّين لقرونٍ من الزمن، كما كانوا عازمين على الاحتفاظ بهويّتهم الشيعيّة.

هل يمكن أن يكون منشأ هذه الرؤية في الإمامة أفكار زيد ومواقفه؟ فهذا ما يتعيّن علينا أن نبحث فيه، ونحن نرى في الكتب التي صُنّفت أخيراً حول حياة زيد بن عليّ - وأهمّها زيد الشهيد للمرحوم عبد الرزّاق المقرّم؛ وسيرة وقيام زيد بن عليّ [سيرة زيد بن عليّ وثورته] الكتاب الثمين للمرحوم الدكتور كريمان - أنّ زيداً كان بريئاً من ملاحاته لأخيه وابن أخيه في الإمامة، بل بالعكس، كان يعتقد إمامتهما. ويُلحَظ في هذه الكتب نبذُ الروايات التي تقدح فيه، وذكر الروايات التي

تمدحه أو التي تبيّن اعتقاده بإمامة الأئمّة الاثني عشر. ولكن يجب ألّا نظنّها كلّها صحيحة، وإن أُقيمت الأدلّة على صحّتها، بل يستلزم مراعاة دقّة أكثر في هذا المجال. وتوجد أدلّة جمّة على ما يخالف هذا الرأي حتّى إنّنا لا نستطيع أن نمرّ عليها مرور الكرام، إلّا أن نغضّ الطرف عنها من وحي الاحتياط، أو من باب «اذكروا موتاكم بالخير»[1].

ومن الملاحظات التي نقلها كثير من المصادر: حواره للشيعة الإماميّة في بداية نهضته، ويحوم هذا الحوار حول رؤيته في الشيخَين. وعلى الرغم من أنّ بعض المصادر السنّيّة التي نقلت الخبر حاولت تغييره في بعض أشكاله ليصبّ في مصلحة مذهبها، لكنّنا ينبغي ألّا نحسبه دليلاً على بطلان أصله. جاء فيه: «اجتمعت إليه جماعة من رؤوس المبايعين، فقالوا: رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعتُ أحداً من أهل بيتي يتبرّأ منهما، ولا يقول فيهما إلّا خيراً. قالوا: فلِم تَطلب إذاً بدم أهل هذا البيت إلّا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم.

فقال لهم زيد: إنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم: إنّا كنّا أحقَّ بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإنّ القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، قد وَلُوا فَعَدلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسنّة. قالوا: فلم يظلمك هؤلاء، إذا كان أولئك لم يظلموك، فَلِمَ تدعو إلى قتال قومٍ ليسوا لك بظالمين؟ فقال: إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك، إنّ هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنّما ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وإلى السنن أن تُحيا وإلى البِدَع أن تُطفأ، فإن أنتم أجبتمونا سُعدتم، وإن أنتم أبيتم، فلستُ عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته،

---

١ .قال الأشعريّ: وجميع فرق الزيديّة مذاهبهم في الأحكام والفرائض والمواريث مذاهب العامّة. **المقالات والفرق**: ١٩.

وقالوا: سبق الإمام». وقال الراوي موضحاً بأنّ محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام كان ميّتاً يومئذٍ، وأنّ ابنه جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام كان حيّاً: «فقالوا: جعفر إمامنا اليوم بعد أبيه، وهو أحقُّ بالأمر بعد أبيه، ولا نتّبع زيدَ بن عليّ، فليس بإمام. فسمّاهم زيد: الرافضة، فهم اليوم يزعمون أنّ الذي سمّاهم الرافضة المغيرة بن سعيد»[1].

ونقل الحِميريّ هذا الخبر نفسه أيضاً، لكنّه لموقفه الزيديّ المتطرّف ذكر أنّ زيداً أخذ عنوان الرافضة من حديث رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله! وسنتحدّث عن هذا الموضوع لاحقاً. وجاء في خبر الحميريّ أنّ المعترضين قالوا لزيد: «لأنّ هؤلاء [بني أميّة] إنّما تبعوا في ذلك [أي غَصْب حقّكم] سُنّة أبي بكر وعمر»[2]. ونقل صاحب (الفتوح) ما يُشبه هذا الخبر أيضاً، والنقطة التي أضافها هي أنّ الشيعة المذكورين تركوا زيداً وصاروا إلى جعفر بن محمّد بالمدينة، وأعلموه بما قال زيد، فأمرهم بالرجوع إليه[3].

ونقل البلاذريّ مثل الذي أورده الطبريّ، وفي سياق إشارته إلى أنّهم قالوا لزيد: إمامنا بعد محمّد بن عليّ ابنُه جعفر، ذكر أنّ زيداً طلب منهم أن يوجّهوا إلى أبي جعفر [الإمام الباقر] رسولًا، فإن أمرهم بالخروج معه خرجوا، «فاعتلّوا عليه ثمّ قالوا: لو أمرنا بالخروج معك ما خرجنا؛ لأنّا نعلم أنّ ذلك تقيّة منه واستحياء منك»![4] ولن يعاضدوه طبعاً. ومن الحريّ بالذكر هنا هو أنّ تتمّة الخبر مختلَقَة؛ لأنّه لم يدقّق في أنّ «أبا جعفر» عليه السلام لم يكن حيّاً يومئذٍ، بل الحيّ هو ابنه «جعفر» عليه السلام. ومن المحتمل أيضاً أنّ لفظ «أبي جعفر» ورد مكان لفظ «جعفر» سهواً.

---

١ .تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٨.

٢ .نفسه؛ الحور العين: ١٨٥.

٣ .الفتوح ٨: ١١٦ ـ ١١٧.

٤ .أنساب الأشراف ٣: ٢٤٠.

ولا يمكن الشكّ، كما يظهر، في قصّة هذا النقاش، بيد أنّ الواضح البيّن هو أنّ المؤرّخين المغرضين حاولوا أن يعرّفوا زيداً كرجلٍ غير ذي موقف شيعيّ، ويتّخذوا من هذا الموضوع ذريعة لتبكيت «الروافض» الذين هم الشيعة الإماميّة أنفسهم. وبلغ هذا التحريف درجةً أنّ كاتباً من الكتّاب قال بعد نقل ما حُرّف: «رماه الروافض بسهمٍ في جبهته... وهم الذين دلّوا عليه ليُخرجوه [من قبره] ويصلبوه، وسلّموه زوجته لتُقطع يداها وهكذا فعل الروافض مع عليّ، والحسن، والحسين وأولاده»[1]. ونقل البعض عنه أنّه قال: «البراءة من الخلفاء الثلاثة البراءة من عليّ، وعكسه أيضاً»[2]. مع أنّ الجليّ المبين هو أنّه كان يرفض الخليفة الثالث مطلقاً. ومهما كان، فقد اشتملت مصادر أُخرى أيضاً على خلاصة رأيه في تسمية المخالفين رافضةً[3].

ومن الضروريّ هنا مناقشة نقطتين حول ما ورد في هذه الأخبار؛ الأُولى: أكان ما نطق به زيد تقيّةً حقّاً وعزماً منه على جمع القوى والطاقات المختلفة، أم كان ذلك رأيه الحقيقيّ الذي دافع عنه بصراحة؟ الأُخرى: أكان سبب تسمية الشيعة بالروافض هو نفس السبب الوارد في الخبر، أم كان شيئاً آخر؟

يدور حديثنا الأوّل حول تقيّة زيد... إنّنا حتّى لو فرضنا أنّ زيد بن عليّ لم يعتقد في باب الإمامة شخصاً مفترَض الطاعة من أهل البيت عليهم السلام بعد الإمام الحسين عليه السلام، فمِن المستبعَد جدّاً أن يمجّد الخليفتَين الأوّلَين أو يمدحهما. وعلى الرغم ممّا حاوله رواة أهل السنّة من نقل بعض الآراء عن رجالٍ من أهل البيت، بل عن أئمّة الشيعة في تمجيد الشيخَين بنحوٍ من الأنحاء، فإنّ عندنا تعبيرات كثيرةً

---

١ .نقل عبد الجليل الرازيّ القزوينيّ (**النقض**: ٣٧٥) الخبر المذكور عن كتاب «**بعض فضائح الروافض**» ونَقَدَهُ. وورد مثل هذا الكلام المتعصّب في كتاب «**منهاج السنّة**» (٢: ١٢٦) أيضاً.

٢ .**تاريخ بغداد** ٢: ٨٩.

٣ .**عمدة الطالب**: ٢٥٧؛ **نسب قريش**: ٦١؛ **تاريخ مختصر الدول**: ١١٦؛ **المحبّر**: ٤٨٣؛ **لسان العرب** ٧: ١٥٨؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٤٦.

جدّاً في ذمّهما، وليس هذا فحسب، بل ـ كما صرّح به مناهضو زيد في تلك اللّحظة ـ أنّ الأساس الاعتقاديّ للشيعة هو أنّ خلافتهما (أبي بكر وعمر) لم تكن شرعيّة، فهم كانوا يرونها ظلماً، أصبح فيما بعد منطَلَقاً لأخطاء سياسيّة أخرى، منها تسلّط بني أميّة! ورأَينا أنّ هذا قد جاء في كلام المعترضين على زيد، فكيف يمكن أن يتفوّه زيد بذلك؟! و إذا كان لم يعتقد شرعيّتهما حقّاً، فربّما نشأ تأييده المؤقّت لهما من ضرورة خاصّة. فهو قد ثار بالكوفة وكان يفكّر - صحيحاً كان تفكيره أم خطأً - بتعبئة جميع القوى والطاقات ضدّ الحكومة الأمويّة. فلم يجد في مثل تلك الظروف ضرورةً باتّخاذه موقفاً مضادّاً للشيخين، في تنفير عدد غفير من الناس الذين كان يمكنهم إعانته ومؤازرته. فقد كان يرجو حتّى متابعة الخوارج إيّاه أيضاً. فمن الطبيعيّ أنّه لو صرّح بموقفه الحقيقيّ، لنفّر عنه جميعَ الناس غير الشيعة المعارضين للحكم الأمويّ. وربّما يكون قد ارتكب خطأً في هذا المجال، إذ يستعين بهذه القوى، ويتسلّم زمام الحكم بدعمها. بيد أنّه لو كان هدفه الثورةَ، فلا يتسنّى له أن يحقّق هدفه بدونها.

وما زلنا عاجزين عن أن نجزم بأنّ زيداً لم يعتقد الاعتقاد المذكور حقّاً مع وجود التوضيحات والتوجيهات المتقدّمة، إلّا أن نفترض أنّ الشيعة الإماميّة الذين تفرّقوا عنه لم يلتفتوا إلى التقيّة التي انتهجها. لكن ثمّة أدلّة تؤيّد هذه التقيّة، ومن هذه الأدلّة أعمال بني العبّاس الاحترازيّة، فقد كانوا على انسجام مع العلويّين، وأُولي عقائد شيعيّة في بداية أمرهم، فلمّا وَلُوا الحكمَ حافظوا على موقفهم المضادّ للخليفتَين الأوّلَين بشدّة، وانعكس هذا الموقف الضرس من الشيخَين في كلام السفّاح أوّل حكمه[1]، وبقي السخط عليهما في قلوب العبّاسيّين، مع أنّ المنصور أراد، رغماً على العلويّين، أن يفضّل بني تَيم وبني عَديّ [قبيلتَي الشيخين] على

١ ـ شرح النهج ٧: ١٦١، ١٦٢.

العلويّين[١]. ولمّا طلب السيّد الحِميَريّ من المهديّ العبّاسيّ أن يقطع عطايا بني تيم وبني عديّ، قطعها. وهذه آية بيّنة على وجود الرفض حتّى عند بني العبّاس، فكيف بزيدٍ والعلويّين؟! والدليل الآخر على تقيّة زيد خبر يقول: لمّا جُرح زيد، وكان فيه رمق، قال: أين سائلي عن أبي بكر وعمر؟ هما أقاماني هذا المَقام[٢]! فإن صحّ هذا الخبر فهو يدلّ على تقيّته، تلك التقيّة التي كانت نتيجتها السياسيّة واضحة تماماً لزيد في الأقلّ، ولذلك اشترك في ثورته: الخارجيّ، والمعتزليّ، والمرجئيّ، والزيديّ[٣]. ونظراً إلى هذه الملاحظات، يمكن أن نصرّح بأنّ سيرته ذات التقيّة دفعت الزيديّة بعد ذلك إلى تبنّيها كعقيدة رسميّة لهم.

والنقطة الأخرى اللّافتة للنظر في هذا البحث هي ما قيل: إنّه هو الذي وضع اسم الرافضة للإماميّة، وسببه هو أنّهم لمّا تركوه بسبب كلامه في الشيخَين، قال: هؤلاء رافضة.

والخليق بالذكر في هذا المجال هو أنّ معنى الرفض لغويّاً «تركك الشيء. والروافض: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا، فكلّ طائفة منهم رافضة، والنسبة إليهم رافضيّ. والرفض: أن يطرد الرجل غنمه و إبله إلى حيث يهوى... ورفَضْتُها: تركْتُها تبدّد في مراعيها ترعى حيث شاءت... وهي إبل رافضة»[٤].

وأُطلق هذا الاصطلاح على الشيعة الإمامية لأنّهم رفضوا خلافة الخليفة الأوّل والثاني، وسمّاهم الذين كانوا يعتقدون إمامتهما «رافضة». ولذلك، نرى الأشعريّ يقول في مفهوم الرافضة ومعناها: «و إنّما سُمُّوا رافضةً لرفضهم إمامةَ أبي بكر وعمر»[٥].

---

١ ـ **العيون والحدائق**: ١٩٧.

٢ ـ **تبصرة العوامّ** ٣٤، ٣٥، عن كتاب الألفاظ لعبد الرحمان الهمذانيّ.

٣ ـ **الحور العين**: ١٨٥.

٤ ـ **لسان العرب** ٧: ١٥٧.

٥ ـ **مقالات الإسلاميّين** ١: ٨٩؛ **العقد الفريد** ٢: ٢٤٥؛ **الخطط المقريزيّة** ٤: ٧٣.

وفي المقابل، أيّد الحشويّة ـ الذين كانوا يَجرون مع كلّ حاكم، ولم يلزمهم قيد ولا معيار في هذا المجال ـ الكلامَ المذكور وذهبوا إلى أنّ أهمّ علامة للرفض في التاريخ عادةً هي أنّ الروافض رفضوا خلافة الشيخَين، وذمّوهما؛ لأنّهما لم يسلِّما الحقَّ إلى أهله[1].

قال مؤلّف كتاب تبصرة العوامّ في هذا الشأن: «أمّا الشيعة، فهم يسألون خصومهم: ماذا تقصدون من الرافضة والرفض؟ وكان من اللّازم أن يقول [الرافضيّ]: الرفض لغويّاً: النبذ والترك، وورد في عرف الاصطلاح أنّ الرافضيّ هو من قال: أبو بكر ليس إماماً بعد رسول الله، وإنّما الإمام هو أمير المؤمنين عليّ. ونقول: على هذا، إذا كان معنى الرفض هو النبذ، فيجوز لنا أن نسمّي أصحابه رافضة، أي نبذوا الباطل، وجروا مع الحقّ... وإذا أردتَ بالرفض معناه الاصطلاحيّ، أي أنّهم لم يؤمنوا بإمامة أبي بكر، فهذا مدح لا ذمّ»[2].

قال السيّد الحميريّ لسوار القاضي الذي ردّ شهادته ودعاه رافضيّاً:

ونحنُ على رغمِكَ الرافضون ... لأهلِ الضَّلالةِ والمُنكَرِ[3]

أمّا بشأن إطلاق زيد بن عليّ عنوان الروافض على الإماميّة، فيجدر بنا أن نذكر النقاط الآتية:

النقطة الأولى: على عكس هذا الخبر، لدينا في كتاب المقالات والفرق للأشعريّ ـ وهو من أقدم المتون الموجودة في فرق الشيعة ـ وجه آخر للتسمية بالروافض، وهو: أنّ المغيرة بن سعيد، الذي كان من الغلاة، حين جهر بعقيدته في

---

١ ـ **ميزان الاعتدال** ٣: ٢٤٩، ٢٦٨، ٣٢٤، ٣٢٥؛ **الشعر والشعراء**: ٣١٦.

٢ ـ **تبصرة العوامّ**: ٣٢.

٣ ـ **الفصول المختارة**: ٦١ ـ ٦٣. ذكر المؤلّف أنّه قال ذلك للقاضي بوار، والصحيح هو أنّه قال لسوار القاضي. المترجم.

النفس الزكيّة على خلاف الشيعة الإماميّة، طرده الشيعة، فزعم أنّهم رافضة، وأنّه هو الذي سَمّاهم بهذا الاسم[١]. وأُشير في الخبر الذي نقلناه قبل هذا عن الطبريّ إلى أنّ الشيعة أنفسهم رضوا بوجه التسمية المذكور.

النقطة الثانية: لمّا أنشد الفرزدق قصيدته المعروفة في مدح الإمام السجّاد عليه السلام، ودار بينه وبين هشام بن عبد الملك حوار حول الإمام عليه السلام، سأله هشام: أَوَ رافضيٌّ أنت؟ قال: إن كان حبُّ أهلِ البيت رفضاً، فَنَعَم[٢]، فسُجن الفرزدق إثر ذلك. ويستبين من هذه الواقعة التي كانت في حياة الإمام السجّاد عليه السلام، والإمام عليه السلام قد توفّي قبل سنة ٩٥هـ، أنّ هذا المفهوم لا يمتّ بصلة إلى عصر زيد، ومن المحتمل أنّه أُطلق على الشيعة لمناسبة معناه اللّغويّ، وبسبب ردّهم زعامةَ الخليفتَين الأوَّلَين.

النقطة الثالثة: استُعمل هذا الاصطلاح في كلمات مختلفة نُقلت عن الشعبيّ بشأن الشيعة، ولمّا كان الشعبيّ قد مات قبل ثورة زيد بسنين، فيتبيّن أنّه كان مستعملًا آنذاك. والأخبار المذكورة أخبار متنوّعة عدّة[٣]، منها: ما نُقل عن الشعبيّ أنّه قال: أحبِبْ آل محمّد ولا تكن رافضيّاً[٤].

النقطة الرابعة: ذهب بعض الباحثين إلى أنّ الأصفهانيّ لم يذكر هذا الخبر في مقاتل الطالبيّين قطّ، كما لم يذكره ابن سعد في طبقاته الكبرى بتاتاً. وتركهما له، بخاصّة أبا الفرج الأصفهانيّ، مَعْلَم على أنّهما لم يعتقداه.

النقطة الخامسة: نقل الفضل بن شاذان عن رواة أهل السنّة أنّهم قالوا: قال

---

١ ـ **المقالات والفرق**: ٧٦، ٧٧؛ **فرق الشيعة**: ٦٣.

٢ ـ **المحاسن والمساوئ**: ٢١٣. وذكر اسم عبد الملك مكان هشام في هذا الخبر سهواً.

٣ ـ **العقد الفريد** ٢: ٢٥٠؛ وانظر: **الطبقات الكبرى** ٧: ١٨٦.

٤ ـ **ربيع الأبرار** ١: ٦٠.

الحسن بن الحسن بن عليّ عليهما السلام: مرقت علينا الرافضة كما مرقت الخوارج على عليّ[1]. والحسن هذا مات قبل زمان زيد، ومن المحتمل طبعاً أن يُراد منه الحسن ابن الحسن بن الحسن بن عليّ أخو النفس الزكيّة، فقد مات بعده. ومهما كان، فقد قال ذلك بوصفه زيديّاً. والمهمّ هو أنّ الفضل، في جواب هذا الكلام، كان ملتفتاً إلى معناه اللّغويّ، وليس فيه أدنى إشارةٍ إلى زيد. قال الفضل: الرافضة: هم الذين لا يَرون قتالَ أحد من المسلمين إلّا مع إمامٍ عَدلٍ عالمٍ بما يأتي ويَذَر[2].

إنّ الثابت، في كلّ حال، هو أنّ هذه الكلمة أُطلقت على الشيعة منذ أواخر القرن الأوّل الهجريّ لمناسبة معناها اللّغويّ وانطباقها عليهم، واختُلق حديثٌ زُعم فيه أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «يكون في آخِرِ الزمان قومٌ يُنبَزون بالرافضة... فاقتلوهم فإنّهم مشركون»[3]! ومن البيّن أنّ هذا اللّفظ قد أُريد به الشتم، وحين تدهورت علاقات الزيديّة والإماميّة فيما بعد، استعمله أولئك في الطعن على الشيعة. وربّما استعمله زيد أيضاً في مقابل معارضيه بسبب وضعه المحرج الذي كان يعيش فيه. ولكن أيّاً كان، فإنّ أساسه اللّغويّ كان مقصوداً، وانتشر الحديث المفترى المذكور في عهد الإمام الصادق عليه السلام، وصار وسيلةً بيد الحكّام لقتل الشيعة؛ لذا يُحتَمل أنّ هذه القضيّة كانت علامةً لسابقةِ لفظ الرافضة في زمنٍ سبق زمن ثورة زيد. جاء في روايةٍ أنّ بعض الشيعة قالوا للإمام الصادق عليه السلام، «إنّ الناس يسمّوننا روافض، وما الروافض؟ فقال: واللهِ ما هم سَمَّوكُموه، ولكنّ الله سمّاكم به في التوراة والإنجيل...

---

١ .انظر: **سيرة وقيام زيد بن علي** [سيرة زيد بن عليّ وثورته]: ٢١٦؛ **الإيضاح**: ٤٧٣ (طبعة جامعة طهران)؛ وانظر: **الطبقات الكبرى** ٥: ٣٢٠.

٢ .**الإيضاح**: ٤٧٥.

٣ .**ميزان الاعتدال** ٣: ٢٣٧. قال الذهبيّ في أحد رواة هذا الحديث بعد نقله: قلتُ: وحجّاج واهٍ. وانظر: **الإلمام** ١: ٣٣؛ **الصواعق المحرقة** / المقدّمة الأولى.

وذلك أنّ سبعين رجلًا من قوم فرعون رفضوا فرعونَ ودخلوا في دين موسى، فسمّاهم الله تعالى: الرافضة... واستَقَمتُم مع أهل بيت نبيّكم عليهم السلام، فذهبتم حيث ذهب نبيّكم، واخترتم مَن اختار اللهُ ورسولُه»[1].

يتبيّن من الرواية أنّ الإمام عليه السلام كان يؤكّد معناه اللّغويّ، ويرى أنّه كان يُطلَق على من رفض حكمَ الباطل. ونقل عمّار الدُّهنيّ، وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، مِثلَه أمام قاضي الكوفة حين سمّاه رافضيّاً[2].

واستطاع الفضل بن شاذان أن يُريَ سُقم الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله جيّداً، وذلك بقدحه في متن الحديث؛ إذ لا معنى أن يكون المؤمن بالله ورسوله مشركاً، يجوز قتله! فقال: «وإنّما رأينا الشيعة الذين تُسمّونهم أنتم الرافضة إنّما خالفوكم في تفضيل عليّ - صلوات الله عليه - على أبي بكر وعمر، ولم يقولوا: إنّ أبا بكر وعمر تركا الصلاة، ولا زَنَيا، ولا لاطا، ولا شَرِبا الخمر، ولا استحلّا الحرام ولا الظلم، إنّما قالوا: عليٌّ عليه السلام أفضل منهما ومِن غيرهما بسابقته، وقرابته، وصهره، ونكايته في المشركين، وعلمه بكتاب الله وسُنن رسوله الله صلى الله عليه وآله...»[3].

الشيعة الإماميّة وزيد

إنّ من المسائل الخلافيّة حول ثورة زيد بن عليّ عليه السلام آراءً طرحها الشيعة الإماميّة أو الشيعة الذين يعتقدون «الإمام المُفترض الطاعة الذي نصبه الله تعالى» بشأن ثورته. وهنا، كما يتبيّن من العنوان المذكور، قضيّتان جديرتان بالاهتمام؛

الأولى: رأي الأئمّة عليهم السلام؛ وأخرى: المسائل التي عرضها أصحابهم في هذا

١ ـ **تفسير فرات الكوفي**: ١٣٩ (النجف) ـ عنه: **بحار الأنوار** ٦٨: ٩٧ ـ ٩٨ / ح٤.

٢ ـ انظر: **بحار الأنوار** ٦٨: ١٥٦ ـ ١٥٧، عن **تفسير الإمام العسكريّ** عليه السلام.

٣ ـ **الإيضاح**: ٣٠٤ (جامعة طهران). ينظر بشأن تحقيق هذه القضيّة: تعليقات المرحوم الأرمويّ في (**الإيضاح**)، وكذلك كتاب (**النقض**).

المجال. ونبدأ فيما يأتي برأي الأئمّة عليهم السلام في زيد.

أُثِرت روايات كثيرة عنهم حول زيد، يصعب الجمع بينها، فبعضها يؤيّده تأييداً تامّاً، وبعضها الآخر يتعامل مع الموضوع بنوعٍ من الغموض والإشارة. ويتبيّن من غاية ما تفيده الروايات المتعلّقة به بنحوٍ إيجابيّ أنّ أئمّة الشيعة عليهم السلام كانوا يُحسنون الظنّ بزيد، فأيّدوا ثورته وبواعثها، بل صرّحوا بأنّه لو ظفر، لسلّم الحقّ إلى أهله. لكن لا يتبيّن من هذه الروايات أنّه ثار بموافقة الإمام الصادق عليه السلام أو بأمره، ونحن نعلم أنّ الأئمّة عليهم السلام لم يرضَوا بهذه الثورات في تلك الظروف، ويعود أغلب ذلك إلى أنّ نجاحها غير متوقَّع، يضاف إلى هذا أن لو كان هناك نجاح، فمواصلة العمل غير بيّنة. وفي مستوى النجاح، إذا كان الرجل طالباً للشهادة في سبيل مكافحة الظلم والاستبداد، لا سيّما إذا كان حاملًا لحوافز زيد، فهو جدير بالتأييد.

قال الشيخ الصدوق في سياق رواية نقلها عن الإمام الرضا عليه السلام: «لزيد بن عليّ فضائل كثيرة عن غير الرضا، أحببتُ إيراد بعضها على أثر هذا الحديث؛ لِيَعلم من ينظر في كتابنا هذا اعتقاد الإماميّة فيه»[1]. وقصد الصدوق من كلامه هذا إشارةً إلى فضائل زيد. ومن الحريّ بالقول: إنّه لا يُستفاد من جميع الروايات التي ذكرها أنّ زيداً ثار بأمر الأئمّة، أو بشكل صريح، من أجل أن يتولّوا الحكم، وأفضل تعبير ورد في هذه الروايات هو تعبير الإمام الرضا، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليهم السلام أنّه قال: رَحِمَ اللهُ عمّي زيداً؛ إنّه دعا إلى الرضا من آل محمّد، ولو ظفَرَ لَوفى بما دَعا إليه[2]. وفي تعبير الرضا من آل محمّد إشارة إلى أنّه لم يَدْعُ الناس إلى نفسه. وروايات أخرى

---

١ . **عيون أخبار الرضا** عليه السلام ١: ١٩٥.

٢ . **عيون أخبار الرضا** عليه السلام ١: ١٩٥؛ وانظر: **كفاية الأثر**: ٣٢٧؛ **اختيار معرفة الرجال**: ٢٨٥. وكما ذكر ابن زهرة في (**غاية الاختصار**) (فهذا الخبر هو الذي سلّم زيداً منهم وجعلهم يترحّمون عليه)، انظر: **غاية الاختصار**: ١٢٨.

وردت في الثناء على زيد، أو أخبرت بشهادته في كُناسة الكوفة، أو صرّحت بحزن الإمام الصادق عليه السلام عليه[١]. ونفس الإخبار بشهادته، أي فشل ثورته، ملاحظة جديرة بالتأمّل أشرنا إليها في السطور المتقدّمة آنفاً. وقيل: إنّ أمّ زيد لمّا بلغها كلام الإمام عليه السلام قبل الواقعة، اتّهمت الإمامَ عليه السلام بالحسد[٢].

ومن المحتمل أنّ عبارة «لَوفى» تصريح بأنّ زيداً لم يقصد في بدء أمره تسليم الأئمّة الحكم، إلّا أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان واثقاً بزيد وطهارته إلى درجةٍ أنّه لو ظفر لسلّم الرضا من آل محمّد أمر الحكومة.

إنّ عدداً من أحاديث الإمام الباقر عليه السلام الواردة في المصادر بشأن فضائل زيد رواها أبو الجارود المنذر بن زياد الذي كان من رؤساء الزيديّة. ومن الطبيعيّ أنّها لا يمكن أن تكون حجّةً، مثلًا قال: قال الإمام الباقر عليه السلام:... أمّا زيد فلساني الذي أنطق به[٣،٤].

ونُقل عن عمرو بن خالد الذي كان من رؤساء الزيديّة أيضاً أنّه قال: قال الإمام الباقر عليه السلام مشيراً إلى زيد: هذا سيّدُ أهلِ بيتي، والطالبُ بأوتارهم[٥]. ومن الواضح أنّ هذه المضامين غير صحيحة، بخاصّة أنّ الزيديّة واقعون في سلسلة أسنادها. وأورد الكشّيّ روايةً أخرى عن أبي يعقوب المقري، وصرّح بشأنه قائلًا: وكان من كبار الزيديّة. ونقل عن عمرو بن خالد أيضاً أنّه كان من كبار الزيديّة، ثمّ ذكر عن هذا الطريق مضمون الرواية السابقة على لسان الإمام الباقر عليه السلام[٦].

وتتجّه هذه الروايات إلى التعريف بزيد كأهمّ رجل من أهل البيت في عصره.

---

١ ـ **عيون أخبار الرضا** عليه السلام ١: ١٩٤ ـ ١٩٧؛ **كفاية الأثر**: ٣٢٨.

٢ ـ **أمالي الصدوق** / المجلس العاشر: ٤٠.

٣ ـ **قاموس الرجال** ٤: ٢٦١.

٤ ـ انظر: نفسه: ٢٢٨، ٢٣٠ للاطلاع على أنّه غير ثقة.

٥ ـ **اختيار معرفة الرجال**: ٢٣١، ٢٣٣.

٦ ـ نفسه: ٢٣١٠؛ **قاموس الرجال** ٤: ٢٦٦؛ **تنقيح المقال** ١: ٤٦٨.

وفيها روايات منسوبة إلى الإمام الباقر عليه السلام في تفضيله على سائر أهل البيت. وذكر الحِميريّ ـ وهو من كُتّاب الزيديّة، في كتابه ـ أنّ الإمام عليه السلام قال: «ولا أظنّك واللهِ ترى فينا مِثله»[١]! وأورد روايةً أخرى أيضاً، قال فيها الإمام عليه السلام: هذا سيّدُ بني هاشم، إذا دعاكم فأَجِيبوه، و إذا استنصركم فانصروه[٢]. فهذه الروايات بما تحمله من مضامين، لا سيّما أنّها وردت في المصادر الزيديّة، مثارُ شكٍّ وارتياب، ولا يُنافي هذا حزن الإمام الصادق عليه السلام الشديد بسبب استشهاده، ولم يره [لم يرَ الإمام الصادق عليه السلام زيداً] رجلًا انتهازيّاً، بل كان يراه مخلصاً كآبائه الكرام. [ونقل ابن أعثم أنّ الإمام الصادق عليه السلام حين بلغه خبر استشهاده، تلا قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**﴾[٣]، وعدّه في زمرة الشهداء كعليّ بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام... وقال في آخر كلامه: فويلٌ لِقاتلهم من جبّار الأرض والسماء![٤] ونقلت كتب أهل السنّة عن طريق أبي الجارود أيضاً روايةً تنصّ على أنّ زيداً كان حليف القرآن[٥]. وضَعف أبي الجارود في الكتب الرجاليّة واضح بيّن[٦]. ونقل فُضَيل الرسّان روايةً في فضيلة زيد، وكان هذا من أصحاب أبي الجارود[٧]، وعدّه ابن النديم من الجاروديّة[٨].

---

١ ـ **الحور العين**: ١٨٨ ـ ١٨٩.

٢ ـ نفسه: ١٨٩.

٣ ـ الأحزاب: ٢٣.

٤ ـ **الفتوح**: ٨: ١٢٥.

٥ ـ **تنقيح المقال** ١: ٤٦٧.

٦ ـ نفسه: ٢٦٠ ـ ٢٦١. ونقل ابن النديم عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في أبي الجارود: لعنه الله، فإنّه أعمى القلب، أعمى البصر. وقال فيه محمّد بن سنان: أبو الجارود لم يمت حتّى شرب المسكر وتولّى الكافرين! **الفهرست**: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

٧ ـ **الملل والنحل** ١: ١٤٩؛ **المقالات والفرق**: ٧٤ / الرقم ١٤٤.

٨ ـ **الفهرست**: ٢٢٧.

وجاءت في مصادر أهل السنّة رواية تذكر أنّ طائفة من الروافض سألوا الإمام الصادق عليه السلام عن بيعتهم لزيد، فقال لهم: بايِعُوه؛ فهو واللهِ أفضلُنا وسيّدُنا وخيرنا! فجاؤوا فكتموا ما أمرهم به[١]. وطريقة نقل هذا الخبر تدلّ على اختلاقه، وواضح أنّه وُضِعَ لقمع الشيعة. ولا يُعلَم كيف اطّلع الراوي عليه، والروافض كانوا قد كتموه!

ويُشبهه ما قال عمرو بن قاسم: دخلتُ على جعفر بن محمّد، وعنده أُناس من الرافضة، فقلتُ: إنّ هؤلاء يبرأون من عمّك زيد. قال: يبرأون من عمّي زيد؟! قلتُ: نعم. قال برِئَ الله ممّن يبرأ منه، كان ـ واللهِ ـ أقرأَنا لكتابِ الله، وأفقهَنا في دِين الله[٢]...!

وتُماثل هذه الروايةُ الروايةَ السابقة. والإمام عليه السلام لم يؤيّد البراءة من زيد قطّ، واستقبح ذلك قطعاً؛ لأنّ زيداً في رأيه إنسان مؤمن متديّن، وكان يبتغي مرضاة الله في نهضته. أمّا ما قيل: إنّه طلب من الشيعة أن يبايعوه، فلا ينسجم مع ما ذكره المسعوديّ من أنّه استشار أخاه الباقر عليه السلام. وجاء في هذا الخبر: «وقد كان زيد بن عليّ شاور أخاه أبا جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ، فأشار عليه بأن لا يركن إلى أهل الكوفة؛ إذ كانوا أهل غَدرٍ ومكر! وقال له: بها قُتل جدُّك عليّ، وبها طُعِن عمُّك الحسن، وبها قُتل أبوك الحسين، وفيها وفي أعمالها شُتِمنا أهلَ البيت! وأخبره بما كان عنده من العلم في مدّة مُلك بني مروان، وما يتعقّبهم من الدولة العبّاسيّة. فأبى زيد إلّا ما عزم عليه من المطالبة بالحقّ، فقال له: إنّي أخاف عليك يا أخي أن تكون غداً المصلوبَ بِكُناسة الكوفة! وودّعه أبو جعفر، وأعلمه أنّهما لا يلتقيان»[٣].

وذهب بعض إلى أنّ هذه الرواية تخلو من النهي التحريميّ، ولا تخلو من النهي

١ ـ تاريخ الطبريّ ٥: ٤٩٩؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٤٠.

٢ ـ تاريخ دمشق ١٩: ٤٥٩؛ فوات الوفيات ١: ٢١٠؛ الخطط المقريزيّة ٤: ٣٠٧.

٣ ـ مروج الذهب ٣: ٢٠٦.

الإرشاديّ. و إذا شككنا في صحّة الرواية، استطعنا أن نُدرك موقف الإمام عليه السلام السلبيّ منه. ويتعيّن علينا الالتفات إلى أنّ نوع الروايات التي جاءت فيها آراء الإمام الباقر عليه السلام في زيد يفيد أنّ زيداً كان يفكّر في الثورة من قبل. وفي الوقت نفسه، لا تخرج غلظة هذه الروايات من شكلَين، إمّا تدلّ على اختلاق الخبر، و إمّا تدلّ على سهو الراوي في ذكر اسم الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام، بخاصّة أنّ اسم أبي جعفر يمكن أن يكون قد التبس باسم جعفر. وورد خبر آخر في كتاب «الكافي»، وهو يُشبه خبر المسعوديّ، نُقل فيه «أنّ زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام دخل على أبي جعفر محمّد بن عليّ ومعه كتبٌ من أهل الكوفة يدعونه فيها إلى أنفسهم، ويخبرونه باجتماعهم، ويأمرونه بالخروج، فقال [الإمام الباقر عليه السلام]:... فلا يستخفّنّك الذين لا يُوقنون... فلا تعجَلْ... فغضب زيد عند ذلك. ثمّ قال: ليس الإمام منّا من جلس في بيته... ولكنّ الإمام منّا مَن منع حَوزته... »[1].

ولا تنسجم الروايات التي تتّهم زيداً بأنّه دعا الناس إلى نفسه مع الأخبار المتكرّرة المأثورة عن الإمام الصادق عليه السلام بأنّه لو ظفر لوفى... وأنواع المدح الأخرى. ومثال ذلك رواية في كتاب «عيون المعجزات» عن حسين بن عبد الوهّاب المعاصر للشيخ الطوسيّ، ذكرها الأفندي في كتابه، وفيها أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال مشيراً إلى زيد: تَرَون أخي هذا، واللهِ إنّه يدّعي ما ليس له، ويدعو الناسَ إلى نفسه، فيجتمع عليه خَلْق، ويُؤخَذ، ويُقتَل، ويُصلَب في كُناسة الكوفة[2].

إنّ ما يتعيّن أن نقوله في الجمع بين هذه الأخبار هو أن الأئمّة عليهم السلام مدحوا مقام زيد، وإن نهوه نهياً إرشادياً في الأقلّ، وأعلموه بمغبّة عمله. و إذا قبلنا هذا، فمن الواضح أنّه لم يتّبع الأئمّة وأنّه لم يستأذنهم في عمله. ومن الطبيعيّ أنّ الأئمّة عليهم السلام

١ .الكافي ١: ٣٥٧.

٢ .رياض العلماء ٢: ٣٣٧.

أثنوا عليه بسبب شخصيّته البارزة، وهدفه المتمثّل بالقضاء على بني أميّة، ودعوته إلى الرضا من آل محمّد. نُقل عن عبد الرحمان بن سيّابة أنّه قال: «أعطاني جعفر ابن محمّد الصادق عليه السلام ألف دينار وأمرني أن أُفرّقها في عيال مَن أُصيب مع زيد بن عليّ، فأصاب كلَّ رجل أربعةُ دنانير». (وجاء في خبر آخر أنّ أربعة دنانير أصابت عيالَ عبد الله بن الزبير الرسّان)[1].

ورُوي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال في زيد: فإنّه كان مِن علماء آل محمّد، غَضِب لله عزّوجلّ، فجاهد أعداءَه حتّى قُتِل في سبيله[2]. وجاء في رواية أنّ الإمام الصادق عليه السلام عبّر عن سخطه ممّا يتحدّث به أصحابُه في ذمّ زيد[3]، ووصف عليه السلام، في رواية أخرى، الشامِتين به بأنّهم شركاءُ في دمه[4]!

وتدلّ محاورات زيد وأصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام على فصل آخر من رأي الإماميّة فيه، ونرى في هذا المجال روايات لا غبار على سندها، كما أنّها رُويت من عدّة طرق، ومن الضروريّ أن نشير، قبل نقلها، إلى أنّ بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ـ الذين كانوا بالكوفة إبّان ثورة زيد ـ تركوه بعد حوارٍ جرى بينهما، ولم يتابعوه. وإن لم يدلّ هذا على موقف الأئمّة عليهم السلام، فهو يدلّ على موقف بعض الإماميّة.

والنقطة الطريفة هي أنّ رجلًا واحداً من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام اشترك في ثورة زيد، وهو سليمان بن خالد... قال فيه النجاشيّ: كان قارئاً فقيهاً وجهاً، روى عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام، خرج مع زيد ولم يخرج معه في أصحاب أبي

١ ـ عمدة الطالب: ٢٥٨؛ اختيار معرفة الرجال: ٣٣٨.
٢ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٤ ـ ١٩٥.
٣ ـ اختيار معرفة الرجال: ١٥٢.
٤ ـ نثر الدرّ ١: ٣٥٣.

جعفر عليه السلام غيرُه، فقُطِعت يده، وكان الذي قطعها يوسف بن عمر نفسه[1]. ونصّ الشيخ الطوسيّ أيضاً على أنّه الوحيد الذي اشترك في ثورة زيد من بين أصحاب الإمام الباقر عليه السلام[2]. ويريد من إشارته إلى أصحاب الإمام الباقر عليه السلام الأصحابَ المشهورين الذين كانوا وجوهاً معروفةً يومئذٍ. وتصريح النجاشيّ والطوسيّ، اللَّذَين كانا من أكابر علماء الرجال الشيعة، دليلٌ قاطع على أنّ أصحاب الإمام الباقر عليه السلام لم يشتركوا في ثورة زيد، ولا سبب لذلك إلّا أنّهم لم تكن لهم حجّة على الاشتراك، وإلّا يتعيّن أن نقول: إمّا منَعَهم الخوف من ذلك، وإمّا أنّهم تصرّفوا تصرّفاً كيفيّاً غير مستشيرين إمامهم، وكلا الأمرين مرفوض.

ولدينا خبر آخر حول غياب أصحاب الإمام الباقر عليه السلام عن ثورة زيد، وهو طريف... فقد جاء الحسن بن زياد المدينةَ أيّام خروج زيد، وعرض دِينَه على الإمام الصادق عليه السلام، فارتضاه، وفزع الرجل، فسأله الإمام عن سبب ذلك، فقال: إنْ ظَفَر زيدٌ وأصحابه فليس أحدٌ أسوأ حالًا عندهم منّا، وإن ظفر بنو أميّة فنحن بتلك المنزلة. قال: فقال لي: انصرفْ، ليس عليك بأسٌ مِن أُولى ولا مِن أولى[3]. ويدلّ هذا الحوار على أنّ الإماميّة كانوا يواجهون الزيديّة من جهة، ويواجهون بني أُميّة من جهة أُخرى.

ويدلّ بعض الأخبار على محاورات جرت بين زيد وبعض أصحاب الإمام عليه السلام، نقلها الكشّي مفصّلًا، ونحن نذكر موضوعاتها المهمّة فيما يأتي لأهميّتها. والمهمّ

---

١ . **رجال النجاشي**: ١٣٠؛ وانظر: **تنقيح المقال** ٢: ٥٧.

٢ . **رجال الطوسي**: ٢٠٧؛ **رجال العلّامة الحلّي**: ٧٧. ونقل العلّامة الحلّيّ عن كتاب «سعد» أنّه خرج مع زيد لكنّه نجا، فمنّ الله عليه وتاب ورجع عن ذلك. ويتبيّن من هذا الكلام أنّ اشتراكه في ثورة زيد عمل غير صحيح عند بعض علماء السلف الشيعة، ودليل ذلك استعمال كلمة «التوبة».

٣ . **أمالي الشيخ المفيد**: ٣٣.

في هذه المحاورات هو أكان هناك إمامٌ «مفترض الطاعة» أم لا؟ و إذا كان، فمن هو؟

رُوي عن زُرارة بن أعيَن مسنَداً أنّه قال: قال لي زيد بن عليّ وأنا عند أبي عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام: ما تقول يا فتى في رجلٍ من آل محمّد استنصَرَك؟ فقلتُ: إن كان مفروضَ الطاعة نصرتُه، و إن كان غيرَ مفروضِ الطاعة فَلِي أن أفعل ولي أن لا أفعل. فلمّا خرج، قال أبو عبد الله عليه السلام: أخذتَه واللهِ مِن بينِ يدَيه ومِن خلفه، وما تركتَ له مَخرجاً.[1] [أي: سُرَّ الإمام بجواب زُرارة الذي أسكتَ زيداً]. ويدلّ القسم الأخير من الرواية على أنّ الإمام عليه السلام ما كان راضياً بحركة زيد، وكلام زرارة، أنّ له ألّا يفعل إذا كان المستنصِر غيرَ مفروض الطاعة، كان احتراماً لزيد فحسب.

ونقل المرحوم الكلينيّ روايةً أخرى موضوعها حوار دار بين مؤمن الطاق وزيد بن عليّ عليه السلام، قال: «عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن الحكم، عن أبان بن تغلب قال: أخبرني الأحول [مؤمن الطاق] أنّ زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام بعث إليه وهو مستخفٍ، قال: فأتيتُه فقال لي: يا أبا جعفر، ما تقول إن طرقك طارقٌ منّا أتخرج معه؟ قال: فقلتُ له: إن كان أباك أو أخاك، خرجتُ معه. قال: فقال لي: فأنا أُريد أن أخرج أُجاهد هؤلاء القوم، فاخرجْ معي. قال: قلتُ: لا، ما أفعل جُعِلتُ فداك. قال: فقال لي: أترغب بنفسك عنّي؟ قال: قلتُ له: إنّما هي نفس واحدة، فإن كان لله في الأرض حجّة [غيرك]، فالمتخلِّف عنك ناجٍ، والخارجُ معك هالك! و إن لا تكن لله حجّة في الأرض، فالمتخلّف عنك والخارج معك سواء. قال: فقال لي: يا أبا جعفر، كنتُ أجلس مع أبي على الخوان فيُلقمني البضعة السمينة، ويبرّد لي الحارّة حتّى تبرد شفقةً عليّ ولم يشفق عليّ من حرّ النار

١ .اختيار معرفة الرجال: ١٥٣.

إذا أخبرك بالدين [بالحجّة]، ولم يُخبرني به! فقلتُ له: جُعلتُ فداك، مِن شفقته عليك من حرّ النار لم يُخبرك، خاف عليك أن لا تقبله فتدخل النار، وأخبَرَني أنا، فإن قبلتُ نجوتُ، وإن لم أقبل لم يُبالِ أن أدخل النار. ثمّ قلتُ له: جُعِلتُ فداك، أنتم أفضل أم الأنبياء؟ قال: بل الأنبياء. قلتُ: يقول يعقوب ليوسف: **﴿يابُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾**[1]، لِمَ لَمْ يخبرهم حتّى كانوا لا يكيدونه؟ ولكن كَتَمهم ذلك، فكذا أبوك كتمك؛ لأنّه خاف عليك. قال: فقال: أما واللهِ لئن قلت ذلك، لقد حدّثني صاحبك [إشارة إلى الإمام الصادق عليه السلام] بالمدينة أنّي أُقتَل وأُصلَب بالكُناسة، وأنّ عنده لصحيفةً فيها قتلي وصلبي! فحججتُ، فحدّثتُ أبا عبد الله عليه السلام بمقالة زيد وما قلتُ له، فقال لي: أخذتَه من بين يَدَيه ومِن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه، ولم تترك له مسلكاً يسلكه»[2].

لا إشكال على هذه الرواية سنداً، ومتنها أيضاً منطقيّ ومعقول تماماً، وإشكالات مؤمن الطاق الذي كان مشهوراً بحنكته في الاحتجاج عادةً تنطلق من رؤيةٍ شيعيّة إماميّة. ولا ضرورة طبعاً في أن نقول: إنّ المتن يدلّ على ادّعاء زيد بالإمامة، لكنّه بهذا المقدار، يدلّ على أنّه لم يعتقد الإمام الصادق عليه السلام إماماً مفترضَ الطاعة. وقد نُقل هذا المتن من طريق آخر أيضاً، وفيه أنّ مؤمن الطاق حدّث بما جرى بينه وبين زيد بمحضر الإمام الصادق عليه السلام[3]، وبسندٍ آخر أيضاً[4]. ويُشبه هذا الحوارَ حوارٌ آخر جرى بين أبي خالد القمّاط وأحد أصحاب زيد في

---

١ .يوسف: ٥.

٢ .الكافي ١: ١٧٤.

٣ .اختيار معرفة الرجال: ١٨٦.

٤ .نفسه ١٨٦، ١٨٧.

موضع آخر، فأخبر أبو خالد الإمامَ الصادق عليه السلام به، فارتضاه[١].

وروى سَورة بن كُلَيب من أصحاب الصادقَين عليهما السلام أنّ زيد بن عليّ قال له: «يا سورة، كيف علمتم أنّ صاحبكم على ما تذكرونه [أي إمامٌ مُفترض الطاعة من الله]؟ قال: فقلتُ له: على الخبير سقطتَ. قال: فقال: هاتِ! فقلتُ له: كنّا نأتي أخاك محمّدَ بن عليّ عليه السلام نسأله، فيقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال الله جلّ وعزّ في كتابه، حتّى مضى أخوك، فأتيناكم آلَ محمّد وأنت فيمن أتينا، فتُخبرونا ببعضٍ ولا تخبرونا بكلّ الذي نسألكم عنه، حتّى أتينا ابنَ أخيك جعفراً، فقال لنا كما قال أبوه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال تعالى. فتبسّم وقال: أما واللهِ إن قلتُ هذا؛ فإنّ كُتب عليّ عليه السلام عنده»[٢].

ودار مثل هذا الحوار بين أبي بكر الحضرميّ وعلقمة، أحد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وبين زيد، وكان بلغهما أنّه [زيد] قال: ليس الإمام منّا مَن أرخى عليه سَتره، إنّما الإمامُ مَن شهر سيفَه، فقال له أبو بكر، وكان أجرأَهما: يا أبا الحسين، أخبرْني عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أكان إماماً وهو مُرخىً عليه سترُه أو لم يكن إماماً حتّى خرج وشهر سيفَه؟ قال: وكان زيدٌ يُبصر الكلام، قال: فسكت فلم يُجبه، فردّ عليه الكلام ثلاث مرّات، كلُّ ذلك لا يُجيبه بشيء، فقال له أبو بكر: إن كان عليّ بن أبي طالب إماماً فقد يجوز أن يكون بعده إمامٌ مُرخىً عليه ستره، وإن كان عليّ عليه السلام لم يكن إماماً وهو مُرخًى عليه ستره فأنت ما جاء بك هاهنا[٣]؟!

وورد في طريق الرواية المذكورة اسم الفضل بن شاذان، وكان من أصحاب الأئمّة ومن أكابر علماء الإماميّة، يُضاف إلى ذلك أنّها رويت من طريقين. وجاء في أخبار

---

١ .نفسه ٤١٢.

٢ .نفسه ٣٧٦؛ **قاموس الرجال** ٤: ٢٦٧.

٣ .**اختيار معرفة الرجال**: ٤١٦.

أخرى أيضاً أنّ زيداً أيّد وجود ثلاثة أئمّة والرابع هو القائم[1]، أي الإمام الذي يَشهر السيف. وهذا المضمون يدعم في الأصل الفكرة التي نُقلِت عن زيد في الإمامة. ويتعيّن أن لا نشكّ، ظاهراً، في أنّ زيداً كان يعتقد ثلاثة أئمّة مُفترضي الطاعة من الله فحسب، واعتقاده الرابع فما بعده مشروط بقيامه، وهذا القائم لا يكون إلّا فاطميّاً.

وذكر فرات الكوفيّ في تفسيره أنّ زيداً سُئل عن الإمام المفترض الطاعة، فقال: «كان رسول الله ﷺ نبيّاً مُرسَلاً، فلم يكن أحدٌ من الخلائق بمنزلته في شيءٍ من الأشياء... وكان عليّ صلوات الله عليه من بعده إمام المسلمين في حلالهم وحرامهم... كان الرادّ على عليّ كافراً... ثمّ كان الحسن والحسين... كانا إمامَي المسلمين... ثمّ كنّا ذرّيّةَ رسول الله ﷺ مِن بعدهما وُلْدَهما، وُلْدَ الحسن والحسين... فواللهِ ما ادّعى أحدٌ منّا منزلتهما من رسول الله ﷺ... غيرَ أنّا ذرّيّةُ رسول الله ﷺ تحقّ مودّتُنا وموالاتنا ونصرتنا على كلّ مسلم... فَوَالله ما ادّعاها أحدٌ منّا لا [من] وُلْد الحسن ولا مِن وُلد الحسين أنّ فينا إماماً مُفترضَ الطاعة علينا وعلى جميع المسلمين، فَوَاللهِ ما ادّعاها أبي... وما ادّعاها أخي... .

فالإمام يا أبا هاشم منّا المفترض الطاعة علينا وعلى جميع المسلمين: الخارجُ بسيفه، الداعي إلى كتاب الله وسنّة نبيّه... فأمّا أن يكون إمامٌ مفترض الطاعة علينا وعلى جميع المسلمين، متّكئٌ فُرشه، مُرجئٌ على حجّته، مُغلَق عنه أبوابُه يجري عليه أحكام الظلمة، فإنّا لا نعرف هذا...»[2].

إنّ الألفاظ المستعملة في هذا الكلام صريحةٌ جدّاً، ومضمونها موجود في الأخبار الأخرى التي ذكرناها فيما تقدّم. وجاء عن زيد في خبر آخر أورده فرات في

---

١. نفسه ٣٥١.

٢. **تفسير فرات**: ١٨٢.

تفسيره، أنّه قال: «إنّما المعصومون منّا خمسة... رسول الله، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين... وأمّا نحن فأهل بيتٍ نرجو رحمته ونخاف عقابه». ثمّ تحدّث حول منزلة أهل البيت الرفيعة وجهدِهم في حفظ الكتاب والسنّة[١]. ويُلحظ اللّفظ الذي ذكره زيد حول الإمامة في كتاب «الكافي» للكلينيّ أيضاً[٢]. ونقل الحميريّ هذا الكلام عن زيد في كتاب «الحُور العين» أيضاً[٣]. ولدينا في مقابل هذه الأخبار كلام سليمان بن خالد - صاحب الإمام الباقر عليه السلام الوحيد الذي اشترك في ثورة زيد - إذ نُقل عن زيد أنّه قال: جعفرٌ إمامُنا في الحلال والحرام[٤]. فهو يعترف في هذا الكلام بإمامة الصادق عليه السلام العلميّة. ولا يُستشفّ من كلامه أنّه كان يرى ابن أخيه إماماً مفترض الطاعة... وجاء هذا المضمون في خبر آخر أيّد فيه زيدٌ: أنّ كتب عليّ عليه السلام عند الصادق عليه السلام. وجاء في خبر آخر أيضاً أنّه قال: مَن أراد الجهادَ فإليّ، ومن أراد العلم فجعفرُ بن محمّد[٥]. ودلّ هذا الكلام على الإمامة العلميّة للإمام عليه السلام، ورفض إمامته السياسيّة أساساً. وحملُ هذه الأخبار والروايات، بخاصّة ما دار بين زرارة وزيد أو بينه وبين مؤمن الطاق، على التقيّة[٦] عمل غير صحيح، ولا دليل عليه.

ويُناظر الأخبارَ التي تدلّ على أنّ زيداً لم يعتقد إماماً مفترض الطاعة، رواياتٌ جاءت في كتاب كفاية الأثر، وهي تدعم اعتقاده إمامة الأئمّة الاثني عشر. وتَبيَّنَ من تحليلٍ موجز أنّ معظم تلك الأخبار واهية لا أساس لها، ورجالها الواردة

---

١ .نفسه ١٥٢.

٢ .**الكافي** ١: ٣٥٧.

٣ .**الحور العين**: ١٨٨.

٤ .**اختيار معرفة الرجال**: ٣٦١؛ **قاموس الرجال** ٤: ٢٦٧.

٥ .**تنقيح المقال** ١: ٤٦٩.

٦ .نفسه: ٤٦٨.

أسماؤهم في أسنادها مجهولون غالباً. والطريف أنّ هذه الأحاديث البالغة أربعةً أو خمسة منقولةٌ عن طريق الواسطيّ وفضيل الرسّان، والمعلوم أنّ هذين الرجُلَين كانا من أصحاب أبي الجارود ومن رؤساء الزيديّة، فكيف يمكن أن ينقل رجلان من رؤساء الزيديّة رواياتٍ يعتقد فيها زيد (باعتباره إمامهما) إمامة الأئمّة الاثني عشر؟! وأبو الجارود من مؤسّسي المذهب الزيديّ الذي يرفض فكرة الإمام المفترض الطاعة بعد الإمام الحسين عليه السلام أساساً!

ويتعيّن علينا أن نصرّح بأنّ الأئمّة عليهم السلام أثنوا على شخصيّة زيد لتحلّيه بالخصال الحميدة والنيّة الخالصة، فلا يحسن بنا مواصلةُ الحديث أكثر ممّا قلنا. وما يلزم هو الأخذ بعين الاعتبار شتّى جهات الموضوع.

ذهب صاحب كتاب «رياض العلماء» إلى أنّ نهياً تحريميّاً عن الثورة لم يرد، وأنّ زيداً كان مختاراً بين الإيثار بنفسه أو مؤاثرة الحياة الدنيا. وجاء كلامه باستنباطه من الروايات أنّ ثورته كانت من غير إذنِ الإمام الصادق عليه السلام[١]. ومن البيّن أنّه لم يسعه أن يردّ الروايات الذامّة لزيد بعامّة، بل صرّح أنّ زيداً لم يحصل على إذنٍ بالثورة.

وقال المرحوم المجلسيّ، وهو ينقل الروايات المتعارضة: «والحاصل أنّ الأنسب حسنُ الظنّ به (بزيد) وعدمُ القدح فيه، بل عدم التعرّض لأمثاله من أولاد الأئمّة عليهم السلام إلّا مَن ثبت الحكم بكفرهم والتبرّي منهم كجعفر الكذّاب وأضرابه»[٢]. وواضحٌ أنّ هذا التعبير ذكر احتياطاً لا استدلالاً عليه. مع هذا، يتعيّن علينا أن نقرّ بأنّ علماء الإماميّة يحسنون الظنّ بزيد منذ قديم الزمان، بيد أنّهم في الوقت نفسه

---

١ .**رياض العلماء** ٢: ٣٥٢ .٣٥٣ . والمؤلّف ذكر اسم الإمام الباقر عليه السلام سهواً. المترجم.

٢ .مرآة العقول ٤: ١٢٠.

سَطَروا الروايات التي تذمّه[١]. ولاحظنا قبل هذا أنّ الشيخ الصدوق نصّ على عقيدة الإماميّة في حسن الظنّ به، كما ابن الخزّاز القمّيّ، وهو أحد علماء القرن الرابع الهجريّ، صرّح بنفس الرأي، وذكر أنّ زيداً خرج في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا من أجل مخالفة ابن أخيه جعفر بن محمّد عليه السلام[٢]. وقد عرض الموضوع طبعاً بنحوٍ كأنّه أنكر فيه الازدواجيّة من الأساس، وذهب إلى أنّ ظهور الرؤية المزدوجة يعود إلى تكليف الإمام الصادق عليه السلام بالقعود وتركه الخروج [أي الثورة]. و إذا كنّا لا نركن إلى الاختلاف، فلنا أن نُصرّ على رفض الاتّباع. واليعقوبيّ، بوصفه مؤرّخاً إماميّاً، لم يُشر إلى ثورة زيد إلّا إشارةً موجزة، وذهب بعض إلى أنّ هذا الموقف دليلٌ على موقف الشيعة في ترك الاهتمام بثورة زيد[٣].

وذهب الشيخ المفيد في «الإرشاد»، والطبرسيّ في «إعلام الورى» إلى أنّ زيداً كان جليلَ القدر، وأنّه كان يدعو إلى «الرضا من آل محمّد». وَوَهَمَ الناس أنّه كان يدعو إلى نفسه، في حين كان يعلم باستحقاق أخيه الباقر عليه السلام، وكذا بوصيّة الباقر عليه السلام للصادق عليه السلام[٤]. ونظراً إلى ما تقدّم، يصعب قبول مثل هذا الرأي في مستواه. وكان للعَمْريّ، النسّابة الإماميّ في القرن الخامس الهجريّ، رأيٌ إيجابيّ في زيد، وقد عدّ الزيديّة كذّابين في ما يزعمونه في زيد[٥]، وهذا الموقف يوافق الدفاع

١ ـ يمكن أن يقال: إنّ عقيدة الصدوق تدلّ على أنّ علماء الإماميّة ذهبوا إلى أنّ الروايات الواردة في ذمّه مرفوضة تماماً. فيجب أن نقول هنا: لا يمكن أن ننسب كلّ ما قاله الصدوق إلى الإماميّة جميعاً، كما أنّ الشيخ المفيد قد ردّ كثيراً من عقائده في «تصحيح الاعتقاد».

٢ ـ **كفاية الأثر**: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

٣ ـ **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٣٢٦؛ وانظر: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**: ٥٣، هكذا ادّعى، والظاهر أنّ اليعقوبيّ عبّاسيّ الهوى لا إماميّ.

٤ ـ **الإرشاد**: ٢٦٨؛ **إعلام الورى**: ٢٥٧.

٥ ـ **المجدي**: ١٥٦ ـ ١٥٧؛ وانظر: **غاية الاختصار**: ١٢٨ ـ ١٢٩.

عن زيد هو إنكار للزيديّة. وتحدّث المحدّث النوريّ عن زيد مؤيّداً إيّاه، ورادّاً على الروايات الواردة في ذمّه[١]. وأُشير سابقاً إلى أنّ بعض المتأخّرين قد دافعوا عن زيدٍ دفاعاً شديداً، وفيهم الدكتور كريميان، وآية الله المنتظريّ[٢].

وحقيق بالذكر أنّنا نُنهي موضوعنا هذا بأكثر ما يمكن من الإيجاز في حين توجد أخبار أخرى كثيرة في هذا المجال، وهي وإن لم تبلغ في أهميّتها ما أتينا به من الأخبار، إلّا أنّ الحاجة إلى دراستها كلّها دراسةً فاحصةً مفصّلة تبقى قائمة من أجل بلوغ رؤية أكثر واقعيّة، وهو ما لا سبيلَ إليه في تاريخنا العامّ المختصَر هذا.

ثورة يحيى بن زيد

كان يحيى بن زيد ممّن اشترك في ثورة أبيه، ولمّا استُشهد أبوه ودُفن، توجّه تلقاء نينوى، ثمّ المدائن مع عدد من شيعة أبيه، ومكث هناك في بيت دهقان من أهلها حيناً، ثمّ سار إلى الريّ، وبعدها إلى خراسان[٣]. ويبدو أنّ يوسف بن عمر كان يظنّ أنّ يحيى بقيَ بالكوفة، لذلك صعد المنبر وذمّ الناس، لأنّهم أخفَوه في حِجال نسائهم، على حدّ تعبيره[٤]! وتوجّه يحيى بن زيد من الريّ إلى قُومس، ولبث هناك عند زياد بن أبي زياد القُشَيريّ برهةً من الزمن[٥]، ثمّ قصد نَيسابور، فأراد أهلها منه أن يبقى فيها، فقال لهم: «بلدة لا ترتفع فيها لعليٍّ رايةٌ»[٦]! ومن المحتمل أنّ البيئة النيسابوريّة لم تكن متهيّئة لثورة شيعيّةٍ آنذاك.

١. مستدرك الوسائل ٣: ٥٩٩.

٢. دراسات في ولاية الفقيه ١: ٢٠٨ فما بعدها.

٣. مقاتل الطالبيّين: ١٠٤؛ انظر: تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٣٢٦.

٤. أنساب الأشراف ٢: ٢٥٩؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٥٠٦.

٥. الفتوح ٨: ١٢٧.

٦. عمدة الطالب: ٢٥٩.

ورحل يحيى من نيسابور إلى سرخس، وأقام بها ستّة أشهر عند شخص يُدعى يزيد بن عمر التميميّ[١]. وأتاه قوم من الخوارج، فسألوه أن يبايعوه على قتال بني أميّة، فأعجبه ذلك منهم، فنهاه يزيد بن عمر، وقال: كيف تقاتل بقومٍ يتبرّأون من عليٍّ وأهل بيته؟! فقال لهم قولًا جميلًا وفرّقهم عنه[٢]. وأتى بلخ بعد أن مكث ستّة أشهر في سرخس، فأقام عند الحريش. ومن المحتمل أنّ هذه الفترة كانت من أطول الفترات، إذ لم يزل عنده حتّى أواخر عهد هشام، أو حتّى مات هشام[٣].

وبلغ يوسفَ بن عمر خبرُ ذهابه إلى خراسان، وكان يبحث عنه، فأمر نصرَ بن سيّار أن يتعقّبه. وعلمت حكومة خراسان بمَقْدمه إلى بلخ حين دخوله فيها أو بعد مدّة مضت على ذلك. وذكر ابن أعثم أنّها جمعت الناس في المسجد الأعظم، ثمّ جعلت تفتّش الدور وتطلبه، فلا يبلغها أنّ رجلًا ببلخ يُعرف بمحبّة أهل البيت إلّا أتت به، فضربته بالسياط ليدلّ على مكانه[٤].

وأدّت هذه التحرّيات إلى اعتقال الحريش، ولم يدلّ عليه مع ما لاقاه من التعذيب، ثمّ دلّ عليه ابنه[٥]. وبعث حاكم بلخ عقيلَ بن معقل مَن يأتي بيحيى، الذي كان في دار يونس بن سليم، على ما نقل ابن أعثم، فأُتيَ به إليه، فدعا بالحديد ثمّ كبّله وغلّ يمينه إلى عنقه، ثمّ شُدّت قيوده بالسلاسل، وحُمل إلى نصر ابن سيّار، فأمر بحبسه[٦]. ووافى خراسانَ خبرُ هلاك هشام، فكتب الوليد بن يزيد إلى

---

١ ـ الفتوح ٨: ١٢٧؛ عمدة الطالب: ٢٥٩؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٤.

٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٦٠؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٤.

٣ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٦١.

٤ ـ الفتوح ٨: ١٢٨.

٥ ـ مقاتل الطالبيّين: ١٠٥؛ تاريخ الطبريّ ٥: ٣٥٦؛ أنساب الأشراف ٣: ٢٦١.

٦ ـ الفتوح ٨: ١٢٩.

نصر، الذي كان سأله عن يحيى، أن يخلّي سبيله ليلتحق بأيّ بلدٍ شاء[١].

«لمّا أُطلق يحيى بن زيد وفُكّ حديده، صار جماعة من مياسير الشيعة إلى الحدّاد الذي فكّ قيده من رجله، فسألوه أن يبيعهم إيّاه، وتنافسوا فيه وتزايد حتّى بلغ عشرين ألف درهم، فخاف أن يشيع خبره فيُؤخَذ منه المال، فقال لهم: اجمعوا ثمنه بينكم. فرضوا بذلك، وأعطوه المال، فقطّعه قطعة قطعة وقسّمه بينهم، فاتّخذوا منه فصوصاً للخواتيم يتبرّكون بها»[٢].

وتوجّه يحيى إلى سرخس، وكتب نصرٌ إلى حاكمها أن يُشخصه إلى طوس، وكتب إلى حاكم طوس أيضاً أن يرسله إلى أَبَرْشَهْر ويسلّمه عمرَو بن زرارة، وسيّره عمرو إلى بيهق[٣]، وفيها أعلن يحيى عن خوفه من الذهاب إلى العراق، لأنّ يوسف ابن عمر ما زال فيه، فربّما يقتله[٤]! وهناك اقتتل يحيى وأصحابه مع عمرو بن زرارة، وقيل: كان عدد أصحابه مئة، وعدد مَن مع عمرو عشرة آلاف بل أكثر، وانتصر يحيى في هذا القتال[٥].

أَلَمْ تَرَ أهلَ نَيسابورَ لمّا ... لَقُوا الأبطالَ لم يُغْنوا قليلا
لَقُوا مئةً وهم عشرونَ ألفاً ... فما صَبَروا ولا مُنِعوا قتيلا[٦]

وذكر بعض الروايات تفاصيل أكثر تخصّ ما قبل القتال وما رافقه[٧]. وذهب يحيى من هناك إلى الجوزجان، فالتحق به فيها جماعة من أهلها، ومن أهل

١ .نفسه ١٣١؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٦١؛ **تاريخ گزيده** [منتخب التاريخ]: ٢٨٦.
٢ .**مقاتل الطالبيّين**: ١٠٥.
٣ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٣٧.
٤ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٦١؛ **مقاتل الطالبيّين**: ١٠٦.
٥ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٣٧؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٣٠.
٦ .**الفتوح** ٨: ١٣٣.
٧ .**أنساب الأشراف** ٣: ٢٦٢؛ **الفتوح** ٨: ١٣٢.

الطالقان وفارياب. واختلف عددهم، حسب الأخبار، بين مئةٍ وعشرين[١]، ومئةٍ وخمسين[٢]، أو خمسِمئة[٣].

وهناك وافى جيشُ نصربن سيّار بقيادة مسلم بن أحْوَز، واقتتل الجانبان ثلاثة أيّام، واستُشهد يحيى بسهمٍ أصاب جبهتَه[٤]، واستُشهد بعده جميع أصحابه[٥]. وكانت حدثت هذه الواقعة أوائل سنة (١٢٦هـ) على ما يُحتَمل، في موضع يقال له: «أرغُونه» أو «أرغُوني»[٦].

واحتُزّرأس يحيى ودُفن بدنه، لكنّ نصربن سيّار أمربإخراجه وصلبه بالجوزجان على قارعة الطريق، فلم يزل كذلك إلى أيّام أبي مسلم وخروجِه بخراسان، وهو الذي أمر به فأُنزل، وكُفّن، وصُلّيَ عليه ودُفن[٧]. وكان خروج يحيى هو الذي حمل الوليد بن يزيد على أن يكتب إلى عامله بالعراق أن يحطّ زيداً عن خشبته، ويُحرقه، ويذرّ رماده في الهواء.

وتهيّأت خراسان، بعد نهضة يحيى، لثورةٍ عامّة على بني أميّة أكثرمن ذي قبل، فلم يُولَد في تلك السنة بها مولودٌ إلّا وسُمّي بيحيى أو بزيد على ما ذكر المسعوديّ[٨]. كما ذكر بعض أنّ أوّل سوادٍ بدأ من العزاء على يحيى[٩]. وهذا رأي

١ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣٠ ـ ٢٣١.
٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٦٢.
٣ ـ عمدة الطالب: ٢٦٠.
٤ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٦٢؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٧.
٥ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣١.
٦ ـ عمدة الطالب: ٢٦٠؛ مروج الذهب ٣: ٢١٢؛ الحور العين: ١٨٩.
٧ ـ الفتوح ٨: ١٣٦؛ أنساب الأشراف ٢: ٢٦٣.
٨ ـ مروج الذهب ٣: ٢١٣.
٩ ـ أنساب الأشراف ٣: ٢٦٤.

عاطفيّ، لأنّ لبس السواد بدأ بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

ووضع أبو مسلم، بعد ظهوره، الديوانَ بين يديه، فإذا مرّ به اسم رجل ممّن أعان على يحيى، قَتَلَه[١]! ويمكن أن نجزم موقنين أنّ المشاعر التي أجّجتها شهادة زيد وابنه يحيى بين الناس موصَّلةً بالمشاعر الشعبيّة العامّة لمصلحة أهل البيت، كانت أهمَّ عامل لانتصار بني العبّاس؛ لأنّهم استثمروا تلك المشاعر باسم أهل البيت لمصالحهم[٢].

حركة عبد الله بن معاوية

إنّ من الحركات التي يتسنّى لنا أن نحسبها في عِداد الحركات الشيعيّة بسبب اشتراك بعض بني هاشم والعلويّين فيها، هي حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر التي استدامت من سنة ١٢٧ إلى سنة ١٣١هـ. وأبو عبد الله هو معاوية بن عبد الله بن جعفر [الطيّار]، الرجل الوحيد الذي سُمّي بهذا الاسم من بين بني هاشم، وتعود تسميته إلى وصول خبر ولادته إلى أبيه وهو جالس عند معاوية بن أبي سفيان، فأصرّ عليه معاوية أن يُسمّيه باسمه[٣]! وكان عبد الله بن معاوية مشغولاً قبل حركته العسكريّة والسياسيّة بالشعر والأدب، وله مع الأدباء معاشرات، وعندما نشب صراع بين مروان بن محمّد الذي كان يدّعي الملك وبين إبراهيم بن الوليد ابن يزيد في السنين الأخيرة من الحكم الأمويّ، ضعف وضع الأمويّين في العراق بشدّة، بخاصّةٍ أنّ الحروب القبليّة بين عرب الشمال وعرب الجنوب في الكوفة أدّت إلى بروز الخلافات، وأوقعت عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حاكمَ الكوفة في ورطة. وقد نقل الطبريّ أنّ الشيعة لمّا رأت ضعفه دعوا عبد الله بن معاوية بن جعفر إلى البيعة، وكان الذي وليَ ذلك هلال بن أبي الورد. ولمّا كان عبد الله بن عمر

---

١. المحبّر: ٤٨٤؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٢.

٢. انظر: شرح النهج ٧: ١٤٣.

٣. الأغاني: ١٢: ٢٢٣

بالحيرة، استطاع عبد الله بن معاوية أن يسيطر على الكوفة، فبايعه حتّى مَن كان فيها من أهل الشام، كما بايعه جماعة من المدائن وفم النيل أيضاً.

وبايعه أهل الكوفة الذين كانوا يحملون العداء الدفين لبني أميّة، ويرون أنّ بني هاشم هم المؤهّلون للحكم بعدهم. ودعمته قبيلة ربيعة ذات السابقة الشيعيّة. وحين نشب القتال بينه وبين عبد الله بن عمر بن عبد العزيز لم يصمد أصحابه صموداً يُذكَر، فبقي وحده إلى جانب عمر بن غضبان. وبعد ذلك أخذت ربيعة الأمان لها وله ولأصحابه، فبعثت به من الكوفة إلى المدائن[1]، فاستطاع أن يستعيد قواه فيها. وخرج بالذين التحقوا به من الكوفة - عَبيد أهل الكوفة[2] - إلى الجبال، وحكم: أصفهان، وقومس، وحُلوان، واصطخر، والريّ ردحاً من الزمن[3]. وإنّ المصاعب التي كان يواجهها الأمويّون من الخوارج وغيرهم من الثائرين جعلتهم يُرجئون مواجهته حتّى حين، وها هو قد حصل على حكم ضعيف في أصفهان وأصطخر سنة (١٢٨هـ) بعد أن بدأ حركته سنة (١٢٧هـ)، وبعث إخوته إلى فارس والجبال، وولّى أبا جعفر المنصور (ايذج - ايذه) من الأهواز مدّةً، فواجه فيها مشاكل أعجزته عن أن يقوم بعملٍ ما[4].

وأخيراً، حدث قتال بينه وبين عامر بن ضبّارة الذي أوفدته الحكومة الأمويّة من العراق، وذلك في أصطخر سنة (١٢٩هـ)، فهُزِم وهرب إلى هراة، فقبض عليه عامل أبي مسلم، وأشخصه إليه، فلمّا وافاه، وكان أبو مسلم عاملَ العبّاسيّين وكان يشعر بخطر منه، حبسه وأمر بالتشدّد عليه. وذكر البلاذريّ أنّه كان، وهو في الحبس،

---

١ ـ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٦٠١ ـ ٦٠٤.

٢ ـ نفسه ٥: ٦٠٠، ٦: ٣٨.

٣ ـ انظر **أنساب الأشراف** ١: ٦٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٦: ٣٨؛ **الأغاني** ١٢: ٢٢٩.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٢: ٦٣؛ **تاريخ أصبهان**، لأبي نعيم ٢: ٦٢؛ **عمدة الطالب**: ٣٨.

يسمّي أهل خراسان حمقى بسبب متابعتهم لأبي مسلم[1]! وبلغ أبا مسلم ذلك فثقّل الوطأة عليه. والحقيقة هي أنّ أبا مسلم إذ كان عاملَ العبّاسيّين، فالمُقتضى منه أن يقمع العلويّين والطالبيّين. ويتبيّن من رسالةٍ مفصّلة كتبها عبد الله بن معاوية إلى أبي مسلم أنّه كان مصفَّداً بالأغلال[2]. ونقل البلاذريّ أنّه مات في حبس أبي مسلم، كما نقل خبراً آخرعن هشام الكلبيّ أنّ أبا مسلم قتله[3].

وتحدّث أبو الفرج حوله في صفحات من كتابه مسطّراً خلاصة الأخبار الواردة بشأنه في مختلف المصادر، ويُلحظ في بعضها تناقض، فقد جاء في أحدها: أنّه كان يدعو إلى الرضا من آل محمّد، وقال في خبر آخر: إنّه كان يأخذ البيعة لنفسه، وورد في خبرٍ: أنّه لبس «الصوف» وبايعه أهلُ الكوفة، ولم يبايعه كلّهم، وقالوا: ما فينا بقيّة، قد قُتل جمهورنا مع أهل هذا البيت! وذكر أبو الفرج مفصّلاً أنّه استعمل أخاه الحسن على أصطخر، وأخاه يزيد على شيراز، وأخاه عليّاً على كرمان، وأخاه صالحاً على قمّ ونواحيها. ولمّا عجز عن مجاهدة بني أميّة، قصد خراسان، فلمّا صار في بعض الطريق سأله رجل: أنتَ مِن وُلد رسول الله ﷺ؟ أأنتَ إبراهيم الإمام؟ قال: لا، قال: فلا حاجةَ لي في نُصرتك. وذكر أبو الفرج أنّه خرج إلى أبي مسلم وطمع في نصرته، فحبسه. وهناك كتب رسالته المشهورة إليه. وقتله أبو مسلم خشيةَ أن يفسد عليه أصحابه وأهل طاعته[4].

وذكر الآخرون مقتله[5]، وكان ذلك في سنة ١٣١هـ[6]. ونقل أبو الفرج خلاصة هذه

---

١ ـ **أنساب الأشراف** ٢: ٦٦.

٢ ـ **نثر الدرّ** ١: ٤٢٨؛ **البيان والتبيين** ٢: ٨٥، ٨٦.

٣ ـ **أنساب الأشراف** ٢: ٦٦.

٤ ـ **الأغاني** ١٢: ٢٣٠.

٥ ـ **نثر الدرّ** ١: ٤٢٧؛ **المقالات والفرق**: ٣٩؛ **فرق الشيعة**: ٣٣.

٦ ـ ذكر ابن عنبة أنّ السنة هي سنة ١٣٣هـ، وقال: وقبره بهراة في المشرق يُزار إلى الآن، رأيتُ قبره سنة ستّ وسبعين وسبعمائة. (**عمدة الطالب**: ٣٨).

الأخبار في كتاب (مقاتل الطالبيّين) أيضاً[1].

ومن الطبيعيّ أنّ العبّاسيّين افتروا عليه الأخبار؛ لأنّ عاملهم هو الذي قتله. ولم يَرُق بني أميّة شخصُه، فبثّوا دعاياتٍ كثيرةً ضدّه، ومثالها ما عابه به عامر بن ضبّارة، إذ رماه وأصحابَه بارتكاب بعض الأعمال المنافية للعفّة والشرف![2] وهنا ملاحظتان جديرتان بالاهتمام؛ الأُولى: شخصيّته قبل نهضته؛ والأخرى: موقفه بعد النهضة.

نقل أبو الفرج الأصفهانيّ في الأغاني معظم الأخبار المتعلّقة به، فهو عنده أديب وشاعر بجميع ما يقتضيه الأدب والشعر آنذاك.

يضاف إلى ذلك، كان معه جمع من الشعراء والمتّهمين بالزندقة أيضاً - ولا يُعلَم القصد من الزندقة[3]، وإن لم تكن الكفرَ المحض حتماً - وذكر الأصفهانيّ أسماء ثلاثة من الزنادقة. ونقل أخباراً أخرى تتّهمه بالزندقة صراحةً[4]. ولا يُعلم مدى صحّة هذا التصوير، وإن لا يتيسّر الحكم على هذا الموضوع بصورة عامّة. والثابت هو أنّ أهل الكوفة لمّا اضطرب أمرها، رضَوه رجلًا جديراً بجهاد الأمويّين، فإذا كان متّهماً بالزندقة، فكيف يُتَصَوَّر هذا الأمر؟ وأثنى عليه مصنّف كتاب المُجْدي، وكان نسّابةً شيعيّاً في القرن الخامس الهجريّ، قائلًا: كان سيّداً كريماً، وذكر أنّ أباه جعله وصيّاً له لما يُعرَف فيه مِن كرم الأخلاق[5]، وشُكَّ في دعوته إلى الرضا من آل محمّد[6].

---

١ ـ مقاتل الطالبيّين: ١١٤ ـ ١١٦.

٢ ـ تاريخ الطبريّ ٦: ٤٠ ـ ٤١.

٣ ـ مقاتل الطالبيّين: ١١٢؛ الأغاني ١٢: ٢٣١.

٤ ـ الأغاني ١٢: ٢٣٣؛ وانظر: لسان الميزان ٣: ٣٦٤.

٥ ـ المجدي: ٢٩٧.

٦ ـ قال بعض: إنّه دعا إلى الرضا من آل محمّد (نثر الدرّ ١: ٤٢٧)، وقال آخرون: إنّه دعا إلى نفسه (عمدة الطالب: ٣٨).

إنّ الحريّ بالقول في هذا الشعار هو أنّه أوّلًا: يدلّ أساساً على اعتقاد أنّ الخلافة هي لآل محمّد صلوات الله عليهم، يَخصُّ مَن كان «الرضا» منهم. ثانياً: كان دعاة بني العبّاس ينادون به حيناً من الزمن للتمويه، ويعرّفون ببني العبّاس مصداقاً له تدريجاً. ثالثاً: رفعه الزيديّة فيما بعدُ باستمرار. وفي الحقيقة، أنّ الشخص الذي كان ذا شعبيّةٍ أكثر هو الذي يدعو إلى الرضا من آل محمّد لا إلى نفسه، أفكانت هذه القضيّة قد طُرحت بهذا الشكل إبّان حركة عبد الله بن معاوية أم بعدها؟ فهذا أمر غير بيّن. وإنّ ما يلفت النظر هو أنّ الأخبار التي نقلها الطبريّ تشير إلى حضور الزيديّة أيّام حركة عبد الله، فقد قال في موضع: وحمل أهلُ القلب مِن أهل الشام على الزيدية[1]. وألمع في موضع آخر إلى قتال الزيدية لأهل الشام، وقال بعد ذلك: «ثمّ إنّ ربيعة أخذت لأنفسها وللزيديّة ولعبد الله بن معاوية أماناً»[2]. ولم تشر سائر المصادر إلى هذا الجانب من القضيّة. ومن الجدير ذكره أنّ الزيديّة تعتقد أنّ الإمام يجب أن يكون علويّاً، وعبد الله طالبيّ. واستتبّت هذه العقائد طبعاً في زمنٍ لاحق. وربّما أعان الزيديّة عبد الله بن معاوية في تلك الظروف من أجل التغلّب على الأمويّين، لا اعتقاداً منهم له. ومن المحتمل أيضاً أنّ المؤرّخين اعتبروا كلَّ ثورةٍ علويّةٍ زيديّةً. وأشار الطبريّ في خبرٍ إلى اجتماع الخوارج حول عبد الله بن معاوية[3]! ويمكن أن يكون هذا الأمر لتشويه سمعة ما هو حَسَنٌ.

وجاء تصوير لعبد الله بن معاوية في كتب الفِرق أيضاً، فذكرت أنّه كان رئيس فرقةٍ تُدعى الجناحيّة، وهي من فِرق الغُلاة[4]. ومن الطبيعيّ أنّ موضوع عبد الله في

---

١ .**تاريخ الطبريّ** ٥: ٦٠٣.

٢ .نفسه ٥: ٦٠٤.

٣ .نفسه: ٦: ٤٠.

٤ .**الوافي بالوفيات** ١٧: ٦٣؛ وانظر: **موسوعة الفِرق الإسلاميّة**، ص١٤٢.

هذا التصوير لا يمتّ بصلةٍ إلى موضوع الزيديّة. وربط سعد بن عبد الله الأشعريّ اسم فرقة به، في حين هي ترتبط بالكيسانيّة التي كانت تعتقد إمامة محمّد بن الحنفيّة، وخلافة ابنه أبي هاشم له. واعتقدت أيضاً أنّه أوصى لعبد الله بن معاوية. وسمّى الأشعريّ هذه الفرقة الحربيّة[1]. وذكر الشهرستانيّ فرقة باسم الحارثيّة، كان أصحابها يعتقدون أنّ روح عبد الله بن معاوية حلّت في إسحاق بن زيد بن الحارث[2]. ونحن نعلم أنّ المدائن - التي كان إسحاق هذا من أهلها - ضمّت غلاةً كُثراً. وليس ببعيدٍ إذا قلنا: إنّ أغلب هذه القضايا قد اصطُنعت بعد مقتل عبد الله ابن معاوية، وهو نفسه لا علاقة له بها. وزعم بعض الناس أيضاً أنّ أرواح الأئمّة عليهم السلام حلّت فيهم، فقضيّة الحلول موجودة بوضوح حتّى فيما يخصّ أئمّة الشيعة عليهم السلام.

ومهما كان، فإنّ الخليق بالذكر هو أنّ رجلًا مثل عبد الله بن معاوية لا يمكن أن يحقّق رضى آل أميّة وآل العبّاس وكثيرٍ من المؤرّخين؛ لأنّه ثار ضدّهم، ولأنّه مِن العلويّين القائمين بالسيف في آنٍ واحدٍ، فهو مُحاصَر من كلّ جانب، وما يرتبط بما بعده لا يمتّ إليه بصلةٍ طبعاً. ولا يعني هذا الحكم تزكيةَ جميع أعماله، ومعاشراتهِ لشتّى الأشخاص.

وكان كثير من بني هاشم قد شهد حركته، ومثالهم البارز أبو جعفر المنصور. ونحن نعلم أنّ بني العبّاس كانوا يعملون مستقلّين يومذاك، فلماذا كان أبو جعفر مع عبد الله بن معاوية؟! إنّها مسألة مهمّة، وربّما يعود ذلك إلى أنّ بني العبّاس لم يتوقّعوا النصر أمراً فصلًا وقتئذٍ، وكان من جهدهم في تلك الآونة مشاركتُهم لعبد الله ابن معاوية تارةً، ولمحمّد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكيّة[3] تارةً أُخرى؛ لتكون لهم حصّةٌ ما في المستقبل.

---

١ . **المقالات والفرق**: ٣٨.

٢ . انظر: **موسوعة الفِرق الإسلاميّة**، الفرقة الحارثيّة، ١٤٧- ١٤٩.

٣ . [جاء في النصّ الفارسيّ أنّ عبد الله بن الحسن معروف بالنفس الزكيّة، وهذا سهو؛ لأنّ ابنه محمّداً كان معروفاً بهذا اللّقب] المترجم.

الوضع الأخير للشيعة والعلويّين في العهد الأمويّ

تُرشد أدلّة كثيرة في متناول أيدينا إلى أنّ العراق كان يعتقد أنّ العلويّين وحدهم هم المؤهَّلون لأن يحلّوا محلّ بني أميّة، ولم يَدُر في خَلَد أحدٍ أنّ بني العبّاس يخلفونهم إلّا حين حكم أبو مسلم الخراسانيّ وأبو سَلَمة الخلّال عَنوةً. وكان الجوّ العامّ طبعاً في مصلحة العلويّين، وكان موقعهم السياسيّ مميَّزاً تماماً، ولم ينطبق التعبير الغامض ذو المغزى: الرضا من آل محمّد إلّا عليهم. ولم يتصوّر الناس، الذين كانوا يعرفون هذا الاصطلاح، غيرَ ذلك، بيدَ أنّ الإشكال يكمن في دهاء ومكر العبّاسيّين وتضخيمهم للخلافات التي كانت ناشبةً في داخل العلويّين، وهي خلافات بني الحسن وبني الحسين.

فكان لبني الحسين، ووجوههم البارزة الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام، شيعة كثيرون يعتقدون إمامتهم، وأنّهم مفترضو الطاعة بسبب موقعهم العلميّ والأخلاقيّ في المجتمع العراقيّ وبين الشيعة والعلماء الآخرين. وكان لبني الحسن تراثهم المتمثّل بعلويّتهم، وفيهم عبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن المجتبى عليه السلام الذي كان يجدّ في تقديم ابنه محمّدٍ بوصفه مرشّحَ العلويّين الوحيد للحكم مكان بني أميّة. ولا يتسنّى تمييز الأكثر نفوذاً وجاهاً منهما على وجه الدقّة، لكنّ عبد الله ابن الحسن كان ذا موقعٍ مهمّ داخل نطاق العلويّين ومجموعة بني هاشم، وقد استطاع أن يرسّخ موقع ابنه إلى حدٍّ ما،[1] وإن كان أبو سَلَمة داعيةُ العبّاسيّين المهمّ في العراق - كما سنرى - كاتَبَ الإمام الصادق عليه السلام من أجل قبول الحكم، وهذه المكاتبة - بغضّ النظر عن مدى جدّيتها - تدلّ على الموقع السياسيّ الذي كان يتمتّع به الإمام الصادق عليه السلام. وتحدّثنا فيما تقدّم حول شيعة الإمام الصادق عليه السلام

١. أنساب الأشراف ٣: ٧٦.

ونوع عقيدتهم، ونشير هنا إلى جهد النفس الزكيّة وأبيه من أجل التصدّي للقيادة.

ذكر البلاذريّ أنّ الحسن المثنّى بن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، الذي كان يفضل سائر أبناء الإمام الحسن عليه السلام، حضر ذات مرّة عند عبد الملك بن مروان، وقد أسرع إليه الشَّيب، فسأله عبد الملك عن سبب ذلك، فقال يحيى بن الحكم: قد شيّبته أمانيُّ أهل العراق الذين يَقْدمون عليه كلّ عام يُمنّونه الخلافة![1] وهذا الكلام يعبّر عن إقبال أهل العراق على العلويّين، و إن أقررنا أنّ وجه هذا الأقبال غير بيّن.

وكان لأبناء عبد الله بن جعفر قاعدة أيضاً، وقد تحدّثنا حول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر آنفاً. ولو رجعنا إلى الوراء قليلًا لوجدنا أنّ الحجّاج حين أراد أن يتزوّج بنت عبد الله بن جعفر، أخاف بعضُ الناس عبد الملك بن مروان من أن يؤدّيَ هذا الزواج إلى زوال ملك بني أميّة؛ لِما كان لهذه الأُسرة من منزلة في العراق، فتدخّل عبد الملك، فطلّقها الحجّاج[2]!

إنّ الأعمال التي قام بها عبد الله بن الحسن من أجل ابنه محمّدٍ المعروف بالنفس الزكيّة، وتسميته بالمهديّ جعلته يتبوّأ موقعاً بين بني هاشم وغيرهم، حتّى يتبيّن من بعض الأخبار أنّ اجتماعات كانت تُعقد، وأنّ عبد الله كان يدعو بني هاشم فيها إلى بيعة ابنه. وعارض الإمامُ الصادق عليه السلام ذلك العمل، في حين بايع محمّداً بعض العبّاسيّين أيضاً، ومنهم المنصور والسفّاح.

ويستبين من خبرٍ ذكره أبو الفرج أنّ بني هاشم اجتمعوا بالأبواء وعزموا على اختيار رجل من بينهم ليبايعوه. وقال عبد الله بأنّ ابنه محمّداً هو المهديّ، وعليهم أن يبايعوه! وكان المنصور حاضراً في ذلك المجلس، فأكّد بيعته. وقال لهم عبد الله: «لا ترسلوا إلى جعفر؛ فإنّه يُفسد عليكم»! ولمّا بلغ الإمامَ الصادق عليه السلام خبرُهم،

---

١ ـ نفسه ٣: ٧٤.

٢ ـ الكامل في الأدب ١: ٣٤٩؛ نثر الدرّ ٤: ٥٦؛ بلاغات النساء: ١١١.

نفى أن يكون محمّد بن عبد الله هو المهديّ، وذكر أنّه لو خرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأعانه، فاتّهمه عبد الله بن الحسن بالحسد لابنه.[١]

وذكر البلاذريّ أنّ النفس الزكيّة كان يخرج إلى البادية بعد البيعة، فيُطيل المُقامَ بها، ثمّ يظهر أحياناً ويستتر أحياناً، فلم يزل على ذلك حتّى بُويع أبو العبّاس السفّاح. والنفس الزكيّة يومئذٍ في بلاد غَطَفان عند آل أرطاة بن شبهيّة، وجعل ينتقل بالبادية، وتَسمّى بالمهديّ[٢]. ولمّا ولي بنو العبّاس كان متخفّياً، إلى أن ثار في المدينة سنة ١٤٥هـ، وقُتِل. والمنصور الذي كان قد بايعه، خاف منه خوفاً شديداً، ولم يقرّ له قرار حتّى قُتِل هو وأخوه إبراهيم بن عبد الله.

إنّ ما يجدر الالتفات إليه هنا هو أنّ بني العبّاس كانوا يمارسون نشاطهم مستقلّين، وأنّ إبراهيم الإمام كان يرسل مبعوثيه إلى مختلف الأقاليم. وقد استغلّوا اسم الإمام عليّ عليه السلام وأبنائه من أجل استقطاب الناس[٣]، وتسلّموا مقاليد الحكم بشكل منظّم.

---

١ ـ مقاتل الطالبيّين: ٤٠ ـ ٤١؛ الإرشاد: ٢٧٧؛ كشف الغمّة ٢: ١٧٢ ـ ١٧٣.

٢ ـ أنساب الأشراف ٣: ٧٩.

٣ ـ مقاتل الطالبيّين: ٢٣٣؛ وانظر: الشيعة في إيران ـ دراسة تاريخيّة.

الفصل الثاني عشر

الحكومة المروانيّة نحو الأفول

خروج الحارث بن سريج في خراسان

كانت خراسان نقطة ضعف مهمّة للأمويّين، ومن أسباب هذا الأمر بُعدها عن عاصمة الحكم، لكنّها ـ بغضّ النظر عن البعد ـ كانت تعاني من مشاكل عديدة، فالنفاق القبليّ بين العرب المهاجرين، ومكابدتها ظلمَ الأمويّين الذي كان سائداً فيها على وجه الخصوص، واستقلالها النسبيّ سياسيّاً واقتصاديّاً، كلّ ذلك جعلها مركزاً مهمّاً بين المناطق الشرقيّة. ولم يكن اتّساق الثورات المهمّة فيها أواخر العهد الأمويّ بالأمر الهيّن الذي يمكن للأمويّين أن يتجاوزوه بسهولة. وأثبتت التجربة أنّ عقبى هذا الأمر تعبئة جيش عظيم منها ألوى بالحكم الأمويّ. ونستعرض فيما يأتي ثورة الحارث بن سريج التي كانت من أثبت الثورات في خراسان والتي امتدّت من سنة ١١٦ إلى سنة ١٢٧هـ..

كانت ثورة الحارث بن سريج من الثورات التي وقعت ضدّ الأمويّين في خراسان ومهّدت لثورة العبّاسيّين ونصرهم، وصاحبها عربيّ من قبيلة تميم، قاتل الحكّام الأمويّين بخراسان أمداً طويلًا، فبدأ سنة ١١٦ وانتهى سنة ١٢٧هـ.

وإذا استثنينا بُعدَ خراسان عن عاصمة الحكم، فإنّها، بوصفها منطقة بالغة الأهميّة في الشرق، مُنيت بالاضطرابات القبليّة... يضاف إليها أنّ المعاملة السيّئة التي عاملت بها الحكومةُ الأمويّة العربيّة الموالي [غير العرب] قد ولّدت الخلاف بين الفريقين [العرب وغير العرب] بشكل جليّ ملحوظ، وإنّ ظلم الحكّام الأمويّين المتواصل ـ الذي لم يخفّ إلّا في عهد عمر بن عبد العزيز القصير جدّاً ـ أوجد

الثورات التي استوعبت قسماً عظيماً من الناس.

و حركة الحارث التي وقعت بعد حركة يزيد بن المهلّب، وكانت أكثر منها أصالةً[١]، هي حركةٌ قامت من أجل حماية «الدّين» وإقامة «العدل»، وقائدها معارض للسيادة الأمويّة، وكان كثرما عرض مبدأ الشورى في خراسان لتعيين الحاكم[٢]، وقد جاءت أخباره جامعةً نسبيّاً في تاريخ الطبريّ، ولم ترد في المصادر الأخرى إلّا على سبيل الإشارة، كما أنّ كثيرين أهملوها إهمالًا تامّاً.

و لمّا مات الجُنيد بن عبد الرحمان سنة ١١٦، وجد الحارث بن سريج الفرصة مناسبة فبدأ ثورته، وغلب على مدن: بلخ، والجوزجان، وفارياب، والطالقان، ومرو الروذ خلال فترة قصيرة[٣]. وسبّب كُره الناس للحكّام الأمويّين إقبالهم على الحارث وإخلاءهم له كلّ مدينة قَصَدَها، كما اعترف بذلك عاصم بن عبد الله نائب الحاكم السابق لخراسان[٤]؛ لذلك فكّر عاصم بطلب المدد من الشام. وهذا تهديد كان معظم حكّام العراق وسائر المناطق يُوعِدون به المعارضين، ثمّ حدثت بعد مدّة عدّة حروب بين عاصم والحارث، وانهزم الحارث فيها وفرّ إلى بلخ. ورجع الدهاقين الذين كانوا نصروه إلى بلادهم بعد هزيمته[٥]، لكنّ الحارث عبّأ نفسه مرّة أخرى. ولمّا سمع عاصم باعتزاله، أراد مصالحته، وعرض عليه الكتابة إلى هشام ابن عبد الملك أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فإذا أبى خرجوا عليه جميعاً.

---

١ - كانت حركة يزيد بن المهلّب، كما ذكر ذلك في موضعه، سياسيّة محضة، منطلقةً من انتهازيّة الرجل المذكور.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٦: ٢ — ٣.

٣ - **الفتوح** ٨: ١٠٦؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٩.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٩.

٥ - نفسه ٥: ٤٣٠، يطلق اسم الدهاقين غالباً على الملّاكين وأصحاب الأراضي الذين كانوا يتمتّعون بسلطة محلّيّة أيضاً.

ولم يحصل اتّفاق بين أصحاب عاصم في نهاية الأمر، واقتتل عاصم والحارث، وتقهقر الحارث في هذا القتال.

ولمّا عرف هشام الخطر أمَرَ خالد بن عبد الله القسريّ أن ينصب أخاه «أسداً»، الذي كان حاكم خراسان سابقاً، أميراً عليها لقمع الحارث، فسار أسد صوب خراسان مع جند الشام والعراق، ونشب القتال بينهم وبين أصحاب الحارث، وكذلك بين أهالي تِرمِذ والحارث، وانكسر الحارث، ففرّ نحو سلطان الترك الملقّب بـ«الخاقان» في الشرق[1]، وهذا الخاقان المعروف الذي آوى الحارث كُنّيَ أبا مزاحم؛ لأنّه كان يزاحم العرب[2]! وعلى الرغم من هزيمة خاقان ملك الترك في حروبه مع أسد بن عبد الله، لم يستطع أسد صدَّ خطرهم بنحوٍ تامّ.

واستمرّت محاربة الترك مع بداية حكم نصر بن سيّار في خراسان، وقاد نصر حروباً جديدةً في بلخ بعد مضيّ سنة على تولّيه الأمر سنة ١٢١هـ. ووقف الحارث بن سريج فيها مع الترك ضدّ نصر[3]، وهو في الحقيقة، سكن طخارستان مع أصحابه بعد أن خرج من بلخ في أعقاب هزيمته الأولى. وكتب يوسف بن عمر حاكم العراق إلى نصر بن سيّار يأمره بمهاجمة مدينة الشاش [طاشقند الحاليّة] الّتي كان فيها الحارث حتّى يدمّرها تدميرًا[4]! فسار نصر بتحريض الناس للقضاء على الحارث. وحدث بينهما قتال يسير، ولمّا بلغ الشاشَ بعد هذا القتال شرط على ملكها، الذي كان رضي بالصلح، أن يُخرج الحارث منها، فأخرجه إلى فارياب!

وبقي الحارث في تلك المناطق مع أصحابه الذين كانوا بإمرته، إلى أن حكم

---

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٤٣٨.

٢ - نفسه ٥: ٤٤٣.

٣ - نفسه ٥: ٤٩٣.

٤ - نفسه ٥: ٤١٤ — ٤٩٥.

يزيد بن الوليد بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ، وحاول أن ينظّم الحكومة الأمويّة ويُصلح علاقاتها. ومن معارضي الأمويّين الحارث الذي كان شعاره شعار يزيد بالتمسّك بالكتاب والسنّة. وناهض جُديعُ بن عليّ الكرمانيّ نصرَ بن سيّار، لكنّ نصراً شعر أنّ خطر الحارث يمكن أن يكون أهمَّ من خطر جديع، فرغب في موادعته، فحملت هذه الظروف يزيد بن الوليد على أن يرسل كتاب الأمان إلى الحارث ليعود من بلاد الترك إلى خراسان، وكان يزيد قد أشار في كتابه إلى أنّه غَضِب لله، ونهض بسبب تعطيل حدود الله، وظُلمِ الحكّام للناس وانتهاك حقوقهم، فله أن يرجع. وكتب إلى حاكم العراق أيضاً أن يُطلق أولاده من السجن، ويُرجع إليه أمواله التي كانت أخِذت منه[1]، فهو كان متوطّناً بلاد الترك حتّى ذلك الحين قرابة اثني عشر عاماً.

و هلك يزيد بن الوليد سنة ١٢٧هـ، ولم تدم بعده حكومة إبراهيم بن الوليد أيضاً. ثم تسلّط مروان بن محمّد، آخر ملكٍ أمويّ على الحكم. ولمّا كان الحارث يحتمل امتناع مروان من مواصلة سياسة يزيد، اشتبك بنصر تدريجاً، واتّفق مع جُديع بن عليّ الكرمانيّ عليه، ثم نشب قتال بينه وبين الكرمانيّ بعد مدّةٍ، وكانت مُضَر معه، واليمانيّة مع الكرمانيّ. وحدث هذا القتال سنة ١٢٨هـ، وقُتل فيه الحارث. وفي ثورة الحارث ملاحظات جديرة بالاهتمام والدراسة:

الأولى: إذا تغاضينا عن بعض القضايا الجزئيّة التي كان يمكن لها أن تُسبّب ظهور ثورة ضدّ الحكّام الأمويّين، فإنّ الحارث ذكر سببين لخروجه، وهما اللّذانِ حملا الناس على الالتفاف حوله، حتّى لو لم يكن يعتقدهما. وهذان السببان هما: شعار العمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ؛ وإفناء الظلم الأمويّ.

١ - تاريخ الطبري ٥: ٥٩١ – ٥٩٢.

وإذا ألقينا نظرةً على كلامه وسلوكه تبيّن ذلك منهما، فقامت دعوته في أوّل خروجه على العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، والبيعة للرضا[١]، وأفصح عن باعثه الدينيّ ابتغاء إبطال تديّن الملوك الأمويّين. وكانت الإشارة إلى العمل بالكتاب والسنّة مفيدةً لكثير من الثورات يومئذٍ؛ لأن الأمويّين اشتهروا عند المسلمين بفسقهم وفجورهم وتهتّكهم. وحين قدم الحارث بن سريج على نصر بن سيّار سنة ١٢٦هـ، قدّم له نصرٌ مبلغاً من المال هديّةً منه، فقال له الحارث: «إنّي لستُ من هذه الدنيا ولا من هذه اللّذات، ولا من تزويج عقائل العرب في شيء، وإنّما أسأل كتاب الله عزّوجلّ والعمل بالسنّة، واستعمالَ أهل الخير والفضل»[٢]. وقال أيضاً: «خرجتُ من هذه المدينة [خراسان] منذ ثلاث عشرة سنةً إنكاراً للجور»[٣]. وكتب مبادئ نهضته وسيرته، وأمر أن تُقرأ في طريق مرو والمساجد، فأجابه قوم كثير[٤].

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٢٨؛ أشار فان فلوتن في كتاب «**السيادة العربيّة**» (ص: ٦٢) إلى أنّه كان يميل إلى حكومة آل النبيّ، واستند إلى مقالة «كترمير» في المجلّة الآسيويّة الفرنسيّة (تاريخ تشرين الأوّل ١٨٣٥، ص ٣٢٧)، إذ طرحت هذه النقطة. ولا يُلحَظ هذا الشيء في **تاريخ الطبريّ** الذي هو أهمّ مصدر يتحدّث في وثبة الحارث، ويحتمل أنّ هذا التخمين قد نشأ من وضع خراسان. والشاهد الآخر الذي يمكن أن يساعد في هذا المجال شعرٌ نقله الطبريّ للكُميت بن زيد الأسديّ الشيعيّ في مدح الحارث، وإن لم يُشر في الشعر المذكور إلى تشيّعه، لكنّه ذكر «الرايات السُّودَ»، التي ترتبط بنهضةٍ تَحدث في خراسان وفيها الرايات السود، كما جاء في بعض روايات «**الملاحم والفتن**»، وقد طُرح أُفق هذه النهضة بنحوٍ شيعيّ على لسان شاعرٍ كالكميت في وقت لم ينفصل فيه بنو العبّاس عن العلويّين علانية يومئذٍ. وجاء في خبر آخر أيضاً أنّ الحارث كان يرى نفسه هو صاحب الرايات السود. (**تاريخ الطبريّ** ج٦، ص٣) وفي الوقت ذاته، فإنّ صحبة الجهم بن صفوان للحارث أو نسبة الإرجاء إليه يمكن، إذا صحّ، أن يدحض اعتباره رجلاً شيعيّاً.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٦٠٦.

٣ - نفسه.

٤ - نفسه ٦: ٤.

ولمّا انضمّ إلى الكرمانيّ، ورأى أصحابه ما ارتكبه جندُ الكرمانيّ من القتل والنهب، انفصلوا عنه ورئيسهُم بِشربن جُرموز الذي كان في بَدْء أمره من أصحاب الحارث المقرّبين. وقالوا: نحن الفئةُ العادلة، نَدعوإلى الحقّ، ولا نقاتل إلّا من يقاتلُنا[1]. وتدلّ هذه القضايا إجمالًا على أنّ الحارث بدأ ثورته بشعار الدعوة إلى الكتاب والسنّة، ورفعِ الظلم والتعدّي، وجمع الناس حوله، فدَعَمه كثيرمن الدهاقين الذين أجحف الحكّام بحقّهم[2]، مضافاً إلى العرب الذين دعموه أيضاً، ونصره هؤلاء جهاداً منهم للحكّام الأمويّين كي يتخلّصوا من ظلمهم. وتولّى هذا الرجل العربيّ الدفاع عن العجم الذين كانوا يعانون من ظروف صعبة، بخاصّة أنّ حركته نالت اهتمامهم وإقبالهم كثيراً في فترةٍ بلغ الاضطهاد فيها ذروته، وترك السُغد - مع أنّهم كانوا اعتنقوا الإسلام - موطنَهم ولجأوا إلى الترك بسبب ما عانوه من الاضطهاد.

وعاش الحارث بين الترك ردحاً من الزمن، وبعضُهم مسلم، وكثيرمنهم كان على دينه الأصليّ، وكانوا صامدين أمام العرب مُتَحدّين بالقتال. ويبدو أنّ جمّاً غفيراً منهم كانوا مسلمين، وما رفضوا حكومةَ العرب إلّا فراراً من تسلّط الأمويّين الذين كانوا يأخذون الجزيةَ حتّى من المسلمين! وألمع (فان فلوتن) إلى وجود الإسلام بين كثيرٍمن الترك، وذلك أثناء إشارته إلى وجود قاضٍ مسلمٍ بين أصحاب الحارث في بلاد الترك[3]، وهوما ذكره الطبريّ. وهذه النقطة لافتة للنظرفي دفع الشبهة التي أثارها بعض الأشخاص، مثل نصربن سيّار، على الحارث، إذ اتّهموه

١ - نفسه ٦: ١٠.

٢ - نفسه ٥: ٤٢٩ -٤٣٠ . ذكردهاقين الجوزجان بخاصّة.

٣ - **السيادة العربيّة**: ٦٦ .

بأنّه قاتل المسلمين، أو هو مع الكفّار[1]!

المرجئة والجهميّة في ثورة الحارث

النقطة الثانية التي يتعيّن الإشارة إليها بشأن ثورة الحارث هي علاقته بالمرجئة وبجهم بن صفوان، فتهمة المرجئيّة وصحبة جهم بن صفوان مشكلةٌ يجب حلّها. كان جهم من الموالي[2]، درس بالكوفة فترةً ورجع إلى بلخ، وعاش مع المفسّر المعروف مقاتل بن سليمان بُرهةً، ثمّ اختلف معه، ونُفي إلى ترمذ، وفيها التحق بالحارث بن سريج وشارك في ثورته دفاعاً عنه.

و تعود أهمّيّة علاقة وثبة الحارث بجهم غالباً إلى اتّهام الاثنين بالإرجاء، لا إلى عقائده في صفات الله سبحانه. والملاحظة الحَريّة بالعلم فيما يخصّ الإرجاء وجودُ نقطتين متناقضتين بشأن المرجئة من الوجهة السياسيّة؛ إحداهما: اتّهام المرجئة بميلهم إلى الحكّام وانسجام آرائهم مع نزعة سلاطين الجور، وقد قويت هذه التهمة حين اعتقد المرجئة أنّ الإيمان أمرٌ قلبيّ ولا عَلاقةَ له بالعمل الصالح، فمن ارتكب ذنباً لا يتضرّر إيمانه. وقيل: إنّ هذه العقيدة تناسب عمل الحكّام وطلّاب الدنيا المشغولين باللّهو واللّعب في حياتهم!

النقطة الأخرى التي تبدو مغايرةً لهذا الأمر هي: أنّ المرجئة اشتركوا في ثورات ونهضات عديدة، منها ثورة يزيد بن المهلّب، فقد اشترك أحد رؤسائهم، وهو أبو رؤبة، فيها ضدّ الأمويّين في بداية القرن الثاني الهجريّ[3]، واشتراك فريق منهم في ثورة زيد بن عليّ، واتّهام الحارث بن سريج بالإرجاء دليل على أنّ هذه الفرقة كان

---

١ - تاريخ الطبريّ ٦: ٦.

٢ - نفسه ٦: ٢.

٣ - نفسه ٥: ٣٤٠.

أفرادها من المعارضين للحكومة الأمويّة، فكيف نجمع بين هاتين النقطتين المتناقضتين؟!

و الحقيقة هي أنّ الخوارج لمّا اعتبروا «مرتكب الكبيرة» كافراً، واعتبره المعتزلة فاسقاً غيرَ مؤمن، ذهب المرجئة إلى أنّه يبقى مؤمناً ما دام يعتقد التوحيد والنبوّة، ولا يُخرجه ذنبُه من دائرة الإيمان، وهذا أصلٌ فقهيّ تعتقده جميع الفرق الإسلاميّة. والموقف السياسيّ للمرجئة من الذين يعتبرهم الخوارج كفّاراً هو تفويض أمرهم إلى الله أو ترجّي رحمته لهم، ويرتبط هذا البحث بالخلاف الأساسيّ بين المسلمين حول عثمان، وحرب الجمل، وصفّين. وقد ظهرت في عهد الحجّاج بالعراق (وكذلك بأفريقية) مشكلةٌ تتمثّل في أن كثيراً من أهالي بلاد فارس أسلموا، وإسلامهم غَلَّ أيدي الولاة الأمويّين من أخذ الجزية، فقلّل عائداتهم تدريجاً. ولمّا رأى الحجّاج ذلك أعلن، بعد استشارة الملوك الأمويّين قطعاً، أنّ إسلامهم المذكور لا يكفي، لأنّ النّطق بالشهادتين لا يجزي لإيمان الإنسان، بل المسلم هو من استطاع في المرحلة الأولى أن يقرأ آيات القرآن الكريم، ثمّ يجب أن يُعرَف، أخُتِن أم لا؟! وأمثال هذه الشروط. فأخذ الحجّاجُ، بعد ذلك، الجزيةَ من المسلمين الجدد، وهنا طابقت عقيدة الإرجاء السياسة مرّة أخرى. وذهب المرجئة إلى أن الإيمان يكفي مع الشهادتين، وأنّ الشروط التي وضعها الحجّاج لا اعتبار لها في تعريف الإيمان، وحينئذٍ وجد الإرجاءُ توجيهاً للدفاع عن الفُرس حديثي العهد بالاسلام، واستثمر الثوّار. وإنّ تغلغل العقائد الكلاميّة والفقهيّة لأبي حنيفة في الشرق، ووجود عقيدة الإرجاء في خراسان، و وجود قرية باسم «مُرجي آباد» حوالي بلخ، شاهِدا صدقٍ على ما نقول. وكان أبو حنيفة نفسه من رؤساء الإرجاء، ولم يساعد زيدَ بن

عليّ في ثورته فحسب، بل ساعد العلويّين الزيديّين في العصر العبّاسيّ أيضاً[١].

و ذكر (فلهاوزن)، مشيراً إلى النقطة التي ذكرناها في باب الإرجاء، أنّهم جدّوا في الوصول إلى قاسمٍ مشترك بين جميع الطوائف، وهو: معارضة الاستبداد، والدفاع عن الحقّ[٢].

و ألمع (فان فلوتن) أيضاً وهو يشير إلى بحث حول المرجئة، إلى بُعدهم عن الحكم على السلاطين والحكّام، ودورهم المهمّ في علاج مشكلة التعارض بين الطوائف المسلمة المتنوّعة، بخاصّة تأكيدهم رعايةَ حقوق جميع المسلمين عرباً كانوا أم غير عرب، وذكر أيضاً أنّ مرجئةً دافعوا عن زيد واشتركوا في ثورته[٣]. وفي أيّ حال، كان الحارث مرجئاً، ونصّ الطبريّ على ذلك أيضاً، وأهمّ دليل على عقيدته قصيدة نصر بن سيّار حاكم خراسان، ومنها قوله:

إرجاؤكم لزّكم والشِرك في قَرَنٍ فأنتُمُ أهلَ إشراكٍ ومرجونا[٤]

وذكرت أخبار الطبريّ أنّ معظم علاقة الحارث بجهم كان في الفترة الأخيرة، وجاء في أحدها أنّ الحارث طلب من جهم أن يقرأ على الناس كتاباً فيه سيرة الحارث[٥]. وفي خبر آخر، أنّ الحارث لما رجع من طخارستان إلى نصر، حدث خلاف بينهما، فعُيّن رجلان للحكم بينهما، أحدهما جهم، والآخر مقاتل بن حيّان، فحكما أن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى[٦]. و يشير الخبر الثالث إلى اشتراك

---

١ - انظر بشأن عقائد المرجئة وأفكارهم الكلاميّة: «**مرجئه، تاريخ و انديشه**» [المرجئة تاريخاً وفكراً] المطبوعة في المقالات التاريخيّة / الدفتر١٠ للمؤلّف، (قمّ، دليل ما ١٣٨١هـ شمسيّ ١٤٢٣هـ. ق).

٢ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ٤٤١ - ٤٤٢.

٣ - **السيادة العربيّة**: ٦٤، ٦٥.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٤٣٣.

٥ - نفسه ٦: ٢.

٦ - نفسه ٦: ٣.

جهم في ثورة الحارث وأسره سلم بن أحوز، وقتله[1].

و مجمل القول:إنّ النقطة الممتازة عندنا في حركة الحارث بن سريج هي جانبها الفكريّ، وهذا دليل على أنّ تيّارات ما وراء النهر، وإن كانت بعيدة جدّاً عن المراكز العلميّة، غير ذات طابع سياسيّ بحتٍ، و كان لها أصولها الفكريّة الخاصّة بها.

و من الضروريّ التذكير في ختام هذا الفصل أنّ العنوان الجهميّ، كما يتبيّن من موقف مناوئيه منه ـ والتهمة المرجئيّة بمستوى أضعف ـ شتمٌ فكريّ استعمله أهل الحديث غالباً ضدّ مخالفيهم، بخاصّة أنّ قسماً من عقائد جهم مخالف للتجسيم والروايات الموضوعة في باب التشبيه، فانبرى أهلُ الحديث لها أكثر. ونُسب العنوان الجهميّ تدريجاً كشتمٍ علميّ رسميّ، إلى كثيرٍ من الأشخاص أولي الآراء المتباينة. والنظر في كتاب خالد العليّ ـ والذي أشرنا إليه من قبل ـ يُبِين هذه الحقيقة أفضل.

حكومة الوليد بن يزيد ذُروة الفساد بين الأمويّين

لا جرم أنّ أحد الأسباب المهمّة لسقوط الدولة الأمويّة هو فجور حكّامها وإلحادهم عن الدين، وهذا ما كان يهتمّ به الثوّار والمتمرّدون دائماً، فإهمالهم العقائد الدينيّة للناس، وأعمالهم المنافية للدين صراحةً، حملت أولي الدّين على النهوض ضدّهم. ومن هذه الوجوه المدنّسة بالفساد، والتي تسلّطت على الحكم في أواخر حياة الدولة الأمويّة، وعجّلت في قطع دابرها أيضاً: الوليد بن يزيد، الذي وَليَ الحكم في ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ، بعد هلاك هشام، وقُتل بعد مدّة أربعة عشر شهراً مضت على حكمه.

---

١ - نفسه ٦: ٦؛ وانظر: **الملل والنحل** ١: ٧٩.

و أيّدت المصادر التاريخيّة، بلا استثناء، فساده وفجوره[1]، وأوردت أشعاره والوقائع التي تصفه بالإلحاد. قال الطبريّ: «... تركتُ الأخبار الواردة عنه بذلك [تهاونه واستخفافه بأمر الدين] كراهة إطالة الكتاب بذكرها»[2]! ونقل المسعوديّ قسماً من هذه الأخبار قائلًا: «و كان الوليد بن يزيد صاحب شرابٍ ولهوٍ وطربٍ وسَماعٍ للغناء، وهو أوّل من حمل المغنّين من البلدان إليه، وجالس المُلهين، وأظهر الشرب والملاهي والعزف... وكان متهتّكاً ماجناً خليعاً»[3]. ومن أشنع ما نقل عنه أنّه لمّا قرأ ذات يوم قوله: ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾[4]، دعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشّاب، وأقبل يرميه وهو يقول مخاطباً إيّاه:

أتوعِدُ كلَّ جبّارٍ عَنيدٍ ... فها أنَا ذاك جبّارٌ عنيدُ!

إذا ما جئَت ربَّكَ يومَ حشرٍ ... فقُل: يا ربِّ خَرَّقني الوليدُ[5]

و ألحد في شعرٍ آخر له بإنكاره الرسالةَ صراحةً، قائلًا:

تلَعَّبَ بالخلافة هاشِميٌّ ... بلا وحيٍ أتاهُ ولا كتابِ[6]

و قال المستوفي في أحد الأعمال القبيحة للوليد: «قيل: واقَعَ جاريةً له يوم الجمعة وهو سكران معها، ولمّا أقيم للصلاة، ألزم تلك الجارية السكرى الجنب أن تضع العمامة على رأسها، وتُرخيَ ذُؤابتها، فصَعِدت المنبر كالخطباء، وخطبت،

---

١ - أشار الأصفهانيّ في (**الأغاني** ٧: ٢): إلى أنّ من الناس من ينفي ذلك عنه ويُنكره، ولكن الأغلب يرى ذلك فيه.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٣٨.

٣ - **مروج الذهب** ٣: ٢١٣؛ **العقد الفريد** ٥: ١٩٧؛ انظر: **تاريخ مختصر الدول**: ١١٨؛ **الأغاني** ٧: ٤٦.

٤ - إبراهيم: ١٥.

٥ - **مروج الذهب** ٣: ٢١٦؛ **تاريخ گزيده** [منتخب التاريخ]: ٢٨٦؛ **الحور العين**: ١٩٠؛ **بهج الصباغة** ٥: ٣٣٩؛ **الأغاني** ٧: ٤٩؛ **النجوم الزاهرة** ١: ٢٩٩ .

٦ - **مروج الذهب** ٣: ٢١٦؛ **الحور العين**: ١٩٠؛ **بهج الصباغة** ٥: ٣٣٩ .

وأمّت المسلمين»[١]. وأشار اليعقوبيّ أيضاً إلى اضطراب البلدان كلّها في عهده، وأنّه كان مُهملًا لأمرها، قليلَ العناية بأطرافها، وقد نقل عملًا واحداً من أعماله الفظيعة، فقال: «... فبلغ من مجونه أنّه أراد أن يبني على الكعبة بيتاً يجلس فيه للّهو! ووجّه مهندساً لذلك»[٢]. ويبدو أنّ أقاربه صرفوه عن هذا العمل خوفاً من الناس. وكتب إلى نصر بن سيّار ليبعث إليه آلات الغناء[٣]. وشهد أخوه، الذي شارك يزيدَ بنَ الوليد في قتله، على مجونه وفسقه[٤]. والطريف أنّ نقش خاتمه كان: يا وليد احذر الموت[٥]!

إنّ الأعمال التي اجترحها الوليد وشاعت بين الناس (وظهر للناس منه تهاونٌ بالدين واستخفافٌ به)[٦] أضعفت موقع بني أميّة بين الناس، وقد ذكر أبو الفرج أنّ أشعاراً كثيرةً نُقِلت عنه، وهي تدلّ على خُبثه وكُفره![٧] ومع أنّ أكثر الملوك الأمويّين قد مَرَدُوا على مثل هذا الفسق والفجور، وعلم الناس منهم ذلك نوعاً ما، لكنّ هذا الفسق والفجور لم يبلغا هذه الدرجة من الاستطارة والعلانية قطّ. وكان ضعفه في إدارة الأمور أيضاً قد أنفذ النفاقَ في داخل الجهاز الأمويّ، وأتاح الفرصة لسائر الأمويّين، إذ بذلوا غاية جهدهم في المحافظة على سلطة هذه الأسرة، ثمّ سيرته التي أظهرها نفّرت جميع الناس منه طبعاً، ومهّدت السبيل لقتله.

---

١ - **تاريخ گزيده** [منتخب التاريخ]: ٢٨٦؛ **الأغاني** ٧: ٤٧. [وجاء في **الأغاني**: فخرجت متلثّمةً فصلّت بالناس] المترجم.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٣٣٥؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٢١. عزم على وضع الخمر في هذا البيت؛ **بهج الصباغة** ٥: ٣٤٠.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٣٣.

٤ - نفسه ٥: ٥٥٥.

٥ - **مآثر الإنافة في معالم الخلافة** ١: ١٥٦.

٦ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٢١؛ **العقد الفريد** ٥: ٢٠٦.

٧ - **الأغاني** ٧: ٢.

ونقل أبو الفرج الأصفهانيّ ترجمةً مفصّلة له في بداية (الجزء السابع من الأغاني)، وكان ممّا ذكره أنّه أمضى حياته كلّها في الشراب والنساء والغناء، وشاع اتّهامه بالزندقة. وجاء في (الأغاني) خبر في اعتقاده «ماني» كنبيٍّ أوّلٍ وآخِر، مضافاً إلى الأشعار التي نُقلت عنه.[1] ونُقل عن المدائنيّ أنّ الناس قد تبرّأوا منه لما ظهر منه من كثرة التهتّك، والانهماك في اللذّات وشرب الخمر، وبسط المكروه على ولد هشام بن عبد الملك[2]. وحين أحاط جند يزيد بن الوليد بقصره، وقال لهم من أعلى القصر: «ما تنقمون منّي؟ ألم أزد في أعطياتكم، وأعطيه فقراءكم... فقالوا: ننقم عليك انتهاك ما حرّم الله، وشربَ الخمور، ونكاح أمّهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله»! فقال لمتكلّمهم: «...لقد أغرقت فأكثرت، وإنّ فيما أحلّ الله لَسَعةً عمّا ذكرتَ»![3]

وانتهى الأمر، في كلّ حال، بقتله على أيدى الثوار، وتولّي يزيد بن الوليد الحكم، وهو المعروف بيزيد الناقص أو يزيد الثالث، وقد نقل عن الحافظ أيّوب السختيانيّ قوله: «ليت القوم تركوا لنا خليفتنا لم يقتلوه»، قال الراوي: «وإنّما قال ذلك تخوفاً من الفتنة»[4]. وذكره الرشيد وابنه المهديّ بخير، ولعنا قاتله يزيد الناقص![5].

نهضة يزيد بن الوليد

إنّ ما نُقل عن يزيد الثالث يعبّر عن شَبَهٍ لسيرة عمر بن عبد العزيز، وقد حاول

---

١ - **الأغاني** ٧: ٧٢ ، وانظر: ٧٤.

٢ - نفسه٧: ٧٣.

٣ - نفسه ٧: ٨٠.

٤ - نفسه ٧: ٨٢ .

٥ - نفسه٧: ٨٣.

النهوض بوجه الوليد، وبالفعل نهض مع بعض بني أميّة وأيضاً شخصيّات دمشق، وقتله في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ، وهي أوّل حادثة قتلٍ وقعت بين الملوك الأمويّين علانيةً.

وإنّ ما يميّز يزيد بن الوليد عن سائر ملوك بني أميّة هو انتماؤه إلى «القدريّة»[١]، والقدريّة تطلق في اصطلاح أهل الحديث على المعتزلة. وهم الذين يقولون باختيار الإنسان، ومخالفة المعتزلة لأهل الحديث أمر طبيعيّ، ذلك أنّهم، بوصفهم فريقاً عقليَّ النزعة، يصطدم بأهل الحديث الظاهريّ النزعة المخالفين للنزعة العقليّة بشكلٍ طبيعيّ. والثابت هو أنّ أهل الحديث، بسبب جاههم وممالأتهم للأمويّين، كانوا يحرّضون الملوك الأمويّين على معارضيهم، وهؤلاء المعارضون هم: القدريّة، والجهميّة والمرجئة. وتعود سابقة القدريّة في الشام إلى عهد هشام بن عبد الملك، وكان غَيلان الدمشقيّ، وهو من مؤسّسي مذهب الاعتزال[٢] في الشام، فقتله هشام ابن عبد الملك سنة ١١٩هـ[٣]، وكان في الوقت نفسه يُظهر عقائده المرجئيّة أيضاً.[٤] وكان رجال آخرون من المعتزلة في الشام أيضاً. ونقل الطبريّ خبراً عن عمرو بن شراحيل الذي كان منهم، وذكر أنّ جماعةً استشفعوا الوليد سنة ١٢٦هـ. فأبى وأيّد عمل هشامٍ في قتل القدريّة ونفيهم[٥]. وعلى عكس اتّجاه هشام والوليد، كان يزيدُ الثالث يميل إلى القدريّة، وروى الشافعيّ أنّ يزيد هذا «دعا الناس إلى القدر، وحملهم عليه، وقرّب أصحاب غَيلان»[٦]. وجاء في رسالةٍ لأبي بكر الخوارزميّ أيضاً

---

١ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٣٣٦؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٨١؛ **تاريخ گزيده** [منتخب التاريخ]: ٢٨٧.

٢ - **الفرق بين الفرق**: ١١٧؛ **الملل والنحل** ١: ٥١.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥١٦.

٤ - **الفرق بين الفرق**: ٢٠٥.

٥ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٣٩.

٦ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٥٣؛ **سير أعلام النبلاء** ٥: ٣٧٦.

أنّه كان يؤيّد الغَيلانيّة[1].

و أشار المسعوديّ بصراحة إلى أنّ يزيد كان معتزليّاً ويذهب إلى ما يذهبون إليه في الأصول الخمسة[2]، وإن لم يبلغ المعتزلة تلك الأصول الخمسة يومئذٍ قطعاً. وذكر المسعوديّ أنّ منطقتين من مناطق دمشق كانتا قدرِيّتَين، وهما: داريّا والمِزَّة، وقد أعانا يزيد على الوليد لما ظهر من فسقه[3]، وبسبب اشتراك يزيد الثالث والمعتزلة في العقيدة، علت منزلته عندهم على منزلة عمر بن عبد العزيز[4].

و من المناسب أن نشير هنا ولو إشارة عامّة، إلى هذا الموضوع، فقد كان الاتّجاه الأصليّ للمحدّثين في القرنين الثاني والثالث ذا جانبٍ ظاهريّ، وقلّما كان للعقل مكانة في أفكارهم، وإلى جانب تمسّكهم بظواهر الآيات، وكذلك ظواهر الأحاديث التي كان قسم منها مختلقاً، أنّ نزعة التشبيه والتجسيم كانت قويّةً عندهم. فناهضهم المعتزلة، وجعلوا القوّةَ للعقل من أجل تعزيز مبادئهم الاعتقاديّة. وتجلّى أحد هذين الاتّجاهين عند المحدّثين الذين كان كثير منهم في خدمة الأمويّين كالزهريّ، وأبي الزناد، و رجاء بن حَيْوَة، وأمثالهم. والاتّجاه المقابل الذي كان ضئيلًا طبعاً مناوئ للأمويّين لا محالةً. ولمّا كان هؤلاء يقيمون للعقل وزناً أكثر حيال الأحاديث المرويّة -التي دُوّنت بعد مضيّ مدّةٍ طويلة على وفاة النبيّ ﷺ، وكثير منها موضوع مختلق افتراه الوضّاعون- فهم أولو فهمٍ أفضل للقضايا السياسيّة؛ لذا كانت لهم معارضة سياسيّة للحكم الأمويّ مضافاً إلى معارضتهم الدينيّة. ومن هؤلاء، كما أشير من قبل: غيلان الدمشقيّ الذي قتله هشام بن عبد الملك سنة

---

١ - انظر: **تاريخ الجهميّة والمعتزلة**: ٧٠ عن أبي بكر الخوارزمي.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ٢٢١.

٣ - نفسه ٣: ٢٢٦، يبدو أنّ السبب هو أن أهل المِزّة كانوا قد بايعوه قبل قتال الوليد؛ **الأغاني** ٧: ٧٥.

٤ - **سير أعلام النبلاء** ٥: ٣٧٦.

١١٩هـ، ومنهم الجعد بن درهم الذي بعث به هشام إلى خالد بن عبد الله القسريّ في العراق، فقطع خالدٌ رأسه يوم عيد الأضحى[١]. ومع أنّه كان عالماً، كما كان مؤدّب مروان بن محمّد آخِر ملك أمويّ - لذا كان يُقال له: مروان الجعديّ أيضاً[٢] ـ دُحِر، ثمّ قُتل بسبب آرائه في أهل الحديث، وكان يعارض التجسيم الذي بثّه اليهود بين المسلمين. ونصّ الشهرستانيّ على أنّ التشبيه من عقائد اليهود، وهم فرقة قرّائهم، لأنّ في التوراة المحرّفة ألفاظاً كثيرةً تدلّ على التشبيه[٣]. وصرّح ابن خلدون بهذه المسألة أيضاً[٤]. وكان الجعد يقاوم الذين هم من أصلٍ يهوديّ مثل وهب بن منبّه، وكان وهب يقول له: «لو لم يخبرنا الله أنّ له يداً وأنّ له عيناً ما قلنا بذلك»![٥] والطريف أنّ ابن كثير ذهب إلى أنّه أخذ عقائده من يهوديٍّ يُدعى لبيد بن الأعصم[٦]. لكنّ المستبين هو أنّ هذا الكلام غير صحيح، كما قال بعض الباحثين، وعلى العكس، فإنّ هذا الكلام قد نُسب إليه لأنّ آراءه كانت مغايرة لآراء اليهود تماماً[٧].

وكان لجهم بن صفوان ـ الذي قيل بأنّه أخذ آراءه من الجعد ـ نفسُ الموقف. وقد تصدّى لمقاتل بن سليمان الذي كان أخباريّاً ومعتقداً التجسيم، وخالفه[٨]. ولم يكن قتل هؤلاء الرجال لأسبابٍ دينيّةٍ محضة، بل لمعارضتهم بني أميّة، وممالأةُ

---

١ - سير أعلام النبلاء ٥: ٤٣٣.

٢ - مآثر الإنافة ١: ١٦٣؛ النجوم الزاهرة ١: ٣٢٢.

٣ - الملل والنحل ١: ٩٣، وانظر: ١٠٦.

٤ - مقدّمة ابن خلدون: ٤١٥؛ انظر: بحوث مع أهل السنّة والسلفيّة: ٧٦ - ٩١.

٥ - سير أعلام النبلاء ٥: ٤٣٣.

٦ - البداية والنهاية ١٠: ١٩.

٧ - انظر: سير أعلام النبلاء ٥: ٤٣٣.

٨ - نفسه ٦: ٢٧.

أصحاب غيلان الدمشقيّ ليزيد الثالث شاهدٌ على ما نقول. ورأينا أنّ جهم بن صفوان التحق بالحارث بن سريج وقُتل أثناء ثورته ، كما صرّح القاسميّ أيضاً أنّ قتله لم يكن بسبب عقيدته الدينيّة -كما قال بعض[1] - بل كانت له أسبابٌ سياسيّة[2]. ومهما كان، فالثابت هو أن أهل الحديث كانوا مسيطرين في زمن بني أميّة، وكانت فتاواهم تصدر في تكفير الأشخاص الذين كانت الحكومة الأمويّة تعدمهم[3].

و كان يزيد الثالث يروم في ثورته على الوليد بن يزيد عدداً من التغييرات، فقال في أوّل خطبة خطبها: «أمّا بعد، فإنّي والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا طمعاً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبةً في المُلك... ولكنّي خرجتُ غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى كتابه وسنّة نبيّه ﷺ حين دَرَسَتْ معالمُ الهدى، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبّار العنيد المستحلّ الحرمة، والراكب البدعة»... ثمّ عرض قضيّة العدالة الاجتماعيّة، وذكر أنّه يريد أن يقوم بإصلاحات ماليّة حتّى تستقيم المعيشةُ بين المسلمين، و تكونوا فيه سواء... ثمّ أضاف: «فإنّ أردتُم بيعتي على الذي بذلتُ لكم فأنا لكم، وإن ملتُ فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أحداً أقوى منّي عليها فأردتم بيعته فأنا أوّل من يبايعه...»[4] وحين ولّى منصوَر بن جمهور على العراق، قال له: «قد ولّيتك العراق، فسِرْإليه واتّقِ الله، واعلم أنّي إنّما قتلت الوليد لفسقه ولما أظهر من الجور، فلا ينبغي لك أن تركب مثل ما قتلناه عليه»[5].

١ - نفسه ٦: ٢٧.

٢ - تاريخ الجهميّة والمعتزلة: ١٦.

٣ - نفسه: ٦٩.

٤ - العقد الفريد ٥: ٢٠٧ – ٢٠٨؛ سير أعلام النبلاء ٥: ٣٧٥؛ عيون الأخبار ٢: ٢٤٩؛ البيان والتبيين ٢: ٧٠.

٥ - تاريخ الطبريّ ٥: ٥٧٦.

و ليس هدفه من هذه الأعمال، كما صرّح به، تسلّم الخلافة، فقد كان شعاره كما جاء في كتابٍ معلّق في رُمح إنّا نَدعُوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وأن يصير الأمر شورى[١]. وكتب إلى أهل حِمص الذين وثبوا عليه مطالبين بدم الوليد قائلًا: إنّه ليس يدعو إلى نفسه، ولكنّه يدعوهم إلى الشورى[٢]. و النقطة الطريفة هي أنّ أكثر أهل دمشق بايعه بالخلافة سرّاً، حتّى قَبل مقتل الوليد[٣].

و سمّي يزيد الثالث بالناقص؛ لأنّه نقّص الناسَ من عطائهم الذي كان قد زاد في عهد الوليد[٤]. ولم يحكم غيرَ ستّة أشهر، ويبدو أنّه لم يستطع أن يطبّق ما طمح إليه؛ بيد أنّ الإصلاحات التي أرادها تستبين من بعض أقواله وأفعاله، منها: في الشؤون الماليّة؛ بخاصّة أخذ الجزية من المسلمين الجدد، وقد أعيد [أخذ الجزية من المسلمين الجدد] بعد عهد عمر بن العزيز، وكذلك أخذ الجزية الإضافيّة [فوق حدّها الطبيعيّ] التي سبّبت جلاءَ أناسٍ كثيرين عن أوطانهم. وقال يزيد في هذا المجال: ولا أحملُ على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم، وأقطع به نسلَهم[٥].

و كان من أعماله الأخرى إرجاع الحارث بن سريج من بلاد الترك، وكان قد ثار على الأمويّين بنفس الدوافع التي كان يحملها يزيد. والطريف أنّ الحارث رضي ورجع، وإن أرغم بعد موت يزيد على الرجوع إلى وضعه السابق، ثمّ آل أمره إلى القتل[٦]. ومات يزيد سنة ١٢٦هـ، بعد مضيّ ستّة أشهر على حكمه. وجاء في خبرٍ نقله الطبريّ أنّ القدريّة لم تزل تحثّه على تعيين من يخلفه، وأن لا يهمل أمر الأمّة،

---

١ - نفسه ٥: ٥٥٣.

٢ - نفسه ٥: ٥٦٥.

٣ - نفسه ٥: ٥٤٥.

٤ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٣٥.

٥ - عيون الأخبار ٢: ٢٤٩.

٦ - تاريخ الطبري ٥: ٥٩١، ٥٩٢.

فبايع لأخيه إبراهيم، ولعبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك من بعده[١].

تبعات قتل الوليد على الحكم الأمويّ و زواله

تضعضعت أركان الحكم الأمويّ مرّتين منذ أن بدأ سنة ٤١هـ ، إلى أن وَليَ يزيد ابن الوليد، وكانت الأولى بعد وفاة معاوية الثاني سنة ٦٤هـ ، إذ تمثّل التضعضع المذكور في انتقال الحكم من آل سفيان إلى آل مروان. ثمّ قرّ قرار بني أميّة ثانيّةً بعد سيل الدماء المتكرّرة التي سفكوها في العراق والشام، وتلا ذلك تناوب ملوكهم على العرش، أحدهم يخلف الآخر بلا مشكلةٍ خاصّة طرأت عليهم. أي أنّ الملك منهم كان لا يعزل وليَّ عهده، الذي يُحتمَل أنّه أخوه، وإن كان يؤذيه أحياناً. لكنّ التصوّر العامّ كان يقوم على أساس تعذّرِ نكث البيعة بعد انعقادها لصاحبها. ولمّا نصب يزيدُ بن عبد الملك أخاه هشاماً خَلَفاً له، ثمّ ندم على ذلك، واجه إنكاراً من رجالٍ مثل خالد بن عبد الله، فقد قال ليزيد: «... فأنشدُكَ اللهَ أن تُوقع العداوةَ والشرّ بينكم، وتُوجدوا الناسَ السبيلَ إلى الطعن فيكم والاختلاف عليكم»، فركن يزيد إلى ذلك[٢].

و كان بين الملوك الأمويّين مَن ينصب غيرَ أخيه وابنه خلفاً له أحياناً، كما حدث ذلك لعمر بن عبد العزيز. ومن المؤكّد أنّ من الأسباب المهمّة لتثبيت الملكيّة بين الأمويّين الالتزامَ بقانون البيعة وحُرمةِ نكثها، ولم تظهر أيّ مشكلة ما داموا أوفياء لهذا القانون، وما دام الناس يتّبعونهم أيضاً. وبهذا الرصيد استطاعوا أن يُخمدوا أعتى الثورات والنهضات. وحين قُتل الوليد بن يزيد، ووَليَ يزيد الثالث، بلا بيعةٍ كانت، انتُهِكت حُرمة البيعة عندهم، وفكّر كثير من بني أميّة بالتاج

---

١ - نفسه ٥: ٥٩٣.

٢ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١٤.

والعرش. ولمّا سمع مروان بن محمّد ـ وهو في أرمينية قبل قتل الوليد ـ أنّ يزيد بن الوليد يحاول نقض العهد، كتب إلى سعيد بن عبد الملك - الذي يُحتَمل أنّه كان عميد الأسرة الأمويّة يومئذٍ! - «يأمره أن ينهى الناس ويكفّهم» [و لا يأذن أن يتحقّق النقض المذكور]، وقال: «و قد بلغني أنّ قوماً من سفهاء أهل بيتك قد استنّوا أمراً إن تمّت لهم رؤيتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم، استفتحوا باباً لن يُغلقه الله عنهم حتّى يسفك دماء كثيرة منهم»[١].

و كان مروان يخاف إذا نُكثت البيعة من حدوث الفُرقة والتشتّت وزوال كلّ شيء، وكان يزيد بن الوليد قد شاور قبل إقدامه أخاه العبّاس، الذي كان يتشبّه بعمربن عبد العزيز على ما قال الأصفهانيّ، فذكر له نفس الاستدلال ونهاه عن هذا العمل[٢]. ولمّا تمّت بيعته قال: هلك والله بنو مروان[٣]!

و قال اليعقوبيّ: «... واضطربت عليه [على يزيد الثالث] البلدان، فكان ممّن خرج عليه: العبّاس بن الوليد بحمص فشايعه أهل حِمص؛ وبشربن الوليد بقنّسرين، وعمربن الوليد بالأردنّ، ويزيد بن سليمان بفلسطين...» وأضاف قائلًا: «وكانت ولايته خمسةَ أشهر، والفتنة في جميع الدنيا عامّة، حتّى قتل أهلُ مصر أميرهم حفصَ بن الوليد الحضرميّ؛ وقتل أهلُ حمص عاملهم عبدَ الله بن شجرة الكِنْديّ؛ وأخرج أهلُ المدينة عاملَهم عبد العزيز بن عمربن عبد العزيز»[٤].

و هكذا زالت هيبة الاستخلاف والبيعة والطاعة من بين العرب جملةً واحدةً، فقد ثار أحدهما على الآخر، وسحقوا حُرمة المُلك المصطنعة بالإرهاب، تلك

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٥٤٤ وانظر: ص٥٨١ . هذا هو نصّ الرسالة، لا كما ذكر المؤلّف. المترجم.

٢ - **الأغاني** ٧: ٧٣.

٣ - نفسه ٧: ٧٩.

٤ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٣٣٥.

الحرمة التي كان لها شأنها البالغ قبل حين، وهو الذي نبّه عليه الوليدُ بن يزيد الناسَ في عهده لولَدَيه الحكَم وعثمان[١].

و يضاف إلى الثورات والنهضات المذكورة أنّ مروان بن محمّد، الذي كان بأرمينية، وكان قد حذّر من نقض البيعة، تمرّد على يزيد الثالث ثأراً بدم الوليد، وسار إلى العراق لإسقاط حكمه، ولمّا وافى حرّان، صالح يزيدَ على أن يولّيَه: أرمينية، والموصل والجزيرة، وآذربايجان[٢].

و خلف إبراهيمُ بن الوليد يزيدَ الثالث، لكن لمّا كان أمر الملك قد ضَعُف كثيراً، لم يسلّم عليه كثيرٌ من الناس بالخلافة، بل اكتفَوا بالإمرة[٣]. وكان اصطلاح «الأمير» يُطلق، إلى جانب عنوان «الخليفة»، على الحكّام المستقلّين الذين ينهضون بعبء الإمارة وقت الفترة، فلا هم خلفاء، ولا الخلفاء ينصبونهم.

و لمّا رأى مروان بن محمّد الأوضاع ممهّدةً لإرجاع الملكيّة إلى موقعها السابق توجّه تلقاء دمشق، وهزم جيشها في قتالٍ نشب في صفر سنة ١٢٧هـ، وأخذ البيعة للحَكَم وعثمان اللّذَينِ كان الوليد الفاسق قد استخلفهما، لكنّهما قُتلا في السجن قبل ظفره، فأكرِه الناس على بيعته. ومن أجل أن يُضفوا الشرعيّة على بيعته، أعلنوا أنّ الحكم وعثمان نصباه ملكاً، في شعرٍ لهما أنشداه في السجن! وهكذا وَلي آخرُ مَلِكٍ أمويّ.

مروان بن محمّد وزوال الحكم الأمويّ

غادر مروان بن محمّد بن مروان الملكُ الأمويّ الآخِر أرمينيةَ قاصداً دمشق

---

١ - **تاريخ الطبري** ٥: ٥٢٩ – ٥٣٢.

٢ - نفسه ٥: ٥٩٥.

٣ - نفسه ٥: ٥٩٦؛ **سير أعلام النبلاء** ٥: ٣٧٧؛ **مآثر الإنافة** ١: ١٦١.

للدفاع عن الملكيّة الأمويّة ونهجها القانونيّ، واستولى على الحكم بعد تنحية إبراهيم بن الوليد. وكان يواجه مشاكل لا تُحصى، أوّلها: تمرّد أهالي حِمص، ثمّ قيام الضحّاك بن قيس أحد قادة الخوارج ضدّه وإنهاكُه إيّاه بمتاعب جمّة، ثمّ ثورة سليمان بن عبد الملك بن هشام عليه من العراق، ثمّ ثورة ثابت بن نُعَيم الجذاميّ عليه في الأردنّ. واستطاع مروان أن يقضي عليها جميعاً، وولّى عمَر بن هُبيرة الفزاريّ على العراق، فقتل عامل الضحّاك بن قيس في العراق، وسيطر على الأوضاع. وكان الخوارج اليمانيّون أولي شوكةٍ آنذاك حتّى حضروا أيّامَ الحجّ علانيةً، ومعهم أبو حمزة المختار بن عوف الحَروريّ الأزديّ، وبعد أداء مناسك الحجّ قدم أبو حمزة المدينةَ وغلب عليها في صفر سنة ١٣٠هـ، وكان أبو حمزة داعي عبد الله ابن يحيى الكنديّ الذي سمّى نفسه طالب الحقّ، وسمّى أبو حمزة نفسه أمير المؤمنين، وكان على المذهب الإباضيّ، وخطب هناك خطبةً معروفة خلدت في الأدب العربيّ كخطبة أدبيّة. قال اليعقوبيّ: «وكان أهل المدينة يصلّون خلفه»، وأصابهم الغرور، فساروا يريدون الشام. لكنّهم انهزموا في قتال دار بينهم وبين الجيش الأمويّ. ولمّا قدموا المدينة خرج إليهم أهلها، فذهبوا إلى مكّة، ومنها فرّوا إلى اليمن.

وأخذت أوضاع خراسان تتدهور بشدّة، واشتدّت شوكة الكرمانيّ، وبتعبير اليعقوبيّ، كان أبو مسلم الغالبَ على أمر الكرمانيّ. وذكر اليعقوبيّ أنّ أبا مسلم كان يقول: «اللّهمّ أفرغ عليهما - على نصر بن سيّار والكرمانيّ - الصبر، وانزع عنهما النصر»[1]! ولم يصمد نصر أمام أبي مسلم، ففرّ إلى ساوه، وفيها مات. ودخل أبو مسلم نيسابور في شوّال أو شهر رمضان سنة ١٣٠هـ، وبعث ولاته إلى مختلف مناطق

١ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٣٤١.

خراسان. وسار جيش خراسان بقيادة قُحطبة وابنه الحسن إلى الغرب، وهزم جندَ الأمويّين في حربٍ نشبت بينهما. وقاتل الجيش المذكور ابنَ هبيرة بالعراق في المحرّم سنة ١٣٢هـ، فانهزم ابن هبيرة وفرّ إلى واسط، وكانت هزيمة ابن هبيرة اللّاحقة على يد جند قحطبة - بعد أن غرق قحطبة في الفرات - جَزَمت زوالَ الحكومة الأمويّة. وحين سمع مروان بن محمّد أنّ جيش خراسان، الذي كان بلا قائد، هزم جيشَ العراق، قال: «هذا والله الإدبار، وإلّا فمَن سمع بميّت يهزم حيّاً»[١]؟!

وتولّى أبو سلمة الخلّال أمر تنظيم الدعوة العبّاسيّة في العراق، وعندما انهارت سلطة بني أميّة بالعراق، أتى بأبي العبّاس السفّاح إلى الكوفة، ثمّ أخذ لهم البيعة من الناس بعد تبصّرٍ قليل وحينٍ مضى. ثمّ اتُّهم أبو سلمة بعد ذلك بأنّه كان يريد تسليم الحكومة للعلويّين، فقُتل لهذا السبب وبتحريض أبي مسلم الخراسانيّ. ووجّه السفّاح عمّه عبد الله بن عليّ إلى الشام للقضاء على القوّات الأمويّة والإطاحة بمروان، وقُتل مروان في ميدان الحرب في ذي الحجّة سنة ١٣٢هـ، فاجتثّ دابر الحكومة الأمويّة من بلاد الشرق، وإن بقيت في الأندلس. وقد ذكر المسعوديّ أنّ «جميع مُلك بني أميّة كان ألفَ شهر كاملًا لا يزيد ولا ينقص؛ لأنّهم ملكوا تسعين سنةً وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً!»[٢]

وقيل في زوال الحكم الأمويّ وأسبابه آراء متباينة[٣]... ويتطلّب الحديث عن الزوال فكرةً فلسفيّة في التاريخ، ولا ينشغل المؤرّخ بوصفه مؤرّخاً في هذا الأمر، وإذا كان الحديث فلسفيّاً أو ما يسمّى فكريّاً، فالأفكار الفلسفيّة الخاصّة تتغلغل فيه

---

١ - نفسه ٢: ٣٤٤ — ٣٤٥.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ٢٣٤.

٣ - جمع المرحوم محمّد كاظم خواجويان ﷺ هذه الآراء في مقالة صدرت في مجلّة كليّة الآداب بجامعة مشهد، السنة التاسعة عشرة، ص ٥٠٣ — ٥٣٠.

بنحوٍ لا ينسجم مع التاريخ أحياناً. وما يجدر ذِكرُه هنا هو أنّ الحديث عن الزوال قلّما يُطرح قبل السقوط عادةً، إذ لا تتبيّن قدرة النظام المنشود على علاج مشاكله، أيمكنه علاجها أم لا؟ أمّا إذا سقط النظام، فالحديث حول الزوال يُطرَح على طاولة البحث.

وقد نال بعض القضايا التي تخصّ الأمويّين الاهتمام بها، إحداها سقوط العصبيّة الخاصّة التي شاد الأمويّون سلطتهم السياسيّة على أساسها.

وترتبط هذه القضيّة بتفضيل فرع خاصّ من قريش يدعى بني أميّة، مدعوماً بعرب الشمال، والقبائل القاطنة بالشام. وكان النزاع بين قبيلتين من قبائل الشمال والجنوب مثيراً للمشاكل دائماً، حتّى بلغ نزاع هاتين القبيلتين في السنين الأخيرة من تاريخ الدولة الأمويّة مبلغاً تعذّر فيه إعادة انتظام أمرهما، بخاصّة في خراسان. وكان هذا الخلاف موجوداً في جميع المناطق العربيّة لاسيّما العراق وبلاد فارس، موطن عدد غفير من العرب المهاجرين، وكان النزاع قائماً في العراق بين عرب الشمال وعرب الجنوب. ولمّا كان خالد بن عبد الله القسريّ حاكماً، لم يرض عنه عرب الشمال، أو بعبارة أخرى المُضَريّون؛ لأنّه كان من عرب الجنوب. وحين حكم يوسف بن عمر، كان الأمر على العكس، فقد قتل خالداً، واحتدم النزاع، وبعد ذلك قتل يزيدُ بن خالد بن عبد الله يوسفَ بن عمر الذي كان سجيناً[١]. وذهب المسعوديّ إلى أنّ النزاعات القبليّة كانت من الأسباب الرئيسة لسقوط الأمويّين، وأشار إلى دعم مروان بن محمّد للنزاريّين في مقابل اليمانيّين، وهذا ما حمل عربَ اليمن على دعم مناوئيه من بني هاشم.[٢]

وكانت مشكلة خراسان أكثر من هذا، فقد أمست مأوى الفارّين من حكومة

---

١ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٣٨.

٢ - مروج الذهب ٣: ٢٣٢.

العراق الى الشرق قبل سقوط الأمويّين بسنين. وضاعفت ثورة الحارث بن سريج المشكلة، وزادت الحروبُ المتتابعة التي دارت بين العرب والقاطنين في ما وراء النهر من متاعب العرب المستوطنين في هذه المنطقة. وكان ظلم الحجّاج ووطأته على المسلمين الجدد في هذه الديار، وأخذُ الجزية منهم مشكلةَ عقودٍ عديدة. وكان للنزاع المُحتدِم بين عرب الشمال والجنوب في هذا الجوّ، أن يشكّل خطراً كبيراً على الحكومة. وتولّى نصر بن سيّار الدفاع عن عرب الشمال النزاريّين، في حين تعهّد جديع بن عليّ الكرمانيّ بالدفاع عن عرب الجنوب اليمانيّين، ونمّى نزاعُهما المعارضين لبني أميّة. وغيّرت قوّةُ أبي مسلم الخراسانيّ في عمل الدعوة العبّاسيّة، واستغلاله الروحَ الشيعيّة التي زادت عند أهل خراسان بعد شهادة يحيى ابن زيد، الأوضاعَ لمصلحته، وكانت قيادته العسكريّة نقطة قوّة مهمّة، وتظافرت هذه الأمور كلّها فمهّدت لتغييرٍ مهمّ في خراسان. وكانت المشكلة الأخرى للأمويّين بُعد هذه المنطقة عن متناول أيديهم، لذا لم يتيسّر لهم تسيير الجيوش إليها بسهولة. ويتعيّن الالتفات إلى أنّ القوّات الشاميّة في العراق كانت متورّطة بالخوارج يومئذٍ، فلم يمكنها إمداد نصر بن سيّار على الرغم من استمداده المتكرّر، واستفحل أمر الخوارج أثناء تخلخل الأوضاع الأمويّة سنة ١٢٦ و١٢٧هـ، وقاتل الضحّاك بن قيس الخارجيّ مروانَ بن محمّد ردحاً من الزمن، وقُتِل سنة ١٢٧هـ، إلّا أنّ الخوارج - خوارج العراق وجنوب إيران - كانوا من المُهدِّدين الأصليّين للحكومة الأمويّة. ومهما كان، فانتصار العبّاسيّين في خراسان كان عاملًا رئيساً في زوال الدولة الأمويّة. ولماذا انتصر العبّاسيّون، لا غيرهم؟ الجواب هو: وجود أسبابٍ خاصّةٍ لذلك، وهي ترتبط بكيفيّة غَلَبهم، لا بزوال الأمويّين فقط. وكان وجود البديل المناسب للأمويّين، وهم بنو هاشم، قد ساعد على فقد الأمويّين السلطة بنحوٍ أيسر، في حين لو لم تكن هذه القوّة، فمن المستبعد أن يستطيع أحدٌ أخذ

السلطة من قريش. وقد بلغ نفوذ قريش درجةً أنّه استمرّ حتّى نهاية الدولة العبّاسيّة التي قوّضتها قوّةُ المغول وسطوتهم أيضاً.

و كان انهيار النظام الأمويّ معلّلًا أيضاً لضعف الأمويّين أنفسهم داخليّاً إلى حدّ ما، وكما أشرنا سابقاً، فإنّ النزاعات الداخليّة للأسرة الأمويّة على السلطة لمّا بدأت، مهّد ملوكهم وولاة عهدهم ـ الذين كانوا أكثر من اثنين عادة أيّام عبد الملك وما بعده ـ لتآمر بعضهم على بعض... يُضاف إلى هذا أنّ ثورة يزيد الثالث أزالت [ما يُدعى] بالخلافة والبيعة أكثر من الحدّ المألوف. ويُذكّرنا السقوطُ المتوالي لعددٍ من الذين كان مقرّراً أن يتربّعوا على العرش خلال سنة ١٢٦ وسنة ١٢٧هـ بالملوك الساسانيّين في السنين الأخيرة من حكومتهم المتصدّعة.

و يتعيّن علينا أن نعتبر فقدان الملوك الأمويّين لشأنهم من الوجهة الدينيّة عاملًا رئيساً لخذلان الناس إيّاهم، فلم يستطيعوا أن يستعيدوا شأنهم السابق، مع وجود الإصلاحات الظاهريّة التي قام بها عمر بن عبد العزيز، وأحياناً هشام، فإفراط الوليد ابن يزيد في الفساد والفجور مهّد لبطلان الملكيّة الأمويّة وفقدانها الشأنَ اللّازم أكثر من السابق، وجاءت في هذا المجال معلومات كثيرة في الكتب التاريخيّة، وإن ضُعّف بعضُها بسبب ميل المصادر إلى العبّاسيّين أو إلى الاتّجاهات المذهبيّة [المضادّة].

يُضاف إلى فقدان الشأن الدينيّ، كان الاستبداد السياسيّ والاقتصاديّ للأمويّين قد أثار سخطَ أهل العراق وخراسان، فلم تكن علاقة الأمويّين بالموالي طيّبة؛ إذ عاملوهم معاملةً عنصريّةً قاسية. ويتسنّى لنا طبعاً أن نقدّم أمثلة كثيرة على تغلغل غير العرب في الجهاز الأمويّ، لكنّ طريق الرقيّ والتقدّم كان مُوصَداً أمامهم إجمالًا، ولم يكن لهم مقام مناسب.

الآراء السياسيّة للمروانيّين

يسوغ لنا أن نقول بضرس قاطع بأنّ شكل وقوع القضايا السياسيّة في مجال الحكومة إبّان القرن الأوّل الهجريّ ـ شاملًا لمبدأ حقّ الناس في الانتخاب وطريقة الانتخاب وسائر التفاصيل في باب قبول الخليفة أو معارضته وكثير من القضايا الأخرى ـ يؤلّف أساس الآراء السياسيّة لأهل السُّنّة. ويُضاف إلى شكل الوقوع، أنّنا يمكن أن نعتبر سيرة بعض الصحابة والتابعين في القضايا السياسيّة وموقفهم من الوقائع الحكوميّة أحدَ المصادر الأصليّةِ لاتّساق الآراء السياسيّة لأهل السنّة طوال القرن الأوّل الهجريّ، والحوادث اللّاحقة على امتداد القرون التالية كانت مؤثّرة طبعاً. بيد أنّ أساس الآراء التي كتبها الماورديّ (م٤٥٠هـ)، وأبو يَعلى (م ٤٥٨هـ) تحت عنوان الأحكام السلطانيّة في القرن الخامس الهجريّ كان منبثقاً على التطوّرات السياسيّة في القرن الأوّل الهجريّ، وذُكرت أحياناً أمثلةٌ من القرن الثاني أيضاً لتأكيد بعض الأحكام. على سبيل المثال، عُدَّ سكوت علماء أهل السنّة على هذه الأعمال بمنزلة الحجّة الشرعيّة... قال الماورديّ، «وإن لم يكن سليمان (بن عبد الملك) حجّة فإقرار مَن عاصره من علماء التابعين ومن لا تأخذه في الحقّ لومة لائم هو الحجّة»[١]! فهذه العقيدة نابعة من مبدأ لأهل السنّة يرى أنّ ما يفعله الصحابة والتابعون، أو ما يُفعَل بمحضرهم ويسكتون عنه ويرضَون به، حُكماً شرعيّاً!

وتحدّثنا مفصّلًا في كلّ قسم من الكتاب حول استتباب المبادئ السياسيّة السائدة في النظام السياسيّ لأهل السنّة، وبعض الفرق الأخرى أيضاً. وسنشير هنا إلى ما استتبّ في هذا المجال أيّام المروانيّين.

إنّ التطوّر الرئيس الذي تحقّق في مفهوم الخلافة أيّام بني أميّة، بخاصّةٍ أيّامَ بني

---

١ - **الأحكام السلطانيّة**، الماورديّ: ١٣.

مروان، هو أن بني مروان ركنوا إلى قداسة المفهوم المذكور أكثر، بسبب استخفافهم بالناس، مع بُعد ملوكهم عن التديّن والتعبّد بأصول الشرع. وكان مفهوم الخلافة في معناه السياسيّ يعني في البداية خلافة رسول الله ﷺ، ولم يكن يرضى أبو بكر أن يسمّوه «خليفة الله»[١]! إلّا أنّ هذا الاصطلاح [خليفة الله] قد شاع في أشعار الشعراء وخطب الأمراء شيئاً فشيئاً... ويضاف إلى إضفائه القداسةَ على الخلافة بشكل طبيعيّ، فإنّه يثير نوعاً من الجبر في أمر الخلافة! وكانت ممهّدات هذا الأمر موجودة منذ عهد عثمان، وفي عصر معاوية، لكن يجب أن نقول: إنّ نطاقه قد امتدّ كثيراً في عصر الملوك المروانيّين. ومن المناسب أن نذكر الاصطلاحات التي جاءت في قصائد الشعراء للملوك المذكورين: خليفة الله في الأرض، الأمين المأمون، إمام المسلمين، أمين الله، إمام الإسلام، جُنّة الدين، الخليفة المبارك، راعي الله في الأرض، الإمام المصطفى، وليّ الحقّ، الإمام العادل، وليّ عهد الله، إمام الهُدى، الإمام المبارك، إمام العدل، الإمام المنصور، خيار الله للناس، الحَكَم المُصفّى، إمام الورى، ربّ الجنود، خليفة الحقّ، الخليفة الأفضل، الملك المبارك[٢]. وكان للشعراء - باعتبارهم وسيلة إعلامٍ كبرى - دورٌ مهمّ في إشاعة هذه المفاهيم والمصطلحات بين عامّة الناس. وإذا عرفنا كيف كان الشعر ينتشر بين جمهور العرب، استطعنا أن ندرك عمق تأثير المفاهيم المذكورة[٣]. على سبيل المثال

١ - **مسند أحمد** ١: ١٠ –١١.

٢ - **الأمويّون والخلافة**: ١٩ –٢١.

٣ - من هؤلاء الشعراء: الفرزدق الذي مدح الإمام السجّاد عليه السلام في قصيدته الميميّة المعروفة، لكنّه أنشد قصائد كثيرة في مدح ملوك بني أميّة والأمراء المنتسبين إليهم، وإذا تصفّحنا ديوانه أدركنا عظم تأثيره في توطيد أركان الدولة الأمويّة، وقد زخر الديوان المذكور بقصائد جمّة في تقديس الملوك الأمويّين وتزكيتهم من كلّ عيب ونقص. انظر على سبيل المثال: ص٢٦١ –٢٦٨ من جزئه الأوّل، للاطلاع على قصيدته في مدح سليمان بن عبد الملك. وذكرنا في كتابنا هذا أمثلة من شعره في إرساء دعائم الحكم الأمويّ.

خاطب الشاعر الأمويّ الأخطلُ عبدَ الملك بن مروان قائلًا:

وقــد جعَــلَ اللهُ الخلافــةَ فــيكُمُ　　　بـأبيضَ لا عـاري الخِـوانِ ولا جَـدِبْ

ولكـــنْ رآه اللهُ موضـــعَ حقّهـــا　　　علـى رغـمِ أعـداءٍ وصـدّادةٍ كَـذِبْ[1]

وقال لبشر بن مروان:

أعــطاكُم الله مــا أنــتُم أحــقُّ بــهِ　　　إذِ الملــوكُ عــلى أمثالِــهِ اقتَرعُــوا[2]

وقال الشاعر الأمويّ الآخر جرير يخاطب عبدَ الملك:

الله طوّقــكَ الخلافــةَ والهُــدى　　　واللهُ لــيس لمــا قَــضى تبــديلُ

وَلّــى الخلافــةَ والكرامــةَ أهلَهــا　　　فالمُلْــكُ أفـيحُ والعطـاءُ جزيـلُ[3]

وقال في قصيدة أخرى مؤكّداً القداسةَ الإلهيّة لمُلك عبد الملك:

أنــت الأمــينُ أمــينُ الله لا سَــرَفٌ　　　فيمــا وُلِيــتَ ولا هيّابــةٌ وَرِعُ

أنــت المُبــاركُ يَهــدي اللهُ شــيعتَهُ　　　إذا تفرّقــتِ الأهــواءُ والشِّــيَعُ

يــا آل مــروان إن اللهَ فــضّلكُمْ　　　فضلًا عظيماً على مَن دِينُه البِدَعُ[4]

وقال في موضع آخر:

واللهُ قــدّرَ أن تكــونَ خليفــةً　　　خيرَ البريّةِ وارتضاكَ المُرتضى[5] البِدَعُ[6]

وقال الفرزدق في عبد الملك:

فــالأرضُ للهِ ولّاهــا خليفتَــهُ　　　وصـاحبُ اللهِ فيهـا غيـرُ مَغلـوبِ[7]

---

١ - **ديوان الأخطل: ٢١ – ٢٤؛ الأمويّون والخلافة: ٣٠.**

٢ - **ديوان الأخطل: ٧٣؛ الأمويّون والخلافة: ٣٠.**

٣ - **ديوان جرير ١: ٩٥؛ الأمويّون والخلافة: ٣١.**

٤ - **ديوان جرير ١: ٢٩٥.**

٥ - نفسه ٢: ٦٢٠.

٦ - نفسه ١: ٢٩٥.

٧ - **ديوان الفرزدق ١: ٢٤.**

وقال في الوليد:

أمّـــا وليـــدٌ فـــإنّ اللهَ أورثَـــهُ بعِلْمِـهِ فيـه مُلْكـاً ثابـتَ الـدَّعَمِ[١]

وقال في سليمان:

بـــهِ أمَّـــنَ اللهُ الـــبلادَ، فســـاكنٌ بكـــلِّ طريـــدٍ ليلُهـــا ونهارُهـــا

وقال عَدِيّ بن الرقاع في الوليد:

إنّ الوليـــدَ أميـــرَ المـــؤمنينَ لَـــهُ مُلْـكٌ عليـهِ أعـانَ اللهُ فارتفعـا[٢]

وقال الأحوص في الوليد أيضاً:

تَخيَّـــرَهُ ربُّ العبـــادِ لِخَلْقِـــهِ وَليّـاً، وكـانَ اللهُ بالنـاسِ أعلَمـا[٣]

وقال في سليمان:

ســـليمانُ إذْ ولّاك ربُّـــكَ حُكْمَنـــا و سلطانَنا، فاحكُمْ إذا قلتَ واعدِلِ[٤]

وقال الفرزدق في سليمان:

فقـــال اللهُ إنّـــكَ أنـــتَ أعلـــى مـــن المتلمّســـين لـــك الخَبـــالا

فأعطـــاكَ الخلافـــةَ غيـــرَ غَصْـــبٍ ولـــم تركـــبْ لِتَغصِـــبَها قِبـــالا[٥]

وقال جرير في يزيد بن عبد الملك:

أمّـــا يزيـــدُ فـــإنّ اللهَ فَهَّمَـــهُ حُكْمـاً، وأعطـاه مُلكْـاً واضـح النُّـورِ

---

١ - نفسه ٢: ٢١٠.

٢ - الأغاني ١: ٢٩٩.

٣ - شعر الأحوص: ١٩٣.

٤ - نفسه: ١٧٣.

٥ - ديوان الفرزدق ٢: ١٠٠.

يكفـــي الخليفـــةَ أنّ اللهَ فَضَّـــلَهُ　　عـــزمٌ وثيـــقٌ، وعقـــدٌ غيـــرُ تقريـــرِ[١]

وقال يخاطب أيّوبَ بن سليمان بن عبد الملك:

اللهُ أعطـــاكُمُ مِـــن عِلمـــهِ بِكُـــمُ　　حُكْماً، وما بعدَ حُكْمِ الله تعقيبُ[٢]

و قال يخاطب عمرَبن عبد العزيز:

إنّ الـــذي بَعَـــثَ النبـــيَّ محمّـــداً　　جَعَلَ الخلافَة في الإمامِ العادلِ[٣]

وقال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك:

أعطَى ابنَ عاتِكَة الذي ما فوقَهُ　　غيـــرُ النبـــوّةِ والجَـــلالِ الأجْلَـــلِ

سُـــلطانَه وعصـــا النبـــيِّ وخاتَمـــاً　　ألقـــى لـــه بجِرانـــهِ والكَلْكَـــلِ[٤]

هـذه أمثلة ذكرها الدكتور عطوان من شعر الفرزدق وجرير وسواهما، وأوردنا مختارات منها فيما تقدّم، وتدلّ نظرة عاجلة في ديوان الفرزدق على كثرتها غاية الكثرة[٥].

---

١ - **ديوان جرير** ١: ١٤٥. انظر بشأن شعر هؤلاء الشعراء: **الأمويّون والخلافة**: ٣١ — ٣٥.

٢ - نفسه ١: ٣٤٩.

٣ - نفسه ٢: ٧٣٧.

٤ - **ديوان الفرزدق** ٢: ١٢٥، **الأمويّون والخلافة**: ٣٦ . يشير عجز البيت الثاني إلى نوم البعير الذي يلقي صدره وعنقه على الأرض، كنايةً عن أنّه يضع نفسه في تصرّف المقابل تماماً، ويعطيه كلّ مايشاء ويريد.

٥ - نقل (المبتون) في [**الدولة والحكومة في الإسلام**]: ١١٠ / الرقم ٧، أنّ (مونتغمري واط) ذكر بعض هذه الأشعار في توطيد مفهوم خليفة الله في العصر الأمويّ. انظر:

٨[illegible] ١٩٧١٨[illegible] ٥٧١ — ٥٧٢.

و انظر أيضاً:

[illegible] ٣٣٨١٣٧ . جـ ٥.

و انظر: **خليفه وسلطان** [الخليفة والسلطان]: ١٦- ١٧.

وتقبّلت أذهان أهل الشام قداسةَ [ما يُدعى] بالخلافة منذ عهد معاوية فما تلاه[١]. ولمّا كان عُبَيد بن عُمَير القصّاص يقصّ على الناس أيّام الموادعة -أي السنين التي كان أهل الشام يذهبون فيها إلى مكّة الخاضعة لسلطة ابن الزبير في موسم الحجّ، والأوضاع هادئة -ويعيب مَلِكَ الشام، قال له أهل الشام: «أيّها الرجل الصالح! ارجع إلى ما كنتَ فيه ولا تُنقّص خليفة الله في أرضه؛ فإنّه أعظمُ حرمةً من البيت»[٢]!

وكان الحجّاجُ داعيةَ هذه الفكرة في العراق، فقد قال للحسن المثنّى مرّة: «يا حسن إيّاك والسلطان أن تذكرهم إلّا بخير؛ فإنّهم ظِلُّ الله على الأرض»[٣]! وقال في أوّل خطبةٍ خطبها بالكوفة: إنّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان استخلَفَه الله عزّوجلّ في بلاده، وارتضاه إماماً على عباده[٤]. وكتب إلى عبد الملك كتاباً قال له فيه: «لعبدِ الله أمير المؤمنين، خليفة ربّ العالمين، المؤيَّد بالولاية، المعصوم من خطل القول، وزَلَلِ الفعل بكفالة الله الواجبة لذوي أمره»[٥]. وقالت فاطمة امرأة عمر ابن عبد العزيز فيه: «ما أعلم أنّه اغتسل لا من جنابةٍ ولا من احتلام منذ استخلَفَه الله حتّى قبضه»[٦]! وكانت طاعة أهل الشام نابعةً من هذا التصوّر عن الخليفة، أي

١ - سبق هذه قصيدة حسّان بن ثابت في رثاء عثمان سنة ٣٦ هـ، إذ سمّاه فيها «خليفة الله». **ديوان حسّان بن ثابت**: ٩٦، نقلاً عن [**الدولة والحكومة في الإسلام**]: ١١٠، الفصل الثالث / الهامش ٧.

٢ - **أنساب الأشراف** ٤: ٣٤٥.

٣ - **مختصر تاريخ دمشق** ٦: ٢٢٢.

٤ - **الإمامة والسياسة** ٢: ٤٠.

٥ - **العقد الفريد** ٥: ٢٥؛ **الشورى في العصر الأموي**: ٣٥.

٦ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٣٥. والمؤلّف سامحه الله ذكر في المتن الفارسيّ أنّها بنته، في حين هي في **تاريخ الخلفاء** امرأته. المترجم.

أنّ طاعته عندهم هي عين طاعة الله، لا أنّ الخليفة يجب أن يطيع الله. ولمّا كان جعفر بن عمرو جالساً عند عبد الملك في مسجد دمشق، وأهل الشام يُعرَضون على ديوانهم، قال: «و تلك اليمانيّة حوله يقولون: الطاعة الطاعة، فقال جعفر لا طاعة إلّا لله، فوثبوا عليه وقالوا: تُوهن الطاعة، طاعة أمير المؤمنين! حتّى ركّبوا الأسطوان عليه، قال: فما أفلت إلّا بعد جهد»[1]. وكان الحجّاج يحاول أن يربّي أهل العراق على هذا الأساس، لكنّه لم يستطع قطّ، وقيل: إنّه كان يقول لهم: «تزعمون يا أهل العراق أنّ خبر السماء [الوحي] قد انقطع عن أمير المؤمنين [الخليفة]؟ وكذبتم والله يا أهل العراق، والله ما انقطع خبرُ السماء عنه، إنْ عنده منه كذا، وعنده منه كذا»![2]

وقيل: كان الحجّاج يقول: «رسولُ أحدكم في حاجته أكرمُ عليه أم خليفتُه في أهله»؟ يريد بكلامه رفعَ مقام الخليفة بوصفه خليفة الله على الأرض، وأنّه أعلى من مقام رسول الله ﷺ[3]. وحريّ بالعلم أنّ الشكّ يحوم حول نسبة هذه الأمور إلى حدٍّ ما، فقد نسب المسعوديّ الخبر الأخير إلى خالد بن عبد الله القسريّ حاكم مكّة سنة ٨٩هـ، إذ طرح ذلك بشأن الوليد [بن عبد الملك] مقايساً إيّاه بخليل الرحمان إبراهيم عليه السلام. فقال: «ألا إنّ إبراهيم خليل الرحمان استسقى فسقاه مِلحاً أجاجاً، واستسقاه الخليفةُ فسقاه عَذْباً فُراتاً![4]

---

١ - **مختصر تاريخ دمشق** ٦: ٧٦.

٢ - نفسه ٦: ٢١٤.

٣ - نفسه ٦: ٢١٤؛ انظر: **النزاع والتخاصم**: ٦٩؛ **البداية والنهاية** ٩: ١٣٦؛ **النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية**: ٨١؛ **وفيات الأعيان** ٢: ٢٨٨.

٤ - **مروج الذهب** ٣: ١٤٧. و المسعوديّ نقل هذا عن الحجّاج أيضاً ولم ينسبه إلى خالد كما وهم المؤلّف سامحه الله. وإنّما الذي نسبه إلى خالد هو الطبريّ في (تاريخه ٥: ٢٢٥) كما ذكر المؤلّف ذلك أيضاً سابقاً في هامش من هوامش موضوع الحجّاج في العراق. المترجم.

ولم يرعمربن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك منصوباً من الله فحسب، بل كان يقول فيه: «فإنّ سليمان كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه، ثمّ قبضه واستخلفني»[١]. وبعده قال عمربن هُبيرة الفِزاريّ، عامل يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان، في سلطان يزيد، وهو يخاطب الحسنَ البصريّ ورجالًا معه: «إنّ يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلَفَه على عباده»[٢]. وهكذا كانوا يسعون في إظهار نصرهم على جميع معارضيهم من: الزيديّة، والشيعة، والخوارج، وعبد الرحمان بن الأشعث، ويزيد بن المهلّب... وغيرهم بأنّه نصرٌ إلهيّ، وإظهار الحكومة الأمويّة بأنّها ليست حكومةً شرعيّة فحسب، بل هي حكومةٌ لا تُقهر![٣]

وتعزّزت القداسة أكثر بإطلاق عنوان «المهديّ» على الخليفة، ومن المحتمل أنّ استعمال هذه الكلمة قد جرى على أساس القاعدة الدينيّة والروائيّة لهذا المفهوم في كلمات رسول الله ﷺ. وقيل: إنّ المختار بن أبي عبيد الثقفيّ استعمله في كتابه إلى محمّد ابن الحنفيّة: للمهديّ محمّد بن عليّ، من المختار بن أبي عُبَيد. سلام عليك أيُّها المهديّ[٤]. ويُحتمَل أنّ استعماله اللّغويّ كان تأكيداً لدورهم الهادي أيضاً، بيد أنّ تكراره المُفرط يردّ هذا الاحتمال فيما يخصّ الملوك

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٦: ٥٦٧؛ **الكامل في التاريخ** ٥: ٦٠؛ **الشورى في العصر الأمويّ**: ٣٥.

٢ - **مروج الذهب** ٣: ٢٠١؛ **الشورى في العصر الأمويّ**: ٣٥.

٣ - قال الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك: [**الديوان** ١: ٨٨- ٨٩].

أبـى اللهُ إلّا نصَـرَكُم بجنـودِهِ ... وليسَ بمغلوب مَنِ اللهُ صاحبُهْ
فما قامَ بعـد الـدارِ قُـوّادُ فتنـةٍ ... ليشـعلها إلّا ومـروانُ ضـاربُهْ
أبـى اللهُ إلّا أنّ مُلكَكُـمُ الـذي ... بـه نبـتَ الـدّينَ الشـديدَ نصـائبُهْ

وقال في موضع آخر: [**الديوان** ١: ٢١٥]

غلبـتُمُ النـاسَ بـالحقّ إذا ضـربوا ... علـيهم، ويضـرب غيـرتعـذيرِ

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٦: ٦٢.

الأمويّين. ونُقل عن مجاهد [يتعيّن أن نحتمل نسبةَ هذه الأقوال إلى مثل هؤلاء] أنّه قال: «لو رأيتم معاوية لَقُلتم: هذا المهديّ»![1] واستعمل الفرزدق في البيتين الآتيين عنوان المهديّ في بعض ملوك بني أميّة، فقال يخاطب الوليدَ بن عبد الملك:

و مِن عَبد شمس أنت سادسُ ... خلائفَ كانوا منهمُ العمُّ والأبُ
هُداةً ومهديّينَ عثمانُ مِنهمُ ... و مروانُ وابنُ الأبطَحين المطيَّبُ[2]

وقال في سليمان بن عبد الملك أيضاً:

فإنّ إمامَك المهديّ يهدي ... بِهِ الرحمانُ مَن خشِيَ الضَّلالا[3]

و قال:

فأجابَ دعوتَنا وأنقَذَنا ... بخلافةِ المهديّ من ضُرّ[4]

وقال جرير في سليمان أيضاً:

سليمانُ المباركُ قد عَلِمتُمْ ... هُوَ المهديُّ قد وَضُح السبيلُ[5]

و وُصف عمر بن عبد العزيز بالمهديّ أيضاً في المصادر غير الشعريّة[6]، فقد قال جرير يمدحه أيضاً:

أنت المباركُ والمهديُّ سيرتُهُ ... تَعصي الهوى وتقومُ الليلَ بالسُّوَرِ[7]

وقال في هِشام بن عبد الملك:

---

١ - مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٥٣.
٢ - ديوان الفرزدق ١: ٨٠؛ الأمويّون والخلافة: ٢٢.
٣ - ديوان الفرزدق ٢: ٩٩.
٤ - نفسه ١: ٢٦٢.
٥ - ديوان جرير ٢: ٧٧١.
٦ - انظر: الطبقات الكبرى ٥: ٣٣٣؛ البداية والنهاية ٩: ١٩٢، ١٩٦؛ شذرات الذهب ١: ١١٩؛ الأمويّون والخلافة: ٢٣؛ تاريخ الخلفاء: ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥.
٧ - ديوان جرير ١: ٤١٦.

فقلتُ لها: الخليفةُ غيرُ شكٍّ ... هو المهديُّ والحَكَمُ الرشيدُ[١]

وقال فيه الفرزدق:

هو المالكُ المهديُّ والسابقُ الذي ... له أوّلُ المجدِ التّليدِ وآخِرُهْ[٢]

وعلى بعض الأبيات المذكورة يمكن أن نقول بضرس قاطع: إنّ استعمال الكلمة المذكورة في مدح الملوك مقتَبسٌ من العقيدة المهدويّة، لا أنّه استعمال لغويّ بسيط بحت، ولا مِريَة في اختلاق أحاديث للسلاطين في هذا الشأن أيضاً، مضافاً إلى الأشعار.

إنّ من المواصفات الأصليّة للحكومة الأمويّة القائمة على قاعدة قداسة السلطان وعقيدة الجبر تجبُّرَها وتغطرسها على الناس. وفي عصر ملوكها الأوّل، كان للانتخاب والشورى قيمة حتّى لو كانا للتظاهر، وكان جمهور الناس يؤخَذ بعين الاعتبار في إدارة الأمور إلى حدّ ما. وبلغ هذا الأمر مبلغاً استطاع فيه الناس، بتوكّئهم على قدرتهم القبليّة، أن يضايقوا الحاكم ويسلبوه سلطته الحقيقيّة. ولكن لمّا تحقّقت الحكومة بالعنف والقوّة فإنّ إدارة البلاد الإسلاميّة تحقّقت بالعنف والجبر والقوّة أيضاً، فقُمع كلُّ ضربٍ من ضروب المعارضة بذرائع دينيّة وسياسيّة شتّى!

وصف ابنُ الطقطقيّ عبدَ الملك بن مروان بأنّه «أوّل مَن نهى الرعيّة عن كثرة الحديث بحضرة الخلفاء ومراجعتهم، وكانوا يتجرّأون عليهم»[٣]، وأضاف السيوطيّ أنّ عبد الملك أوّل من نهى عن الأمر بالمعروف[٤]. وقال عبد الملك في أوّل خطبةٍ له: «تدعون الناس إلى التقوى وتنسَون أنفسكم! واللهِ لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد

---

١ - نفسه ١: ٢٢٨.

٢ - **ديوان الفرزدق** ١: ٢٨١؛ **الأمويّون والخلافة**: ٢٤.

٣ - **الفخريّ**: ١٢٢.

٤ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٩.

مقامي هذا إلّا ضربت عنقَه»[١]. وكان يقول لمن يتوقّع منه أن يعمل عمل المهاجرين الأوائل: «فلا تُكلّفونا أعمالَ المهاجرين، ولستُم تعملون أعمالهم».[٢]

وكان دعم عبد الملك للحجّاج بن يوسف الثقفيّ وأعمالهِ المستبدّة في العراق المتجلّية في إخماد كلّ صوتٍ معارض، دليلًا على ذروة الأساليب الاستبداديّة التي كان ينتهجها الملك الأمويّ في إدارة الشؤون السياسيّة. وقد رُوِيَ أنّ الحجّاج قال لأهل الكوفة حين دخلها: «... وإنّه [عبد الملك] قلّدني عليكم سَوطاً وسيفاً، فسقط السوط وبقي السيف»![٣]

وكان عبد الملك نفسه قد قال في خطبةٍ له:«أمّا بعد فلستُ بالخليفة المستضعَف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأفون - يعني يزيد - ...، ألا وإنّي لا أداوي أدواءَ هذه الأمّة إلّا بالسَّيف»[٤]! وأوصى ابنَه الوليد عند موته بأن يضع سيفه على عاتقه لردع المعارضين لبيعته[٥]، وقد وصفه المنصور العبّاسيّ ـ والمنصور في غاية الاستبداد ـ بالتجبّر والاستبداد مِن بين بني مروان![٦]

ولمّا دخل عليه معاوية بن قرّة ومعه الحجّاج، سأل عبدُ الملك معاويةَ عن

---

١ - **أنساب الأشراف** (مخطوطة) ١: ١١٦٤ نقلًا عن: **الأمويّون والخلافة**: ١٢٠، ١٢٢؛ **الكامل في التاريخ** ٤: ٥٢٢؛ **فوات الوفيات** ٢: ٤٠٤.

٢ - **أمالي القالي** ١: ١١؛ وانظر: **البداية والنهاية** ٨: ٣١٦؛ **الأمويّون والخلافة**: ١٢٢؛ **أنساب الأشراف** ٧: ١١٢؛ **الكامل** ٤: ٣٩١.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٧٣.

٤ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٨.

٥ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٨٠ ـ ٢٨١؛ **تاريخ الخلفاء**: ٢٢٠.

٦ - **شرح النهج** ١٥: ٢٥٣؛ وانظر: **الأمويّون والخلافة**: ١٢٨ عن مصادر عديدة، يتعيّن القول: [ويلٌ لمن كفّره نُمرود!].

الحجّاج، فقال: «إن صدقناكم قتلتمونا، وإن كذبناكم خَشِينا الله عزّوجلّ... فقال عبد الملك [للحجّاج]: لا تعرّض له، فنفاه إلى السند»[١]. وأصبح هذا الاستبداد مبدأ ثابتاً في مُلك بني مروان، إلّا أنّ بعضهم كان أقلّ شدّة، وبعضهم الآخر أعتى حِدّة.

وكانت قصّة السيطرة الثقافيّة لأهل الكتاب، يهودٍ ونصارى على بسطاء المسلمين طويلةً جدّاً، وهي جديرة بالدراسة والتحليل من جهات متنوّعة. وما يرتبط منها بحديثنا هنا هو تأثيرهم في التطوّرات السياسيّة، لاسيّما في قضيّة السلطة [الخلافة]. وكان أغرار المسلمين يعتقدون أنّ في الكتب الواقعة في متناول أيدي أهل الكتاب نبوءاتٍ كثيرةً بشأن المسلمين، ومنها ـ وأهمّ منها جميعاً ـ ما يتعلّق بملوكهم وسلاطينهم وترتيب سلطانهم، بل بأسمائهم وعلاماتهم ووقائع حياتهم!

وما يأتي في سياق الحديث إنّما هو غيضٌ يسير من النماذج والأمثلة المُستلّة من فيض كثير من الموارد المنقولة بهذا الشأن. وكان ملوك بني أميّة، في الأصل، يجدّون في الاستعانة بما يقوله أهل الكتاب، أو بما يُلقيه هؤلاء في أفواههم، أو بما جرى من مصالحةٍ بينهما؛ ليتظاهروا بأنّ أسماءهم جاءت في الكتب السماويّة. وكان لهذه القضيّة دورٌ مهمّ في إظهار حكومتهم كحكومة شرعيّة، كما أنّها تعبّر عن نوع من الحتميّة والقضاء الإلهيّ في تولية المَلِك فلان! وقيل: إنّ معاوية طمع في الحكم بعد أن استشاره وغيرَه عثمان في أمر المعارضين لحكومته. وسُمِع راجز في موسم الحجّ يقول:

إنّ الأميرَ بعدَه عليُّ ... وفي الزبيرِ خَلَفٌ رَضِيُّ

---

١ - البداية والنهاية ٩: ١٣٩.

فقال كعب الأحبار للقائل: «كذبت! صاحبُ الشهباء بعده - يعني معاوية - فأخبر معاوية، فسأله عن الذي بلغه، قال كعب: نعم، أنت الأميرُ بعده... فوقعت في نفس معاوية»[١]. ونقل عن يهوديّ أسلم اسمه «يوسف» أنّه تنبّأ بحكومة عبد الملك[٢]. وعدّ وهب بن منبّه عمرَبن عبد العزيز مهديّ هذه الأمّة[٣]! وكان وهب هذا - ككعب الأحبار - راوياً لأخبار أهل الكتاب وكتب اليهود والنصارى بين المسلمين.

وروى السيوطيّ أنّ «عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مرّ براهبٍ في الجزيرة، فنزل إليه الراهب ولم ينزل لأحدٍ قبله، وقال له: أتدري لم نزلتُ إليك؟ قال لا، قال: لحقّ أبيك، فإنّا نجده (في الكتب) في أئمّة العدل بموضع رجب من الأشهر الحُرُم. ففسّره أيّوب بن سويد بثلاثةٍ متوالية: ذي القعدة، وذي الحجّة، والمحرّم: أبي بكر، وعمر، وعثمان، ورجب منفرد منها عمرُ بن عبد العزيز»[٤]، فقد جاءت أسماء الخلفاء الأربعة - غير اسم عليّ عليه السلام - في كتب اليهود!! وجاء في خبرٍ آخر أنّ عمر بن عبد العزيز قال لنصرانيّ: «مَن تجدون الخليفةَ بعد سليمان؟ قال: أنت»[٥]. وسأل الحجّاج أيضاً راهباً عمّا يجده في كتبهم بشأن عدوّه، فقال: «رجل يقال له: يزيد.

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٤٣؛ **النزاع والتخاصم**: ٧٨؛ **أنساب الأشراف**، الجزء الرابع، القسم الأوّل، ص ٤٩٥ / الرقم ١٢٧٨؛ **البدء والتاريخ** ٥: ٢٠٨ (و جاء فيه «مرضيّ» مكان «رضيّ»)؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ١٢٣ . وكان كعب الأحبار من مشاوري عثمان وأصحابه؛ انظر: **أنساب الأشراف**، الجزء الرابع، القسم الأوّل، ص ٥٤٢.

٢ - **تاريخ الخلفاء**: ٢١٦ — ٢١٧.

٣ - نفسه: ٢٣٣.

٤ - نفسه.

٥ - **الموفّقيات**: ٣٥٢.

فوقع في نفسه يزيد بن المهلّب، فعزله»[١].

وقال خالد الرّبَعيّ: «إنّا نجد في التوراة أنّ السماوات والأرض تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً»![٢] وذكر محمّد بن كعب القُرظيّ مثالًا من بني إسرائيل يحذّر فيه الناسَ من سوء عاقبة المخالفة والخروج على الملوك[٣]. وقيل: «كان سبب ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم... أنّ خالد بن يزيد بن معاوية قال له: يا أمير المؤمنين، إنّ العلماء من أهل الكتاب الأوَل يذكرون أنّهم يجدون في كتبهم أنّ أطول الخلفاء عمراً مَن قدّس اللهَ تعالى في الدرهم. فعزم على ذلك، ووضع السكّة الإسلاميّة»[٤].

فهذه الأمثلة تحمل معها لعوامّ المسلمين- الذين كانوا يتأثّرون بنبوءات أهل الكتاب المجعولة (الموضوعة) بشدّة- نوعاً من الحتميّة والشرعيّة للأمويّين. وقد خاطب الشاعر الأمويّ المعروف جريرٌ أيّوبَ بن سليمان بن عبد الملك قائلًا له:

أنتَ الخليفةُ للرحمنِ يَعرِفُهُ ... أهلُ الزّبورِ، وفي التوراةِ مكتوبُ
اللهُ فَضَّلَهُ واللهُ وَفّقَهُ ... توفيقَ يُوسفَ إذْ وَصَّاهُ يعقوبُ[٥]

و أشير إلى أنّ الملوك الأمويّين كانوا يعتقدون أنّ أسماءهم جاءت في التوراة، وأنّ العالِمين بالكتب السماويّة من اليهود والنصارى كانوا يستغلّون هذا الاعتقاد استغلالًا خاصّاً!

---

١ - **تاريخ الطبري** ٦: ٣٩٣ – ٣٩٤.

٢ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٤٥.

٣ - **ربيع الأبرار** ٢: ٨٤٣ – ٨٤٤؛ وانظر بشأن محمّد بن كعب: «**قصه خوانان در تاريخ اسلام**» [القصّاصون في التاريخ الإسلاميّ]: ٦٨ – ٦٩.

٤ - **النقود الإسلاميّة**: ١١. وفي هذا الشأن بحث طويل. انظر: «العقد المنير فيما يتعلّق بالدراهم والدنانير».

٥ - **ديوان جرير** ١: ٣٤٩.

و من المناسب في الختام أن نستعرض عهدَ الوليد بن يزيد لوَلَدَيه: الحكم وعثمان، وهذا العهد نصّ مفصّل يمكن أن يكون مرآةً لبعض العقائد الرسميّة للحكومة. وقد بدأه بالحديث عن بعثة الأنبياء إلى أن اختار اللهُ سبحانه محمّداً صلى الله عليه وآله نبيّاً.

ثمّ واصل منهاجَه خلفاؤُه بعده، «فتتابع خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه واستخلفهم عليه منه، لا يتعرّض لحقّهم أحدٌ إلّا صرَعَه الله، ولا يفارق جماعتَهم أحدٌ إلّا أهلكه الله، ولا يستخفّ بولايتهم ويتّهم قضاءَ اللهَ فيهم أحدٌ إلّا أمكنهم اللهُ منه وسلّطهم عليه، وجعله نكالًا وموعظةً لغيره! وكذلك صنع الله بمن فارق الطاعة التي أمر بلزومها والأخذ بها...» إلى هنا، عُدّت عزيمة جميع الثورات المضادّة للأمويّين دليلًا على حقّانيّتهم. ثمّ ذكر آية استخلاف الإنسان واعتراض الملائكة، تبياناً لمكانة الخلافة، ورَبَطَ ذلك بالخلافة، فقال: «فبالخلافة أبقى اللهُ مَن أبقى في الأرض من عباده، وإليها صيّره، وبطاعة مَن ولّاه إيّاها، سَعَد مَن ألهمها ونصرها، فإنّ الله عزّوجلّ علم أنّ لا قوام لشيء ولا صلاحَ له إلّا بالطاعة التي يحفظ اللهُ بها حقّه، ويُمضي بها أمرَه، ويُنكل بها [الناس] عن معاصيه، ويوقف عن محارمه، ويذبّ عن حرماته. فمَن أخذ بحظّه منها كان للهِ وليّاً، ولأمره مطيعاً، ولرُشده مصيباً». ثمّ فصّل الكلام في الطاعة أكثر، فقال: «و بالطاعة نال المفلحون من الله منازلَهم، واستوجبوا عليه ثوابهم... وبترك الطاعة والإضاعة لها والخروج منها والإدبار عنها... أهلك اللهُ مَن ضلّ وعتا، وعَميَ وغلا...». ونراه هنا قد مزج طاعة الله بطاعة الخلفاء! ثمّ تحدّث بعد ذلك في «العهد»، وقَصْدُهُ «ولاية العهد»، و«هو العهد الذي ألهم اللهُ خلفاءَه توكيدَه... ليكون لهم عندما يحدث بخلفائهم ثقةً في المفزع وملتجأ في الأمر، ولمّاً للشّعَث، وصلاحاً لذات البَين... وقطعاً لنزغات الشيطان فيما يتطلّع إليه أولياؤه... فأمرُ هذا العهد من تمام الإسلام، وكمالِ ما

استوجب الله على أهله من المِنن العظام... ويجمعهم به من كلّ فُرقة، ويقمع به أهلَ النفاق، ويعصمهم به من كلّ اختلاف وشقاق». ثمّ جاءت توضيحات أكثر حول أهميّة «العهد». وقال بعد ذلك: «ثمّ إنّ أمير المؤمنين [الوليد] لم يكن منذ استخلفه الله بشيء من الأمور أشدّ اهتماماً وعنايةً منه بهذا العهد، لِعلمه بمنزلته من أمر المسلمين... ويسأله أن يُعينه من ذلك على الذي هو أرشد له خاصّةً وللمسلمين عامّةً، فرأى أمير المؤمنين أن يعهد لكم عهداً بعد عهد». ثمّ ذكر ولدَيه الحَكَم وعثمان وتوليته إيّاهما واحداً بعد الآخر للإمرة بعده[1]. وأهمّ نقطة في هذا العهد هي الاهتمام بولاية العهد كقضيّة مهمّة، وموهبة إلهيّة، وراعية لأمن المؤمنين وحُرمتهم... وقد بلغت هذه الأهميّة درجةً أنّه عَدَّ أمر العهد من تمام الإسلام[2]! وتكرّرت في هذا العهد عقيدةُ الجبر وإضفاء القداسة على [ما يسمّى] بالخلافة. وكما أشير فقد اعتُبرت طاعة الله وطاعة [ما يُسمَّون] بالخلفاء واحدة، كما أنّ الله سبحانه هو الذي استخلفهم في الأرض وألهمهم نظريّة «ولاية العهد»!

العلماء في خدمة بني مروان

كان العلم في عصر بني أميّة مقصوراً على علم الحديث الشامل للروايات والأخبار الفقهيّة، والأخلاقيّة، والتاريخيّة، والتفسيريّة. وقلّما رغب الرجال في العلم بعد موت الصحابة، إذ لم يتطلّب العصر هذا الأمر، ولم يُبدِ بنو أميّة رغبةً فيه أيضاً.

---

١ - **تاريخ الطبري** ٧: ٢١٩ - ٢٢٤.

٢ - قارن عزيزي القارئ ذلك بقوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكُم دينَكُم﴾ النازلة في إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كما ذهب إلى ذلك فريق من المحدّثين، وهو رأي أئمّة الشيعة عليهم السلام وعلماء الإماميّة. وربّما يكون هذا بياناً لنوعٍ من التقابل الذي يُزيح تدريجاً الإمامة المنصوص عليها، والتي هي آية إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضي الله تعالى بالإسلام بولاية الإمام عليّ وأبنائه عليهم السلام، ويستبدل بها ولاية العهد.

ومضى رَدْحٌ من الدهر حتّى فكّر بعض الرجال بجمع الأخبار والروايات الدينيّة لتظلّ مصونةً من التحريف والتدنيس، وكان عمر بن عبد العزيز هو الذي أصدر الأمر بهذا العمل في بداية القرن الثاني الهجريّ[١]، وهذا مَعْلَمٌ على إهمال الحكّام عِلْمَ الدين إهمالاً بالغاً. ولم تُثِر أنواعُ البدع والتحريف في الدين أيّامَ معاوية وما بعده أدنى معارضة أو إنكار، وعلّةُ ذلك فقدانُ الناسِ الوعيَ الدينيَّ المطلوبَ الذي يحفّزهم على مواجهة هذا الأمر. ثمّ واصل معاوية والحجّاج[٢] [و نظائرهما] مساعيهم في إحياء السنن الدينيّة السقيمة التي وضع عثمانُ أو غيرُه أسسَها، وكان هذا في وقتٍ غفل فيه الناس، بسبب إهمال العلم يومئذٍ، عن أبسط أحكام الدين التي كانوا يحتاجون إليها أكثر من غيرها كالفقه، وبخاصّة الصلاة[٣]. وكان عدد الأحاديث التي بأيدي العلماء في هذه الفترة قليلاً عادةً، إذ بلغ مليوناً، بل أكثر من ذلك في أواسط القرن الثالث[٤]. وهذا نفسه يبيّن لنا كيف تمّ تدارك السنّة النبويّة المنسيّة باختلاق الحديث في القرنين الأوّلين. وإنّه لوزرٌ حمله بنو أميّة بعد مَن حرّم تدوين الحديث النبويّ، إذ لم يُعْتَنَ بالعلم في ظلّ حكومتهم، وإذ جدّوا في استجهال الناس ليسوقوهم أنّى شاؤوا[٥].

---

١ - مصنّف عبد الرزّاق ٩: ٢٢٧.

٢ - مروج الذهب ٣: ١٤٦؛ الإيضاح: ١٨٢.

٣ - انظر: الأحكام في أصول الأحكام ٢: ١٣١؛ نظرة عامّة في تاريخ الفقه الإسلامي: ١١٠؛ الإمام الباقر عليه السلام ١: ٢١٥، ٢١٦؛ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ١: ٥٦ – ٥٧.

٤ - ذكر الذهبيّ في «تذكرة الحفّاظ» عند ترجمة المحدّثين في القرن الأوّل أنّ عددها لايتجاوز العشرات. لكن كلّما اقتربنا من القرن الثاني واتّجهنا منه إلى القرن الثالث زاد عددها عند الرجل الواحد أكثر فأكثر. وليست هذه الزيادة من أجل جمع أحاديث الآخرين عند محدّثٍ من القرن الثاني أو الثالث، بل هي تدلّ على كثرةٍ لا حصر لها للأحاديث الموضوعة المختَلَقة التي يزداد عددها كلّما تقدّمنا أكثر.

٥ - انظر: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ١: ٥٦.

وأصبح كثير من العارفين بالعلوم الإسلاميّة في خدمة بني مروان آنذاك، وإن انبرى كثيرٌ من أولي الميول الشيعيّة - الذين كانوا غالباً في عداد علماء العراق - لبني أميّة وقارعوهم.

ويتعيّن علينا أن نذكر من الموافقين لبني أميّة محمّدَ بنَ مسلم بن شهاب الزهريّ (م ١٢٤هـ) الذي ما فتئ يخدمهم بإمعان، وقد ذهب ذات مرّة مع أحد حكّامهم [وهو سليمان بن عبد الملك] عند آخر صحابيّ من صحابة النبيّ ﷺ، وهو أبو حازم، فقال له أبو حازم معرِضاً: «إنّ بني إسرائيل لمّا كانوا على الصواب، كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء... فلمّا رُئي قوم من أراذل الناس تعلّموا العلم وأتوا به الأمراء، استغنت الأمراء عن العلماء»! فقال الزهريّ وهو واقف إلى جانب سليمان: «كأنّك إيّايَ تُريد، وبي تُعرّض! قال هو ما تسمع»![1]

وكان أكثر عمل الزهريّ مع هشام بن عبد الملك، وفي مقابل خدماته لهشام، سدّد هشام له ديونَه الثقيلة[2]، وبعث إليه أبناءَه من أجل تأديبهم! وكان إخوة هشام أيضاً، وكذلك أبوه عبد الملك مِن قَبله يساعدونه ماليّاً.[3] وكانت أخت الزهريّ قد أوصت الناس ألّا يقبلوا حديثه، لأنّه باع دينَه بدنياه وعمل لبني أميّة![4] ثمّ جاء بعد ذلك أتباع الإسلام الأمويّ، فأثنوا عليه كثيراً! فقال ابن تيميّة: إنّه حَفِظ الإسلامَ سبعين سنةً[5]! وكان بيّناً طبعاً أنّ هذا الذي حَفِظه الزهريّ هو الإسلام الذي كان يحبّه بنو أميّة. وسبق الزهريّ أيضاً رجالٌ كثُرٌ خدموا بني أميّة ووضعوا لهم الحديث،

١ - **الإمامة والسياسة** ٢: ١٠٨، ١٠٩.

٢ - **تذكرة الحفّاظ** ١: ١٠٩؛ **المجروحين** ١: ٤٠؛ **شذرات الذهب** ٢: ١٦٢.

٣ - نفسه.

٤ - **أنساب الأشراف** (الهامش) ١: ٢٦.

٥ - **شذرات الذهب** ١: ١٦٣.

ومن هؤلاء: سمرة بن جندب، وأبو هُريرة[١].

وفي أيّ حال، كان الزهريّ من المنتمين إلى هشام وسائر الأمويّين[٢]، وقد جدّ هو وعلماء آخرون معاصرون في نشر العقائد المنحرفة، وقيل: كان هو وعوانة بن الحكم، الذي كان عثمانيَّ الهوى أيضاً يتبنّيان مذهب الجبر بنحو خاصّ[٣]! والطريف أنّ ابن حبّان صرّح بأنّه لا يحفظ حديثاً عن طريق الزهريّ في مناقب عليّ[٤].

و يجب أن نذكر من المحدّثين الآخرين، الذين كانوا في خدمة بني مروان، إبراهيمَ النخعيّ، فقد قال ابن عون: كان إبراهيم يأتي الأمراءَ ويسألهم الجوائز! وقال فيه آخر: «كان إبراهيم يشتري الوزّ ويسمّنه ويهديه إلى الأمراء»![٥] وكان أبو الزناد فقيه المدينة من المحدّثين والحفّاظ الذين تربطهم علاقة بهشام بن عبد الملك[٦]، «وكان مغيرة بن مقسم الحافظ عثمانيّاً، ويحمل على عليٍّ بعض الحمل»![٧]

ونذكر أيضاً من الحفّاظ والمحدّثين المشهورين الذين كانوا في خدمة بني أميّة الشعبيّ، الذي شهد وقعة عبد الرحمان بن الأشعث، ثمّ عفا عنه الحجّاج بعد أن سلّم له تسليماً تامّاً، وأمضى بقيّة عمره مع عبد الملك[٨]. وكان قد افترى ولفّق كثيراً

---

١ - انظر: **الإيضاح**: ٢١٠؛ **أبو هريرة**، للسيّد شرف الدين: ٤٢- ٤٥.

٢ - انظر: **تاريخ أبي زرعة الدمشقي** ٢: ٥٣٨؛ مجلّة **تراثنا**، بعد ٢٣، ص ٩ – ٢٧ للاطّلاع على ما ذُكر وعلى معلوماتٍ أخرى حول الزهريّ.

٣ - **التاريخ العربيّ والمؤرّخون** ١: ١٧٣.

٤ - **المجروحين** ١: ٢٥٨.

٥ - **تذكرة الحفّاظ** ١: ٧٤.

٦ - نفسه ١: ١٣٥.

٧ - نفسه ١: ١٤٣.

٨ - نفسه ١: ٧٩.

لتشويه سمعة رجالٍ من الشيعة كالمختار، وقد نقل الطبريّ مفترياته في كتابه. وكان عبد الله بن عمر، الذي أدرك الحجّاج، مؤيَّداً مزكّىً عند الأمويّين نوعاً ما، بخاصّة أنّ عبد الملك كتب إلى الحجّاج أن يطيعه[١]!

و ذُكِر محدّث آخريدعى رجاء بن حَيْوة باسم «شيخ أهل الشام»، «وكبير الدولة الأمويّة»، [٢] وكان من المقرّبين إلى عبد الملك بن مروان، وقيل: إنّه تولّى الشؤون الماليّة عندما كانت تُبنى صخرة بيت المقدس[٣]. وتحدّث (فلهاروزن) عن تأثيره في جهاز عبد الملك وولَدَيه الوليد وسليمان، وأشار إلى حضّه سليمانَ على استخلاف عمر بن عبد العزيز بعده[٤].

إنّ الخدمة التي استطاع هؤلاء الأشخاص تقديمَها هي اختلاقُ الأحاديث التي يمكن أن تكون مفيدةً في ذمّ أعداء الأمويّين، وفي نقل الكرامات للمنتسبين إلى هذه الأسرة. وكانت رواية الأحاديث في وجوب طاعة [من يُسَمَّون] بالخلفاء، مهما كانت الظروف[٥]- ولها تأثير عمليّ كبير- حقّاً من حقوقهم، فلن يُحاسبَهم الله بسبب كونهم خلفاء[٦]. ولمّا ولي يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز أراد أن يسير بسيرته، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أن ما على الخلفاء حساب ولا عذاب[٧]!!

و من العلماء الآخرين المنتسبين إلى الأمويّين: ابنُ أبي موسى الأشعريّ، أي أبو

---

١ - **جامع بيان العلم** ١: ١٤٦.

٢ - **تذكرة الحفّاظ** ١: ١١٨.

٣ - **البداية والنهاية** ٨: ٢٨٠، نقلًا عن فلهاروزن في (**تاريخ الدولة العربيّة**: ٢٠٩).

٤ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ٢٥٦، ٢٥٧.

٥ - **المصنف** ١: ٢٢٩، ٢٣٠.

٦ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٢٣.

٧ - نفسه: ٢٤٦.

بُردة الذي وليَ قضاء الكوفة بعد موت شُريح[١]. وكان من المهامّ الرئيسة لحفّاظ الحديث هؤلاء هو ترسيخُ موقع قريش بين العرب، واختلاقُ الأحاديث في توجيه التمييز الذي كان يجيزه الأمويّون في تفضيل العرب على العجم. وكان الحديث القائل قدّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها[٢]، يصبّ في سياق السياسة التي مارسها سليمان ابن عبد الملك، إذ كان يأمر بجلد كلّ من يُسيء إلى قريش[٣]!

إنّ تكذيب الأحاديث التي كان ينقلها علماء العراق، وقذفَهم بافتراء الحديث، كان عملًا مهمّاً من أعمال علماء البلاط الأمويّ[٤]، ويُحتمَل أنّ هذا العمل كان يعود إلى أنّ أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام كانت مبثوثةً في العراق عادةً، وهذا ما لم يَطِبْ لبني أميّة.

و في مقابل العلماء الذين سخّروا أنفسهم لخدمة الأمويّين في الحجاز أو الشام، أو العراق أحياناً، كان هناك جُمهور علماء الكوفة، سواءً الشيعة المخلصين أم المتشيّعين منهم، وأولئك لم تكن لهم علاقة بالأمويّين قطّ، وكان قُصاراهم المحافظةَ على الأحاديث الصحيحة، ومثالها الأحاديث المأثورة في فضائل أهل البيت عليهم السلام، والتي كان الرواة العراقيّون يحافظون عليها غالباً. وحقيق بالذكر أنّ العراقيّين لم يكونوا على المذهب العثمانيّ، وكانوا يحبّون أمير المؤمنين وأهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وعليهم وسلّم، ومع هذا لا يمكن عدّهم من الشيعة، وإن كان يُقال لهم ذلك في الاصطلاح القديم. وفي أيّ حال، كان بين هؤلاء العلماء عدد كبير لم يساوم الأمويّين، بل كان يستثمر كلّ فرصة للاشتراك في الثورات التي

---

١ - **تذكرة الحفّاظ** ١: ٩٥.

٢ - **تاريخ بغداد** ٢: ٦١.

٣ - **الفائق في غريب الحديث** ١: ١٣٥.

٤ - **الطبقات الكبرى** ٦: ٣٤٢.

كانت تؤجّج ضدّهم. وحضور جمّ غفير منهم في وقعة ابن الأشعث، وكذلك في ثورة زيد بن عليّ آية على قوّة الموقف الذي اتّخذوه.

بثّ الإسرائيليّات وانتشار القصص!

إنّ من المشاكل والمصائب المهمّة التي حلّت بالثقافة الإسلاميّة في القرن الأوّل الهجريّ رسوخَ الإسرائيليّات التي تركت آثاراً عميقةً بأبعاد واسعة، سواءٌ في النطاق الثقافيّ أم السياسيّ، وبقيت تبعاتها في الأفكار والكتب: التفسيريّة، والتاريخيّة، والكلاميّة، والفقهيّة المختلفة على امتداد أربعة عشر قرناً.

و أوّل الذين مارسوا نشاطاً واسعاً في هذا المسير هو عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود، الذي أسلم في عهد النبيّ ﷺ، وقد اشتملت المصادر والمظانّ الحديثيّة على أخبارٍ كثيرةٍ نُقلت عنه في مجال دسّ ثقافة اليهود بين المسلمين. وأهمّ منه كعب الأحبار الذي كان له مقام عند الخليفة الثاني[1]، فتأثّر به بسبب ذلك كثيرٌ من الصحابة الذين نقلوا الحديث النبويّ، واستطاع بسبب الموقع المذكور أن يوجّه ضربةً قاصمة مُبيدةً جدّاً للثقافة الإسلاميّة، وأن يدنّس عالَم الحديث بأخبار واهية لا أساس لها من كتب اليهود، وقد أثنى عليه معاوية أيضاً ثناءً بالغاً[2]! وسمّاه عِكرمة - أحدُ موالي عبد الله بن عبّاس، ومن رواة الحديث المهمّين - «ربّانيَّ هذه الأمّة»[3]! وكان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص يحترمانهِ أكثر من سائر الصحابة، وحتّى إنّ أبا هريرة نسب أخباره إلى النبيّ ﷺ في مواطن كثيرةٍ من أجل ترويج كلماته... وسبق أن تحدّثنا عنه مفصّلًا عند الكلام عن خلافة عمر.

---

١ - تحدّثنا فيما تقدّم عن ذلك عند تبيان الحياة الفكريّة لعمر.

٢ - **الطبقات الكبرى** ٢: ٣٥٨.

٣ - نفسه ٢: ٣٧٠.

وكان وارثه الحقيقيّ في أواخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني وهب بن منبّه (م١١٤هـ). قال الذهبيّ في وهب: «وعنده مِن علم أهل الكتاب شيء كثير، فإنّه صرف عنايته إلى ذلك»[1]. ونُقلت أحاديث وهب هذا عن طريق أخيه همام - الذي كان راوياً لأحاديث أبي هريرة المتأثّر بكعب الأحبار أيضاً - في صحيح مسلم، والبخاريّ![2] وتلك العلاقة المتعدّدة الجوانب التي ربطت أبا هريرة، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وهمام بن منبّه هي علامة واضحة على توافقهم في بثّ الإسرائيليّات... قال الذهبيّ في وهب: «وكان ثقة واسعَ العلم يُنظَر بكعب الأحبار في زمانه... قال [وهب]: يقولون: عبد الله بن سلام أعلمُ أهل زمانه، وكعبٌ أعلم أهل زمانه، أفرأيتَ من جمع علمهما»؟![3] [يقصد نفسه]، وقال الذهبيّ في موضعٍ آخر: كان كثيراً ما ينقل من كتب الإسرائيليّات[4]! ونُقل عن وهب نفسه أنّه كان يعتقد القَدْر في بدء أمره، ثمّ عدل عنه بعد أن قرأ سبعين ونيّف كتاب سماويّ![5] وجاء في مصدر آخر أنّه قرأ اثنين وتسعين كتاباً كلُّها أنزِلت من السماء!![6] وقال ابن عماد الحنبليّ فيه: كان شديدَ الاعتناء بكتب الأوّلين وأخبار الملاحم وقَصصهم؛ بحيث كان يُشَبَّه بكعب الأحبار في زمانه[7].

وشِيدت لوهب منزلة رفيعة في ثقافة أهل السنّة بعد تصرّم السنين، حتّى نقلوا عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال فيه: يكون في أمّتي رجلٌ يقال له: «وهب» يَهَب اللهُ له

١ - **تذكرة الحفّاظ** ١: ١٠١.

٢ - نفسه.

٣ - نفسه. لم يذكر المؤلّف اسم عبد الله بن سلام، وذكرته كما جاء في مصدره. المترجم.

٤ - **ميزان الاعتدال** ٤: ٣٥٣؛ **معجم الأدباء** ١٩: ٢٥٩.

٥ - نفسه.

٦ - **شذرات** ١: ١٥٠؛ **معجم الأدباء** ١٩: ٢٥٩؛ **الطبقات الكبرى** ٥: ٥٤٣.

٧ - **شذرات** ١: ١٥٠.

الحكمة![1] ولم يكن هذا الرجل غيرَ معتنٍ بأمر بني أميّة طبعاً، فقد وصف عمر بن عبد العزيز بأنّه المهديّ الموعود![2]

ولم تمنع السياسة الأمويّة نشرَ المقالات والمدوّنات الإسرائيليّة، بل كانت تؤيّدها، لِمَ لا وقد أصاب حكّامها حظّاً عظيماً من معارفها في الدعوة إلى أفكارهم السياسيّة، وتطبيقها في المجتمع... فكان لمعاوية مشاورٌ نصرانيّ يُدعى «سرجون ابن منصور»، وهو الذي عيّنه فيما بعدُ يزيدُ حاجباً له، فأراه سرجون عهداً - صادقاً أم كاذباً - من معاوية بأن يولّيَ عبيد الله بن زياد على الكوفة إذا خرج عليه أهلها، ثمّ صار سرجون هذا مشاوراً لمروان بن الحكم أيّامَ تسلّطه[3]، ويبدو أنّ ابنه تولّى أمر الكتابة على الخراج والجُند لعبد الملك[4]. وتؤكّد أخبار أخرى أيضاً أنّ معاوية عمّر كنيسةً خربة[5]، وكان الملوك يستندون عند الحاجة إلى الروايات المنقولة في فضيلة بيت المَقْدس، وكان الزهريّ من رواتها أيضاً.

ولمّا كانت مكّة بيد عبد الله بن الزبير، ظهرت لأهل الشام مشكلةُ أداء مناسك الحجّ... قال اليعقوبيّ: «ومنع عبدُ الملك أهلَ الشام من الحجّ، وذلك أنّ ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة، فلمّا رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكّة، فضجّ الناس... فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهريّ يحدّثكم أن رسول الله قال: لا تُشَدُّ الرّحالُ إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد

---

١ - **المجروحين** ١: ١٧٦.

٢ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٣٣- ٢٣٥.

٣ - **العقد الفريد** ٥: ١٤٧.

٤ - نفسه ٥: ١٤٨. [وجاء في هذا المصدر أنّه هو نفسه، أي سرجون، كان كاتبه على الخراج والجند لا ابنه]. المترجم.

٥ - انظر: **تاريخ الطبريّ** ٢: ٢٠٥، ٢٢٨ (ليدن)؛ **التنبيه والاشراف**: ٣٠٢، ٣٠٧ (ليدن)، نقلاً «عن **تاريخ الدول العربيّة**».

بيت المَقْدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام[1]. وهذه الصخرة التي يُروى أنّ رسول الله [ﷺ] وضع قدمه عليها لمّا صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة. فبنى على الصخرة قبّةً، وعلّق عليها ستور الديباج، وأقام لها سَدَنة، وأخذ الناسَ بأن يطوفوا حولَها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيّامَ بني أميّة»[2]. ونقل ابن خلّكان أنّ الناس كانوا يجتمعون هناك يوم عرفة[3]. وربما لم تُشر المصادر العربيّة بصراحة إلى أنّ عبد الملك رمى بعمله هذا إلى أن يؤدّيَ الناس مناسك الحجّ في بيت المقدس! بل اكتفت بذكر قداسته والطواف حول الصخرة، لكنّ المصادر غير العربيّة التي أعدّها الأوربيّون ذكرت بنحوٍ دقيقٍ أنّه أراد منهم الذهاب إلى بيت المقدس لأداء فريضة الحجّ!! نقل هذا الموضوع المؤرّخ الأوربيّ القديم (أوتيخيوس) في كتابه ANNALES[4]. وتكشف لنا هذه الحركة بوضوح كيف أفاد الحكّام الأمويّون من الإسرائيليّات التي رافقت سياستهم على الدوام، وقوّمتها!

و بشأن أهميّة بيت المقدس، تعهّد كلٌّ من عبد الملك والحجّاج ببناء بابَين عظيمَين له، ثمّ أتت صاعقةٌ فأحرقت باب عبد الملك وبقي باب الحجّاج، فكتب الحجّاج إليه: وما مَثَلُنا في ذلك إلّا كمثل [قوله تعالى]: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ**﴾[5].

و نقلت موارد أخرى أيضاً من تأثّر عبد الملك بأهل الكتاب[6].

---

١ - ذكر المؤلّف الكعبة مكان المسجد الحرام، وفي المصدر: المسجد الحرام. المترجم.

٢ - **تاريخ اليعقوبي** ٢: ٢٦١، ذكر المؤلّف أنّه **تاريخ الطبري**، والصحيح هو **تاريخ اليعقوبي**. المترجم؛ **البداية والنهاية** ٨: ٢٨٠، ٢٨١؛ **حياة الحيوان** ١: ٦٦.

٣ - **وفيات الأعيان** ٣: ٧٢.

٤ - **تاريخ الدولة العربيّة**: ٢٠٦.

٥ - **وفيات الأعيان** ١: ٢٣٥؛ والآية في سورة المائدة: ٢٧.

٦ - نفسه ٧: ٦٨١ – ٧٨١.

وكان الحجّاج حاكماً على المناطق الشرقيّة من البلاد الإسلاميّة زمناً طويلًا (عشرين سنةً)، ولم يخرج من الهيمنة العلميّة لأهل الكتاب، بل تأثّر بهم، فعزّز نفوذَهم في المجتمع. ومن ذلك ما يعود إلى عام إنشائه مدينةَ واسط (٨٤ هـ)، فعلى ما رواه الطبريّ، كان حافزه الأصليّ على هذا العمل نبوءَة راهبٍ نصرانيّ، «فبينا هو في موضع واسط، إذا راهب قد أقبل على حمارٍ له وعبر دجلة، فلمّا كان في موضع واسط تفاجّت الأتان [الأتان: أنثى الحمار. وتفاجّت: فتحت ما بين رِجْلَيها] فبالت، فنزل الراهب. فاحتفر ذلك البول، ثمّ احتمله فرمى به في دجلة، وذلك بعين الحجّاج، فقال: عَلَيَّ به. فأتي به، فقال ما حَمَلَك على ما صنعت؟ قال: نجدُ في كتبنا أنّه يُبنى في هذا الموضع مسجد يُعبَد اللهُ فيه ما دام في الأرض أحدٌ يوحّده... فاختطّ الحجّاجُ مدينة واسط، وبنى المسجد في ذلك الموضع»[١].

قوله: «نجد في كتبنا...» من التعابير الشائعة التي تُستعمَل في نقل الإسرائيليّات. وجاء في مورد آخر أنّ «الحجّاج وَفَدَ إلى عبد الملك بالشام، فمرّ في منصرَفه بدَيرٍ فنزله، فقيل له: إنّ في هذا الدّير شيخاً من أهل الكتاب عالماً، فدعا به، فقال: يا شيخ، هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن؟ قال: نعم... قال: أفَمُسمًّى أم موصوفاً؟ قال كلُّ ذلك موصوف بغير اسم، واسمٌ بغير صفة... قال [الحجّاج بعد أسئلةٍ أخرى طرحها عليه فأجاب عنها]: فمَن يليه بعدي؟ قال: رجلٌ يقال له: يزيد، قال: في حياتي أم بعد موتي؟ قال: لا أدري، قال: أفتعرف صفته؟ قال: يغدر غَدرةً، لا أعرف غير هذا! قال [الراوي]: فوقع في نفس الحجّاج يزيد بن المهلّب [حاكم خراسان]... فأجمع على عزل يزيد، وولّى مكانَه أخاه المفضَّلَ بن المهلّب، ثمّ عزله بعد حين»[٢]. ومن المحتمل قويّاً أنّ بعضاً حرّض

١ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٨٤، ١٨٥.

٢ - نفسه ٥: ١٩١.

الراهب المذكور على نقل هذه التُّرّهات؛ دسّاً منهم على عزل يزيد.

وكان تغلغل النصارى في الجهاز الأمويّ بين كاتبٍ ومولىً وغير ذلك من أهمّ أسباب بثّ الإسرائيليّات؛ ومن ذلك أنّ أمّهات بعض الحكّام كنّ من الإماء النصرانيّات اللّاتي كان لهنّ تأثيرُهنّ في تنمية معالم الأفكار النصرانيّة بين المسلمين، ومنهنّ: أمّ خالد بن عبد الله القسريّ، وخالد نفسه الذي كان حاكماً أمويّاً على مكّة والعراق عَدَدَ سنين، كان متّهماً في دينه، وقد بنى لأمّه كنيسةً تتعبّد فيها! فقال الفرزدق فيه:

وكيفَ يَؤمُّ الناسَ مَن كانتِ امُّهُ ... تَدينُ بأنّ الله ليس بواحدِ

بنى بِيعةً فيها الصَّليبُ لأمِّهِ ... ويَهدِمُ مِن بُغضٍ مَنارَ المساجِدِ[1]!

وعلى ما نقله الأصفهانيّ، فإنّ خالداً هذا كان متّهماً في أبيه أيضاً، إذ كان أحدُ أجداده يهوديّاً وجاء إلى قبيلة بجيلة فانتسب إليها[2]، حتّى إنّ هشام بن عبد الملك أيضاً عابه باهتمامه الكبير بالنصارى والمجوس، ودفعِه الأموالَ إليهم![3]

وكان خالد الرّبعيّ من الملمّين الآخرين بالإسرائيليّات، فقال: يوماً: «إنّا نجدُ في التوراة أنّ السماوات والأرض تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً»![4]

وكان الوليد بن عبد الملك يهتمّ بقرّاء بيت المقدس كثيراً، فقد قال ابن أبي عبلة فيه: «... وكان الوليد يعطيني قِطَع الفضّة أقسّمها على قرّاء مسجد بيت

١ - **وفيات الأعيان** ٢: ٢٢٩؛ وانظر: **ربيع الأبرار**١: ٣٢٨ للاطّلاع على سبب هدم المنارة [وجاء في صفحاتٍ متقدّمة: وكيف يؤمّ المسلمين وأمُّه ...] المترجم.

٢ - **الأغاني** ٥: ١٧؛ وانظر: **وفيات الأعيان** ٢: ٢٣٠.

٣ - **الموفّقيّات**: ٢٩٢.

٤ - **تاريخ الخلفاء**: ٢٤٥.

المقدس»[١]. ويمكن أن يدلّ التقصّي في التاريخ الإسلاميّ على مئات الأمثلة والنماذج من آثار هذه الثقافة اليهوديّة والنصرانيّة في ثقافة أهل السنّة.

و قيل أيضاً: إنّ ما حمل عبد الملك بن مروان على ضرب السكّة لأوّل مرّة هو إخباره بأنّ أهل الكتاب يذكرون أنّهم يجدون في كتبهم أنّ أطول الخلفاء عُمراً مَن قدّس الله تعالى في الدرهم، فعزم على ذلك، ووضع السكّة[٢].

ويقابل هذا الاتّجاهَ موقفُ أهل البيت عليهم السلام الشديد من عقائد أهل الكتاب المنحرفة، فقد قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ما مضمونه: مَن كان عنده كتاب من الأمم الأولى فليمزّقْه![٣] وكان هذا في وقت انتشرت فيه هذه الكتب بين المسلمين. وذمَّ الإمامُ الصادق عليه السلام أيضاً العلماء الذين كانوا ينهمكون في الإسرائيليّات[٤]. ورأينا فيما تقدّم أنّ الإمام السجّاد عليه السلام نهى الحسنَ البصريّ عن القَصص، وهذا امتداد لنهج رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ كان صلى الله عليه وآله قد قال: لا تسألوا أهلَ الكتابِ عن شيء[٥].

في رواية أحمد بن حنبل بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ، أنّ عمر بن الخطّاب أتى النبيّ صلى الله عليه وآله بكتابٍ أصابه مِن بعض أهل الكتب، فقرأة النبيّ صلى الله عليه وآله فغضب، فقال: أمُتَهوِّكُونَ فيها يا ابنَ الخطّاب؟! والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيّة... والذي نفسي بيده، لو أنّ موسى كان حيّاً ما وَسِعَه إلّا أن يتَّبِعَني[٦].

وكان معظم مساعي هؤلاء الأشخاص نقلَ قِصص الأنبياء بشكلها المحرَّف في كتب اليهود، ويشتمل أكثرها على إساءاتٍ كثيرة إلى عصمة الأنبياء، وكذلك نقل

---

١ - نفسه: ٢٢٤.

٢ - **النقود الإسلاميّة**، للمقريزيّ: ١١.

٣ - **جامع بيان العلم** ١: ٧٢.

٤ - **بحار الأنوار** ٢: ١٠٨/ ح ١١ عن **الخصال**، للصدوق ٣٠٢ / ح ٣٣.

٥ - **الإيضاح**: ٣١١ (طبعة جامعة طهران).

٦ - **مسند أحمد** ٣: ٣٨٧.

بعض الأسس الكلاميّة والفقهيّة الخاطئة التي حوتها الكتب المذكورة. وأشرنا سابقاً إلى أنّ باب القَصص فُتِح أيّام الخليفة الثانيّ، ثمّ أخذ يتّسع في عهد عثمان متمثّلًا بنقل قصص الأنبياء عن طريق كتب اليهود، لاسيّما في تفسير الآيات القرآنيّة. وحمل معاويةُ القصّاصين على القيام بعد الصلاة، والدعاء على الإمام عليّ عليه السلام[1].

ثمّ واصل هؤلاء القصّاصون سياسة سبّ الإمام عليه السلام ولعنه [لعنهم الله] في العصر الأمويّ. وإذ شعر الملوك [أو ما يُسمّى بالخلفاء] أنّ السيطرة على القصص يجب أن تكون بأيديهم، اختلقوا الأحاديثَ التي تُوجب على القصّاص أن يمارس عمله بأمر الأمير، فنصبوا القصّاصين واستغلّوهم لأهدافهم السياسيّة والثقافيّة. وكان أهمّ عامل على نشر الأحاديث المختلَقة بين الناس هم أولئك القَصّاصين أنفسَهم الذين فاقت مكانتهم بين عوامّ الناس مكانةَ المحدّثين! ومن الطريف أنّهم، مع جميع ما لهم من المكانة والتأثير في الثقافة الدينيّة للعامّة، أعرض عنهم المحدّثون، ولم يقرّبوهم إليهم، وكانوا يقولون ما مضمونه: إذا حدّثناهم بحديثٍ شبراً جعلوه ذراعاً[2]! وكان الملوك حُماةً للقصّاصين نوعاً ما، وكما أشير، فكانوا هم الذين ينصبونهم ويعزلونهم. ومعظم قِصصهم يرتبط بالروايات القَصصيّة لأهل الكتاب... وقد استعرضنا في موضعٍ سابقٍ هذه الأمثلة والنماذج مفصّلًا[3].

الفتوحات في العهد المروانيّ حتّى أواخر القرن الأوّل

على الرغم من أنّ الفتوحات أيّام يزيد بن معاوية قد تجدّدت في بعض

---

١ - **قصّه خوانان در تاريخ اسلام** [القصّاصون في التاريخ الإسلاميّ]: ٤٦.

٢ - **قصه خوانان در تاريخ اسلام** [القصّاصون في التاريخ الإسلاميّ]: ٨٣ – ٩٦.

٣ - نفسه: ٦٥ - ٧٢.

المواطن، إلّا أنّه يمكن أن نقول: إنّها توقّفت في العقد السادس الهجريّ حتّى سنة ٧٣هـ، التي سقط فيها ابن الزبير، ثمّ سنحت الفرصة لاستئنافها في بداية حكومة عبد الملك الموحّدة، بعد هلاك ابن الزبير.

ويتسنّى لنا أن نذكر تحقّق الفتوحات في عدد من المناطق... ففتوحات الشرق كانت في منطقتين هما: ما وراء النهر، وسجستان؛ والأخرى في غرب البلاد الإسلاميّة، قسم منها في شمال أفريقيّة، والقسم الآخر في المناطق الشماليّة للعراق وسورية التي كانت تسمّى: أرمينية. ونقدّم فيما يأتي تقريراً موجزاً حول فتوحات كلّ منطقة مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف الكبير، المزيج بالملاحم العقيمة، في تاريخ هذه الفتوحات وكيفيّة نقلها.

فتوحات الشرق

بلغت الفتوحات في الشرق الإسلاميّ ذروتها بعد سقوط الإمبراطوريّة الساسانيّة أيّام خلافة عمر، بيد أنّ المسلمين الذين بدأوا الفتوحات كرسالةٍ لنشر الإسلام وإبادة الكفّار لم يكتفوا بسقوط الساسانيّين، بل واصلوا تقدّمهم حتّى خراسان الكبرى التي ينضوي نصفها اليوم إلى إيران، والباقي إلى أفغانستان وجمهوريّات آسيا الوسطى، وسرعان ما امتدّ نطاق الفتوحات إلى ما وراء النهر. وقد قاتل العرب المملكات المحلّيّة في هذه المناطق ردحاً من الزمن، وفي نهاية المطاف استطاعوا بعد سنين أن يوسّعوا رقعة البلاد في عمق المناطق المذكورة حتّى اقتربوا من الصين. ومن الجدير بالذكر أنّه مضافاً إلى حافز التوسّع الذي كان يحمله الملوك وحكّام هذه المناطق، وحافز الجهاد الذي كانت تحمله جماهير الناس على حدٍّ سواء، كان هناك حافزٌ آخر أدى دوراً مهمّاً في مقاومة المسلمين إلى جانب الحافز الأوّل، وهذا الحافز هو أخذ الغنائم.

و كانت خراسان خاضعةً للسلطة الساسانيّة يومذاك - لكنّ هذه السلطة تتقلّص - وسلطة الملوك المحلّيّين تزداد كلّما تقدّمنا إلى الشرق، وكان الفُرس ينظرون إلى أهالي تلك الديار كأتراك. وتجاوزُ الفتوحات حدودَ خراسان حفّز الفُرس على المشاركة فيها أيضاً... من هنا، كان حضور الفُرس المكثّف فيها إلى جانب العرب خلال الربع الأخير من القرن الأوّل لافتاً للنظر.

و مع أنّنا لا يمكن أن نعتبر مشاكل العرب في هذه المناطق قليلةً، لكنّ قدرتهم على هزيمة الساسانيّين الذين كانوا يُعَدّون قوّةً عظيمة، وكذلك جاذبيّة الإسلام، بخاصّةٍ معاملة المسلمين، قلّصتا حافز المقاومة عند سكّان هذه المناطق. قال البروفسور غيب: لمّا كانت سيطرة العرب تتحقّق بلا قتلٍ ولا نهبٍ غالباً، وكانوا حين يستولون على منطقةٍ من المناطق يَرضون من أهلها بدفع الجزية فقط، ويُخلونها عاجلًا، فإنّ الناس لم يُبدوا أمامهم مقاومةً تُذكَر[١].

و كانت الخلافات القائمة بين الملوك المحلّيّين عاملًا آخر في ضعف هذه المناطق، فيسّرت الأمر على العرب المسلمين أكثر.

و بدأت حملة المسلمين على ما وراء النهر أيّام معاوية، وزيادٌ الذي كان يحكم العراق أوائل العقد الخامس الهجريّ هو الذي بدأ في هذا العمل، فقد عزم على ترحيل خمسين ألفاً من عرب البصرة والكوفة مع عوائلهم إلى خراسان عام ٥١ه، لتعزيز الفتوحات هناك،[٢] وتمكينهم من مواصلتها. وكانت أهمّيّة وجود هذا العدد من العرب لتوسيع الفتوحات وتثبيت تلك المنطقة للمسلمين أمراً في غاية الوضوح والجلاء، لكنّ القضيّة لم تكن هذه وحدها فحسب، إذ قُدّر لها أن تسبّب

---

١ - **فتوحات العرب في آسيا الوسطى**: ٤١ . [هذا العنوان هو ترجمة لعنوانه الفارسيّ. وكذلك أقوال صاحبه، فإنّ عربيّها منقول عن الفارسيّة] المترجم.

٢ - **فتوح البلدان**: ٤٠٠.

كثيراً من المشاكل الثانويّة للمسلمين، وكان منها بروز الخلافات بين القبائل العربيّة نفسها، تلك الخلافات التي كانت قائمة سنين متواليةً في خراسان، ثمّ أصبحت فيما بعد منشأ لكثيرٍ من الحروب.

و تمخّض قتال مضر وربيعة في خراسان عن خلافاتٍ شديدة، وكان عبد الله بن خازم حاكماً هناك طوال عهد آل الزبير، وهو من القيسيّين، ولمّا قضى عبد الملك على ابن الزبير، طلب منه أن يبقى فيها، فأبى، فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح، الذي كان من عمّال ابن خازم في مرو، بولاية خراسان، فلبّى دعوته... ودار قتال بينه وبين ابن خازم، وانتهى بقتل الأخير، فسيطر عبد الملك على تلك الأرجاء[1].

و لمّا نصب عبدُ الله بن الزبير عبدَ الله بن خازم حاكماً على خراسان، اغتنم التُّرك الوقائع التي كانت ناشبةً بين العرب فيها، فأغاروا عليهم حتّى بلغوا قرب نيسابور[2]. واستؤنفت الوقائع بين العرب القاطنين في خراسان حتّى بعد مقتل ابن خازم، إلى أن عهد إلى الحجّاج بأمر خراسان وسجستان، فنصب المهلّب بن أبي صفرة، الذي كان ذا سوابقَ كثيرةٍ في حرب الخوارج، حاكماً على خراسان وكان ذلك سنة ٧٨هـ.. وحكم آل المهلّب (الأب وابناه: يزيد والمفضّل) خراسانَ قُرابةَ تسع سنين، إلى أن عزلهم الحجّاج بسبب بغضه لهم، وولّى مكانهم قتيبة بن مسلم [الباهليّ]، فتوجّه المهلّب سنة ٨٠ هـ، إلى خراسان عند مهاجمة منطقة كشّ، وقاتل الكفّار فيها طوال العامين اللّذين مكث فيهما هناك. ويستشفّ من خبرٍ رواه الطبريّ أنّه لم يتسنّ له توسيع الفتوحات، وكان أمله الوحيد رجوع الجند

---

١ - تاريخ الطبريّ ٥: ٢١، ٢٢؛ فتوح البلدان: ٤٠٥.

٢ - فتوح البلدان: ٤٠٤ — ٤٠٥.

إلى مرو سالمين[١].

و مات المهلّب سنة ٨٢هـ، عند رجوعه من كشّ، فنصب الحجّاج ابنَه يزيد حاكماً على خراسان بعده، وحاصر يزيد بن المهلّب سنة ٨٤هـ، أحد وجهاء الترك، الذي كان في قلعة باذغيس، فصالحه على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن، ويرتحل عنها بعياله[٢].

و في سنة ٨٥ هـ، أساء الحجّاج الظنّ بيزيد لكلام شيخٍ من أهل الكتاب فيه، فولّى أخاه المفضّل مكانه[٣]، وكان يزيد قد أدرك أنّ الهدف من هذا العمل هو تقليص نفوذ آل المهلّب فحسب، ثمّ إقصاؤهم من الساحة السياسيّة لخراسان، وللمناطق الشرقيّة. وخلال الأشهر التسعة التي كان المفضّل حاكماً فيها، هاجم باذغيس وفتحها، وحصل منها على غنائم لجنده. وكانت فتوحات آل المهلّب ليست بذي بال قياساً بفتوحات قتيبة بن مسلم، الذي دخل خراسان سنة ٨٦هـ، وهلك عبد الملك في هذه السنة أيضاً، واستخلف ابنَه الوليد ، وهو الذي تحقّق أغلب الفتوحات المهمّة في عصره، ويمكن أن يُذكِر عصرُه بالعصور الأولى للفتوحات تقريباً. وطالت فتوحات قتيبة زهاء عشر سنين ، وبذل إبّانها جهداً بالغاً للسيطرة على مدائن ما وراء النهر، سواءً الواقعة في جنوب جيحون أم في شمالها... وقد ذكر الطبريّ، والبلاذريّ في مصنّفاتهما قسماً كبيراً من هذه الفتوحات التي لا يسع هذا الموضع تحليلها ونقدها[٤].

و أعدّ البروفسور غيب الأخبار المرتبطة بهذا الموضوع وتوفّر على تقويمها في أربعة أقسام: استرجاع طخارستان (سنة ٨٦هـ)، وفتح بخارى (سنة ٨٧هـ)، وتعزيز

---

١ - **تاريخ الطبري** ٥: ١٣٩.

٢ - نفسه ٥: ١٨٦ - ١٨٧.

٣ - نفسه ٥: ١٩١.

٤ - نفسه: وقائع سنة (٨٨ هـ) إلى سنة (٩٥ هـ)؛ **فتوح البلدان**: ٤٠٩ - ٤١١.

النفوذ (سنة ٩١هـ)، وتعبئة الجيوش إلى ولايات يكسارات[١].

و توقّفت الفتوحات في هذه المناطق برهةً طويلةً بعد موت قتيبة، وإن بقيت سلطة العرب فيها. ثمّ شاع الإقبال على الإسلام تدريجاً، وأسلم بعض الملوك بدعوة عمربن عبد العزيز[٢]، فتعززت السيطرة التامّة للحكومة الأمويّة على هذه المناطق شيئاً فشيئاً.

و بلغت فتوحات قتيبة في الشرق قريباً من الصين، وأهمّها منطقة الشاش، وفرغانة، وإن مُنيت سلطة العرب هناك بتغيّرات وتبدّلات رئيسة. وجرت هذه الحروب في السنتَين الأخيرتَين من حياة قتيبة، أي سنة ٩٤ و٩٥هـ، ولمّا سمع بهلاك الحجّاج اغتمّ وترك الفتوحات، ورجع إلى مرو[٣].

و ذكر النرشخيّ أنّ المسجد الجامع في بلخ بُني سنة٩٤هـ[٤]، وهذا يدلّ على تنامي الإسلام في أمصار البلاد الإسلامية. وسُمّيت المناطق الجنوبيّة لما وراء النهر، من كابل إلى الجنوب، ومن جهة إيران، من بلاد كرمان إلى الشرق: سجستان. وذكر البلاذريّ حملتَين للعرب: إحداهما قام بها عبد الله بن أميّة؛ والأخرى نهض بها عبيد الله بن أبي بكرة، وانتهت كلتاهما بالهزيمة، إذ إنّ ملوك تلك المناطق، الذين كانوا يُسمَّون: رتبيل أو زنبيل، استطاعوا في كلّ مرّة إلحاق الهزيمة بالعرب المسلمين مستعينين بالموقع الجبليّ للمنطقة[٥]. ووجّه الحجّاج إلى سجستان جيشاً عظيماً بقيادة عبد الرحمان بن محمّد بن الأشعث سنة ٨٠هـ،

١ - **فتوحات العرب في آسيا الوسطى:** ٥٢ فما تلاها.

٢ - **فتوح البلدان:** ٤١٧ .

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٦٣.

٤ - **فتوح العرب ...:** ٦٥.

٥ - **فتوح البلدان:** ٣٩٠، ٣٩١.

وطلب زنبيل المصالحة، فأبى عبد الرحمان، وتقهقر زنبيل، فوقعت أرضٌ كبيرة من سجستان بيد العرب، كما أصابوا غنائم كثيرة.[١] واكتفى عبد الرحمان بهذا المقدار في تلك السنة، وأعلم الحجّاجَ بما عزم عليه، لكنّ الحجّاج أراد منه مواصلة الفتوحات. وإذ كان في نفسه ونفوس العراقيين شيء من الحجّاج، فقد نهضوا لمناوءته، وقد ذكرنا هذا في موضع آخر. ولجأ عبد الرحمان إلى زنبيل بعد الهزيمة، لكنّ زنبيلًا حين عقد الصلح مع الحجّاج، وكان الحجّاج قد هدّده أيضاً، بعث برأس عبد الرحمان إليه على أن تتوقّف الحرب بينهما سبع سنين أو تسعاً، وأن يدفع مبلغاً من المال أيضاً. وبعد مضيّ هذه المدّة، وجّه الحجّاج الأشهَب بن بشر إلى تلك المنطقة، فتشدّد على زنبيل، فرجع. ولمّا سيطر قتيبة بن مسلم على خراسان وسجستان، بعث أخاه عَمْراً إلى سجستان، لكنّ الهزائم السابقة للمسلمين في هذه المنطقة التي سمّاها عمرو: المشؤومة، فرضت المصالحة... وبعد ذلك، شعر زنبيل بعجز المسلمين عن الحملة عليها، لذا لم يدفع إلى الحكّام الذين جاؤوا بعد الحجّاج المبلغَ الذي كان يدفعه إليه[٢].

ويضاف إلى مناطق سجستان التي كان زنبيل مسيطراً عليها، أفلح المسلمون سنة ٩٤هـ، في التقدّم من ساحل بحر عمان تلقاء الهند، وأخضعوا قسماً منها لسلطتهم[٣]. وأوّل مدائن الهند المهمّة التي وقعت بيد المسلمين عام ٩٥هـ، هي مدينة مولتان، ومن الواضح أنّ الأرجاء الغربيّة للهند كانت تحت يد المسلمين بحجمٍ كبير آنذاك[٤].

١ - تاريخ الطبري ٥: ١٤١ - ١٤٢؛ وانظر: فتوح البلدان: ٣٩١.

٢ - فتوح البلدان: ٣٩٢.

٣- تاريخ الطبري ٥: ٢٥٧.

٤- إمبراطوريّة العرب: ٢٦٠.

فتوحات الغرب

كان فتح مصر فاتحةَ الفتوحات الإسلاميّة في أفريقية، ثمّ تلاه التغلغل في أسبانيا، وقد فُتحت مصر أواخر خلافة عمر سنة ٢٠ و٢١هـ، وفُتحت طرابلس بعدها بعامين؛ وإن لم يمكث المسلمون فيها، فرجعوا إلى برقة. وبعد ذلك، سلبت الحروب الداخليّة التي وقعت بين المسلمين قدرتهم على تحقيق فتوحاتٍ أكثر في أفريقية برهةً من الزمن.

وكان معظم حروب المسلمين في تلك المناطق مع الحكّام الذين كانوا يحكمون مصر، وأفريقية (التي تُطلق يومئذٍ على تونس الحاليّة) والمناطق الساحليّة للبحر الأبيض المتوسّط بأمر إمبراطوريّة الروم الشرقيّة. وكانت القبائل المحلّيّة التي تُسمّى البربر، من العقبات الأصليّة للفتوحات، ثمّ تدرّجت في اعتناق الإسلام بعد اتّساع نطاق الفتوحات. واستأنف عقبة بن نافع الفتوحات في هذه المنطقة أيّام معاوية، كما ذُكر ذلك سلفاً، وأسّس مدينة القيروان سنة خمسين لتكون قاعدةً لفتوحاتٍ أكثر يقوم بها العرب. وقُتل عقبة بن نافع عام ٦٤هـ، في كمينٍ نصبه له البربر، وكان قد أوغل في حملاته حتّى عمق دولة المغرب الحاليّة، قريباً من فاس، ثمّ مات بعد ذلك أثناء رجوعه.

و لمّا أخمد عبد الملك الثورات العديدة التي قامت ضدّه، وسيطر على أرجاء الأقاليم الإسلاميّة، استؤنفت الفتوحات في أفريقية سنة ٧٦هـ، وفيها بدأ الحسن بن النعمان فتوحاته بفتح قرطاجنّة، ثمّ تقدّم تلقاء المغرب. وفي الوقت نفسه احتلّ الروم المدينة المذكورة، ثمّ استرجعها الحسن منهم نزلة أخرى بعد سنين مضت (سنة ٧٩هـ)، وأبادها كلّها؛ لئلّا يجد الروم مجالًا للتوغّل فيها ثانيةً. واتّحد البربر هذه المرّة برئاسة امرأة اشتهرت «بكاهنة»، وتمرّدوا على العرب، وأجلوا المسلمين حتّى عمق الفتوحات الأولى، ثمّ هُزمت كاهنة والبربر في منطقة طبرجة بعد مرور

خمس سنين فقط، أي في سنة ٨٣هـ.

و امتداداً لفتوحات الحسن بن النعمان، بدأ موسى بن نصير فتوحاته في منطقة أفريقية سنة ٨٦هـ، فأخضع المغرب الحاليّة (أو مراكش) لسلطته. وفي هذه الآونة تدرّج البربر في الإقبال على الإسلام، وتمهّدت الأمور لاستقرار العرب الحقيقيّ في أرجاء السواحل الشماليّة لأفريقية[1]. وكان عبد الملك بن مروان سلطان المسلمين حتّى هذا الحين، ثمّ حكم ابنُه الوليد بعده، ففاقت مساعيه في الفتوحات مَن سبقه مِن الملوك، وكانت الفتوحات العظيمة في عهده على ما عبّر السيوطيّ.

و كان من القادة المعروفين في جيش موسى بن نصير: طارق بن زياد الذي قيل: إنّه كان من البربر، وإن دلّ اسم أبيه على أنّه كان ممّن أسلم قبل ذلك الحين بمدّة وقد استطاع طارق بما أوتي من كفاءةٍ قياديّة عالية أن يسير من أقصى شمال أفريقيّة حتّى الأندلس (أسبانيا)، فقاد المسلمين إليها لأوّل مرّة، وكان هذا الفتح عام ٩٣هـ، ثمّ توجّه موسى بن نصير إلى الأندلس بعد سنةٍ تصرّمت، فانهمك هناك في الفتوحات التي شملت: طُلَيطلة، وماردة، وغيرهما. واستسلم كثير من هذه المدائن للمسلمين بلا قتال، وهكذا خضعت الأندلس لسطلة العرب المسلمين.

و عندما هلك الوليد سنة ٩٧هـ، وحكم سليمان بعده، عاد موسى إلى دمشق، فغضب عليه الجهاز الأمويّ، وكان يأمل طامحاً في مواصلة فتوحاته من الأندلس إلى إيطاليا وفرنسا، ومنها إلى اليونان والقسطنطينيّة، لكنّ موت الوليد وعزله، أبقَيا العرب في الأندلس، ثمّ سلّموها إلى الأوربيّين أيضاً بعد قرون مضت.

و من المناطق الأخرى التي بدأت فيها الفتوحات أيّام عمر واشتدّت فيها الحروب أواخر القرن الأوّل: أرمينيَة، وكان المسلمون يُسمّون منطقةً واسعةً:

---

١ - **إمبراطوريّة العرب**: ٢١٤.

أرمينية... وقد قسّم البلاذريّ أرمينية إلى أربعة أقسام تشتمل على مدن: شِمشاط، وقاليقَلا، وبَسْفُرجان، ودُبَيل، وجُرزان، وسيسجان. وكان القسم الشرقيّ منها في أيدي الخزر، والقسم الغربيّ في أيدي الروم البيزنطيّين وعاصمته القسطنطينيّة[١].

وهاجم حبيب بن مسلمة الفهريّ قاليقلا في عهد عثمان، واستولى عليها واكتفى من أهلها بأخذ الجزية في معاهدةٍ عُقدت بينهما[٢]، وفتح حبيب هذا أيضاً مدينة تفليس التي كانت في القسم الشرقيّ من أرمينية. وحين نشب القتال بين عبد الملك وابن الزبير، استغلّ سكّان هذه المناطق ضعف ابن الزبير والمروانيّين فثاروا على الحكومة، ثمّ قُمعت ثورتهم بعد حين، وأصبحت إدارتها بيد الحكّام الأمويّين.[٣] وكذلك شنّت حملات كثيرة جدّاً على الأراضي المركزيّة للروم في عهد الوليد، وسليمان... ووصلت هذه الحملات إلى بوّابات القسطنطينيّة، بيدَ أنّ المسلمين لم يُفلحوا في فتحها.

وجملة الكلام، يمكننا أن نقول: إنّ عظمة المسلمين الأولى قد دُمّرت منذ أواخر القرن الأوّل. وحَيِيَتْ حملات الروم... واستمرّ هذا التفوّق في القرن الثاني أيضاً، ألّا أنّهم لم يستطيعوا أن يقضوا على الروم الشرقيّة قضاءً تامّاً قطّ، وقد تحقّق هذا العمل أيّام الحكومة العثمانيّة في القرن العاشر الهجريّ.

---

١ - فتوح البلدان: ١٩٧.

٢ - نفسه: ٢٠٣.

٣ - نفسه: ٢٠٧ - ٢٠٨.

الفهرس

الفصل السادس: ملكيّة معاوية (٣-٦٢)

معاوية مؤسّس النظام المَلَكيّ للأمويّين ٥ • الشيعة في عصر معاوية ٢٢ • قمع الحركة الشيعيّة لحجر بن عَدِيّ ٣٤ • صدى شهادة حُجْر ٤١ • الفتوحات في عهد معاوية ٤٣ • الخوارج في عهد معاوية ٤٥ • معاوية و وراثة الحكم ٥٢

الفصل السابع: نهضة كربلاء ونتائجها (٦٣-٢١٢)

سيرة الإمام الحسين عليه السلام ٦٥ • الإمام الحسين عليه السلام والأمويّون قبل وقعة كربلاء ٦٩ • بدء حكومة يزيد ٧٦ • بداية تحرّك الشيعة بالكوفة ودعوتهم الإمام عليه السلام ٨١ • مسير مسلم بن عقيل عليه السلام إلى الكوفة ومآله ٨٥ • مسير الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة وما حدث له في الطريق ٨٩ • الكوفة بعد شهادة مسلم ٩٩ • أوّل لقاء للإمام الحسين عليه السلام لجيش ابن زياد ١٠١ • الإقامة الجبريّة في كربلاء وتعبئة القوّات في الكوفة ١٠٧ • المحاججات بين عمر بن سعد والإمام الحسين عليه السلام ١١١ • الشيعة في الكوفة إبّان هذه البرهة ١١٥ • بداية التشدّد في كربلاء منذ السابع من المحرّم ١١٧ • عسكرُ الإمام عليه السلام ليلة عاشوراء ١٢٣ • غَداة يوم عاشوراء ومخاطبة الإمام عليه السلام عسكرَ الأعداء ١٢٧ • بداية القتال وإنابة الحرّ ١٣٣ • منازلة العسكرَين ١٣٨ • ظهر عاشوراء واستشهاد حبيب والصلاة الأخيرة ١٤٤ • آخر الشهداء من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ١٤٧ • دخول أهل البيت عليهم السلام ساحة القتال وشهادتهم ١٥٤ • شهادة الإمام الحسين عليه السلام ١٧٠ • العدوّ ينهب وأهل البيت عليهم السلام سبايا! ١٧٧ • رأس الإمام الحسين عليه السلام وسبايا أهل البيت في الشام ١٨٧ • تقويم السفر إلى العراق ١٩٣ • العلم بالشهادة في كربلاء ٢٠٢ • الانحرافات الدينيّة وكربلاء ٢٠٥ • التبعات السياسيّة لواقعة كربلاء في المجتمع الشيعيّ ٢١٠

الفصل الثامن: انتقال الحكم من آل سفيان إلى آل مروان ٢١٣ـ٢٥٤)

نزاع الحجاز والشام ٢١٥ • واقعة حَرّة واقم (٦٣هـ) ٢١٦ • حركة التّوابين (٦٥هـ) ٢٢٤ • ثورة المختار (سنة ٦٦ - ٦٧هـ) ٢٣٥

الفصل التاسع: الإمام السجّاد عليه السلام (٢٥٥ـ٢٩٢)

الإمام السجّاد عليه السلام ٢٥٧ • الإمام السجّاد عليه السلام والشيعة ٢٦٧ • مواقف الإمام السجّاد عليه السلام من الأمويّين ٢٧٣ • استثمار الإمام السجّاد عليه السلام للدعاء ٢٧٧ • الإمام السجّاد عليه السلام والعبيد ٢٨٢ • بنو هاشم بعد واقعة كربلاء ٢٨٤

الفصل العاشر: حكومة بني مروان (٢٩٣ـ٣٤٨)

حكومة بني مروان ٢٩٥ • الحجّاج في العراق ٣٠٣ • ثورة عبد الرحمان بن الأشعث ٣١٠ • حكومة عمر بن عبد العزيز ٣١٥ • حكومة يزيد بن عبد الملك ٣٢٦ • تمرّد يزيد بن المهلّب ٣٢٩ • حكومة هشام بن عبد الملك ٣٣٣ • ثورات الخوارج في عصر المروانيّين ٣٣٧ • اتّساق عقائد الخوارج ٣٤٥

الفصل الحادي عشر: الشيعة في العقود الأخيرة من الحكم الأمويّ (٣٤٩ ـ ٤٣٦)

الشيعة تحت وطأة الأمويّين ٣٥١ • الحركات الداخليّة للشيعة ٣٥٦ • حراك الغلوّ والغلاة ٣٥٧ • جهاد الأئمّة للغلوّ ٣٦٠ • التشيّع في تفضيل الإمام عليّ عليه السلام ٣٦٩ • ثورة زيد بن عليّ والمذهب الزيديّ في الشيعة ٣٨٠ • زيد بن عليّ عليه السلام في الكوفة ٣٨٤ • قتال زيد بن عليّ للقوّات الأمويّة ٣٩١ • زيد بن عليّ عليه السلام والزيديّة والإماميّة ٣٩٨ • الشيعة الإماميّة وزيد ٤٠٨ • ثورة يحيى بن زيد ٤٢٣ • حركة عبد الله بن معاوية ٤٢٧ • الوضع الأخير للشيعة والعلويّين في العهد الأمويّ ٤٣٣

الفصل الثاني عشر الحكومة المروانيّة نحو الأفول (٤٣٧ ـ ٥٠٢)

خروج الحارث بن سريج في خراسان ٤٣٩ • المرجئة والجهميّة في ثورة الحارث ٤٤٥ • حكومة الوليد بن يزيد ذُروة الفساد بين الأمويّين ٤٤٨ • نهضة يزيد بن الوليد ٤٥١ • تبعات قتل الوليد على الحكم الأمويّ وزواله ٤٥٧ • مروان بن محمّد وزوال الحكم الأمويّ ٤٥٩ • الآراء السياسيّة للمروانيّين ٤٦٥ • العلماء في خدمة بني مروان ٤٨٠ • بثّ الإسرائيليّات وانتشار القصص! ٤٨٦ • الفتوحات في العهد المروانيّ حتّى أواخر القرن الأوّل ٤٩٣ • فتوحات الشرق ٤٩٤ • فتوحات الغرب ٥٠٠